من أشعة الأيمان

الجزء العاشر

العقل البشري في تفسير القرآن الكريم

آية الله العظمى الشيخ
محمد طاهر آل شبير الخاقاني

شبكة الفكر
alfeker.net



العقل البشري

في

تفسير القرآن الكريم



تأليف

آية الله العظمى الشيخ

محمد طاهر آل شبير الخاقاني قدس سره

موسوعة الخاقاني (٢)
العقل البشري في تفسير القرآن
آية الله العظمى الشيخ محمّد طاهر آل شبير الخاقاني دام ظله
▣ الناشر: باقيات
▣ المطبعة: وفا
▣ الطبعة: الاولى ـ ١٤٢٩ هـ.ق
▣ الكميّة: ١٠٠٠ نسخة
▣ شابك : ٣ـ٢٧ـ٥١٢٦ـ٦٠٠ـ٩٧٨
▣ شابك الدورة: ٤ـ١٧ـ٥١٢٦ـ٦٠٠ـ٩٧٨
«كافة حقوق الطبع محفوظة و مسجلة»

باقيات (للطباعة والنشر)، ايران، قم، شارع معلم، رقم ٤٤ ـ هاتف: ٧٧٤٣٩٠٠ (٠٢٥١) جوال: ٥٦٢٥ ٢٥٢ ٠٩١٢


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله حمداً يقوم بشأنه، وبجلال عظمته احمده حمد عبد معترف بقصور ذاته عن القيام بحمده واشكره على نعمه وآلائه واستعينه بالصبر على بلائه، وافضل صلاة وتحية على اشرف الكائنات ومنتهى وجود الممكنات محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وآله الاولياء المعصومين عليهم السلام واصحابه المنتجبين.

اما بعد فقد، كانت تحدثني نفسي، بان اكتب تفسيراً مفصلا في بيان القرآن، وتدفع هذه الفكرة، ان القرآن الكريم، لما كان هو منتهى التشريع، وغايته هو الكتاب الّذي يطابق الكتاب التكويني وهو ذات الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ومعرفة مثل هذا الكتاب، مما يقصر عنه نطاق الانسانية، والمعارف البشرية.

وان القرآن، وان لم تحط العقول بمعرفته، ولا الافهام بتفسيرة، الا انه من باب لا يسقط الميسور بالمعسور وان يفسر بمقدار ادراك العقول والافهام.

ولما كانت النظرة الى القرآن الكريم، الى اتجاهات، الاتجاه الأوّل: هو الاتجاه الى فهمه، بحسب بلاغته واعجازه وثانياً: الاتجاه الى فلسفته وعرفانه واقتصاره، وثالثا: الاتجاه الى، تفسيره عن النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام واصحابه الاخيار، ورابعاً: الاتجاه الى ان القرآن يفسر بعضه بعضاً.

فأخذنا هذه الاتجاهات كلا على حدة، لينقل الباحث، الى بلاغته واعجازه في لغة العرب. والى فلسفته وعرفانه واجتماعه، والى البيان الوارد عن الرسول صلى الله عليه وآله وعن آله

المعصومين عليهم السلام واصحابه رضي الله عنهم في تفسيره من طرق الخاصة والعامة، والى تفسير الآيات بعضها ببعض.

واما تأويلاته، فباب اغلق علىٰ البشر، وموكول معرفته الى من انزل عليه صلى الله عليه وآله.

فالقرآن الكريم لا تصله العقول،وانما تصل اليه بمقدار ما تدركه عقول البشر، فالتفسير والتأويل الّذي يريده الرسول صلى الله عليه وآله عليهم السلام ، على الوجه الاكمل، مما لا يسع البشر الوصول اليه، فنقول وبالله الثقة وعليه نتوكل وبه نستعين.

اعجاز القرآن

اعجاز القرآن عين التشريع

اعلم ايها القارى، ان البحوث حول هدف القرآن، وعن اتجاهاته الّتي يقصدها، من حقيقة ما جاءت به رسالة السماء.

إن القرآن هو المعجزة الخالدة، لهذا الرسول الكريم ﷺ وقد بلغ القرآن منتهى الاعجاز، ولم يسبق بأيّ كتاب سماويّ، في اهدافه ومقاصده، وما جاء في تاريخ الإنسانية، وفي عصور البشرية مثله.

قد جاء القرآن الكريم، لهدف اصلاح العالم والبشرية، في هذه النشاة، وفي النشأة الآخرة، ومن خصوصيات هذا الكتاب، وخصوصيات من جاء به وهو النبي الكريم ﷺ بأن كان اعجاز القرآن عين التشريع، ليبقى معجزة خالدة مادام الدهر على ممر العصور والاجيال.

وحينما جاء موسى او عيسى عليهما السلام، فكانت دعوة موسى للنبوة على جانب، والتشريع على جانب آخر، لإثبات نبوّته، من طريق العصا، وإنفلاق البحر، واعجاز السحرة، ونحو ذلك، وكان تشريعه غير دعواه للنبوة، فجاء بالألواح الّتي يعبر عنها بالتوراة، فالتشريع الّذي جاء به موسى عليه السلام معنى واثبات النبوة معنى آخر، اثبت نبوته بالعصا وانفلاق البحر ونحو ذلك، وجاء بالتوراة لتبليغ الأحكام الى امة بني اسرائيل، فالدعوة المثبتة للنبوّة غير التشريع.

وهكذا اذا نظرنا الى عيسى عليه السلام، نجد اثبات النبوّة، لم يأت من طريق وجهة التشريع، بل جاءت من طريق آخر، فدعواه للنبوة بإحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص.

اما التشريع الّذي جاء به، فهو الانجيل الّذي بأيدي النصّارى، وقد كتب بعد عروجه

الى السماء، من اشخاص مختلفين، وربما كان بعضها يناقض بعضاً، والبعض يصادم الآخر، ولّما جاء هذا النبي الكريم، فهووان جاء ببعض المعاجز، الا ان المعجزة الخالدة هي عين التشريع، لتبقى مادام البشر موجوداً على هذا الكوكب.

وبهذا الكتاب الكريم، تثبت معجزة المعراج، وانشقاق القمر، وعلى ما بيّناه فتكون معاجز الأنبياء في إثبات نبّوتهم، من باب قصص تاريخية، وامور لا يثبتها الا التاريخ.

اما اعجاز هذا النبي الكريم ﷺ حيث كان اعجازه عين تشريعه، فكل من طلب الهداية، كان الطريق مفتوحاً له بمصراعيه، وكفى بالقرآن معجزة وهداية لمن يهتدى.

اعجاز القرآن لا يختص بالبلاغة والفصاحة

ان اعجاز القرآن لم يكن من ناحية البلاغة والفصاحة فقط، وان كان في منتهى البلاغة والفصاحة، ولكن ليس الاعجاز منحصراً في البلاغة والفصاحة.

فالقرآن جاء بالاعجاز من نواح متعددة، من ناحية كشفه للغيب، ومن ناحية جمعه للاخلاق الفاضلة، ومن ناحية قواعده ونظامه، ومن ناحية عبره وامثاله، ومن ناحية علم الاجتماع ومن ناحية الإقتصاد، ومن ناحية علم الطبيعة، ومن حيث السيروالسلوك.

فكلّ الأمم تؤمن به من جميع نواحيه، الا من ناحية فصاحة وبلاغته، حيث لا يعرفون اللغة العربية، وان كانو جازمين باعجازه من حيث الفصاحة والبلاغة.

فالقرآن تؤمن به الأمم الأخرى، حيث أنّهم يرون اعجازه في الاجتماع، وفي علم النفس والطبيعة. وفي الاقتصاد والاخلاق، فاخرس الأمم من هذه النواحي كلّها، فاذاً لا بدّ أن يكون القرآن معجزة الدهور لامن ناحية واحدة والا لقال قائل من اعجمي او تركي او شرقي او غربي، ان هذا الكتاب قد جاء بلغة العرب، وانّي لا افهمها، وهذا وان كان مردوداً، حيث ان العرب عجزوا عن مقاومة القرآن، ولكن الواقع ان القرآن غير مخصوص بلغة العرب، فهو اعجاز عام، شامل لنطاق الحياة في الدنيا والاخرة.

ولذا قد خضعت الامم للقرآن لإعجازه لنواح شتّى، ولعلّ القرآن الكريم، قد اشار الى تعدد اعجازه، وان الهدف منه ان يكون نظاماً عاماً للبشرية.

التشريع والتكوين

ان التشريع ورسالة السماء، من القرآن الكريم، لا بدان تطابق نفسية من أرسل إليه، لأنّ الرسالة لو كانت ابلغ واسمى من نفسية النبيﷺ لكانت رسالة الى شخصية لا تطابقه، ولما كان القرآن الكريم جامعاً لحياة البشرية، من نظام واحكام واجتماع واقتصاد وتربية للنفوس وهو فوق كل تشريع سماويّ جاء لنفسية هي منتهى الكمال في وجود الممكنات وان الحكيم سبحانه لابد ان يطابق كل تشريع لنفسية ذلك النبي، الّذي يوجه اليه التشريع، ولو كان التشريع أقلّ من نفسية النبي، لأصبح الكتاب. يشبه كتاب لشخصية عالمية مهمة، بعبارات اقل من منزلته وبعبارات اقل من شخصيّته، تناسب الشخصية الضعيفة، ولا تناسب الشخصية العظيمة كما انه لابد ان تكون الشخصية مطابقة لتلك الرسالة المهمة.

فاذاً لابد ان يحصل التطابق، بين شخصية الكتاب، وشخصية النبي ﷺ وعند ما كانت شخصيته في عالم التكوين والوجود هي اعظم شخصية بشرية عالمية في عالم الأرض وعالم السماء، وجب أن يكون الوحي والحاكي من التشريع يطابق شخصية النبي، تطابق الحاكي مع المحكي والرائي مع المرئي، ولا تطابق الا اذا كان القرآن مرآة لنفسية ذلك الرسول وحاكياً عن شخصيته في جميع الكمالات والمنازل.

فالنبى ﷺ اكمل دائرة التكوين والوجود في عالم الممكنات والكتاب اكمل وجود في عالم التشريع والتدوين، فكما ان وجوده التكويني أعظم وجود فالكتاب التشريعي أعظم تشريع ولابد ان يكون أتّم نظام في العصور، ولم يسبقه سابق، ولا يلحقه لاحق، ولذا كان القرآن أكبر معجزة لحكاية نفسية النبي ﷺ كاملا.

ومن هنا يتضح لك ان هذا الكتاب ليس في نظام التوراة أو الانجيل، او صحف

ابراهيم ونوح عليهما السلام، او زبور داود، حيث ان نفسية الانبياء عليهم السلام، وان كان بعضهم من ذوي العزم، وبعضهم من ذوي الشرايع العامة، ولكن نفسية اولئك الأنبياء والرسل أقلّ من نفسية هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وآله في العلم والعمل، في الفلسفة النظرية والفلسفة العلمية، وان هذا التشريع السماوي، ورسالة الانبياء اوجها، بعث هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وآله وهذا القرآن الكريم لهداية الأمم.

رسالة النبي الكريم صلى الله عليه وآله هي منتهى الرسالات

رسالة هذا النبي صلى الله عليه وآله هي منتهى الرسالات السماوية، وذلك عند ما تكاملت عقول البشرية، وانتهت الطبيعة في تكامل الانسان، وبلغت الغرائز والجبلات منتهى اوج التفكير والتعقل للامور الوجدانية والعقلية جاء هذا النبي الكريم صلى الله عليه وآله في هذا الدور، وحينئذ لا بدّ أن تقع رسالته في أوج كمال العقل والعلم لتصل البشرية في هدايتها اوج السعادة وتمام الكمال، فما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله هو غاية التشريع الّذي ليس فوقه تشريع، ونهاية النهج الإلّهى الّذي ليس فوقه تشريع، واذا كانت رسالته ليس وراءها رسالة، ودعوته ليس وراءها دعوة، كانت أمّته خير الأمم، وقد جاء هذا الرسول الكريم بمنتهى التشريع، ليصل البشر الى واقعيات الامور، واوج الكمال، ويصل الى اسرار الامور.

ولما كان الهدف من الشارع، ان لا تقع رسالة بعد هذه الرسالة، ولا رسول بعد هذا الرسول، فلا بدان يكون كتابه منتهى الكتب، ووجوده غاية الوجود الامكاني وتشريعه أوج التشريع السماوي، وأمّته خير الأمم، اذا نهجوا منهاجه وعملوا بسيرته واخذوا بآثاره وآثار اهل بيته المعصومين عليهم السلام واصحابه المنتجبين (رضوان الله عليهم).

وقد جاء الغيب، في هذا القرآن، كما انه في سورة النصر ﴿اذا جاء نصرالله والفتح﴾[1] بكى العباس عمّ النبي صلى الله عليه وآله فقال له النبي صلى الله عليه وآله: ما يبكيك ياعم، فاجاب: انه قد نعيت اليك نفسك، قال: صدقت، ولكن كيف فهمت ذلك، قال: لانه اذا تمّ شيء بدا نقصه، قال: صدقت فانه نعيت اليّ نفسي في هذه السنة.

ولما جاء النبي الى المواقيت كما يشهد القرآن الكريم، في تعيين المواقيت وحددها الرسول صلى الله عليه وآله، كمسجد الشجرة والطائف ووادي العقيق وجحفة، قال المنافقون: متى تمت

١. النصر - ١ / ٣٠

دعوته في الحجاز حتى اصبح يقول، هذا ميقات العراق وفارس وهذا ميقات الهند وهذا ميقات الحجاز، وهذا ميقات الشام، ومتى تمت دعوته حتى حكم بهذه الامور، فاخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: دعوهم ما تمّر الأيام والليالي والاّ يرون صدق ما اقول، فقال: ولم يختلف قوله وحكمه.

كل انسان يجوز في نفسه الخلاف والخطاء، ولو في واحد بالمئة، لا يحكم على الشيء بضرس قاطع، كما هو المشاهد في الاخبارات المحتملة للواقع وخلاف الواقع.

الا ترى ان رجال الاعمال، لواحتملوا واحدا بالمئة ماتمكن أحدهم ان يقول بالجزم بالعمل، لتجويزه بالخلاف والخطاء ولم يكن الرسول ﷺ عنده أيّ احتمال بالخلاف. في تعيين المواقيت انظر الى آية الروم حيث جاءت «الَم غلبت الروم في أدنىٰ الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين»[1] وغلبوا كما ذكر، جاء الفتح على ايديهم.

فالقرآن الكريم مملوء بالقضايا الغيبيه واذا نظرت الى ناحية اخرى وجدته قد أسّس علم الاخلاق، فكم من كاتب كتب في عالم الاخلاق في مجلد او مجلدات ولكن اذا نظرت الى سورة «الحجرات» وسوره «لقمان» تجدان كل ما كتبه الكتّاب في تأسيس علم الاخلاق، دوّن في سورة «الحجرات» وسورة «لقمان» على صغرها.

انظر الى آداب القرآن مع الانبياء، حيث يقول: «وكلم الله موسى تكليما»، ويقول: «وقربناه نجيا»، و« نعم العبدانه أوّاب».

فانظر الى عظمة الخالق وشأنه، كيف لا يبخس حق الانبياء ويخاطبهم بكمال الآداب، وهذا ليس الاكتاب تعليمي وتربية للأمّة الإسلامية وكافة البشر وتمرينهم على هذه الآداب، وهو نظام للبشرية عامة، مخاطبا لهم ان تكون آدابهم بهذه الآداب وأنّه لا يخاطب نبيّاً من الانبياء، إلاّ بتمام الآداب والخلق الكريم، وهذا إلفات للنظر، بأن يكون خطاب الناس بعضهم من بعض بآداب القرآن.

الاسلام لم يأتِ بثقل على عاتق البشريّة

إنّ الدين الاسلامي الحنيف لم يأت بثقل على كاهل البشريّة، بل تلك الفضائل النفسية، الّتي ينطوى الانسان عليها، وتحملها النفس، من علم واخلاص، وتقوى وايمان

١. الروم ٣/ج ٣٠

وصبر وشكر وصدق وامانة وشجاعة وكرم وعفة وآداب وتواضع وتوكل وتفويض ووفاء وتسليم الى الله ومحبة اليه، فقد جعلها الشارع المقدس احكاماً للبشرية، وابرزها الاسلام ديناً فما جاء بثقل واضرار، على كاهل الانسان ليوجب الثقل والتكليف الشاق.

بل هي فضائل النفس أتى بها تشريعاً ونظاماً، وكرمها عن الشهوات والميول والعواطف الّتي تذهب تلك الفضائل وتغيرها عن استقامتها فان في النفس فضائل جمة، من الصدق والوفاء والامانه، والخوف والرجاء والشكر. والصبر والاخلاص والمودة، والتوكل والتفويض والمحبة والشوق، والرأفة والاحسان، كلها من حالات النفس ابرزها الشارع احكاماً ومنهاجاً للبشرية، فما في نفسك قد أبداه برسوم التكليف والتشريع، فستنك ايها الانسان من نفسك، ونظامك من عقلك.

وان تلك الفضائل والآثار والارادات والخلوص قد ابرزها دينا للمسلم، وجعلها القرآن هي الهدف من الرسالة، وبعثة الانبياء واذا ظهرت تلك الفضائل واستحكمت تلك المناقب، كان الانسان خلفية الله في ارضه ومثاله في هذا العالم، وفاق على الموجودات، حتى على الملائكة، حيث ان طاعة ابن آدم طاعة اختيار ورغبة.

وما كان الله ليجبره على عمله، ولا يأخذ على يده فهو الصفوة من المخلوقين وهو المتخلق باخلاق الله والدائم بدوامه، واذا انعكس الفرض، بان لم تتمثل تلك الفضايل في نفسه، ولا تلك الملكات منطبعة بضميره، فيكون شّر الموجودات، دأبه الكذب والخيانة والتمّرد والطغيان.

ولكن الله اراد به خيراً، وجعل تلك الغرائز نظاماً له، وحكماً فوق غرائزه وبعثة انبيائه ورسله، العقل السليم، ليكبت تلك الرذائل النفسية والملكات الرديئة ويهتدي بنور الايمان، ولطائف القرآن، ويصل الى مراتب الانبياء والابرار من عباده، وفّقنا الله وإيّاكم لمراضيه.

التشريع الاسلامي يدعو الى العدل والاحسان

ان القرآن يأتى بعبارة موجزة، ماقام عدل في امة ولا كرامة في قطر، الا في اعتناق قاعدتين، اذا جمع العبد بينهما، تحقق كل كمال، واذا قام العدل فيها، ولم يقم الاحسان، كانت حياتهما مضطربة، تعيش في صعوبة وعناء وان لم يكن هنا ظلم ولا جور.

والقرآن الكريم يلفت انظار الامم لقاعدتين وهما، قاعدة العدل وقاعدة الاحسان

«ان الله يامر بالعدل والاحسان».

فيأمر القرآن بالقاعدتين مدى الحياة، فقاعدة العدل ترفع الظلم والجور، وقاعدة الاحسان تثبت الشفقة والرحمة، والعطف بين الامة، حيث يقول تعالى «هل جزاء الاحسان الا الاحسان».

إنّ الله احسن اليك في ايجادك، جسمك وعقلك جبلتك، وبروح تسيّرك على هذا الكواكب فهواحسان ملك قادر عطوف رحيم، فما جزاء احسانه الا الإحسان، وهل هناك احسان على الله جل وعلا، كلا، بل انما ارادمنهم الطاعة، ويعود نفعها اليهم، وقد عاد النفع والطاعة احساناً من العبد عليه، ولم يقل تعالى أناربكم على رغم آنافكم، ولا انا مولاكم بالقهر عليكم، والا ارغمتكم، ولم يخاطب عباده بهذا الخطاب الجاف الّذي يخاطب به بعض الناس بعضاً بهذا اللسان، بل قال: «وما جزاء الاحسان الا الاحسان»[1] حيث تتقلب النفوس في نعم الله مدى الحياة بجسم صحيح وعقل مستقيم ونَعِم وافرة وكرامات قيّمة مما شاهدها الإنسان في بيته وفي اصدقائه أحبّائه الى غير ذلك من النعم الّتي يشاهدها الانسان في وطنه فما قال: إنّي انعمت عليك بهذه النعم وانت مرغم في طاعتي وحوّل الامر الى العبد في الاختيار بالطاعة والعصيان بل عبّر تعالى بكمال الآداب.

فالكتاب دراسة تعليم واخلاق، وعلى الدوام فالقرآن يؤكد هاتين القاعدتين وكثيراً ما يعبر القرآن الكريم بقوله: «افلا يتفكرون» «افلا يتدبرون»، فتجد على ممّر الكتاب ينبه الانسان عن غفلته وسنة النوم في عقله فيدرك الانسان الشيء على وجه البرهان وتارة يدركه بحاسّة الضمير والوجدان.

وهاتان القاعدتان أعني: «برهان العدل والاحسان» هما ميزان التوحيد والنبّوة هما ميزان العمل الصالح، ميزان الصدق والامانه، ميزان الدين والتقوى، ميزان الاجتماع والإقتصاد، ميزان التكامل والاخلاق.

فجاء القرآن يؤكد هذا المعنى وعبّر عن ذلك «افلا يتفكرون -افلا يتدبرون» فجعل من نفسك لنفسك دليلا ولولاالعقل والجهاز البشري للإنسان ما عرف الانسان التوحيد وما عرفت النبّوات والرسالات ولولا هذا الجهاز العقلي ما عرف الصحيح من السقيم ولا الضارّ من النافع ولا انتشرت دعوة الأنبياء.

---

١. الرّحمن ٢٧/٦٠

فاذا قامت على الدعوى جذور العلم او على حكومة الوجدان والضمير كان الامر محكماً وإلاّ فهو باطل لأنّ المراد ان تقوم جذور الدعوة على العلم والبرهان اذ لولا ذلك لقبلت دعوة كل مدع.

اذاً فالضابط ان يقيم الانسان على مطلوبه البرهان والا كان مناقضاً لدعواه،وهل يمكن ان يقول قائل باجتماع الضدين او النقيضين، كالوجود والعدم، او شيء يتدرج في الوجود، وليس له نهاية، اذ لا بدّ أن يقف الباحث، على نقطة في آخر الخط.

فلو أنّ خطاً تخيل لك ان لا ينتهي الى نقطة، اكنت تصدق ذلك، كلا، بل تقول، هذا تسلسل، وهذا امر غير مقبول وباطل.

وحينئذ البرهان العقلي، دليل يعبّر عنه العقل في موارده باجتماع الضّدين او النقيضين او المثلين او الدور او التسلسل،وهذا ما نسمّيه برهاناً عقلياً، وآخر نسمّيه بالعقل الوجداني، مثلا اذا وجدت رجلا احسن الى آخر، فكان الآخر، لا يحسن صحبته، تقول لم يجار هذا باحسانه، اما اذا بادر كل منهما بالاحسان، فتقول، جزاء الاحسان هو الاحسان،فهذه احكام وجدانية عقلية.

واما اذا أتى شخص قد ضرب من غير سبب ارتكبه فتقول جاءه الضرر، وهو غير مستحّق له، واذا رأيت رجلا لا يحترم آخر ويهينه في المحافل، فتقول هذا ظلم وجور.

فما هذه الاحكام إلا ادراكات العقل الوجداني وحس الضمير بالاشياء عند التصور.

فالعقل له حكومتان،حكومة استدلالية برهانية وحكومة وجدانية، ولذا يقال: اذا لم يكن عندك ضمير، أي ليس عندك النور الإلّهى والموهبة الخاصة فليس لك موهبه وجدانية، ولا ادراك ضمير.

اما اذا قام البرهان والاستدلال، فيقال: هذا الامر استدلالي. وثانياً: كلّ تشريع في ملة ودين، ان لم يعضد ببرهان عقلي او حكم وجداني، فاقرء لذلك التشريع الفاتحة.

ولذا عرفنا الموجد الخالق بالعقل وعرفنا النبوّة والمعاد بالعقل.

نعم تخرج عن نطاق العقل ويتخلف ما يصطلح عليه الفقهاء بالأمور التعبدية فأنّ العقل البشريّ لا يدركها فكيف يدرك العقل لصلاة الصبح ركعتين وللظهر أربع والمغرب ثلاث وهكذا وكيف يدرك الهرولة بين الصفا والمروة والطواف حول البيت والإحرام والوقوف في عرفات والمشعر ورمي الجمرات في منى الى غير ذلك فأنّها تعبّدية وليست

تحت حكم العقل برهاناً او وجداناً.

والعقل يدرك التوحيد والموجد ويدرك الإحتياج الى النبوّات والرسل نعم يدرك ان هناك عالم مصالح وفاسد واذا جزم بالمصلحة والمفسدة اذا خاطبة المولى بالوجوب او الترك جزم بالطاعة والانقياد إذ العالم بالغيوب وهو الله هو المطّلع على المفاسد والمصالح وهو الحاكم بالتشريع.

ألا فانظر اذا كنت مريضاً وراجعت الطبيب الحاذق وعيَّن ذلك الدواء فلا يحسن لك ان تقول كيف تركب الدواء وكيف يستعمل لهذا المرض فتناقش الطبيب بالمرض او العلاج ولا يسعك ان تقول هذا دوائي دون ذاك ولا يصح ان تقول للطّبيب ان علاجي في هذا الدواء الخاص حيث ان المريض لا يعرف المرض ولا يعرف كيفية العلاج ولا يصح لك ان تقول كيف ركّبت أجزاء الدواء.

نعم يدرك العقل بوجدانه وضميره ان لا يخون الامانة ولا يكذب في القول وان لا يذيع السر فان هذه الامور مما يحكم فيها العقل ويدركها وشرعتها الأديان.

حيث ان هذه الامور قد جاء التكليف على طبقها وهي على وفق النظام النفسي والاجتماعي، في جميع المعاملات قائمة بالوجدان والضمير، كمعاملات البيع والشراء والشركات والمضاربة، والأوقاف، والوصايا.

وكل هذه الامور بالأمانة، والأمانة شيء يحكم العقل بأدائها وحفظها فضلا عن الشارع المقدس.

وبكلمة موجزة، إنّ الأديان جميعاً، تؤكد هذا المعنى.

اعجاز القرآن

القرآن معجزة الدهور، واعجاز من نواح شتى، اعجازه من ناحية الفصاحة والبلاغة، واعجازه من حيث الاخلاق،والاقتصاد،واعجازه من حيث الغيب وسيرة الانبياء، واذا نظرت الى القرآن وجدته معجزة من جميع نواحيه، من غيبه واحكامه، من حيث اقتصاده،واخلاقه، ومن حيث عبره وامثاله،ومن حيث اخباره عن عالم الطبيعة، الى غير ذلك.

فالاعجاز هو حجة الانبياء على الأمم،والبرهان على سائرالناس،وبالمعجزة يظهر صدق النبوة، فاذا إدّعىٰ النّبوة شخص وجاء بالمعجزة صدق ذلك النبي،والمعجزة هي ايجاد الشيء لا من طريق الطبيعة وتعلّم الفنون.

إمّا الاعجاز،فضع يدك على كل آية، تراها في غاية الاعجاز، ونهاية البلاغة لا تحاكيه خطابة، ولا شعر بليغ واما من حيث اخباره عن الغيب كآية الرّوم وآيات المواقيت واذا جاء نصر الله والفتح وذكر الانبياء والذين لم يذكروا في غير القرآن الكريم فقد تقدم بيانه وقال تعالى ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[1].

وقد جاوت هذه الآية الكريمة في أوّل دعوته حينما كان المشركون هم المتغلبون عليه، وحينما يمّرالنّبي ﷺ يستهزؤن به وبأقواله، وقال تعالى «وان يعدكم الله إحدى الطّائفتين انها لكم وتودّون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله ان يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين»[2].

نزلت هذه الآية، في واقعة بدر، حينما كان المسلمون في قلة عدد وضعف والمشركون في قوة وشوكة ولم يكن للمسلمين فرس، إلّافرس واحد للمقداد وللزبير

---

١. الحجر ١٥/٩٤ ٢. الأنفال ٨/٧

فرس ايضاً والمشركون في كثرة من عدد الخيل والرجال، ولم يظن أحد في انهزام المشركين وظفر المسلمين.

وفي هذا الحال اوعدت الآية الكريمة، بنصرهم وظفرهم، قال تعالى «هو الّذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون»[١]

فإنّ الآية الشريفة صرّحت بظهور الإسلام على الباطل، وان الله يظهر دينه ولو كره المشركون.

وان سورة «تبّت يدا أبي لهب»، قد صرّحت بأنّه وزوجته لا يتوقان الى الاسلام وانهما يموتان على الكفر ويدخلان النار.

العقل البشرى في تفسير القرآن

العلم إنّ للقران في بعض آياته ظواهر، وهذا يرجع فيه الى أبناء المحاورة وفهم المراد من المعنى، وان الاخذ بالظواهر، خارج عن معنى التفسير، لان التفسير،هو كشف الغطاء عن شيء والظواهر اذا تمت شروطها اخذ بها،ولا تعتبر تفسيراً، واما التفسير فهو كشف الغطاء والمعنى الخفى.

اما المتشابهات فلا يمكن ان يؤخذبها ايضاً، ومعرفتها موكول الى اهل البيت عليهم السلام والبحث هنا يقع، ان التفسير للقرآن هل يتخص بالاخبار القطعية المتواترة او يشمل الخبر الموثوق به، وان لم يكن متواتراً او مقطوعاً به، ويخرج عن عموم اتباع الظن.

وقوله:«ولا تقف ما ليس لك به علم»[٢] ،«قل الله اذن لكم أم على الله تفترون»[٣] ،وقوله: «ان هم الا يظنون»[٤]، «ان هم الا يخرصون»[٥] ،«وان الظن لا يغني من الحق شيئاً»[٦].

فلا يقع التفسير إلاّ بالمتواتر والمقطوع به،او يشمل ما قام الدليل على حجّيته من الأخبار الموثوق بها، او أنها منزّلة منزلة العلم.

ذهب بعضهم الى اعتبار التواتر، والمقطوع به وآخرون الى صحة التفسير بخبر الثقة، والتحقيق هو التفصيل في المقام.

---

١. التّوبة ٣٣/٩
٢. الإسراء ٣٧/١٧
٣. يونس ٥٩/١٠
٤. الجاثية ٤٥/٢٤
٥. الانعام ١١٦/٦
٦. يونس ٣٦/١٠

وبيانة ان مقتضى حجّية خبر الواحد، والدليل على اعتباره، هو تخصيص الكتاب به، فان كّلا من ظهور الكتاب وخبر الواحد من الظن الاطمئناني،والعلم العادي، الّذي قام العرف على الأخذبه، فاذا جاء الخبر المعتبر، خصص العموم او قيده ، كما هو مقتضى ما عليه التفاهم العرفي.

وكون الكتاب المجيد قطعيّ الصدور،فلا ينافي تقديم الخاص على دلالة الآية، من عموم او اطلاق، لأنّ كلاً منهما من باب الظن والاطمئنان.

وان كان الكتاب قطعي الصدور، فان قطعية الصدور لا ترتبط بجهة تقديم الخبر المخصص والمقيد للعموم والاطلاق، فلا ارتباط لاحد البحثين بالآخر، اذ تلك من حيث الصدور،وهذه من حيث الدلالة والظهور، وقد يظهر من بعض علماء العامة، عدم جواز ذلك.

ولكن على ما بنت عليه الامامية، هو ان رسول الله صلى الله عليه وآله قد خلّف الثقلين، كتاب الله والعترة عليهم السلام، وهو قبول قول العترة عليهم السلام، في تخصيص الكتاب وتقييده، وثانياً: إنّ في الاخبار الّتي هي مقدمة على الأخبار الاخر، من عرضها على الكتاب دال على حجية الخبر،حتى في صورة المعارضة.

وان كان عند التأمل ان حمل العموم على الخصوص والاطلاق على التقييد ليس من باب المعارضة،لما اثبتناه في علم الاصول، ان مقتضى فهم ابناء المحاورة واللغة، حمل العموم على التخصيص والاطلاق على التقييد، وهذا ليس من باب التعارض اصلا كما هو واضح في فنه.

ولكن يبقى الكلام، ان الخبر الواحد، وان قام الدليل على اعتباره تعبداً، ومقتضى ذلك تقديمه على ظواهر الكتاب.

ولكن يقع التردد، فيما عدى الموضوعات الشرعية والاحكام الشرعية، في شمول التعبد لها،وهو محل تأمل.

ولا سيما اذا كان من الامور العقائدّية، او ما يتبعها كحالات القيامة والثواب والعقاب من الجنة والنار فان ثبوت حجّية الخبر الواحد عندنا في هذه الموارد محل تأمل.

ويخرج عن عنوان التخصيص والتقييد جميع ابواب التوحيد والنبّوة والإمامة والمعاد فانه يتعين فيها الأخذ باليقين وليست هي من باب الظنون واخبار الاحاد كما هو

واضح.

فالمسألة تقتضي التفصيل فيعتبر الخبر الواحد في الاحكام والموضوعات الشرعية ويخرج قطعاً من باب العقائد من التوحيد والنّبوّة والامامة والمعاد ويبقى الإخبارات عن الحوادث وقصص الأنبياء وإثبات المعاجز والكرامات ونحوها.

وبناء على ما ذهبنا اليه يشكل اعتبار حجّيه خبر الواحد وان كان يظهر من اعلام المفسرين شمول حجّية خبر الواحد الهدف منها اتجاها الى الاحكام والموضوعات الشرعية.

واعلم ان للقرآن اتجاهات،الاتجاه الى البلاغة والاعجاز، وبالبلاغة والاعجاز اقر فصحاء وبلغائهم الى انه كتاب من الله منزل ولا يمكن تأليفه من البشر بتاتا وكم اخرس القرآن من بليغ وألجم من فصيح ولو لم يكن اعجازه وبلاغته لصعب على العرب التصديق به، أمّا الاتجاه الفلسفي وهو ما تتضمنه الآيات في علم الفلسفة من توحيد ذاته المقدسة وصفاته وافعاله وعبادته والى اخلاقه والى تربية النفس وعلم النفس والى عالم الوجود والامكان والى التوجه الى سلسلة الكون من عقول ونفوس وماديات واجتماع واقتصاد ومن باب العلل والمعلولات وكيفية العلم واطواره والى بيان الحركة الجوهرية في عالم الطبيعه مما لا يصل اليه العقل الا بالتعليم.

الاتجاه الى ان القرآن الكريم كثيراً ما يفسر بعضه بعضاً، الاتجاه الى ما ورد عن الرسول الاعظمﷺ وآله الكرامعليهم السلام واصحابه الصالحين من التفسير للآيات الشريفة.

اما الاتجاه من حيث البلاغة ومن الفلسفة والعرفان ومن حيث تفسير بعضه لبعض فيمكن للعقل ادراكها والوصول اليها لانها طرق معلومة للبشر وفنون يعرفها العقل على حسب مراتب العقول.

اما التفسير،ويراد به الكشف عن اسرار الآيات وعن المعاني الغامضة والخفيّة، فلا يمكن وصول عقول البشر اليها، ولابد من أخذه من الرسولﷺ واهل بيتهعليهم السلام، وإلاّ كان تهّجماً على الغيب، او قياساً ظنّيا، او استحساناً فكرياً.

وعند ذلك فتنطبق، ان الظن لا يغني من الحق شيئاً[١]، وان هم الا يظنّون[٢]،

١. يونس ٣٦/١٠ ٢. الجاثية ٤٥/٢٤

ويخرصون[١].

فالتفسير للآيات والتأويل لها ومعرفة أسرارها واهدافها الخفّية، لا يمكن الاطلاع عليه، إلاّ من طريق الرسول الاعظم ﷺ وائمة الهدى عليهم السلام والا فهو تخرّص على الغيب.

ولذا عبرنا عن كتابنا بالعقل البشرى، لبيان القرآن،على قدر استعداد العقول وقابلياتها.

ولا يصح لأحد من المسلمين،أن يفسر القرآن برأيه، وان من فسّر القرآن برأيه، فليتبّوء مقعده من النار، وأمّا اسرار القرآن وتأويلاته، فهو موكول في معرفتها إلى اهل البيت عليهم السلام .

القرآن باللغة العربيّة

قال تعالى: «انا انزلنا قرآنا عربياً»، ولم يقل القرآن الكريم، ان القرآن عربّي، ان المقصود من الآية الكريمة إلفات النظر، بان حقيقة القرآن، هي تلك الإلهامات والوحي الّذي تلقّاه الرّسول ﷺ ليلة المعراج، ونزّل به جبرئيل عليه السلام في ليلة القدر وغيرها.

وان القرآن الكريم عند ما يأتي في مقام التبليغ - البيان لا تحيط به سائر اللغات وإنّما- وتحيط به اللغة العربية لإتّساعها وإعجازها في البيان، وهذا هو المشاهد، عندما يراجع الانسان اللغة العربية وسائر اللغات، فان اللغة العربية - في غاية التكامل،الّتي لا تحيط بها لغة أخرى، من الإفادة والإستفادة.

ومن هنا عّبر القرآن الكريم، في الآية:« انا انزلناه قرآناً عربياً»، إلفاتاً لنظر القارئين والمستمعين، ان بيان الوحي وتلك الإلهامات،لا تكشفها عن طريق الإعجاز إلاّ اللغة العربية.

فالقرآن هو الالهام الّذي ألقىٰ على قلب الرّسول ﷺ ليلة المعراج، والوحي الّذي جاء به جبرئيل ان يتلى بالاعجاز باللغة العربية.

فاذاً القرآن قبل ان يكون بهذه اللغة، هو قرآن وحي وإلهام،وقبل ان يتكيّف بلغة العرب.

وان القائل يقول: ما فضل هذه اللغة العربيه على سائر اللغات اذ القرآن الحقيقي قبل التعبير عنه،هو الإلهام والوحي لتلك المفاهيم الّتي تأتي للرّسول الاعظم ﷺ وليس مجيئه

---

١. الانعام ١١٦/٦

باللغة العربية مزيد فائدة، واكمل اعجازاً في البيان،كما هو المشاهد.

فان كثيراً من اللغات تكون الفاظها اوسع دائرة من المعاني، أو أنّها أقصر عن اداء المعاني، إلاّ بألفاظ مجازّية أو كنائية.

واذا نظر الانسان بعين الحقيقة، يرى ان اللغة العربية، هي أبلغ اعجازاً في تأدية المعنى، وأوضح فصاحة في إبراز المفاهيم، على وجه التطابق، بين الألفاظ والمعاني وعلى ابداء المعانى بصورة الإعجاز، الّتي لا تتكفلها أيّ لغة كانت.

ومن هذه الناحية، بعث القرآن باللغة العربية لان اللغة العربية، هى في أوج البيان واعلى مراتب الدلالات والاعجاز.

وكان النبي ﷺ عربياً من هذه الناحية اذ النبي ﷺ منتهى التكوين في وجود الممكنات، ولابد ان تتكامل فيه الكمالات النفسية، حتى في لغته وبيانه.

واذا قسنا اللغة العربية، في اداء المفاهيم، وكشف الحقائق، واستعمال المجازات والكنايات، والإستعارة والالتفات واختلاف كيفيات الجمل من المفاعيل والحال والتمييز والاستثناء وسائر الاضافات، هي أوسع بكثير من أيّ لغة كانت وأوصل الى دقائق المعاني من غيرها. فلذا نزّل القرآن أعني ذلك الوحي الإلّهي باللغه العربية لانه لا تفي به سائراللغات، على تعددها وكثرتها.

فالقرآن حقيقته الوحي الإلّهي والالهام المعبر عنه بلغة العرب، ولما كان هذا الكتاب الكريم متكفلا بجميع شؤون الحياة ولكل ما تحتاج اليه البشرية من نظام في النشأتين، في الدنيا والاخرة، جاء به الرسول الاعظم ﷺ لتكامل ذاته مع التشريع.

لا تفسير للقرآن

هل القرآن الكريم عند ما جاء بجميع أسراره وعقائده واضحة للعالم البشري أم جاء القرآن ليستفاد منه، على حسب عقول الناس وآرائهم والى ما يصلون اليه من أفهامهم، انا نختار في هذا الموضوع، ان لا تفسير هناك حقيقي للقرآن، وليس للبشر طريقاً كاملا في معرفته وأسراره، إلاّ لمن بعث اليه، وهو الرسول الاعظم ﷺ والنقباء من اهل بيته عليهم السلام.

والبشر انما يستفيدون من القرآن، على حسب إدراك عقولهم، وتوجهات نفوسهم، وإن كان عامة الناس يفهمون نصوصه وظواهره، ويستفيدون احكامه وتشريعاته، ويصلون

الى مزايا تلك الظهورات، ونكات تلك النصوص وإنّما البحث هنا بما وراء النص والظهور، إذاً فاسمع توضيح ذلك:

إنّا اشرنا في بحثنا السابق إلى ان القرآن هو المعجزة، وفي غاية الاعجاز وان هذا الكتاب الكريم هو الّذي يطابق نفسية ذلك الرسول، ولا يجوز ان يكون اقل تشريعاً من نفسية الرسول، ولا نفسية الرسول ﷺ اوسع نطاقاً من هذا التشريع فلابد من التطابق بين الرسول والرسالة على وجه تطابق المرآة مع المرئي.

ومن هنا يتضح لك، ان القرآن الكريم لا يمكن تفسيره ولا تأويله على الوجه الاكمل الّذي جاء به الوحى من احد من البشر الا من انزل عليه وهو النبي الكريم ﷺ واهل بيته عليهم السلام ولا يستفيد الناس من القرآن الكريم الا بمقدار عقولهم نظير الضياء الّذي يحمل اشعة الشمس فكل باصرة تستفيد منه بمقدار تلك الباصرة لان الوجود الضعيف لا يسعه ان يحيط بالوجود الاكمل كما لا يحيط النور الضعيف بالنور الأتم وهذه سنة الله تعالى في خلقه ان لكل وجود استعداد وكمال لا يمكن ان يتعداه الى حد آخر.

ولما جاء القرآن الكريم، فلا يمكن للبشر باستطاعتهم ان يفهموه كما انزل على ما فيه من اسرار ومزايا، اذ كل شامة تشم رائحة الطيب على مقدارها لا باكثر من ذلك واذا كانت شامة الانسان ضعيفة فلا يمكن ان يشم الرائحة الجيدة كما هي هكذا في المحسوسات من الشامة والناظرة والذائقة واللامسة وهكذا العقل بمقدار ما يحيط به.

نعم خلق الانسان وهو يدرك البرهانيات والوجدانيات ويدرك الظواهر والنصوص ويدرك الحكم والعبر والتشريع ولكن هنا معنى ان القرآن بأسراره وحكمه وما اشتمل عليه من مزايا ونكات هل يمكن الإطلاع عليه من تفسير او تأويل، فنقول: كلا، البشر في هذه الناحية يعجز عن هذه المعرفة الكاملة المحيطة بالأسرار.

قال الامام الصادق عليه السلام: «لا يعرف القرآن الا من خوطب به». ومن المعلوم ان من خوطب به هو النبي ﷺ واهل بيته عليهم السلام اما ساير الناس، فيقول لا يدركونه بحقيقته، بل يدر كونه بحسب عقولهم وبصائرهم.

واجمال البحث ان القرآن على جزالة الفاظه وغموض اسرار تلك النصوص وله ظواهر فيفهم الناس منه ظواهره ونصوصه في أيّ باب وقعت تلك النصوص وان الظواهر من ابواب الفقه كالمعاملات والمواريث والاحكام وعبره وامثاله وتربيته واخلاقه وهذا

المعنى يشترك فيه كل عارف في اللغة العربية وارداً في البلاغة والفصاحة وإلاّ لما كان معجزة يعجز عنه البشر اذا كان كلّه مجملا.

فالبشر انما يعجز حينما يفهم هذا الخطاب بأوّل نظرة وتأمّل ولكن اذا امعن الانسان النظر في الكتاب المبين وجده مملوء من الاسرار، مغموراً بأمور يعجز عنها البشر.

فلا منافاة بين عدم الوصول إلى اسراره وان ليس هناك للقرآن تفسير وبين ان يعرف الناس نصوصه وظواهره وفصاحته وبلاغته واخلاقه وعبره وان عجزوا عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

فاذا قلنا ان لا تفسير للقرآن واقعاً وان لا يعرفه الا من خوطب به فكلام حق واذا قلنا يعرفه العربيّ فيقصد من ذلك معرفته من حيث الاوضاع العربية وتراكيبه ومعرفة فصاحته وبلاغته وظهوره ونصوصه فلا منافاة بين الأمرين بين الأخذ بالظواهر والنصوص وبين عدم الوصول الى اسراره ومزاياه.

وكلّما تأمل الإنسان في آياته وحكمه ازداد غموضاً وتعجباً وعرف انه لا يصل الى تلك الأسرار ولا الى تلك المزايا الغريبة.

ومن هنا كان القرآن معجزة الدهور اذ كل جيل وعصر يفهمون منه نكاتاً غير العصر الأوّل وعلى هذا فاذا قلنا هذا تفسير القرآن فنقصد به الى مثل كتابة الشيخ الطوسى والى ما كتبه الفيض الكاشاني والى تفسير الطبرسي والرازي او نحو ذلك أي أنّهم عرفوا القرآن بمقدار ما وصلوا اليه.

وكيف يصل الانسان المادّي الى منتهى الاعجاز من ناحية الله سبحانه وتعالى.

ونقصد ان تفسيره بمقتضى إدراك ذلك المؤلف من مزاياه وإلاّ فلو وصل البشر الى حقيقته غير الرسول صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام لما كان في منتهى الاعجاز.

وغرضنا ليس انكار ظواهر للقرآن الكريم ونصوصه ولا انكار تفاسيره ولا ان الناس لا يعرفون منه الا الاقتصاد والتشريع والاخلاق وعلم النفس وانما نقول ذلك في اسراره ونكاته الّتي لا يصل اليه البشر.

حدوث القرآن وقدمه

إنّ البحث يستدعي مقدمة وهي ان صفات الواجب على ثلاثة انحاء:

النحو الأوّل: الصفات الايجابية الثبوتية وهي عين ذاته المقدّسة من العلم والقدرة والارادة والحياة والسمع والبصر.

النحو الثاني: الصفات السلبية وهي الّتي تفيد التنزيه عن الصفات الامكانية من الامكان والحدوث والتغّير.

إمّا الاشاعرة يقولون ان الصفات الثبوتية غير الذات ولكن تلازمها في عالم الأزل وأمّا ما حرره فلاسفة الإماميّة كصدر المتألهين والمحقق نصير الدين والشيخ الرئيس قديماً وحديثاً متحدة مع الذات وسياتى توضيح ذلك في محله.

النحو الثالث: الصفات الفعلية من كونه خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً ومتكّلماً والميزان في الصفات الايجابية والسلبية والصفات الفعلية أنّ الصفات الثبوتية والسلبية لا يصح سلبها في حال من الاحوال، وهى عين الذات ووفور الوجود والنزاهة عن الامكان والحدوث فلا يصح سلبها في أيّ حال وهذه بخلاف الصفات الفعلية فان الصفات الفعلية ما صح اثباتها في حين دون حين، وسلبها في وقت دون آخر، تقول خلق الله البشر والحيوانات ولم يخلق العنقاء، ورزق فلاناً ولم يرزق فلانا وكلم الله موسى تكليما ولم يكلم غيره من الأنبياء فصحة السلب في بعض الأحوال تدل على انها ليست من الصفات الذّاتية للحق تعالى.

وأنّ الاشاعرة اثبتوا للحق التكلم، وأنّ التكلم من الصفات الذّاتية، ووقع التردد، في معنى التكلم عند هم فهل هو نظير الصور الذهنية في مقام الاخبار والحكاية او انه كالصفات النفسية من التمنّي والترجّي من المعاني الانشائية او من قبيل الحديث النفسي، كما تقول حدثتنى نفسي، او انه من قبيل النسب والاضافات كما ذهب اليه المحقق الرشتي في بدايعه في فهم كلامهم، فان رجع الى الادراك والصفات النفسية، او الحديث النفسي كان التكلم نحواً من العلم.

واذا كان نحواً من العلم لابد وان يكون عين ذاته لا صورة مخلوقة لنفسه نظير ما تخلفه النفس من الصور فلا يكون التكلم صفة مستقلة، وانما هو علم ولابد ان يكون عين ذاته.

واما ان يكون كما فهمه المحقق الرشتيﷺ من انه من النسب والاضافات وان النسب والاضافات، معان حرفية، وتعالى الله ان يكون مقوم ذاته المعاني الحرفّية او تعرض عليه وان التكلم حقيقته فعل من افعاله كالخلق والرزق وهذا الّذي ذهبت اليه الإمامية وقام عليه

البرهان.

وقد افرط - بعض الأشاعرة فذهب انّ الكتاب الكريم كلامه وهو عين ذاته وانّ جلده قديم أيضاً. ومن أضواء ذلك يظهر بطلان ما تمسكوا به ان الفاظ العبارات كاشفة عنه، كما قال الاخطل:

إنّ الكلام لفي الفواد وإنّما جعل اللّسان على الفواد دليلاً

فان هذا نحو من التصور فيرجع الكلام النفسي الى الصور الذهنية وعلى الكيفيات اللفظية قال تعالى (اسرو اقولكم او اجهروا به انه عليم بذات الصدور) فان الآية عبرت عن الصورة الذهنية في القول واما قول الاشاعرة ان هيئة اسم الفاعل وضعت لإفادة قيام المبدأ بالذّات قيام الوصف بالموصوف فهو خطأ بيّن فأنّ الهيئة إنّما تفيد قيام المبدأ بالذّات نحو من القيام.

إمّا خصوصيات القيام، من كونها إيجادّية او حلوليّة، او غيرهما، فهي غير مأخوذة من مفاد الهيئة، وهي تختلف باختلاف الموارد، ولا تدخل تحت ضابط كلي.

وقد أوضحنا البحث، في مباحثنا الاصولية من المحاكمات[1] على وجه التّفصيل، في مبحث إتّحاد الطلب والإرادة، وعدم الاتحاد.

وإجمالا ان التّكلم إذا رجع الى صفات الحق الثّبوتية فليس هناك دليل يثبته والدليل على خلافه.

ويرجع في الحقيقة الى الصور العلمية، في باب الخبر والتصديق، والى الصفات النّفسية في باب الإنشاءات، من التمنّي والترجّي والإستفهام ونحوها.

وسيأتي قريبا انشاءالله تعالى في الدّلالة على صفات الله مزيد توضيح.

القرآن ومعاجز الانبياء

اذا نظرت الى القرآن الكريم، وجدته معجزة من جميع نواحيه، بما لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، واذا نظرت الى معاجز الانبياء وجدتها موقتة ومحدودة لان نبوّتهم ليست على ممّر العصور والأجيال.

---

١. المحاكمات بين الكفاية والاعلام الثلاث ج٣ - باب المشتق من مؤلفات ولدنا العلامة الشيخ محمد.

ولما كانت نبوّة هذا النبي الكريم ﷺ دائمة باقية فلا بدّ أن تشاهد في كل عصر، واذا شاهدها اهل العصور والاجيال وجدوا بلاغة وفصاحة، بما يعجز عنها البشر، ووجدوا غيباً قد كشفته الايام، كجعل المواقيت، وقصة الروم والاخبار بانبياء لا يعرفهم الناس واشعار اذا جاء نصرالله والفتح، بانتهاء مدة الرسول ﷺ وشاهدوا احكاماًعلى ممّر الاجيال، وقانوناً كلياً، يحفظ العصور ولا يجدوا من هذا شيئاً في التّوراة والانجيل.

ولما جاء هذا النبي الكريم ﷺ والعرب على بعد من الحق وتباعد عن النبوّات اخذ قلوبهم وجمعهم على الهدى بعد ان كان من جبلاّتهم عبادة الأصنام والحروب القاسية والتنافر والبغضاء فانقلبوا من الباطل الى الحق يفدون انفسهم واموالهم واولادهم، إزاء اثبات هذا الحق الدّائم ورسالة السماء والكتاب المنّزل، وان كلمة المقداد لرسول ﷺ حين شاور المسلمين في الخروج الى بدر، شاهد عدل، على ما قلناه، يا رسول الله أمضي لما امرك الله تعالى، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون، ولكن نقول لك اذهب انت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون.

فو الّذي بعثك بالحق، لو سرت بنا الى برك الغماد يعنى مدينة الحبشه لجاهدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعى له بخير[١].

واذا لاحظ الانسان ان رجلا أمّياً في الظاهر قد نشأبين اقوام لا يعرفون الا الهمجية والشحناء قد جبلوا على عبادةالاصنام وعلى البغضاء بينهم وتراهم قد ارتكبوا كلّ جريمة بحيث كان الرجل اذا ولدت له بنت دفنها وهي حيّة ليس في بلادهم معارف ولا تعاليم بل لو كانت هناك معارف وتعاليم لما جرى منهم ذلك.

وبينما كان العرب بهذه الحالة من عدم الثقافة والمعارف اذ خرج من بينهم شخص ظاهره الأمّية قد جاء بكتاب ينبأ عن الجليل ويتحدث عن صفاته وقدرته وافعاله ويتحدث عن كرامة الانبياء بما لا تبلغه العقول.

انظر الى آيات التّوحيد، والى آيات تنزيه الانبياء وكرامتهم (وما ارسلناك الارحمة للعالمين[٢]، ونعم العبدوانه اواب[٣]، وقربناه نجياً[٤]) وبيان تعدد المخلوقات وحكمتها (ان في خلق السموات والارض واختلاف اللّيل والنّهار والفلك التي تجري في البحر بما

١. تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٤٠ الطبعة الثانيه.
٢. الانبياء ١٠٧/٢١
٣. صٓ ٣٨/٣٠.
٤. مريم ٥٢/١٩

ينفع النّاس وما أنزل الله من السّماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرّياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون[1]) وذكر آداب الانبياء وتحّملهم من قومهم.

ولما كان القرآن، لا نظير له في الكتب السماوية وقد قام على التّربية والتعليم، والأخذ بيد الانسان الى أوج الكمال، من غير اختصاص بعصر من العصور اوجيل من الاجيال، فأخذ النّبي بهذا الكتاب قلوب الناس، وصاروا يتسابقون الى أحبّاء، وبعد عبادة الاصنام العبادة لله تعالى على الوجه الاكمل، وصاروا يتسابقون الى الفناء، لإقامة الحجّة والدين واثبات رسالة السماء على وجه الارض، واصبحوا بنعمة الله اخواناً على سرر متقابلين لا يخافون سلطاناً لا يهابون حاكماً، وقد شاهدوا من هذا الكتاب حقائق الامور، وقاموا يتفانون في حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله.

وإنّ من اخلص الى الله لم يتغير ولم يتبدّل وقامت الدّعوة وقد اخذت اقطار الارض وآفاق السماء في زمن يسير لا يتجاوز الثمانين سنة كل ذلك لصدق الدّعوة وظهورها واقامة الكتاب العزيز في المعاجز واخبار الغيب ونحو ذلك وعندما ترى سيرة المسلمين وتقدمهم في الاسلام لا ترى لهم نظيراً في امة موسى ولا عيسى ولا نوح ولا ابراهيم عليهم السلام كل ذلك من لطف النبوة وعظمة التشريع من الكتاب المجيد.

لا اختلاف في القرآن

ان من تمام اعجاز هذا الكتاب المجيد أنّه نزل بروجاً وفي وقائع وحوادث لا يرتبط بعضهابعض ومع هذا كله تجده متّحد المآل على اختلاف الوقائع والحوادث.

وترى القضية الواحدة حين يتكرر بيانها في القرآن تجد في كل آية خصوصية ومكانة غير الآية الاولى، انظر الى قصة موسى عليه السلام وقد تكررت، تجد ان الآيات المتكررة قد اشتملت على الوعظ أو التوبيخ او الرّحمة او اللطف بما لا تشتمل عليه الآية الاخرى.

ألا فانظر الى كلمة الوليد بن المغيرة في صفة القرآن حيث قال حين سأله ابوجهل ان يقول في القرآن قولا غير مناسب قال: فما اقول فيه؟ فو الله ما منكم رجل اعلم في الأشعار منّي ولا اعلم برجزه ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الّذي يقول شيئاً من هذا ووالله ان

١. البقرة ٢/ ١٦٤.

لقوله لحلاوه وانه ليحطم ما تحته وانه ليعلو ولا يعلى عليه.

قال ابو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال الوليد: فدعني حتى افكر فيه فلما فكر قال هذا سحر يؤثر عن غيره وفي بعض الروايات قال الوليد: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن، وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق، وانه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر.

وانك اذا نظرت الى آيات القرآن الكريم، وامعنت النظر بدقة في آياته وسوره لا تجد اختلافاً في المؤدّى ولا تجّوزاً في غير محله بل ترى الآيات نوراً على نور ترمى الى اهداف عالية واتجاهات الى منتهى الكمال ودروس تعليمية للبشرية من نظام اجتماعي وخلقي واقتصادي وسياسي وكلّما فكّر البشر في الوصول الى غايته، رأيتهم لم يقطعوا نصف الطريق ولم يبلغوا أسراره وكل يعرف القرآن بمقدار معرفته ومرتبة كمال وجوده واذا قست إليه أيّ خطابة او شعر وجدتها لا تصلح ان تكون من مباديه فضلا عن ان تكون في مرتبته واتجاهاته.

كيف وقد قلنا سابقاً وبيّنّا ان منتهى التشريع لابدّ وان يأتي الى منتهى التكوين وان يطابق التشريع التكوين فسبحان من أعطى كلّ شيء على مقدار إستعداده وقابليته.

الفلسفة القرآنية

إنّ الفلسفة في القرآن، ليست هي الفلسفة اليونانية الإغريقية وقد تشكّلت الفلسفة اليونانية، واخذت اوجها من زمان افلاطون وارسطو، من الحكماء الاشراقيين والمشائين والرواقيين.

وقد بينت فلسفة افلاطون على رهبانية الهند ومصر، فهي في مبدئها يونانية وفي ختامها هندية ومصرية، وقد التزموا بالعقول والنفوس الكلية، والمثل الافلاطونية.

وقد بيّناه في «المثل الاعلى» انها خيالات واوهام وتحديد لقدرة الله وارادته وعلمه، وكل ذلك ينا في وجود الحق الّذي لاحدّ له ولا ماهية له.

وقد اخذ المسلمون في زمان العباسيين، بالفلسفة اليونانية، فكفّر بعضهم بعضاً، حتى ان المسلم اذا عرف شيئاً من فلسفتهم اخذه العجب بنفسه ورأى نفسه مثالا في الارض ومجرّداً في عالم المادة، واصبح من تعاطى الفلسفة يرى من لا فلسفة له لا قيمة له.

وعظم علماء الاسلام علماء اليونان بما لايستحقّونه في التعظيم حيث دخل في أذهانهم عظمت فلاسفة اليونان، كأفلاطون وأرسطو وجالينوس وغيرهم، ونزهوهم عن الخطاء والاشتباه، حتى ان فلسفة اليونان قد فاجئت الاسلام، قبل تنظيم علومه ومعارفه من القرآن الكريم.

ولكن التأمل والفحص الدقيق يرى ان الفلسفة الحقّة، هي ما جاء بها القرآن الكريم (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً)[1].

وان الحكمة والفلسفة الحقيقية هي ما قامت على القضايا الاوّليّة من معرفة الوجود

---

١. البقرة ٢٤٧/٢.

وآثاره وخواصّه ومن معرفة الماهية والسبق واللحوق والعلة والمعلول والجوهر والعرض الى غير ذلك مما هو من البديهيات الأوّلية والبراهين القاطعة لا خيالات التفكير من العقول العشرة وترتبها والمثل ونحوها فانها بعيدة عن الواقع والبراهين.

فنحن نعتبر من الفلسفة ما كان برهانياً واوّلياً كمعرفة الجواهر والاعراض والعلل والمعلولات والتقابل والوحدة والكثرة والوجود والعدم.

واذا خرجت الفلسفة عن حدود ذلك كانت اوهاماً وخيالات ولو كانت حقائقاً لاكدها الانبياء والاولياء، فالفلسفة الّتي بين ايدينا، بين واقع واضح وحق مستقيم وهى الّتي جاء بها القرآن والانبياء والرسل، واكّدها الاولياء وبين خيالات يونانية الّتي لا تغني عن الحق شيئاً فالفلسفة المقصودة لنا في القرآن ما قامت على القضايا الأوّلية والبراهين الثابتة، وما جاءت به الرسل.

وسيأتي لك ان شاء الله في المباحث الآتية أنّ القرآن الكريم، قد اقام الفلسفة القويمة واثبت الحكمة الّتي لا تزول على ممّر الاجيال والعصور.

ان الآيات تشير الى الفلسفة الحقة وتؤكدها بالبرهان، وان القرآن الكريم يتعرض لما هو عليه قوام الانسان من الفلسفة الحقة، وان الآيات تدل على حقيقة الوجود الّذي لا نهاية له واعلى مراتب الوجود، وانها مجرد ربط بوجود الحق تعالى وانها تصرح باسمائه وصفاته دون الفلسفة المستخرجة من قوانين الهند واليونان.

وسيأتي منّا على ممّرالآيات اشتباه كثير من فلاسفة اليونان، مما كشف العصور عنها، من كلمات ارسطو وافلاطون وغيرهما وان الحكمة اليونانية قبل افلاطون كانت حكمة اخلاقية، كما عليه سقراط، وطبيعية كما عليه غيره ثم تشكّلت بعد مجيىء افلاطون، وتوجهه الى الفلسفة ونظرياته المأخوذة من الهند ومصر بقوانين مبعثرة ومطالب لا يرتبط بعضها ببعض.

ألا فانظر الى ما اسسه ارسطو في علم المنطق فانك لاتجد الامسائل جزئية مبعثرة لا يرتبط بعضها ببعض.

ولما جاء الاسلام رتّبوا تلك المعلومات المبعثرة بقوانين وفنون ووجهوها الى فن محكم من زمان الفارابي والشيخ الرئيس ونصير الدين الطوسى وابن رشد، ومع ذلك كله لم تكن قوانينها محكمة على وجه التأكيد حتى ظهر نابغة عصره صدر المتألهين فجعل

الفلسفة فناً وقوانين على قواعد واسس قويمة ومع ذلك كله فقد اخذت الفلسفة اليونانية بعض عواطفه.

فالفلسفة بنظرنا بعد اتقانها وترتيب قوانينها بين ما قد قام البرهان عليه والوجـدان وبين مجرد خيالات لا ينبغي الاصغاء اليها خصوصاً بعد ما قام البرهان في هذه العصور على خلاف كثير منها.

ومن الغريب ان الفلسفة اليونانية اثّرت على بعض علماء العامة والخاصّة حتى في تفاسيرهم للقرآن الكريم.

ولكن ينبغى ان يقف الانسان على حدود البرهان وما قام عليه الوجدان ويـعتني بالواقع لا بمن قال فالانسان إبن الدليل والله وليّ التّوفيق.

المفسرون والتفسير

التفسير وان اطلق العلماء التفسير على الظواهر وحجّيتها، الا ان دلالة الظواهر، وفهم المعنى من الالفاظ الموضوعة لها والمتعارفة بين ابناء العرف، ليس من التفسير في شيء، وانما التفسير هو اظهار المعنى الخفي ولذا منع ائمة الهدى عن تفسير القرآن، الا ان يؤخذ من الكتاب الكريم نفسه، او من سنة الرسول صلى الله عليه وآله المعصومين عليهم السلام والا فلا يصح من طريق آخر ويكون من التفسير بالرأى والاخذ بالظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً.

وعند معرفة ما ذكرناه يقع البحث، بأنّ التفسير لا يصح الا بالاحاديث المتواترة ولا يقع بالاخبار الضعاف باتفاق المسلمين وانما البحث في الآحاد، فهل يقع بها التفسير ام لا.

ذهب الاكثرون الى صحة ذلك، لأنّ خبر الواحد الثقة او العادل، اما علم عاديّ وقد امضاه الشارع او علم بنظر الشارع واعتباره، فهو علم في عالم التشريع، كما اختاره الاستاذ النائيني قدس سره.

واما يكون علماً تنزيلياً تعبدياً، كما هو المعروف بين علماء الاصول واخترناه في محله.

وعلى هذه المسالك الثلاثة من كونه علماً عادياً او علماً في عالم التشريع واعتباره له، او علما تعبداً وتنزيلا على العلم الواقعى فعليها يقع التفسير بخبر الاحاد الموثوق بها ولا يلتفت الى القول الاخر، من اعتبار التواتر، او الاحاديث المحفوفة بالقرائن حيث ان المراد الواقعي او التعبدي وليس لازم ذلك الامتناع حيث ان الآيات قطعية والتفسير ظنّي فانه بعد اعتباره علماً امضاء او تشريعاً او تنزيلا منزلة العلم فتترتب عليه جميع آثار العلم وان كان خبر الواحد ظناً بالحمل الشايع الصناعى.

ولكن التحقيق ان اعتبار خبر الواحد انما هو في الاحكام الشرعية دون ما كان مفاده اثبات التوحيد وخصوصياته ورسالة الانبياء وما كان اخباراً عن جهة تكوينية فان كل ذلك لا يرتبط بحجية اخبار الاحاد وليس ذلك ايضاً بالنظر الى تفسير القرآن الكريم فان الادلة متوجهة الى احكام الواردة من السنة لبيان تفسير القرآن واسراره لا للتوحيد وصفاته الى غير ذلك مما يرتبط بالاحكام الشرعية فيتعين انما وردعن اهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن اما متواتراً واما حديثا محفوفا بالقرينة دون اخبار الآحاد.

ظواهر الكتاب

ان الكتاب الكريم حيث كان معجزة الدهور والثقل الاعظم والنظام الّذي لاتبديل فيه ولا تغيير وهو في غاية الاعجاز من جميع نواحيه تعين ان يكون له ظهور حتى يفهمه الناس ويعجزوا عن مقاومته.

والا فلو كان القرآن الكريم كله كتاب لا يعرف منه شيء وانه الغاز ومجملات سقط عن كونه رسالة الّذي يريد الله ابلاغها للبشر وتوجيههم اليها ولابد ايضاً ان يكون القرآن الكريم بعض آياته لا يعرفها الا من خوطب به وهذا مما يقتضيه الاعجاز فللقرآن الكريم نواح، ناحية ظهوره في أغلب آياته والناحية الاخرى تفسيره والثالثة تأويله.

اما ناحيه التفسير، فهي خاصة بمن خوطب به كالرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وآله الكرام عليهم السلام فما ورد أنّ القرآن لا يعرفه الا من خوطب به، هو المعرفة الكاملة من تفسيره وتأويله وما وقع فيه مجملا وما وقع فيه بياناً لذلك الاجمال ولذا أورد عن الصادق عليه السلام في رد قتادة والاشارة منه عليه السلام ان القرآن مختص بأهل البيت عليهم السلام، في معرفته التامة، فان تأويله وتفسيره لا يعرفه الا الله والراسخون في العلم واما في غالب آياته الدالة على ظهور اللّغوي، فلا ينبغي لذي مسكة، ان ينكر ظهوره وحجّيته وقد ورد أنّ مثل هذا ونحوه يعرف من كتاب الله تعالى.

وقوله لزراره، لما سأله، من اين جئتم بالدليل ان المسح ببعض الرأس فقال: الامام الصادق عليه السلام لمكان الباء يازرارة.

قد تواترت الاخبار على عرض الاحاديث المتخالفة على ظواهر الكتاب ولو لم يفهم منه شيء لما صح عرض الخبرين المتعارضين على الكتاب ولا نريد الاطالة في هذا

الموضوع فانه بمكان من الوضوح، من ان الكتاب المنزل، لابد ان يكون حجة قائمة على البشر وهذا المعنى يستدعي ان يكون اغلبه ظاهراً قال الله تعالى (فأتوا بسورة من مثله)[١] وقال تعالى (لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[٢].

فالقران لابد ان يبهت الخصم ويقيم عليه الحجة ويكون معجزة من نواح شتى، من حيث غيبه واخلاقه وبلاغته وفصاحته وحكمه ومن حيث اقتصاده وسياسته واحكامه ومواعظه.

وهذا المعنى مما لا ينبغي الاكثار عنه، لانه من الواضحات لظهور الآيات في ذلك وانه مورد العرض على الاخبار المتخالفة.

واما المعرفة الكاملة، او معرفة غيبه وتفسيره او تأويله فذلك مختص بمن انزل اليهم، على ان بعض مراتب التفسير، قد يعرف من الآيات من بعضها لبعض لقوله عليه السلام ان القرآن يفسر بعضه بعضاً فناحية مختصة باهل البيت عليهم السلام وناحية اخرى عامة مشتركة بينهم وبين سائر الناس، فالمشتركة هي الظهورات القرآنية، الّتي تتم بها الحجة من الله على عباده ولولا الظهور لماتمّت الحجة.

واما معرفة معانيه من السبعة والسبعين معنى او التفسير الّذي لاتقوم به الآيات بعضها من بعض او التأويل، فذلك مخصوص بمن خوطب به وهم الرسول الاعظم عليه السلام والائمة من اهل البيت عليهم السلام فلا تنافي بين الامرين من الاخذ بالظهور وما عدا الظهورات فهو مختص باهل البيت من الرسول صلى الله عليه وآله وآله الطاهرين عليهم السلام.

وقد نهى الائمة قتادة وابا حنيفة من القضاء لانهم يدعون معرفة الكتاب على الوجه الاكمل التام ولو كانوا مقتصرين على الاخذ بالظهورات الّتي يفهمها غالب ابناء المحاورة ما نهوهم عن ذلك ولا أكبتوهم في البحث والكلام، فان هذا القرآن بيانالناس لقوله (هذا بيان للناس هدى وموعظة للمتقين)[٣] وقوله تعالى (فإنّما يسرناه بلسانك لعلّهم يتذكرون)[٤] وقوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر)[٥].

---

١. البقرة ٢ / ٢٣
٢. الإسراء ١٧ / ٨٨
٣. آل عمران ١٣٨/٣
٤. مريم ٩٧/١٩.
٥. القمر ٥٤/١٧.

لا تحريف في القرآن

اعلم انه قد يطلق التحريف الى توجيه الالفاظ في الدلالة على المعنى بحسب قصد الشخص نفسه وهذا في الحقيقة ليس تحريفا في الالفاظ وانما هو تبديل المعانى بمعان اخرى كما قال تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه)[١] وهذا ليس في الواقع تغييراً لما بين الدفتين، بل ما كان بين الدفتين هو كتاب الله المنزل وان حمله الناس على مقاصدهم واغراضهم، فالواقع لا يتغير ولا يتبدل وانما ذلك تطبيق لاغراضهم وتحريف برأيهم.

واما التّحريف الّذي في اذهان العرف وابناء المحاورة، بمعنى تبديل الكلمات فقد اوضحنا ان كل كتاب اذا كان بمستوى عال، لا يتطابق مع التحريف في الكلمات.

فانك اذا رأيت رسالة مكتوبة من شخص عظيم الى شخص آخر وكانت له شخصيته العظمى ايضا فانك ترى ان الرسالة، تبلغ اوجها في البيان واعجازها في بيان الغرض المقصود منها فلو وقعت هذه الرسالة في يد شخص واراد تغيير بعض كلماتهم او سطورها فانك تجد الفرق الواسع بين الكلمات الّتي هى في اوج الكمال وبين الكلمات المنحطة الّتي حرفت الرسالة نظير مالوحرف شعر أمرء القيس ونظائره بالشعر المنحط.

فالقرآن لوحرف لفهمه الناس والبلغاء لإنحطاط الكلمات الّتي اضيفت اليه وهكذا لو نقص القرآن عن مضامينه فد عوى التحريف والنقصان مما لاتتناسب مع اعجاز القرآن الكريم لكل من عنده ذوق سليم وعارف بمواقع الاعجاز وغيرها.

واما تعدد القراآت، ان اطلق عليه التحريف فليس من التحريف في شيء وسيأتى منا ان شاءالله تعالى ان القراءة اذا غيرت المعنى واعجازه فلا نسلم صحتها وجوازها في القرآن ولا سيما اذا اوجبت تنزلا في معانيه نقصاً في اعجازه.

واما التحريف فقد ثبت في التاريخ ان القرآن الّذي بين ايدينا هو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وليس لعثمان فيه تصرف اصلا كما يصرح به التاريخ من الخاصة والعامة وانه ليس الامحافظاً على ما في ايدى المسلمين مما تواتر نقله وحفظه المسلمون من غير تبديل ولا تغيير.

وقد ورد عن اهل البيت عليهم السلام ذم التحريف وهو تغيير المعنى حسب المقاصد.

وتوضيح البحث هنا ان التحريف بمعنى تغيير الكتاب وتبديل كلماته او سوره او

١. النساء ٤٦/٤ وكذا ورد فى سورة المائدة ١٣/٤.

نقصانه فهو خلاف ضرورة المسلمين قديما وحديثاً وما من فقيه او اصولي من زمان صدوق الامة وعلم الهدى وشيخ الطائفة الطوسى والعلامة الحلي والشيخ الطبرسى (رضوان الله عليهم) الى عصورنا هذه من يقول بالتحريف الا شاذاً لايعتنى بقوله.

فالقرآن بين الدفتين هو ما جاء به الرسول ﷺ وليس لأبي بكر ولا لعمر ولا لعثمان او غيرهم تغييراً في عباراته او حذفاً من مجموعه.

وان الله سبحانه وتعالى قد اخبر عن كتابه الكريم بقوله:«انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»[١] ولا تبديل ولا تغيير فيه.

وقد اشرنا ان التبديل والتغيير مما يوجب كون الكلام على غير مستوى واحد وهذا يعرفه سواد الناس فضلا عن العلماء ومع ذلك ان الملل كاليهودية والنصرانية مما تعترف باعجاز القرآن.

ولذا اصبح في زماننا هذا ان بعض الدول النصرانية تذيع في اذاعاتها القرآن الكريم لبلاغته واعجازه ولو كان فيه تحريف لفهمه عامة الناس وانه لا يطابق المستوى العالي مع المنخفظ فأيّ تناسب بين كلمات الله واعجازه وبين كلمات البشر الّتي مهما بلغت بيان الانبياء والرسل عليهم السلام فضلا عن بيان الله تعالى.

ومن اضواء ما بيّناه تعرف ان ما ادعاه عمربن الخطاب وغيره من بعض الآيات الّتي نسخت في التلاوة كقوله اذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما، البته بما قضيا من اللذة ومنها ان الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البته[٢].

وانت اذا راجعت مذهب العامة وجدت الكثير منهم من يقول بتحريف القرآن وكيف لا يكون تحريفا عندهم وقد صرح عمربن الخطاب بان القرآن الف الف وسبعة وعشرون الف حرف بينما ان القرآن الّذي بين ايدينا لا يبلغ ثلث هذا المقدار وعليه فقد اسقط من القرآن اكثر من ثلثيه[٣].

وروى نافع ان ابن عمر قال: ليقولن احدكم قد اخذت القرآن كله وما يدريه ما كله

---

١. المستدك للحاكم ج٤ ص ٣٥٩ وكذا البيهقي في سننه ج٨ ص٢١٣

٢. الحجر ١٥/٩.

٣. لسان الميزان لابن حجر العسقلاني قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبيد، قال حدثنا أبي، عن جدّي عن حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر ثم نقل الحديث.

فقد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد اخذت منه ماظهر[١].

وروى عروة ابن الزبير عن عائشة قالت قرء على أبي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة قالت كانت سورة الاحزاب تقرء في زمن النبي ﷺ (٢٠٠) ماءتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نرَ منها الا ما هو الآن[٢].

وروت حميدة بنت أبي يونس قالت: قرء عليّ وهو إبن ثمانين سنة في مصحف عائشة، ان الله وملائكته يصلون على النبي ياايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون الصفوف الأوّل قالت قبل ان يغير عثمان المصاحف[٣].

وروى زر، قال قال ابى ابن كعب يازر كأين تقره سورة الاحزاب قلت ثلاث وسبعين آية، قال ان كانت لتضاهى سورة البقرة او هى اطول من سورة البقرة[٤].

وروى ابن ابى داود وابن الانبادى عن ابن شهاب قال بلغنا انه كان انزل من القرآن كثير فقتل علماؤه يوم اليمامة الذين كانوا قد وعوه ولم يعلم بعدهم ولم يكتب.

وروى عروة عن عائشة انها قالت كان فيما انزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات فتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرء من القرآن[٥].

وقد نقل بطرق عديدة عن ثبوت الخلع والحفد في مصحف ابن عباس عن أُبي بن كعب: اللهم انا نستعينك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يعجزك اللهم اياك نعبد ولك نصلّي ونسجد واليك نسعى ونحفد برحمتك ونخشى عذابك ان عذابك بالكافرين ملحق[٦].

وانت اذا راجعت عنوان التغيير وتبديل الكلمات ونقصان السور مما ذكره علماء العامة في كتبهم وجدتها كثيرة وان ذلك قدتواتر عنهم وصار شعاراً في مذهبهم الا ان ما ذكروه مما لا يمكن تقبله.

اما اولا، فلانك اذا راجعت ما ذكروه من تبديل الآيات واضافة بعض الكلمات الى الآيات تجد الفرق الواضح في بعض كلمات الآيات من الاعجاز والحاق ما هو منخفظ عن

---

١. الدرّ المنثور للسيوطي ج٦ ص٤٢٠.
٢. الايضاح لفضل بن شاذان الأزدي ٢١٨.
٣. الاتقان ج ٢ ص ٤٠/ ٤١.
٤. كنز العَمال ج٢ ص٥٦٧ - وفي لفظ: وان في آخرها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة.
٥. الدرّ المنثور للسيوطي ج٢ ص١٣٥ وعن مسلم في صحيحه عن عبدالله بن أبي بكر - ج٤ ص١٦٧.
٦.

مفادها بما الحقوابه الآية.

لانك عرفت منّا لوكان تحريف في القرآن لوجدكل ملتفت عارف بالبلاغة ان مستوى الآيات مختلفة وانما الحق بالاية بعيد عن اعجاز القرآن.

ولذا ان القول بتحريف القرآن مما يكذب نفسه لعدم تطابق مستوى الآيات في الاعجاز، بينما اورده الله تعالى وبينما اورده الناس الّذي لا يتطابق في الاعجاز ومنحط عن مرتبة الفصاحة والبلاغة.

ثانياً، ان القرآن الكريم هو الرسالة الخالدة على ممّر العصور والاجيال فلابد ان تكون محفوظة تلك الرسالة وباقية جميع العصور كما قال تعالى «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»[1].

وثالثاً لو تم ما ذكره هولاء من العامة لكان لازم ذلك عدم حجية الكتاب، لوقوع التحريف فيه وكيف يؤخذ بآيات الكتاب وهي محرّفة.

فينحصر اخذ الاحكام بالسنة النبوية الّتي تكون رواتها صحاحاً وثقاتاً لا مطلق النقل عن رسول الله ﷺ فان ذلك ليس بحجة، الا ان يكون الخبر صحيحاً او موثوقاً به.

ورابعاً انه اذا سقطت حجية الكتاب فما معنى قوله ﷺ إنّي مخلّف فيكم كتاب الله وسنتي، كما رواه العامة وان كنّا نروي أنّي مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي.

واجمالا ان الكتاب لم يتغير، ولم تحرف كلماته ولم يزاد عليها ولم تنقص سورةوذلك بتواتر الاخبار عن رسول الله ﷺ ومن بعده وإلاّ لأصبح الكتاب الكريم نظير التوراة والانجيل، في التحريف والتغيير وان نسخ التلاوة الّتي جوزها الكثير من علماء العامة موجب الى التحريف.

وهذا التحريف، اتم على مسلكهم فثبت باخبار الآحاد من عبدالله بن عمر وغيره، مع ان بعضهم لم يجوّز النسخ حتى بالخبر المتواتر.

وتحقيق البحث ان التحريف غير محقق ولا موضوع له لان القرآن في منتهى اوج الاعجاز والبلاغة فاذا ضم اليه شيء من التبديل بالكلمات او اجزاء من السور ظهر الفرق بين بلاغته واعجازه وبين ما اضيف اليه.

ومن هذه الجهة، لا تمس يد التحريف القرآن لظهور التحريف وعدم مناسبته للقرآن

---

١. الحجر ٩/ ١٥

الكريم، بأوضح ما يكون.

ومن الواضح، ان المراد من الذكر هو القرآن لا غيره من ذات الرسول الاعظم وانا له لحافظون عن التحريف والنقصان، ومس يد المحرفين والا لم تكن حجة بالغة على خلقه.

وحيث ان الآية، ليست محرفة، ونطق بها ائمة الهدىعليهم السلام فهي دالة على المطلوب، الا من اتبع غير الائمةعليهم السلام وجوّز تحريفها، فلا تقع استدلالا على المطلوب ولكنّ الآية بظهورها واعجازها دليل على عدم تحريفها.

الآية الثانية:

قوله (وانه لكتاب عزيز، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[1] والآية الشريفة في منتهى الوضوح، في عموم السلب وانه لا يدخله الباطل على وجه السلب، لكل ما يحتمل الباطل من تحريف الآيات وتبديل السور او تغيير الاحكام، اونقصان القرآن، فان كل ذلك مما تنطبق عليه الآية وتنفّيه.

وان التعبير بانه الكتاب العزيز، ان العزة وعظم القرآن، مما يتنافى مع التحريف، بجميع انواعه من تغيير المعنى او اختلاف القرآءة، او تبديل الكلمات، او النقيصة فيه او الزيادة.

اما السنة فالرواية الاولى، رواية إنّي مخلّف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي اهل بيتي لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما حتى يردا عليّ الحوض والرواية متواترة، من طريق العامة والخاصة.

وكيف يكون القرآن حجة دائمة وهومحرف وكيف يقع التلازم بينه وبين العترة وهو كتاب الله الواقعي وظاهر الرواية الملازمة، بين الكتاب وبين العترة الى يوم القيمة، ولو حصل فيه التبديل والتحريف ولم يكن فيه الظهور لما كان وجها في الرجوع اليه الى يوم القيمة، وقد ورد من طرق السنة، إنّي مخلّف فيكم كتاب الله وسنّتي وهذه الرواية اذا استند اليها العامة، فهي دالّة على حجية الكتاب واعتبار ظهوره.

وما ورد عن اهل البيت عليهم السلام من عرض الروايات المتعارضة على الكتاب وانّما وافق الكتاب هو الحجة والمعتبر ولو كان الكتاب محرفاً اولا ظهور فيه ما صح للمعصومعليه السلام ان يرجع اليه في الاخبار المتعارضة.

---

١. فصلت ٤١/٤٤.

وإجمالا إنّ شبهة التحريف كما أشرنا إليها لا موضوع لها لعدم المجانسة والسنخية بين اعجاز الكتاب والتحريف.

واما ماورد من أنّ هذه الأمّة يقع فيها ما وقع في الأمم السابقة، حذو النعل بالنعل فروايات آحاد وليست متواترة ولو كانت متواترة فليس فيها دلالة على عنوان التحريف بل أنّهم يجرون على سيرة تلك الأمم من الطلب من رسول الله ﷺ بمالا يعينه وارتكابهم للمنكرات وتبدل حالتهم في المنكرات.

واما ماورد ان لأميرالمؤمنين عليه السلام قرآن خاص فليس المراد ان هناك قرآن ينا في هذا القرآن بل لما كان على عليه السلام هو الامام من بعد رسول الله ﷺ لابد أن تلقى القرآن وتفاسيره وبيان ما نطق به جبرئيل عليه السلام وان لم يكن جزء من القرآن وابداء علي عليه السلام للامة من باب القاء الحجة عليهم وانه هو الإمام المفترض الطاعة الّذي كتب القرآن كما هو وانه مخبر عن اشياء مما هي في بيان تأويل القرآن وتفسيره فان معرفة تأويله مخصوصة بالرسول واهل بيته عليهم السلام فلا يعرف تأويله الا الله والراسخون في العلم.

واما ماورد من طرق الامامية من التحريف فيراد به ان المسلمين غيّروا القرآن في مدلوله وتوجيه ظواهره.

وان هذه الروايات الواردة في التحريف من اهل البيت عليهم السلام لااعتبار بها لضعف الكثير من اسانيدها وليست متواترة وماورد منها من الاحاد فليس صريحاً في تغيير الكلمات او زيادتها او نقصان بعض السور فيراد بالتحريف من حيث القرآءة او تغيير المداليل والمفاهيم على حسب اغراض من حرف فوجه ظهور الآيات الى ما يريد.

واما ما ورد في بعض الروايات انه مذكورة أسمائهم في القرآن فاما ان يراد أنّ أسمائهم مقصودة وان لم تكن بتعبير من القرآن واما أسمائهم مذكورة في تفسير القرآن والإلهامات الّتي جاء بها جبرئيل عليه السلام واوحى بها الى النبي ﷺ فذلك ليس من القرآن المنزل.

واما ماورد في بعض الكلمات من الزيادة فضعيفة جدا اولا وتنافى الاعجاز ثانيا وما تعرضنا لذكرها لانها في غاية السقوط وعدم الاعتبار بها.

وبكلمة موجزة ان من زمان ثقةالاسلام الكلينى رحمه الله وصدوق الامة القمى رحمه الله وشيخ الطائفة الطوسى رحمه الله والطبقة الوسطى والمتأخرة كلهم اتفقوا على ما ذكرناه من عدم

التحريف بالزيادة والنقيصة وتبديل الكلمات.

وان التحريف الوارد فهو تحريف المعنى لا تبديل الا لفاظ وتغييرها او زيادة القرآن ونقيصته. وما تعرضنا له انما هو لدفع هذه الشبهة وان كانت في نظرنا لا تستحق الذكر فضلا عن الجواب عنها.

دفع شبهة

إنّ الشبهة في المقام ان القرآن قد جمع من قراطيس وجلود ومن صدور بعض المسلمين وان كثيراً من القّراء، قد قتلوا في وقايع الحروب ومقتضى قتل بعض القّراء والجمع من صدور بعض المسلمين يقتضي ان يقع النقص فيه.

وقد ورد في روايات الآحاد من طرق العامة فراجع مواردها فان في بعضها ان جمع القرآن الكريم، كان في زمان أبي بكر بإلزام من عمر، وفي بعض الروايات ان الجامع له عمر، وبقى القرآن عند حفصة، وبعضها ان الجامع له هو عثمان ابن عفان، وان الحامل للاية، ان يشهد له شاهدان، والا فلا ترسم في المصاحف ولذا لم ترسم آية الرجم، الّتي رواها عمر وحده، وان زيد بن ثابت، هو الّذي جمع القرآن، بأمر أبي بكر وعمر.

وروي ان الكاتب أحد الأشخاص، والراوى شخص آخر من الصحابة، الى آخر ذلك، مما يستغر به الانسان في اول التفكير.

وهذه الروايات، روايات آحاد لا تثبت آيات الكتاب الكريم، الّذي لابدّ أن يكون متواتراً في النقل، ولا تثبت الآية بنقل الآحاد.

وثانيا انك اذا راجعت ما أشرنا اليه، في كتب العامة، تجد التناقض الصريح بين جمع القرآن في زمان أبي بكر، وجمعه في زمان عمر، وجمعه في زمان عثمان وفي ان الجامع زيد بن ثابت، او ان الناقل شخص والكتاب شخص آخر الناقل هذيل، والكاتب من قبيل ثقيف، والانسان بادنى نظرة لا يمكنه الاعتماد على اخبار الاحاد والكتاب الكريم لابد فيه من التواتر.

وثالثا انها متناقضة فهل جمع في زمان ابى بكر، او عمر، او عثمان، او كان مجموعاً في زمان رسول الله ﷺ.

ورابعاً قد بيّنّا ان القرآن لو كان في جمعه تحريف او اختلاف على وجه يختلف

المعنى في القرآءة او في النقيضة والزيادة لكان الكتاب الكريم بين افق عال ومستوى رفيع، وهو كلام الله تعالى وبين مستوى منخفظ منحط الى آخر الانحطاط اذا كان بزيادة من الناس او نقيصة او تحريف في الكلمات، او السور.

فهذه الشبهة لا موقع لها لكل ذي عقل سليم[١].

وقد اعرضنا عن نقل الروايات في الباب لانها شبهة لا تستحق الذكر بعد ما عرفت من بياننا السابق.

وينبغى لمن له ادنى معرفة باعجاز القرآن يرى ان مثل هذه الروايات، خيالات صدرت عن قصور النفوس وعجزها وحب الاثرة وانهم هم الذين جمعوا القرآن افتخاراً.

وانها لو تمت اسانيدها وكانت حجة فهى متناقضة في غاية التناقض فلا نطيل البحث في مثل هذه الاوهام وان وقت الطالب والباحث اهم من تضييع الوقت بهذه الخيالات.

وقد ورد التواتر وفوق التواتر ان القرآن الكريم كان مجموعاً في زمان رسول الله ﷺ وكان الناس تقرأه في المساجد بأصوات عالية والعرب من عادتها تحفظ الشعر الكثير بأسرع الاوقات فكيف برسالة السماء الّتي نزلت على نبيهم ﷺ وكيف يتركونها من الحفظ والجمع او يتركونها من الجمع وكيف نرفع ايدينا عما تواتر نقله من جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ ونأخذ باخبار ضعيفة السند متناقضة ومتباينة.

وليس في عهد رسول الله ﷺ شيء يهتمون به وراء الجهاد او قبل الجهاد الا هذا الكتاب الكريم ويرى الشخص اذا حفظ الكتاب كان له الميزة والرفعة بين المسلمين فلذا يتها فتون على حفظه وكان العرب في حفظ الشعر والمقالات والخطابات هى المهمة لديهم في عصورهم فكيف يتركون حفظه.

ولذا ان قتل بعض الجامعين للقرآن لا يضر لحفظ الكثير من الناس للقرآن حتى كان الناس من زمان الرسول ﷺ وما بعده يتصدّون الى حفظ القرآن.

انظر الى الطبراني يقول: ان القرآن كان مجموعاً في عهد رسول الله ﷺ. وقال ابن عساكر: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ستة نفر من الانصار أبي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وابو الدرداء وسعيد بن عبيد وابوزيد.

---

١. راجع تفسير القرطبى كتاب الاتقان ج١ ص١٠١ وفي صحيح النجارى في باب من جمع القرآن ج٦ ص٩٨ وغيرها من كتب التفسير.

فقد روى جماعة منهم ابن أبي شيبة واحمد بن حنبل والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي والضياء المقدس عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على ان عمدتم الى الانفال وهي من المثاني والى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال، ما حملكم على ذلك فقال عثمان: ان رسول الله ﷺ كان تنزل عليه السورة ذات العدد وكان اذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة الّتي يذكرها فيها كذا وكذا.

وكانت الانفال من اول ما انزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظنت انها منها.

وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا انها منها فمن ذلك قرنت بينهما ولم اكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتهما في السبع الطوال[1].

وروى قتادة قال سألت انس ابن مالك من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ قال اربعة كلهم من الانصار أبي ابن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وابو زيد.

وروى مسروق ان من جملتهم عبدالله بن عمر وعبدالله بن مسعود فقال: لا ازال احبه، سمعت النبي ﷺ يقول خذوا القرآن عن اربعة من عبدالله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب.

واخرج النسائي صحيح عن عبدالله بن عمر قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبي ﷺ فقال اقرأه في شهر.

ولعل قائل يقول ان المراد من الجمع في هذه الروايات هو الجمع في الصدور لا التدوين.

وهذا القول دعوى لا شاهد عليها اضف الى ذلك انك ستعرف ان حفاظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ كانوا اكثر من ان تحصى أسماؤهم، فكيف يمكن حصرهم في اربعة اوستة.

ومن اضواء هذا البيان المتقدم تعرف ان القرآن لابد أن يكون متواتراً وكيف لرسول الله ﷺ ان يبقي القرآن وهو مختلف في النقل ولا بد ان يحكم تواتره بين الناس بالكتابة

---

١. منتخب كنز العمال ج٢ ص٥٢.

والحفظ في صدور المسلمين وان اثبات القرآن بشاهدين او شاهدمما يتنافى مع اعجازه وانه معجزة الدهور اذ يكون صدوره ظنياً لا قطعياً فان الشاهدين وان كانا عادلين فيجوز الخطاء فيهما. واغرب من هذا ان ابن حجر فسر الشاهدين بالحفظ والكتابة برجل من اصحاب الرسول.

وقال الحارث المحاسبى: المشهور عند الناس ان جامع القرآن عثمان بن عفان، وليس كذلك انما حمل الناس عثمان بن عفان على القرآءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والانصار لما خشى الفتنة عند اختلاف اهل العراق والشام في حروف القرآءة. فاما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراآت المطلقات على الحروف السبعة الّتي انزل بها القرآن[١].

وبكلمة موجزة ان التحريف في القرآن الكريم من تغيير كلماته وزيادته ونقصانه،من القضايا الخياليه الّتي لا تجتمع مع بلاغة القرآن واعجازه ولا تجتمع مع الآيات النافية للتحريف ولا تجتمع من كون هذا الكتاب كتاب للامم كلها على اختلاف اجيالها.

ومثل هذا يجب على الله ان يحفظة بين الناس لتتم الحجة على العباد ولا تكون للناس على الله تعالى حجة. وقد عرفت منا ان التغيير لا يتناسب مع اعجازه حتى في صورة النقصان ولم يكن عثمان قد جمعه بل هو مجموع في كتابات وفي صدور المسلمين.

وقد اشار الى ذلك الكتاب الكريم (افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٢].

وليس القرآن الكريم ممن جمعه آحاد من المسلمين ممن تقدم ذكرهم فان الله تعالى، لا يجعل كتابه متواتراً في النقل والقرآءة وليس تحت أيدي المؤلفين والجامعين من الآحاد ولا ان عثمان بن عفان بدّل او غيّر او ألحق سورة بسورة او حذف بسملة من سورة فان كل ذلك مما يتنافى مع اعجاز القرآن وتواتره وانه الآية الباقية على ممر العصور ولا تبديل لكلمات الله.

وان هذا البحث في النظر لا يستحق هذا التطويل ولكن كتبنا ذلك مما شاة لبعض من كتب في تفسير القرآن، واظهاراً ان هذه الشبهة لا موضوعية لها اصلا وأسأله أن يجعل المسلمين على طريق الحق والصراط المستقيم.

---

١. الاتقان ١٨ ح ص ١٠٣.
٢. النساء ٤ / ٨٢

البداء عند الامامية

ذهب الامامية، الى جواز البداء، وطعن عليهم بعض العلماء كالفخر الرازى وغيره، بان ذلك مستلزم الجهل على الله تعالى.

ونحن نبين ما اراده الامامية ليتضح خطأ الرازي وغيره وانه لا يصح لأحد أن يطعن في مذهب من المذاهب حتى يعرف مقصوده ومراده والا كان شتما مجرداً وغرضاً شخصياً.

اعلم ان الله سبحانه وتعالى هو العالم بالاشياء وعلمه كما بيّناه (في المثل الاعلى) حضور الاشياء عنده، على وجه لا يمكن للعقل، ادراك الحضور وتلك الاشياء[1].

وحيث ان العقل لا يدرك الواجب ولا صفاته ادراكاً تاماً، لان ما كان من شأنه التعلق بالغير وانه عين الربط في الواجب كوجود الممكنات كيف لها العلم والاحاطة، بمن كانت ذاته صرف الوجود وهو القائم على كل موجود وهو المعنى الاستقلالي بكل معنى الكلمة وان كل ما عداه من وجود الممكنات صرف التعلق بذاته المقدسة وصرف الربط، لا انها اشياء لها الربط، نظير الموجودات العرضية بالقياس الى الجواهر.

ومن هنا كان وجودها فقريا ووجوده تعالى بمنتهى الغناء والاستقلال ومن كان علمه بهذا النحو سبحانه وتعالى كيف يغيب عنه شيء او انه لا تنكشف حقائق الاشياء عنده حتى يبدو له ما خفي عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا وما قدرو الله حق قدره.

وهذه كتب علماء الامامية، كصدر المتألهين في اسفاره والخواجة نصير الدين الطوسى في كتبه والشيخ الرئيس، فيما حرره والسيد الداماد وغيرهم ممن اذا راجع الانسان كتبهم وجدها صريحة فيما بيّناه وان جميع الموجودات صرف التعلق بالذات المقدسة وان

---

١. المثل الأعَلَىٰ في الفلسفة ج٢ ص١٤٨

علمه لا يغيب عنه شيء.

فكيف يبدو له ما خفي عليه هذا علمه الحقيقي وقضاؤه الواقعي وليس فيه بداء متغير.

واما البداء الّذي تقول به الامامية، فهو ما صرحت به ائمة الهدى من ان الله تعالى على وجه لا تبديل فيه ولا تغيير وهذا لا يجرى فيه البداء ايضاً واخرى ان يعلمهم بعلم ولكن لا يصرح لها بذلك لوجود مصالح خفية وهو اولى بها من خلقه تعالى وتكون المصلحة في اخفائها عنهم، حتى لا يغالى الناس فيهم ولا يجعلوا الملائكة والانبياء والاولياء اراباباً من دون الله، كما قال امير المؤمنين عليه السلام في ليلة ضربته هي الليلة ولكن يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب.

وقد وردت الاحاديث المتواترة في ذلك انظر الى ماورد في الروايات روى الصدوق في اكمال الدين باسناده عن أبي بصيرو سماعة، عن ابي عبدالله عليه السلام قال من زعم، ان الله عزوجل يبدواله في شيء لم يعلمه امس فابروا منه[١].

وروى العياشي عن ابن سنان عن ابي عبدالله عليه السلام يقول: ان الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ويمحو ويثبت وعنده ام الكتاب.

وقال: كل شيء يريده الله فهو في علمه قبل ان يصنعه، ليس شيء يبدو له الا وقد كان في علمه ان الله تعالى لا يبدو له من جهل[٢] الى غير ذلك، من رواية عمارة ابن موسى، من طريق العياشى وروى شيخ الطائفة في كتاب الغيبة ان جميع هذه الاخبار المتواترة قد صرحت، بان هناك علم لا تبديل فيه وهو العلم الازلي المعبر عنه في الكتاب العزيز بقوله تعالى (وعنده ام الكتاب) علم قابل للمحو والاثبات وقد اشار بقوله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب)[٣].

وهذا العلم هو الّذي يصل اليه الانبياء والرسل والاولياء والملائكة وهو لوح المحو والاثبات.

فالبداء بمعنى ان الله يبدي للملائكة والانبياء عليهم السلام ما خفي عليهم من العلم الازلي وقد عرفوه في لوح المحو والاثبات.

---

١. نقلا عن البحار باب البداء والنسخ ج ٢ ص ١٣٦ ط كمپانى.
٢. نقلا عن نفس المصدر ص١٣٩. ٣. الرعد ٣٩/١٣.

وان الانسان اذا عرف ان هناك علم وراء ماتعرفه الانبياء والاولياء، ينقطع الى الله تعالى انقطاعاً حقيقا ويرجو من الله ان لا يجرى عليه لوح المحو والاثبات.

ولذا ورد ان الصدقة تطيل العمر وكذلك صلة الارحام والاحسان مع المخلوقين.

ومن هنا فقد روى الصدوق في التوحيد بإسناده عن زرارة عن أحد الائمة عليه السلام قال: ما عبدالله عزوجل بشيء مثل البداء.

وروى بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما عظم الله عزوجل بمثل البداء، الى غير ذلك من الروايات مما يدل على حقيقة البداء بمعنى الابداء عند الامامية، بل ويدل على ذلك ما رواه العامة.

روى البخاري باسناده عن أبي عمرة أنّ ابا هريرة حدثه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ان ثلاثة في بنى اسرائيل، ابرص، واعمى، واقرع، بدى الله عزوجل ان يبتليهم[1].

وقد ورد عن العامة ايضاً، ان الصدقة والدعاء يغيران القضاء وكيف يصح في علمه الازلى وما هو الا الابداء واطلاق البداء على الابداء تنزيلا لحصول المشاكلة بينهما، في رواياتنا وروايات بعض العامة.

النسخ

ان من الواضح معقولية النسخ وجوازه ووقوعه في الشرائع وان ذهب اليهود والنصارى، بامتناع النسخ ظنا منهم انه يستلزم الجهل والعياذ بالله.

وما علموا ان حقيقة النسخ الّتي تقول بها الشرائع والاديان، هو انتهاء زمان الحكم، لخصوصية تقتضي عدم استمرار الحكم في كل زمان بل ان ابناء الزمان السابق، حيث لم تتكامل البشرية لم تبلغ مقام اوجها لابد وان تكون الاحكام بالشرائع السابقة مؤجلة بزمان خاص ومقيدة بعصر مخصوص.

ومحل الكلام في النسخ هو في الاوامر والنواهي الواقعية، من الاحكام التكليفية والواضعية، دون الأوامر الامتحانية، فان نسخها بمعنى انتهاء زمانها من اوضح الواضحات.

فالنسخ لا يستلزم عدم علمه تعالى، حتى يكون قد بدى له، بخلاف ما حكم به.

ومحالية النسخ، او جوازه مبني على مذهب العدلية من المصالح والمفاسد.

---

١. صحيح البخارى ج ٤ باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ص ١٤٦.

واما ثبوت النسخ، على مبنى مذهب الاشاعرة فواضح إذ المصلحة قائمة بالامر فقد يذهب امر ويأتي امر آخر وهكذا في النواهى والاحكام الوضعية.

وقد ذهبت اليهود والنصارى الى عدم جواز النسخ ما تفطّنوا، ان توراتهم قد تعرض للنسخ في احكام كثيرة، منها الجندية الّتي كانت من الثلاثين الى الخمسين ثم صارت من الخمسة والعشرين فما فوق ثم صارت من العشرين فما فوق ومن تغيير احكام السبت والنذرو القسم.

وقد ورد نسخ القصاص في الجوارح العين بالعين واليد باليد والرجل بالرجل بماورد في الاصحاح الخامس من انجيل (متّى عدد ٣٨) سمعتم انه قيل: عين بعين وسن بسن واما انا فاقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الاخير ايضاً.

وقد اجاد في هذا الموضوع من ثبوت النسخ في عدة موارد، وفي ان التوراة والانجيل، لا يصلحان ان يكونا كتابين منزلين من الله، على ما هو المعروف مما في ايدى اليهود والنصارى وان الانجيل قد كتب بعد ارتفاع عيسى عليه السلام من عدة اشخاص ومن ثبوت اشياء في التوراة لا تتناسب مع الله تعالى، من نسبة الجهل والضعف الى الله وان الله لا يدري، بأكل آدم من الشجرة وان يعقوب قهر الله، بان جعل النبوة في احد اولاده، الى غير ذلك مما كتب في التوراة والانجيل[1].

ولذا طوينا البحث هنا في التفصيل عن ذلك واحببنا الرجوع الى كتب البلاغي قدس سره وكتاب الشيخ (رحمة الله) ابن خليل الرحمن الهندى ولو امتنع النسخ ان دين النصرانية تابع لشريعة موسى عليه السلام وليس لعيسى بن مريم عليه السلام شريعة مستقلة وهو، كأرميا ويوشع وداود عليهم السلام في تبليغ شريعة موسى عليه السلام.

واعلم ان النسخ لا يمكن ثبوته بروايات الآحاد، فان الكتاب قطعي متواتر في جميع آياته فلا تدل عليه رواية الآحاد في النسخ.

ومن اضواء ذلك تعرف توهم، ان آية الرجم نسخت تلاوتها وبقي حكمها وليس الا ان عمرأتى بآية الرجم وادعى انها من القرآن فلم يقبل منه قوله المسلمون وهى تتناسب مع

---

١. المقدس البلاغي في الرحلة المدرسية والهدى الى دين المصطفى فقد اجاد وافاد بما هو واضح، واقام الادلة والنقل في كتبه؛ فاعلى الله درجته وطيب الله مرقده وحشره في اوج الانبياء (ع) والابرار من عباده؛ فراجع ما كتبه فقد تكلفت كتبه هذه المواضيع؛ بما لا مزيد عليه.

اعجاز القرآن وبلاغته.

واما النسخ للحكم، فغير ممتنع عقلا سواء كان بآية او من السنة، لكن على وجه ان يكون ذلك متواتراً ومقطوعاً به بكلمة موجزه ان حقيقة النسخ هو انتهاء الحكم في عصر من العصور لا رفع الحكم الشرعى الثابت على ممر العصور.

وسيأتى منا التعرض، عند تفصيل الآيات الى ذلك، ولا حاجة هنا الى الاطالة.

موقف القرآن من التوراة والانجيل

انك اذا راجعت الكتاب الكريم، وجدته على اكمل وجه من جميع جهاته كما مرّبيانه.

واذا راجعت التوراة او الانجيل تجد الاختلاف الكثير بينهما وعدم مطابقتهما للعقل السليم وترى القصص الّتي فيهما خالية عن البلاغة وموجبة للشك والترديد في نسبتها الى الله تعالى.

وتجد الاختلاف بين الاناجيل الاربعة والتوراة وترى كثيراً مما هو في التوراة والانجيل، مما لا يتقبله البرهان وفطرة العقل وسيأتي توضيح ذلك في تفسير الآيات القرآنية المتعرضة لبني اسرائيل.

وأعرضنا عن التفصيل هنا وتركنا التعرض للتناقض في التوارة والانجيل وانهما لا يصح ان ينسبا الى الله تعالى والالزم المحذورات الكثيرة الّتي هو أعزّ وأجلّ شأنا مما هو مذكور في العهدين من التوراة والانجيل.

القراآت في القرآن

نتعرض الى القراآت هنا اجمالا وتفصيلها في الآيات في الكتاب المجيد ان القراآت لم تثبت عن اهلها إلاّ باخبار الآحاد وبعض اسانيد تلك الاخبار غير موثوق بها وعلى فرض ان القراآت ثابتة، فلابد من ثبوتها على وجه التواتر من صاحب الشريعة ﷺ لانك عرفت منا ان اخبار الآحاد في غير الاحكام الشرعية محتاج الى دليل الاعتبار وإلاّ فالقاعدة تقتضي ان لا تقبل الروايات الامتواترة، او ان الخبر محفوف بالقرآئن القطعية للعلم.

وكل من التواتر والخبر المحفوف بالقرينة القطعية مفقود في اثبات القراآت.

وثانيا: وقوع الكثير من العلماء المتأخرين في الطعن على بعض القرّآء كإبن جرير الطبري، اذ أنكر قراءة ابن عامر وطعن بعضهم على قراءة حمزة وبعضهم على قراءة ابن كثير.

وثالثاً: لو كانت القراآت متواترة عن الرسول الاعظم ﷺ كيف جاز ان تختلف وكيف جاز للرسول ﷺ ان يقر القراءة الضعيفة في البلاغة مع القراءة البليغة الدالة على اكمل الوجوه من البيان.

ورابعاً: انه لوتم ما ذهبوا اليه لوجب تحقق التواتر الى ان يصل الى القّرآء السبعة او العشرة وان تثبت القرآءة عن الرسول الاعظم ﷺ على وجه التواتر من غير تناقض بينها ودلالة كل واحدة منها على اوج البلاغة والفصاحة والمفروض عدم تحقق ذلك وان المراجع ليرى هنا عدم التواتر في الطرفين.

وذهب اكثر علماء العامة الى عدم صحة القراآت الا قراءة عاصم ونافع.

وخامساً: انّه لو تمّت القراآت وكانت أحد القراآت في غاية البلاغة دون القراآت الأخر، فكيف يؤخذ بغير البليغ وينسب الى رسول الله ﷺ او لصحابته مع ترك تلك القرآءة البليغة الّتي هى منتهى الاعجاز.

وسيأتى انشاءالله منا في التعرض للآيات الكريمة ان لا تواتر في القراآت وعلى هذا ذهب الأكثر من علماء العامة الى عدم التواتر وان اعتبار التواتر ليس الاقضية خيالية، فالمتبع القراءة المعروفة، من عاصم ونافع لانها ابلغ واحسن القراآت توجهاً في افادة المعنى.

المواضيع الكلية الّتي تعرض لها القرآن على وجه الاجمال

نتعرض هنا الى المواضيع الكلية على وجه الاجمال والا فالمواضيع الّتي تعرض لها القرآن الكريم كثيرة جداً ولا يمكن بيانها الاعند التعرض لكل -آية «التوحيد وصفاته وحكمه واوامره» «يسبح لله ما في السموات وما في الارض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[١] «سبح اسم ربك الأعلى الّذي خلق فسوّى الى آخرها»[٢] «الهكم إله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم»[٣] «الله لا اله الا هو الحي القيوّم»[٤] «شهد الله انه لا اله

١. التغابن آية ١.
٢. الاعلى آية ١.
٣. البقرة آية ١٦٣.
٤. البقرة آية ٢٥٥.

الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم»[١] «ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كلّ شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل»[٢] «لو كان فيهما الهة الا الله لفسد تا فسبحان الله رب العرش عما يصفون»[٣] «هو الله الخالق البارئ المصوّر له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم»[٤] «هو الله الّذي لا اله الا هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبر سبحان الله عما يشركون»[٥]. وقد تكثرت الآيات في ذاته وصفاته الثبوتية والسلبية والصفات الفعلية وان لا معبود سواه.

«النبي ﷺ ورسالته» «وما ارسلناك الا رحمة للعالمين»[٦] «وانك لعلى خلق عظيم»[٧] «انا انزلنا عليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيما»[٨] «قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعاً الّذي له ملك السموات والارض لا اله الله هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمّي الّذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون»[٩] وقال في سورة هود مخاطبا لنبيه «فاستقم كما امرت»، الى غير ذلك من الآيات في القرآن الكريم.

«الانبياء عليهم السلام ورسالة السماء»ان الله قد تعرض لانبيائه من انى جاعل في الارض خليفة وحالات ادريس عليه السلام ونبوته ونوح عليه السلام ومالاقى من قومه وابراهيم عليه السلام وتأسيسه للكعبة، وموسى عليه السلام في رسالته الى فرعون وعيسى عليه السلام الى قومه وحالات عيسى عليه السلام.

وقد تعرض القرآن الكريم ايضاً للانبياء في ارسالهم الى الامم وان بعضهم مشرعين للاحكام، كإبراهيم وموسى ومحمد ﷺ وغيرهم، وقد مدح الانبياء على تلك الصعوبات الّتي لاقوها من قومهم، من قوله: «وقربناه نجيا»، «ونعم العبد أنّه أوّاب» وقوله: «واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولانبيا[١٠] الى غير ذلك من الآيات الدالة على تعظيمهم والتعبير بالاداب معهم،

«القضاء والقدر والجبر والتفويض» يأتي مفصّلا على ممر الآيات.

---

١. آل عمران آية ١٨.
٢. الانعام ١٠٢
٣. الانبياء آية ٢٢.
٤. الحشر آية ٢٤.
٥. الحشر آية ٢٣.
٦. الانبياء آية ١٠٧.
٧. ن آية ٤.
٨. النساء ١٠٥.
٩. الاعراف آية ١٥٨.
١٠. مريم آيه ٥٤

«القرآن وعبره» وسيأتى بيانها على ممر الآيات وهي كثيرة،

«الاسلام شئونه (ان الدّين عندالله الاسلام[١])(وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتو الزكاة وذلك دين القيّمة[٢]) (ومن يبتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين[٣])، ان الاسلام دين البشرية كافة مذجاء آدم عليه السلام الى ان بعث الله الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله فقد جاء متمّما للاخلاق والدين وانما تختلف الشرائع بحسب العصور والاجيال وإلاّ فالدّين الّذي لا تغيير فيه ولا تبديل ولانسخ على ممر العصور والاجيال هو رسالة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وآله.

«العقائد» وقد جاءت اصول الاديان بالتوحيد ورسالة الانبياء والاعتراف بيوم الدين والجزاء بالثواب والعقاب وبيان الجنة والنار ويوم الحساب والآيات كثيرة في هذا الموضوع.

«الاحكام في شريعة الاسلام» العبادات والمعاملات والنكاح والقصاص والديات والمواريث وغيرها قال تعالى (اقيموا الصلاة وآتوالزكاة[٤]) (يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون[٥])(وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق[٦])، وسيأتيك الكثير من احكام هذه الشريعة من العبادات والمواريث والقصاص، في سورة البقرة وغيرها «الايمان والكفر والنفاق» قد تعرض القرآن الكريم في اوائل سورة البقرة والمنافقين وقد تكرر ايضاً في كثير من السور،

«الاخلاق» اتّضحت الآيات الكريمة في القرآن الكريم بياناً للاخلاق الفاضلة النفسية في سورةالحجرات ولقمان وغيرها.

«تهذيب الاخلاق» قد تعرض القرآن الكريم في تهذيب الاخلاق وآداب البشرية، من الامانة والصدق والورع والزهد والاحسان وآداب الوالدمع والديه، والوالدين مع اولادهما والجار مع جاره والتعاون والمودة وحسن السلوك وعفاف النفس عن المحرمات والاعراض والاصلاح بين الناس حتى مع الكفار من اهل الذمة والرحمة بين البشر والاستقامة في الخلق الكريم وسلامة الضمير والعفو عند المقدرة والتضرع والخشوع والحكم بالقسط والعدالة والتواضع والصبر والتوبة، وبيان التوجه الى الفضائل النفسيه

١. آل عمران آية ١٩
٢. سورة البينه آية ٥
٣. آل عمران آية ٨٥
٤. البقرة آية ٤٣
٥. البقرة آية ١٨٣
٦. الحج آية ٢٦

والتباعد عن الرذائل، وسيأتي تفصيلها على ممّر الآيات.

«الاقتصاد والنظام الاجتماعى» في الاقتصاد اشار القرآن الكريم «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين»[١] «ولا تمش في الارض مرحاً انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا»[٢] «فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور»[٣].

(وفي المؤآمرات الباطلة) «الم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول واذا جاؤك حيّوك بمالم يحيّك به الله ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير»[٤] «انما النّجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون[٥] «ياايها الذين آمنوا اذا تناجيهم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى الله الّذي اليه تحشرون»[٦]. «وفي القضاء» «يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى»[٧]. «وفي النظام الاجتماعى» «الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»[٨] «ان الله يأمر بالعدل والاحسان»[٩] «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان»[١٠].

(وفي الاصلاح بين الناس) «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا الّتي تبغي حتى تفيىء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين»[١١] «انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتّقوا الله لعلكم ترحمون»[١٢].

«وفي اداء الامانة» «ان الله يأمركم ان تؤدّوا الأمانات الى اهلها واذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل ان الله نعمّا يعضكم به إنّ الله كان سميعا بصيرا»[١٣].

«وفي الاخاء» واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا»[١٤]. وقد وردت الآيات

---

١. الاعراف آية ١٣١
٢. الاسراء آية ٣٧
٣. الملك آية ١٥
٤. المجادله آية ٨
٥. المجادلة آية ١٠
٦. المجادلة آية ٩
٧. سوره ص آية ٢٦
٨. آل عمران ١٣٤
٩. النحل (٩٠)
١٠. المائدة ٢
١١. الحجرات آيه ٩
١٢. الحجرات آية ١٠
١٣. النساء ٥٨
١٤. آل عمران ١٠٣.

الكثيرة في اداء حقوق الابناء على الآباء وحقوق الآباء على الأبناء وحقوق الزوجة على الزوج وحقوق الزوج على الزوجة والأقارب بعضهم بعضا وميزان التوارث والمعاشرة، وقد حثّ القرآن على طلب العلم والفضيلة والتقوى وهي الّتي توجب كمال الانسان الى أوج الترقّي الى غير ذلك مما سيأتي بيانه انشاء الله تعالى.

التوحيد

ان معرفة الله تعالى عزشأنه فطرية في اذهان البشر وجبلّة في نفوسهم، لما اودع الله في نفوس البشر، من الانتقال من المعلول الى العلة ومن الاثر الى المؤثر، ولذا ان ادراك الانسان للموجد الخالق والمدبر امر فطري في النفوس وارتكازي في العقل ومشاهد لكل نفس مدركة.

ولذا ان ائمة الهدى عليهم السلام قد ورد عنهم كثيراً فيمن يخاطبهم من الملحدين لله تعالى والجاحدين لوجوده، ببيان ما هو فطرة العقل، فيسأل الامام الصادق عليه السلام ذلك الملحد بأنك اذا ركبت البحر وجاءتك الاهوال والأخطار، هل تفزع نفسك الى شيء فقال: بلى، قال فمن تفزع نفسك اليه ليس الا الله، وعندها يرجع الملحد الى التوحيد فهو اظهر الموجدات وأنورها.

ولما كانت فطرة العقل الادراك على وجوده، وانه اوضح الموجودات وانه ارتكازي فطري لكل شاعر مدرك.

وعند ذلك فنقف على ما يفيد المقام بالوجدان مرة وبالبرهان اخرى.

اما البرهان فتوضيحه انا اذا لاحظنا عنوان طرد العدم وليس ذلك الا الثبوت والوجود وعندما يلحظ الوجود بدقة وتأمل نرى ما نشاهده في حواسنا وعقولنا من وجود انفسنا الموجودات من الحيوانات والكرات والكواكب والافلاك لا نرى انها موجودة بنفسها وقائمة بذاتها بل نرى بالفطرة والعقل ان وجودها قائم بغيرها.

وعند ذلك يلتفت الذهن، الى ان الموجود لم يكتسب الوجود من نفسه وليس قيامه بنفسه وانما اكتسب الوجود من غيره وان غيره قائم عليه وهو الّذي اخرجه من ظلمة العدم الى هياكل الوجود على اختلاف مراتب الوجود في القوة والضعف.

ويرى العقل بفطرته ان هذه الموجودات قائمة بوجود ما اكتسب الوجود من غيره ولا قائم بغيره بل نفسه حقيقة الوجود وحقيقته طرد العدم لا يعتريه حد، ولا يشوبه ضعف ولا يعتريه النقصان فهو الغنّي بكل معنى الكلمة وغيره الفقر بكل معنى الكلمة.

فالموجودات طراً عين الفناء والفقر لتلك الذات المقدسة النزيهة عن النقصان وهي في منتهى الكمال ومنتهى الوجود.

واجمالا اذا لاحظنا في عقولنا رأينا ان الموجودات الّتي نشاهدها عين الفقر والاحتياج وماهياتها عين اللاإقتضاء فلابد وان ترجع هذه الموجودات المفتقرة في وجودها وماهياتها الى من يبرزها من العدم ويلبسها ثوب النور والثبوت والاستقرار والحياة.

بيان وتحقيق

اعلم ان المراد بالوجود في اصطلاح الفلاسفة هو المتقرر والثابت والاعيان الخارجية فاذا نظرت الى حقيقته وجدتها صرف طرد العدم ونفس العينية والخارج.

وبهذا المعنى لا تكرر في الوجود ولا تثنّي حيث ان الشيء بذاته لا يتكرر ولا يتثنّى وليس محكوماً بحكم من الاحكام فالوجود في هذه المرحلة هو عين طرد العدم وعين ذاته وحقيقته من غير ان يتقيد بقيد او بجهة من الجهات.

وحقيقته عين طرد العدم وهو الثابت ولا برهان عليه، لا برهانا (لميّاً) لينقل من العلة الى المعلول ولا برهانا (إنيّا) لينقل الذهن من المعلول الى العلة، اذ الشيء بما هو ذاته وعين حقيقته لا علّية فيه ولا معلولية اذ علّية شيء لشيء ومعلوليّة شيء عن شيء لابد فيها من التعدد وذات الشيء بما هي لا تعدد فيها، اذاً لا يعقل علّية الشيء لنفسه او معلوليّته لذاته، هذا اذا نظرنا الى حقيقة الوجود وقصرنا الفكرة عليه.

اما اذا نظرنا الى الوجود بنظرة ثانية وهو ان للوجود مراتب وتعدد وان المرتبة الّتي هى صرف الوجود والعينية من غير أيّ حيثية كانت لا حيثية تقييدية ولا حيثية تعليليه فهو فوق كل مرتبة وليس له حدّ ولا ماهية واذا نظرنا الى غير ذاته تعالى، رأينا الوجود ذا مراتب متعددة في القوة والضعف وكلما قرب الوجود في مراتبه وحدوده الى الحق تعالى كان اقوى واشد وكلما بعد عن الحق تعالى كان اضعف.

فالوجودات الامكانية مما تتعلق بها الماهيات والحدود واما وجود الحق تعالى

فمنّزه عن ذلك وهو فوق الكمال والتمام.

ويعبر الفلاسفة عن مفهوم الوجود الشامل لوجود الحق ووجود الممكنات ان وجود الحق هو بشرط لا أي يمتنع في حقه كلّ حد او ماهية او ضعف ونقصان ويعبرون عن الوجودات الامكانية بالوجودات المقيدة بشرط شيء كالانسان المقيد بالناطقية او بشرط لا كالانسان المقيد ان لا يكون حيوانا صاهلا او نحوه ويطلقون على الكل عنوان الوجود اللابشرط الشامل، لوجود الحق ووجوده الممكنات.

وليتوجه نظر القارئ ان التشكيك في الوجود من الواجب والممكن تشكيك بين وجود الواجب ووجود الممكنات على نحو خاص من التشكيك فان وجود الواجب صرف التمام والغنىٰ ووجود الممكنات صرف النقص والفقر وان وجود الواجب هو المعنى الاسمي بماله من المعنى الاسمي وبما تحيط به هذه الكلمة من جميع الجهات وهو سبحانه فوق التمام وفوق الكمال وان كل عبارة يؤديها المخلوق هي دون مقام ذاته.

واما وجود الممكنات فهو وجود المعنى الحرفي المندك في المعنى الاسمي وهو النقصان الذاتي بالقياس الى منتهى الكمال الذاتي ووجود الممكن هو صرف التعلق والربط بمقام الواجب، فالممكنات طراً بالقياس الى واجب الوجود عزّ إسمه هي تعلّقات نفس ذواتها ووجودهابذاته المقدسة وهى محتاجة بالذات اليه ولااستقلال لكل موجود عنه فالكل قد مدّيد السؤآل والاستعطاء.

وان الممكنات كلها عين الفقر الذاتى والفناء الحقيقي وصرف الآلية لذات الحق، فالإضافة اليه تعالى اضافة المعلول الى العلة التامة والمقهوريّة الى القاهرية على وجه ما بيّناه من تعلق ذواتها بالواجب وفناء وجودها بالحقّ وليست الاضافة اضافة المجرّدات اليه كسائر الاضافات وانحائها ولذا يعبر الفلاسفة عن هذه الاضافة «بالاضافة الاشراقية».

فأحد الوجودين منتهى الظهور وفوق الاستقلال والآخر منتهى الفناء والفقر وعين الربط والانتساب.

وليس وجود الممكنات من قبيل الشيء الذّي له الارتباط بالآخر بل عين الإرتباط والاضافة بالقياس الى الحق وليس الوجود في الممكن من سنخ ما يضاف الى شيء آخر، بل حقيقته حقيقة الوجود الرابط دون الوجود الرابطي فهو عين الانتساب والاضافة لا ان له الانتساب والاضافة.

والتشكيك هنا على مذهب صدر المتألهين وكثير من المحققين هو التشكيك بالمعنى الاخص وان الوجود عندهم واحد ولكن بعين الوحدة كثرة.

والتعبير منهم بان الوجودات الامكانية، كمعان حرفية ووجوده تعالى كالمعنى الاسمى فيرادبه التقريب والاليس كمثله شيء.

وقد بينا في «المثل الاعلى» هذا الوجه وانه لا يستلزم التشبيه للحق تعالى وأنّى للظلّ في الشبه من صاحب ذي الظل وقد قررنا هناك ما اختاره كثير من المحققين القدماء والمتأخرين من عدم المشاركة بين الواجب والممكنات في الوجود وان من تمام العلة وكمالها ان تؤثر في الموجودات على اختلافها وان السنخية بين المعلول وعلته انما هي في عالم الطبيعة وان عدم السنخية هو من كمال مراتب العلة وان مفهوم الوجود مفهوم إنتزاعيّ عرضيّ كمفهوم الشيء المنتزع من حقائق متباينة[١].

وسيأتى قريبا، ان استدلال من ذاته على المعلولات هو الاستدلال اللمى والبرهان، من العلة الى المعلول، وهذه المعرفة للصديقين والابرار، وان الانتقال من المعلول الى العلة، هو معرفة عموم العباد له تعالى.

وسواء انتقل العارف والموحد من ذاته الى مخلوقاته او من مخلوقاته الى ذاته المقدسة، فلا يراد به المعرفة لذاته تعالى والوصول الى حقيقته.

قال امام الموحدين امير المؤمنين عليه السلام: «كلما صورتموه باذهانكم بادق معانيه فهو مخلوق لكم مردود عليكم»، وقال اميرالمؤمنين عليه السلام في بعض خطبه القيّمة:، «وهو الّذي لاتدركه بعدالهمم ولا يناله غوص الفطن»[٢].

وان التأثير في حال عدم السنخية، ليس نقصاً في العلّيّة، ولا ضعفاً فيها بل هو من غاية كمالها، والسنخية لم تتحقق الا في العلل الامكانية الناقصة والطبيعية.

وعلى هذا البيان لا سنخية بين العلة الحقيقية والمعلول، لانهم انما قاسوا المقام بالعلل الامكانية الطبيعية، واذا ثبت وتقرر ان ليس في العلل الممكنة علّة حقيقية هي مصدر الفيض حقيقة، بطل القياس من جعل العلة الحقيقية، كالعلل الممكنة، واصبح القياس هنا، تحويلا على امر مجهول.

---

١. المثل العليا في الفلسفة للمؤلّف ج ١ ص ١٠٤ - ١١٥
٢. نهج البلاغة - الخطبة الأولى

وعليه فلا سنخية بين الواجب والممكن، ولا من حقيقة واحدة في الوجود، اذليس في دائرة الامكان، الامعدّات وليست عللا واقعية، والسنخية تحتاج الى الاحاطة بالجانبين، من العلة والمعلول، على وجه الحقيقة، وهو امر لا يسعنا الاطلاع عليه، ولا التعرّف على جهة منه.

وان هذا الوجه اقرب الوجوه الى كلمات الانبياء والاولياء وان الادعية والاذكار والآيات القرآنية، واقوال الرسول ﷺ وآله المعصومين عليهم السلام مما يظهر منها اقربية هذا الوجه، دون سائر الوجوه.

وان الاراء الفلسفية النى يمكن الركون اليها، اما على ما قربناه، كما عليه قدماء الفلاسفة، من جميع الاديان، من اليونانيين والمسلمين وجميع الإلٰهيين، واما ان يختار ما ذهب اليه صدرالمتألهين والمتأخرين، وان من اختار ذلك، فلا يوجب تكفيرا، ولا فساداً في العقيدة، بل هو مباحث نظرية، يمكن ان يرى الفيلسوف ما اخترناه او ما اختاره صدر المتألهين، وان الواجب هو الحق الّذي لا يشوبه البطلان، والعلم الّذي لا يشوبه الجهل، والقدرة الّتي لا يعتريها العجز، والارادة الّتي لا يطرو عليها التردد، والنور الّذي لا يشوبه ظلمة وجود كله، وعلم كله، وقدرة كله، وارادة كله، كما صرح بذلك المعلم الثانى الفارابى، فقال الواجب كله علم وكله قدره وكله ارادة، وهكذا سائر صفاته.

فهو عين الوجود، بلا أي جهة وتحديد، ولا أيّ تعليل، وهو الواجب الّذي لا يخالطه البطلان، وبه يجب كل وجود وهو القائم على كل موجود.

فظهر ان ذاته سبحانه عين الحق والثبوت المحض وانه الواقع الّذي لا مانع فوقه، وقوله الحق والصدق، واليه ينتهى كل واجب بالغير، وهو الحق في ذاته وصفاته واسمائه وافعاله، قال الشاعر لبيد بحضور الرسول ﷺ

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محاله زائل

ولما سمع الرسول ﷺ هذا البيت من لبيد، وان لم يصل لبيد الى اعماق المعنى الّذي نطق به روح القدس على لسانه، اهتزّ النبي ﷺ لهذا البيت اهتزازاً عرشيا.

الدليل على التوحيد

ان الدليل على التوحيد والصانع الخالق، بعدد انفاس الخلائق، وذرات الرمول

وقطرات البحار والانهار والامطار، وبقدر التفكير لكل مدرك شاعر، وبكل لمعة من نور، اونفس من النفوس والعقول، الى غير ذلك.

والطرق الى الله تعالى، وان كانت متعددة، الا انه تارة يقع الاستدلال من معرفته الى معرفة المخلوقات ويعبر عن هذا، بدليل الصديقين والابرار، والانتقال من العلة وهو الله الى المعلول وهى المخلوقات.

وبيانه انه بعد ما ثبت ان وجود الحق تعالى هو الوجود الّذي لا يعتريه حد ولا ماهية، ولا معلول لغيره ولا مسبوق بغيره. كان صرف النور، ومحض الوجود.

والشيء الموجود اذا كان صرف طرد العدم ولم يكتسب الوجود من غيره، لان حقيقته عين وجوده وذاته عين النور الّذي لا يشوبه ظلمة، ولا يعتريه ضعف، صار وجوداً لم يعلل من غيره، ولم يكتسب حقيقة طرد العدم الا من ذاته وقدسه تعالى.

انظر الى المثال المعروف، انك اذا قلت الجسم ابيض، فان هناك امرين، احدهما اتصاف الجسم بالبياض وهذا من قبيل اتصاف الشيء بغيره، فالجسم من حيث هولا يوصف بالبياض، الا اذا عرض عليه البياض.

الثانى اتصاف البياض بالبياض، فانه من باب اتصاف الشيء بنفسه، وهذا الاتصاف ليس من باب الصفة والموصوف بل من باب ان الشيء عين ذاته فالوجود ذاته، لا تحتاج الى اتصاف بالوجود، فذاته تعالى عين الوجود، قال عليه السلام: «يا من دل على ذاته بذاته»[1]، ان ذات الوجود لا تكتسب الوجود من غيرها وان كل وجود ما عدى ذات الحق، قائم بوجوده، كل ما بالغيره ينتهى الى ما بالذات.

فبياض الجسم ينتهي الى ذات البياض، وكل وجود إمكاني من وجود الملائكة والانسان والافلاك والحيوانات والجمادات، قد اكتسب الوجود واتصف به من قبل الحق، لانه هو الموجد لها، فوجودها جميعاً هو بتبع وجوده تعالى، وعلم الانسان والملائكة بالاشياء تبعالعلمه، وقدرة المخلوقات تبعاً لقدرته، فهو دال بذاته على ذاته، لان الوجود الحقيقى لا يكون معلولا لغيره، ولا مخلوقاً لوجود آخر، ولا علة لنفسه، لانه منتهى الوجود، وعين الثبوت والحقيقة، الّتي لا يعتريها حد ولا نقصان وهو تعالى كما قال عليه السلام: «وتنزه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملائمة كيفياته، يا من قرب من خواطر الظنون وبعد عن

١. دعاء الصباح - مفاتيح الجنان

ملاحظة العيون وعلم بما كان قبل ان يكون». وكما قال سيد الشهداء في دعاء عرفة: «متى غبت حتى كان غيرك مظهراً لك»، فهو تعالى في غاية الظهور ونهاية التجلّي وكل متجل وظاهر قائم به فهذا الدليل على التوحيد هو ان ينتقل العبد من ذاته الى مخلوقاته.

قال تعالى (أفي الله شك فاطر السموات والارض) (ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحورا)[١] (ان الهكم لواحد)[٢] (ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو، كل شيء هالك الا وجه له الحكم واليه ترجعون)[٣] الى غير ذلك مما تقدم ذكره في آيات التوحيد.

الدليل الثاني: وهو الّذي يفهمه عامة الناس ويرتكزون اليه بحسب فطرتهم ووجدانهم وهو ان ينتقل العبد من المخلوقات الى الخالق ومن الموجودات الّتي يشاهدها ويدركها من وجود الافلاك والملائكة والانسان والعناصر فينتقل منها الى الخالق المدبر والى التوحيد الحقيقى الّذي لا يشوبه شك وعندها فكل موجود صغر او كبر حتى الرمل وقطرات المطر وانفاس الخلائق وسير الطبائع وحركات الافلاك لحظة بعد لحظة وحركة بعد حركة كلها دلائل الى معرفة الخالق.

«وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى والاخرة وله الحكم واليه ترجعون»[٤]، «ولا تجعلوا مع الله الهاً آخر أنّي لكم منه نذير مبين»[٥] لا اله الا هو يحيي ويميت ربكم وربّ آبائكم الأوّلين»[٦] الى غير ذلك مما تقدم ذكره وتشاهده في الكتاب الكريم من دلالة الخلق على الخالق.

صفاته تعالى

ان الله تعالى هو العالم القادر الحى المريد السميع البصير، وهذه الصفات هى عين ذاته وحقيقة وجوده وليس هو تعالى من قبيل الموصوف والصفة كقولك زيد عالم او كاتب.

ولو تعددت الصفات والعياذ بالله وكانت غير الذات لزم تعدد الواجب ان كانت الصفات قديمة وعروض الحوادث على الواجب ان كانت غير قديمة.

---

١. الاسراء آية ٣٩.
٢. الصافات آية ٤.
٣. القصص آية ٨٨
٤. القصص آية ٧٠
٥. الذريات آية ٥١
٦. الدخان آية ٨

قال امام الموحدين اميرالمؤمنين عليه السلام في تنزيهه تعالى عن الصفات، «اذ كل موصوف غير الصفة وكلما وصفتموه بأدق معانيه، فهو مخلوق لكم مردود عليكم»، وهذا هو اختيار الفلاسفة المحققين وعليه مذهب الامامية قديماً وحديثاً وان خالف بعض المسلمين في ان صفاته متعدده وقديمة وانها من شؤون ذاته ولسنا بصدد الرد لان تعدد الصفات موجب لتعدده وعدم وحدة وجوده وانه محتاج اليها وانه باعتبار صفاته يكون متعدداً ومركباً ومن اراد التفصيل لذلك فاليراجع ما كتبناه، في (المثل الاعلى)[1].

صفات افعاله

ان الله تعالى هو الفاعل الموجد والخالق الرازق وهذه الصفات يعبر عنها بصفات الافعال، فصفات الذات لا يمكن سلبها في حال من الاحوال ولا في زمان من الازمنة ولا في عالم من العوالم.

فلا يصح لك ان تقول علم الله بالشيء الفلانى ولم يعلم بالشيء الاخر، او قادر على شيء وليس بقادر على آخر ولكن يصح لك ان تثبت الصفات الفعلية في حال دون حال تقول اعطى الله الرزق لزيد ولم يعطه لعمرو خلق الله ولداً لبكرولم يخلق لخالد.

لان هذه الصفات، يتصف بها الله باعتبار تعلق ارادته بشيء دون شيء، وبموجود دون آخر وهى كلها راجعة الى الفاعلية والايجاد منه تعالى، فالخالق والرازق والمعطي والمحيي والمميت كلها راجعة الى فاعليته.

وانت اذا نظرت الى جميع الموجودات والكائنات وجدت انها لو لم تتعلق بها ارادته وفاعليته لم تكن شيئاً موجوداً وان جميع العلل الّتي تشاهدها في عالم الكون، لا تجدها الامعدات وقابليات وان ليس الفاعل والموجد والمبدع الا الله تعالى فكل حركة وجود وكل ملك وانسان وجامد ومتحرك كلها قائمة بفاعليته وايجاده والا لم تكن شيئاً موجوداً، فتبارك الله احسن الخالقين، خلق كل الاشياء على قدر قابليتها واستعدادها، وجعل بعض الشاعرين، كالانسان مختاراً في فعله، كل ذلك على طبق علمه تعالى، الّذي لا يتخلف عن الواقع، فهو غاية الغايات، ونهاية النهايات.

---

١. المثل الأعلى في الفلسفة ج١ ص١١٢ - ١١٤

ألوهيته وعبادته

ان الله تعالى هو المعبود الحقيقى ولا معبود سواه، فهو الواحد ذاتاً وصفة وفعلا وعبادة، قال تعالى (لا اله الا انا فاعبدون)[١] وقد تكثرت الآيات الشريفة في عبادته والتوجه اليه وان لا معبود سواه.

وان الانبياء وان عظم مقامهم وجل شأنهم، فعلى العباد ان يعظمونهم، ويعترفون لهم بالنبوة والولاية ولكن لا يصح الخضوع لهم والعبادة، بل هم عباداالله المكرمون الذين لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون.

وكل نبى او ولى، إذا قربت منزلته من الله تعالى ودرجته في مقام الحق واليقين، اشتد خلوصه لله وتفانت ذاته في ذات الله، فلا يسمع ولا يتحرك ولا يتنفس الا متوجها الى الله ومتعلقاً ذاته بذاته.

واعظم الانبياء توجها والاولياء هو الرسول الاعظم ﷺ وآله الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

فان جميع عبادتهم وجهادهم وحركات قلوبهم وانفاسهم كلها عين التوجه الى الله تعالى والفناء في ذات الحق.

فالمسلم الحقيقى، ما كان موحّداً لذاته تعالى وموحداً في صفاته وموحداً في فعله وارادته وموحداً في عبادته والانقياد اليه، جعلنا الله من عباده المخلصين انه ولى التوفيق.

اضواء وتوضيح

على ضوء البحوث السابقة،يتضح لك جلياً، عدم جواز تركب الواجب وانه بسيط الحقيقة وهو صرف الوجود.

ويتضح لك ان تركب الواجب، من وجودين اصليين بحيث يكون كل منهما له مادة وصورة، اووجود واحدله مادة وصورة، او وجود ينحل الى ماهية ووجود بتحليل عقلى، كتحليل الشىء الى جنس وفصل، فجميع الصور، مما لاتقاس على الواجب.

فان صرف الوجود، بما هو صرف الوجود، لاتعدد فيه خارجى ولا تعدد فيه على وجه التحليل العقلى، لتنافيه مع الواجبية وصرف الوجود كما هو واضح.

---

١. الأنبياء ٢١ / ٢٥

وان الذات المقدسة، ذات نعوت وصفات ثبوتية وسلبية واضافية.

اما الثبوتية المتحدة مع الذات ، فهى علمه وقدرته واختياره وارادته وحياته وسمعه وبصره وليس بين هذه الصفات والذات المقدسة اثنينية خارجية او تحليلية عقلية بل حياته وذاته عين علمه وقدرته وارادته وعين سمعه وبصره.

والا فلوفرضنا وجود العلم او القدرة والارادة، انها غير الذات، فاما ان تكون ازلية او حادثة، اما اذا كانت هذه الصفات ازلية استلزم تعدد الواجب، بتعددالصفات والذات، واصبح الواجب سبعة اشياء، لاواجباً واحداً.

واما اذا كانت حادثة وقامت بذات الواجب لزم تقوّم الواجب بالامور الحادثة وهذا خلاف كونه واجبا، ويلزم افتقار الواجب الازلى الى الممكن الحادث وتقوّمه به وهو باطل ومحال وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذه الصفات يعبر عنها باصطلاح الفلاسفة، بصفات الجمال.

الثانية: الصفات السلبية وهى انه تعالى ليس له مادة وصورة ولا جنس ولا فصل ولا امكان ولا حدوث ويعبر عن مجموع الصفات الجمالية والجلالية بصفات الكمال الّذي ليس فوقه كمال.

وعند التأمل والنظر الى واقع الامر، لا تجد الصفات السلبية، صفاتاً ترجع الى الذات، بل هى في الحقيقة تنزية الواجب عن حضيض الامكان وتعظيمه تعالى عن صفات الممكن من الماهية والمادة ومن الحدوث والتغيير ولعل التعبير بانها من الصفات تعبير بالعناية والتجوز.

والا ففى الحقيقة، كما أوضحنا لك انها لا ترجع الى الصفة والموصوف، بل حتى ما نتصوره من صفاته الذاتية الّتي هى عين ذاته من باب الحكاية عن الواقع.

والا فلا يسعنا الا ان نلتزم بما نتصوره من الصفات على تلك الذات المقدسة.

واعلم، ان الصفات الذاتية، كلها ترجع الى واجبية وجوده وحقيقة ذاته، من غير تعليل ولا توصيف لانه حسب الفرض ان ذاته عين العلم والقدرة والارادة وغيرها من الصفات فهى ليست الا مطابق تلك الصفات، من غير تقييد ولا تعليل لان الشيء بنفسه، لا يكون علة لنفسه ولا معلول لها ولا تكون ذاته مقيدة بذاته، بحيث يكون القيد جهة تقييدية فيه.

فالجهات التقييدية والتعليلية، لا تتصور في ذاته ولا في صفاته الذاتية، من العلم والقدرة والارادة والاختيار والسمع والبصر والا لخرج الواجب عن كونه واجباً.

واما الصفات السلبية فكلها ترجع الى معنى واحد وهو سلب الامكان.

وبالسلب الامكاني، يتحقق السلب عن كل ما يتصور فيه من الاستعداد والحدوث وسلب المادة والصورة والجنس والفصل حيث انه اذا صار الشيء الواحدمسلوباً عنه الامكان فقد سلبت عنه جميع جهات الامكان، من المادة والصورة والاستعداد والتغير والجنس والفصل لان الكل ينطبق عليه انه سلب الامكان.

واما الصفات الاضافية، فكل ترجع الى معنى واحد وهو القيمومة على الموجودات.

فانه القائم على كل وجود الفاعل لكل موجود.وتكون نسبة الاشياء اليه تعالى نسبة الاضافة الاشراقية لان الكل لمعات ذلك النور وامواج ذلك الظهور وليس هناك مضاف ومضاف اليه بل اضافة اشراقية وهى قيام الموجودات بذاته وفنائها في حقيقته فلا وجود لها الاعين الربط به تعالى الا انه لو كانت الاشياء مضافة اليه، باضافة مقولية يلزم من ذلك تحقق الاشياء وثبوتها في قبال الواجب تعالى، وليس للوجودات بالقياس اليه تعالى استقلال، بل هى الفناء والوجود المندك بالقياس اليه تعالى وانه المعبود الحقيقى وان لا معبود سواه وان المسلم المؤمن من وحّد الله في ذاته وصفاته وافعاله، ووحّده في عبادته والتوجه اليه.

حكمته وتدبيره

انك اذا نظرت الى الموجودات ممن يحس ويشعر من الماديات ومما هو فوق المادة كالعقول والملائكة ونظرت الى الكرات الّتي تراها وما يشاهده الانسان في نفسه وحركات ضميره يرى ان الكون مملوء بالاسرار والعجائب والنظام الّذي لا يحيط به العقل ولا تصل اليه الافهام.

وتنظر تارة الى القوى بين الكرات وان كل كرة وكوكب لا تصطدم مع الاخرى ولا تأخذ بالهبوط او العلو بل واقفة بحدّها ومركزها لا تجذب كرة اخرى ولا يصطدم كوكب بكوكب وكل محاط بقوى خاصة من غير تعد على الاخر.

ثم اذا نظرت الى الارض ومافيها من غرائب وعجائب في جوفها وظاهرهاونظرت الى نفسك وعقلك وعلمت ان هذه الكرات كلها وسيلة لحياة البشر الّذي اراد الله به البقاء

لاالفناء ورأيت ان الله تعالى ملاء هذه الكرة بالاوكسيجين لاجل حفظ النفوس عن الهلكة والاستعداد للبقاء واداء الوظائف الشرعية من العبادات والمعاملات ومن الاجتماع والاقتصاد.

كل هذا مما يدل على ان هناك خالقاً حكيما ومدبراً وحافظا لنظام المخلوقات كلها والعوالم باجمعها فهو العزيز الحكيم المدبر.

وقد ورد في الآيات الكريمة من القرآن ما يدل على تدبيره وحكمته في عالم التكوين من نظام الكواكب والكرات وفي عالم التشريع من توجيه الخلق الشاعر الى الوصول الى اعلى مراتب الحياة الابدية.

ومن اضواء ما تقدم كله تعرف قدرته وعلمه وحياته وإرادته وتدبيره، فسبحان الّذي اعطى كل شيء ثم هدى.

الجبر والتفويض والامربين الامرين

ان حديث الجبر قد التزم به الاشاعرة وان الارادة الازلية هى القاضية على العبد، بان يعمل على طبق تلك الارادة منه تعالى وفي قبال هذا القول رأى المفوضة.

وقد ذهبوا الى ان العبد بعد ايجاده وتحقق ارادته، فهو العامل في كل الاشياء من غير توجه ارادة الله في ايجاد اعماله وتكوينها وهذان الرأيان من الاشاعرة والمفوضة خلاف مذهب الامامية.

وان مذهب الامامية، لا جبر ولا تفويض ولكنه امر بين الامرين، ومنزلة بين المنزلتين.

وانت اذا تأملت كلمات الاشاعرة بدقة، رأيت اكابر علمائهم يذهبون الى اكثر من الجبر وهو ان فعل العبد هو فعل الله تعالى.

غايته ان محل الفعل من الله هو العبد، لا ان الله جبر ارادة العبد على العمل فالعمل منه تعالى، الا ان محل ايجاده هو العبد.

فانه قدورد عن ائمة الهدى عليهم السلام انه لا جبر ولا تفويض ولكن امر بين امرين وهذا مذهب الامامية، في قبال مذهب الاشاعرة والمفوضة وهو جبر من ناحية وجود الانسان فان وجوده من الحق تعالى، ليس تحت اختياره ولا تحت جعله وايجاده وكان وجوده لتعلق القضاء والقدر به وهو تفويض ايضاً من ناحية اختياره وانه تعالى او كل افعاله اليه، قال تعالى: (وهديناه النجدين)[1] ـ (انا هديناه السبيل اما شاكراً وإما كفورا)[2] (وما كان ربك

---

١. البلد ١٠ / ٩٠ ٢. الانسان ٣ / ٧٦

بظلام للعبيد)[١].

والتحقيق في البحث على الوجه الاكمل وهو ان وجود كل فعل من المكلفين فله حيثيتان، حيثية انه وجود وطارد للعدم، وافاضة كل وجود من الحق تعالى لان الوجود لا يمكن تحققه في الخارج، الا من قبله تعالى لانه العلة الحقيقية والفاعل الّذي لا شرط في فاعليته ولا تقييد في ارادته وان كل شرط او تقييد، فيرجع الى ذلك الوجود الصادر منه تعالى ولذا اطبق الفلاسفة، ان لا شرطية لفاعليته لتمام فاعليته وعلّيته وانما الشروط ترجع الى القابل والموجود، فليس لفاعليته شرط وانما الشرط لمتمم قابلية القابل.

اما الحيثية الثانية، فمن ناحية ان الفعل تحت اختياره وارادته كان تفويضاً الى العبد.

وعلى هذا البيان، يكون الفعل من العبد ذاوجهتين، الوجهة الاولى من الله تعالى والاخرى من العبد فمن ناحية هو فيض الله تعالى ومن ناحية اخرى هو فعل العبد وان هذا المذهب الّذي عليه الامامية، هو الّذي يتناسب ويتجاوب مع التشريع الاسلامى وما جاء به النبي الكريمﷺ من رسالة السماء.

وعلى هذا المسلك، يتضح لك ان الجبر ظلم في حق المكلفين والتفويض شرك.

نظرة حول رأى الاشاعرة

انك اذا لاحظت ما حرره الاشاعرة وجدت كلماتهم واقعة على اتجاهين:

الاتجاه الأوّل: ان العبد في ارادته مجبور للارادة الازلية من الحق تعالى، وان إرادة العبد فانية في ارادة المولى وان بعض كلماتهم: ان علمه تعالىٰ موجب لجبر العباد وانه العلة التامة لقاهرية ارادته تعالى لارادة العبد.

وقد اوضحنا في محله في الفلسفة والاصول بطلان هذ الوجه وانه مستلزم للظلم وعدم صحة التكاليف وعدم الثواب والجزاء على وفق الاعمال.

الاتجاه الثانى: وهو الّذي يظهر من اكابر علمائهم ما هو وراء الجبر واشد محذوراً منه وهو ان الفعل الصادر من عباده تعالى، ليس فعلهم وانما هو فعله.

غايته ان العبد محلا لذلك الفعل من الله تعالى وانه ليس هناك ارادة للعبد حتى يقع الجبر من الله تعالى لارادته ولننقل اليك رأي صاحب شرح المواقف.

---

١. فصلت ٤٦ / ٤١

ان افعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وحدها وليس لقدرتهم تأثير فيها، بل الله سبحانه اجرى عادته بان يوجد في العبد قدرة واختياراً فاذا لم يكن مانع اوجد فيه فعله المقدور مقارناً لها، فيكون فعل العبد مخلوقاً لله ابداعاً واحداثاً ومكسوباً للعبد والمراد بكسبه اياه مقارنته لقدرته من غير ان يكون هناك منه تأثيراً في وجوده سوى كون العبد محلاله وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن البصري.

وهذا الوجه يتناسب مع مذهب الصوفية القائلين بوحدة الوجود والموجود وان لاوجود الاوجود الحق سبحانه تعالى وان الموجودات هياكل وتشكلات لتلك الحقيقة.

وقد بيّناه في الفلسفة من (المثل الاعلى) وعلم الاصول ان هذه الاقوال لا تستحق الذكر لوضوح بطلانها والاخبار عن ائمة الهدى عليهم السلام متواترة أن لاجبر ولا تفويض بل امر بين الامرين.

فمنها: رواية المفضل عن ابي عبد الله عليه السلام قال: لا جبر ولا تفويض ولكن امر بين الامرين.

ومنها: صحيحة هشام وغيره قالوا قال ابوعبدالله عليه السلام: انا لا نقول جبراً ولا تفويضاً.

ومنها: رواية صالح عن بعض اصحابه عن الصادق عليه السلام قال: يسئل عن الجبر والقدر، فقال: لاجبر ولا قدر ولكن منزلة بينهما فيها الحق الّذي لا يعلمه الاالعالم او من علمه العالم.

ومنها: مرسلة يحيىٰ عن الصادق عليه السلام قال: لا جبر ولا تفويض، بل امر بين امرين.

ومنها: صحيحة يونس عن الصادق عليه السلام قال قال له رجل جعلت فداك أجبر الله العباد على المعاصى قال عليه السلام: الله اعدل من ان يجبرهم على المعاصي ثم يعذبهم عليها فقال له جعلت فداك فوض الله الى العباد قال عليه السلام: لو فوض اليهم لم يحصرهم بالامر والنهى فقال له جعلت فداك فبينهما منزله فقال عليه السلام: نعم اوسع مما بين السماء والارض.

وماروى عن أبي بصير قال قال ابوالحسن الرضا عليه السلام قال الله تعالى: يا بن آدم بمشيئتي كنت انت الّذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتّي أدّيت فرائضي وبنعمتي قوّيت على معصيتي جعلتك سميعاً بصيراً قوياً.

وعن الكافى ـ قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من زعم ان الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله، ومن زعم ان الخير والشر بغير مشيئة الله، فقد اخرج الله عن سلطانه ومن زعم ان المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله ومن كذب على الله ادخله النار.

واما ماورد في البحار عن المحاسن باسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال لا يكون شيء في الارض ولا في السماء الا بهذه الخصال السبع ـ بمشيئة ـ وارادة ـ وقدر ـ وقضاء ـ واذن ـ وكتاب ـ واجل ـ فمن زعم انه يقدر على نقض واحدة منهم فقد كفر.

ويعرف من هذه الاحاديث الشريفة امور، اولا ان الجبر مستلزم للظلم والجور على العباد وانه تعالى خلق الخلق تكريماً والظلم ليس شأن الغني المطلق وخلاف حكمته وتدبيره وليس جبره تعظيما لقدرته، لمنافاته لحكمته تعالى وأيّ عاقل يخطر في باله، ان ذلك الحكيم يجور على العباد ويظلمهم.

والاخبار الشريفة كما صرحت بكبت المجبرة، صرحت ببطلان مذهب المفوضة حيث زعموا، ان غناء الواجب تعالى يستدعى ان يستقل العبد في افعاله وهذا تحديد لقدرته وابطالا لمشيئته وسلطانه، فما ذهب اليه المجبرة خلاف الاوليات الضرورية وما ذهب اليه المفوضة، خلاف البراهين العقلية.

وثانيا ـ ان الروايات الشريفة صريحة في رد المذهبين من الاشاعرة والمفوضة

وثالثاً ـ ان بعض روايات الباب من كتب الحديث قد صرحت بان الله اولى بحسنات العبد والعبد اولى بسيئاته، فما الطف هذا البيان وما اعلى هذا الهدف الّذي اتجهت اليه هذه الروايات، فهى من حيث انوارها والطافها اولى ان تنسب الى الله تعالى واذا نسبت السيئآت، فيتعين نسبتها للعبد.

واجمالا، ان التفويض شرك، والجبر ظلم كل منهما خلاف الادلة والبراهين لتمام فاعليته تعالى واختيار العبد في افعاله وان الله تعالى، في غاية العدالة والرحمة بعباده، وقدورد ان التفويض شرك، في الروايات المتواترة في كتب الحديث وان مذهب المفوضة ينافي الفاعلية التامّة للحق تعالى.

وقد تقدم منا ان مذهب الامامية هم الموحدون في المراحل الاربعة، موحدون في مرحلة الذات، اذ لا تعدد في ذاته تعالى وموحدون في مرحلة الصفات، لان علمه عين قدرته وعلمه وقدرته عين ارادته وهذه الامور عين حياته وسمعه وبصره والالتعدد الواجب او كان محلا للحوادث والحدود الامكانية وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والامامية هم الموحدون في صفات الفعل وانه تعالى هو الفاعل المطلق والخالق والرازق والمحيي والمميت ولا فاعل حقيقي الاذاته.

وقد نسب بعض علماء العامة الى الامامية التفويض في الرسول ﷺ وآله المعصومين عليهم السلام ولكن ذلك من جهة عدم ملاحظة كتب علماء الشيعة والافلو راجعواكتب علماء الامامية لوجدوهم مصرحين بان لا ارادة للرسول الاعظم ﷺ واهل بيته عليهم السلام، الاارادة الله ولا محبة لاحد ولا بغض الا في الله، فلا تفويض لاهل البيت عليهم السلام لا تكوينا ولا تشريعاً عند الامامية.

الجواب من الفلاسفة عن الجبر والتفويض

رأى الفلاسفة ان وجود الممكن ظلّ لوجود الحق تعالى واذ اكان ظلا لوجوده فكيف تصدر منه السيئات ويتصف بقبح الافعال والاعمال واستناد افعال العبد الى الله، استناد المعلول الى العلة التامة واجابوا ان السيئات والشقاوة، كلها تابعة للملكات النفسية للشخص التابعة لحدوده وماهيته وكلما يجرى من العبد تابع لماهيته.

وحيث ان الماهية ذاتية والذاتى لا يعلل، فان لوازم الماهية كالماهية، لا تقبل التعليل واستشهد لذلك فلاسفة المسلمين، بماورد، ان السعيد سعيد في بطن امه وشقّي في بطن امه والناس معادن الذهب والفضة.

والدفع عن هذا الوجه ان الجبر وان لم يكن من الله تعالى في الشقاوة وافعال السيئات ولكنّه من نتائج الماهية وشؤونها.

ومن البيانات السابقة، ان ما جاؤا به لا يطابق مع موازين الشرع وقوانينه، والآيات والروايات دالة، على ان المعاقب والمثيب هو الله، لاالماهيات وان دخول الجنة والنار، بسبب الاعمال، لامن لوازم الماهيات والحدود وكيف يتناسب مع رحمة الله ولطفه تعالى ان يوجد مخلوقاً يتعذب بماهيته، الى غير النهاية وما ذلك الانظير من اعطى سيفاً لشخص آخر يريد قتل احد الناس فانه قبيح ذلك بضرورة العقل.

وثانيا ـ ان هذا المسلك انمايتم على رأى الاشراقيين الذاهبين الى اصالة الماهية واما على رأى المشائين الذاهبين الى اصالة الوجود وإن كانت الماهيات تابعة للوجود ومتحدة معه، فليس لها الا نحو استعداد وقابلية، لا من باب التأثير والتأثر وقد انطبع في اذهان علماء الاسلام، من الفارابى والشيخ الرئيس ومن المحقق نصير الدين الطوسى وصدر المتألهين وغيرهم، تعظيم فلاسفة اليونان، لحسن ظنهم بهم.

والا فمن راجع التاريخ وما كتبه اليونانيون في كتبهم، انه لم تكن حكمة سقراط، الا اخلاقية وان حكمة افلاطون قد مزجت برهبانية الهند ومصر وهكذا من تأخر عنه، من ارسطو وغيره وما كبرهم الاحسن الظن من علماء الاسلام والا ففلسفتهم على حسب ما ضبطه التاريخ فلسفة مبعثرة وقواعد لايرتبط بعضها ببعض والكثير منها اوهام وخيالات، كما ظهر الخطاء في كثير من العصور الحادثة.

وثالثاً ـ ان الذهاب الى الجبر لا يتمشى حتى على مذهب الطبيعيين، فان الطبيعة وان اقتضت التأثير في حد ذاتها للشيء ولكن عند تكامل الطبيعة يحصل الاختيار، فالطبيعي اولى بالجبر من الموحد واقرب الى سلب الاختيار، ممن يعتقد بالتوحيد، ورسالة السماء.

وسيأتي منا في تفسير الآيات المناسبة لهذه المباحث، توضيحاً لهذه الاهداف.

القضاء والقدر

ان بحث القضاء والقدر لما اشتبه على اذهان كثير من علماء ابناء السنة والجماعة وخلطوا بين البابين، فتحكمت في اذهانهم شبهة الجبر، لان القضاء من الله تعالى، لا يتخلف عما قضابه ولا تبديل ولا تغيير لقضاء الله تعالى.

ولما جعل المجبرة مسألة الجبر من صغريات كبرى القضاء لم يتمكنوا من الجواب عن شبهة الجبر وانت اذا راجعت باب القضاء والجبر، رأيت ان احد البابين لا يرتبط بالآخر، لان الجبر انمايتعلق بفعل المكلفين والقضاء والقدر يتعلق في ايجاد الله للكائنات والمخلوقات وفعل المكلف لما كان تحت الاختيار فلا يقع في باب الجبر ولاتحت القضاء والقدر وكل من البابين اجنبي موضوعاً ومحمولا عن الآخر.

فالجبر من حيث افعال العبد واختياره والقضاء والقدر، من حيث فعل الله وايجاده للكائنات.

فالقضاء والقدر ممالايمكن ان يدركه العقل او يحيط به ولذا ان امام الموحدين عليه السلام عند ما يسئل عن باب القضاء والقدر، يقول سر الله فلا تكشفوه واذا سئل عن الجبر يقول افهل ان الّذي دهاك رماك.

وان الانسان بطبيعته وضرورة عقله ينكر الجبر.

النبوة ورسالة السماء

ان الانسان بفطرته عند مايعشر بوجود الكائنات وبهذا النظام الغريب العجيب ويعرف انه قدخلق على احسن تقويم، بعقل وشعور وان له الاختيار، في افعاله من خير او شر وانه لم يجئى الى هذا العالم صدفة واتفاقاً وانما جاء على نظام محكم وان الله تعالى ارادبه خيراً وما ارادبه شرا وانه يوصله الى غاية الكمال، يعرف بوجدانه وضميره، ان الله لابد ان يرسل اليه من يرشده ويهديه الى الصراط المستقيم ويبعده عن الجحيم.

قال الله تعالى، (انا هديناه النجدين اما شاكراً واما كفورا)[1] وعند ذلك يقطع، بان الله لابد ان يبعث اليهم مبشرين ومنذرين وان يشرع لهم قانون العدل، في الدنيا والوصول الى اعلى درجات الاخرة وهذا الحكم من البشر حكم فطرى وادراك عقلى، لا يتخلف ولا يختلف.

الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله

قال الله تعالى، في كتابه الكريم (وما ارسلناك الارحمة للعالمين)[2] (وانك لعلى خلق عظيم)[3] (فاستقم كما امرت)[4] ان من كلف من الله باحكامه لابد ان يرسل اليه، من هو اكمل مراتب الوجود وله جنبة الهية ونور قدسى وجنبة مادية، يتوجه بها الى البشر ويتعين ان تتم فيه الحكمة والفلسفة العلمية، بمعرفة الخالق على وجه لايحيط به البشر وان تتم فيه الحكمة العلمية من الاخلاق الفاضلة وكتم الرذائل والصفات الذميمة من الحرص

---

١. الانسان ٣/ ٧٦
٢. الانبياء ٢١/ ١٠٧
٣. القلم ٤/ ٦٨
٤. هود ١١٢/ ١١

والحسد وخبث الضمير، ليبعثه الله الى الهداية والرشاد والى حقائق الامور وان يكون فوق عقول البشر، بحيث يصله الوحى، او الالهام، لصفاء نفسه وعلو ذاته.

وان الله لا يرسل ملكاً، لعدم التطابق بين الرسول والمرسل اليه ولو بعث الله ملكاً، لكان بصورة البشرية، لان النفوس تهتدى من طريق المشاكلة والمناسبة.

وان النبي او الولي، لابد وان يكون معصوماً عن الذنوب من الصغائر والكبائر ويراد بالعصمة، هو ترقى نفوسهم وعلوها عن ارتكاب الرذائل، لا ان النبي، اوالولى قد سلبت قدرته عن المعصية، لان من سلبت قدرته، كان مجبوراً وكيف يثاب النبي على ما اجبر عليه.

وانما المراد بالعصمة، تنزه نفسه عن ارتكاب الجرائم والموبقات وعلو شأنه عن ارتكاب القبائح والسيئآت وان قدر على المعصية وان الله يوحى اليّه او يلهمه بقانون يحفظ اجتماع البشرية ونظام اقتصادهم واخلاقهم والهداية الى الحق والطريق المستقيم وان افضل مراتب رجال النبوة والرسالة، هو النبي الاعظم محمد بن عبدالله ﷺ سيد الانبياء والرسل والشفيع يوم القيامة.

وانا لا نريد ان نطيل في هذا المقام، لما سيأتي في الايات المتعرضة لذلك وانما نريد توجه القارىء، الى نبوة هذا النبي الكريم وانه جاء بأفضل المعاجز وهو القرآن المجيد والعروج الى الملاء الاعلىٰ وانشقاق القمر ولم يأتي احد من الانبياء، بمثل ذلك، حيث انه سيد الانبياء ورسالته منتهىٰ الرسالات وتشريعه في غاية التشريع والهداية.

وما جاء به الانبياء لم يكن بدرجة هذة الامور الثلاثة، من اعجاز القرآن والمعراج وانشقاق القمر. وقد اشارت الآية الكريمة، بقوله (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)[1].

ان رسالته ونور وجوده غاية التشريع ونهاية اللطف من الله على عباده، ببعثة هذا الرسول الكريم وانه اشرف الموجودات واعظم الكائنات.

وقد ذهب الفلاسفة، الى ان الرسول وآله المعصومين عليهم السلام هم وسائط التكوين والتشريع وان كل نبى ورسول هو دون مرتبة هذاالنبي الكريم ﷺ.

فهو نور كل وجود في دائرة الامكان وهو الرحمة التشريعية، بابلاغه الناس الحجة البالغة وهو الرحمة التكوينية في شفاعته، حتى ورد ان الانبياء والرسل، تعلو درجاتهم، بشفاعة هذا النبي العظيم ﷺ وقد وصفه الله بقوله: (وانك لعلى خلق عظيم)[2] وما جاءت

١. الانبياء ٢١ / ١٠٧ ٢. القلم ٤ / ٦٨

آية في كتاب الله في حق نبي او رسول بمضمون (وما ارسلناك الارحمة للعالمين) ونحوها مما تدل على افضليته وان سنته هى الشريعة الدائمة، على ممر العصور وان شرائع الانبياء السابقين، قد حددت بزمان معين لاتتجاوزه. واجمالا، ان وجود النبي وآله المعصومين عليهم السلام اكمل مراتب الوجود في دائرة الممكنات وانه لابد ان يكون الوسيط في تشريع الاحكام والرحمة للبشرية.

وما جاء نبي من الانبياء كما بيّناه من القرآن والمعراج وانشقاق القمر، بما سيأتي بيانه، من ان نفوس الانبياء، اقل من نفسية الرسول العظيم صلى الله عليه وآله وان لا وجود لها الا بالحق سبحانه وتعالى.

الامامة

ان البحث حول الامامة، يستدعى قبل تحرير مباحثها، تمهيداً وعرضاً.

انا نقدم قبل بحث الامامة، ليشاهد القارى، ان الغرض المقصود، ليس الاوحدة الكلمة واتباع كلمة التوحيد بين صفوف المسلمين وان كل مسلم مع آخر من أيّ مذهب كان من المذاهب الاربعة، او المذهب الجعفرى الامامى، متوجهون الى الحقيقة التوحيد واتباع الرسالة والاعتراف بيوم المعاد وهي جوامع لهم في العقائد.

ولهم جوامع اخرى، في التفريعات الفقهية والمذهبية من اقامة الصلاة، وايتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والمساواة بين المسلمين في الحقوق واقامة العدل.

وهذه الجوامع العقائدية والمذهبية، توجب على كل مسلم، حفظ حقوقه وحقوق الاخرين.

وان الاسلام بقوانينه، يوجب الاتحاد، بين صفوف المسلمين وان يكونوا كانسان واحد يتألم بعضه اذا تألم البعض الاخروان التفرقة بين صفوف المسلمين هدم لدعائم الدين.

وما ذاك الامن الاجانب واعداء المسلمين، لاجل ان لاتتمّ الوحدة بين المسلمين ولئلا يظهر معالم الاخوة في ناديهم، فويل لمن شق عصا المسلمين، وبذر العداء بينهم وويل للانسان الّذي يخون وجدانه، اتجاه غرض زائل، يغريه به العدو، والامم الباطلة، لنشر جرثومة التفرقه ويشعل نار الفتنة والعداء، بين المذاهب الاسلامية.

ان الغاية المنشودة لهؤلاء معروفة وواضحة لكل ذى عقل، لانهم احسوا من الشعوب الاسلامية، تقارباً ولمسوا منهم اتحاداً وذلك ما لا ترضاه سياستهم، ولا يقبله

قانونهم، لما ركزوا عليه فكرتهم للسيادة على الشعوب وسلب اقتصادهم، وصيرورة الشعوب الاسلامية، ارقاء لهم، حتى استأجروا كتاباً، يلقون الخلاف، بين المسلمين والتباعد بين آرائهم وان لا يتجهوا الى الحقائق، ففرقوا ما فرقوا، حتى جاء دور اليقظة وعمت الشعوب الاسلامية واستنارت عقولهم بالعلم واصبح الوعى في نفوسهم، ففطنوا ان الاجنبي يريد اختلافهم وينبغى لكل مسلم ان يرجع الى العلم.

وإنّي اجل المذاهب الاسلامية عن التفرقة والجهل للمصالح الشخصية واذهاب المصالح النوعية بين عامة المسلمين.

وإنّي لا ارضى لكل مسلم النقص وعدم التوجه الى المعارف الدينية، لان الوحدة الاسلامية وهى التوحيد والعقائد والفروع الاسلامية، كلها جوامع لهم، وانه لا ينبغى لكل مسلم عالم او عارف، ان يقدم المصالح الشخصية، من المادة والرياسة، على توحيد الكلمة، بين الصفوف الاسلامية، ولابد لكل مسلم، ان يظهر امام المجتمع الانسانى بمظهر الشرف والنزاهة، والعلم والمعارف، الّذي حث عليها الاسلام وان يكون كل مسلم، يستضيء بنور العلم وان المسلمين ابناء العلم والدليل والمعارف الحقة.

فالمعرفة في صف كل مسلم، يسيرمعها المسلم حيث ما سارت.

ولا ينبغى للمسلم، ان يخنع لافكار أكل الدهر عليها وشرب، ولا ينبغى أن يتجرىء مذهب على مذهب، ولا مسلم على آخر، بل الكل يتوجه الى البرهان والدليل.

وان تعرضنا لبيان الامامة، ليس المقصود منه التجاسر على مذاهب اخواننا من العامة، بل كل مسئلة، بين المذاهب ينبغى ان تلقى على بساط البحث، وينظر اليها بنظرة علمية وبرهانية، من غير تعصب لرأى من الاراء، فان الكل يجمعهم التوحيد، والعقائد الحقّة والفروع المذهبية.

فالبحث عن الامامة، ينبغى ان يكون على بساط العلم والبرهان، من غير تعصب لعنوان التشيع او التسنن، وان الناس بعد الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله محتاجة الى مقام الامامة وهو الشخصية الّتي يراها الامامية، قائمة مقام الرسالة، بعد موت الرسول صلى الله عليه وآله والمتمّمة لتشريعه في الفروع وتنفيذ رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وتطبيقها تطبيقا واقعياً، وان كلما يشرعه الامام، فهو مأخوذ عن الرسول صلى الله عليه وآله، أو أن بعد الرسول لا يحتاج الى هذه الشخصية، بل الناس ينتخبون شخصا، يقوم في نظام الامة، ويوجههم الى الاسلام، من غير ان يكون اماماً معصوماً نائباً

عن الرسول ﷺ ومتمما للفروع وتشريع الرساله فان كانت الامة لاتحتاج بعد النبي ﷺ الا الىٰ حاكم، يدير شؤونها، ولا حاجة الى الفروع، وتتميم التشريع وان كانت مدة الرسالة من النبي ﷺ في هجرته الى المدينة، ممالا تفىء الا بقسم من الاحكام، كما يقوله المذهب الحنبلى، او يحتاج الى من يتمم تلك الفروع، بما تحتاج اليه الامة، بآراء الصحابة او بالاقيسة الظنية، كما صرح به ابو حنيفة والشافعي، بان الامة الاسلامية تحتاج الى فروع كثيرة، لم تثبت في السنة النبوية، ولا في الكتاب.

وعند ذلك، فلابد من تتميم الاحكام والقواعد الشرعية، الى اقيسة ظنية، والى الاستحسان، واستنباط العلل بتقريب الفكر والعقل ونحن نورد البحث على اصوله، من غير انضمام الى جهة، فنذكر الدليل الّذي اعتمد عليه علماء الشيعة، وما اعتمد عليه علماء السنة، وتكون فكرة القارى وعقلة هي المحكّمة في اختيار احد المسلكين.

وليس ما ذكرناه تبعيداً لمذهب عن الاخر ولا تجاسراً على رأى دون رأى بل هذه مسألة محررة من قديم الزمان والحكم موكول الى فكرة الباحث ولكن لابد ان يعرى نفسه عن تقليد آبائه.

وعند ذلك تتوجه نفسه الى احد ما تقدم من المذاهب، قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[1].

فالكل ينبغى له ان يتوجه الى الواقع وهذا ليس معناه التجاسر على مذهب او التصدى الى هتك امة من الامم الاسلامية او توهينها.

ان كثيراً من المسائل، ممايقع فيها الخلاف بين المذاهب الاربعة، من الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى، فاذا فحص عالم، من احد هذه المذاهب، نظير ما اذا كان العالم حنفيا او حنبليا، في مسألة ورأى، يختلف فيه، عن مذهب المالكى والشافعى.

وبعد الفحص والاستدلال الكامل عرف ان واقع المسألة هو على رأى الشافعى او المالكى، فعدل من الحنفية الى مذهب الشافعى او المالكى فان ذلك لايعد خروجاً، عن حقيقة الاسلام بل هو مسلم، عدل من رأى الى رأى ومن دليل لآخر.

وليعلم كافة اخواننا من ابناء السنة والشيعة ان الدور المستقبل والعصور الاتية مما يكثر فيها الوعى وتعرف فيها الحقائق وتتجلى فيها المعارف الاسلامية.

---

١. العنكبوت ٦٩ / ٢٩

فليكن نحن في هذالعصر ممن يضع اول قدم لرفع الخلاف في بعض المسائل الاسلامية، ونتعرض للمسائل الخلافية ونعرضها على افكارنا في البرهان والدليل والتأمل في تلك المباحث ونرفع سوء التفاهم والخلاف ليقل الخلاف وتتوجه النفوس الى الاصول الاسلامية من غير نعرة الى مذهب او تقليد من غير برهان او التعصب للاباء والله الهادى للصواب انه ولى التوفيق.

الامام وصفاته

الامامة لطف من الله تعالى على عباده وهى ضرورة من ضروريات الحياة فان الامة من كل ملة ودين تحتاج بعد نبيها الى تتميم التشريع وتنفيذ ذلك القانون الآلهي والا كانت النبوة بتراء ولا امدلها في الحياة ولا رسوخ لها في العصور.

ولذاترى الانبياء يعقب بعضهم ويتلوا بعضهم بعضاً.

ولابد في الامامة من امور:

الأمر الأوّل: الافضلية، على ابناء عصره لانه الراعى على الامة وليس من الجائز عقلا ان يقود المفضول الفاضل، قال تعالى «افمن يهدى الى الحق احق ان يتبع ام من لا يهدّي الا ان يهدي فمالكم كيف تحكمون»[١] وقال تعالى «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»[٢].

وهل يصح عقلا من كان على خلق عظيم ان يكون مرؤساً لمن لم يكن له ذلك الخلق وان الخلق العظيم بعد انبياء الشرائع لاوصيائهم الكرام فيتعين ان يكون الامام هو الافضل من جميع الجهات في الفلسفة العلمية من الاعتقاد الراسخ بالتوحيد والرسالة ومعرفة الاحكام واليقين بيوم البعث والنشور والصفات النفسية من العلم والشجاعة ـ والقدرة ـ والارادة – ويتحلى بافضل منازل الفلسفة العملية من التقوى ـ والورع والعدالة – والخلق الكريم من الصبر والشكر والاخلاص والفناء في ذات الله.

الامر الثانى: العصمة، هى لطف من الله تعالى تختص ببعض النفوس كالانبياء والاوصياء، تمنعهم عن ارتكاب الذنوب وتلزمهم في اداء الواجبات والتحلى بالمستحبات وترك المكروهات.

---

١. يونس ٣٥ / ١٠ ٢. الزمر ٩ / ٣٩

والعصمة ملكة تستعدلها بعض النفوس الملهمة الّتي تنكشف لها الحقائق بادنى التفات وتوجيه وتعرف من صاحب الشريعة تطبيق قانونه باسرع وقت وليست موجبة لعدم جواز المعصية منهم فان حالة الانبياء والاولياء من وجود الملكة في نفسياتهم تمنعهم عن ترك الطاعة وفعل المعصية وان كان يجوز عقلا ارتكاب المعصية منهم.

لان افعالهم اختيارية لديهم وليسوا بمجبورين كالملائكة فانه يمتنع صدور المعصية عنهم لانهم مجبورون على الطاعة.

والانبياء والاوصياء ليسوا بمجبورين على الطاعة ولكن من لطف الله فيهم ان جعلهم معصومين بان كانت نفوسهم مجبولة على الطاعة حتى لا يقع الشك والتردد في افعالهم وسيرتهم وتأخذ الامة اقوالهم وافعالهم ارسال المسلمات.

ولا يتوهم القارى، ان العصمة معناها، جبر النبي او الولى، على الطاعة، فان ذلك ليس معنى العصمة عند الامامية، بل المعنى الّذي ذكرناه، من استعداد نفوسهم المقدسة للطاعة وترك المعاصى.

الامر الثالث: النص، يتعين على النبي النص، على وصيه وكل وصى سابق، ينص عل الوصى اللاحق وذلك، لان غالب النفوس لا تحيط بالعصمة وآثارها ولاتعرف الشخصيات ومكانتها، فاذا نص النبي على وصيه، انقطع الشك والتردد من الامة.

الامر الرابع: المعجزة على يده، لكل من لم يبلغه النص وشك في امامته، فانه يتعين على الامام، اظهار المعجزة، لاظهار الحق وتعيينه عن كل من يدّعي الامامة والخلافة.

وبكلمة موجزة، ان اللطف الآلهي قاض بوجود شخصيات وراء كل نبّي مشرع متمم للامة تشريع ذلك النبي ويقوم بتنفيذ احكامه ويتعين على الأمّة قبول قوله والرجوع اليه والاعتقاد بامامته وان كانت الشريعة، لا امدلها ولا استمرار لقوانينها، والا فيعبث فيها كل عابث والناس محتاجة بعد موت الرسول، الى شخص يقوم بامرين، اتمام التشريع وتفريعه وتنفيذ القانون وتطبيقه والا كانت الشريعة ناقصة والتنفيذ من الفوضى، تعبث فيه ايدى العابثين.

ولا يجب على شخصية الامام الزام الناس بشخصيته لان الناس هم المحتاجون الى معارفه وهو غير محتاج اليهم فاذا رجعواالى الامام، تم لطف الله فيهم،كماتم لطف الله في تلك الشخصية، الّتي هى مرجع المسلمين بعد النبيﷺ ولا يتحدث شخص بانه أيّ نفع

بامام معلق اولا وجودله.

فان الجواب من الواضحات انه على الناس طلب الامام وتهيئة انفسهم للاستفادة من تعاليمه وتنفيذه وليس على الامام الاعرض نفسه امام المجتمع فانه بعد عرض نفسيته للمجتمع يكون المسؤولة هي الامة لا شخصية الامام لان النفع لهم والتطبيق راجع اليهم.

غايته انه من لطف الله تعالى بما ينفع الناس ان يجعل شخصيته مماتكمل به النفوس البشرية معارفها وتطبيق النظام الالهى على مجتمعاتها وبيئآتها فان الحاجة راجعة اليهم والفائدة تعودلهم لا الى تلك الشخصية بعد تعرض نفسه للهداية والارشاد وتطبيق القانون الالهى.

امامة على عليه السلام

إنّ من تابع علياً عليه السلام من المسلمين لا يراه ممن تَزيّنه الرياسة، لان علياً عليه السلام هو امام منذ ولد عزلته الناس، او القت اليه الرياسة.

وان الامامة، اتمام واكمال لرسالة الرسول في التفريعات الشرعية ولابد ان يكون المكمل في التفريع للرسالة معصوماً وهو افضل الخلق بعد الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله واكمل البرية في علم وقدرة وارادة وتقوى وورع وحلم وشجاعة وعفة وصيانة، واشد الناس توكلا على الله وتفويضاً اليه.

وان علياً عليه السلام قد نصبه الرسول صلى الله عليه وآله يوم غديرخم وقال (الست اولى بكم من انفسكم، قالوا اللهم بلى قال: من كنت مولاه، فهذا على مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

وانه نص عليه وعلى العترة الطاهرة عليهم السلام، بماورد من طرق الخاصة والعامة، من قول الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله (إنّي مخلّف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتيَ اهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى ابداً وفي رواية اخرى، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض).

إنّك اذا راجعت كل من يدّعي النبوة، كابراهيم وموسى، وعيسى، تجد الانبياء والمشرعين للشرائع، لا يمكنهم في زمان دعوتهم، اكمال الشريعة باحكامها وتفريعاتها من اقتصاد واجتماع واخلاق واحكام وقضاء وجزاء.

انك اذا نظرت فروع الصلاة والطهارة والصوم والزكاة والحج، من العبادات وجدتها

بعشرات الالوف، من التفريعات.

واذا اعدت النظرة حول باب التجارة والمضاربة والشركة والاجارة ومسائل النكاح والطلاق واحكام القضاء والمواريث والحدود والقصاص، الى غير ذلك من الابواب وجدتها ايضا بعشرات الألوف.

ومع هذا كيف يسع المشرع للرسالة، من ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، او الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ان يأتى بهذه التفريعات الّتي هى بعشرات الالوف، وكل تبليغ وتشريع، انما يقوم بالقواعد الكلية والمفاهيم العامة.

اما التفريعات والبحوث والمسائل التي يبتلي بها نوع البشر، والاجيال الحاضرة والمستقبلة، فلا تفي بها فرصة زمان الرسالة. الفت نظرك ايها القارى الى دعوة النبي صلى الله عليه وآله في مكة وقد بقى فوق عشر سنوات مكتوف اليد، لا يسعه التبليغ وقد احاطت به قريش، من كل جهاته حتى الزم اصحابه بالفرار الى الحبشة وغيرها. ثم لما جاءت ايام المدينة، ابتلى الرسول بالحروب ومهاجمة المشركين له الّتي لاتدعه متمكنا علىٰ التبليغ الكامل والتشريع الاتم. واذا نظرت الى سيرة الانبياء، من ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام لاتجدلهم الفرصة الكاملة، في زمان حياتهم، من اتمام التفريعات، الّتي في شريعتهم.

ولذا قد استناب عنهم في التبليغ اوصياؤهم ولقد اختار اخواننا ابناء السنة والجماعة، رأى الصحابة واخذ ابوحنيفة والشافعى والمالكى، بالقياس والاستحسان لقصور السنة في التفريعات الشرعية.

ولذا ان الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، كان اذا وردت عليه مسألة، نظر الى الصحابة وقال هل سمعتم عن رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً، فاذا قالوا لم نسمع قال: خذوا برأيكم.

فلا يمكن لمسلم ان يغمض عينيه ويذهب الى كفاية السنة، في التفريعات الشرعية ويدور الامر، بين الرجوع الى مايذهب اليه الامامية، من شخصية قائمة مقام النبوة فيخبر عن الرسول ويتلقى التشريع بنفس ملهمة، تصل الى الحقائق وتنكشف لديها الامور كما كان الانبياء الذين تخلفوا مقام اولى الشرائع كابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ويبلغ سنته او يرجع الى رأي الصحابة او القياس او الاستحسان واذا اقام الاماميون البراهين والادلة على امامة الامام على بن ابيطالب عليه السلام وانه المبلّغ عن الرسول صلى الله عليه وآله فلا ينبغي للمسلم ارتكاب المحاولات البعيدة.

وان التبليغ للاحكام والتفريعات، لا يمكن ان تقوم بكل احد، ممن عاشر ذلك الرسول وكيف يتصور العاقل ان يكون الصحابى لنبى من الانبياء ينشىء احكاما برأيه ويجب على الامة اتباعها وهو ممالا يصل الى حقائق الامور ولا يعرف احكام اعماله.

وان الشخص الّذي يخبر عن التشريع عن الله تعالى، لابد وان يكون ممن يعرف احكام الرسول ويطلعه عليها وانه يقدر على كل فرع يسأل عنه لقابلية نفسه وعلوها الّتي يمكن ان يعرف احكام الله بتبليغ من الرسول وتكون نفسيته قابلة لحفظ الامور الشرعية والفروع الكثيرة باسرع وقت واسرع تعليم والا كان الناطق بالحكم ليس مشرعاً للتشريع الالهى بل مشرعاً من قبل نفسه وكيف ينص الشارع بارجاع الامة الى آراء جماعة لااطلاع لهم على حقائق الامور. ولذا ان الّذي عليه مذهب الامامية قديماً وحديثاً ان الاوصياء والائمة هم المتممون لتشريع الرسول الاعظم ﷺ كما هى عادة الانبياء في سائر الامم ولا يجوز الاخذ بقول كل صحابى ولا بالاقيسة والظنون ولا بالاستحسانات فان الظن لا يغنى من الحق شيئاً وقد ذم الله الظن والاخذ به وقال:، «ان هم الا يظنون»، واما قول الصحابة اذا لم يستند الى صاحب الشريعة فليس هو الا استحسان وظن.

واما ماورد من ان اصحابى كالنجوم، فبأيهم اقتديتم اهتديتم، فنوكل هذه الرواية وامثالها إلى عقلية القارىء والى ملاحظة التاريخ، فكم جاء التاريخ بما لا اصل له وكم بدل التاريخ مما هو حجر اساس في الاسلام وكم زور معاوية وبعض الرواة احاديث لا اساس لها بالشريعة.

وان جملة من هذه الروايات كروايات سمرة بن جندب وقصته مع الرسول ﷺ معروفة في نخلته الّتي هى قرب دارالانصارى ومغيرة بن شعبة وكان من اكثر العرب مراوغة ومكراً وانه لاينبغى ان يصدق مثل أبي هريرة الّذي اسلم قبل وفاة الرسول ﷺ بثلاث سنوات او اقل وقد روى الالوف من الروايات ولو وزعت اوقاتِ اسلامه واخرجنا منها اوقات صلاته ونومه ورعيه للجمال لكان في كل دقيقة، يسمع من رسول الله ﷺ اربع روايات او خمسة او اكثر لرسول الله ﷺ في ايام اسلام ابي هريرة أفلم تكن جهات ولا معاشرة مع اصحابه ولا مع اقاربه وزوجاته ولا جهاد ولا غزوات فلو صرفنا اوقات رسول الله ﷺ كلها من غير عمل ولا جهاد ولا معاشرة لقريب او بعيد ولا اداء حق لزوجاته وحصرنا اوقات أبي هريرة كلها في التعليم، من رسول الله ﷺ ومحاضرات الرسول له ما

كانت اوقاته تفى باداء هذه الروايات ولذا تنبه كتاب العصر الحاضر الى ما قلناه والى المناقشة في رواياته.

واذا اراد المسلم ان ينظر الى التاريخ وما صنع فيه اهل ذلك العصر ويتأمل في نقل الرواة واغراضهم وفي حكومات تلك العصور من بنى امية وبنى مروان وبنى‌العباس وكيف كانت مقاصدهم في اهل البيت عليهم السلام من اذهاب سمعتهم والتزوير عليهم والتبليغ بضدهم وجد ما ذكرناه واضحاً وكم للتاريخ من نواقص وتبليغات سوء وقد شوهت تلك العصور والبست تلك الازمنة لباس الاكاذيب والاغراض الشخصية، الّتي لا يسعنا على التفصيل في هذا المقام بيانها ونرجع ذلك الى نفسية المتتبع ووجدانه.

والّذي ينبغى لرجال الانصاف والدين، ان يفصحوا الرواة الناقلين، لسنة الرسول صلى الله عليه وآله ويأخذوا بقول من ثبت دينه وتقواه، المبرء عن المقاصد الشخصية وحب الرياسة والسيطرة.

وليعلم المسلم ان الكل من إمامي جعفري وسنّي حنفي ومالكي وشافعي وحنبلي وزيدي واسماعيلي موقوفون للحساب يوم القيمة، يوم لاينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم؛ قال تعالى «وقفوهم انهم مسئولون»[1] ويجزى كل احد بعمله، ان خيراً فخير وان شراً فشر وانه يتعين عليه في دار الدنيا الفحص فيما يقوله ابناء السنه والجماعة والامامية، الاثناعشرية ولينظر الى الواقع وعند ذلك فلابد ان يهديه الله الى الصواب وهو الهادي للصواب.

١. الصافات ٢٤ / ٣٧

الآيات الدالة على افضلية الامام على عليه السلام وعصمته

الآية الاولى: آية المباهلة

قال تعالى «فمن حاجك فيه من بعد ما جائك من العلم فقل تعالوا ندع ابنائنا وابنائكم ونسائنا ونسائكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين[1]».

ولابد من التعرض لاهداف هذه الآية وما توجهت اليه من البيان.

النقاط الّتي تعرضت لها الآية الشريفة:

النقطة الاولى: ان معنى المباهلة هي المعاهدة بين العبد وبين الله من طرفين، على ان يكون كل واحد من الطرفين يعاهد الله ويشدد الميثاق بينه وبين ربه بان يطلب النصرة عند صدق دعواه وحلول النقمة واللعنة عند كذب الدعوة.

النقطة الثانية: ان المباهلة لا تكون الانوعية، بين ملة وأخرى وبين شريعة وشريعة أخرى وعند تمامية المباهلة، تهلك الامة الكاذبة والمذهب غير الصحيح من احد الطرفين ولا تكون المباهلة شخصية بين فردين، فان المباهلة بين شخصين ليست مهمة في نظر الاجتماع.

النقطة الثالثة: ان الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله لما قدم علماء النصارى من نجران وحاوروه بدعواه على النبوة الى ان انتهت المحاورة الى المباهلة فتقدم الرسول صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسنان عليهم السلام، وان طرف الباهلة هم علماء النصارى لانهم الدعاة الى مذهب النصرانية.

وعند الحقيقة ان من يشكل الدعوة من مسلم او نصرانى ومن يقوم على عاتقه احد المذهبين، هو الّذي يباهل مع الاخر.

ومن هنا كان المسلمون، ليس طرفا للمباهلة كما ان النصارى، ليس طرفالها ايضا.

ومن هذا التشكيل في صورته على هذا الهيكل من المباهلة يعلم ان الاطراف من المسلمين والنصارى لاتقوم عليهم محاورة المباهلة ولا قائمة على عاتقهم وانما المباهلة قائمة على من اسس الدعوة وقام بصلب الاسلام والنصرانية.

النقطة الرابعة: انك عند ما تشاهد موقف الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله مع علماء نجران،

---

١. آل عمران آية ٦١.

ترى الرسول ﷺ في موقفه لم يتخذ صحابياً ولا قرابة ولا مهاجرا، ولا احداً من الانصار وانما قبض على الامام علي ﷺ وفاطمة الزهراء عليها السلام والحسن عليه السلام والحسين عليه السلام وقد القاهم في هذا الموقف الرهيب الّذي يدور بين موت النصرانية او ذهاب الاسلام والعياذ بالله ولو كانت دعوة الرسول ﷺ غير واقعية، فالقاء علي وفاطمة وطفلين عليهم السلام في ذلك الوقت مما يوجب اليأس لكل مسلم. ان هذا الصراع بين النصرانية والاسلام يقوم على دعائم الحقيقة في الاسلام وعلى من هو اساس الاسلام لاكل من انتحل الى الاسلام واعتقده والا فأيّ مبرر عادة بمجيىء طفلين بهذا الموقف.

وان هذا الموقف معاهدة مع الله تعالى من الطرفين، بالنصر، او الانتقام وان المباهلة قائمة على امر ديني وليست المباهلة قائمة على امر مادى او تشكيلات سياسية او على نظام قبائلى او عشائرى او على حالة موروثة من امة او قبيلة، انما المباهلة قائمة على صلب الموضوع وهي صحة دعوى دين دون دين آخر.

ومن هذه الجهة يعلم ان الرسول الاعظم ﷺ عند ما اخذ علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام للمباهلة لم يأخذ هم على نظام عشائرى موروث من نظام امة او اجتماع بيئة، انماالمباهلة قائمة على اساس حقيقى من الدين وان من كان له الاثر التام في تقويم المذهب وتأسيسه هو الّذي يؤخذ في المباهلة والافما معنى اخذ الحسن والحسين عليهم السلام وهما طفلان وكيف جاز للرسول ﷺ اخذهما وتعريضهما للهلكة والخطر وحاشا ان يكون الرسول ﷺ عابثاً في دعواه وفي تنظيم هذه المباهلة فيتعين ان اخذ الرسول لعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام انهم كانوا من قوام الدعوة واركانها وانهم ممن اخذت على عاتقهم المباهلة.

النقطة الخامسة: انه يتعين على المباهل من الطرفين ان ياخذ اشخاصاً هم الاقرب الى صحة الدعوة لان الوجهة الجهة دينية والهدف هدف تشريعى فلا يمكن ان يأخذ البعيد عن قوام المباهلة ويترك ما هو مقوم لها في الدعوة.

ومن هنا يعلم ان علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وهم الاقرب من كل احد في قوام الدعوة الاسلامية والافلو كانت بعض افراد الامة اقرب منهم لله والى رسوله ﷺ والى صلب الموضوع، لوجب على النبي ﷺ ان يقدمهم للمباهلة ولو كان هناك صحابى او قريب هو اقرب لله تعالى من هؤلاء في الدعوة لوجب على النبي ﷺ ان يباهل به فان كانت القضية

قضية القرابة كان من اللازم تقديم العباس وهو عم النبي او عقيل بن ابيطالب وهو ابن عمه الاكبر على الامام عليّ عليه السلام وان كان المقام مقام دين وكان في الصحابة من هو اولى من هؤلاء كان الواجب على النبي صلى الله عليه وآله اخذ ذلك الصحابى للمباهلة.

وحيث لم يأخذ النبي صلى الله عليه وآله العباس وعقيل ولا احداً من الصحابة كابي بكر وعمر وعثمان وعبدالرحمن بن عوف، او طلحة والزبير، او سعد بن ابى وقاص، او سلمان، او عمار، او ابى ذر، او المقداد، او غيرهم، يعلم ان اساس الدعوة قوامها، قام على عاتق الرسول صلى الله عليه وآله واهل بيته من علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

النقطة السادسة: ان التعبير بأبنائنا يختص بالحسن والحسين عليهما السلام وبنسائنا بالصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام وبانفسنا نفس الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ونفس الامام علي بن أبي طالب عليه السلام وجعل النفسين نفساً واحدة كما ان نفوس علماء النصارى كنفس واحدة وان التعبير بانفسنا يشعران الامام من حيث اتمام الشريعة كنفس النبوة من غير تعرض لتنزيله منزلة النبوة وهذا كالصريح في ان الامامة شان من شؤون النبوة.

اذا عرفت البيان، للنقاط المذكورة، تعرف ان المباهلة معاهدة مؤكدة بين دينين وان من يكذب كان هو الهالك وانها امر دينى، لامر عشائري ولا قبائلي بل من كان قريبا الى حقيقة الدين او كان على عاتقه قوام تلك الشريعة، هو الّذي يصح ان يكون قائماً بالدعوة ومباهلا لغيره.

وان الآية الكريمة تلفت نظر القارى، ان الحسن والحسين عليهما السلام ممن لهما الدخل في قوام دعوة الاسلام وثباته وكذلك فاطمة الزهراء عليها السلام حيث انها صديقة ومن رواة السنة النبوية عندنا وممن لها الاثر العظيم في الهداية والارشاد والتعليم.

ومن هذه الآية، يظهر لك قصوركل صحابى وقرابة عن هذه المراحل وان الّذي اخذ على عاتقهم تأسيس المذهب الاسلامى، هم اهل المباهلة دون غيرهم.

وان الآية، اذا أنصف القارى لها وجدها في منتهى الظهور في تنزيل عليّ عليه السلام منزلة النبوة وتعظيمه الى درجة لايصلها صحابي لا تابعي ولا يمكن ان يتوصل اليها رجل من المسلمين مهما بلغ من المكانة والكرامة وانها تعرضت لمقام شامخ لاتناله يد صحابي او مجاهد ولا قريب من رسول الله صلى الله عليه وآله او بعيد.

هذا اذا لا حظنا الآية بظهورها وصراحتها، اما اذا كانت اغشية التعصب وغطاء

التقاليد ما ارتكز في اذهان بعض الافراد، من تقاليد البيئآت تجاوز عن هذه الآية وعبر عنها عبور الغافل، او الّذي لايفهم منها شيئاً من الاشياء.

وقد انصف الطبرى في تفسيره لهذه الآية الكريمة وقال: انها دالة على افضلية اهل البيت عليهم السلام على كل قريب وبعيد من صحابى وغيره.

وعلى ضوء البيان السابق، يكون معنى الآية، ان من حاجّك من النّصارى في عيسى عليه السلام بان نبوته باقية ودعوته مستمرة، او أن له مقاماً وراء النبوة باتحاد الله معه اوحلوله فيه اوكونه ابنآله، بعد ما جائك من العلم بالبينات والمعاجز فقل لهم، تعالواند عوا ابنائنا، وليس ذلك الا الحسن والحسين عليهما السلام ونسائنا ونسائكم وليس ذلك الا فاطمة الزهراء عليها السلام وانفسنا وانفسكم وليس ذلك الانفس رسول الله صلى الله عليه وآله ونفس الامام على بن ابيطالب عليه السلام وأيّ تنزيل وتقريب، باكثر مما جعلت الآية نفس عليّ عليه السلام نفس الرسول صلى الله عليه وآله ثم نبتهل بهؤلاء منا ومنكم، فنجعل لعنة الله عل الكاذبين.

وقد عرفت ان الآية في مقام مباهلة دين بدين وليست في-مقام ما هو المتعارف من حالات العشائر والقبائل، والالجاء بالعباس وهو عم النبي صلى الله عليه وآله الكبير فكان على النبي صلى الله عليه وآله ان يأخذ العباس او عقيلا للمباهلة.

اذاً الآية في تقابل مذهب بمذهب وتقابل من كان له التأسيس في المذهبية.

وهذا الخطاب من الله تعالى يتعين بظهور الآية ان هؤلاء هم قادة المذهب وعلى عواتقهم قامت مبانى الاسلام نظير قول ابراهيم الخليل عليه السلام (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء)[1].

وعلى الاجمال، فالاية صريحة، ان الرسول صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام هم الدعامة والاساس لبناء الاسلام والالكان الاتيان بطفلين وإمرءة، في هذا الموقف الرهيب وفي هذا الابتهال من الاعمال الّتي تستهجن عند العقلاء وتعد لغواً منه وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وآله ذلك وقد امره الله بذلك ولم يكن من نفسه، حتى يتوهم المتوهم، ان الآية قد جاءت على نسق المتعارف بين الناس من أنّ الانسان عند الشدائد، يندب اهل بيته.

وان بعض اخواننا من علماء السنة والجماعة قد جعلها من قبيل القضايا القبائلية والقومية وكيف يتعقل ذلك والدعوة هنا دعوة مذهبية يبتني عليها اساس الاسلام او هلاكه

---

١. سورة ابراهيم الآية ٤٠.

وان هذه الجهة، ممالا تنالها يدالقوميات والعناصر وانما هى هلاك مذهب وحياة مذهب آخر، وان علماء النصارى هم اساس الدعوة من حيث الدين، فكذلك الرسولﷺ واهل بيتهعليهم السلام اساس الدعوة في اقامة الدين.

وانى لاعجب من بعض اخواننا،ابناء السنة والجماعة، ان يأخذ هذا الموقف بنظرة سطحية وما علم هذا القائل، ان ليس للرسول ﷺفي هذا المقام امر ولا نهى وان الآية نزلت من الله تعالى على نبيه وان ليس لله قريب وبعيد وانما القرب هو الوصول الى الله وان النبيﷺ لايمكن ان يقرب بعيداً، اذا كان اهل البيت بعداء عن الله، ولا يبعد قريبا اذا كان قريبا من الله والا كانت الدعوة دعوة قومية وحاشا لله ولرسولهﷺ، ان تكون آية المباهلة على طبق نزعات القبائل والقوميات.

وانت اذا لاحظت التاريخ ولا حظت بعض علماء التسنن تجدهم قد بلغوا حد الافراط واغمضوا اعينهم عن كل منقبة وكرامة لاهل البيتﷺ.

وان المسلم ليستغرب من اخيه المسلم، ان يقف من يدعي العلم موقف الاغماض عن الحقائق، بل ويتحامل عل المذهب الجعفرى من غير وجه وهويرى ان الكثير من علماء السنة والجماعة ممن تعرض في كتبه لفضائل اهل البيتعليهم السلام وتعظيمهم واظهار كرامتهم بل وافضليتهم على كل صحابى كما تشاهده من ينابيع المودة وابن عساكر وابن أبي الحديد والترمذي وغيرهم.

حدث مسلم والترمذى والحاكم وابن المنذر والبيهقى عن سعد، إن رسول اللهﷺ قال اللهم، ان هؤلاء اهل بيتى، فابى اولئك ان يباهلوه وعاهدوه على الجزية.

وفي رواية ابن اسحق والثعلبى والكشاف والرازى وابى السعود وغيرهم في تفاسيرهم والمالكي في الفصول المهمة، ان اسقف نجران، قال انى لارى وجوهاً سألوا الله ان يزيل جبلا من مكانه لازاله، فلا تبتهلوا.

وفي حديث جابر، كما في مستدرك الحاكم واسباب النزول للواحدى وغير هما ابنائنا الحسن والحسين ونسائنا فاطمة الزهراء وانفسنا على ابن ابيطالب عليه السلام.

واخرجه مسلم والترمذى في جامعيهما وابونعيم في الدلائل والبيهقى في سننه وابن ابىشيبة وسعيد ابنمنصور وعبد بن حميد وابن جرير وابنالمنذر والحاكم في مستدركه وابن مردويه والثعلبى في تفسيره وموفق بن احمد وابن المغازلي والمالكى والواحدى

والسيوطى في الدر المنثور وغيرهم باسانيدهم عن سعدبن ابى وقاص وجابر وابن عباس وعلياً اليشكرى وجد سلمة وعن الشعبى والحسن والسدى ومقاتل والكلبى بما ذكره جل المفسرين وقل ما يخلو من روايته كتاب تفسير.

نظرة اخرى حول الآية الكريمة

اولا ـ ان المقام ليس مقام حكاية، ليعلم القارى الكريم، ان الله سبحانه وتعالى، عند ما يأتى بالآيات، في بيان حالات الانبياء والرسل، يأتي بها على نحوين:

الأوّل ـ ان تأتي الآية حكاية واخباراً عن شؤون النبي وحالاته وتاريخه، او في فضله وجهاده، كما تشاهده في الغالب، من قصص ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وسائر الانبياء.

الثانى ـ ان تأتى الآية بصورة الانشاء بجعله رسولا ومهيمنا على الأمة وتظهر الآية الوظيفة العملية للنبى او الولى وهذه الآيات تبدى مقاماً سامياً، في تقمص النبي للولاية العامة والتشريع الكامل وتؤدي مؤداً وراء المدح والثّناء في مقام الولاية وانه المشرع للاحكام وانه اولى من الامة من انفسهم وان طاعة النبي طاعة لله وانت اذا شاهدت آية المباهلة وآية الولاية، (انما وليكم الله ورسوله الى آخرها) وآية ذهاب الرجس الى غير ذلك من الآيات الّتي جاءت في حالات اهل البيت تراها صريحة، بان لهم الهيمنة والنفوذ والسلطة على البشر وهم ذوى الارادة في التشريع والحكومة وان من عداهم من المسلمين لابد وان يكون تحت نفوذهم وما جاءت آية في هذا اللسان، الا وقرنت علياً واهل البيت عليهم السلام بالرسول الاعظم صلى الله عليه وآله كما في آية المباهلة وآية الولاية واذهاب الرجس ولاترى انفكاكاً في آيات التشريع والقيام باصل الدعوة وبيان هيمنة النبي على الامة، الا وقد قرنت علياً واهل البيت بالرسول الاعظم صلى الله عليه وآله.

فكل آية جاءت بسلطنة الرسول صلى الله عليه وآله على الامة قرن الله ائمة اهل البيت بالرسول صلى الله عليه وآله.

ولذا ان آية البراءة، بعد ان مضى ابوبكر فيها جاء النداء من الحق، ان لا يبلغ عنك في هذا الموضوع، الارجل من اهل بيتك وهو علي بن ابيطالب عليه السلام حيث ان المقام مقام تشريع ودعوة الى النبوة ومقام التشريع والهيمنة على البشر، لايمكن ان يقوم به، الانبيّ، او ممثل ذلك النبي في الرسالة والتبليغ.

ثانياً ـ ان الآية ترمى الى هدف عظيم، ان الموقف موقف لايأتى ابتداء مع الخصماء والمنكرين للرسالة، فان رسول الله ﷺ لايقدم على المباهلة ولا علماء نجران، الا عند ما تسد الابواب والطرق، في تفهيم رسول الله ﷺ واقناعهم الرسالة وعند ذلك يتجلى موقف المباهلة من الطرفين او باستدعاء طرف واحد والمباهلة، لا تكون الا بامر دينى عام وهى في الحقيقة، تعاهد بين الله وبين المتباهلين انه عند الكذب يدعون الله بالانتقام، فهى عقد ايجابى وسلبى، انه اذا لم تتم الدعوة وهى العقد الايجابى، يتوجه الانتقام وهو العقد السلبى.

وانا قد بينا، ان موقف النبوة والرسالة تتمثل في بيان الوظائف المتوجهة من الله تعالى على نبيه، فهو يمثل الخلافة في الارض ولا يمثل النبي حالة العواطف وحالات القبائل والعشائر والقوميات.

ولذا أن النبي ﷺ وأوصياءه المعصومين عليهم السلام لايمثلون دور العواطف ولا دور قبيلة ولا قومية، بل يمثلوا الخلافة في الارض من الله وليس له ميل ولا رغبة ولا امر ولا نهى الاالفناء في طاعة الله، فلا يحب ولا يبغض ولا يريد الا عين ما يريده الله، فذات النبي والولي الفناء في ذات الله وافعاله يمكن ان يتوجه هذا الموقف بتوجيه ان الانسان اذا حلت به النوائب وشدائد الزمن، دعى اهل بيته، كما تقتضيه العواطف الانسانية فان المقام مقام تشريع وخلافة ولا يمكن الا ان تكون على طبق الارادة الالهية.

فما ذهب اليه بعض علماء العامة، من ان الانسان اذا حلت به الشدائد، يتوجه الى اهل بيته في الدعوى فهو كلام يبتنى على ان حديث المباهله كان من احاديث العواطف والقوميات.

ثالثاً ـ ان التعبير في الآية، قد جاء من الله فهو خطاب من الله على لسان الرسول ﷺ وليس الخطاب من الرسول في الآية الكريمة، فلو كانت الآية منزلة على الامور المتعارفة والعواطف البشرية، لدعى الرسول ﷺ العباس وعقيل وعبدالله بن عباس وولده ابراهيم، حيث كان حياً، في ذلك الوقت، فالموقف موقف دينى وليس للرسول فيه أيّ تصرف ولوكان الامر مبنياً على العواطف والعادات، لقدم النبي ﷺ من هو في نظر الناس اقرب اليه ﷺ من عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فان ذلك اوقع في النفوس وكيف يترك ولده ويقدم اولاد ابنته، مع ان من عادة العرب، ان لا يقدموا اولاد البنت على الاولاد.

رابعا ـ ان التعبير في الآية، بقول وانفسنا وانفسكم ان ما يراد من انفسنا هو اصحاب

الدعوة ومن قامت عليهم الرسالة في قبال علماء نجران، الذين هم اهل الدعوة في ذلك الوقت، فتكون عبارة انفسنا بالقياس الى رسول الله ﷺ واميرالمؤمنين علي بن ابيطالب عليه السلام على حد سواء فتكون الآية ان من قام عليه تأسيس الرسالة هم النبي ﷺ وعلي عليه السلام وفاطمة والحسنان عليهم السلام والا كان مجيىء فاطمة والحسنين من الافعال اللاغية.

وقد بينا، انّه كيف عرض الرسول طفلين الى الخطر، مالم يكونا من قوام الدعوة وأما ان يراد من انفسنا تنزيل نفس علي عليه السلام منزلة الرسول الاعظم ﷺ وهذا في نهاية البلاغة وفوق التشبيه.

فمثلا اذا قلت زيد كالاسد فلا يفيد الا التشبيه، اما اذا قلت زيد اسد، فهو من باب انطباق الاسد عليه وهذا المعنى يفيد تنزيل علي عليه السلام منزلة الرسول، كما ان التعبير الأوّل، يفيد الشركة في الدعوة الاسلامية وان كلا من الوجهين مدح لا يساويه مدح من الصحابة.

خامساً ـ انك اذا نظرت الى هذه الآية، والآيات الواردة في مدح اميرالمؤمنين على بن ابيطالب عليه السلام واولاده الطاهرين، تجد المدح، لا يساويه مدح لكل احد فان التعبير بمشابهة شخص لآخر، او مجانسته له او المشاركة، في الكمية والكيفية لا تفيد إلا مشابهة عرضية ولا تفيد معنى اصلياً وموضوعاً.

فقد صرح علماء الفلسفة ورواد الحكمة، ان التعبير بالمجانسة والمشابهة والمقاربة ونحو ذلك، لاتفيد الا المشابهة في امور عرضية، من المشابهة، في الكم والكيف اوالوضع، فاذا جاءت آيات المدح للمهاجرين والانصار، او المدح بنحو الصاحب والرفيق او الصديق او اخ القوم، فلا تفيد هذه التعبيرات، الا المشابهة والمجانسة، في امور عرضية.

اما اذا جاء التعبير بنحو الولاية لشخص، انه نفس النبي، او انه فوق حالات البشر، وانه منزه عن الرجس الّذي تقتضيه طبيعة الانسان.

فهذا المدح فوق مدح الطاعة والجهاد والصحبة والرفاقة واذا جرد الانسان نفسه عن التقاليد والبيئآت واعطى النظر حقه وجد أنّ الاحتياج الى الامامة، من ضروريات الفطرة ومما تقتضيه الحكمة الالهية كما هى السيرة في الانبياء من اتمام التشريع والهداية للرسل والانبياء واهل الشرائع فقد أعقب ابراهيم انبياء كاسماعيل واسحق ويعقوب عليهم السلام وغيرهم لاتمام شريعته ودعوة الناس الى رسالته.

واذا نظرت الى موسى، رأيت الانبياء يعقب بعضهم بعضاً، لهداية الناس الى ما جاء

به المشرع الأوّل وهو موسى فهذه سنة الله في خلقه ومشيئته في عباده، لاقامة الحجة على الخلق على ممر العصور.

حديث القصة

اما حديث القصة، فقد جاءت آية المباهلة، في السنة التاسعة من الهجرة الّتي كثر فيها الوفود على رسوله الله ﷺ لانتشار دعوته ومنهم اسقفة النصارى، فقد قيل انهم ستون وقيل اربعة عشر ومنهم اميرهم ويسمى بعبد المسيح، والثانى السيد والثالث حبرهم وكان الرئيس الدينى للوفد ابوحارثة وقد اذعنت نفسه بصدق رسول الله ﷺ ولكن قد حالت المطامع الّتي كان يأملها من زعماء النصارى.

ولما احتجوا على الرسول ﷺ في عيسى انه ابن الله، او ثالث ثلاثة وعند ما أيس الرسول ﷺ منهم حيث لم يستسلموا للبراهين، فآل النبي معهم الى المباهلة.

وقد تواترت الروايات، في كتب الحديث والتفسير ومنها صحيح مسلم والترمذى وتفسير الطبرى والرازى والبحر المحيط وغرائب القرآن وروح البيان والمنار والمراغي وغيرها، ان محمداً ﷺ خرج وعليه مرط، أي كساء غير مخيط اسود، وقد احتضن الحسين واخذ بيد الحسن وفاطمة وعلى يمشيان خلفه وهو يقول: اذا دعوت فأمّنوا، فقال الرئيس الدينى للوفد، يا معشر النصارى، انى لارى وجوهاً، لودعت الله، ان يزيل جبلا من مكانه لازاله فلا تباهلوه فتهلكوا ثم قال ياابا القاسم، رأينا ان لا نباهلك فقال لهم اسلموا، فابوا، ثم صالحهم على ان يؤدوا الجزية.

وقد ذكر الفخر الرازى القصة، ان النبي ﷺ خرج في المرط الاسود، فجاء الحسن رضى الله عنه فادخله، ثم جاء الحسين رضى الله عنه فأدخله، ثم فاطمة الزهراء ثم علي بن ابيطالب رضى الله عنهما، ثم قال: إنّما يريد الله، ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا؛ واعلم ان هذه الرواية متفق على صحتها، بين اهل التفسير والحديث.

وقد ورد في مدح الامام علي بن ابيطالب عليه السلام في المباهلة[1] الحديث المقبول، عند الموافق والمخالف وهو قوله عليه السلام من اراد ان يرى آدم في عمله ونوحا في طاعته وابراهيم في خلّته وموسى في هيبته وعيسى في صفوته، فلينظر الى علي بن ابيطالب رضى الله عنه.

---

١. قد ذكره الرازى في تفسيره.

وقد دل الحديث على انه اجتمع فيه ما كان متفرقا فيهم وذلك يدل على ان علياً عليه السلام افضل من جميع الانبياء سوى محمد صلى الله عليه وآله والرواية لما جاءت، في مورد آية المباهلة، دل مقام الرواية والآية، على افضلية علي عليه السلام على كل الصحابة وانه بمنزلة اشرف انبياء الامم المتقدمين وافضل.

الآية الثانية: آية الولاية

قال تعالى، «انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون»[1].

الآية الشريفة قد دلت، ان الولاية لله وللرسول ولمن آمن واقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع وما ذلك الاعلي بن ابيطالب عليه السلام.

والولاية هى الهيمنة العامة والاحاطة على الشيء وان الولى قائم على المولّى عليه نافذ فيه حكمه ومسيطر عليه.

والولاية تكوينية وتشريعية واما الولاية التكوينية بمعنى ايجاد الخلق وتكوينهم واظهارهم من العدم الى الوجود فهى مختصة بالله تعالى، لانه العلة لكل موجود والقائم على كل شيء والعلة التامة هى المحيطة بوجود المعلول وبجميع شئونه وجهاته.

ولا تكون الولاية من الله تعالى اعتبارية، بل الولاية احاطة العلة بالمعلول وان لا وجود للمعلول والمخلوقات الابايجاده وخلقه.

اما الولاية التشريعية، فهى جعل منصب من الله تعالى لاوليائه من الانبياء والاوصياء، على حسب شأنية النبي والوصى، فكلما كانت شريعته واسعة واهليته للهداية عامة كانت ولايته من الله اعم واوسع من غيره.

ولما كانت ولاية النبي سيد الرسل صلى الله عليه وآله والامام علي سيد الاوصياء عليه السلام عامة وهيمنة مطلقة، قرن الله ولايتهما التشريعية، بولايته تعالى التكوينية، فهم الاولياء في العالم كله ولهم الهيمنة على الموجودات في الهداية والارشاد والتبليغ ورسول الله صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام هم اولى، بالمؤمنين من انفسهم.

وقد انحصرت الولاية بقوله (انما) الّتي هى اداة الحصر في ذات الله سبحانه وتعالى،

---

١. المائدة آية ٥٥.

الخالق لكل شيء والقائم على كل شيء ثم ان القائم والمهيمن هو رسول الله ﷺ وان المهيمن الثالث والقائم على المسلمين وعلى امورهم، من السياسة والاقتصاد ومن الاجتماع والقضاء ومن الاخلاق والجزاء، امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام فقد جعلت الولاية له من الله بعد الله ورسوله.

وكيف يصح ان يهيمن عليه احد وان يكون تحت نفوذ غيره والآية لاتجوز ذلك وكيف يهيمن الضعيف، في وجوده على القوى وكيف يهيمن من كان محكوماً على الحاكم ومن كان رعية على الراعى.

فالاية صريحة في ظهورها، ان القائم على الناس والوالى عليهم، هو الله، ثم من بعده الرسول ﷺ ومن بعد الرسول، من كان متصفا بهذه الصفات وهو علي بن ابيطالب عليه السلام.

وكيف يكون مع هذه الآية الدالة على حصر الولاية في الله وفي الرسول وفي تلك الشخصية وهي علي بن ابيطالب عليه السلام ان يكون عليه خليفة اويكون غيره عليه حاكماً.

ولابد لعامة المسلمين، بالعمل بالايات الكريمة والاخذ بدلالتها وكيف اذا جاءت آية الميراث، او الطلاق او النكاح او الصلاة، او الصوم، او الزكاة، يوخذ بها ويعمل بظهورها وعند ما تجيء مثل هذه الآية ونظائرها، توزع دلالتها فيعمل ببعضها دون بعض.

وتحمل الآيات الدالة على فضيلتهم، او أفضلّيتهم على وجوه بعيدة لاتناسب ظهور الكتاب الكريم وكيف يوخذ بولاية الله تعالى وولاية الرسول ولا يأخذ المسلم بولاية علي بن ابيطالب عليه السلام فيعمل ببعض الدلالة دون بعض، او تحرف الآية عن دلالتها، اولا دلالة لها، في ولاية علي بن ابيطالب عليه السلام وقد حكى ذلك التاريخ والسنة ونقل الصحابة انها نزلت في علي عليه السلام.

فالمتصف بهذه الاوصاف، هو صاحب الولاية وجاءت الآية تعيناً لذاته عليه السلام فان الموصول وصلته، من قوله تعالى،«الذين يقيمون الصلاة» هو الاشارة الى تلك الذات الخاصة الّتي تقارب نفسية النبي ﷺ لاكل نفسية مسلم او صحابي، فان العناية بالحصر في الثلاثة وهو الله ورسوله وشخصية امير المؤمنين علي بن ابيطالب عليه السلام مما لا يجوز تطبيق الولاية على غيره لدلالة الحصر والارادة منه تعالى، بان الولاية والهيمنة الحقيقية والتشريعية، هى مخصوصة بالله تعالى.

امّا الولاية التشريعية، فتنحصر على حسب دلالة الآية في الرسول الاعظم ﷺ وفي

تلك الشخصية الّتي اريد من الآية التطبيق عليها فان التعبير بالموصول هنا والصلة، مساق الى تعيين تلك الشخصية وتوضيحها، لا الى كل من يقيم الصلاة، او يودى الصدقة وهو راكع، حيث ان التعبير في مقام الحصر، متوجه الى شخصية خاصة، لا الى كل شخصية وذلك على حسب القواعد العربية في التعبير.

وهذه الولاية، للامام علي بن ابيطالب عليه السلام هى الهيمنة على الخلق في نفوسهم واموالهم واعراضهم، بعد الرسول صلى الله عليه وآله فكيف يكون على هذه الشخصية، ميهمن آخر وليس كل من يقيم الصلاة ويأتى بالزكاة وهو راكع، يستحق منصب الولاية، فان ذلك تابع لشخصية الشخص ومكانته ونفسيته العظيمة.

ولما كانت هذه الولاية مجعولة لعلي عليه السلام من ذات الحق تعالى، فلا يمكن ان تكون ولاية الناس حاكمة على امير المؤمنين عليه السلام لان الولاية من الله غير جائز أن يحكم عليها بولاية الناس بالانتخابات والشورى، حيث ان الولاية من الله تعالى، حسب شخصية الشخص ومكانته الذاتية، لا حسب اعتبارات الناس وانتخاباتهم من جمهورية ومشروطية واستبداد، فالمنصب الآلهي، قد توجه، الى هذه الشخصية ولابد ان تكون هي القابلة للولاية دون غيرها وذلك بجعل تشريعى من الله، لاستعداد تلك النفوس العظيمة وقابليتها، للهيمنة على البشر وتعظيمهم في عالم التشريع والاخلاق بوظيفة من الله تعالى وتنفيذ الاحكام على ايديهم. اخى المسلم ان الامل فيك ان تنظر الى هذه الآية وامثالها بنظرة غير متحيزة الى جانب ولامأخوذة من تقاليد الاباء بل بنظرة الى ظهور الآية ودلالتها. وكيف تجوز لنفسك ان من كان وليا من قبل الله ان يكون مخلوعاً بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله والآية انما تجعل الولاية له بعد ولاية الرسول صلى الله عليه وآله ولا يكون ذلك الا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله.

ولاية على عليه السلام بعد ولاية الرسول صلى الله عليه وآله

لا تتحقق ولاية علي عليه السلام في زمان الرسول صلى الله عليه وآله لان الرسول ولى كل مسلم ومسلمة.

اما في زمان الرسول صلى الله عليه وآله فولاية الرسول مقدمة على ولاية علي عليه السلام وليس له تصرف وهيمنة على الناس في ذلك الوقت وتنحصر دلالة الهيمنة من علي على الامة بعد وفاة الرسول واذا كان معزولا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فكيف صح هذا التعبير من الله تعالى وجعل الولاية له اذ لاموقع لولايته اصلا.

اما في زمان الرسول ﷺ فلولاية الرسول عليه واما بعد وفاة الرسول ﷺ فلا ولاية له والخلافة بيد غيره، فيكون التعبير في الآية، لا سمح الله لاغياً وغير متوجه الى هدف اصلا، لعدم ولايته، في زمان الرسول ﷺ وبعد وفاة الرسول ﷺ.

واعلم، اخى ايها المسلم، ان ليس مقصودنا، هو التحرف والمشاجرة في الشخصيات، من اصحاب رسول الله ﷺ وانما الغرض هو التفاهم وجعل المسائل في خلافة علي عليه السلام وخلافة غيره على بساط البحث والتفاهم وانا نرغب ان نتفاهم لاننا اخوان، يجمعنا الاسلام والقرآن ودعوة النبي ﷺ والواجبات الشرعية ونرغب ان يقع التفاهم من غير حزازة ولا تجاسر على شخصية من الشخصيات او مذهب من المذاهب، بل المقصود لنا، هو طرح هذه المسائل للتفاهم والتبادل في النظريات العلمية والبحوث في هذه الشريعة المقدسة من دون اذهاب كرامة أحد.

حديث الآية

ذكر في البرهان وغاية المرام عن الصدوق باسناده عن ابى الجارود عن ابى جعفر عليه السلام في قوله تعالى (انما وليكم الله ورسوله. الآية) قال ان رهطا من اليهود اسلموا منهم عبدالله بن سلام واسد وثعلبة وابن يامين وابن صوريا فاتوا النبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله ان موسى اوصى الى يوشع بن نون، فمن وصيك يا رسول الله، فمن ولينا بعدك، فنزلت هذه الآية (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)[1].

قال رسول الله ﷺ قوموا، فقاموا واتوا المسجد فاذا سائل قد خرج من المسجد، فقال يا سائل هل اعطاك احد شيئاً، قال نعم، قال من اعطاك اياه قال اعطانيه ذلك الرجل الّذي يصلى، قال على اى حالة اعطاك قال كان راكعاً، فكبر النبي وكبر اهل المسجد فقال النبي ﷺ عليّ وليكم بعدي، قالوا رضينا بالله ربا وبمحمد نبياً وبعلي بن ابيطالب ولياً، فانزل الله عزوجل «ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا، فان حزب الله هم الغالبون»[2].

ونقل الطبرى عن مجاهد وعتبة بن ابى حكيم وابى جعفر عليه السلام ان هذه الآية الكريمة

١. المائدة ٥٥ ٢. المائدة ٥٦

نزلت في علي بن ابى طالب عليه السلام وفي غرائب القرآن، لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى، من علماء السنة، ان الآية نازلة في علي عليه السلام باتفاق المفسرين.

وفي تفسير الرازى، روى عن ابي ذرالغفارى رضي الله عنه انه قال صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد، فلم يعطه احد وكان على عليه السلام راكعاً فاوما اليه بخنصره اليمنى وكان فيها خاتم فاقبل السائل حتىٰ اخذ الخاتم بمرء من النبي صلى الله عليه وآله فقال اللهم ان اخي موسىٰ عليه السلام سألك فقال رب اشرح لي صدري الى قوله تعالىٰ واشركه في امري فأنزلت قرآناً ناطقاً سنشد عضدك بأخك ونجعل لكما سلطاناً اللهم وانا محمد نبيك وصفيك فاشرح لى صدرى ويسرلى امرى واجعل لى وزيراً من اهلي علياً اشدد به أزري واشركه في امرى.

قال ابوذر الغفارى رضي الله عنه فو الله ما اتم النبي صلى الله عليه وآله هذه الكلمة حتى نزل جبرئيل عليه السلام فقال يا محمد اقرء انما وليكم‌الله ورسوله والذين آمنوا. الآية.

وقد تكثر النقل في سند هذه الرواية عن اخواننا ابناء السنة والجماعة وعن علماء الامامية كالعياشى في تفسيره وفي غاية المرام عن الصدوق وروى ذلك عن ابى‌ذر نزول هذه الآية في حق علي بن ابيطالب عليه السلام.

وذكر عن ابى المغازلى الشافعى واورده الخطيب الخوارزمى وعن الحافظ ابى نعيم عن جابر انها نزلت في على عليه السلام.

وجوز الرازى ان الولاية بمعنى المحبة والنصرة ولكن ذكر الرد بلسان ما اختاره الشيعة من ان الولاية هنا مستعملة في الله ورسوله بمعنى واحد فكيف تكون في على بمعنى آخر فانه غير جائز استعمال لفظة في مدلولين مختلفين وكان الرازى قد تقبل كلمات الشيعة في هذا المقام ولكن جرى رغبة لمرافقة بعض من العامة، من عدم الرغبة في مدح اهل البيت عليهم السلام والافاى عربى يسعه ان يحمل الولاية في الله وفي النبي بمعنى الهيمنة ولكن في علي عليه السلام بمعنى النصرة والمحبة فان هذا الكلام لا يليق بمتكلم عربى فكيف في القرآن الكريم الّذي هو في منتهى البلاغة والاعجاز ان يقع الكلام ركيكاً وغير بليغ فلا يصدر من ادنى متكلم بليغ.

وقد حاول بعض المفسرين، محاولة فاشلة، بان الايتين من قوله تعالى (انما وليكم الله. الآية) وقوله تعالى (ومن يتول الله ورسوله.الآية) وقعتابين آيتين سابقة ولا حقة، في

ولاية الكفار، من قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض) مما تقدم عليها من ولاية الكفار وما تأخر عنها وظاهر في ان الولاية بمعنى النصرة، فتحمل آية (انما وليكم الله.) على النصرة ايضاً لوحدة السياق، قلا تدل على الولاية بمعنى السلطنة والهيمنة على البشر في مقام التشريع والنفوذ وهذه المحاولة بعيدة عن مفاد القرآن الكريم.

فان الآية الّتي قبل الايتين، من قوله، انما وليكم الله، لا يتصلان بتلك الآية بل بينهما آيات اخر مما ترتبط بالولاية اولا، وثانياً ان القرآن الكريم في سوره واجزائه، لم ينزل مجموعاً بل نزل متفرقا، بحسب الموارد والحوادث ولذاترى كثيراً من الآيات لا يرتبط ظهور بعضها ببعض وثالثاً ان القرآن الكريم ببلاغته واعجازه، قد يأتى فيما بين الكلام بهدف آخر، لاهمية ذلك الهدف وانتقال الذهن الى ما هو اسمى وارفع ولا تأتى الآيات كلها على نهج واحد.

ورابعاً ان الولاية، بمعنى الهيمنة، في الله وفي الرسولﷺ لاينكرها كل مسلم، من كل الفرق والمذاهب.

ولازم ذلك، ان مفاد الولاية، في الآيات السابقة على الايتين واللاحقة، تفيد النصرة، ثم جاءت الايتان في الله تعالى والرسولﷺ بمعنى الهيمنة، وعندما جاءت في علي عليه السلام في الايتين بمعنى النصرة وان هذا التركيب في الجمل مما لايتفوه به عربى فضلا عن القرآن الكريم، فان لازمه التفكيك المستهجن في الكلام.

بل من الجائز، انا لو تنزلنا مع هذه المحاولة، من بعض علماء العامة بان تحمل الولاية على الهيمنة، فهيمنة الكفار، بعضهم على بعض، او على المؤمنين مما ندد بها الشارع.

واما المحاولة، بان الآية لا تدل على ولاية اميرالمؤمنين علي بن ابى طالب عليه السلام بالخصوص لان مفادها الجمع وذلك لا يختص به، وكأن المحاول ما نظر الى القرآن في استعماله المفرد بالجمع تعظيما.

ثانياً ان ما ذكره القائل بان يراد به جميع المؤمنين ينا في التواتر بان الآية نزلت في حق علي عليه السلام فكيف يكون هذا التواتر الثابت من علماء السنة والشيعة ان نرفع ايدينا عنه بمحاولات فاشلة حركها التعصب وطلباً لرغبة الامراء السلاطين والسواد من الناس فانه كثير ما يطلق الجمع على المفرد، نظير قوله تعالى (الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سراً

وعلانية)[١] وليس المراد الا علي بن ابيطالب عليه السلام كما روته السنة والشيعة وقوله تعالى (ويقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعزمنها الاذل)[٢] وذلك ليس الاحاطب بن ابى بلتعة.

واجمالا ـ ان المراد ليس كل من صلى او اعطى راكعاً والالتكثرت هذه الدعاية وانما يراد بالاية، تشخيص المقام الثالث بعد الله ورسوله وهو شخصية علي عليه السلام وتطبيق الصلة والموصول في تعيين تلك الشخصية كما هو القاعدة في استعمال الصلة مع موصولها فانه يراد به شخصية ذلك المعطي، لا شخصية كل من اعطى في حال صلاته والا لكانت المقارنة، بين الّذي يقيم الصلاة في الولاية، مع ولاية الله ورسوله مما لا ينطق به عارف باللغة.

وانما هى اداة حصر للولاية، بمقامات ثلاثة، بمقام التوحيد ومقام الرسالة ومقام الامامة، فقد حصر المفهوم الكلى وهى الولاية، الّتي مفادها الهيمنة والسلطنة والنفوذ فيه تعالى وفي نبيه وفي اميرالمؤمنين على بن ابيطالب عليه السلام وان الآيات الكريمة لا تنزل، الا بما هو ابلغ الوجوه وحمل الآية على بعض ما تقدم من علماء المسلمين من العامة، لا يليق بالقرآن الكريم واعجازه.

الآية الثالثه

قال الله تعالى: «يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين»[٣].

ان الآية الكريمة، نزلت على الرسول صلى الله عليه وآله بعد الفراغ، من حجة الوداع عند ما جاء الرسول صلى الله عليه وآله الى مفترق الطرق جاءت هذه الآية الشريفة فنادىٰ الرسول صلى الله عليه وآله بالاجتماع وبعث على كل قافلة سارت، بالرجوع الى الموقف والّذي يظهر من حالة الرسول صلى الله عليه وآله، ان هذا التبليغ لا يتقبله كثير من الناس وان تقبل الناس احكام الصلاة والصوم والحج والجهاد واحكام البيوع والتوارث والقضاء والقصاص والديات، فان كل ذلك قد تقبلته الامة وأخذوا بها، فما هذا التبليغ الّذي يتخوف رسول الله صلى الله عليه وآله من عدم قبوله بين الناس بعد ماأعلن

١. البقرة ٢٧٤ ٢. المنافقون ٨
٣. المائدة ٦٧

للناس، ان هذا الحج حج الوداع ولا تلاقى له مع المجتمع الاسلامى الافي هذا الموقف.

اذاً يتضح لكل ذى عقل سليم، ان المقام ليس مقام تشريع حكم، من صلاة اوصوم، اوحج اوجهاد، انما هو في موقف نصب وولاية لاحد المسلمين، الّذي يتخوف رسول الله ﷺ من ان لا يتقبله كثير من الناس وهذه الآية، هى الداعى للرسول الى نصب علي عليه السلام اماماً، يوم غدير خم، كما سيأتى منا، موقف الرسول ﷺ في نصبه لعلي عليه السلام في غدير خم.

وان الآية، هى السبب الداعى، لنصب الامام علي وتخوف الرسول ﷺ من اظهار منصبه لعدة امور، اولا ان علياً عليه السلام حدث السن والعرب من عادتهم في تلك العصور ان حدث السن لايتأمر عليهم، فيخضعون للشيخ الكبير وان لم تكن له معارف دينية ولا سياسيّة ولا يخضعون للشاب وان كان في تكامل من المعارف الدينية والاجتماعية.

ثانياً ـ ان علياً عليه السلام هو المجاهد الأوّل، بين يدى رسول الله ﷺ واول مبارز في ميدان الحرب وقد قضى على كثير من قريش وغيرهم من قبائل العرب.

وبطبيعة الحال ان العرب حينماترى ان علياً عليه السلام قد قتل بعض آبائهم وابنائهم لا يميلون الى علي، بان يكون حاكماً عليهم وما اخذ الاسلام في اعماق قلوبهم، الا في نفر قليل.

فعلي عليه السلام مما لا ترتضيه نفوسهم غالباً وليس لهم علاقة محبة به فضلا، بان يكون حاكما عليهم.

ثالثاً ـ ان غريزة اكثر الناس اذا صار البيت له الحكومة والقدرة، كرهوا ان تكون القدرة لرجال البيت على ممر الزمن كما صرح به كثير من الانصار بان لا ينبغى ان تكون القدرة في الهاشميين ولا في المهاجرين ممن يتصل برسول الله ﷺ حتى تتكا فى القوى بين المهاجرين والانصار بان تكون النبوة في المهاجرين والخلافة في الانصار.

رابعاً ـ ان الناس بطبيعة الحال يكرهون الباطل ويكرهون الحق الصريح، اما نفسية الامام علي عليه السلام فلا تتوافق مع هذه الغرائز والجبلات فان علياً عليه السلام عندما تولّى الخلافة لم يزد سهم الزبير وطلحة ولا المغيرة ومالك الاشتر وعمار على سائر الناس من الموالى وغيرهم ولا يحض سراً ولا جهرة بعض الناس من الاشراف ببعض الغنائم اوتوفير سهامهم على غير هم فالكل عند علي عليه السلام بنظرة واحدة وعمل متساوى وهذا يعرف من حالة علي عليه السلام ونفسيته.

وكل هذه الجهات مما توجب تباعد الناس عنه فلا يرغبون في خلافته ولا امتثال او امره فان الحق مّر وان كان من الوالد على ولده وهذه كلها مما توجب التباعد عن خلافة علي عليه السلام وان كان الامر من الله تعالى.

خامساً ـ ان المسلمين في ذلك العصر لم تتم معارفهم ولم يعرفوا شأن الامامة وانما يتوجه نظرهم الى الخلافة الظاهرية وقد عرفت من بياننا السابق ان النبوة تحتاج الى المتمم في تشريع الدعوة وتفريعاتها وتطبيق كليات الاحكام على المصاديق وتنفيذ ذلك التشريع الالهى.

فان التشريع مهما بلغ اذا لم يكن رجال ينفذون ذلك التشريع، اصبح التشريع معلقاً وقلّ الانتفاع به بين الناس ومن هذه الناحية التزم علماء الشيعة بالامامة وانها ضرورة تقتضيها كل شريعة كما هى العادة في الشرائع السابقة والا كانت الشريعة غير مستمرة في نظام التشريع والتنفيذ وقد انقطعت تفريعاتها وتنفيذها في العصور المستقبلة.

وما ذهب اليه الشيعة والامامية هو عين ما تصرح به الآية من الاحتياج الى شخصية تفيد الامة بالتشريع والتنفيذ كما هو طريقة الانبياء من ذوى الشرائع كابراهيم وموسى وعيسى ان يعقبهم رجال من الانبياء والاولياء يتممون للامة التفريعات الشرعية وينفذون احكام صاحب الشريعة. وسيأتى ان الآية في مقام تطبيق الامامة ونصب على يوم غدير خم.

الفات نظر

ايها القارى الكريم ان الآية الكريمة قد جاءت بتعظيم الرسول صلى الله عليه وآله بقوله تعالى (يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك الى آخر الآية) ومع هذا التعظيم والزامه بالتبليغ جاء نوع من التحذير للرسول بانك ان لم تبلغ هذا الوحى الخاص وان كان بحسب العادة ان طباع ذلك العصر لا يرضى بهذا التبليغ الا النفوس السليمة لما ذكرناه من المبعدات بان يكون علي عليه السلام هو الامام والمهيمن على الامة بعد الرسول صلى الله عليه وآله ولكن مع كل ذلك يلزمك التبليغ فانك ان لم تبلغ بامامته وخلافته الدينية فما بلّغت الرسالة لان الرسالة اكمالها واتمامها باستمرار التشريع فيها والتنفيذ من شخصيات لها كمال الاهلية وهى القائمة على النفوس من قبل الله تعالى وان خطرك من عدم قبول الناس لهذا التبليغ وتعريض نفسك لاهانة المنافقين والذين لا يرتضون علياً للامامة فان الله يعصمك من الناس من تأثير اقوالهم

وما يضمرون به لك من العداء وعدم امتثال الامر فان الله عاصمك فأقم الحجة عليهم بالتبليغ بنصب علي للامامة.

وكانت المسؤوليّة بعد التبليغ على الامة فان امتثلوا انتفعوا بامامته وعدالته والا فقد فرطوا وكانوا المسؤولين على انفسهم وعن الاجيال المستقبلة وان الله لا يهدى من احتجب بالظلمات وكان مستوراً عن الحق بالعناد وقد ختم الله الآية بقوله: «وان الله لا يهدى القوم الكافرين».

فان الكفر هو الحجاب عن الواقع والغطاءعن الهداية ولا يختص الكفر بانكار التوحيد والرسالة فيعم انكار الحق وارتكاب الباطل وهذا في منتهى التهديد من الله تعالى على المخالفين. ان الآية الكريمة من حيث نزولها وموردها متواتر في حق علي عليه السلام ونصبه بالامامة وان ظهورها في غاية الدلالة على نصبه وامامته الا من حجب قلبه اغشية العناد وعدم الرضوخ بما صرحت به الآيات والروايات فيامامة علي عليه السلام.

الآية الرابعة

قال تعالى:«انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت؛ ويطهركم تطهيرا»[1].

هذه الآية الكريمة قبل نزولها بزمن قليل جمع النبي صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجعل عليهم غطاء ودخل هو صلى الله عليه وآله تحت ذلك الكساء وكان نزول الآية في بيت ام سلمة رضي الله عنها كما صرحت به كتب التاريخ حتى ان ام سلمة ارادت الدخول معهم فمعنها رسول الله صلى الله عليه وآله وقال لها: انت على خير ولكن لست داخلة تحت هذه الآية، فجاءت الآية الكريمة (انما يريد الله ليذهب الى آخرها).

وتقريب دلالة الآية انها اشتملت على اداة الحصر وهى لفظة «انما» وعلى الارادة وذهاب الرجس والتطهير على وجه المبالغة والتعظيم.

ومعنى الآية الشريفة، ان الله قد حصر ارادته طبق علمه الازلى وقدرته، ان يذهب من نفوس اهل البيت عليهم السلام الصفات الذميمة والنعوت الرذيلة، من الحسد والحقد والكذب والتهور والجزع وعدم الوفاء وارتكاب المنكرات والغضب والحيل والمكر والخداع، فان الله قد اذهب من نفوسهم ذلك، فلا تصدر منهم هذه الاشياء وانهم اجل وارفع من صدور

١. الاحزاب آية ٣٣.

الافعال الذميمة والصفات القبيحة.

وان كانت هذه الصفات وعوارضها، من لوازم ذات البشر ولكن الله بلطفه وحسن استعداد نفوس اهل البيت وقابليتهم، ان يذهب عنهم الرجس وتكون تلك الصفات والحالات النفسية، كامنة لا ظهور لها ومندكة لاقوة فيها.

ثم ان الله سبحانه، قال ويطهر كم تطهيرا، اى ان الله صب عليهم فضائله ونعمه، بعد ذهاب الرجس وطهر نفوسهم وارواحهم العالية، بطهارة الفضائل والكمالات الّتي يستحقونها ولكن لا يمكن لغيرهم استحقاق ذلك لقصور ذاتهم.

ولكن اهل البيت لعلو نفوسهم وزكاة ضمائرهم طهرهم وانار قلوبهم با على درجات الفضيلة والمنازل الرفيعة الّتي لا يمكن ان يصل اليها بشر او ملك كريم.

والآية الكريمة قد جاءت في ضمن الآيات النازلة في نساء النبي ﷺ كما هى عادة القرآن الكريم في اعجازه وغاية بلاغته، انه اذا استطرق موضوعاً، ينقل السامع من ذلك الموضوع الى موضوع اعلى واسمى،الفاتاًلنظر المستمع، ان الّذي انتقل اليه من الموضوع الثانى، مما يتعين على السامع الاهتمام به.

وقد صرحت عائشة، ان الآية نزلت في حق الرسول ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وليست في نساء النبي ﷺ ونقل ذلك ايضا عن ام سلمة واتفق المؤرخون والمفسرون على ذلك وورد، ان الرسول ﷺ طبق هذه الآية يوم المباهلة، ان اهل بيتى، هم الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وقد جاء في صحيح مسلم[1] الآية نزلت، في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وفي صحيح الترمذى ومسند ابن حنبل قد ورد اختصاصها في الخمسة وذكرت في كتب الحديث، من علماء السنة والجماعة.

ايها المنصف اذا نظرت الى هذه الآية، هل يسعك ان تقول لاتدل على طهارتهم وانهم غير المخصوصين بذهاب الرجس.

افمن اراد الله اذهاب الرجس عنه وتكريمه بالفضائل وتحلّيه بالكمالات النفسية أهو كمن قبيل من عبدالاصنام واشرك في الله وعمل باعمال الجاهلية وارتكب فضائحهم وعبد اصنامهم وخضع لكل قانون ضلال وبدعة وان اسلموا في زمان الرسول ﷺ وحسن

١. صحيح مسلم ج٢ ص١٦ طبعة سنة ١٣٤٨هـ ق

اسلامهم وكانوا من اجلاء الصحابة، افيكونوا هؤلاء نظير من خصّه الله بالتطهير الكامل ومن نزهه عن ارتكاب الارجاس على حد سواء، او ما تحس من نفسك، بانها قسمة ضيزى وانه حكم على خلاف العدالة وناموس البشرية يخص الله من عباده اشخاصاً، يجعلهم انبياء واولياء بحكم من يكون عبد غير الله في اوائل حياته.

ومن الواضح لكل ذهن وفكرة مستقيمة لا يمكن ان الشخص الّذي لم يذهب عنه الرجس ولم يطهر تطهيراً، يتساوى في الحقوق والكمالات النفسية، مع من اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ويكون كل منهما على حد سواء، في تقبل الاجتماع بل يؤخر هذا ويقدم من لم يكن قد ذهب عنه الرجس ولم يوصف بالتطهير، ان هذا بحكم العقل والوجدان، غير جائز ولا يتقبله العقل السليم وان مكانة الاشخاص وكمالاتهم وما تنطوى عليه نفوسهم، من الكمالات والفضائل، هى الّتي توجب تقديم الشخص على غيره «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» ويرجع الى اقوال الصحابة وآرائهم، او الى القياس والاستحسان، مع ان الصحابى، لا يحيط بحكم الله تعالى، ولا يصادف القياس والاستحسان الاحكام الواقعية.

وكيف لا يلتفت المسلم، ان قول الصحابة، او صحابى واحد، يكون مشرعاً لحكم الله ويكون حكم الله تابعاً لرأيه وكثيراً ما يختلف الصحابة في الرأى وكيف يؤمن المسلم بان رسول الله ﷺ مع قصور سنته عن الوفاء بالاحكام والتفريعات يرجع الناس الى صحابى يشرع احكاماً من قبل نفسه ويجب على الامة اتباعه، مع ان الحكم لم يكن من قبل الله تعالى.

وان الشيعة الامامية من عقائدهم، ان النصب من الله، ولا يعارضه نصب احد من الناس ولما كانت الامة محتاجة الى كثير من الفروع والمسائل، فاخذها من شخص نصبه الله على يد رسوله، احكم واتم من رأى الصحابة، او الاخذ بالقياس والاستحسان.

وانك اذا راجعت كتب اخواننا ابناء السنة والجماعة تجد رأى الصحابة، او رأى صحابى واحد يوازنوه بوزن السنة الحقيقية الواردة عن النبي ﷺ او يأخذون بالقياس والاستحسان في احكامهم كما هو رأى الائمة الثلاثة، ما عدى احمد بن حنبل او يأخذون بالقياس والاستحسان، من غير ان يرجع الى السنة، وكيف صح للنبى ﷺ وهو الرسول الاعظم، ان يعمل بالاراء ويترك حكم الله الواقعى في تلك المسائل، او يتبع شخص يخبر

عن الله وقد نصبه الله تعالى ونبيه ﷺ.

اعرض ايها المسلم الموضوعين على نفسك، مما قالته الامامية وادلتهم الّتي ذكروها وراجع ما ذكره اخواننا ابناء السنة الجماعة واختر أيّ الطريقين شئت بهد مراجعة المذهبين وادلتهم وانظر الى اناس يذهبون الى اعتناق بين النبوة، وانهم منصوبون من الله ورسوله وانهم من قبل الرسول ﷺ يبلغون شريعته والى من يقول بالخلافة والاخذ برأى الصحابة والاقيسة والاستحسان، كما هو رأى ابى حنيفة والشافعى، والاستحسان عند المالكى، فراجع نفسك ووجدانك، ثم احكم بما شئت.

الآية الخامسة

قال الله تعالى:﴿وانذر عشيرتك الاقربين﴾[١].

دعى رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية الكريمة اهل بيته الى دارعمه ابى طالب وهم يؤمئذ اربعون رجلا وفيهم اعمام الرسول، ابوطالب، وحمزة والعباس وابولهب.

والحديث في ذلك من صحاح السنن المأثورة وفي آخره، قال رسول الله ﷺ يا بنى عبدالمطلب، انى والله ما اعلم شاباً في العرب، جاء قومه بافضل مما جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والاخرة وقد امرنى الله، ان ادعوكم اليه، فايكم يو آزرنى على امرى هذا، على ان يكون اخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاحجم القوم الا علي‌بن ابي طالب عليه السلام اذ قام فقال انا يارسول الله اكون وزيرك على هذاالامر فأخذ رسول الله ﷺ برقبته وقال ان هذا اخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له واطيعوا، فقام القوم يضحكون لابى طالب، قد امرك ان تسمع لابنك وتطيع.

اخرجه بهذه الالفاظ، كثير من حفظة الاثار النبوية، كابن اسحاق وابن جرير وابن ابى حاتم وابن مردويه وابى نعيم والبيهقى في سننه واخرجه الطبرى[٢] بطرق مختلفة واخرجه ابو الفداء[٣] وارسله ابن الاثير ارسال المسلمات[٤] ونقله جعفر الاسكافى المعتزلى، في كتابه نقض العثمانية مصرحاً بصحته[٥] من شرح نهج البلاغة لابن ابى‌الحديد، طبع مصر.

واروده الحلبى في باب استخلافه ﷺ واصحابه، في دارالاقم، راجع الصفحة

---

١. الشعراء ٢١٤.
٢. تاريخ الأمم والملوك للطبري ج٢ ص٢١٧.
٣. تاريخ ابو الفداء ج١ ص١١٦.
٤. الكامل لابن الاثير ص٢٢.
٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج٣ ص٢٦٣ - طبع مصر.

الرابعة من الجزء الأوّل من السيرة الحلبية لابن هشام وحسبك ما اخرجه احمد ابن حنبل في الجزء الأوّل من مسنده واخرجه[١] من مسنده ايضا حديثا جليلا، عن ابن عباس، يتضّمن هذا النقص، في عشر خصائص مما امتاز به علي بن ابى طالب عليه السلام على من سواه وذلك الحديث الجليل اخرجه النسائى ايضاً عن ابن عباس في (ص٦) من خصائصه العلوية والحاكم في مستدركه (ص١٣٢) من الجزء الثالث واخرجه الذهبى، في تلخيصه معترفاً بصحته ودونك الجزء السادس من كتاب كنز العمال فان فيه التفصيل، راجع منه الحديث رقم ٦٠٠٨ في (ص٢٩٣) واليك منتخب الكنز وهو مطبوع في هامش مسند الامام احمد، فراجع منه ما هو في الهامش (ص٤١) الى (ص٤٣) من الجزء الخامس تجده مفصلا.

وقد اطنب ابن عساكر فى ذكر الرواة الذين نقلوا متواتراً أن علياً عليه السلام اول من اسلم وآمن بالله ورسوله وقد ورد عن أبي بكر ان علياً اول من آمن بالله ورسوله ذكر ابن عساكر في الجزء الأوّل من كتابه حياة الامام على عليه السلام (ص٨٩) عن ابى راقع قال كنت قاعداً بعد ما بايع الناس ابابكر فسمعت ابا بكر يقول للعباس انشدك الله هل تعلم ان رسول الله صلى الله عليه وآله جمع بنى عبدالمطلب واولادهم، وانت فيهم وجمعكم دون قريش فقال يا بنى عبدالمطلب انه لم يبعث الله نبياً الاجعل له من اهله اخاً ووزيراً ووصياً وخليفة في اهله فمن منكم يبا يعنى على ان يكون اخى ووزيرى ووصيى وخليفتى في اهلى، فلم يقم منكم احد فقال يا بنى عبدالمطلب كونوا في الاسلام رؤساً ولا تكونوا أذناباً. والله ليقومن قائمكم او لتكونن في غيركم ثم لتندمن، فقام على من بينهم فبايعه على ما شرط له ودعاه اليه اتعلم هذا له من رسول الله صلى الله عليه وآله قال نعم.

وان الروايات الناقلة، لقصة هذه الآية دالة على ان علياً عليه السلام قد اسلم قبل كل احد من المسلمين وانه وصى الرسول وخليفته من بعده.

الآية السادسة

قال الله تعالى: ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد[٢].

---

١. مسند احمد بن حنبل ج١ ص١١١ - ١٥٩ - ٢٣١.
٢. البقرة آية ٢٠٧.

ان الآية الشريفة قد تعرضت لحالات الانسان ومراتب الطاعة وان البشر في مقام الطاعة على انحاء.

النحو الأوّل: ان يطيع الا وامر وينتهى عن الزواجر وان كان على خلاف رغبته ولكن يحمل نفسه على ذلك امتثالا للامر وطاعة الله.

النحو الثانى: ان يقيم الفرائض الشرعية من صلاة وصوم وحج وزكاة وجهاد وامر بمعروف ونهى عن منكر وترك المحرمات على وجه الرغبة والقناء في ذات الحق تعالى وهذا شأن الصديقين والابرار من عباد الله الاتقياء.

النحو الثالث: ان يبيع نفسه لارادة الخالق ومحبته وطلب مرضاته، قبل ان يدعى الى الوقوف للطاعة وقبل ان يؤمر بالعمل وهذا النحو، هو الّذي تشير اليه الآية الكريمة وهو اعلى درجات الطاعة والرغبة في مرضات الله تعالى والتفويض اليه الآية الكريمة وهو اعلى درجات الطاعة والرغبة في مرضات الله تعالى والتفويض اليه.

والآية مما اتفق عليها المؤرخون والمفسرون انها نزلت في اميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عند ما تحالف العرب وقريش على قتل النبي صلى الله عليه وآله فأمره الله بالخروج الى المدينة والهجرة اليها فدعى الرسول صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام الى المبيت على فراشه ليقيه بنفسه وقد اجاب علي عليه السلام حينما دعاه الرسول صلى الله عليه وآله او تسلم يا رسول الله اذا عرضت نفسى تضحية لك فقال نعم.

وعندها اشتقاق علي عليه السلام الى هذا الموقف الرفيع، وهو فداء رسول الله صلى الله عليه وآله في الموقف الخطر والتضحية في نفسه لحياة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله فقد باع نفسه ازاء حفظ الرسالة وكرامة النبوة ودعوة الحق.

ذكر الرازى في تفسيره الجزء الثانى (ص ٢٣٨ س ٢٩) ان هذه الآية نزلت في علي بن ابيطالب عليه السلام لمابات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة خروجه الى الغار.

ويروى انه لما نام على فراشه قام جبرئيل عليه السلام عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل ينادى بخ بخ من مثلك ياآبن ابي طالب يباهي الله بك الملائكة.

والرواية قد نقلها بعض ابناء العامة في غير الامام علي بن ابيطالب عليه السلام من صهيب اوشخص آخر امر بمعروف ونهى عن منكر ولكن المعروف عند علماء الشيعة الإثني عشرية واكابر علماء التسنن كالرازى وغيره قد نقلوها في حق علي عليه السلام ومقتضى طبيعة

الآية وظهورها وتفانى الشخص في ذات الله تعالى هو ان يكون مورد نزولها هو علي بن أبي طالب عليه السلام وان كانت تنطبق على كل من يشترى نفسه ابتغاء مرضات الله.

وكم حرّف الآيات اعداء اهل البيت وجعلوا ما هو من فضائل اهل البيت عليهم السلام فضائل لغيرهم.

وقد ذكر ابن عساكر في كتابه «الامام علي بن ابيطالب» الجزء الأوّل «ص ١٣٧» ان هذه الآية نزلت في مبيت علي بن ابي طالب عليه السلام على فراش الرسول صلى الله عليه وآله حين خروجه الى الغار ولم ينقل ورود الآية في غيره وقد نقلها كثير من علماء العامة في حق علي عليه السلام دون غيره.

انظر ايها المسلم الى هذه الآية من ان علياً عليه السلام اشترى نفسه ابتغاء مرضات الله والتفاني في حب الله ورسوله وانه قدم نفسه اضحية للرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وفداء له وبين سائر الآيات الّتي وردت في مدح الصحابة.

وقد دلت على المبايعة منهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله واين مدح المبايعة من مدح التفانى في ذات الله تعالى والتفويض اليه وانه اشترى نفسه في حب ذات الله وبين الآيات الاخر الّتي دلت على الوعد من الله بعدم الخوف لبعض الصحابة وان الله مع كل احد ومحيطا بكل احد.

فالاية هنا قامت بمقام الفناء والتفويض لله وهذا المقام مقام رفيع، كما صرح به علماء الاخلاق في كتبهم وان التفويض الى الله والفناء في ذاته اعظم درجات العبودية ومنازل الطاعة وهذا المقام فوق مقام اصل المبايعة والصحبة.

وليس المقصود من كلماتنا هذه هو التوهين لمقام الاولياء والصالحين من عباده وممن صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وقضى معه حياته.

وانما نلفت نظر القارى ان ماورد في القرآن الكريم في مدح امير المؤمنين عليه السلام والعترة الطاهرة من اهل بيته هو فوق مدح الصحابة والتابعين. وان من اعطى التأمل حقه يجد ذلك واضحاً في سير الآيات الكريمة والسنة النبوية وحقيق بمن غذاه الرسول صلى الله عليه وآله ورباه منذ الطفولة ان يكون اعلى درجات الايمان وافضل منازل الاولياء. وان سنة الله في خلقه ان يكون الاولياء المنصوبون من الله تعالى هم الذين يقومون مقام النبوات وان امتداد النبوات والرسل في التبليغ بامتداد الوصاية والولاية من الله، فان امتداد شريعة ابراهيم

باسماعيل واسحق، وموسى بهرون وشمعون، وعيسى بيوشع والحواريين. هذه سنة الله جارية في خلقه ومشيئته في عباده ان الاوصياء بعد الانبياء، هم المتممون للشريعة.

وما قصدنا الاظهار مكانة اهل البيت عليهم السلام للامة الاسلامية وغيرهم وكم اخفى اعدائهم من حسنات واخفى الموالون من الحسنات خطراً على انفسهم وما بين خلفاء المبغضين والمحبين ظهرت فضائلهم كالشمس في رابعة النهار.

وكم فضيلة وآية هى في اهل البيت عليهم السلام فنسبوها الى غيرهم وكم للتاريخ من محاولات فاشلة في تبديل فضايل اهل البيت بغيرهم والتباعد عن كرامتهم حتى ان المسلم يعيش زمناً طويلا لا يعرف اهل البيت ولا مقامهم فيعرف التابعى وبعض الصحابة الذين ليس لهم الاثر العظيم ولا يعرف شيئاً من مقامات اهل البيت، وكأن الله لم يلزم بمودّتهم ومحبتهم.

بيان

انك اذا راجعت الآيات الّتي تحكى حالة الانبياء والرسل من تاريخهم واحكامهم وعبرهم وامثالهم ومن المجاهدة في الله تعالى وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وعن مقام بعثتهم وجعلهم من قبل الله في الارض مبشرين ومنذرين.

ترى الآيات الكريمة يتخلف مفادها فتارة تعبر الآية عن تاريخه مع الناس واخرى تحكى ارشاده وتبليغه، وثالثة تحكى جهاده ودفاعه عن الدين، ورابعة تحكى صلاحه واعماله، وخامسة ان الآية لا تحكى مقام عبره وامثاله ولا بيان احكامه وتبشيره ولا في بيان المدح له وانما تنشىء مقام بعثته ونصبه على الناس وانه خليفة الله في أرضه والحجة القائمة على عباده بقوله تعالى «انى جاعل في الارض خليفة»[1] حكاية عن خلافة آدم عليه السلام وقوله تعالى للرسول الاعظم (وما ارسلناك الارحمة للعالمين)[2] والتعبير في القرآن الكريم عن الخلافة الالهيه وانهم منصوبون من قبل الله وانهم الحجج على الخلق وهذا لا يكون على نحو الحكاية والاخبار بل انما وقع في القرآن الكريم عن آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ونبينا صلى الله عليه وآله تدل على نصب الانبياء، وجعلهم رسلا في عالم التشريع وهذا المعنى هو الّذي تقوم فيه الخلافة في الارض والامامة على الناس وان كل جملة حاكية عن حالة

١. البقرة ٣٠.
٢. الأنبياء ١٠٧ / ٢١.

الانبياء من المدح والثناء عليهم او المجاهدة في الحق او بيان الاحكام وتبليغها الى الناس هو دون مقام نصبه رسولا ونبيا فان قول الله لابراهيم (قال انى جاعلك للناس اماما)[١].

فان جعله من قبل الله اماماً، هو المقام الرفيع وهو اعلى من جهوده وتبليغه، فان التبليغ والجهود والمقاومة مع الكفار من نتائج الخلافة الالهية.

وعلى هذا البيان يتضح لك ان الخلافة والامامة تأتى بالقرآن، بقالب الانشاء وانه مجعول من قبل الله رسولا على الناس ووليا عليهم، فما كان بهذا اللسان من الانشاء دون الحكاية هو مقام المنصب والولاية وهو ارفع من مقام حالات الانبياء من الصلاح والتقوى وتبليغ الاحكام والجهاد في سبيل الله واعظم من مقام الصحبة والايمان وبيان التقوى والجهاد لبعض الصحابة وقد جاءت الآيات، في الامام علي بن ابيطالب عليه السلام بهذا اللسان في مقام الانشاء الدالة على ولايته انه الولى على الامة، بعد الرسول صلى الله عليه وآله وانه المبرء عن الرجس وانه يمثل دور النبوة، وانه الخليفة على الامة.

ولذا لما جاءت آية البرائة وكان المقام مقام التشريع، لا مقام الجهاد والدفاع رجع ابوبكر عن الموقف وبعث النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام لان المورد، كان من موارد الولاية والتشريع او القيام بشؤون الرسالة وهذا المقام لا يمثله صحابى لا من المهاجرين ولا من الانصار.

قد يستغرب المسلم ان علياً واولاده عليهم السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله كيف اختصت بهم الولاية والتبليغ في الفروع وقد انقطع الوحى، بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وما التفتوا ان النفوس تختلف في مراتب وجودها وعلو مقامها، فقد يعرف الاحكام الكثيرة، باقل فرصة من الزمن، كما ورد عن الامام علي عليه السلام ان رسول الله علمنى الف باب من العلم وينفتح لى من كل باب الف باب وان كثيراً من النفوس الشامخة ملهمة.

الا فانظر الى يوسف عليه السلام في الهامه واجوبته لمن سأله عن منامه وهذا الخضر عليه السلام فقد حدث القرآن عن الهامه ولم يكن نبيا مرسلا وحديث الاسكندر وشمعون، وسائر الصالحين من عباده من النفوس الّتي كانت كاملة للالهام من غير توسيط جبرئيل ولا احد من الملائكة وحينما تعرض نفسية الخضر والاسكندر ويوسف وشمعون وغيرهم لا يستغرب المسلم الهام نفوسهم للاحكام ومعرفتهم لحقائق الامور، من غير وحى ملك واذا ذكر لاهل البيت امام بعض المسلمين، تباعد واشمئز ورأيته يتحامل ولا يتقبل أيّ فضيلة

---

١ الآية ١٢٤

لاهل البيت عليهم السلام وان من المتعين على كل مسلم ان ينظر الى حقائق الامور ويعرى نفسه عن التعصب وعن عنوان التشيع والتسنن ويلحظ الامر بواقعه، فان الله سبحانه وتعالى لابد ان يستجيب لداعى الحق واسئلة الهداية لنا ولعموم المسلمين.

الآية السابعة

قال الله سبحانه وتعالى (قل لا اسئلكم عليه اجراً الا المودة في القربى)[1].

ان الله الزم المسلمين، في جميع الاجيال والعصور المودة لذوي القربى وجعل مودة اهل البيت عليهم السلام شرطا في الاسلام وجعلها اداء لفوائد الدعوة والرسالة وان من فقد مودة اهل البيت خالف سنة الرسول صلى الله عليه وآله وان الله حرّم بغضهم، والتجاسر عليهم والزم حفظ كرامتهم، ولم يجعل لصحابى ولا لتابعى مودتهم شرطا في الاسلام.

وان من الغريب، انا اذا شاهدنا من اخواننا المسلمين، من اهل السنة والجماعة الكثير منهم لا يعرفون اهل البيت عليهم السلام ولا يعرفون شخصية من شخصياتهم ولا اسمائهم نراهم يعرفون الصحابة والتابعين البعيدين.

وان المتعين على المسلمين معرفة اهل البيت عليهم السلام، الذين اخرجوا الناس من الظلمات الى النور وهم العروة الوثقى الّتي لانفصام لها وهم حبل الله المدود، بين الله وخلقه وان الله قد افترض طاعتهم على جميع الناس والزم مودتهم واخرج من عاداهم عن الاسلام.

وان الرويات، قد تكثرت وتواترت من الطرفين من الخاصة والعامة في عددهم وانهم اثنا عشر اماماً وانهم النقباء بعد الرسول صلى الله عليه وآله وان الواجب على المسلمين طاعتهم والانقياد اليهم.

اخى المسلم ان من راجع كتب اخواننا ابناء السنة والجماعة من كتاب ينا بيع المودة وابن عساكر والمستدرك والحاكم وكتب ابن حجر والرازى وغيرها من الصحاح والموثقات، علم علماً يقينا، افضلية هذا البيت واعلميته ومكانته، من الرسول صلى الله عليه وآله وشخصيته العظيمة في الامة ووجوب طاعتهم واتباع اقوالهم وافعالهم وتقديمهم على كل افراد الامة.

---

١. سورة الشورى اية ٢٣.

فان المسلم يجد ذلك واضحاً، كالشمس في رابعة النهار من كتب اخواننا ابناء السنة والجماعة فضلا عما كتبه الشيعة، من الاماميين، من الاخبار المتواترة في افضليتهم وعصمتهم وانهم الابواب الّتي يؤتى منها الى الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ الا ان مثل اهل بيتى فيكم، مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق،

وقال رسول الله ﷺ انما مثل اهل بيتى فيكم، مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وانما مثل اهل بيتى فيكم مثل باب حطة، في بنى اسرائيل من دخله غفرله، اخرجه الطبرانى في الاوسط، عن ابى سعيد وهذا الحديث ال ١٨ من كتب النبهانى الاربعين حديثا ص٢١٦.

وقد دلت الرواية الاولى والثانية، ان المتمسك باهل البيت، هو المحفوظ من اخطار الاخرة وانهم باب حطة من دخله كان آمناً ومن لم يدخله كان من الهالكين.

وماورد في يوم الاحزاب، عند مبارزة علي عليه السلام لعمر وبن عبدود العامرى، قال الرسول الاعظم ﷺ: برز الاسلام كله الى الشرك كله وفي رواية برز الحق كله الى الباطل كله.

كلمة ما اثمنها واغلاها، عند ما حجم المسلمون عن المبارزة وتقاعدوا عن مقاتلة عمر وبن عبدود العامرى، عندما نادىٰ الرسول ﷺ ولم يكن له مجيب الا علي بن ابي طالب عليه السلام وقد عبر عنه بالاسلام كله واذا كان هو عنوان الاسلام والحامل الشريعة والواقف مواقف الجهاد والدفاع وان هذا التعبير لم يأت بهذه الكيفية لاحد من الصحابة فلا يقدم عليه احد في مكانته من رسول الله ﷺ.

وماورد كثير من الاخبار، في ان محبتهم شرط في الاسلام الّتي تجاوزت، فوق حد الاحصاء، من طرق الخاصة والعامة كان هو الاولى بولاية المؤمنين والمسلمين.

وقد جعل الله تعالى اجر النبي الكريم ﷺ كما قال في الآية الكريمة، قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى في جهاده ونضاله ووقوفه تلك المواقف المشرفة وجعل اجرها وثمنها على الامة، وهى محبة اهل البيت ومودتهم وولايتهم ووجوب طاعتهم وامتثال او امرهم ومن راجع اخبار فضائل علي عليه السلام وجدها اوضح من الشمس في رابعة النهار، في تقديمه وخلافته وامامته ومحبته ومحبة اهل بيته.

ومن غريب ما يشاهده الانسان، بعد ما كان شرط الاسلام، محبة اهل البيت عليهم السلام الجمع الغفير من المسلمين لا يعرفون حتى اسماء اهل البيت ولا ينزلونهم اى منزلة في الاسلام ولا يعرفون من حالاتهم وفضائلهم شيئاً من الاشياء.

وترى الا ذاعات تعلن وتهتف بفضائل بعض الصحابة، حتى بفضيلة معاوية وابى هريرة وعبدالرحمن ابن‌عوف ولا تذكر شيئاً من فضائل علي بن ابي طالب واولاده الطاهرين عليهم السلام ولا يفهم بعض اخواننا المسلمين اى شيء عن مذهب الشيعة الامامية بل المرتكز في ذهنه انهم قد رفضوا الدين وينسبون اليهم نسبا مستهجنة، حتى في هذا العصر الحديث الّذي وصل به الانسان، الى القمر والمريخ وفتحت فيه أبواب العلم وقد توجه الناس، في هذا العصر الى المعارف.

وان المتعين على كل مسلم، الفحص عن حقائق الامور ومراجعة الواقع، والنظر في ادلة الطرفين.

اخى المسلم، الدور دور ثقافة ومعارف، الدور دور اطلاع على الحقائق، الزمان زمان المعارف والبراهين، لا دور تقاليد أشخاص بل جرد نفسك عن كل شيء فانك تجد افضلية اهل البيت عليهم السلام في كتب ابناء السنة والجماعة، غنية عن البيان، على ما اخفى الاعداء منها الكثير للبغضاء والعداوة، واخفى المحبون خوفاً من الخطر.

فقد ظهر ما كان يضيء الطريق لكل مسلم ويكشف كل مسائل هداية السبيل فان الله لا يخفى الحق عن طالبيه ونسأله التوفيق والهداية، لكل ما يحب ويرضى.

حديث آية التبليغ

اخرجه الترمذي والنسائي، عن جابر، ونقله عنهما المتقي الهندي في اول باب الاعتصام، بالكتاب والسنة[1].

قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله يا ايها الناس، انى تركت فيكم، ما ان اخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتى اهل بيتى وقال صلى الله عليه وآله انى تركت فيكم، ما ان تمسكتم به، لن تضلوا بعدى كتاب الله، حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتى اهل بيتى ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوانى فيها، اخرجه الترمذى، عن زيد ابن ارقم.

---

١. كنز العمال للمتقّي الهندي ج ١ ص ٤٤.

وقال ﷺ انى تارك فيكم خليفتين، كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والارض اوما بين السماء الى الارض وعترتى اهل بيتى، وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.

اخرجه احمد ابن حنبل، من حديث زيد بن ثابت بطريقين صحيحين، احدهما في اول صفحة ١٨٢ والثانى في آخر صفحه ١٨٩ من الجزء الخامس من مسنده.

واخرجه الطبرانى في الكبير عن زيد بن ثابت ايضاً، وهو الحديث رقم ٨٧٣ من احاديث الكنز ص ٤٤ من جزئه الأوّل.

وقال رسول الله ﷺ انى يوشك ان ادعى فاجيب، وانى تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزوجل وعترتى اهل بيتى، وان اللطيف الخبير، اخبرنى انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما، اخرجه ابن حنبل من حديث ابى سعيد الخدرى من طريقين احدهما في آخر ص ١٧ والثانى في آخر ص ٢٦ من الجزء الثالث من مسنده واخرجه بن ابى شيبة وابويعلى وابن سعد عن ابى سعيد وهو الحديث رقم ٩٤٥ من احاديث الكنز في ص ٤٧ من جزئه الأوّل.

وقال ﷺ انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله واهل بيتى وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض اخرجه الحاكم في ص ٤٨ من الجزء الثالث من المستدرك.

ولما رجع ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم امر بدرجات فعلا هن وقال كأنى دعيت فاجبت، انى قد تركت فيكم الثقلين، احدهما اكبر من الاخر كتاب الله تعالى، وعترتى اهل بيتى، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.

ثم قال ان الله عزوجل مولاى، وانا مولى كل مؤمن ومؤمنة، قم اخذ بيد علي بن ابيطالب ﷺ فقال من كنت مولاه، فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، الحديث بطوله اخرجه الحاكم، عن زيد بن ارقم مرفوعاً في ص ١٠٩ من الجزء الثالث من المستدرك، واخرجه من طريق آخر عن زيد بن ارقم في ص ٥٣٣ من الجزء الثالث، من المستدرك ثم قال هذا حديث صحيح الاسناد، واورده الذهبى في تلخيصه، معترفا بصحته.

وانت ايها المسلم، اذا راجعت خبر الثقلين المتواتر سنداً، وهو الصحيح عند العامة والخاصة، رأيت ان الخليفة بعد الرسول ﷺ في الامة الاسلامية، هو كتاب الله والعترة الطاهرة.

وحيث ان الكتاب الكريم، لا يسع كل احد، ان يفهمه، ولا يمكن لاحد ان يستفيد جميع الاحكام منه، جعل النبي ﷺ التلازم بين الكتاب والعترة.

وان المفسرين للكتاب، والمترجمين له، هم العترة الطاهرة، وجعل التلازم بينهما، مادامت الدنيا دنيا، الى ان يلتحق الكل، بيوم القيامة، وان لن يفترق احدهما عن الاخر الى يوم القيمة، ولم يتعرض حديث الثقلين، الى التلازم بين أيّ صحابي وكتاب الله.

ومن الواضح، ان الآيات الكريمة، في كثير منها تحتاج الى تفسير، وتحتاج الى رفع المتشابه منها.

ويفهم من روايات الثقلين، ان تفسير الكتاب وبيان تأويله مخصوص باهل البيت عليهم السلام وانهما لن يفترق احدهما عن الاخر وكيف يفترق التفسير عن المفسر، والمتشابه عن البيان مما جعله الله، حاكياً ومفسراً لكتابه الكريم.

وحديث الثقلين واف في الدلالة على نصب اهل البيت عليهم السلام انهم حجج وأئمة على المسلمين، إلى يوم القيامة، وان الثقل الاكبر وهو الكتاب المجيد، ملازم للثقل الاصغر، وهم العترة الطاهرة.

ولولم يكن هناك حديث، كحديث الغدير، ولا آية كآية المباهلة والولاية والتطهير، لكفى حديث الثقلين دليلا على انهم الائمة والقائمون مقام الرسول ﷺ بعد زمان الرسول ﷺ.

وكما ان رسول الله ﷺ لاينفك عن الكتاب وهو المترجم لكتاب الله تعالى والحاكى عن مقاصده، كذلك اهل البيت عليهم السلام هم المرآت لدلالة الكتاب وهم النور المستضاء بهم لآياته ومشكلاته.

اخى المسلم، باى تعبير يعبر الله ورسوله في خلافة اهل البيت بعد الرسول اما قال الكتاب الكريم ان نفس علي عليه السلام نفس الرسول ﷺ! اما صرح الكتاب بنزاهتهم عن الذنوب!، وتطهير نفوسهم، اما صرح الكتاب بالولاية لله ولرسوله ولعلي عليه السلام! اما صرحت السنة، بان علياً عليه السلام مولى كل مسلم ومسلمة!، اما صرح حديث الثقلين بان الخليفة بعد الرسول ﷺ هو الكتاب واهل البيت، وانهما الحاكمان على الامة بعد الرسول ﷺ ولن يفترقا حتى يردا الحوض.

اخي المسلم باى تعبير يعبر الرسول والقرآن، واى حكم من الاحكام، جاء باكثر من

هذا التصريح والبيان، اطالبك بوجدانك وضميرك والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الروايات الدالة على امامة علي عليه السلام وخلافته حديث الغدير

نقل ابن عساكر، حديث الغدير بنقل متواتر، عن الرسول صلى الله عليه وآله والعبارة الّتي نقلوها، في الغالب الست اولى بكم من انفسكم، قالوا اللهم بلى، قال من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من وآلاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله.

وقد نقله كما ذكره ابن عساكر جماعة كثيرة منهم زيد بن ارقم وسعيد بن جبير وحذيفة بن اسيد الغفارى الصحابى والبراء بن عازب وسعد بن ابي وقاص وطلحة بن عبيدالله التيمى وعبدالله بن مسعود وجابر بن عبدالانصارى وابو سعيد الخدرى وعمر بن خطاب وسمرة بن جندب وابوهريرة وانس بن مالك وابن مسعود، وجرير بن عبدالله وابى بسطام مولى اسامة بن زيد وابن الاعرابى وثعلب بهذا المضمون.

ايها الناس انى تارك فيكم امرين، لن تضلوا ان اتّبعتموهما، كتاب الله واهل بيتي عترتي، ثم قال اتعلمون أنّي اولى بالمؤمنين من انفسهم، قاله ثلاثة فقال الناس اللهم نعم، فقال الرسول الله صلى الله عليه وآله من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله.

وذكر ابن عساكر في الجزء الثالث من كتابه ترجمة الامام علي بن ابى طالب عليه السلام ص ٧٩ ما لفظه عن سهيل عن ابيه، عن ابى هريرة، عن عمر بن الخطاب، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله من كنت مولاه فعلي مولاه.

ذكر ابن عساكر، كذلك، في الجزء الثانى من كتابه ترجمة الامام علي بن ابىطالب عليه السلام ص ٨٣ ما لفظه عن عطية عن عبدالله بن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

وقد تقدم ايضاً خبر الغدير المتواتر وماوصف به من الشواهد الكثيرة، من أن الله تبارك وتعالى، قد اعلم نبيه بدنوأجله وانه لابد من ان يجدد على امته عهد وصيه وخليفته وانزل عليه (يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) وقد امتثل رسول الله صلى الله عليه وآله ما امره الله فنصب عليا خليفة له ووصياً وحديث الغدير متواتراًمن طرق الخاصة والعامة ومما يدل على تواتره ما اخرجه

ابواسحاق، في تفسير سورة المعارج من تفسيره الكبير بسندين معتبربن.

ان رسول الله ﷺ لما كان يوم غدير خم، نادى الناس فاجتمعوا، فأخذ بيد علي عليه السلام فقال من كنت مولاه فعلى مولاه فشاع ذلك واشتهر في البلاد وبلغ ذلك الحارث ابن النعمان الفهرى، فاتى رسول الله ﷺ على ناقة له فاناخها ونزل عنها وقال يا محمد امرتنا ان نشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله فقبلنا منك وامرتنا ان نصلى خمساً فقبلنا منك وامرتنا بالزكاة فقبلنا وامرتنا ان نصوم رمضان فقبلنا وامرتنا بالحج فقبلنا، ثم لم ترضى بهذا حتى رفعت بضبعى ابن عمك تفضله علينا فقلت من كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا منك ام من الله عزوجل، فقال ﷺ فو الله الّذي لا اله الا هو ان هذا من الله.

فولى الحارث ابن النعمان الفهرى يريد راحلته وهو يقول اللهم ان كان ما يقول محمد حقاً، فامطر علينا حجارة من السماء او أتنا بعذاب اليم، فما وصل الى راحلته حتى رماه الله سبحانه بحجر سقط على هامته، فخرج من دبره فقتله وانزل الله تعالى سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذالمعارج انتهى الحديث بعين لفظه.

وقد نقله عن الثعلبى جماعة من اعلام السنة، كالعلامة الشبلنجى المصرى فياحوال علي عليه السلام من كتابه نورالابصار وقد ارسله ارسال المسلمات، جماعة من اعلام اهل السنة الجماعة راجع ما نقله الحلبى من اخبار حجة الوداع، في سيرته المعروفة بالسيرة الحلبية، تجد هذا الحديث في آخر صفحة ٢١٤ من الجزء الثالث.

وقضية الغدير مشهورة في التاريخ ومتواترة بان النبي ﷺ في غدير خم، عندما اراد الحاج ان يتفرق الى بلادهم فأمر بعدم التفرق ونداء من سارعن الغدير بالرجوع والاستماع الى ما يقوله النبي ﷺ وقدرقى احداج الجمال، في ذلك الموقف الرهيب الّذي يلفت نظر كل احد الى اهمية الموقف لان الرسول ﷺ قد منع التفرق وامر بالرجوع الى الموقف وكان في يوم هجير في ذلك المجتمع، الّذي يزيد على خمسة وسبعين الف نسمة او مئة وعشرين الف نسمة.

وقبل ذلك يناديه الله سبحانه وتعالى يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس.

وان الآية خطاب للرسول ﷺ بعنوان الرسالة والامر بالتبليغ بما ارسل به في نصب علي بن ابي طالب عليه السلام والفات نظر النبي ﷺ انك ان لم تبلغ فما بلغت رسالته على وجه

الشمول والعموم وان التبليغ في تلك المدة من زمان مكة، الى زمان المدينة ان لم ينضم اليه هذا التبليغ لكانت الرسالة لا اثرلها.

ثم يلفت الله نظر نبيه ورسوله ﷺ بانك مامور بالتبليغ وان وجدت النفوس غير قابلة لنصب علي عليه السلام للامامة ولكن الحق ما يراه الله تعالى، لا ما يراه الناس وان الخلافة الالهية لمن له الاهلية، دون من ليس له الاهلية واقعاً، فان الله يعصمك من مخالفتهم في مقام التبليغ وان خالفوا ذلك بعد موت الرسول ﷺ لما اشرنا اليه سابقاً ان الامامة اتمام النبوة والرسالة.

وان الانبياء مهما بلغوا بالزمن يتحاجون الى من يكمل رسالتهم وينشر دعوتهم ويتم قواعدهم وينفذ احكامهم.

فقام الرسول الى ان بلغ في خطبته الست اولى بكم من انفسكم قالوا اللهم بلى فأخذ بيد علي بن ابي طالب عليه السلام ورفعه بين ذلك المجتمع الرهيب وقال من كنت مولاه فهذا على مولاه.

ولا يراد من المولى او الولى كما صرحت به بعض الاخبار، انه وليكم من بعدى الا الولاية والمولوية وهما بمعنى السيادة والهيمنة.

فالولى هو المهيمن والمولى هو السيد وتلك الولاية او السيادة اللتان كانتا بهذا المعنى ثابتتين للرسول ﷺ قد اثبتهما الله للامام على ابن بيطالب عليه السلام على لسان رسوله ﷺ.

ومن الواضح ان لفظ المولى او لفظ الولى اذا استعمل بمعنى الناصر او بمعنى المحب فليس ذلك الامكابرة وجدل لان القرائن الحالية واللفظية من ارجاع النبي ﷺ للقوافل الّتي سارت والزامهم بالانصات لما يقول والزام الناس بالاجتماع وقوله بذلك المجتمع لبيلغ الشاهد منكم الغائب.

وقد عرف الناس انهااخرحجة الرسول الله ﷺ وانها حجة الوداع للبيت الحرام ورفع علي عليه السلام في هذا الموقف وكان الوقت حاراً هجيراً وعند مفترق الطرق.

فان هذا الوضع من الاجتماع مما يوكدان لفظ المولى او الولى مما لا يستعمل في هذه المقامات الا بما استعمل في الآية الكريمة ان الله اولى بالمؤمنين من انفسهم.

ولا يجوز لمنصف ان يحمل المولى عقيب قوله اولى بكم من انفسكم وعقيب قوله

سبحانه وتعالى: يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك، والا فما بلغت رسالته وان الله يعصمه من انتقاد المنتقدين وتحريف المنحرفين وتلك القرائن الّتي بيناها في الموقف مما لا يجوز لذى العقل السليم ان يستعمل لفظ المولى او الولى في المحب او الناصر اولا جل ان علياً عليه السلام كان لا يرغب فيه العرب اما لحداثة سنه او لقيامه بالسيف وقتل كثير من آباء المهاجرين والانصار واخوانهم،فذاك غير قابل للتصديق.

الامامة والخلافة عند الامامية

الخلافة عند الامامية والرياسة على البشر من توابع الامامة، نظير رياسة النبى صلى الله عليه وآله وحاكميته على الامة فانها من توابع نبوته.

فالخلافة عند الامامية لا موضوعية لها وانما الموضوعية للامامة وان المناصب الدنيوية من توابع النبوة والامامة في الرسل والانبياء.

وقد تواتر نقل هذا الحديث، فقد نقله ثلاثون صحابياً عند ما استشهد الامام على ابن ابى طالب عليه السلام بخلافته من الرسول صلى الله عليه وآله وامامته في الرحبة فقام ثلاثون صحابيّاً ونقلوا حديث الغدير بتمامه لمن كان حاضراً في خطابة الامام عليه السلام فيهم اثنا عشر بدرياً وقد نقل هذا الحديث عنهم كل من كان في الرحبة من تلك الجموع فبثوه بعد تفرّقهم في البلاد.

ونقله زيد ابن ارقم كما اخرجه الطبرانى وغيره بسند مجمع على صحته وقد اعترف بصحته ابن حجر وقد اورده نقلا عن الطبراني عن زيد ابن ارقم.

قال خطب رسول الله صلى الله عليه وآله بغدير خم تحت شجرات فقال: «ايها الناس يوشك ان ادعى فاجيب وانى وانكم مسئولون فماذا انتم قائلون قالوا: نشهد انك قد بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيراً».

قال: «تشهدون ان لا اله الا الله وان محمد عبده ورسوله وان جنته حق وان ناره حق وان الموت حق وان البعث حق بعد الموت وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور قالوا: بلى نشهد قال: اللهم اشهد».

ثم قال: «ايها الناس ان الله مولاى أنا مولى المؤمنين وانا اولى بهم من انفسهم فمن كنت مولاه فهذا مولاه يعنى علياً عليه السلام اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله بعد كلام: «وإنّي سائلكم حين تردون عَليّ عن الثقلين كيف

تخلفوني فيهما، الثقل الاكبر كتاب الله عزوجل طرفه بيد الله تعالى وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوه، وعترتي اهل بيتي فانه قد أنبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عَليّ الحوض».

واخرج النسائي عن عائشة بنت سعد، قالت سمعت أبي يقول، رأيت رسول الله ﷺ يوم الجحفة وقد اخذ بيد علي بن ابي طالب عليه السلام وخطب فحمدالله واثنى عليه ثم قال: «ايها الناس انى وليّكم قالوا صدقت ثم رفع يد عليّ عليه السلام فقال هذا وليّ ويؤدّي عنّي ديني وأنا موال من والاه ومعاد من عاداه».

وعن سعد ايضاً، قال كنّا مع رسول الله ﷺ فلما بلغ غدير خم وقف للناس ثم ردّ من تبعه ولحق من تخلف فلما اجتمع الناس اليه قال ﷺ ايها الناس، من وليكم، قالوا الله ورسوله فاخذ بيد علي بن ابيطالب عليه السلام فأقامه ثم قال: «من كان الله ورسوله وليه، فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه كما قال الفضل ابن العباس ابن ابى لهب شعراً.

وكان ولّي العهد بعد محمد عليّ وفي كل المواطن صاحبه

وقد تواتر نقل حديث غدير خم بأكثر من مئة وعشرين صحابياً وكثر نقله من التابعين.

اما من طرف اخواننا ابناء السنة والجماعة فلا ريب في تواتره فقد نقله صاحب الفتاوى الحامدية مع مخالفته الشديدة لأهل البيت عليهم السلام يصرح بتواتر الحديث في رسالته المختصرة الموسومة بالصلوات الفاخرة في الاحاديث المتواترة والسيوطى وامثاله من الحفاظ ينصون على ذلك ومحمد ابن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ المشهورين واحمد ابن محمد ابن سعيد ابن عقدة ومحمد ابن احمدابن سعيد ابن عقدة ومحمد ابن احمد ابن عثمان الذهبي فانهم تصدّوا لطرقه فأفرد كل منهم له كتاباً على وحده وقد اخرجه ابن جرير في كتابه من خمسة وسبعين طريقاً واخرجه ابن عقدة في كتابه من مئة وخمسة طرق والذهبي مع تباعده عن اهل البيت عليهم السلام صحح كثيراً من طرقه وفي الباب السادس عشر من غاية المرام تسعة وثمانون حديثاً من طريق اهل السنة والجماعة، في نص الغدير.

ونقل السيوطى الحديث، في احوال علي عليه السلام من كتابه تاريخ الخلفاء، عن الترمذى، ثم قال: (واخرجه احمد ابن حنبل، عن على ابى ايوب الانصارى وزيد ابن ارقم وعمر وذى مرقال وابويعلى، عن ابى هريرة والطبرانى، عن ابن عمر، ومالك ابن الحويرث

وحبشى ابن جنادة وجرير وسعد ابن ابى وقاص وابى سعد الخدري وانس ابن مالك، قال: والبزار عن ابن عباس وعمارة وبريدة).

ومما يدل على شيوع هذا الحديث وشهرته، ما اخرجه احمد ابن حنبل، عن رياح ابن الحارث، من طريقين إليه.

قال: جاء رهط الى علي بن أبي طالب عليه السلام فقالوا السلام عليكم يا مولانا، قال من القوم، قالوا مواليك يا اميرالمؤمنين قال كيف اكون مولاكم وانتم قوم عرب قالوا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم، يقول من كنت مولاه، فان هذا مولاه، قال رياح، فلما مضواتبعتهم، فسألت من هولاء، قالوا نفر من الانصار فمنهم ابو ايوب الانصاري.

وذكر ابن عساكر، في كتابه ترجمة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام عن عبدالله ابن بريدة الاسلمي عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كنت وليه فعليّ وليه».

وقد اكد المفسرون، من الخاصة والعامة، ان هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) نزلت على الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله بعد ماتم اخذ البيعة لعليّ عليه السلام في يوم غدير خم.

وقد روى عن ابى هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدرى، ان رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت عليه هذه الآية، قال، الله اكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتي وولاية علي بن أبي طالب عليه السلام من بعدي وقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

النصوص من طرق الشيعة

إنّ النصوص من طرق الشيعة في الغدير، بالغة فوق حد التواتر فراجع مصادرها.

واذا اردت مراجعة ذلك، فراجع كتاب اكمال الدين واتمام النعمة للصدوق (اعلى الله مقامه) فانك ترى الكثير من الروايات المصرحة، بان علياً عليه السلام هو الخليفة من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وان من بعده أولاده الإحدى عشر آخرهم القائم (عجل‌الله تعالى فرجه) وانهم المنصوبون من الله سبحانه وتعالى للإمامة والخلافة.

وترى في بعض الروايات من حديث اخرجه الصدوق في الاكمال ذكر فيه اجتماع اكثر من مئتي رجل من المهاجرين والانصار، في المسجد على عهد عثمان يتذاكرون العلم

والفقه انهم تفاخروا بينهم وعلي عليه السلام ساكت، فقالوا الله يا اباالحسن ما يمنعك ان تتكلم فذكرهم عليه السلام بقول رسول الله صلى الله عليه وآله علّي أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في أمتّي وولّي كل مؤمن ومؤمنة بعدي فأقروا له بذلك.

واخرج الصدوق في الاكمال ايضاً، عن كل من عبدالله ابن جعفر والحسن والحسين عليهم السلام وعبدالله ابن عباس وعمر ابن ابي سلمة وأسامة ابن زيد سلمان ابي ذر والمقداد، قالوا جميعاً سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول انا اولى بالمؤمنين من انفسهم، ثم أخي علي بن أبي طالب عليه السلام اولى المؤمنين من أنفسهم.

وفي الإكمال للصدوق، عن علّي عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الائمة بعدي اثناعشر اولهم انت يا علي وآخرهم القائم، الّذي يفتح الله عزوجل، على يديه مشارق الارض ومغاربها.

وفي الأمالي للصدوق، بالإسناد الى أبي ذر قال: «كنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجده فقال: يدخل عليكم من هذاالباب رجل، هو اميرالمؤمنين وامام المسلمين فاذا بعلّي ابن ابيطالب عليه السلام قد طلع فاستقبله رسول الله صلى الله عليه وآله ثم اقبل علينا بوجهه الكريم، فقال هذا امامكم بعدي.

ومن راجع كتاب إكمال الدين والأمالي والنصوص لصدق الامة والامالى لشيخ الطائفة والكافي لثقة الاسلام الكليني وكتب التفسير والفضائل والمعاجز لأهل البيت عليهم السلام يراها فوق التواتر، لان علياً عليه السلام هو الوصّي والخليفة من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وهو يعسوب الدين وقائد الغر المحجلين وان الله اختار محمداً صلى الله عليه وآله للنبوة وعلياً عليه السلام للامامة والخلافة وانه من الرسول صلى الله عليه وآله بمنزلة شيث من آدم، وبمنزلة هارون من موسى، كما صرحت به الروايات المتواترة، من طريق السنة والامامية وان الائمة من بعده هم الاوصياء وآخرهم القائم (عجل) ولما كان ايراد هذه الروايات، كثيرة جداً تستدعي كتباً كثيرة مطولة في هذا المضمون أشرنا اليها اشارة فراجعها.

بيان

إنّ أفعال الرسول صلى الله عليه وآله واقواله، ما هى إلاّ وحي يوحى ولا ينطق عن الهوى، وان القرائن المقامية وكيفية الغدير، كما اوضحنا لا تناسب ان علياً عليه السلام ناصراً للامة، وانه يحبهم

ويحبونه او لقضية شخصية بين الامام علي عليه السلام وبين الأفراد، كما اختاره بعض علماء العامة، لان القضية الشخصية، من التجاسر على علي عليه السلام من احد الناس، لا يناسب هذا التعبير وهذا الاهتمام لا يتناسب مع الموقف ولا مع الآية الكريمة من قوله (وان لم تفعل فما بلغت رسالته) بل من الواضح، انه مقام نصب وجعل ولاية على امة تاكيداً لقوله تعالى (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا. الآية).

وان موقف الغدير وعبارات الرسول صلى الله عليه وآله في حق علي عليه السلام أكثر دلالة من قوله صلى الله عليه وآله انت منّي بمنزلة هارون من موسى وقوله حينما برز إلىٰ عمر وابن عبدود العامري، برز الايمان او «الاسلام» كلّه الى الشرك كلّه.

ومن المؤسف جداً، ان الانسان اذا تحكمت فيه تقاليد الاباء واشبع ضميره من الطفولة الى الكبر وعاش في بيئآت اعتادت، على تخريج النصوص، يقف المسلم موقف التحير لان المسلمين اجتمعوا، على خلافة أحد الصحابة وهذا يسمعه من الطفولة وتتأكد هذه العقيده، عند ما ينضم الى المجتمعات وهو في هذه الحال لا يتصور خطاء من الصحابة، فلا يلتفت الى ظهور النصوص والدلالة، على امامة علي عليه السلام وخلافته.

ولما يبنى الانسان على اساس ودعامة، ان الصحابة لا يخطئون، يصب عليه ان يوفق بين هذا وما تفيده الآيات والنصوص، من إمامة علي خلافته عليه السلام فيبقى في المحاولات والتخريجات والتوجيهات التي لا يتقبلّها العقل السليم ويطلب لنفسه القرار من الميدان.

ولكن الذي ينبغي للمسلم ان يقف موقف الحياد وتتجرّد عن كل تقليد وينظر الى البحث بعمق وتأمّل والى مكانة الاشخاص والى أقوال النبي صلى الله عليه وآله فيهم والآيات القرآنية الحاكية عن فضائلهم ولا يأخذ التاريخ، بنظرة بسيطة،فان المؤرخين في تاريخهم، كما يشاهده المتأمل، اخذتهم الدعايات والتوجيهات وكم ابدى اعداء علي عليه السلام من التوهين بعلّي عليه السلام وشراء معاوية لضمائر الرّواة، كسمرة بن جندب والمغيرة بن شعبه والمدائني وغيرهم بالمال، ليوجهوا الناس الى غير بيت النبوة.

وانت اذا تصفحت كلمات الخليفة عمر، في يوم غدير خم، من قوله امسيت يابن ابيطالب، مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة اخرجه الدار قطني، كما فياواخر الفصل الخامس من الباب الأوّل، من صواعق ابن حجر فراجع منه ص ٢٦.

اخرج احمد ابن حنبل، نحو هذ القول عن عمر بن الخطاب، من حديث البراء ابن

عازب في ص ٢٨١ من الجزء الرابع من مسنده، فصرّحا بأنّه مولى كل مؤمن ومؤمنة، على سبيل الاستغراق لجميع المؤمنين والمؤمنات.

وقيل لعمر بن الخطاب انك تصنع لعلّي شيئاً لا تصنعه بأحد من اصحاب النبي ﷺ فقال انه مولاي، اخرجه الدار قطني، كما في ص ٣٦ من الصواعق المحرقة.

رواية المنزلة وغيرها

قدورد متواتراً، من طرق الخاصة والعامة، ان منزلة علي عليه السلام من الرسول ﷺ كمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعده.

وقال رسول الله ﷺ انا مدينة العلم وعلّي بابها وورد صحيحا عن رسول الله ﷺ قال: «بان علياً منه وهو منه وانهما خلقا من طينة واحدة وشجرة واحدة وسائر الناس من أشجار شتى».

وقال رسول الله ﷺ: «يا علي محبك محبّي ومبغضك مبغضّي، كذب من زعم انه يحبّني ويبغضك وان الله عهد إليّ في علّي، انه راية الهدى وامام اوليائي».

وقال رسول الله ﷺ: «يا علي من اطاعك فقد اطاعني ومن اطاعني فقد اطاع الله».

وورد عنه ﷺ: «انا وهذا يعنى علياً، حجة الله على خلقه».

وقال ﷺ: «انا مدينة الجنة وعلي بابها، كذب من زعم انه يدخل الجنة، من غير بابها».

وقال ﷺ: «انا دارالحكمة وعلّي بابها، فمن أراد الحكمة فليأتها من بابها».

وقد ورد صحيحا عن الرسول الاعظم ﷺ: «إنّي خلقت مع علي من نور واحد» واذا نظرت الى هذه الروايات وجدتها في منتهى المدح والثناء على أهل بيت العصمة وهو علي وأولاده الطاهرين عليهم السلام.

المعاد

قال الله تعالى في كتابه الكريم (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم، قل يحييها الّذي انشاها اول مرة وهو بكل شيء عليم)[1] (ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه، بلى قادرين على ان نسوى بنانه)[2].

ان جميع الاديان على اختلافها، من حنيفية ابراهيم عليه السلام ورسالة موسى وعيسى عليهما السلام ورسالة النبي الاعظم صلى الله عليه وآله كتاب الله المجيد، قد صرحت في المعاد وان اختلفوا في انه روحاني وليس بجسماني، كما ينسب ذلك للنصارى وبعض الفلاسفة، او الروح والعقل في قالب مثالي، او أن المعاد جسماني، والغرض من كونه جسمانيا هو ان هذا الشكل والبدن فيه مالا يبقى وفيه ما يدوم لا ينفى وهو المعبر عنه في الروايات عن ائمة الهدى عليهم السلام وفي كلمات الاعلام بالاجزاء الاصلية، الّتي لا تفنى وتبقى ببقاء الله تعالى.

وليس من الاديان من ينكر المعاد وان كان الاختلاف في الاديان في حقيقة المعاد، مما لا نتقبّله، لان الدين عند الكل واحد، كما قال تعالى (ان الدين عند الله الاسلام) فالاسلام دين جميع المذاهب والشرائع وانما جاء النبي صلى الله عليه وآله باتمامه واكماله فلا يمكن ان يكون المعاد في الشرائع السابقة روحانياً ويتعيّن ان يكون جسمانيا بالمعنى الّذي ذكرناه، بحيث لورأيته لقلت، انه زيد في دارالدنيا، كما لورأيته في سن الكهولة، تقول، هو ذلك الشاب وان كبر جسمه واخذه الطول والعرض ولم ينكر المعاد الا من انكر التوحيد، كالطبيعيين والدهريين.

ولقد قال افلاطون، فيما نسب اليه، انه لولم يكن هناك يوم آخر يبقى البشر ببقاء الله وينال الثواب على طاعة الله والعقاب على معصيته، لكانت خلقة القردة خير من خلقة

---

١. يس آية ٧٨ و ٧٩.
٢. القيامة آية ٣ و ٤.

الانسان لتلذذه بشهواته ولا عقاب عليه.

وانت اذا راجعت القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وآله المعصومين عليهم السلام وجدتها متواترة وصريحة في ان المعاد، هو المعاد الجسمانى، لا مجرد الروح والقالب المثالي وقد أوعد الله سبحانه وتعالى الثواب على طاعته ودخول الجنان والمجازاة على الاعمال ولو لم يكن والعياذ بالله يوم تعاد فيه الاجسام والارواح، لما كان للوعد بالثواب والتوعيد بالعقاب وجه.

وقد عرفت منا، ان يكون الانسان ووجوده وبعث الرسل، حسب ما تقتضيه الفطرة واتمام الرسالة بالامامة مما يقتضى ان يكون هناك يوم يجازى الانسان على اعماله من الحسنات والسيئات، فالانسان وليد العمل ولا يرافقه بعد الموت الاعمله.

فالآيات والروايات متواترة في اعادة الاجسام والأرواح بنفسها، غايته، انه لايعاد بهذا الجسم من الغذارة وانما يعاد هذا الجسم بلطافته، اذ لا خروج في يوم الاخرة للنجاسة، من العذرة والابوال والدماء وغذارة البدن. ولو لم يكن هناك يوم، يثاب الانسان فيه على اعماله الصالحة و يعاقب على اعماله السيئة، لكانت الآيات والاخبار الواردة، في الثواب العقاب والمتعرضة لمراتب الثواب والعقاب خطاباً لغوياً.

وهذا مما لايمكن الذهاب اليه وتعالى الله عن ذلك علواً كبيرا، وتكون آيات الشفاعة والتوبة والعفو من الله ممالا موردلها ولا وجه يقتضيها.

واجمالا البدن المحسوس، امر مركب من جواهر واعراض متعددة، ثم اذا بلغ الانسان اجله من يوم الاخرة وتلاشى هذا التركيب والجسم بالموت، رجع كل جوهر من جواهره الى أصله وعالمه وبطلت الاعراض الدنيوية، واضمحلت الهيئآت البدنية، لعدم جواز الانتقال عليها، من موضوع الدنيا الى موضوع الآخرة.

ثم اذا جاء وقت العود والبعث بامر الله تركب الجسم من أصول تلك الجواهر وصورها، تركيبا لا يقبل الفساد والتغير، فيكون الجسم الأخروي مجرد جواهر بلا اعراض هذه النشآت الدنيوية ولم يكن له صفات زائلة، حاصلة من انفعال المواد.

وان المعاد الجسمانى مماتواترت عليه الآيات والروايات من اهل البيت عليهم السلام ولا يمكن التجوز فيها والحمل بالمعاد الجسمانى على الارواح المجردة، او الجسم المثالي فما ذاك الا انكار لما تواترت عليه الآيات والروايات.

وعلى اضواء الآيات نتعرض انشاءالله الى مادل عليه الكتاب والسنة وما قامت عليه البراهين الفلسفية من المعاد الجسمانى وان كل الشرائع متفقة على ذلك وما بعث الله نبيا إلاّ لتوجيه الخلق على هدف التوحيد والرسالة والاقرار بيوم المعاد وحشر الارواح مع الاجساد الدنيوية دون ما فيها من الكثافات الّتي لابقاء لها في عالم الآخرة.

الاسلام و شؤونه

قال تعالى (ان الدّين عند الله الاسلام) ان من نظر الى الاسلام ودرس حقيقة قواعده وجده دين الفطرة وغرائز البشرية الصحيحة ووجد هذا الدين نظاماً للنشأتين، الدنيا والآخرة، يحفظ البشرية عن الفوضى والظلم والغلبة والاستبداد واستهلاك النفوس واستعمارها.

فهو نظام يحفظ الحياة الدنيوية، بالصدق والامانة واقامة العدل واللطف بالاحسان واذا سار البشر على نظام الاسلام، لم يكن هناك قسوة ولا انتقام ولافتك ولا استحقار للنفوس، بل التكامل في هذه النشأة والآخرة، فان الاسلام قد سد ثغور الظلم والعدوان والاجحاف بالحقوق، الى الاستسلام للعدل والحق وتوجه من العبد الى ربه.

انك اذا نظرت الى قانون التجارات والمعاملات ونظام الزوجية والتوارث والقصاص واحكام الديات، لاتجد نظاماً افضل منه رحمة ولطفاً وعدلا بين الافراد، ان الاسلام الغى العناوين الّتي تكونها العصبية القومية وحب الذات والقبيلة، الى غير ذلك مما ارتكز في نفوس المتغلبين والمستكبرين على البشر.

فالاسلام قد حطم عروش هذه المباني وجعل الاسود كالابيض، والغربى كالشرقى ووجه الكل الى المعارف وان لا فضيلة لاحد على احد، الا بالعلم والعمل الصالح، فالغى ميزة الانساب وشرف السيرة والنفوذ وتعصب القوميات واذهب جذور التكبر والنفاق وجعل الكل على صراطه المستقيم، قال ﷺ لافضل لعربى على عجمى، الا بالتقوى ولو ان الناس عملوا بقانون الاسلام وطبقوه لنزلت عليهم بركات السماء وكان كل الناس اخواناً.

انظر الى حقوق الزوجة مع زوجها والوالد مع ابيه والوالد مع ولده والجار مع جاره وصاحب الوطن مع اخيه، تجدها دروساً مملوءة باللطف وقوانين محكمة بالعطف ولو ان الناس عملوا بقوانين الاسلام واحكامه، لما وجدت بينهم الشحناء والبغضاء ولا القسوة.

وقد جعل الشارع نظام الدية والقصاص سداً لابواب الظلم الجور ولو ان الناس عملوا بقوانين القصاص والديات والحدود ولو كانت هذه اول مراحل الاسلام، لو صلوا الى الأخوّة.

ان للإسلام دروس تربط العبد بربه ودروس تربط الناس بعضهم ببعض وهذه الدروس لو اتقنها المسلم وعمل على طبقها، لنال الراحة في الدنيا والنعيم في الآخرة.

ولكن المؤسف، ان الناس غالباً، لا يعرفون حقيقة الاسلام وتعاليمه، وانما يأخذون بالشعارات والعناوين، فمن شهد الشهادتين واعترف بالتوحيد والعقائد الاسلامية، او عمل بالفروع والأحكام ولم يطبقها على النظام الصحيح لم يكن مؤمناً حقيقة، فالاسلام له عنوان وله حقيقة، فبعنوان يحقن دمه ويحفظ ما له وعرضه وتترتب عليه كثير من الاحكام الشرعية.

اما من كان مسلما حقيقة وطبق النظام الاسلامى على افكاره واعماله، فهو المسلم الحقيقى الّذي كان موحداً في مرحلة الذات لله والصفات والافعال والعبادة فهو موحد ذاتاً وصفة وفعلا وعبادة، كما يأتى تفصيله.

وانت اذا درست قوانين الاسلام واحكامه، بامعان النظر والتدبر، في خصوصياته، لاتجد قانوناً افضل منه، من غربى وشرقى، فان كل قانون في الدنيا يقدم عنصرية على اخرى وقومية على قومية وبيئة على اخرى وما ذاك القانون الا القانون الّذي، تجريه النفوس البشرية، قائم على حبّ الذات وتقديم قومية على اخرى ومصالح بيئة على بيئة ثانية وهو قانون يلحظ فيه المؤسس رغباته وشهواته.

اما الناموس الالهى، فليس فيه الشهوات ولا الرغبات، بل يبتنى على الحقيقة وان نظرت الله الى خلقه هى نظرة التساوى وحفظ التعادل، بين الحقوق ولحاظ الجهات النوعية، الّتي لا تختص بأمة دون اخرى.

وهذا بخلاف قوانين البشر، فانها قوانين استعمار واستثمار، بل قد يبلغ الحال، ان يكون القانون استملاك واستهلاك للنفوس والاعراض والاموال وجعل البشرية كحيوان

مسخر، فيما بينهم، كما هو الحال في آراء بعض الدول، على وجه الأرض من استهلاك نفوس الرعية ونتائج اعمالهم وانهم ليسوا الاكدواب مسخرة بايديهم واسأله تعالى ان يتوجّه العالم في يوم ما الى قانون الله وإظهار ولى الله بالقيام باحكامه تعالى وان الاسلام قد حفظ للبشرية نظام اجتماعها واقتصادها، على اتم الوجوه وافضلها، حتى انه حرم الاحتكار ورغب المسلم ان يبيع بفائدة قليلة لئلا يقع العسر والحرج، في معاملات الناس.

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

قال الله تعالى، ﴿ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر اولئك هم المفلحون﴾[١].

«كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[٢]؛.

«ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل»[٣]؛.

«والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون»[٤]،.

«بلى من اوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين»[٥]،.

ان الحياة البشرية ووجود الانسان، محفوف بالخيرات والبركات ومقرون بالشرور والسيئات، فاذا نظرت اليه من ناحية، رأيته محض الخير واذا نظرت اليه بنظرة ثانية، رأيته منبع الجرائم والآثام.

ولما كانت الحياة البشرية، ذات نظام اجتماعى واقتصادى وخلقى وجائت التكاليف على وفقها لترقيها والاخذ بيد الانسان، الى اوج الكمال ومع هذا كله، فقد تدعوه نفسه الى ارتكاب الجرائم وعدم السير على النظام، الّذي يقتضيه قانون العدل، اذ ليس كل نفس مجبولة على الخير، بل ان بعضها مستعدة للشرور والذنوب، وحب السيطرة والقدرة واستعباد البشر.

---

١. آل عمران ١٠٤.
٢. آل عمران ١٠٩.
٣. النساء ٥٨.
٤. المؤمنون ٨
٥. آل عمران ٧٦.

جعل الله تعالى بابا من ابوابه وقانونا في احكامه قانون الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وما بين امة تركت الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، الاسلط الله شرارهم على خيارهم فيدعون فلا تستجاب لهم دعوة.

وقد كان البحث عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر من القواعد الاسلامية الّتي لابد على الامة من اجرائها وتنفيذها، ليرجع العاصى الى الطاعة والجائر الى العدالة ولان لا تكثر الشرور في العباد، فيختل نظام الحياة وتصبح الشريعة غير معمول بها واذا قام المسلمون بالامر بالمعروف، من دلالتهم على العمل الصالح والنهى عن المنكر من زجرهم عن المعاصى اعتدلت الحياة ونظام البشرية وصار كل تدعو الى الخير والصلاح وتتباعد عن الذنوب والسيئآت.

وما من امة قام بها العدل والامر بالمعروف والنهى عن المنكر الا بلغت ارقى نظام الاجتماع والاقتصاد واعلى منازل الاخلاق وصار العدل نظاماً لهم والاحسان خلقاً لاعمالهم.

وقد حث الكتاب الكريم والرسول العظيم صلى الله عليه وآله على هذه الوجهة فإنك اذا نظرت الى حقيقة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وجدته روحاً للاعمال الصالحة وسداً محكماً، عن الاعمال القبيحة ويتعين على كل احد بمنزلته ومقامه وعلى حسب ما هو اللائق به، فرب رجل يكتفى بامره ونهيه وآخر ان ينظم اليه الزجر الشديد والحث الى العمل الصالح ورب شخص يتعين عليه، ان يقوم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى لو آل به الامر الى القتل.واعظم مثال، لهذا الموقف سيد الشهداء عليه السلام مع بني أمية، فللامر بالمعروف والنهى عن المنكر مراتب، واقله الامر والنهى بالقول واعظمه تقديم النفس لاظهار الحق واذهاب الباطل.

وليس معنى الايمان، هو تجنب الاعمال عند يرى التظاهر بالمنكرات وترك الواجبات، فان الانسان من حيث دينه لابد وان يقوم بشؤون وجهات عديدة، من اقامة الواجبات وترك المحرمات ومن الوقوف عند المنكرات، على حسب استعداده وامكانياته وان بلغ به الحال الى تضحية النفس والحياة وسيأتى منا على ممر الآيات بيان هذا البحث بصورة موسعة.

افعال المكلفين

قال الله تعالى، «قل لعبادى الذين يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقنا هم سراً وعلانيه من قبل ان يأتى يوم لابيع فيه ولاخلال»[1] «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطعماً ومما رزقناهم ينفقون»[2]، «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح واطراف والنهار لعلك ترضى»[3].

ان الانسان لما خلق على طبق المصلحة الالهية في وجوده خلق عاقلا مختاراً في افعاله، ولذا توجهت التكاليف عليه، من العبادات المعاملات والايقاعات والوظائف الشرعية، والحدود والقصاص والديات، لان كلامن هذه الافعال تحت اختياره وان العبد تارة يكون ممتثلا لأوامر الله ونواهيه فيترك المحرمات ويقوم بالواجبات وثانياً قد يترقى، فلا يفعل حتى المكروه ويقوم باداء المستحبات وقد يترقى به الامر حتى يتم له الخلوص لله، فلا يرى الا الله في افعاله واقواله اذ لا عمل الا بالعلم ولاعلم الا باليقين، وعين اليقين فيشاهد المغيبات، كانه يراها، وينطبق عليه، الا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، تتم له مرتبة التوحيد في الذات والصفات وفي الافعال والعبادة يكون عبدالله الحقيقي الّذي يعبد الله لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، اولئك هو الابرار والصديقون.

وقد تتم للعبد مرحلة العبادة من توحيد الذات والصفات وتوحيد الافعال والعبادة وربما وصلت نفس ذلك العبد بحسب استعدادها وتقبلها للفيض الالهى ان يكون نبياً او مشرعاً.

وانك اذا نظرت الى الآيات الكريمة تجد ان العبادة بعضها يتقرر بعنوان الصلاة وثانيا

---

١. سورة ابراهيم آية ٣١.
٢. سورة السجدة آية ١٦.
٣. سورة طه آية ١٣٠.

بعنوان الصوم والحج، وثالثاً باداء الحقوق الشرعية من الزكاة وغيرها وتكون جميع اعماله فانية في ذات الحق مسلما الى الله في جميع اقواله وافعاله ومفوضاً في كل ذلك إليه فالعبادة لها مراتب، وكل من مراتب اذا وصل اليها العبد وصل الى الهدف المقصود منها.

وان الله سبحانه وتعالى وان كان لابد أن يعبد بأعلى مراتب العبادة ولكن رحمة منه وفضلا، ان اكتفى منه باليسير عن العسير، وبالقليل عن الكثير، نظراً الى قصور ذاتهم، وعدم استعداد الكثير منهم لأوج الطاعة، ومنتهى العبادات، واكتفى منهم بالعبادة الذكرية ومجرد اداء الزكاة والحقوق الواجبة، تزكية لأبد انهم في الصوم ولأموالهمَ وابدانهم في الحج.

وقد خلق الانسان الى هدف عظيم ومنزلة رفيعة وما خلق ليعبث ويلعب، ويقتضى هذه الحياة الدنيا في المعاصى، وارتكاب الجرائم، وقد أكّد القرآن الكريم في الآية الكريمة، على منافع هذه الاعمال، ونتائج هذه العبادات، ترغيبا لطاعته وتبعيداً عن معصيته، وكل ما يفعله العبد، ويقوم به من الاعمال، لايعود نفعها او ضررها الاعلى العبد، فالله غنى عن افعال عباده، فمن قام بالعبادات فلنفسه، ومن اساء فعليها، والله هو الغنى عن عباده، كما قال اميرالمؤمنين في كلماتهلهمام ابن هانى السلولى عندما قال له: سيدى صف لي المتقين حتى كأني انظر اليهم، فقال له عليه السلام: «اما بعد فان الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم آمنا من معصيتهم لانه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من اطاعه.

فهو المتفضل عليهم برحمته، وكلما قرب العبد درجة في الطاعة، استعدت نفسه لدرجة اعلى منها وافضل، كل ذلك بلطف الله وفضله، واسأله العفو والرحمة انه مجيب الدعاء».

العبادات

قال الله تعالى:، «قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولاخلال»[1] «واذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا الي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون»[2] «يا ايها الذين آمنوا ذكر والله ذكراً كثيرا»[3].

ان عمل المكلفين يختلف من حيث العبادة والتجارة والكسب ومن حيث الاجتماع، من الازدواج والفرقة بينهما ومن حيث الوظايف الشرعية، من ان للامة قضاة يحكمون بالعدل ومن اقامة الحدود والقصاص والديات وكل ذلك يتعلق به التكليف من حيث عملهم ولذا حرر الفقه ابواب العبادات والمعاملات والوظائف الشرعية من القضاء والشهادات والاحكام.

ان العبادة هى وظائف الخضوع والتذلل للمولى كالصلاة والصوم والحج والزكاة ونحوها وحيث ان مصالح العبادة مما لايصل اليها العقل البشرى ولا يحيط بها الفكر، فلابد من اخذها من الشرائع المقدسة المتلقاة من الوحي والالهام الإلهي.

وان المصالح في العبادات، مما لايعود نفعها الى الله تعالى ولكن الله لطفا بعباده ورحمته عليهم، ان سن لهم شرائع العبادة وقوانينها وطرق الاخلاص الى الله فاذا امتثل العبد ما امر به المولى وانقاد لأمره ونهيه، كان الامر عبادياً ولا يمكن للعقل ان يتوصل الى المعارف العبادية، لان ذلك باب مغلوق، حتى على بعض الانبياء، ممن يقوم بأوامره وتشريعه تعالى لكن لا يعرف النبي المصالح والمفاسد، من قبل الله تعالى فالعبادة ربط

---

١. ابراهيم آية ٣١.
٢. البقرة آية ١٨٦.
٣. الاحزاب آية ٤١.

المخلوق بالخالق والوظيفة الّتي يقوم بها العبد لربه.

وقد تكون افعال العبد كلها عبادية، حتى اكله وشربه وتجاربه وسفره واجتماعه مع الناس، اذا قصد بذلك وجه الله والطاعة إليه وتكون على هذا الوجه جميع افعاله عبادية وان كان العمل توصلياً.

ويأتي منا تفصيل مراتبها واقسامها وانهاالحبل والصلة بين الله وعباده وكلما قام العبد بالانقياد على اتم الوجوه، كان اقرب الى الله تعالى وليس للعقل حكومة هنا، الاالطاعة والانقياد لأوامر الله تعالى، حيث ان احكام العقل، اما ضرورية برهانية كاجتماع الضدين والنقيضين والخلف والدور والتسلسل واستلزام وجود الشيء عدمه، مما يقتضى به البرهان والضرورة واما ان يقع الحكم من العقل على وجه الوجدان، كإدراكه للحسن والقبح وحرمة التعدى والجور وظلم العباد بعضهم لبعض، او القيام بالاحسان والتفضل، فان العقل يدرك بوجدانه حسن العدل والاحسان وقبح الظلم والعدوان وهذا الحكم من فطريات العقل وان منعه الاشاعرة.

ولو منعنا هذا الحكم، لأصبح الانسان يشبه البهائم والحيوانات، حيث لا يدرك الحسن ولا القبح ولا يفهم الجور والظلم والاحسان الى اليتيم والمظلوم.

ومن اضواء ذلك تعرف ان الفقهاء اذا جاؤا الى المباحث العبادات، عبروا عنها، بانها اداة الخضوع ورمز الخشوع وانها معنى العبودية والرقية لله وان العقل مهما بلغ، فلا يمكنه الوصول الى المصالح العبادات ومنافعها الواقعيّة وعندها فيخضع العقل للطاعة وتحصيل الامتثال وان عاد النفع اليه كما بيّناه.

التجارة والمكاسب

قال الله تعالى:، «يا ايها الذين آمنوا لاتأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما»[1] «ويل للمطففين، الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون، واذا كالوهم او وّزنوهم يخسرون»[2] «الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الّذي يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا، فمن جائه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ومن عاد فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون»[3].

ان الانسان عند ما وجد وخرج عن عالم الوحشية، الى عالم التمدن والترقّي على وجه هذا الكوكب توجهت نفسه الى الصناعات والتجارات وقام النوع الانساني على مباشرة الصنائع والفنون فأخذ في الترقّي جيلا بعد جيل وعصراً بعد عصر، وأصبح الإنسان يبذل جهوده في شتّى الصناعات والمخترعات من التجارة والحرف وعلم الطبيعة والطلب والهندسة.

وكلما تقدم الانسان في الصنائع، تقدم الى مراتب أرقى منها واصبحت الصناعات ملكة له راسخة وان نظام التكسب والفنون مما يضطر اليه الاجتماع والبيئآت.

ولذا ترى ان بعض الامم، قد تقدم في ذلك وبعضهم قد تأخّر ومن هنا ترى سكّان الارياف، غير سكان المدن وترى المدن في الحضارة والتجارة والصناعة، يتخلف بعضها عن بعض، واصبح الانسان كما يطلب العلم والفنون من الهندسة والطب والفلسفة والفقة وعلم الطبيعة، يطلب انواع التكسبات، اذ على الكسب التجارة، قوام النظام البشري وترقّي

---

١. النساء آية ٢٩.
٢. المطففين آية ١ و٢و٣.
٣. البقرة آية ٢٧٥.

الأمّة في معاشها واقتصادها، حتى اصبحت الأمم يتغلب بعضهم على بعض، من ناحية التجارات والإقتصاد، فترى أمّة قد توفر اقتصادها وحسنت صنائعها وترى الأخرى ليست بهذه الكيفية.

وكل قطر أو امة تحسن كسبها وترقت فنونها، هي أغنىٰ من الأمّة الأخرى، وتكون الرفاهية فيها أوسع وأجمل وترى فيها التشاحّ والتشاجر وان الأمّة الّتي ضعف اقتصادها وكسبها كثر مورد النزاع والدعاوى والخلاف بينها.

فاستقرار الامم بتوفر الكسب والاقتصاد وانحطاطها بضعف التكسب والاقتصاد وقد جعل الشارع المقدس قانوناً ونظاماً لاحيف فيه من احد على احد ولا ضرر فيه من شخص الى آخر وحافظ الشارع المقدس جهود كل شخص وانه يملك اعماله وجهوده ويملك الناتج من الجهود، من تعمير الاراضي والزراعات وهندسة الأبنية واستخراج الآلات الّتي توجب الرفاهية على البشر وتوسعة الرزق والعيش بلا إحجاف، حتى ورد في بعض الاخبار:، (ان الكاسب حبيب الله)، لانه يأكل بعمله، ويتغذى من جهوده، من غير منةمن احد عليه ولا استعطاء من احد ولكن لابد له من ان يعرف قانون العدل، في التجارة والمكاسب واذا دخل التكسب ولم يعرف احكامها وقوانينها، صار مصداق لقوله عليه السلام: (التاجر فاجر، حتى يتفقه)، فقد يتاجر في الحرام ويتحمل او زارالمكاسب المحرمة، فان الشارع المقدس بين طرق الكسب المحلل والكسب المحرم وحرم الربا لانه يقضي على المجتمع وحّرم الاحتكار لانه يستلزم استهلاك ابناء النوع من البشر.

الاقتصاد

تقديم في الاقتصاد

ان الاسلام دين الانسانية وصراط الحياة ولابد للدين الحقيقي الّذي لا يختصّ بقوم دون قوم نظير رسالة موسى الى اليهود وعيسى اليهم ايضاً رسالة الاسلام هي الخالدة الّتي لا تختص ببيئة دون اخرى ولا يقوم دون آخرين ولا بشرقى او غربى، او بأبيض او باسود، فهودين التكامل في الحياة على الوجه التام من ارتباط العبد بربه، وحياته في هذه النشأة.

وان الاسلام قد نظم سلوك الانسان مع الله ونظم سلوك الانسان مع الآخرين من أبناء جنسه حيث ان نظرة الاسلام الى المجتمع كنظرة الى شخصية واحدة ذات اخلاق ومثل عالية ولما كان الاسلام عارفاً بموقعية المال في هذه النشأة، عبر القرآن الكريم عن المال وانه اهم من الاولاد في آيات كثيرة، فتارة يعبران المال زينة كما فى قوله تعالى: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)[1] واخرى يعبران المال فتنة كالاولاد كما في قوله تعالى (انما اموالكم واولادكم فتنة لكم)[2] الفاتاً لنظر المجتمع، ان يروا ان المال من جهة هو عنصر الحياة الحقيقي، إذ به يقع النسل والذرية وبه ينظم حياته البيتيّة والإجتماعية وبه يتفضل على الضعيف وبه يدفع البلاء عن نفسه.

ولذا عبر عنه بالزينة، فهو العنصر الحقيقي في هذه النشأة ولذا اهتم الكتاب الكريم والسنة النبوية وكلمات أهل البيت على توجيه المكلفين، الى النظام المال وانه يجعل وسيلة لحفظ المجتمع والفرد ولولا المال لأصبح الانسان لا يملك لنفسه نفعا.

وان الفقر كما عرفت عن الرسول ﷺ «كاد الفقر ان يكون كفراً» وأيّ فقير يعاني الحياة وقوته اليومى، يتوجه الى حفظ النظام الاجتماعى او تدبير منزله او راحته، بل كل ذلك مفقود منه ويكون العبد في غاية العناء.

---

١. الكهف آية ٤٥.
٢. التغابن آية ١٥.

ولذا ان الشارع المقدس، اهتم بتوجيه الانسان، الى الخطوط السليمة، الّتي بها يحفظ نفسه ويحفظ اجتماعه وان لا يتطلب الانسان المال، على وجه الافراط حتى يصبح ابناء جنسه، كالعبيد بين يديه ولا ان يتجنب طلب المال والتوجه اليه بزعمه ان هذ ورع وزهد.

انظر الى ما قاله الامام الصادق عليه السلام في حق شاب كان يرد عليه كثيراً، فسأله هل لك كسب فاجاب: لا، فقال له عليه السلام كيف تكثر التردد علينا فاجاب الشاب: رغبة في رؤياك يابن رسول الله فالفت الامام عليه السلام نظره وقال امضي الى سعدك فسأله ما سعدي يابن رسول الله قال هو السوق والكسب فان به عفة الوجه وعدم الحاجة الى الناس وبذل المعروف مع المعاشرين.

فالكتاب الكريم يلفت نظر المسلمين ان المال به حياة الانسانية وهو خير محض وبركة في الارض ولكن على الوجه والنهج الّذي اراده الله سبحانه وتعالى واراده رسوله صلى الله عليه وآله فاذا طلب الانسان المال ولا تجميد المال في غير المنافع البشريّة كان المال خيراً محضاً يسد به حاجة اهل بيته ويعطف به على الرحم والضعفاء ويقيم به الشعائر الدينية فكله خيرات ومبرات ان سلك الانسان في المال الطرق المشروعة والا كان المال وبالا على الانسان، فالمال فتنة واختبار على الخلائق كما قال تعالى: إنّما اموالكم وأولادكم فتنة وليس المقصود من الفتنة ان المال شرّ محض وانما المقصود أنّ المال تجربة واختبار لمن أخذه وحازه.

فان سير المال على السنن المشروعة والقوانين الإلهية تقلب الانسان من خير الى خير وسار من فضل الى افضل ومن منزلة الى اعلى فبالمال تسد حاجة الضعيف والفقير وبالمال يرحم اليتيم وابن سبيل وفي المال يأخذ بعواطف اهل بيته وفي المال تقام شعائر الاسلام وبه تحفظ ثغور المسلمين وبه يقام الجند والعساكر في الثغور الاسلامية وبه النظام الداخلي والخارجي.

فاذا حسبت حساب المال اذا كان في السير المعتدل وفي نظام العدالة الإلهية وجدت صاحب المال قد اكملت نفسه وانبعثت منه الخيرات وتوفرت فيه كل بركة.

اما اذا اخذه من طرق غير مشروعة من الربا والإحتكار واستخدام النفوس بالقهر واستهلاك الضعيف في ماله والتغلب على الفقراء في اموالهم والرباء على الضعفاء وجدت المال جريمة من اعظم الجرائم وسيئة من أشدّ السيئآت إذ به استهلاك المجتمع واستملاك

البشر واستثمار منافعهم، من غير مقابلة ولا مبادلة.

ولذا ان الشارع المقدس قد منع جمع المال من غير طريق العدالة واذا كثر المال في يد شخص من غير جهود وتكسب فما هو الا من طرق الحرام.

وعندما جاء الاسلام لم يجعل من نال مالا من كل طريق ملكه وانما جعل المال للافراد من الأمّة بتحصيل جهود الفرد على سنة خاصة وطرق مخصوصة لا انه يتوجه الى المال بكل دافع وعلى ايّ طريق حصل فقد سد باب الرباء الّذي به تستهلك النفوس والاحتكار وظلم البشر وعن تحصيل الأموال الّتي سلب الشارع ماليتها وجعلها محرمة بحكم المعدومة كمالية الخمر والقمار وما يتبادل به في الملاهي وجعل ملكية عامة لولاة الأمر ومقام الإمامة من أراضي الموات والأنفال وجعل أمرها بيد وليّ الأمر والقابض على أزمّة الامور ولم يجعلها بأيدي الأفراد المقتدرين لاجل ان يقام بها المجتمع ويقوم بها الناس فيحيون الارض بعد موتها وقال ﷺ: «من احيى ارضاً ميتة فهي له».

وكل ما كان وظائف الحكومة الإسلامية وولاة الأمر يختصّ به الوليّ والحاكم وانما جعل بيده للحاجات العامة والوظايف الّتي لا تختص بفرد دون فرد لتكون حياة المسلم في رأفة وراحة وغناء.

الاقتصاد الاسلامي

الاقتصاد والبحث عنه فيه مراحل.

ان الانسان عند ما خلق على وجه هذا الكوكب وخرج عن عالم الحياة الاولى وتشكل الانسان بالمنزل والقبيلة والبيئة والقطر احتاج الى النظام الاقتصادى الّذي يحفظ به حياته، فتطور علم الاقتصاد الى ان بلغ في هذه الحياة المهمة الكبرى واصبح علم الاجتماع والنفسيات وعلم الاخلاق والمنزل تابعة لعلم الاقتصاد واصبح علم الاقتصاد على وجه هذا الكوكب هي المهمة الّتي يقصدها الانسان في حياته ولا يرى لغير الاقتصاد تلك الأهميّة كالاقتصاد حتى اصبح كثير من البشر انكروا عقائدهم ومبادئهم الدينية الى التوجه الى الإقتصاد ويرون الشرف والقدرة والغلبة هي الحرفة بكيفية الاقتصاد.

ويختلف هذا الفن بحسب اختلاف اغراض الممالك والاقطار والبيئآت فللرأسماليين والاقطاعيين سلوك في الاقتصاد ويرى الاشتراكيون في الاقتصاد سلوكاً آخر

ويرى الشيوعي العالمي والشيوعي في الممالك الخاصة نظرة أخرى في الإقتصاد.

وعندها يختلف اختلافا كثيراً بحسب البيئآت والأغراض والقدرة في مملكة دون أخرى وحصول الانتاج في قطر دون آخر.

وعلى هذا فالاقتصاد ليس له حدّ خاص، لا يختلف عنه بل يختلف باختلاف البيئآت والاقطار والممالك والقدرة في العمل والبطالة وعدم تيسر وسائل الانتاج ويصير علم الاقتصاد على هذا البيان، مما تختلف فيه العصور والممالك، في القدرة على الإنتاج وعدمها وقد عرفه الغربيون بتعاريف.

فعرفه «ليونيل روبنز ـ Robbins»[1] (ان الاقتصاد علم يدرس فيه تصرفات الانسان الّتي تعتبر صلة بين غاياته ووسائل اشباعه رغباته) وقد عرفه (الفرد مارشال) مؤسس «كمبريج» التقليدية لا العلم بدراسة تصرفات الانسان في معيشته العادية بل يتناول بالبحث النشاط الفردي والاجتماعي المتصل اتصالا دقيقاً، بانتاج واستهلاك الضروريات المادّية الملازمة للرفاهة في الإجتماع والفرد.

وعند ما يراجع الانسان الباحث تعاريف علم الاقتصاد يرى كلا يعرف هذا العلم، بما تقتضيه بيئته واجتماعه وبما يحاوله من القدرة ووسائل الانتاج، في بلده وقد يحاول في علم الاقتصاد والسيطرة والسلطة على غيره من الممالك والحكومات.

واصبح في هذا العصر الاقتصاد هو اهداف الحكومات وان يهيمن كل شعب ومملكة على غيره في الاقتصاد.

نظرة حول الاقتصاد الاسلامى

ان الاقتصاد الاسلامي لا يسعنا بيانه على وجه التفصيل وقد أوكلنا ذلك الى ما كتبناه في مباحثه وان الهدف هنا على وجه الاختصار هو الاشارة الى ما اسسه الاسلام في الاقتصاد واشار اليه الامام على ابن ابيطالب عليه السلام في عهده الكريم.

ان الاقتصاد الاسلامى حقيقة ثابته، لا يختلف بالعصور والاجيال ولا يختلف بالحكومات والبيئآت، إذ الاقتصاد في الاسلام نظام الهي، يتكفل جميع اطوار الحياة ولا يتخص بمملكة دون أخرى، بل هو قانون للبشرية جمعاء فان الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله في

١. طبيعة الاقتصاد واهميته ليونيل روبنز ص١٦.

رسالته من السماء، قد تكفل لنظم الحياة، الى آخر العصور وليست الشريعة الاسلامية مختصة بقوم دون قوم ولابأمة دون أخرى، لأنّ التعاليم الّتي جاء بها الرسول ﷺ تعاليم عامة لكل البشرية ونظام شامل، لكل النفسيات على ممّر العصور.

وان الاقتصاد الاسلامى، ليس فيه تقديم أمّة على اخرى ولا قومية، والنظام الإلهي لا يفضل قطراً على قطر، او مملكة على مملكة، لان نظرة الله على عباده نظرة واحدة، نظرة اللطف والكرامة والرحمة والاحسان.

الاقتصاد الاسلامى، هو جزء من مبادى الاسلام وقانون من قوانينه وان قانون الاسلام متكفل لأنظمة الحياة فقد يبحث الباحث عن الاقتصاد ويعريه عن مبادى الدين.

فانك اذا نظرت الى الاقتصاد الغربيين واقتصاد الاشتراكيين والشيوعيين تراه قد تعرى في انظمته عن تطورات الدين، فتراه علماً وتجسماً بصورة لا يتشكل بأيّ شكل من مبادى الدين ولا يرتبط باى بحث خلقي فتجده عارياً عن جهات المبادى الدينية والخلقية.

اما الاقتصاد الاسلامى جزء من نظام الحياة ونظام الحياة على وجه هذا الكوكب، ناشىء عن تعاليم سماوية، لم يلحظ فيها بيئة دون اخرى ولا جيلا دون جيل، بل يبتنى على العقيدة الراسخة، الّتي لا تحوّل فيها ولا تغيير وعلى تربية نفسية وعدالة اجتماعية وخلق كريم.

فالاقتصاد يحكي من جانب العقيدة ومن جانب تربية النفس وما فيها من الغرائز والتطورات ويحكي من الجانب الآخر المثل العليا والخلق الكريم.

وان الاقتصاد الاسلامى مرتبط بموضوعية الدين ودروس النفس وكمالاتها الاخلاقية والمسايرة مع الاخلاق الفاضلة.

ولذا ان الاقتصاد من توابع علم الاخلاق، في العالم الاسلامى ولا يتحكم الاقتصاد في نفوس التجارة والمبادلات والشركات ومن غير عقيدة وعمل يحكى المثل العليا.

فان الاقتصاد اذا لم يبتني على عقيدة راسخة ونفسية عالية، لا يقع في اهمية من النفوس ولا يتمركز في جبلات البشر ولا يحل المثل الأعلى في غرائز المجتمع فالاقتصاد من مباديه عقيدة راسخة ونفسية متكاملة واجتماع صحيح على مبادى الاخلاق وكرامة الانسان وما لم يتقوم الاقتصاد، بهذه المبادى، فلا يكون إلاّ وسيلة لاستثمار اعمال افراد او لحماية حزب يقومون بثورة، او استهلاك للنفوس لأفراد القوة والنفوذ.

قواعد الاقتصاد في الاسلام

الاقتصاد الاسلامي يتبع عدة اطارات:

اولا ـ التوحيد وتوابعه من الاعتقاد بالنبوات وارتكاز العقيدة، في عنصر الانسان، بحيث تأخذ اساساً محكماً للبناء في عمل المسلمين والعقيدة بهذه الكيفية لها اثرها الخاص في تربية المسلم وعمق العقيدة المؤثرة في حالاته ونفسيته.

ولا يتقوم الاقتصاد، بما انه استنتاج المزارع وعمل العامل وحرف الصنايع نفسية كريمة، قد تبنت على الفضايل وتجنبت الرذائل، فإنّ الاسلام، قد سيّر الارواح والنفوس الى سلوك أعلى وسلوك في منتهى البشرية، حتى تقل منه الرذائل او تنعدم وتكون الفضائل قد امتزجت بروحه وعقله وإلاّ فالاقتصاد لا يعتبره الاسلام بما هو صنعة انتاج ومعاملة حرف فقط وانما يراه فضيلة من اجمل الفضائل لنفس المسلم، بعد ارتباط الاقتصاد بفنون شتى.

ثالثاً ـ ان الاقتصاد يرتبط باجتماع المسلمين ويكيف حالات الاجتماع على الوجه الاحسن.

فالاجتماع عند الاسلام، هو النظام على وفق الاسس الدينية والمثل العليا، للمعارف الالهية.

إنّ الاجتماع الاسلامى، يكيف روحية المسلم بالعلم والعمل ويصيّره وافياً بكثير من الفضائل، من الوفاء والصدق والامانة والمساواة والاثرة والتبادل بين الافراد بالاخلاق الفاضلة والتبادل بعضهم مع بعض بالمروة والاحسان، حتى يصبح المسلم مجمعاً للعواطف الموجبة للمحبة ومجمعاً للعلم والعمل الصالح.

فالاسلام، في اقتصاده لا يربط اقتصاده بعالم الطبيعية وهل ان عالم الطبيعة يفي بحاجات البشر، اولا يفي بحاجات البشرية وعندها فيقع الاجتماع في اطار ضيق ودائرة غير واسعة وتحدث له مشاكل يصعب الخروج منها وليس الاقتصاد الاسلامي متحولا على وسائل الانتاج منها ومقدار تعديل التوزيع عليها.

فالإسلام في فكرته ودروسه أرقى التصورات الّتي يحاول بعضهم سيطرة الرأسماليين على المجتمع او الماركسيين، على اموال المجتمع ونفوسهم واظهار اللطم على صدور هم والبكاء باغاثة المستضعفين وكل هذه المحاولات تنجر الى قدرة افراد واستهلاك المجتمع لمصالح الحزب والافراد، اذ أنّ النفوس قد جبلت على المصالح الشخصية

والمنافع الخاصة بالافراد أو الاحزاب.

ولما كان الاسلام أرقى فكرة، وأعلى تصوراً، اراد ان يجعل المجتمع في حدود ثلاثة، حد يخص الفرد والافراد، وحد يخص الاجتماع وحد يخص الدولة الاسلامية، ولا يتعدى افراد كل صنف من الثلاثة على الآخرين فليس للفرد حق التعدى على المجتمع وليس للاجتماع الإفراط، بحدود الافراد، وليس للدولة الاسلامية الضغط على الاجتماع، ولا إستهلاك الأفراد، وان كلا يتمتع بحرية كاملة في حدودها، فالحاكم يتمتع بالهيمنة على النوع والافراد بوجه صحيح والاجتماع يتمتع مع الدولة، بمصالح نوعية، لا تضر بالافراد، ولا تضيق دائرة الدولة، ولا تسلب هيمنتها المشروعة لها.

وانت اذا فكرت في واقع الامر تجد ان حالات البشر في كل عصر ينحل الى عناوين ثلاثة، في كل مملكة ودولة، حالة فردية كتاجر ومالك وعامل وزارع وحالة اجتماعية كعنوان هذه المملكة ومجتمعها غير مجتمع المملكة الأخرى.

وان الاجتماع لا يحفظ والافراد لا تتكامل في جهتها الاقتصادية الا اذا حفظ الفرد بحريته ولم يضايق الاجتماع في انطلاقه وارادته وانه لا يصح من حكومة او اجتماع ان يسلب حقوق الفرد ويذهب جهوده وان تلك الجهود الّتي انتجت منافع الطبيعة وان الفرد الّذي قاوم الحر والبرد والاسفار والاخطار في البر والبحر ان تأتى له الدولة وتذهب جهوده ولا يستفيد من جهوده ثمرة من الثمرات ويرى ان نتائج اعماله وزحمات حياته قد آلت لقوم آخرين وانتفع بها من لا يقاوم الحر والبرد وكيف يرضى العاقل الشاعر ان تكون جهوده تضحية لقوم آخرين وهذا مما يوجب الكسل في المعاملات والتجارات والزراعة والفلاحة.

ومن الواضح ان كل انسان وفرد قد جبل على حب الذات وابراز شخصيته واظهار مجد كرامته وكرامة المجتمع.

وأحد موجبات الكرامة والشخصية ان يتقدم الى ميدان الحياة ويعمل بجهوده لنفع نفسه وابرازها الى المثل الاعلى وان كبتت نفسه وكرامته فقد اصبح عاملا وآلة متحركة بيد غيره لا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً.

فالإسلام بقانونه المطابق لعلم النفس والفطرة لا يمكن ان يطلق الفرد على ما تقتضيه شهواته وميوله حتى لو أضر بالاجتماع او بالآخرين ولا يريد ان يسلبه كرامته وشخصيته

ويجعله حيوانا مسخراً وآلة بيد غيره من غير اختيار، كل ذلك مناقضى الاسلام لمنعه وتحريمه، هذه حالة الاسلام مع الفرد.

واما حالته مع الاجتماع فقد اثبت له حقوقاً وإطاراً واسعاً وحفظ جميع جهازاته المادية والمعنوية.

والاسلام قد جعل الاجتماع بمنزلة عالية ومرتفع رفيع فاذا نظر الإنسان الى ما جعله الاسلام من الحقوق للاجتماع وجده قد رفع منزلته واحكم كيانه ومكّنه من الفرد بحدود خاصة.

وبكلمة موجزة ان الاسلام قد بنى على ملكية الافراد والاشخاص بحدود خاصة وبملكية للمجتمع من الفقراء ورجال العلم وابن السبيل وكل مستضعف فله ملكية نوعية يعبر عنها الشارع بالزكوة وخمس السادات وسهم الامام ورد المظالم ومجهول المالك، فان هذه هي المصارف الاجتماعية لحفظ الضعيف والأخذ بيد المستضعف وان يعيش بعيشة سامية كسائر الامة في معيشتهم من الاقتصاد الّذي لا إفراط فيه ولا تفريط وملكية راجعة للهيئة الحاكمة الّتي تداربها شئون المملكة وحفظ المجتمع والجهاد في سبيل الله وحفظ الثغور الاسلامية وجميع شئون الدولة من احياء ارض الموات والمال من الاراضى الخراجية وسيف البحور الى غير ذلك من الانفال الّتي ترجع الى الحكومة الاسلامية.

وليس معنى الحاكم في الاسلام الامين على تحقق اهداف الاسلام ومصالحه فقد جعل الاسلام الملكيات الثلاثة من غير تزاحم أحدها الى الاخرى ليحصل الهدف من الحكومة الاسلامية والنوع والافراد.

نظرة حول الفوارق بين الاقتصاد الاسلامى وغيره

ان الاقتصاد الاسلامى، كما اوضحناه جزء من كل، في الشريعة الاسلامية وكما افهمت الشريعة الناس العقائد من التوحيد والنبوة والامامة والمعاد، افهم الاسلام الانسان ان الاقتصاد، لابد ان يتبناه المسلم ذي العقيدة الصحيحة.

وكم للعقيدة الصحيحة الاثر العظيم في تربية النفوس والاقتصاد وفي تحكيم اسسه القومية ويبتنى الاقتصاد على عدالة المجتمع وحفظ مباديهم الاسلامية.

قال الامام الصادق عليه السلام حين ما سأله السائل عن الدين فقال عليه السلام: الدين هو المحبة

بينك وبين الله وبينك وبين الناس فان احببت الله، اقمت حدوده واطلعت أوامره وانتهيت عما نهى عنه وان احببت الناس، قمت بحقوقهم وقاموا بحقوقك، فلا تتعدى عليهم ولا يتعدون عليك.

ان الاقتصاد الاسلامي ليس مذهباً مستقلا ولا مبدء برأسه، من غير نظر الى نواح أخرى، ان الاقتصاد الاسلامي جزء من كل والكل هو الدين بأنظمته، من توحيد العقيدة والايمان بالرسل والاعتقاد الجازم بيوم البعث والنشور وان الله سبحانه وتعالى يوقف العبد على اعماله وعلى حسناته وسيئآته، فمن يعمل مثقال ذرة خيراًيره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، يوم تشهد على الانسان جوارحه ويشاهد اعماله منذ البلوغ حتى الموت وهذه العقيدة اذا رسخت في النفس الانسانية ونظر اليها كالمشاهدة وكأنه يعاينها معاينة المشاهدات الخارجية، كان لها الاثر العظيم في نفسية الشخص واعماله وتكون نفسه رقيبة على اعماله، من غير حاجة الى رقيب آخر يوجّهه في الاعمال، ثم يأتي اطار التعليم في القانون الإسلامي، فيشاهد تلك الاحكام قد بنيت على قواعد لا تغيير بالاجتماعات ولا بالميول والانفعالات.

وإذا لم ترسخ العقيدة والاسس الاقتصادية في الاسلام حاول كل فرد الغلبة على المادة عن الاخرين، او توجهت قوى ولاة الامر على الناس، بجلب اموالهم، كما صنعه الماركسيون.

واعلم ان القانون الاسلامي، قانون عدل وميزان حق، يرى الفرد حريته الكاملة في بالتكسب والعمل وانتاج ما يستفيده من طبيعة الارض ويرى ان جهوده غير محاطة بالضغط والاستعمار ولا يراها مستهلكة لقوم آخرين، فيرى ما أعطاه الله من القوى قد استفاد منها وعاد النفع اليه من غير استملاك، او استهلاك من غيره.

وان كل انسان اذا رأى، ان متاعب حياته، قد استفاد منها منافعاً في المعيشة والاخلاق والتربية والتعليم، كان ميله الى الانتاج شديداً.

وهذا بخلاف ما لو رأى، ان زحمات الحياة الّتي بذلها في مدة طويلة من العمر، قد استغلها قوم آخرون بالقهر والغلبة فانه يرى ان حياته قد ضاعت وذهبت ادراج الرياح، فهو يحقد وينكر على كل من ضغط عليه وسلب جهوده، فهو يتربص الفرص، حينا بعد حين ويحقد على كل من سلب جهوده واذا سنخت له الفرص والمقادير، فأخذ الدرهم من

هؤلآء بدينار وهذا بخلاف ما اذا كانت منافع جهوده تعود اليه، هذا حال الملكية الشخصية والافراد العالمين لأجلها.

واذا نظرنا الى طبقة المعوزين والفقراء والأرامل والايتام ومن بهم العاهات والامراض، فيقطع الباحث في الاقتصاد ان الاسلام، يعين على ولاة الامر والقائمين على شئون المسلمين، ان يأخذوا اموالا من الحقوق الشرعية، من زكاة وخمس، ورد مظالم ومن مجهول المالك، ما يسد حاجات هؤلاء الفقراء والمحتاجين من حيث المعاش والكسوة ومن حيث الصحة والنفقة.

فان الاسلام قد رتب ضرائب وماليات، لا تضر بملكية الافراد، بل تحدد تلك الملكية وتسد حاجة المحتاجين وتحفظ الاجتماع، لان الاسلام عند ما تراجع قانونه تراه وقد سدّ ضعف المستضعفين وجعلهم في مقام المعاش والحياة في الدنيا، كالاغنياء في سد حاجاتهم وعدم احتياجهم الى التذلل والمسكنة، فبالملكية الشخصية حفظت جهود الافراد وبالملكية النوعية او الحقوق العامة، حفظ خطر الاجتماع.

ثم انظر الى ماوراء ذلك، ان الاسلام قد جعل ملكية للدولة، من الاراضي الخراجية واستخراج اراضي المعادن والغابات والانفال والموات، وما يحصل من الغنائم في الجهاد ما يصالح عليه ولي المسلمين، او ما كان عامراً حين الفتح ثم صار مواتا وما خرج اهل الاملاك عن املاكهم وتركوها بواراً، فهذه كلها ترجع الى ولي الامر ونظام الدولة، ليحفظ بها الافراد والاجتماع.

وهذه الملكية الثالثة الّتي بها يحفظ النظام بين الراعي والرعية والتوازن بين الاجتماع والافراد والحاكم والمحكوم، ولم يجعل الشارع المقدس، بيت المال ثروة للولاة ولا حياة للقواد لا ثروة لوجوه الناس.

انما جعل بيت المال، لإدارة الجيش والتربية والتعليم وللمعارف الاجتماعية ولسد حاجات الاقتصاد، عند ضعفه وحفظ الثغور لحياة الامة، فيؤدى للزارع ما يحتاج اليه وللعامل ما يقوم به للعمل وللفقراء والمحتاجين، اذا لم تقم به الملكية الاجتماعية.

فترى تعادل الملكيات الثلاث من ملكية الفرد والاجتماع والدولة، ما به يحفظ شئون الافراد والاجتماع والدولة وعند ما حدد الشارع ملكية الفرد، فمهما بلغت في الفرد المنافع، لا يصل في الملكية الى الرأسماليين، لان الشارع المقدس قد حدد ملكيته بحدود،

لا يتجاوزها، فان الشارع قد جعل عليه ضرائب من الزكاة والخمس ورد المظالم والكفارات.

وبعد ذلك رجع له والزمه في وصيته، أن يوصي بعد موته في ثلث ما له وليس مصرفه الا في الاجتماع من بر الفقراء ومساعدتهم والبذل في القناطر والجسر والطرقات العامة والمصالح النافعة بالمجتمع من اهل بيته وغيرهم، واداء الواجبات عنه بعد مماته وكل ذلك مما يخفض المادة، حتى لا يبلغ الرأسمالية والاقطاعية.

وترى ان الملكيّة الشخصية النوعية وملكية الدولة كله للصلاح العام وتنظيم السير في المعاش، على احسن الوجوه، من غير ضغط شيوعي، ولا استبداد كالرأسماليين.

وان الاقتصاد الاسلامى يبتني على الاتصال بعلم النفس وبروحية نظام الاسلام لان الاقتصاد الاسلامى، كما تنظمه العقيدة تنظمه ايضا ما في النفس من الصفات الفاضلة.

قد عرفت منا سابقاً ان النظام الاسلامي ليس مجرد اقتناء المادة من أيّ طريق كان بل المادة القائمة عن العقيدة الراسخة في الضمير وعلى الفضائل النفسية الّتي يكون الاقتصاد مظهراً من مظاهرها ومثل عاليه للنفس كما يقوم الاقتصاد على اسس الشرعية يقوم ايضاً على روحية الفضائل النفسية ويقوم في المرحلة الثالثة على تطبيق تلك الاحكام الشرعية فاذا طبقها تطبيقاً صحيحاً فيقوم الاقتصاد على دور رابع وعلى مرحلة وراء العقيدة وفضائل النفس وتطبيق الاحكام.

ويرتبط علم الاقتصاد بعلم الاخلاق الّذي هو السلوك للنفس والمثل العليا ولذا ان الشارع المقدس لم يحسن للبايعين والمشترين النفع الكثير بل رجح لهم النفع القليل ليدوم العمل وتسرع الحاجات في نفقاتها.

هذه هي الموازين الّتي قام عليها الاقتصاد من المراحل الاربعة من العقيدة الراسخة وفضائل النفس وتطبيق الاحكام وجرى الاقتصاد على علم الاخلاق والقانون الّذي جعله الشارع المقدس في الكسب والتجارات.

واما الاقتصاد على المذاهب الاخرى، فيرونه مذهباً لا يرتبط بالعقيدة ولا بعالم النفس والاخلاق ولا بعالم البيئة والاجتماع يرونه وهو الاساس بالحياة.

وان العقيدة والاخلاق والكمالات النفسية وعلم الاجتماع والوطن كله يتبع علم الاقتصاد.

وسيأتى منا توضيح هذه المباحث من مهمات الرأسماليين والاشتراكيين والشيوعيين.

فالاقتصاد الاسلامي يبتني على العدل الكامل بروابط الأخلاق الفاضلة ورسوخ العقيدة، بحيث يحترم نفسه ويحترم غيره وكما يحترم جهود نفسه يحترم جهود غيره.

اخطار تحف الاقتصاد الاسلامى

انك اذا نظرت الى الاقتصاد الاسلامى وجدته قد سد ثغور الاخطار الّتي تتوجه إليه، من الربا والاحتكار وبيع الغش والتدليس والمعاملة بالمعيب والغبن فان الشارع المقدس حرمها ولا سيما الربا، فانه خطر على الاجتماع.

فكم من دولة عظيمة استأصلت دولا صغاراً بالربا ورب رجل من الرأسماليين استأصل منطقة وارض زراعية، من ايدى الفقراء والعالمين.

وان خطر الربا واسع على الناس، فرب رجل ترك وطنه وبيته واطفاله وعياله، لما احاط به من الربا المستأصل لثروته وماله، فمنع الشارع عن الربا وعن الاحتكار وعن كل معاملة، توجب ضعف الاجتماع وحقد بعضهم على بعض واستهلاك افراد المجتمع كله.

وان الشريعة الاسلامية، قطعت جذور هذه الامور وجعلت الانسان حراً في معاملاته ولا مستهلكا لاشخاص من تجار، او ولادة امر، فدفع هذه المشاكل كلها وقلع جذورها وجعل الانسان منتفعا بجهوده ومنافعه ومن الواضح ان مشاكل الربا في كل امة، مما يوجب انهيار الامة واضمحلال اقتصادها.

وقد اخذت الدول الكبار، ذوات الثروة على الدول الضعاف، ان اقرضوهم بالربا، حتى استأصلوا قوتهم ونتاج اعمالهم فاستأصلوا ثروات الدويلات الصغار واستحكموا بهم حكم السادة في العبيد.

ان الاسلام لا يملك المال لشخص الابجهوده ومتاعه ولا يملك الاسلام مالا من غير جهود ولا يجوز استملاك مال من طرق غير مشروعة، كالغش والتدليس والغبن والاحتكار.

وان هذه الامور الّتي نهى عنها الشارع مما تسلب كرامة الانسان وشرفه في الاجتماع وانحطاطه الى عالم الوحشية والقسوة وارتكاب كل رذيلة.

وقد ورد في السنة واحاديث اهل البيت، الحث على التجارة وطلب المال الحلال

والرفاهية في العيش، عن المعلّى بن خنيس قال رآني ابو عبدالله عليه السلام وقد تأخرت عن السوق، فقال: اغد الى عزك وعن ابي عبدالله عليه السلام قال تسعة اعشار الرزق في التجارة وعن النبي صلى الله عليه وآله قال تسعة اعشار الرزق في التجارة والجزء الباقى في السائبة يعنى الغنم وقال الصادق عليه السلام لمعاذ: يا معاذ اسع على عيالك واياك ان يكونوا هم السعاة عليك وعن ابي عبدالله عليه السلام عن آبائه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله :نعم العون على تقوى الله الغنى وقال الصادق عليه السلام: غنى يحجزك عن الظلم خير من فقر يحملك على الإثم وانت اذا راجعت كتب الحديث وجدت ائمة الهدى قد احثوا شيعتهم على التكسب والغنى من الطرق المحللة والملائمة لإصلاح المجتمع من غير تعقيد ولا طرق توجب انهيار المعاش بين الناس.

الملكية في الاسلام

ان الملكية في الاسلام لم تؤخذ في عالم الافراط ولم تهبط الى عالم التفريط بل نظام لا يكون المادة الى حد التكاثر وجمع المال، من غير فائدة ولا يجعل المسلم فقيراً ذليلا سائلا من غيره وان لا عزة له ولا رفاهية ولا راحة.

فالاسلام قد سد ثغور تكثر المادة من غير وجه وقد اخذ بيده الى اوج الراحة والرفاهة والغنى، قال النبي صلى الله عليه وآله: كاد الفقر أن يكون كفراً.

واذا نظرت إلى كثير من الناس، لا يفهمون الاقتصاد الاسلامي ولا الملكية ولا الحقوق في هذه الشريعة، فترى بعضهم يتهجم على من كثر ماله واسترق العباد بماله وظن ان المسلم من كان في معيشته في غاية الضعف والفقر وترى بعضا يحاول كثرة المال وجمعه وقد جعل الاسلام للملكية قواعد خاصة، بحيث لا تصل الى حد الاسراف في جمع المال ولا الى حد يحتار المسلم في معيشته في بيته واطفاله واتخذ بين ذلك سبيلا.

وان الاسلام ليس فيه الثروات الّتي توجب الاسراف وتكدس الاموال وجمعها من غير انتفاع للاجتماع وجمود المادة ولا ان المسلم يعيش ذليلا للامم محتاجاً في ادارة بيته للقوت وان لا يملك شيئاً الا بمقدار ما يضطر ويحتاج اليه.

فالاسلام غنيّ في دينه في اقتصاده غنيّ في اجتماعه على الوجه الأتم الّذي فيه الراحة والرفاهة من غير تبذير ولا فقر.

سيأتى مفصلا على ممر الآيات، من بيان الملكية فيالاسلام والحقوق والمالية

وشئونها وملكية ولاة الامر والمنافع العامة والبذل على الضعفاء بان لا يكونوا في حاجة ولا سؤال وان يعيش الفقير كالغني وان لم يكن له مال.

فالملكية في الاسلام لها شئون واطوار، بها يتم النظام الاقتصادي والاجتماعي وبها يحصل النفع في الدنيا والآخرة ولكن قد اخذت الامم بحد الافراط والتفريط فترى الغربيين همتهم جمع المال والثروات وجعل افراد الناس ملكاً لهم من هذا الطريق وترى بعض الشرقيين ممن يريد ان الانسان تحت نظارة القوة، في اكله وشربه ومرضه وعلاجه وارادته، فالناس بين متهور في المادة وبين مستهلك، لا يرى الا الحاجة الضرورية.

اعلم وفقك الله، ان الاسلام دين العدالة، فقد قنن قواعد للاكتساب والاقتصاد، من غير اجحاف من امة على اخرى ولا من قوم على قوم آخرين، لان الدين الاسلامي وكل دين سماوى، لا اجحاف فيه ولا اضرار وكما ان الدين هو الطريق المستقيم والصراط القويم، فلا يمكن ان يجعل الملكية على اطلاقها بان يتملك الانسان العقارات والبيوت والاراضي من الزراعات وغيرها وتحصيل المال من أيّ جهة كانت فان هذا خلاف القواعد الاسلامية لانه يوجب الضغط على كثير من الناس وسلب راحتهم في الدنيا، فلا بدان يقيم قانوناً وعدلا في قواعد لا حيف فيها ولا ظلم على الآخرين.

واذا نظرت الى القانون الإلهي وجدته لا يجوز جمع المال من أيّ طريق كان ولا يكون كسبه مستهلكاً لمعيشة الآخرين فهو اعتدال في الكسب والمعاش واستقرار النفوس.

ومن هنا كان الاسلام لا يجتمع ولو في بعض قواعده، على قانون الشيوعية الّتي اصبحت ان لا ملكية لاحد وانما الملكية لزمرة قابضة على أزمّة الأمور وبقية الامة لا اختيار لها في جهودها ولا تنتفع من صناعتها وكسبها شيئاً وامست الامة كحيوانات بايدي مستهلك لها وجائر على افعالها وهذا خلاف العدل الانساني فضلا عن عدل الشرائع، فان الشرائع قد اقيمت الراحة البشرية، في الدنيا والاخرة وان هذه الامة الّتي احتكرت اموال الرعية وجعلتها في منافع بعض المأمورين، ممالا يرضى به العقل السليم ولا يتقبله الطبع المستقيم، لانه من مراتب الظلم، بل ومن اشدها، حتى ان هؤلاء سيطروا على اموالهم وعلى مكاسبهم وعلى آرائهم بحيث ان الانسان لا يتصور نفعا لنفسه وانما هو في حالة جهاد ودفاع لتبقى نفسه في الحياة على ذلة من العيش وانه مسخر لغيره، فلا عقل عنده يستعمله

ولا ارادة يوجهها الى أيّ اتجاه وهناك قوم آخرون استغلوا الاموال واصبح كل واحد منهم ذو ثروة طائلة حتى يعجز بعضهم عن عدها.

فمنهم الاقطاعيون ومنهم التجار المعروفون بالرأسماليين واصبح الناس في ايدى هؤلاء عمالا لا يعيشون الاعيشة في ضيق مسخرين لهؤلاء، يعبدونهم من دون الله، فاذا خالف احد من عمالهم، نزلت عليه النقمة واقاموا عليه التنكيل.

ولما جاء الاسلام، سد البابين، من الثروة الطائلة الّتي تؤدى الى تمرد النفس والى استهلاك النفوس، فأخذ طريق الاعتدال واصلاح المجتمع والفرد واصلاح كل طبقة بما يخصها، من غير اجحاف ولا اسراف، فجعل الانسان يملك ما جاء من جهوده ويملك نتائج اتعابه من غير ان تستهلك نفسه واعماله وجعل عليه وظائف شرعية تحد ماليته وملكه وتجعله في نطاق وسط وسير معتدل واوجب عليه الزكاة والخمس ورد المظالم والتصدق بمجهول المالك، ثم ارشد الى صلاحه بعد الموت باخراج ثلثه لاداء واجباته ومساعدة الضعيف من الفقراء والارامل وابن سبيل.

أنت اذا نظرت الى هذا القانون وجدت ان المسلم لا يكون من القسم المعبر عنهم بالرأسمالية ولا من القسم الاخر المعبر عنهم بالشيوعية، فان الثروة مهما كثرت فهى محدودة بجهود الانسان ومتاعبه، حيث حرّم عليه الاحتكار وسرقة اموال الناس وغصبها بالقوة والتملك، من غير سبب ثم جعل عليه ضرائب شرعيه من اخرج الزكاة الخمس ورد المظالم ومجهول المالك ثم رتّب عليه اخراج الثلث بعد الموت كل ذلك مما يمنع من إستطالة الثروة وبلوغها الى حد الافراط فاذا اخرج الثلث بعد الموت واخرج الحقوق الشرعية الّتي ذكرناها، لم يكن له الا النصف اواقل منه مما اكتسبه في مجموع حياته ويأكل هوالنصف في زمان الحياة واهل بيته، فلا يبقى الا شيئاً يسيراً، يعيش به اليتيم من اولاده من بعد موته ويستعين بها الكبير في نظام معاشه.

فالاسلام بما بيّناه يقطع دابر الاقطاعيين والمسرفين والمحتكرين والغاصبين لأموال الناس ويقطع مادة الاستهلاك البشرى بعضهم لبعض.

وعلى اهداف الطائفتين من الرأسماليين والشيوعيين يصبح الانسان حيوانا مسخّرا بأيدى أناس لهم السطوة والثروة وتصبح حياة الانسان في قلق وضغط يترقّب الانفجار يوماً بعد يوم ويتمنّى الراحة والسعادة ساعة بعد ساعة.

فالاسلام قطع دابر هؤلاء ومنع ايديهم عن الاستهلاك والاستعمار وعن التصرف في الاستثمار وهو قانون الله في ارضه وعدله في بريته لا اجحاف على احد ولا ظلم من احد على غيره ولكن الناس تركوا قانون الله ودروسه وتبعوا شهواتهم وميولهم وساروا على نهج غير مستقيم وعلى صراط غير قويم.

الاسلام والماركسية

ان ماركس لما جاء إلى الاقتصاد وتوجيه الشيوعية بنى إقتصاده على نفى الموجد والخالق وارجع الامر إلى الطبيعة وقوانينها وان الانسان في حركاته واقتصاده مسخر للطبيعة واعتقاده ان الشعوب لم تتقدم ولم تبلغ اوجها، الا من ناحية الاعتقاد بالله الّذي يوجب اضطراباً وتحيراً وخوفاً للنفس حتى صرح «ماركس» واصحابه ان الدين افيون الشعوب وزعموا ان لابد من الخضوع لعالم الطبيعة ونظامها ولكن مع هذا كله تراهم يوماً معتنقين لرأى ماركس ويوماً لرأى «لينين» واستغلوا الثروة بصوت عال وهو انقاذ الضعيف والاخذ بيد المظلوم على ما هو طبيعة المحتالين من اخذهم الشعوب والسيطرة عليهم وعلى ثروتهم ومادتهم باسم الاستجابة للمظلومين وبأخذ ايدى الضعفاء وانقاذهم من الهوية.

والفلسفة الماركسية تقيم الفكر على المادة وتبنى استخلاص معانى الحياة من ينبوع التطور المادى وحده وأنّى لهذه الفلسفة الماركسية الجامدة ان تنقذ الانسان من الهويّة او تحقق له في حياته كرامة وشرفاً وعزاً وسعادة وان الحقيقة الواقعية الوحيدة عند ماركس هى ذلك العالم المادّى الّذي تدركه حواسنا وننتمى اليه جميعنا وليست المادة ثمرة الفكر ولكن الفكر ذاتاً اسمى من نتائج المادة وقد تبنّى هذا الرأي عن «فويرباخ».

فالجدل الماركسى ينظر الى الطبيعة، لا انها اشياء اجتمعت صدفة ولا على انها ظواهر منفك بعضها عن بعض ولا مستقل بعضها عن بعض، بل الكل واحد متناسق ترتبط فيه الظواهر ارتباطاً عضوياً يعتمد بعضها على بعض على نحو ان تكون مرتبطة تمام الارتباط، متلازمة في غاية التلازم.

وليس في وسعنا ولا في نظرياتنا أن نصل الى هذا الواقع في منبعه ومقدورنا ان نستخلص قوانين تلك الطبيعة وفي رأيه ان الطبيعة دائماً في صراع وبين دافعين متضادين.

ومن هنا نجد الماركسية تضعنا في حيرة لانها تجعل التناقض اساساً للواقع وتنطوى

المادية الجدلية على المادية التاريخيّة، ذلك لان المادة هى مبدء الكل.

ومن هنا فالمدار عندهم على تطور المادة لاعلى تطور الفكر والعقل وهذا هو الّذي يتحكم في العالم بنظرهم وان الميزان هو تطور الانتاج وهو اساس تطور المجتمعات وتطور التاريخ الانسانى، فالعوامل الاقتصادية هى الّتي يمكن ان يفسر علىٰ ضوئها عندهم تطورات المجتمع الانساني.

فالانسان ينفق معظم وقته في العمل لكى ينتج غذائه ويصنع كسائه ويبني مسكنه وهو في عمله يستعين بادوات خاصة وكلما تطورت هذه الادوات تعدلت العاقلات الجارية بين الناس ويترتب على ذلك اختلاف العلاقات الاجتماعية وتباين «الايديولوجيات» وعلى هذا الاساس يتطور التاريخ ويتفرع صرح البناء القانوني والسياسي وطريقة الانتاج في الحياة المادية تحدد بوجه عام النشاط الاجتماعى والسياسى والعقلى والتوجهات النفسية في حياة الانسان على هذا الكوكب وليس الضمير الانسانى هو الّذي يحدد طريقة وجود الانسان.

وأما في المجتمع «البورجوازي» أو الرأسمالي، فوسائل الانتاج هي المصانع، والعامل عند الرأسماليين، رق وفقير معا، فهو مضطر أن يبيع طاقته في العمل والعامل شأنه شأن العبيد والرقيق وان المال هو الّذي يجعل للناس قيمتهم.

وأما على نظام الشرع والاسلام، فقد رتب الاقتصاد على فلسفة الواقع وحفظه بنظام لايتغير ولا يتبدل من غير ان يكون عنوان الاشتراكية او الرأسمالية او الماركسية مقصوده، وصيره الشارع المقدس على نظام الاخلاق وكرامة النفس، فان المال وسيلة للصلاح وليس هو المقوم للحياة وان المقوم هو النظام الالهي الّذي فيه ترقى النفس واوجها للسعادة.

وقد اعترف «انجلز» مع انه من اقطاب الشيوعية ان ماديته، ليست مادية مطلقة، كما يزعم ماركس واصحابه ذلك.

وان الشرائع السماوية، قدرسمت للناس صراطاً مستقيما، يقيم لهم الخير ويجنبهم الشر والسوء، ووصفت لهم نظاماً في الحياة، يمثل اعلى القيم واسماها ولكن الناس تركوا ذلك تحكيما لشهواتهم ونزعاتهم لاستبداد نفوسهم، لعوامل الطمع والجشع والغرور، للسيطرة والتحكم على النفوس، وقد تركوا الرحمة باوسع رحابها، وجعلوا الشرائع خلف ظهورهم، لو ان الناس سلكوا طريق الحق واعتدوا بهدي الشرائع والاسلام لكان الناس صفا

واحداً ومجتمعاً صالحاً، لا يعمل القويّ قوته على الضعيف ولا يسترقّ الضعيف ويكون عبداً للقوى، ولكان الناس احراراً متباعدين عن القوانين الجائرة والمغالبات في اطوار الحياة، وما اصبح الانسان ينتقل من ازمة الى اخرى، ويسد ابواباً على غيره، ويفتح ابواباً لنفسه، وما اصبح الانسان قائماً على التشاجر والخلاف وحب السيطرة والتحكم على الناس، كل ذلك لانهم جعلوا قانون الله خلف ظهورهم، ظنا منهم ان ينالوا الكرامة والسعادة، بهذه الطرق الملتوية، واتخاذ الصفات السبعية.

ولكن الشيوعية، وعلى رأسهم ماركس اولينين، لا يقبلون النهج على الصراط المستقيم، فانكروا الضمير الانسانى، وما تنزلوا الى النظام الالهى، وما علموا ان القوى الروحية، والدروس الالهية، تشكل نظام العدل والاحسان، حتى يصل الانسان الى اعلى المثل، وان الشيوعية يعللون احداث التاريخ ووقائعه، بتفسير ماديّ.

وانت اذا القيت نظرة، وجدت الشيوعية والرأسمالية تقضى على نفسها بنفسها، ولا يمكن ان يتمشى البشر على نهج العبودية لحزب اولافراد.

فهذه الاحزاب من شيوعى او اشتراكى متطرف، او رأسمالى جمع متاعب العمال واخذها ثروة له، هو مما يقضي على نفسه، ولذا ان ماركس بعد موته، لم يعملوا على نسقه، وانه دائماً يقع الاجتماع تحت ضغط افراد الشيوعية من الحكام، او تحت ضغط افراد لهم الثروة في البلاد وهذا مما يقضي به عليهم، ما لم يكن للفرد كرامته، والافلا يندفعون الا بالغصب والغلبة على العمل، فهم وان حافظوا بنظر هم على الافراد، ولكن قضوا عليهم من طريق استهلاك الثروة لجمعية خاصة واين تذهب الملكية، فانها ان سلبت عن جماعة، صارت من الصفات، لجماعة من حزب، اولافراد لهم الثروة هذا حسب سير البشر.

واذا كان الفرد فقد ثروته، فلا يدفعه الدافع الى جمع المال، الاعلى وجه قسري، وانظر الى حكمة الاسلام، حيث جعل للفرد ملكية، وجعل للحكومة ملكية اخرى، وجعل للمجتمع ملكيات متعددة وجعل الملكيتين من الحكومة والفرد، في تصرف واستقلال من غير مزاحمة لاحد عليهم، ولكن عند الخطر على المجتمع وافراد المملكة جعل المعونة من مالية الحكومة والفرد في حفظ النظام الاجتماعى.

كل ذلك لحفظ الاجتماع والفرد، ونظام ولاة الامر ولكل واحد من هذه الاصناف الثلاثة اقتصاد يخصه، وبه يحفظ نفسه ويحفظ غيره ولذاترى قد تحولت الرأسمالية، الى

عمال غير مستهلكين، وذهبت الشيوعية واصبح الشعب منتقماً منهم وحاقداً عليهم يتربص بهم الدوائر والفرص.

اما اذا رأيت الاسلام في اقتصاده، رأيته قد توجه الى سد الثغور الّتي توجب انهيار الاجتماع، وانه لا حظ الامور الّتي توجب حفظ الطبقات وعدم التعدّي عليها وان ادنى طبقة وهم المحتاجون والمستضعفون قد تمت حاجاتهم، واستكملت معيشتهم، واصبحوا بقانون الاسلام في رفاهية من العيش، اذا عمل المسلمون بجميع طبقاتهم على طبق النظام الشرعي، ولذا ان احاديث السنة في باب التجارة تومئ الى ما بيّناه من التكامل والتساوي وحفظ الحقوق والوفاء بالعهود بما لامزيد عليه تركنا تفاصيل الاقتصاد وبيان الردود على الشيوعيّة والرأسمالية واشرنا اليها اجمالا وارجاعاً لما كتبناه في الاقتصاد مفصلا.

هدف الاسلام واهداف الدول

ان الهدف الاسلامي في نظامه ودولته، ان يكون المشرع هو الله، العالم باسرار التكوين والبيئات، وهو المحيط برغبات النفوس وميولها.

والاسلام يهدف الى نفي الطبقات ونفي ان يكون الشعب هو الحاكم، لان الميزان في النظام الاسلامي، هو التساوي في الحقوق، ولحاظ البشر بلحاظ واحد، وحفظه في النشأتين، وان الله خلقهم على وزان واحد لا تقديم فيه من احد على احد ولا بيئة على اخرى، ولا ابيض على اسود وانما التقدم بالفضيلة من العلم والتقوى، وهذا يتنافى مع النظام الديمقراطي فانه وان صرح اهل هذا النظام، بان الحكومة للشعب ولكن هذا مما يوجب ان يكون من خالف الشعب، ممن هو اعلى منهم رأياً، واوصل منهم ثقافة، ان تذهب حقوقه، وتقع حياته في الاخطار، ولا يتخذله رأى، وان الرأى للسواد من الناس وان الاسلام لم يجعل نظاماً إلاّ نظام الفضيلة والعدالة، في كل الطبقات، وعدم امتياز احد على احد، فالكل خلقه وعباده ولكل فرد على غيره حق، ولله على الناس حقوق.

وهذا المعنى لا يتمشى في الديموقراطية، ولذا يتبدل رأيهم في عصر بعد عصر، ونظامهم في جيل بعد جيل.

وان الاسلام يتنافى مع النظام «الارستقراطي» الّذي اسسه فلاسفة اليونان، وجعلوا العلم والحكم والفضيلة تختص بطبقة دون اخرى، وجعلوا كل افراد الامة هم تحت سيطرة

تلك الطبقة حتى اخذ هذا النظام بعض الدول الغربية الى يومنا هذا.

وفي الحقيقة ان النظام «الارستقراطية» مما يحكم بعض الافراد على الامة، ويكون وظيفتهم امتثال تلك الطبقة.

ومن الواضح ان كل طبقة تختص بالحكم تريد مصالحها ولا تعتني بمصالح الشعب او مصالح الآخرين، من غير تلك الطبقة وهذه الفكرة، هي فكرة افلاطون وارسطو وغيرهما وقد أكل الدهر عليها وشرب، وليست مقبولة في هذه العصور وفكرة الحكومة الاستقراطية مما تؤكد الرأسماليين وتشجع رجال الثروة على استعمار الاخرين.واستثمار اعمالهم للطبقة الحاكمة ومن يتصل بها.

اما النظام الشيوعي والاشتراكي فقد عرفت انه مبنيّ على المادة وتطوراتها وقد حملت الفلسفة الشيوعية، معول الهدم على جميع القيم الاخلاقية والانسانية وان بناء الشيوعية يعتمد عل الثورات والحروب والتخريب والتدمير للقوى المعارضة لها وليس عندهم الاالبطش في جميع المراحل واستهلاك النفوس لمقاصدهم وتحويل الثروة الى الهيئة الحاكمة.

وان مبانيهم كما ذكرنا تختلف عن المبانى الانسانية والغرائز البشرية.

ولما وجدت الشيوعية في العصر الحاضر خطأ آراء «ماركس ولينين» اضطروا الى تغيير النظام في الجملة وعن قريب تظهر لهم أخطآؤهم وقد آمن اقطاب الشيوعية واعترفوا بان لا يمكن بأيّ حال تطبيق النظام الشيوعي وقد ملؤا الارض من جثث ابنائهم ملؤا السجون وقاعاتها منهم، وعلموا في العصر الحاضر انتاجهم يؤول في المستقبل الى الدمار والفشل لمخالفة نظامهم الى رغبة الامة، وميلها.

اما الرأسماليين، فمن اخطار هم هو التنازع بينهم، وقهر ماله الغلبة في الثروة والعمل على غيرهم من الطبقات، واعدام الطبقة الوسطى من الكسبة والتجار فلا يبقى الا العامل المسخر بايديهم وتضارب اهل الثروات، فيما بينهم.

وان حياة الاجتماع والبيئات على الطبقة الوسطى دون الافراد من اهل الثروة ومن اضواء ما تقدم، تعرف ان التساوى والعدل والراحة في العيش، وترك النزاع والتشاجر على الثروات، انما يقوم بتعاليم الاسلام والعدل الالهي والسلم والامن.

الاخلاق

انا نتعرض هنا للاخلاق، على وجه الاجمال، كما تعرضنا للاقتصاد بصورة اجمالية، والا فالبحث عن هذين الفنين، يأتى على ممر الآيات تفصيلا.

اعلم ـ ان علم الاخلاق، هو العلم الّذي يتعرض الى سلوك النفس وسيرها في هذا العالم على الوجه الاتم باظهار تلك الفضائل النفسية وظهورها عن استعدادها وملكاتها، الى الفعلية وتجلى النفس بتلك الصفات وان اول موقف يقفه صاحب الاخلاق هو موقف ان يعرف من اين جاء، والى اين يذهب والى مايراد به في هذه النشأة وهذا الموقف يعبر عنه عند علماء الاخلاق بيقضة النفس والضمير والالتفات الى حياته وسلوكه بهذه الدار والافلولم تتوجه عليه هذه النظرة ولم يلتفت الى مراحل سلوكه وسيره في هذه النشأة لاتعد صفاته مطابقة لعلم الاخلاق.

وعندما يأتى اليه هذا الضمير وتتوجه نفسه الى يومه وامسه وغده يرجع الى الله، ويعبر عن هذا الرجوع الى الله بالتوبة ولا يقصد من التوبة في علم الاخلاق الا الرجوع اليه تعالى لا عن سبق ذنب واجرام، فان التوبة معناها لغة وشرعاً هى الرجوع الى الله، وتوجه النفس اليه تعالى، واقبال ضميره نحو الخالق الحكيم، ولذا يعد الانبياء انفسهم من التائبين، قال زين العابدين عليه السلام كم اتوب وائوب.

فالتوبة هى الرجوع الى الحق، وتزكية النفس بالفضائل وتجنّب النفس عن الرذائل حتى تصبح الاخلاق ملكة راسخة في نفس التائب، يندفع بالفعل اليها ويطبق عمله عليها.

وان اول مراحل علم الاخلاق، وتهذيب النفس، هو الصبر فان الله تعالى اودع في نفس الانسان قوة تحمل المصائب والنوائب من جار او جائر او رحم او بيئة او مرض او غيرها من حوادث الزمن وهذه القوة كائنة في اول خلقة النفس، ومن لوازمها الذاتية.

وللصبر مراحل ومراتب فأول مراحل الصبر المعبر عنه بصبر العاجزين، فيصبر على البلاء والضراء ويتحمل شدائد الزمن وحوادث الفتن ويعمل في التخلص عنها.

وغاية الصبر هو صبر الاولياء والابرار وانهم تستلذ نفوسهم بالبلاء كما تستلذ بالنعماء وتتوجه ارواحهم الى قبول تلك المحن.

ولذا ترى ان اولياء الله وان جار عليهم الزمن والحوادث ولكن تراهم وقد اقبلت نفوسهم الى الله تعالى في حالة البلاء لا يتألمون منه بل ولا يطلبون ارتفاع البلاء من الله لما تشاهد نفوسهم ارتفاع درجاتهم بما يجيىء لهم من البلاء ثم تترقى نفس الشخص بالشكر لله على نعمه فيشكر على كل نعمة حتى على عدد انفاسه وحركات قلبه ثم تأخذ نفسه بالترقّى من فضيلة الى اخرى الى ان يصل الى المحبة الى الله والتفاني في ذات الله فلا يسمع ولا يبصر ولا يعمل الا متوجهاً الى الله تعالى بالعمل والقول وتبلغ به الحالة الى الفناء في ذات الله وفي صفاته افعاله ويكون مقامه في آخر السير والسلوك الى تسليم نفسه لارادته تعالى وتفويض امره اليه سبحانه وفي الختام تبلغ نفس هذا السالك الى الابتهاج والرضا، بكل ما يجرى عليه في هذا العالم وكل ما يجرى على المخلوقين، فتكون نفسه مبتهجة مرتاحة راضية بقضاء الله وقدره لانكشاف حقائق الاشياء عنده ويرى اسرار هذا الكون، واسرار هذا النظام، كالمشاهدله.

واعلم ان التوبة، هى اول مراتب تخلية النفس عن الاخلاق الذميمة، والرجوع الى الله تعالى، وللرجوع مراتب.

المرتبة الاولى ـ ان يرجع من الذنوب وترك الواجبات فيأتى بالواجبات ويترك المحرمات، ويكون العبد تائباً عن ذنب واجرام.

المرتبة الثانية – ان يرجع الى الله عن المكروهات والالتزام بالمستحبات، بلا ذنب سابق.

المرتبة الثالثة ـ ان يرجع الى الله تعالى في جميع اعماله، فلا يعمل الا متوجهاً الى الله، ومتقرباً بعمله، وان كان العمل توصلياً، فاذا اراد الذهاب الى صديق له، قصد وجه الله، لان الرواح لاخيه في الايمان، مما يوجب المثوبة والتقرب الى الله تعالى، واذا عاد مريضاً قصد القربة في زيارته وعيادته، واذا قضى حاجة او اطعم فقيراً قصد وجه الله بذلك وتكون اعماله كلها الهدف منها هو التوجه الى الله والقربة والاخلاص له تعالى.

المرتبة الرابعة ـ ان يكون رجوعه الى الله في اعماله واقواله وتوجهات نفسه، وصيرورتها فانية في ذات الله تعالى وصفاته، وليس له توجه لافي اليقضة ولا في النوم، إلا إلى الله، وهذا المقام اذا تم للعبد، كان في منتهى التحلية بالفضائل ويكون استغفار المؤمن، في هذه المرحلة عين الخضوع والفناء في ذات الحق.

للمؤمن والراجع الى الله صفات، منها: الصدق فالمؤمن لا يكون كاذبا، بل صادقاً في قوله وعمله وحالته، وفياً في وعده.

وقد تكثر المدح عن ائمة الهدى، في مدح الصادقين وجاءت الآيات بتكريمهم وفي كتاب ارسطو للاسكندر ما مضمونه يقول له: صن وعدك عن الخلف فانه شنين، واقرن وعيدك بالعفو فانه زين، ومن صفات المتقين الانابة، ومعنى الانابة هو التوجه الى الحق، ولا يخطر في ضميره آخر.

ولذا قال العرفاء، ان قلب الانسان الكامل هو باطن البيت الحرام، وينيب العبد باقواله، فلا يتفوه الا بذكر الله تعالى في السرو العلانية.

وقد استوفى روحيات بيان التقوى ما وصفه اميرالمؤمنين عليه السلام في جوابه لهمام بن شريح وهو من ذرية سعد العشيرة[1]:

– «اما بعد فان الله خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم لانه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من اطاعه فقسم بينهم معايشهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم، فالمتقون فيها هم اهل الفضائل، منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع، غضوا ابصار هم عما حرم الله عليهم، ووقفوا اسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت انفسهم منهم في البلاء، كالذى نزلت في الرخاء ولولا الاجل الّذي كتب الله عليهم لم تستقر ارواحهم في اجسادهم طرفة عين شوقاً الى الثواب وخوفا من العقاب.

عظم الخالق في انفسهم، فصغر مادونه في اعينهم، فهم والجنة كمن قدرآهافهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قدرآهافهم فيها معذبون.

الى ان قال عليه السلام: فمن علامة احدهم، انك ترى له قوة في دين وحزماً في لين وايمانا في يقين وحرصاً في علم وعلماً في حلم وقصداً في غنى وخشوعا في عبادة وتجملاً في فاقة وصبراً في شدة وطلباً في حلال ونشاطاً في هدى وتحرجاً عن طمع يعمل الاعمال

---

١. شرح نهج البلاغه ج ١٠ ص ١٣٤.

الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمّه الشكر ويصبح وهمّه الذكر.

الى ان قال عليه السلام: يعفو عمن ظلمه ويعطى من حرمه ويصل من قطعه بعيداً فحشه، ليناً قوله غائبا منكره، حاضراً معروفه مقبلا خيره مدبراً شره.

ثم قال عليه السلام: «لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يحب وان بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الّذي ينتقم له». ومن تأمل في هذه الكلمات لامام الموحدين عرف حقيقة التقوى بتمامها ومن علائم الايمان، المحاسبة للنفس على الجرائم وتداركها بالتوبة، والمحاسبة على مراحل التقوى ودرجات الابرار، من منزلة الى منزلة اخرى قال اميرالمؤمنين عليه السلام: حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا.

ومن علائم الايمان الاخلاص، قال تعالى: «وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء»[1] فمن اخلص لله لم يلحض في عمله المجازات في الثواب ولا الخوف من العقاب واغلق عنه باب الرياء، وانقطعت عنه عرى النفاق، وان اظهار العمل للعباد، والرياء بالاعمال، من ضعف الضمير وقلة اليقين بالله تعالى، قال صلى الله عليه وآله: ان دبيب الشرك في امتّي اخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وان النفاق والرياء دليل علىٰ ضعف النفس وانحطاطها عن اوج الكمال اذ لا موجد ولا مثيب ولا معاقب الا الله تعالى.

ومن علائم الايمان التوكل على الله، بان يجعل الفاعل الحقيقى هو الله، وان يعين عليه، ان يأتي بالافعال باسبابها فان العالم عالم الاسباب، ولا تحصل النتائج الا بالمقدمات، وليس معنى التوكل ان يبقى مكتوف اليد في اقواله وافعاله، ثم يكون محباً لله فانياً في ذاته، واذا وصل العبد الى هذه المراحل، فوض الامر اليه وانقاد تسليما لذاته، عند انتهاء هذه المراحل من البدايات، والنهايات يكون متصفا بالرضا متجليا بالعناية الالهية.

---

١. البيّنة ٩٨/٥.

الايمان والكفر

قال الله تعالى: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب»[١] «الذين آمنوا وكانوا يتقون[٢] «وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير»[٣] «الذين كفروا لهم عذاب شديد»[٤]

ان الكفر هو الحجاب الساتر عن الحق، والكفر ان كان مع العناد والجحود، فهو نهاية الكفر، ويعبر عنه بالجاحد ومن غضب الله عليه واما ان يكون لا جحود فيه، وانما هو ضال عن الحقّ من غير جحود وعناد، وهم الضالّون، ومن جحد، فهو المغضوب عليه.

وقد يكون الكافر منافقاً ايضاً يظهر الاسلام ويبطن الكفر ويتربص الوقائع والحوادث باهل الايمان وخطر هؤلاء على الدين اشد من خطر الكفار الجاحدين ولذا ورد في القرآن في كثير من الآيات ذم المنافقين وانهم لا ترجى هدايتهم.

والنفاق على نحوين: نفاق الكفار، ونفاق من اسلم ظاهراً والمرائى من افراد المنافقين، وان كان مسلماً وضرر المرائى والمنافق على الاسلام واهل الايمان اشد من ضرر الكفار على المسلمين لان الكافر حتى لو كان جاحد، يمكن التحفظ منه والتحرز عنه بخلاف المنافقين من الكفار، اذ لاتعرف حقيقته بين المسلمين، لا يمكن تحرز المسلمين عن مكايده واخطاره.

ولذا ورد عليهم الذم الكثير بالكتاب الكريم باكثر من الجاحدين، فهو كما ان للايمان والاسلام مراتب في القرب الى الله والدنو منه، كذلك الكفار في مراتب النزول والبعُد عن الله، وقد اوعد الله اهل الايمان بالجنة، والكفار المنافقين بالنار على اختلاف

---

١. الرعد آية ٢٩.
٢. يونس آية ٦٣.
٣. الملك آية ٦.
٤. فاطر آية ٧.

مراتبهم في الجنان وفي النار، فرب مؤمن يبلغ به الايمان في يوم الاخرة فتكون نفسيته اعلى من التلذذ بالطعام وحور العين، ورب كافر أو منافق تستجير منه اهل النار في النار.

وقد تعرضنا في هذه المقدمة لبعض العناوين الكلية في القرآن المجيد، ولا يسعنا التعرض لعناوينه كلها فضلا عن العناوين في الآيات الكريمة، فرب آية تتعرض الى هدف اوهدفين او اكثر، ولو وسعنا المقام هنا لاحتاج الى مؤلفات عديدة ولكن او كلناه الى الآيات في ابوابها، وغاية ما نريده هنا في هذه المقدمة الفات نظر القارى على وجه الاجمال الى العناوين الكلية، في التعرض لها ليحيط القارى بصورة اجمالية الى اهداف الكتاب الكريم والافاهدافه كثيرة؛ تأتى على ممر الآيات واسأله التوفيق لما يحب ويرضى.

البسملة والحمد

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرحيم

**الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين *
اياك نعبد واياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم *
صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**

البسملة

ان الله سبحانه وتعالى افتتح كتابه الكريم بالبسملة، والبسملة بلفظ الجلالة الدال على جميع صفات الكمال، من الصفات الجمالية الثبوتية، من العلم والقدرة والارادة والحياة والاختيار، والسمع والبصر.

ومن الصفات الجلالية السلبية، الّتي هى ما افادت التنزيه عن الممكنات من الحدود والامكان والتغيير والحدوث، ومن صفات الطبيعة.

وفي البسملة ايماء، بان الابتداء، انما يكون بذاته تعالى، وان الابتداء بغيره من الاحباء والاولاد والملوك والجبابرة، واسماء الاباء، هو نوع من الجهل ولا يمكن الاتكال على المبادى الباطلة والابتداء بها.

وقد ابتدء سبحانه جميع السور بالبسملة، وان الباء هنا تفيد الالصاق والاتصال، وهو الصاق العبد واتصاله بربه، وتفانى فقره بغناه، كما هو مفاد الباء في لغة العرب.

وان الابتداء في كل شيء لايليق الابذاته المقدسة لانه المبدء والمبدع لكل شيء فمنه الابتداء واليه الانتهاء واتصال العبد به، روحاً وقولا وفعلا وحركة وسكوناً.

وانما يفهم من الباء الابتداء هنا، او الاستعانة في بعض الموارد، انما هو بحسب

القرائن المقامية والمناسبة هنا، اتصال العبد بربه، وفناء ذاته وصفاته بذاته وصفاته ولفظ الجلالة، وهو الله، علم على تلك الذات المشتملة على جميع تلك الكمالات.

ولذا ان هذا الاسم الرفيع و العلامة الدالة على الذات المقدسة، دال على جميع صفاته وافعاله وان كان الاله، بمعنى المعبود اولا، ولكنه اصبح علماً على الذات دون الصفه.

فالله اسم رفيع وعلامة عظيمة ترى تلك الذات المقدسة، وتتحد معها اتحاد المرآة للمرئى، وهذا المعنى اولى من الباء بمعنى الاستعانة، لانه أجلّ معنى والطف بياناً من الاستعانة.

الرحمن الرحيم

الرحمن الموجد المفيض لكل شيء، والقائم على كل موجود، الرحيم على عباده، في الدنيا والاخرة، واجتماع الرحمانية، والرحيم لا يكون الا في ذاته المقدسة، إذ أنّ افاضة الوجود، لا تقع الا من ذاته.

وهذا دليل على كمال الرحمة، وان كمال الرحمة وتمامها، من العقائد الاسلامية.

الاتجاه الفلسفي

ان الآية الكريمة تعطى اتصال العبد بربه، والصاق نفسه بذاته المقدسة على وجه يكون التفانى، في ذاته بذاته، وصفات العبد بصفاته، فلا يرى موجودا حقيقياً الا ذاته المقدسة، واذا تم مقام الاتصال والفناء، فهو السير من الخلق الى الله تعالى ولا يرى هناك واسطة، في تكوين او تشريع، او توجه في الدعاء، الاالتوجه اليه.

وقد افاض على كل مخلوق، ما به قوام وجوده وكماله اللائق به.

فالرحمة الرحمانية، تعم جميع الموجودات وتشمل كل النعم، كما قال تعالى: «احسن كل شيء خلقه»[1].

وتنحصر عند ذلك حركات العبد من اقواله وافعاله وحالاته، بذاته المقدسة وتنكشف عند ذلك، اسرار التكوين، ويرى ان الابتداء بغير الله تعالى من الجهل والعناد وعدم المعرفة بحقائق الاشياء واسرارها.

---

١. السجدة ٣٢/٧.

وانما يبتدء في عصور الجاهلية، باسماء الملوك والحكام والاعزاء، لعدم المعرفة بذات الحق تعالى، وشأن عظمته وجلاله، ويرى عند ذلك ان كل شيء باطل فالآية الشريفة تفيد تكامل العبد ونفسيته بالتعلق بذاته، وان جميع الموجودات صرف التعلق والربط بذاته المقدسة، وصرف الفناء في وجوده، وان لا وجود حقيقى الا وجوده ونوره، وان ما عداه لا نفسية له في الحقيقة والواقع.

وان الآية الكريمة، قد وجهت العبد الى ربه في كل احواله، عما سواه.

وهذا هو التوحيد الحقيقى، فأن التوحيد الحقيقي هو ارتباط العبد بربه، وفناؤه فى ذاته، وان لا توجد له لما سواه، وهذا اول العقائد الإسلامية.

قال امام الموحدين علي بن ابى طالب عليه السلام «ما رأيت شيئاً الا ورأيت الله قبله وبعده ومعه، فالذات المقدسة هى الوحدة الحقيقية، وما عدا الله تعالى فليس له الا وحدة تعلّقية لتلك الذات المقدسة.

تفسير القرآن بعضه لبعض

اما وجهة التفسير، من حيث القرآن الكريم، فقد صرحت بعض الآيات، بأن الابتداء، هو بذاته المقدسة، وان آية البسملة عند ما تجيء فهى تفيد تطابق مفهومها مع ما دخلت عليه، فتفيد في سورة الفاتحة، مفاد الحمد والثناء، ومقام العبودية والطاعة، لمالك يوم الجزاء وفي غيرها تفيد مضمون السورة وآياتها.

وقد جاءت البسملة في قوله تعالى، بسم الله مجريها ومرساها، قال نوح عليه السلام: «بسم الله مجريها ومرساها»[١] بمعنى قائلين اجرائها وارسائها، وهو حبسها، وقد جاء في سورة النمل: «انه من سليمان، وانه بسم الله الرحمن الرحيم»[٢].

وقد تكثرت الآيات في اسمه بلفظ الجلالة وان بقية الاسماء تابعة ودالة على صفاته.

قال تعالى: «اقرء باسم ربك الّذي خلق»[٣] وقال تعالى: «قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن أيّاماً تدعوا فله الاسماء الحسنى»[٤] والرحمن مبالغة في الرحمة وهو اسم خاص له لا يطلق على غيره، قال تعالى: «الرحمن على العرش استوى»[٥].

---

١. هود ١١/٤١.
٢. النمل ٣٠.
٣. العلق ١.
٤. الإسراء ١١٠/١٧.
٥. طه ٢٠/٥.

وقد تكرر ذكر الرحمن في القرآن الكريم، بمعنى الافاضة للوجود، قال تعالى: «وكان بالمؤمنين رحيما»[١] وقال تعالى: «انه بهم رؤوف رحيم»[٢].

الاتجاه في التفسير من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه

ان الله سبحانه وتعالى امر بقراءة البسملة، انها ابتداء في كل شيء، وانها من صفات المسلمين وعقائدهم، وهي جزء من سورة الفاتحة.

روى الفريقان عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال كل امر ذي بال لم يبتدء فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو ابتر وهذه الرواية، دالة على ان الابتداء بغير الله مقطوع وان الابتداء بالله لا ينقطع، لانه مبدع الاشياء، واليه تنتهى الاشياء.

وفي العيون عن امير المؤمنين عليه السلام انها من الفاتحة وان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرؤها، ويعدّها آية منها، ويقول فاتحة الكتاب، هي السبع المثاني.

وانه لما نزلت سورة النمل، انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم، امر النبي صلى الله عليه وآله ان يكتب ذلك في صدور الكتب، وأوائل الرسائل.

روى سعيد المقبرى عن ابيه عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال فاتحة الكتاب سبع آيات اولا هن بسم الله الرحمن الرحيم، وروى الثعلبى باسناده عن ابى بردة عن ابيه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله الا أخبرك بآية تنزل على احد بعد سليمان ابن داود عليه السلام غيرى فقلت بلى، قال: بأي شيء تستفتح القرآن اذا افتتحت الصلاة فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، قال هي هي.

وعن الثعلبي ايضاً عن جابر، ان النبي صلى الله عليه وآله قال له كيف تقول اذا قمت الىٰ الصلاة، قال اقول الحمد الله رب العالمين، قال قل بسم الله الرحمن الرحيم، وكان على عليه السلام يقول من ترك قرائتها فقد نقص منها.

وان مذهب الامامية يرى ان البسملة جزء من الفاتحة، ومن كل سورة، وهى ابتداء لما دخلت عليه السورة من المعنى.

وقد وافق على ذلك الشافعية، وكثير من علماء العامة، وان خالف ابوحنيفة وغيره فلم يجعلوها جزء من الفاتحة ولا من غيرها.

---

١. الأحزاب ٣٣/٤٣.
٢. التوبة ٩/١١٧.

وفي تفسير الامام العسكرى عليه السلام من قولهم عليهم السلام الرحيم بعباده المؤمنين في تخفيفه عليهم طاعاته وبعباده الكافرين بالرفق في دعائهم الى موافقته، ولا وجه لاختصاص الرحمة بيوم القيمة بالمؤمنين، فان رحمته وسعت كل شيء.

وما ورد في اختصاص الرحمة في المؤمنين فمدفوع بماورد بالتعميم من رحمته في الدنيا والاخرة، لكافة المخلوقات او ان الرحمة اوسع للمؤمنين في الاخرة، وان كانت رحمته شاملة لخلقه جميعاً.

واما تقديم الرحمن، لانه اسم له تعالى فقد روى الامام الصادق عليه السلام انه قال الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة.

وروى عن الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ان لله عزوجل مائه رحمة، وانه انزل منها واحدة الى الارض فقسمها بين خلقه يتعاطفون، ويتراحمون، واخر تسعاً وتسعين رحمة لنفسه، يرحم عباده يوم القيمة.

الإعجاز: الحمد لله

ان الحمد هو شعور الضمير، بالمدح والثناء، وان الثناء الحقيقى يختص بذاته تعالى، والحمد جملة خبرية، تختص بحمده، وان الحمد الحقيقى له، مؤداها انشاء العبد للحمد والثناء عليه، ومشيراً بحمده الى ذلك الحمد الحقيقى، ولا يقع المدح الحقيقى، الا منه لمقامه لقصور الممكن عن اداء الثناء عليه، كما هو، وان كان المدح من الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله، ولا يقع المدح منه، على وجه التطابق بين المدح لله من الانبياء في القرآن الكريم، وما هو الا بمقدار ما تحيط به نفوسهم.

فالمدح والثناء منه واليه، ولا يقع المدح من غيره، الاعلى مقدار وجود شخصية الشخص ومعارفه.

وان المدح من كل احد، با على مراتبه لا يقع الامشيراً الى المدح الحقيقى، والمدح الحقيقى من الممكن الى الواجب من الامور الممتنعة عقلا.

وكل مدح من الانبياء والاولياء والصالحين من عباده، تبعاً لمدح ذاته المقدسة، لان كمالهم على حسب اتجاههم ومعارفهم العقائدية، واعمالهم العبادية.

وكلما كملت ذات النبي صلى الله عليه وآله والرسول قربت الى الله تعالى، وكان المدح له، على

حسب ما يناله من الدرجات، من القرب الى الله تعالى.

والحمد اداء لما اوجب الله عزوجل على خلقه من الشكر، والشكر لما وفق الله عبده من الخير، وان كل حمد هو لله سبحانه وتعالى.

والجملة في الحمد لله رب العالمين، وان كانت خبرية، ولكن المراد منها انشاء كل حمدلله تعالى، وكل مخلوق فهو في الواقع لابد وان يشعر بحمده تعالى.

وجيء بالحمد بالجملة الخبرية، للدلالة، على الثبوت، والحمد مطلق الثناء على من له كرامة الثناء، والشكر نوع من الحمد، في مقابل التفضيل بالنعم.

والشكر مصداق للمدح، كما تقول حمدت الله شكرا على نعمه.

الاتجاه الفلسفي

الحمد هو الشعور، من العبد بمقام شأنه تعالى، على حسب، استعداده وقابليته، من مقام الانبياء والاولياء والصالحين من عباده.

وان كل فضيلة تقابل بالحمد، وكل نعمة تقابل بالشكر وكل حمد هو للرب المطلق، والرب المطلق ليس الا الله، وهذه العقيدة مفترق الطرق، بين الموحدين والملحدين.

وقد اخطأ ارسطو، حيث ذهب إلى ان الله، اوجد هذالكون، ثم لم يعدّ يهتمّ به، لان الله ارقى من ان يفكر فيما هو دونه، فهو لا يفكر الا في ذاته.

ولازم رأيه، ان لا يعتنى بعبادة المخلوقين، ولا بتوجههم اليه تعالى.

وهذا من غرائب الاراء، فان صحت عن ارسطو، فهو كلام خال عن الحقيقة والواقع، اذا لربوبية هى مقام مفترق الطرق، بين الموحد وغير الموحد، مقام توجه العبد الى ربه وانقطاعه، بانه تعالى، قد ربى العبد تربية تكوينية وتشريعية، ورب جميع العوالم، ممن هو قابل للتربية التشريعية والتكوينية كالانسان.

وقد نزه الله تعالى نفسه، عن وصف الواصفين من عباده، قال سبحان الله عما يصفون، الا عباد الله المخلصين، والمخلصون يصفونه على مقدار ما تصل اليه عقولهم.

وقد تكرر لفظ الحمد من الانبياء، واما ما جاء في القرآن الكريم، من قوله: ««والملائكة يسبحون بحمد ربهم»[١] ، «ويسبح الرعد بحمده»[٢] ، «وان من شيء الا

١. الشورى ٤٢/٥. ٢. الرعد ١٣/١٣.

يسبح بحمده»[١].

وهذه الآيات الشريفه، ذكرت الحمد تبعا للتسبيح فهذا الحمد من توابع استجابة الممكنات للايجاد والتكوين، على حسب قابلياتها.

فالتسبيح هنا تكوينى، والحمد تابع له على قدر استعداد المحل والقابلية، وهذا الحمد لا يستدعى الشعور دائماً كحمد السموات والارض، والرعد والسحاب المسخر، وان كان في بعضها لا تخلو عن شعور، كالملائكة.

والحمد تكوينى، تابع للتسبيح، والحمد هو اعم من الشكر، وقد يتقابل الحمد مع الشكر، ولا يقع الشكر الاقبال الوفاء بالنعمة.

وقد ورد عن الامام على عليه السلام في النهج، «نحمده على آلائه، كما نحمده على بلائه»، وان الاولياء لتبتهج، نفوسهم بالبلاء، كما تبتهج نفوسهم بالنعماء.

وهناك اتجاه عرفانى، وفلسفى برهانى من ان الحمد، لا يقوم به احد سواه، وان كل حمد يجرى من غيره، فهو بمقدار استعداد الحامد له.

وما من حمد لرسول، او ولى، الا تابع لله تعالى، ولا استقلال لاحد في الحمد والثناء، الا له تعالى.

تفسير القرآن بعضه لبعض

قد تكرر ذكر الحمد في الكتاب الكريم، قال تعالى: «وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين»[٢]، «الحمد لله فاطر السموات والارض»[٣]، «الحمد لله الّذي هدانا لهذا وما كنا لنتهدى لولا ان هدانا الله»[٤]، «الحمد لله الّذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين»[٥]؛ «الحمد لله الّذي صدقنا وعده»[٦]، الى غير ذلك من الآيات الكثيرة الّتي تكرر فيها لفظ الحمد من الانبياء، قال ابراهيم عليه السلام «الحمد لله الّذي وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق»[٧]، وقال نوح: «الحمد لله الّذي نجانا من القوم الظالمين»[٨]، الى غير ذلك من الآيات الدالة على الحمد عن ارتفاع البلاء، وعند التفضل بالنعماء والحمد اعم من الشكر مفهوماً، وان الشكر

١. الإسراء ١٧/٤٤.
٢. يونس ١٠/١٠.
٣. فاطر ٣٥/١.
٤. الاعراف ٧/٤٣.
٥. الزخرف ٤٣/١٣.
٦. الزمر ٣٩/٧٤.
٧. إبراهيم ١٤/٣٩.
٨. المؤمنون ٢٣/٢٨.

نحو من انحاء الحمد عند حصول النعم، قال تعالى «وما بكم من نعمة فمن الله»[١] .

الاتجاه في التفسير من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه

عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «شكر النعمة اجتناب المحارم وتمام الشكر قول الرجل الحمد لله رب العالمين».

وفي الكافي عن الامام الصادق عليه السلام ايضاً «ما انعم الله على عبد بنعمة صغرت او كبرت، فقال الحمدلله الا ادى شكرها» .

وقد روى الفريقان، من الخاصة والعامة عن النبي صلى الله عليه وآله لا احصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك.

وان الله تعالى علم عبده، الادب والخضوع في هذه الآية، بان يحمد رب العوالم، الموجد المنعم، المالك، للدنيا والاخرة.

روى الصدوق في الفقيه من كتاب العلل للفضل ابن شاذان، عن الرضا عليه السلام ليس شيء من القرآن والكلام جمع فيه من جوامع الخير والحكمة، ما جمع في سورة الحمد.

وروى من طريق العامة، عن القرطبى، عن الامام الصادق عليه السلام «الحمد لله من حمده بصفاته، كما وصف نفسه فقد حمده».

وقد ورد عن صدوق الامة وغيره: «ان الحمد من الخلق، على مقدار معارفهم وان حمد النبي صلى الله عليه وآله وآله وامته المتقين، افضل الحمد من سائر خلقه، لان معرفة النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته وامته الصالحة اولى بالمعرفة من غيرهم.

الاعجاز: رب العالمين

الرب هو السيد المتصرف، يقال رب الدار، ورب البيت واذا اطلق بدون تقييد، فيراد به هو الله سبحانه وتعالى ولا ينطبق على غيره، وهو رب جميع العوالم، من المجردات والماديات واذا اطلق على غيره، فلابد من التقييد.

---

١. النحل ١٦/٥٣.

الاتجاه الفلسفي

رب العالمين، الرب في الاصل مصدر، بمعنى التربية، وهى ابلاغ الشيء، الى كماله، والرب هو السيد المطاع المتصرف، واشتقاقه من التربية، والتربيه من الله لخلقه، تربية، تكوينية وتشريعية.

اما التربية التكوينية، فهى تجلى الحق بانواره على الممكنات، على وفق استعدادها وقابلياتها.

ومن هذه الناحية، كان الملك ملكاً، والانسان انساناً، والجماد جماداً، على حسب مراتب الموجودات واستعدادها.

واما التربية التشريعية، فهى التعاليم الموحات من الله تعالى على انبيائه ورسله في ابلاغ البشر، وتوجه نفوسهم، الى مراحل الكمال، ونهاية التكامل.

والتربية للعوالم تختلف، بحسب استعدادها وقابلياتها، وليست جميع العوالم قابلة للتربية التشريعية فان الجمادات والحيوانات، لا تقبل التربية التشريعية، لعدم استعدادها بالتكليف.

فتختص التربية التشريعية بالمدرك الشاعر كالملائكة، وبالمدرك الشاعر المختار كالانسان.

تفسير القرآن بعضه لبعض

قد حكى الله تعالى عن فرعون: «قال وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما، ربنا ورب آبائنا الاولين»[١]، «ربِّ اغفرلى ولوالدي»[٢]، «ربنا آمنا فاغفرلنا ذنوبنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الظالمين»[٣]، الى غير ذلك، من الآيات الشريفة.

الاتجاه في التفسير من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه

قد ورد كثيراً في اخبار اهل البيت عليهم السلام والصحابة، ان الرب بدون تقييد، هو السيد المتصرف في جميع العوالم، من غير فرق بين المجردات والماديات، ولا يطلق لفظ الرب

١. الشعراء ٢٦/٢١.
٢. نوح ٧١/٢٨.
٣. المؤمنون ٢٣/١٠٩.

بكل معنى الكلمة الاعليه تعالى، لانه ليس للموجودات والعوالم رب غيره.

الاعجاز: الرحمن الرحيم

الرحمن اسم يتخص به تعالى، وان كان عاماً، من حيث شموله، لجميع الموجودات، والرحيم اسم عام تكررت الآية بالرحمة ليعرف البشر سعة رحمة الله تعالى ولطفه، وان رحمته وسعت كل شيء وسبقت رحمته غضبه، وما الطف تكرار الرحمن الرحيم، في هذه السورة من شمول رحمته وفضله.

ومفاد تكرار الرحمن الرحيم، بين قوله رب العالمين، ومالك يوم الدين اشعاراً لكمال التربية، الى وقت يوم الجزاء، فضلا عن كونهما من الصفات الذاتية.

وقد افاد التكرار معنى وراء ما تقدم، تفسير الرحمن الرحيم، من حيث الاتجاه الفلسفي، واتجاه القرآن، واتجاه اهل البيت عليهم السلام.

الاعجاز: مالك يوم الدين

وهو مالك يوم الجزاء الّذي لا يمكن لاحد ان يدعى ملكية شيء فيه، وان كل شخص يجزى باعماله، ان خيراً فخير، وان شراً فشر.

وقد جاء في بعض القراآت ملك يوم الدين وكونه ملكاً، يلازم ملكية الله للموجودات، حيث ان ملكيته تعالى، بمعنى ايجاد المخلوقات، ومن لوازمه انه ملك عليها.

وان كان اطلاق الملك والمالك على غيره يتخلف من حيث الهيمنة على الاجتماع في عنوان الملوكية، وارتباط مال بشخص يعبر عنه بالمالكية.

وفي الحقيقة ان المالكية للموجودات من الله بمعنى الخلق والايجاد، مما يلازمه الهيمنة والتصرف في الكائنات وان الاعتراف بيوم الجزاء، مفترق الطريق بين المسلمين وبين بعض الامم الجاهلة، الذين ينكرون يوم البعث والنشور ويقولون «أذا متناوكنا تراباً ذلك رجع بعيد»[1].

فالاسلام من عقائده الاساسية، هو الاعتقاد بيوم الجزاء، وانه بما يدين يدان، من خير او شر، وان حياة المؤمن المعتقد بيوم المعاد، حياة أمان وراحة.

---

١. ق ٥٠/٣.

اما اذا لم يعتقد بيوم الجزاء، تقع حياته مضطربة بالتعّدي على الغير، والتعدّي على الاموال والاعراض والنفوس، ويجوز ان يقرء ملك ومالك.

الاتجاه الفلسفي

ان ملكية الله للموجودات، ملكية ايجاد واشراق، واذا تحققت الملكية لله تعالى في خلقه، تحقق عنوان ملك وكانت ملكية ما عداه اعتبارية، وملكيته تعالى ملكية احاطة العلة بالمعلول والموجد بالموجودات والمهيمن على خلقه.

فالملكية تلازم الملوكية في حقه تعالى كما عرفت.

وان ملكيته للمخلوقات، ملكية اشراق وايجاد وجميع الموجودات صرف التعلق بذاته المقدسة، حيث ان الملكية بالقياس اليه، ملكية العلة التامة للمعلولات ولو انقطع الفيض لحظة واحدة، عن موجود من الموجودات، لكان محض العدم وحقيقة السلب.

فثبوت الموجودات قائم بذاته، وهو القائم على كل شيء.

تفسير القرآن بعضه لبعض

تكرر في القرآن الكريم، انه مالك يوم الجزاء، ولا شفاعة لاحد في ذلك اليوم، الا لمن ارتضى من عباده، قال تعالى: «ولايشفعون الا لمن ارتضى»[١]، وليس للناس في يوم القيمة من شفيع مطاع.

وقد جاءت الآيات مما يقارب اربعين آية في الاشارة الى يوم القيمة واخطار ذلك اليوم.

الاتجاه في التفسير من ناحية النبي و آله عليهم السلام واصحابه

قد ورد، كثيراً عن اهل البيت عليهم السلام التحذير عن يوم القيامة، وان الانسان كلما ضعف يقينه بيوم القيامة، كثرت ذنوبه، واذا قوى يقينه بيوم القيامة ذنوبه في الدنيا، وجاء التخويف من اهل البيت عليهم السلام في ارتكاب الذنوب لان تكثر الذنوب تمنع الشفاعة، قال الصادق عليه السلام: «لا تكثروا من الذنوب فانها تحول بينكم وبين ولائنا»، «وقد ورد ان كثرت الذنوب توجب

---

١. الأنبياء ٢١/٢٨.

ظلمة القلب وتحول عن الولاية بينه وبين اهل البيت عليهم السلام عند الموت».

الاعجاز: اياك نعبد واياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم

ان الآية تعرضت الى اختصاص العبادة به، وان لا معبود سواه، وان الاستعانة به والافاضة منه، وان المسلمين هم الذاهبون الىٰ الوحدانية، في المراحل الاربعة، توحيد الذات وتوحيد الصفات، وانه الواحد في الفعل والايجاد، وانه الواحد المعبود ولا معبود سواه.

وان العبادة الحقيقية لا تتوجه الا للمعبود الحقيقى، وهو الله سبحانه وتعالى لان العبادة يقومها امر ان احدهما: ان العمل اداة الخضوع والتذلل، وثانيهما: ان العمل يضاف الى المولى الحقيقي، وكل عبادة لما سواه، ليست عبادة حقيقة ويحرم ايجادها من الناس، وان كانت هى ضرباً من الادعاء والتجوز، وما يجرى بين الناس من تعظيم الانبياء والاولياء والوالدين وارباب العلم والشيخ الكبير، فهو تعظيم واحترام وليس من العبادة في شيء.

ولذلك اختص سبحانه وتعالى، بان يعبد ولا تجوز العبادة لغيره بخلاف الطاعة فانها قد تحسن لغيره كطاعة الاب والمولى والسلطان والزوج، فمن قال ان العبادة هى الطاعة، فقد أخطأ، لانها غاية التذلل، ونهاية الخضوع دون الطاعة، فانها موافقة الامر.

الا تنظر ان العبد يطيع مولاه ولكن طاعته ليست من العبادة، والكفار يعبدون اصنامهم ولا يطيعونها اذ لا يتصور منهم، فالطاعة والخضوع باول مراتبه الّذي يطابق الخضوع والاحترام للانبياء والاولياء والاباء ليس من العبادة في شيء، اذاً العبادة اداة التذلل والرقيّة وغاية الخضوع للمولى.

والعبادة تأتي على مراتب، احدها ان يعبد لاهليته تعالى، او لمحبته او للشكر له وهذه العبادة من عبادة الحقيقيين للمولى الحقيقى.

وان العبادة الحقيقية، توجب له الحرية، وتكون روحه روح اطمئنان ورأفة، كما يقتضيه النظام الاسلامي.

ثانيها العبادة لرجاء الثواب، ثالثها الخوف من العقاب، ولما علم الله تعالى ان الكثير من عباده لا يسعهم العبادة الحقيقية، لقصور ذاتهم عن ادائها، اكتفى منهم سبحانه بالعبادة الّتي تنشأ من رجاء الثواب، او الخوف من العقاب.

وقد صرحت احاديث أئمة الهدى عليهم السلام بتعدد مراتب العبادة.

قال امام الموحدين على عليه السلام عبدتك لاخوفا من نارك ولا طمعاً في جنتك، بل وجدتك اهلا للعبادة فعبدتك وقد اوضحنا مراتب العبادة، في انوار الوسائل، فراجع[١].

والاستعانه بمعنى الفيض، والمدد الالهي في ايجاد الكائنات وافعالهم، فهى من خواصه سبحانه وتعالى، ومن توابع فاعليته، وليس لمخلوق حتى الانبياء، من ذلك شيء حظ ونصيب، فهو الموجد للاشياء، وهو المبقى لها، وهو العلة في الحدوث والبقاء.

واما الاستعانة بمعنى معونه بعض الناس، لبعض، كاعانة الاباء للابناء والصديق للصديق، وشفاعة بعض الناس لبعض، فهو يعم البشر، ومن ذلك الوسيلة والشفاعة من الانبياء، فان الله يقبل الشفاعة، ممن ارتضى من عباده، كما صرحت به الآيات، قال تعالى: «ولا يشفعون الالمن ارتضى»[٢].

فان الانبياء، ولاسيما الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وآله الكرام عليهم السلام فقد جعلهم الله سبحانه وتعالى وسيلة لعباده فهو الإله الّذي لا اله الا هو، ولا فاعل سواه.

واما فتح باب الشفاعة والوسيلة والمعونة، فقد اكرم الله بها انبيائه ورسله وفتح باب الشفاعة والوسيلة للرسول وأهل بيته عليهم السلام وسائر الانبياء والاولياء، ويأتي توضيح ذلك في آيات الشفاعة انشاء الله تعالى.

وهذه الآيات في الفاتحة، قد تنوعت بين مقام الربوبية، ومقام العبد، وعند ما جاء مقام العبد، فقد طلب العبد من ربه الهداية والتوجه الى الطريق المستقيم، طريقة من انعم الله عليه من الصديقين والشهداء والصالحين، طريقة تجمع بين العلم والعمل من الاعتقاد بالتوحيد والرسالة، والخلفاء الصالحين من الائمة، ويوم الجزاء والاعمال الصالحة من اقامة الصلاة، وايتاء الزكاة والتجنب عن محارم الله.

وان العبادة لله هى نوع حرية للانسان، لان الانسان، اذا لم يكن عبداً حقيقياً لله، كان عبداً لسائر الناس.

وان العبد يقف بين يدى ربه طالباً منه السير عل الصراط المستقيم، صراط العلم والعمل، وطريقة النظر والاعمال الصالحة، الّذي يحصل بذلك السير، الفلسفة العلمية

١. أنوار الوسائل ج٢ - ص٣٦١ - ٣٧٠ - الطبعة الأولى - النجف الأشرف ١٣٨٥ هـق.
٢. الأنبياء ٢١/٢٨.

والعملية وتستكمل نفسه، وتستعد للعلم والعمل، على طبق قابليته ووجوده.

الاعجاز: صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

في تفسير الثعلبي مسند عن ابي برده، قال في معنى الصراط المستقيم، صراط المستقيم، هو صراط محمد صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام والتعوذ عن صراط من غضب الله عليه من الهيود والمشركين من العرب، وصراط الضالّين كالنصارى، ومن لا عناد له مع الحق وان كان ضالا، وان الصراط المستقيم اذا سار عليه الانسان، هو صراط الانبياء والصديقين والشهداء وهو الصراط الاكمل من العقائد في توحيد الذات والصفات والافعال والعبادة، وفي تطبيق العمل من العمل الصالح بالاخلاق الشرعية والوظائف الّتي جعلها الشارع على وفق الاخلاق الفاضلة والكمالات النفسية، وان السبل الى الصراط كثيرة.

وفي هذا المضمون قوله تعالى: «الم عهد اليكم يا بنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وان اعبدونى هذا صراط مستقيم»[١]، وقوله «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سلبنا»[٢] وقوله تعالى «قد جائكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم»[٣] الى غير ذلك، والصراط المستقيم يراد به هنا الطريق الوسط، وهو في علم الاخلاق ـ العفة الّتي هى وسط بين الوقوع في الشهوات وغيرها وبين الجمود والبخل وغيرها والحكمة وهى الوسط بين الجهل والغباوة والبلادة وبين المكر والخداع والاحتيال والطيش في الاراء، والعدل، وهو المساواة بين هذه الامور، واذا قام الانسان على الصراط الحقيقى توجهت نفسه الى المقام الشامخ الرفيع، وتنزهت نفسه عن الدرجات النازلة والاخلاق الذميمة، وقد جاءت الآيات بارشاد العباد الى الصراط القويم، وان يتباعد الانسان عن طريق من غضب عليهم على اختلاف مراتب العناد ومراتب الظلال، وما ترك الله عباده من الارشاد الى طريق الهدى والتباعد عن طريق الظلال.

---

١. يس ٦٠.
٢. العنكبوت ٦٩.
٣. المائدة ١٦.

الاتجاه الفلسفي: بيان موقف العبد من ربه

ان العبد بعد ما حمد الله، على مقدار معرفته فاعترف بانه، هو الرب، وانه الرحمن الرحيم، وانه مالك يوم الدين وقف موقف العبودية والطاعة الّتي يقتضيها مقام العبد من ربه فصرح ان لا عبادة الاالله فان المسلم لابد ان يكون موحداً في ذاته وصفاته وافعاله وعبادته وان التفانى الحقيقى من العبد هو موقف العبادة والخضوع والتذلل له تعالى.

واذا نظرت الى العبادة، وجدتها ذات مراتب وقد جاءت من قبل الحق، على مقدار ما يطيع العبد ربه، وان العبد اذا توجه إلىٰ الطاعة فلا يمكن ان تتوجه حواسه الى غيرها.

فقد ورد عن ائمة اهل البيت عليهم السلام عن حال طاعتهم، من الخشية، بحيث لا يسمعون نداء المنادين، في حال توجههم للعبادة.

ولكن لعلم الله تعالى، ان العبادة الحقيقة، انما تصدر من عباده الحقيقيين، اكتفى من سائر الناس بالعبادة الذكرية، لقصور ذاتهم، عن الخضوع الحقيقى، والعبودية الواقعية.

وان مصدر الايجاد والفيض هو ما يرجع الى فاعليته وقادريته، وحياته، فانه لا يمكن ان يتصف به عبد من عباده، وليس لأيّ عبد نصيب في ذلك، وان جميع الاشياء حاضرة عنده، حضور المعلول عند العلة، فهو المالك لها، وهى القائمة بعبوديته، وان الله محيط بها، لانه العلة التامة للمعلول، فهو محيط بجميع الاشياء.

قال تعالى: «او لم يكف بربك انه على كل شيء قدير»[1]، وان العبادة لله من العبيد الحقيقيين تستدعى حضور الواجب لمخلوقاته، وحضور المخلوقات للواجب بأتم الحضور.

ولذا ان الآية الكريمة، قدمت اياك على نعبد اظهاراً لكمال العبودية، وان العبادة الحقيقية، كما بيّناه هي لاهليته.

واكتفى الله بالعبادة من عموم الناس في عبادتهم حتى لو كان العبد مشغولا قلبه بغير العمل العبادى.

فالعبادة الحقيقية، ما كانت اداة الخضوع والتذلل، والفناء في الله، ولا يرى نفسه عاملا، الا باستعانته ولذا عطف الاستعانة على العبادة في الآية الشريفة، وعند ما يتنافى العبد في العبادة، فلا يرى الا الخضوع التام لجلاله وقدسه، وعظمة كبريائه فيصل السالك في

---

١. فصّلت ٤١/٥٣.

العبادة الى اعلى مراتبها، فلا يرى غير الله موجوداً ومهيمنا وخالقاً ورازقاً، وان لاعبادة الا له، ولا استعانة الابه، ويطلب العبد من ربه الهداية، وسلوك طريق الحق، وهو الصراط المستقيم، فيكون على الصراط في توحيده، والاعتقاد برسالة السماء وائمة الهدى عليهم السلام، وبالعمل في اعلى مراتبه من العبادة، وعند ذلك، فاذا سلك الطريق المستقيم، لا طريق العناد والشقاق لا طريق الضلالة، كان في حياته وموته على الصراط المستقيم.

وعندها فالعبد يجمع بين الفلسفة العلمية والعملية من التخلق باخلاق الله، ويكون العبد خليفة الله في ارضه، وان اختلاف سبل السلوك، من نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ليس اختلافا جذرياً، لان الكل يهدف الى توجيه العبد في العقيدة والعمل الى الله تعالى.

غايته تختلف ظروف الزمن في المنهاج والسلوك ولا تختلف في دعائم الاسلام وقوانينه، «ان الدين عند الله الاسلام»[١].

وان الاختلاف في التطبيق بحسب انتهاء مصلحة الحكم دون الاحكام المستمرة بجميع العصور والاجيال واذا طلب العبد من ربه الهداية، هى الهداية وراء الهداية الفطرية، الّتي هى غريزة كل انسان، وشعار كل مدرك ولولا الهداية الفطرية، لما توجه الرسل والانبياء، الى تكليف الخلق، بل يطلب العبد الهداية الاخرى من توفيقه، للتعاليم، وتقبل نفسه للانوار، والنواميس الشرعية وهذه الهداية. يختص بها المؤمنون.

وقد تطلق عناوين السبل، على الطرق غير المعتدلة، قال تعالى: «ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم»[٢]. ان العارف المتوجه، الى اهداف التوحيد ورسالة السماء، يتضح له ان فاتحة الكتاب، قد وجهت العبد، الى اتجاهين، كما في البسملة، اتجاء أدبي، وهو ان الحمد له، وانه المربّي والمالك والمعبود. وان العبد من وظيفته، طلب الهداية، للصراط لينال بسلوكه وعمله، السعادة في النشأتين، الاخرة والاولى.

الاتجاه الثاني: ان العبد بعد طلبه الهداية وراء الهداية الفطرية، بان يهديه الصراط المستقيم، من التوحيد الكامل، والاقرار برسالة الانبياء، والعمل الصالح باعلى مراتبه، واقامة حدوده، وهو صراط الذين خصهم، بكمال الوجود، ورعاهم بالفضائل النفسية، وذهاب الرذائل من الانبياء والاولياء والصالحين من عباده، كان هذا الشخص هو الانسان الكامل

١ آل عمران ٣/١٩ ٢ الانعام ٦/١٥٣

والشاعر الحى، الّذي طبق الحكمة العلمية والعملية وشاهد صراطه علماً وعملا وطبق يقينه على الوجود الاكمل، وعندها فيكون العبد هو المثل الاعلى في خلقه، والتجلّي النوري الكامل في برّيته.

الاتجاه في التفسير من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه

قد ورد كثيراً، ان الصراط صراطان، صراط في الدنيا، وهى المعارف الدينية من معرفة التوحيد والنبوة والامامة والمعاد وان الصراط يشمل الاعتقاد بالائمة، وان الانسان اذا استقام على الصراط المستقيم في الدنيا من المعارف الالهية استقام على الصراط في الاخرة.

روى عن النبي صلى الله عليه وآله قال قال الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين نصفهالى ونصفها لعبدى فاذا قال العبد الحمدلله رب العالمين، يقول الله، حمدنى عبدى، فاذا قال الرحمن الرحيم، يقول الله اثنى عليّ عبدى، فاذا قال مالك يوم الدين يقول الله مجدنى عبدى، فاذا قال اياك نعبدو اياك نستعيذن، يقول الله هذا بينى وبين عبدي ولعبد ما تسأل، فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله تعالى، هذا لعبدي، ولعبدي، ما سأل، اورده مسلم بن الحجاج في الصحيح.

تفسير القرآن بعضه لبعض

ان العبد يكون ممن انطبق عليه قوله: «وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم»[١] «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون»[٢] «ما أريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون»[٣] «ولقد آتيناك سبعاً من المثالي والقرآن العظيم»[٤] وان التعبير بالصراط في القرآن الكريم يراد به هو الدين الحقيقى الّذي يربط البشرية والمخلوقين بجلاله تعالى ومن يطع الله والرسول، فاؤلئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً»[٥]، وقال تعالى: «يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً»[٦]؛ وقال تعالى: «الم اعهد اليكم يا بنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان»[٧]، وهذه

١. الانعام ٦/١٥٣.
٢. الذاريات ٥١/٥٦.
٣. الذاريات ٥٧ / ٥١.
٤. الحجر ٨٧ / ١٥.
٥. النساء ٤/٦٩.
٦. مريم ١٩/٤٤.

العبادة على نحو الادعاء، لان العبادة لا تقع الا للمعبود الحقيقى.

«واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الدّاعي اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون[٨] .

فاتحة الكتاب

مكّية، عن عبدالله بن عباس وقتادة.

ومدنية عن مجاهد، ولعلها نزلت مرتين، في مكة والمدينة، وسميت بالفاتحة لافتتاح الكتاب الكريم والصلاة بها.

وسميت ام الكتاب، لانها جامعة لمضمون الكتاب الكريم، من مقام الربوبية والعبودية وسميت بالسبع، لانها سبع آيات، وسميت بالمثاني لانها تثّنى قرائتها في الصلاة، وقد ورد عن النبي ﷺ انها شفاء لكل داء.

فضل السورة

روى أبيّ بن كعب، عن رسول الله ﷺ ايما مسلم قرء فاتحة الكتاب، أعطي من الاجر، كأنّما قرء ثلثى القرآن، وأعطي من الاجر كأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، وفي رواية كأنه قرء القرآن ايضاً.

وقد روى عن النبي ﷺ أنّها شفاء لكل داء وعن أبيّ بن كعب ايضاً، انه قال: قرأت على الرسول الله ﷺ فاتحة الكتاب، فقال: والّذي نفسي بيده ما انزل في التّوراة ولا في الانجيل، ولا في الزبور، لا في القرآن مثلها، هى ام الكتاب، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بين الله وبين عبده ولعبده ماسأل.

وفي كتاب العياشى باسناده، ان النبي ﷺ قال لجابر بن عبد الله الانصاري: يا جابر، الا اعلمك افضل سورة انزلها الله في كتابه، فقال له: جابر بلى بأبي انت وامي يا رسول الله علمنى اياها، قال: فعلمه الحمد ام الكتاب، ثم قال: يا جابر الا اخيّرك عنها، قال بلى بأبي انت وامي، فاخبرني فقال: هى شفاء من كل داء الا السام والسام الموت.

وروى ايضاً، ان الله اعطى سليمان بن داود عليه السلام، منها البسملة، الى غير ذلك

٧. يس ٦٠.

٨. البقرة ٢/١٨٦.

مما ورد في فضل الفاتحة. وقد ورد انها اذا قرأت، على مريض سبعين مرة، عافاه الله تعالى، وقد ورد تقديم الاستعاذة قبل البسملة، وقبل كل سورة، فتقول اعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وقد امر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان فقال: واذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

سورة البقرة

(الجزء الأوّل)

الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

الاعجاز (الآية ١ - ٥)

هذه السورة، قد تعرضت، للهدف الاصيل من الرسالة، وهو التوحيد وحالات البشر، من الايمان والكفر، وخلافة الله سبحانه وتعالى في ارضه، وحالات بني اسرائيل وعنادهم للحق والاحكام، من الصلاة والصوم والحج والجهاد والنكاح والطلاق والديون والقصاص، وهي اوسع سورة تعرضت للاحكام.

«الم» سر الحبيب إلى الحبيب، ووحى القريب من القريب، وان جوزوا فيها، انها حروف يتركب منها الكلام فتصل إلى غاية الاعجاز، ونهاية البلاغة.

ما اعجب هذه القدرة والمشيئة، يخلق من حروف المباني جملا يعجز عن ايجادها البشر، ويقصر عنها كل مدرك عاقل، أو أنها رموز لحوادث او اسرار غيبية، ولكن كل ذلك تجويز واحتمالات، ولم يطلع على هذه الرموز، الا من بعثت اليه الرسالة وآله المعصومين عليهم السلام.

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، لا ريب فيه ولا شك، ولا موقع للريب والشك فيه.

ان هذا الكتاب للمتقين وغيرهم، كما صرح به الكتاب العزيز، وتخصيصهم بالهدى لانتفاعهم بالكتاب المجيد، كتاب فى غاية الاعجاز، وهو معجزة من كل نواحيه، من حيث حكمته وعلومه، من حيث اخلاقه واجتماعه، من حيث غيبه وشهوده، من حيث احكامه وعبره، من حيث اقتصاده ومعاشه.

ولا ينحصر وجه الاعجاز، فى البلاغة والفصاحة والا لاختص الكتاب بالامة العربية، وقد تقدم بيان ذلك مفصلا.

﴿الذين يؤمنون بالغيب الخ...﴾، وعندما اشار إلى اعجاز القرآن، بين حالات البشر، وانهم على اصناف اربعة كما يأتي توضيحه على ممر الآيات.

الصنف الأوّل – هم المتقون، الذين كان لهم القرآن هدى، وهؤلاء يؤمنون بالغيب، فيما لا يشاهدوه وبما وراء الطبيعة من الاعتقاد بالتوحيد الكامل، ويوم الجزاء.

وقد ذكر الرازي في تفسيره والالوسي، ان بعض الشيعة قالوا، المراد بالغيب المهدي المنتظر، الذي وعد الله تعالى به في القرآن، قال تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾[1].

واما الاخبار، فهي متواترة، ومنها قوله ﷺ «ولو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم، حتى يخرج رجل من اهل بيتي، اسمه اسمي وكنيته كنيتي، يملاء الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً».

واورد الرازي ان تخصيص المطلق من غير دليل باطل، ومراده تخصيص الايمان بالغيب بالحجة، لا وجه له ، ولكن لو راجع الرازي كتب التفسير، من علماء الشيعة وغيرهم، وجد ان اتفاق الامم على ظهور شخص يقيم العدل وينفي الجور، مما هو متسالم عليه، وان المسلمين من العامة والخاصة، اتفقوا، على ظهور شخص من ذرية الرسول ﷺ واهل بيت النبوة.

وان نفسية الرازي وغيره من علماء السنة، لابد وان تطمئن قلوبهم بذلك، لورود الاحاديث المتواترة، من طرقنا وطرقهم، وانه يملاء الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

وان من الايمان بالغيب، الايمان بمجيء ولي الله، الذى يملاء الله به الأرض قسطاً

---

١. النور ٢٤/٥٥.

وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً.

كما ورد ان المؤمنين بالغيب هم الذين اضاء الايمان عقولهم وبصائرهم وتوجهوا إلى الحقائق، وانكشفت لهم اسرار الوجود، لم تحجبهم موانع الطبيعة.

وهذا لا يختص بظهور المهدي (عجل الله تعالى فرجه) فيشمل يوم الجزاء واخبارات الانبياء وكل ما يدركه الحس والتجربة وليس المقصود من كلمات علماء الشيعة، اختصاص الايمان بالغيب بالحجة المنتظر (عجل الله تعالى فرجه) وان الطبيعيين، قد انحجبوا عن الواقع، ولم يأخذوا الا بالحس والتجربة، وسيأتي منا انشاء الله تعالى في الآيات المناسبة للطبيعة بيان غلط هؤلاء وغلط مداركهم، وانهم حكموا على ما وراء الطبيعة بالنفي، والمتقون هم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وينفقون مما رزقهم الله، من انفاق واجب ومستحب، حفظا للاجتماع، وتضامناً في الاخلاق وان الانفاق، قد لا يختص بالانفاق المالي، فيعم الانفاق في التعليم والعقائد الحقة، وابلاغ الناس للاحكام.

﴿والذين يؤمنون بما انزل اليك الخ...﴾ ان موقف المؤمن في شعوره واتجاهه إلى الوحدة الحقيقية والوجود الذي لا وجود اكمل منه وهو عين الكمال إذااتجه العبد إلى مقام التوحيد الحقيقي وإلى صفاته وافعاله انساقت جوارحه إلى العدالة الحقيقية والعمل الصالح على اختلاف مراتبه في اليقين ومشاهدة الغيب فهؤلاء هم المؤمنون بما انزل اليك وبما انزل من قبلك، لان الرسالة رسالة السماء في كل عصر ورسالة اليقين في كل جيل، لان اتجاه المؤمن إلى تلك الوحدة الحقة وانهم هم الموقنون بالاخرة حقاً كأنّهم يشاهدون يوم الآخرة كما يشاهدون انفسهم.

﴿اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون﴾... اولئك على هدى...، بهداية الخلقة وتكامل الانسان وهداية التبليغ والعمل على طبق رسالة السماء من التوحيد والنبوة واليقين بيوم المعاد فقد جمعوا بين الهدايتين، الهداية الطبيعية العقلية والهداية العملية، فاولئك قد نالوا الفلاح بأعلى مراتبه ووصلوا إلى اعلى مراتب الايمان واليقين.

الاتجاه الفلسفي

ان الله قد اودع في الانسان، نور العقل، فهم المفلحون حقاً وهم على هدى القرآن والتقوى، بوجدان الضمير.

وتتحقق من التقوى، عقائد قلبية وصفات نفسية من الايمان بالغيب والوحى المنزل على الانبياء، واعمال تقوم بها الجوارح.

التقوى توصل الانسان بربه، وتوحد اتجاهه، التقوى تبعث روحاً جبارة، وعملاً متواصلاً، يربط العبد بربه.

ان هدى القرآن والسنة، ورسالة الأنبياء وراء الهداية الفطرية، وقد وقف كل انسان بحسب الهداية الفطرية، على نقطة بين ملتقى خطين، خط السعادة، وخط الشقاوة، والتقوى مفهوم يطابق مراتب الايمان كلها، من مرحلة العدالة الانسانية ومراحل الصديقين والابرار.

وقد سأل الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب كعب الاحبار، عن التقوى، فقال: هل اخذت طريقا ذا شوك فقال: نعم، قال فما عملت فيه، قال: حذرت وتشمرت، فقال: كعب ذلك التقوى.

ان هذه الرواية المنقولة عن الخليفة الثانى لسؤآله كعب الاحبار، مما توقع النفس فى التحير، من ان عمر الذي يتولى خلافة المسلمين والزعامة، على هذه الامة، وهو لا يعرف معنى التقوى، ويسأل كعب الاحبار الذي اسلم فى ايام عمر بن الخطاب، وهو لا يعرف من الاحكام الا القليل ولا يعرف التقوى في المعارف الاسلامية.

فان صحت هذه الرواية، كما يرى صحتها الكثير من اخواننا المسلمين، فكيف توافق، رجلا يدعي الخلافة، وهو لا يعرف الأسس التي تقرر عليها الاسلام وكيف يجوز لامة ان تنصب عليها خليفة، وهو يستفيد معارفه، من كعب الاحبار وغيره، وكيف رضى النقلة من اخواننا، المسلمين هذه الرواية، وصححوا نسبتها إلى الخليفة عمر بن الخطاب.

وان المتقي ما وقع بين هدايتين، هداية فطرية وهداية تشريعية، من الكتاب الكريم والسنة.

وان للتقوى مراتب تختلف شدة وضعفاً، وقد يبلغ بالمتقين، ان يرون الأمور الغيبية، كالمحسوسات، نظير ما قامت عليه البراهين.

ولذا ان الله سبحانه وتعالى وصفهم بانهم العالمون بالغيب، اسناداً إلى الفلسفة النظرية، فان العلوم النظرية، قائمة على البراهين والقضايا الاولية فهم يشاهدون المغيبات، ويوم الحساب، كما يشاهد المحسوس.

وان العلوم النظرية، لما كانت قائمة على الاستدلال والقضايا الاولية، وصف العارفون بها، وكانوا ليس كالطبيعيين، والسوفسطائيين والمشككين، الذين لا يرون الا

الأمورالمحسوسة، وما قامت عليه التجربة، وما ذاك الا لقصور عقولهم ومعرفتهم.

فالانسان خلق وليد العلم والحقائق، ووليد النظر والاستدلال، دون الواقف على المحسوس والتجربة، وان المتقي كلما اشتد يقينه، قرب إلى‌الله وقلّت في وجوده الماهيات والحدود، وصار نظير المجردات، في عالم الكون، فانياً في ذات الله، مسلماً امره إلى‌الله تعالى، متخلقاً باخلاق الله، وهو لا يسمع ولا يرى ولا تتوجه نفسه، الا في ذات الله، فانا لله وانا اليه راجعون..

الاتجاه في التفسير من ناحية النبي و آله عليهم السلام و أصحابه

روى عن أمير المؤمنين عليه السلام، ان لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي، وعن الشعبي قال الله تعالى في كل كتاب سر، وسره في القرآن سائر حروف الهجاء المذكورة فى اوائل السور، كالمادة لصور الموجودات الخارجية.

وفي المعاني قد فسر الامام الصادق عليه السلام الايمان بالغيب، هو القيام بقيام القائم (عجل الله تعالى فرجه) وليس المقصود حصر الغيب بالايمان بالحجة المنتظر، والمقصود منها هو الانطباق على معرفته.

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ومما رزقناهم ينفقون، قال ومما علمناهم يبثون.

والمراد بالانفاق في لسان بعض الروايات عن اهل البيت عليهم السلام هو الانفاق بالمعنى الاعم لا خصوص انفاق المال. بل انفاق العلم والمال والاخلاق الفاضلة وبهذا المضمون عبارات كثيرة.

وان الانفاق في مقام التعليم والهداية، واكمال النفس إلى‌اوجها، هو افضل من انفاق المال بكثير وأنّى للمال من وصول النفوس إلى‌مراتبها العالية، والتزامها بالعمل، بسنن الرسالة ومشاهدتها للغيب، فكأنه يرى الأمور الغيبية، كالمشاهدة وان حمل الانفاق على الاعم من المال والمعارف الالهية، أولى بكثير من اختصاصه بالمال.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

ان مدح المتقين، قد تكرر فى الكتاب المجيد، قال تعالى:«الا ان اولياء الله لا خوف

عليهم ولا هم يحزنون»[١]، «متّكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون، باكواب واباريق وكأس من معين»[٢].

إلى غير ذلك، من الآيات الكثيرة، التى لا يمكننا نقلها، بل اشرنا اليها على وجه الاجمال.

الاعجاز (الآية ٦ - ٢٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ

١. يونس ٦٢ / ١٠.
٢. الواقعة ١٦/٥٦ - ١٨.

مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

الكفر له مراتب، الكفر بالذات المقدسة، او بصفاته، وافعاله، او الكفر في مقام العبادة، فيجعل المعبود غير الله من الاصنام والملائكة.

والمفهوم العام للكفر هو الحجاب عن الواقع فلو حجب عن الصلاة وتركها أو الصوم، اطلق عليه اسم الكفر، والكفر فى الآية، يراد به المنكرون للتوحيد ولصفاته ولصفات أفعاله، ولمن جعل غيره معبوداً، ولمن لا يتقبل رسالة السماء، وشرّهم جاهلية العرب، وامثالهم من الامم.

وقد وصفهم الله تعالى: «ءَأَنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»، وليس المقصود انحصار الكفر فى هذه المرحلة، وانما تعرض لهم الكتاب الكريم هنا بالذكر دون غيرهم من الكفار، لانهم اشد مراتب الكفر.

والكافر والمنافق، يقعان بين ضلالين، ضلال لظلمة نفسه واستعدادها للشرور فينحرف عن الفطرة والهدى، وضلال ثاني، بارتكاب الاعمال، التى تبعدّه عن الله.

الصنف الثاني - هم الكفار الذين جحدوا وكفروا بالله وكتبه ورسله واوليائه حتى عمت الظلمة ارواحهم فهؤلاء، انذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وانطبقت عليهم الآية، فجحدوها، واستيقنتها انفسهم.

الصنف الثالث، الكفار الذين لا عناد لهم مع الحق الذين عبر القرآن عنهم بالضالين، دون المغضوب عليهم.

الصنف الرابع، فريق من الناس اخذوا الظواهر، من اصل الايمان والتقوى واخذوا بالظلم والصفات الرذيلة، من اهل الكفر، فهم المسلمون، وهم الكافرون ان اخذت بحسن ظاهرهم حكمت باسلامهم، وان نظرت إلى ضمائرهم، وما تنطوى عليه تلك النفوس الخبيثة من الكفر والجحود، حكمت بكفرهم وعنادهم.

ومن المنافقين من هو اشد من أهل الجحود والضلال، ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة (الخ.. الآيات﴾ على حسب نفوسهم المتلوثة، لجحودهم للحق ونفاقهم في العمل، فلا شعور لهم ولا ادراك، ولا نور لبصائرهم، ولا وعى لقلوبهم وآذانهم، وعلى ابصارهم غشاوة وغطاء، فلا ينظرون الحقائق.

وهؤلاء من صنوف البشر يقول متظاهراً بانه المؤمن بالله والموحد له وآمنا بالغيب وباليوم الاخر، وانا لنعتقد ان لهذا الكون خالقاً ورازقاً وهو المحاسب في يوم الآخرة من الاعمال الصالحة والقبيحة وفى الحقيقة ليسوا بمؤمنين بل ينكرون كل شيء وينتظرون الفرص بالمؤمنين، لم تؤمن قلوبهم وإنما نطقت السنتهم للتوحيد والاقرار بالآخرة حفظاً لنفوسهم وتحصيلاً لمنافعهم.

وهذا الصنف من الناس، يخادعون انفسهم بانواع المحاولات، وفي قلوبهم وطبائعهم مرض، وفي أنفسهم الانحراف، فاصبحوا يراؤون المؤمنين ويخادعونهم.

وان الابدان الضعيفة، منشأ الامراض والقلوب السقيمة منشأ الرذائل، وقبائح الأفعال، وإذاقيل لهم لا تفسدوا في الأرض، لان النفاق فساد في الأرض اجابوا، انما نحن مصلحون، اصلحنا انفسنا، لاتخاذنا الكذب حفظاً لأنفسنا من المسلمين، وانتفاعنا بأموال الحرب، وشؤون الجاه من الاجتماع، وذلك وسيلة لحياتنا، قد أمنا من المسلمين واتخذنا الكفار اخلاّء، وهكذا يجسّم الشيطان لهم أفعالهم بصورة الصلاح والنفع، ولا ينظرون إلى انفسهم بخروجهم عن جادة الحق والصراط المستقيم، فان صلاح الدنيا والآخرة والنظام الكامل في الدين، ومنافع الاجتماع في نوع الانسان لا يستقيم إلا بسلوك البشر، على الصراط المستقيم.

فهم المفسدون حقاً، وهم المنحرفون عن الصراط القويم، اولئك الذين إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، ممن استقام على الطريقة والهدى، اجابوا إنما نؤمن كما آمن السفهاء ممن خرج عن الجادة، وتحكمت به الملكات الرديئة والصفات الذميمة، وإذا رسخت هذه الحالات، فلا يؤمنون، الا إيماناً صورياً، ولا يفعلون الا فعل المرائي، الذي له وجهان ولسانان وقلبان، فلا يفيقون من هذا المرض النفسي، او السبات، ولا يتمكنون من العلاج، اولئك الذين إذا لقوا الذين آمنوا، قالوا آمنّا، وإذا خلوا إلى شياطينهم، واختصوا بهم، قالوا إنما نحن معكم وإنا مستهزئون بالمؤمنين.

فاظهروا صورة الايمان للذين آمنوا، وحصروا انفسهم على صورة الهزء والسخرية

والخداع بالمؤمنين وان الله قد اخبر بأنه مستهزء بهم، وهذا من قبيل الاخبار من الشيء بالنتيجة.

وان الاستهزاء، من الله بهم جزاؤهم بالعقوبة وقد ظنوا ان الله عز وجل لا يطلع على ضمائرهم، ولا يخبر نبيه ﷺ عما تضمره نفوسهم، وما يظهرون للمؤمنين من الموافقة، وما يبدوه بانظارهم من عورات المسلمين.

اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى، وكيف يربحون وقد اشتروا الخسران بالربح، والموت بالحياة، والسعادة بالاضمحلال والبوار، فما ربحت تجارتهم، وما زالوا على هذه الحالة من استحكام نفوسهم، بتلك الرذائل النفسية، ان يكونوا مهتدين.

وان هؤلاء ليس كمن انار الله قلبه وصفت نفسه، كالمؤمنين، بل انعكست نفوسهم، على غير الحق، فلا يفيقوا من أسباب الغفلة، وهم كالكفار المحاربين لنبيه الاكرم ﷺ .

وإنما مثلهم احد مثالين، على سبيل مانعة الخلو لا مانعة الجمع فان انطباق المثلين في حقهم اولى واجدر من المثال الأوّل وهم كمن استوقد ناراً فادركوا الهدى بنور العقل فوعت قلوبهم وسمعت آذانهم ورأت عيونهم فلما استوضح الحق، اعرضوا عنه واختاروا الضلال على الهدى.

وعندها ذهب الله بنور التوفيق منهم حيث استحبوا الضلال على الهدى وبقوا في ظلمات الكفر والجحود لا يبصرون فهم الصم وان سمعت آذانهم والبكم، وان نطقت السنتهم، والعمى وان نظرت ابصارهم.

وقد طبق الله عليهم مثالا ثانياً، وهو الحقيق بهم، او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، مصحوباً بالظلمات، في أنواع وأنحاء من الظلمات، لا ظلمة خاصة لتكافح أو تعارض، وانها ظلمات مرعبة، وصور مفزعة، ظلمات معها الرعد والبرق، فإذا اضاء البرق مشوا فيه مقدار ما اضاء لهم، وإذا أظلم عليهم الوقت، قاموا متحيرين، في حالة رعب وفزع عظيم، يجسم باخاويف، ظلمات متراكمة ورعد مزعج، وبرق يأخذ بالابصار، ويخطفها، يكاد البرق يذهب بأبصار الناظرين.

والانتقال من الظلمات المتراكمة إلى البرق الذي يذهب بالابصار ويوجب التحيّر والدهشة، هل يسير ام يقف، هل يموت ام يبقى.

ولا امتناع ان يشملهم المثل الأوّل، وان كان المثل الثانى، هو أجدر بهم، وان المثال الثاني

أشد من المثال الأول، في تكيف نفوسهم وحالاتهم.

وعندها يقطع الانسان بنشرة الاخبار، عن حال المنافقين الذين هم أسوء حالاً من حال الكفار.

ان الله حكى حالة المنافقين هنا، وفي سورة المنافقين، وحسب التاريخ، ان الآيات هنا متوجهة إلى اليهود المنافقين في المدينة المنورة، حيث وجدوا ان الرسول ﷺ قد اخذ بأفكار العرب، من الاوس والخزرج، فقلّت منافعهم وسيطرتهم وكانوا قبل مجيئي الرسول ﷺ يخبرون عن نبّي يترقبونه، وانه تحيي به البلاد.

فلما جاء النبي ﷺ وجدوا ان الرسالة تنافي مقاصدهم الدنيوية، من الماديات والمعنويات، وان اليهود كما سيأتي في الآيات الكريمة اشد أمّة في العناد، ويرون أنفسهم هم الشعب الالهي، وانهم الشعب المحبوب عند الله.

فالفت الله نظر نبيه ﷺ بمكرهم وخداعهم واستهزائهم ومحاولتهم للغنائم الاسلامية، إلى غير ذلك مما في نفوسهم من النفاق.

ولكن المراد، من الآيات هنا حسب التاريخ انطباقها على يهود المدينة، وان كان مفاهيم هذه الآيات عامة لكل منافق من اليهود وغيرهم.

الاتجاه الفلسفي

اعلم ايها القارىء الكريم، ان الله خلق الانسان، مثالاً له وعلى احسن تقويم فخلقه على فطرة سليمة وعقل مستقيم وجعل فيه ملكات فاضلة، من ملكة العلم والقدرة والشجاعة والكرم والحياء، ومّده بكل فضيلة، وجعله اكمل الموجودات على هذه الكرة، وجعل له الارادة والاختيار، ان يسير على طريق الحق، او على طريق الباطل، قال تعالى: «وهديناه السبيل اما شاكراً واما كفورا»[1].

لم يجبره على اعماله، ولم يفوضه على جميع الأمور بل حدود بحدود السعادة، واتم وجوده بالكمالات النفسية وبعث اليه الرسل والانبياء ليهدوه إلى الحق ويبعدوه عن الباطل فى كل عصر وجيل حتى اتم الله رسالته بسيد الانبياء ﷺ.

فالانسان إذا كان على فطرة مستقيمة وكمالات نفسية، وملكات قدسية، وهداية

١. الإنسان ٣/٧٦.

الانبياء وارشادهم ولم تتقدم في نفسه، غير هذه الجهات، كان سعيداً وخليفة الله في أرضه،، على قدر استعداد نفسه، وقابليته لقبول الفيض الالهي والخيرات.

وان الانسان، كما هو متصف بالكمالات النفسية، له صفات الرذائل والملكات المنحطة، من التكبر والحسد، وخبث الضمير والحرص وحب الثروة والجاه والاستبداد في الأمور وهؤلاء برغبتهم ان تكون مكانتهم فوق البشر، وان البشر تحت طوعهم وارادتهم، وان ملكات الفضيلة في قبال الملكات الرذيلة وغواية الشيطان وجنوده، في قبال هداية الرسل والانبياء ففي نفس الانسان التقابل، في الصفات والاستعداد، من ملكات الفضيلة والرذيلة، وتقابل الارشاد، من الانبياء والأولياء، وتوجيهه إلى الحق، وارشاد الشيطان وجنوده إلى المعاصي والموبقات.

ومع هذا كله، فقد فطره الله على الفطرة الحسنة، وقواه بالعقل، فان لم تأخذه الرغبات، ولم تستول عليه الشهوات، وسار في حياته، على طبق العقل والفطرة السليمة، كان متقياً ووليا ونبياً.

وان اخذته الشهوات والميول، وحب الرياسة والسيطرة، وحب الغلبة على النفوس والمادة توجهت نفسه إلى الكفر والمعاصي على حسب استعدادها وقابليتها.

وبعض تراه من هؤلاء، جاحداً لكل شيء من التوحيد والرسالة، وبعثة الانبياء، والاعمال الصالحة فيقاوم الحق ويعانده، وان كان عارفاً به، وبعضهم يجحد الواقع وينكره، ولكن لا بتلك المثابة من الجحود، فهو ضال عن الحق، وان لم يكن غاضباً عليه.

وهناك صنف يراوغ، ويخادع، لان نفسيته، لم تكن بتلك الصلابة على الجحود، ولم تكن قانعة بالحقائق، وهو يراوغ ويخادع، ويستهزء بالمؤمنين ويمكر بهم، ويطلب منهم المنافع والجاه، وتنقضي حياته بالرياء، والاكاذيب، وربما يفعل ما هو اشد من الكفار الجاحدين.

ولذا جاء الذم بهم باكثر مما جاء بالكفار المعاندين، وكل من هذه الاصناف اخذتهم الملكات الرديئة، ودفعتهم إلى الحضيض، فلا يشعرون باوج الكمال.

ولما رسخت تلك الملكات في نفوسهم، ختم على قلوبهم بخاتم النفاق.

وان النفاق والرياء، لا يختص بالكفار فقد يكون المسلم الموحد، منافقاً ومرائياً، من غير اختصاص، بطبقة دون طبقة، فيسري في طبقة الكسبة والزارعين، وطبقة العاملين

وذوي المعارف، وطبقة الوعاظ والعلماء فيأخذ بالظواهر الإسلامية والمشاعر الدينية، وسيلة لما استحكمت به نفسه من الملكات الرديئة، من حب الجاه والسيطرة، والتحكم على النفوس، فانه مرض وخيم واسقام إذا تحكمت في النفوس، فلا رادع منها الا الله تعالى.

وان اتجاه الانسان للمعاصي تختلف، بحسب استعداد نفسه، كحب الشباب للشهوات، من حب النساء، والمغازلة معهن، وحب بعضهم للثروة والحرص على المادة من أي طريق كان، من طريق حلال أو محرم، ومن بعضهم حب المال والسمعة وتملك النفوس.

وقد عبر صدر المتألهين، في بعض عباراته: «ان الشاب يرغب في الشهوات والزينة، ويرغب الكهول في المادة والمال، ويرغب الشيوخ في السيطرة والنفوذ والحكومة على النفوس، وان كان ما ذكره ليس قاعدة كلية، لان انواع المعاصي تتبع قابليات النفوس» واستعدادها فقد يضحي شخص بآلاف النفوس، لرياسته وحكومته، وربما شخص يرتكب الجرائم لتحصيل المادة، أو للشهوات النفسية، وما ذكرناه جار في جميع الطبقات من البشر، فقد يأخذ الانسان الدين، وسيلة إلى مقاصده، ويرائي باعماله.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة، ان الله يعبر عن المرائي بالكافر، وخذ ثوابك ممن عملت له، ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق، لما يحب ويرضى.

الاتجاه من ناحية النبي و آله عليهم السلام و أصحابه

قد ورد كثيراً وتواترت الاخبار والاحاديث، من كتب الحديث كالكافي وغيره، من كتب الصدوق، ان للكفر مراتب.

وورد في معنى الرياء، وانه كفر بالله العظيم، وينادي في يوم القيمة، يا كافر يا مشرك، وهو أعم في العقائد أو الاعمال.

وقد ورد في الكافي، عن الزبيري، عن الصادق عليه السلام قال قلت اخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل، قال الكفر في كتاب الله على وجوه فمنها كفر الجحود، والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة وكفر النعم، وقد تواترت الاخبار باطلاق الكفر على من ترك الواجبات.

وقد تعرضت الاخبار إلى تعدد مراتب الكفر، ويأتي منا التعرض للكفر في موارده

من الآيات.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

ان القرآن تعرض فى كثير من السور، إلى حالات الكفار، من العقائد والعمل والجحود والضلال، ومخالفة الأنبياء، وان للكفر مراتب كما ان للإيمان مراتب وان أشد الكفر والجحود بانكار الله تعالى او انكار صفاته أو جحود العبادة وانكار اوامره ورسله كما سيأتي بيان ذلك في موارده.

«ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين»[١] ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً، واولئك هم اصحاب النارهم فيها خالدون[٢] ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزاً حكيماً[٣] لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله إلا اله واحد وان ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم[٤].

كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوي شديد العقاب، إلىغير ذلك مما تعرض القرآن الكريم للكفار وحالاتهم وجحودهم، وارتكابهم للجرائم، في كثير من السور، كما في سورة الرعد، وسورة الحجر، وسورة المؤمنون، وسورة الجاثية.

وقد تكرر ذكر النفاق في سورة المنافقين، قال تعالى: «ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، وإذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة، يحسبون كل صيحةً عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون»[٥]، إلى غير ذلك من آيات السور.

الاعجاز (الآية ٢١ - ٢٥)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

١. البقرة ١٦١.
٢. آل عمران ١١٦.
٣. النساء ٥٦.
٤. المائدة آية ٧٣.
٥. المنافقون ٣ - ٤.

الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

ان الخطاب لعموم البشرية من الموجودين والمعدومين والكفار والمسلمين ولا اختصاص في الخطاب بالموجودين، لان محاورات القرآن واتجاهاته، على نحو القضايا العامة الكلية، لانه كتاب تعليم للبشرية، فلا يختص بزمان دون زمان، ولا بقوم دون قوم آخرين ولو كانت خطاباته على نحو الاتجاهات الشخصية ما بلغ القرآن هذه المكانة في النفوس.

«اعبدوا ربكم» اذ لا عبادة الا اليه، وقد خلقكم وخلق من قبلكم، وتعرفون انكم صرف التعلق بتلك الذات المقدسة، وعين الربط بذلك الوجود غير المتناهي وانه قائم على المخلوقين قيام العلة التامة على المعلول، فلا تصح العبادة الا له.

ثم بيّن بعض النِّعم، ان جعل لكم الأرض موطناً وفراشاً، والسماء بناء، فتنتفعون بها، من الهواء والكواكب وما فيها من منافع، وانزل من السماء ماء، فاخرج بسبب الماء كثيراً من الثمرات، وهي رزق لكم، فلا تجعلو الله امثالاً، فان معرفة الموجد المكون، فطرية في عقول البشر، جبلية في نفوس المخلوقين، ولو احاط الناس بالمعرفة اجمالاً، لكفى في التوحيد، ثم اراد الله ان يعرّف الناس مقام النبوة، ومقام من انزل عليه القرآن، فقال: «ان كنتم في ريب»، ولا ينبغي الريب في هذا الكتاب المنّزل على عبدنا، «فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءَكم ان كنتم صادقين».

وقد تكرر منه تعالى، بقوله: «قل لأن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[١] وقوله «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات»[٢] ولو كانت من السور الصغار، كالكوثر والعصر وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها

١. الإسراء ١٧/٨٨.
٢. يونس ٣٨ / ١٠.

الناس والحجارة اعدت للكافرين... وبشر المؤمنين الذين آمنوا وعملو الصالحات ان لهم جنات الخ.

رأي الفلاسفة في الجنة والنار

اعلم ان للفلاسفة رأى، وهو ان الجنة والنار، معنويان وروحيان، وان النعيم والعقاب روحيان، الا ان الآيات الكريمة، والسنة النبوية، جاءت على نحو التواتر، انهما ليسا بروحيين بل ماديين.

فان من راجع الآيات من قوله تعالى «جنات تجري من تحتها الانهار»[١]، «وحور عين كامثال اللؤلؤ المكنون»[٢]، «وان فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين»[٣]، إلى غير ذلك من الآيات والروايات، وجدها صريحة بان الجنة والنار، من الأمورالمادية، وليس الثواب والعقاب روحياً.

وربما حاولوا توجيه بعض الآيات، على مقاصدهم، كقوله: «تجزون ما كنتم تعملون»[٤]، «وقودها الناس والحجارة»[٥]، «وكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد»[٦]، إلى غير ذلك، مما يقرب ما حرروه.

ومن الواضح، ان الذي جاءت به الانبياء والرسل، من حالات الجنة والنار، ليس الجنة والنار، المعنويتين، من الاكل المعنوي واللذة المعنوية وحورية خيالية، ولم يفهم هذا المعنى، من جميع ادوار الانبياء والمرسلين حتى من النبي ﷺ ومن بعده من جميع ادوار الانبياء والمرسلين حتى من النبي ﷺ ومن بعده من جميع طبقات المسلمين، وادوارهم وعصورهم.

وما ذكره فلاسفة اليونان، لم يظهر الا في اوساط الدولة العباسية.

فأخذ بعض فلاسفة المسلمين، آراء فلاسفة اليونان، واعتبروها وحياً منزلاً وانها غاية الفكر البشري ونهاية الوصول إلى المعارف الإلهية.

وقد اوضحنا في (المثل الاعلى) ان الفلسفة اليونانية، لم تتم الا بما رتبه علماء الاسلام من الشيخ الرئيس والمحقق الطوسي، وصدر المتألهين وغيرهم، فجعلوها فنأذا

---

١. الفتح ٤٨/١٧.
٢. الواقعة ٢٢ /٥٦.
٣. الزخرف ٤٣/٧١.
٤. الجاثية ٤٥/٢٢.
٥. البقرة ٢/٢٤.
٦. ق ٥٠/٢٢.

قواعد، ومباحث ذات براهين[١].

والا فمن نظر بعين الواقع إلى الفلسفة الاغريقية يجد الكثير منها خيالات لا واقع لها، ومباحث متفرقة، لا ارتباط لبعضها ببعض وسيأتي منا في هذا الكتاب ان شاء الله بيان ما ذكروه ونقضه وردّه.

ومن الغريب ما ذهب اليه بعض المفسرين من اعتناق هذا المذهب وتأويل كثير من الآيات على مسلك فلاسفة اليونان ومن راجع عصر الرسول صلى الله عليه وآله واهل البيت عليهم السلام ومن صاحبهم لا يرى لما ذكره اليونانيون اشعاراً بذلك فضلا على انها عقائد مذهبية والا تعين على الرسول صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام ان يفهّموا الناس هذه العقيدة والمعاني.

وقد تحدى النبي صلى الله عليه وآله الملل والاديان بعلم القرآن فقال «ونزلنا عليك القرآن تبيانا لكل شيء»[٢]، تحداهم بانظمته وتاريخه، فتاريخه غير العهدين وقصصه غير قصص التوراة والانجيل، تحداهم بالاخبار بالغيب، «تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل»[٣]، وقوله لرادّك إلى معاد لتدخلن المسجد الحرام»[٤].

وقد تكرر في القرآن الكريم من كشف العلم في العصر الحاضر امور غريبة إلى ذلك من الآيات الدالة على تقبلها الامة الاسلامية من الانقلاب بعد موت الرسول صلى الله عليه وآله.

وعندما تنظر إلى هذه المعجزة الخالدة التى لا تشبهها فكرة مخلوق ولا دراسة فن تجدها قد جاءت على يد شخص قد تربّى في عصر لا معارف فيه وجيل لا يعرف الا الفتك والحرب وبشرية ناقصة تبتني على البغضاء والشحناء والتشاجر والخلاف والهمجية التى تستنكرها الفطرة ويتباعد عنها العقل السليم.

في هذه الظروف جاء القرآن الكريم لرجل منهم قد نشأ فيما بينهم ونظر إلى عاداتهم فجاء بمنتهى الاعجاز والتشريع والحكم ومنتهى العدالة والتكامل ليخرج ابناء تلك العصور وما بعدها من الهوية المظلمة إلى السعادة ومن الانحطاط إلى الكمال.

معجزة في ذاته ومعجزة بما اتى به من القرآن وان كان ظواهر الآيات ومحكماتها تعطي الاعجاز للقرآن الكريم وانها هي النظرة المقصودة وان كان بنظرة اخرى تعطى من اتى بهذا القرآن واستدل به انه معجزة في نبوته وصدقه وانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

---

١. المثل الأعلى في الفلسفة - موسوعة الخاقانية ج٢ ص٩ - ١٠ - الطبعة الجديدة.
٢. النّحل ١٦/٨٩.
٣. هود ١١/٤٩.
٤. القصص ٢٨/٨٥.

خلفه وكما لا منافاة في دلالة الآيات على الاعجاز للقرآن كذلك الاعجاز في نبوته وصدق دعواه.

وان كثيراً من الآيات مما تدل على اعجاز القرآن واعجاز النبي ﷺ والتلازم بينهما.

ومن الواضح ان من جاء بهذه المعجزة وهو القرآن الكريم فوجوده معجزة للبشرية فالقرآن معجزة في التشريع والرسول الاعظم ﷺ معجزة في التكوين كما بيّناه.

وعند ما اعجز الله عباده بان لا يأتون بمثل القرآن هددهم باعظم تهديد وبأشد خطر، بقوله تعالى: «فان لم تفعلوا ولن تفعلوا»، لان الاعجاز من الله مما يعجز عنه البشر وان الاعجاز لا يقع بدون سبب فاتقوا النار وحافظوا على انفسكم من النار التي وقودها الناس، فالناس وقود النار وتوقد عليهم النار اذ هم في النار يسجرون انكم وما تعبدون من دون الله حطب جهنم.

ثم هناك مشهد آخر وهو مشهد النار التي تأكل الاحجار من الاصنام والاوثان مشهد قرن الانسان بالحجر، وكما ان الحجر تأكله النار كذلك الانسان بهذه المثابة وفيه تلميح ببقاء الانسان، معذباً ليس بميت ولا فان والفتَ الله نظر عباده إلى الخروج من عالم الجهل إلى عالم العلم والدراية.

وعندها ذكر حالة المؤمنين بقوله تعالى: «وبشر الذين آمنوا...»، بشرهم بأحسن ما يتصورونه في عقولهم من الثواب والجزاء بيوم الاخرة من نعيم وجنان وحور عين وثمار لم تخطر بعقولهم إلا المشابهة في الاسم بالدنيا والآخرة وليست تلك الفواكه تشابه فواكه الدنيا إلا في التسمية، فانما يلاقيه المؤمن من جنان ومآكل وثمرات مما لا يعرفها العبد في دار الدنيا وقد جعلت الآيتان التقابل بين حالات المؤمن من النعيم الذي لا يخطر ببالهم وحالات النار من ذلك التأثير العظيم في الحجارة، كل ذلك تخويفاً للكافرين وتشويقاً للمؤمنين.

الاتجاه الفلسفي

ان الله تبارك وتعالى: بعد ما ذكر اصناف البشر خاطبهم عامة، من الكفار والمسلمين والحاضرين، ومن يوجد، اعبدوا الله تعالى، لان الاسلام حقيقة قام على دعائم اربعة، التوحيد، توحيد الذات وتوحيد الصفات الثبوتية، وتوحيد الصفات الفعلية من كونه خالقاً

ورازقاً وتوحيد العبادة بان لا توجه ولا رقية الا اليه ولا يصح الخضوع لعباده الاله وان العبد لابد ان يقوم بوظائف العبودية وهذا مفترق الاسلام والكفار.

فان الكثير من الكفار لم ينكروا الله ولم ينكروا صفاته وفعله بل هو الواحد عندهم وانما جعلوا له الشريك في العبادة من الاصنام أو الملائكة او النار كما يراها المجوس فهم غير موحدين في مقام العبادة وان كانوا موحدين في مقام الذات والصفات.

ولذا صرحت بعض الآيات بما بيّناه في عبادة الاصنام من قول جاهلية العرب يقربونا إلى الله زلفى، فاعتقادهم ان عبادة الاصنام وهياكل الملائكة تقربهم إلى الله وتدنيهم منه تعالى ومن اعجب الأمور ما نقل عن ارسطو رئيس الفلاسفة من المشائين انه يذهب إلى ان الله فوق العبادة وأجلّ منها وانما يعبد من كان وسيلة له.

ومن الواضح ان النفوس إذالم تتوجه في مقام الخضوع والعبادة له والا كان الهاً والعياذ بالله لا تترتب عليه الآثار وان العباد لا يخضعون له ولا ينقادون.

وكم لفلاسفة اليونان من اخطاء لو جمعها وتتبعها الانسان لكانت، كتاباً كبيراً.

ومن المؤسف جدا ان بعض الناس من المسلمين اخذت عقولهم الفلسفة اليونانية فاصبحوا يقلدونهم تقليد اعمى وكم لهم من عقائد في الكواكب والنجوم من انها مشعرة ومريدة وان اشعارها فوق اشعار البشر وارادته.

وقد اظهر الزمن خطأهم وانها اجسام جامدة وان الله فوق ما يعقلون وفوق ما رتبوه من فلسفتهم المتفرقة وجذور حكمتهم المختلفة، يقول الله لعباده ان لا عبادة الا له.

فان من الواضح ان الخضوع الحقيقي والتذلل الكامل لا يكون الا بأمرين.

اولا: ان يكون من خضع له هو المولى الحقيقي وهو الله تعالى.

وثانياً: ان يكون العمل خضوعياً اذ لا يستحق العبادة الحقيقية الا المولى الحقيقي واطلاق العبادة من الكفار والمشركين فهو ضرب من التجوز اذ لا معبود سواه ولا يصح التذلل الحقيقي إلا له.

وأما بالقياس إلى الانبياء والاولياء فهو من باب التعظيم والاحترام اذ حقيقة العبادة ارتباط العبد بالله في مقام العمل من اظهار عبوديته.

واما الخضوع للانبياء والاولياء والاباء والحكام فليس هذا الخضوع من العبادة ولا من مراتبها فانه مجرد تعظيم واحترام.

وقد تقدم منا في الفاتحة ان الله اكتفى من خلقه في العبادة على مقدار استعداد المكلفين وقابليات وجودهم وإلا فالعبادة على الوجه الاكمل التام لا تتحقق الا من الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله عليهم السلام والانبياء والرسل.

فالعبادة ان امعنت النظر فيها وجدتها وجوداً رابطاً في مقام العمل كما ان وجود الانسان وجود رابط، فوجود الانسان وحقيقته لوجود الحق عين الربط بالله ووجود العبادة عين كون فعله مربوطاً به تعالى فالمكلف إذا جاء بالعبادة فكأنه قال ان وجودي فانٍ في وجوده وفعلي فانٍ في ذاته وتختلف العبادة بحسب قابليات المكلفين واستعدادهم وان كان الشارع المقدس قد اكتفى من العبيد بالعبادة الذكرية تفضلا منه ورحمة واسأله التوفيق.

الاتجاه من ناحية النبي وأهل بيته وآله عليهم السلام وأصحابه

قال علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى: يا ايها الناس، يريد جميع المكلفين من ولد آدم اعبدوا ربكم واطيعوه من حيث امركم بان تعتقدوا ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا شبيه له ولا مثل عدل لا يجور، جواد لا يبخل، حليم لا يعجل، حكيم لا يهمل وان محمداً عبده ورسوله وآله الطيبين وبأن آل محمد افضل آل النبيين، الذي خلقكم، اعبدوا الذي خلقكم من نطفة من ماء مهين فجعله في قرار مكين إلى قدر معلوم، اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم اي بتعظيم محمد صلى الله عليه وآله والذي خلقكم نسماً وسواكم من بعد ذلك وصوركم احسن صورة والذين من قبلكم من سائر اصناف الناس لعلكم تتقون[1].

عن صدوق الامة عن علي بن الحسين عليه السلام في قول الله تعالى: «الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء» قال: جعلها ملائمة لطباعكم، موافقة لاجسامكم ولم يجعلها شديدة الحما والحرارة فتحرقكم ولا شديدة البرد فتجمدكم ولا شديدة طيب الريح فتصعدكم ولا شديدة النتن فتعطبكم ولا شديدة اللين كالماء فتغرقكم ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم وابنيتكم وقبور موتاكم.

ومضمون هذا الحديث ان جعل المنافع العامة لكم في حياتكم وموتكم وجعل السماء سقفاً محفوظاً في توازنه لكم وجعل المطر في منافعكم من غير ان يكون انتقاماً عليكم فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلو الله انداداً، امثالاً واشباهاً من الاصنام التي

١. البرهان في تفسير القرآن ج ١ ص٦٦.

لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر[١].

القرآن يفسر بعضه بعضاً

ان القرآن الكريم حث على العبادة بآيات كثيرة وبيان مراتبها والخلوص فيها وان لا عبادة الا لله وان كمال العبد وحريته انما هو بالعبادة ليكون مثالاً لله في أرضه وخليفته في عباده ولا ينال الفوز الا بالطاعة لله سبحانه وتعالى.

ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً[٢] فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم[٣] صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون[٤] الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتو الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور[٥] ان اكرمكم عند الله اتقيكم[٦] إلى غير ذلك مما تكثرت به الآيات الكريمة.

الاعجاز (آية ٢٦ - ٢٩)

إِنَّ اللّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمْ الخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

ثم اخذ القرآن الكريم، في ضرب مثل للعباد، وان الله لا يستحي من ضرب الامثال وان استحقرت في اذهان العموم من البشر.

قال الصادق عليه السلام لاحياء لمن لا إيمان له وقال امير المؤمنين عليه السلام: قرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان والفرص تمر مر السحاب، وقديماً قيل لاحياء في الدين، وان الاستحياء من الله، هو ترك الشيء، كما ورد ان الله يستحي من الشيخ الكبير اي يترك عذابه وعقابه، اذ

---

١. البرهان في تفسير القرآن ج ١ ص٦٧.
٢. سورة الاحزاب آية ٧١.
٣. سورة البقرة آية ١٣٧.
٤. سورة البقرة آية ١٣٨.
٥. سورة الحج آية ٤١.
٦. سورة الحجرات آية ١٣.

الحكمة طبق الواقع، لا تختلف ولا تتخلف، وان الامثال اسلوب من اساليب البيان، وان التصوير العقلي، هو ادخل في النفوس والقلوب واحكم في اختبار البشر وامتحان العقول، بالتجربة والاختبار وان الله رب الصغير والكبير، والبعرة والبعير.

فالذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم، واما الكافرون فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا.

فالمثل من طرق الاختبار، وسبل التجربة للنفوس المنحرفة، ومن تعلقت نفسه بالله، ووثقت نفسه بما عند الله، فيصل به المثل إلى اعلى مراتب الكمال، وعندها اتخذت الآية الكريمة، فيمن ضل عن السبيل، لانهم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، هؤلاء ينقضون كل عهد وميثاق، وكل قرار بينهم وبين الله تعالى، ويقطعون ما امر الله به ان يوصل، من صلة الارحام وكرامة الجار، وحق المؤمنين فكل امر لله عندهم مقطوع، فجبلتهم لا تستقيم على عهد ولا تتمسك بميثاق.

وهؤلاء على عكس الفرقة الصالحة الواثقون بالله، الواصلون للرحم والمصلحون للمجتمع، وإذا لم يقم المجتمع بالروابط الدينية، وقطع ما امر الله به ان يوصل، وقع الفساد في الأرض، وتفككت عرى الحياة، وعميت النفوس وانفصمت عرى الاخاء.

ثم اخذ الميثاق بالاستنكار مقرونا بالبرهان وكيف تكفرن بالله وكنتم امواتاً لا حراك لكم، ولا حس ولا حياة، ثم اجتباكم بأن اوجد من اللاشيء شيئاً، ثم يميتكم بعد الحياة، وتتحقق الاماتة بعد الحياة، بخلاف الموت، فانه قبل الحياة ثم يحييكم ليوم القيامة.

فللانسان موتتان وحياتان، وله موت سابق على الحياة وعدم قد سبق الوجود والموتتان الاخيرتان، هما العدمان اللذان يطرآن على الوجود وهذه حالة البشر وهي في الاصناف الثلاثة، من الايمان والكفر والنفاق، وهي حالة الكتاب ا لكريم من الايمان. وهذه نشأة البشر بعد الموت، حياة ويعقبها موت، وحياة، ويتحقق الموت في واقعه.

وسيأتي منا، رد الطبيعيين في الآيات الاتية وكلمات علماء الغرب والشرق حول توحيد الذات والصفات وان من كان في عالم الطبيعة، لا يمكنه الاطلاع على ما وراءه، اذ معرفة الذات المقدسة وصفاتها، من باب احاطة العالم الضيق النطاق بما لا نهاية له، وكيف يحيط الوجود الرابط والمعنى الحرفي بالوجود الحقيقي، والمعنى الاسمى، وان الله قد الزم الناس بانهم، كيف يكفرون به، وكانوا امواتاً فاحياهم حياة غريبة، وان كل نفس من الانسان

وضربة من ضربات قلبه، دالة على الموجد الخالق المدبر كما ورد في الحديث، من عرف نفسه، فقد عرف ربه، فمن عرف كيف خلق، وكيف تركب، من عالم الطبيعة، ومن عالم العقل المجرد، ومن عالم النفس التي لها تعلق بالمادة، ولها جهة تجرد، فكيف ينكر الله، فان الانسان إذا عرف نفسه عرف ربه، وكيف يتخلف المعلول عن العلة، وكيف لا تعرف العلة من ناحية المعلول، ولو اجمالاً.

وان الدلائل على ذات الله تعالى بمقدار انفاس الخلائق، وحركات الطبائع والافلاك، وادراك العقول وعلى كل عدد رملة رملة، وقطرة قطرة من السماء، وكل جاذبية واشراق وظلام وحركات، كلها دلائل على ذاته المقدسة.

واما ما تطرقت له الآية الشريفة، من خلق السموات السبع، فسيأتي تفسيرها بمجال اوسع من هذا.

الاتجاه الفلسفي

قد عرفت على اضواء الآية السابقة، من قوله: «يا ايها الناس اعبدوا ربكم»، ان الخطاب لجميع المكلفين في العصور والاجيال وان الخطاب هنا لا يصح توجهه إلى نوع خاص.

وبعد ذلك ضرب الله مثلاً لعباده، وان المثال وان صغر في سمع المخاطب ولكن يتضمن معان عالية، وان ضرب الامثال من الله لا يختص بصورة من الصور، فلا استصغار للمثال في البعوضة، بل لما يقصد من ضرب الامثال، من المعاني الواسعة النطاق، وان الانسان مختار في افعاله.

وهنا نشير إلى بعض جهات هذا البحث، من ان الفاعل، قد يكون طبيعيا، وقد يكون الفاعل قسرياً وقد يكون على وجه الجبر وسلب الاختيار، فعالم الطبيعة يصدر المعلول منها على طبق سير الطبيعة كصحة الجسم وحرارة النار واشراق الشمس، ونحو ذلك، وقد يكون قسريا، كما لو دفع شخص شخصاً آخر إلى العلو، فان مقتضى الجسم هو الهبوط دون العلو، وقد يكون الفاعل جبرياً كما لو الزم شخص آخر على فعل قهراً، وقد تكثرت الآيات بعدم الجبر وان الله ليس بظلام للعبيد، وان الافعال موكولة إلى ارادة الانسان باختياره وانه لا جبر ولا تفويض ولكن امر بين امرين وان كل فعل اختياري قائم بالارادة الناشئة عن الشوق

والميل والتصديق بفائدة الشيء وتصوره قبل التصديق.

فاذا تمت مبادىء الارادة، توجهت ارادة المكلف إلى العمل، فهو يفعل بارادته واختياره، لان كل موجود حيث انه واقع في دائرة الامكان، وليس بواجب وان كل وجود امكاني يحتاج إلى علة محدثة ومبقية، حيث ان حقيقة الامكان هو اللاإقتضاء من حيث الوجود والعدم، وعند وجود الشيء، بارادة المكلف، يتلون العمل بصبغتين، بصبغة من ناحية العبد بتعلق ارادته المنبعثة بمبادئها من التصديق بفائدة الشيء ومفسدته، فهو يقدم على الفعل بارادته، فبعد ان كان الفعل ممكناً اصبح واجباً بارادة المكلف.

فمن حيث ارادته واختياره نسب الوجود اليه وبصبغة اخرى من حيث انه وجود وان وجود الانسان لم يكن باختيار نفسه وان لا مفيض للوجود ولا واقعية للايجاد الا من الله كان الفعل منسوباً إلى الله، فمن حيث امكانه وارادة المكلف له كان فعلا من افعاله ومنسوباً اليه، ومن حيث ان الانسان قد اوجده الله، واوجد فعله، فالعمل منسوب إلى الله.

فالفعل ذو حيثيتين، فمن حيث ايجاد المعدوم، كان فعل الله، ومن حيث تعلق ارادة المكلف به، كان فعل العبد وتحت اختياره، نظير وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى.

فالفعل الاختياري مما هو من ضروري العقل، وإذ لا حاجة لله في قهر العباد على مصالحهم ومفاسدهم، فأي موجب للجبر والعياذ بالله، فيقع الفعل من ناحية تحت الاختيار، ومن ناحية اخرى ليس تحت اختياره.

ومن اضواء هذا البحث تعرف، ان لا تفويض للعبد كما ذهب اليه المفوضة اذ لا ايجاد ولا وجود الا من قبل الله ولا ان العبد مجبور على عمله، كما هو الظاهر من مذهب الاشاعرة بأن ما تعلقت به ارادة الله من فعل المكلفين، هو ان يفعل بارادته تعالى، وليس للعبيد ارادة، ولكن حيث ان الله هو الغني المطلق، ويريد ان يرشدهم إلى المصالح وترك المفاسد فلا تتعلق ارادته تعالى بالعمل على كل وجه، وانما تتعلق ارادته بما تعلقت به ارادة المكلفين، فيوجد الله الفعل على طبق ارادتهم وهذا مما ينافي الجبر ويؤكد الاختيار، وان ارادته تعالى، وان كانت ازلية، ولا يسبقها عدم ولكن لا يوجب ازليتها جبر العبد، بل جاءت على طبق ارادة العبد، وعلى طبق المصلحة في تكليف العباد.

وقد اشربت هذا المسالة بباب القضاء والقدر كما سيأتي بيانه.

وقد اوضح الفلاسفة، البحث عن الفاعل الاختياري والطبيعي والقسر والفرق بين

الاختياري وبين الطبيعي والقسر في غاية الوضوح، ولم يخطر في نظر الفلسفيين تعنون المسألة في الجبر، بل اخذوها من واضحات مباحث الفلسفة من ان الفاعل قد يكون طبيعياً وقسرياً، وقد يكون اختيارياً، وان ضرورة العقل والوجدان حاكمة بالاختيار، وان الحكم بالاختيار من الاوليات الاولية، وانا قد تركنا التعرض للقضاء والقدر هنا، وان ذكره بعض المفسرين في هذا المقام، لما سيأتي منا تفصيله في المقام المناسب له باكثر مما يورد هنا في هذه الآيات المكرمة.

الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام واصحابه

ابو علي الطبرسي قال روى عن الصادق عليه السلام انه قال انما ضرب الله المثل بالبعوضة لأن البعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره وزيادة عضوين آخرين، فاراد سبحانه ان ينّبه بذلك المؤمنين على لطف خلقه وعجيب صنعته قال الصادق عليه السلام ان هذا القول من الله عز وجل رد على من زعم ان الله تبارك وتعالى يضل العباد ثم يعذبهم على ضلالتهم فقال عز وجل، ان الله لا يستحي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها[١].

وفي المجمع عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى ان الله لا يستحي (الآية) هذا القول من الله رد على من زعم ان الله تبارك وتعالى يضل العباد ثم يعذبهم على ضلالتهم - الحديث.

وإذا نظرت إلى الامثال المضروبة في القرآن الكريم وإلى ما ضرب من الامثال في الانجيل وغيره، لوجدت الفرق الواضح في اعجاز القرآن وعدم انتظامها في الانجيل والتوراة وغيرها بما لا يناسب المثل من الحق تعالى.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون[٢] ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون[٣].

ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا[٤].

---

١. تفسير البرهان ج ١ ص ٧٣.
٢. الزمر آية ٢٧.
٣. ابراهيم آية ٢٥.
٤. الفرقان آية ٣٣.

ضرب الله مثلا عبدا مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون[١].

وضرب الله مثلا رجلين احدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كَلّ على مولاه أينما يوجّهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم[٢].

الاعجاز (الآية ٣٠ - ٣٣)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله سبحانه وتعالى، ليس قولاً لفظياً، بل هو ايحاء والهام لنفوس الملائكة بجعل آدم عليه السلام وايجاده خليفة، ايجاداً تكوينياً والهاماً له تشريعياً.

ولما علم الملائكة ان من لوازم طبيعة البشر الشهوة والسبعية والغضب، سألوا الله تعالى سوآل استفهام وليس الخطاب منهم استنكاراً لايجاد الخليفة في الأرض، وعند ما علموا انهم لم يحيطوا بما احاط به آدم عليه السلام اذ عنت نفوسهم للحكمة التى اوجبت ان يكون آدم خليفة في الأرض، وان كمال الموجودات بالعلم والترقي بالاطلاع على المعلومات، وظهر عليه السلام لهم انهم لم يحيطوا بالكائنات وخصوصياتها.

وان قصة آدم عليه السلام ليست قصة خيالية، واخلاقية كما توهمه بعض المفسرين، وانما هي حقيقة واقعية وان آدم عليه السلام في اوائل خلقته يعلم ان مقره دار البلاء والتكليف، وان مقره في دار التكليف، وهبوطه إلى الدنيا مما تقتضيه المصلحة النوعية وكان يعلم ان بقاءه في الجنة ليس على طول الحياة، وانما يبقى فيها زمناً يسيراً او طويلاً ثم يهبط إلى دار التكليف.

وان آدم عليه السلام ليختار المصلحة النوعية على المصلحة الشخصية، من بقائه في الجنة ونعيمها رضاء بقضاء الله ورعاية المصلحة العامة، واعلمه الله تعالى بقضائه على طبق المصلحة النوعية، فالنهي عن الشجرة ارشادي لحفظ المصلحة الشخصية والقضاء تكويني

١. النحل آية ٧٥. ٢. النحل آية ٧٦.

حفظا للمصلحة النوعية، وان آدم عليه السلام ليوطن نفسه على دار البلاء والامتحان، ولكن آدم فوجيء بخروجه من الجنة، بعد ان كان راجياً ان ينعم بثمار الجنة زمناً واعواماً ولما علم الملائكة بان البشر مورد التنازع والخلاف والشهوات والغضب، او فهموا ذلك لما وجده من العوالم السابقة، على وجه هذه الكرة الارضية، وهذا الكوكب من مقتضياته الشهوات والرغبات والميول، استفهموا من الواجب تعالى في وجود حقيقة الانسان فافهمهم تعالى، ان شرف الموجود بشرف العلم، والمعلوم.

ولقد فهمهم آدم عليه السلام مسميات الاشياء واسماءها بما هي طريق للمسميات، وخواص الموجودات وآثارها نظير السالك العارف في سيره من الخلق إلى الخلق، وعند ذلك انكشفت لهم حقيقة الامر، ان آدم عليه السلام ومن كان من خلفاء الأرض، لقوله ثم جعلناكم خلائف في الأرض.

ان خلافة الأرض، وان استلزمت شروراً الا انها شرور بالتبع، والا فالموجود هو خير محض، وان خلافة الانبياء والرسل هو الخير الذي لا يعتريه باطل، والنور الذي لا تمازجه ظلمة، وقد تشير الاحاديث إلى هذا المعنى.

ان حديث آدم عليه السلام وقصته قد تكررت في القرآن الكريم، في الاعراف وفي طه وغيرها وان الله تعالى قد اخذ الميثاق على آدم عليه السلام ميثاق التوحيد والعبودية والامتثال لما امر به تعالى، من ان لا يركن للشيطان، وقوله وخداعه، فالميثاق هو الامر الكلي ا لجامع للعقيدة والعمل والتجنب عن الخطأ وليس الميثاق مخصوصاً بعدم الركون إلى الجنة، او الاكل من الشجرة.

فان الانسان إذا عاهد الله والتزم على طبق العقيدة والعمل بافعاله واقواله، فان من لوازمه ان لا يطيع الشيطان ولا ينخدع بوسوسته.

وان اول تخلف للشيطان، هو عدم سجوده لله تكريماً لادم عليه السلام وليس المقصود السجود لادم عليه السلام فان العبادة لله تعالى، وان الله نبه آدم وحواء عليهما السلام انه عدولهما ومع ذلك كله، فقد توجه ابليس إلى خداع آدم عليه السلام وحواء بالقسم وانه يدلهما على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأخذا يأكلان من الشجرة وبدت لهما سوآتهما، وغفل آدم عليه السلام عن الميثاق لخداع ابليس (لعنه الله) ولو تذكر الميثاق، لما وقع في اكل الشجرة.

وقد جرت قصة آدم عليه السلام بنفوذ القضاء والقدر من اكلهما للشجرة، وخداع ابليس

لهما، ومن الارشاد إلى نعيم الجنة والبقاء فيها، فقد جرى القضاء والقدر، وانتفع آدم عليه السلام بالارشاد إلى البقاء في الجنة، وهي المصلحة الشخصية، وان كان آدم عليه السلام يعلم ان هبوطه إلى الأرض لابد منه، لانه بالهبوط على الأرض وقيام الحجة بالتكاليف عليه، والعمل بما امر الله به، هو العبودية الحقيقية، فالعبودية والاخلاص والتفاني في ذات الحق والتجربة في العمل والاختيار، كل ذلك مما يوصل إلى ارفع المنازل والمقامات.

وان هذا هو مهمة آدم عليه السلام لا مهمته البقاء في الجنة التي لا يبقى فيها الا قليلاً، فان الملحوظ للانبياء هو في القرب اليه تعالى، ثم التفاني في ذاته، فان هذا هو الخلود والبقاء، ببقاء الله تعالى.

غايته ان آدم عليه السلام فوجيء بالخروج سريعاً، وهذا مما يوجب القلق والاضطراب له، والتخلص بالتوبة من هذا العمل، الذي غره به ابليس.

ان حقيقة التوبة، هي الرجوع إلى الله، وليست معناها الرجوع عن الذنب وان الله تائب على عبده توبة ورجوعاً قبل العمل المخالف لامر الله تعالى او ارشاده وتوبة بعد رجوع العبد اليه، وان توبة العبد محفوظة بتوبتين من الله، ولا يتوب العبد الا بعد اليقظة، وهي مرحلة سابقة على التوبة.

لان الانسان في حالة المخالفة لامر الله تعالى إذا لم يكن عاصياً ومعانداً لامر الله كان صدور ذلك العمل على وجه الغفلة، وعدم التذكر لآيات الله تعالى، فاذا استيقظت نفسه، وتيقظ ضميره رجع إلى الله تعالى، وكان تائبا برجوعه، وان لم يصدر منه ذنب، ومخالفة الامر للمولى على وجه القصد والعناد، وان توبة آدم عليه السلام ليست توبة عن ذنب وجريمة، وانما هي توبة رجوع عما انتبه اليه من الارشاد ولذا كانت الآيات التي نبهت آدم عليه السلام انه ان اكل من الشجرة كان من الظالمين لنفسه، فان ظلم النفس، بشقاء الدنيا ومتاعبها ليس هو ظلم الفسق والكفر، الذى يوجب البعد من الله لعبده.

ان توبة آدم عليه السلام توبة السالكين، لا توبة المجرمين، ان توبة آدم عليه السلام توبة السلوك من قوس الهبوط إلى الأرض إلى قوس الصعود وهو محل الابرار والصفوة من عباده.

وهذه التوبة، قد تجلت لادم عليه السلام عند ما تلقى من ربه كلمات، كلمات توصله إلى اعلى مراتب الاوج، وهي كلمات المعرفة والعلم بحقائق الاشياء والتمكن من الوصول إلى ذات الحق بما لا يبلغه آدم عليه السلام لولا الوقوع بالخطاء وان الوقوع بالخطاء، هو الذي اوجب

لادم عليه السلام السير من الهبوط إلى قوس الصعود.

وان الاشتباه والخطاء بعد مما يجعل للمرء العزيمة والثبات، بان لا يقع بالخطاء بعد ذلك، لان الوقوع في الصواب بعد الخطاء اشد رسوخاً في النفس من ارتكاب الصواب من غير خطاء.

وان توبة آدم عليه السلام ليست توبة جريمة وذنب وانما هي مخالفة الارشاد، لما فيه من المصلحة الشخصية من نعم الجنة والبقاء فيها، فقد سار آدم عليه السلام على طبق الارشادات الالهية، وقد وقع آدم عليه السلام تحت قضاء وقدر، وتحت ارادة الله التكوينية فحالة آدم عليه السلام من بعض الحالات، ارشاد وتوجيه ومن بعض الجهات تكويني، وتحقيق للقضاء والقدر.

وانه لابد ان يهبط إلى الأرض لعمارة الأرض وما فيها، واخراج معادنها وان يكون الانسان خليفة الله في الأرض، وان يعرف الملائكة ان هناك موجود هو ارفع منهم واعلى قدراً، لتحمله قوى الطبيعة وعالم المجردات، وخروج الانبياء والرسل على وجه هذا الكوكب للهداية، وارتباط العبد بربه، وان استلزم من وجود البشر على هذه الأرض شروراً، ولكنها باختيار المكلفين، وان الشرور العرضية، لا تمنع وجود الفيض والرحمة الواسعة.

وقد وردت احاديث من اخبار الاحاد في ما لا يناسب مقام الملائكة وكيفية دخول ابليس للجنة ومحاورته لادم عليه السلام، لا يمكن قبول هذه الاحاديث لان الكثير منها موافقة لمذهب اليهود وطريقتهم.

وقد غفل بعض المفسرين، فأخذوا بالكثير منها، على انها لا تنطبق على ما بايدينا من شروط اعتبار الخبر وان الخبر الظني، او العلم العادي لا يفيد الا الظن، وتعتبر حجيته والتعبد به في الاحكام الشرعية، لا في العقائد وما بحكمها.

وان القصة تضمنت خلقة آدم عليه السلام وثانياً عدم معرفة الملائكة، لاسباب خلقته وثالثاً ان آدم عليه السلام ومن بعده خلفاء الأرض، ورابعاً ان بهم عمارة هذا الكوكب ومعرفة وجوده وانحاء وجوده، وخامساً السير من الهبوط إلىاوج الكمال، وسادساً ان قصة آدم عليه السلام تضمنت المصلحة النوعية، وان آدم عليه السلام لا بد ان يريدها، والمصلحة الشخصية في النعيم في الجنة، وسابعاً الوقوع في الصواب بعد الخطأ والرجوع إلى الله تعالى بعد الاشتباه.

وان التوبة منهاج السالكين، وطريقة المتقين وان قصة آدم عليه السلام تجربة لاولاده وطريقة على التحرز من الخطأ منها إلىالصواب وان قصة آدم عليه السلام وان كانت بظاهرها قصة

الا انها تعاليم واخلاق وفلسفة وموعظة لاولاده، على ممر العصور والاجيال.

شرعت السورة الكريمة في بدء خلقة الانسان من تكوين آدم وتكريمه بسجود الملائكة له، وعدم احاطة الملائكة بالواقع، وخداع ابليس لادم عليه السلام وعصيان آدم وحواء في اكل الشجرة، التي وقع النهي من الله عنها، بان لا تقرباها، وان قوماً من المفسرين جردوا هذه الآيات، واولوها انه ما المراد من آدم وابليس وتلقي آدم للكلمات، وكيف الخطاب كان للملائكة وما المراد من الشجرة، واين الجنة التي دخلها آدم عليه السلام وخرج منها، كل ذلك غيب من الغيوب، لا يقع عليه فهم الانسان وسر لا يكاد يفهمه البشر، ولا يعرف المقصود منها وحملوا هذه الآيات على التأويل، وارشاد النفس إلى الكمالات، فحملوا ابليس على النفس وخداعها وملكاتها من صفات الحيوان والبهائم والسباع والكلاب وقوة الواهمة من المكرو التلبيس، واستخدام هذه القوى من البهايم والسباع، الا ان الله منَّ على آدم عليه السلام كما منَّ عليه في اصل خلقته وتكريمه بسجود الملائكة له، بموهبة العقل والكمال واستخدامها، وموت قوة الواهمة والسبعية والحيوانية، وتنظيم قوى العقل لهذه القوى الفاضلة، وارشاداً إلى تكامل النفس، وانه ليس هناك أمر خارجي، ولا شجرة معينة أكل منها آدم عليه السلام، وليس هناك جنة دخلها ثم خرج منها.

بل هذه مراتب النفس وسيرها في سلوكها، وسيرها إلى الله سبحانه وتعالى، ومعرفة سير النفس وسلوكها في الاخلاق، فهذه حالات النفس واطوارها، فالنفس وان اذنبت وتنزلت، ولكن بعد النزول الترقي والسعادة.

وهناك جماعة من المفسرين حملوا اللفظ على ظاهره من غير تصرف ولا تأويل كما وقد تكرر هذا المضمون، في سور متعددة بمناسبات وحالات، وتأكد بحسب المناسبات في القرآن الكريم.

وهذا التكرار بعيد ان يحمل اللفظ، على شيطان النفس، وملكاتها الذميمة، مما يوجب الغرابة والاستبعاد، وكيف نحمل هذا الظهور المتأكد على الفلسفة اليونانية وقد جاء القرآن الكريم قبل ظهور الفلسفة الاغريقية في الاسلام، والظهورات اللفظية وان تفد الاطمئنان بمفادها اولا، الا انها إذاتكثرت الظهورات وتواترت وجاءت بكيفيات وحالات، فتخرج عن مفاد الظهور إلى عالم اليقين والجزم، فمثل قصة آدم عليه السلام قد وردت مقصورة ومطولة على ما بيّناه.

فالتصرف وعدم الدلالة، مع تكثر الآيات، وتعددها خلاف الفطرة المستقيمة وهل يحمل على ما تقول الفلاسفة، او ان الظهورات اللفظية بتكثرها تدل على القصة من غير تصرف في مدلولها، والمتعين هو الوجه الثاني، ولا تلتفت إلى توهمات فلاسفة اليونان.

اما قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)، اما لتجارب الملائكة سابقاً قبل آدم عليه السلام لمن في الأرض، او لما يقتضيه الطبع من الشهوات والميول، الموجبة للخلاف والقتال والتنازع في البقاء واكثرهم على غير هدى وبصيرة في الدين، والملائكة قد جبلوا على التسبيح والتقديس لا يفترون عن العبادة، ولما خفت عليهم اهداف التكوين، وناموس الوجود الانساني على وجه هذا الكوكب اخبرهم (اني اعلم ما لا يعلمون)، فأن وجود الانسان على وجه هذا الكوكب فيه خير كثير ومنافع جمة، وعمارة الدنيا والآخرة عبادة باختيار، فمنهم الصالحون الابرار والاولياء.

وان معرفة الملائكة لعالم البشر، كان لالهامهم حقائق الموجودات العنصرية وما يقتضيه المقيم في دار المادة فان هذه الأمور توجب الفساد، وتقتضي السلب والنهب والقتل والعناد والتشاجر، على طول الحياة المادية، وكان ذلك استجابة لهم من الله تعالى، لا على سبيل الترديد والتشكيك في حكم الله تعالى وقضائه، وان طلب الاطلاع والاستفهام من الحق ثروة علمية للنفوس الشامخة والارواح المطهرة.

الفات نظر الملائكة بما لا يخطر بعقولهم

ان الله تبارك وتعالى اراد تنبيه الملائكة على عدم معرفتهم بالغيب كما ينبغي ان علم آدم عليه السلام الاسماء كلها، ثم عرضها على الملائكة اظهاراً لعلمه بعاقبة الأمور وحصول طاعته سبحانه على نحو الاختيار، دون الجبر والقسوة، ومعرفة الاسماء تكشف عن الغيب نحواً من الانحاء، او علمها بما انها الطريق إلى حقائق الاشياء وهو الانسب إلى مقام آدم عليه السلام وتكريمه على سائر خلقه.

وكثيراً يعبر عن المسميات بالاسماء، وعن المعنونات بالعناوين، من وجود الحيوان والاشجار، والمعادن والمياه وما يحتاج اليه البشر، في نظام وجوده، وسير حياته، وان ما خلق على وجه الأرض، وما فوقها منافع للناس وراحة لهم في الحياة الدنيوية.

وإذا تهيّأت لهم هذه الحياة امكنهم الوصول إلى الحياة الاخرى، التي هي غاية

التكامل، ومنتهى المسير والسلوك، وبلوغ البشر إلى اوج الكمال.

الاتجاه الفلسفي

ان خلقة آدم عليه السلام وذريته، مما يقتضي حكم القضاء بتكامل الوجود من الممكنات إلى غاية مراتبه، وان وجود البشر على تكاملا، من وجود الملائكة وسائر الموجودات، اذ هو الخليفة عن الله في الأرض، فيعمل ويفنى، وبعد الفناء الخلود والنعيم الدائم، وهذا السير في الوجود والعمل، وتكامل الفلسفة النظرية والعملية مما يختص بها وجود الانسان.

فهو الجامع للفلسفتين، والذي يصل إلى أعلى مراتب التكامل في الوجود، ولابد في سير الوجود من تكامله حتى يصل إلى الغاية، ومنتهى الوجود الامكاني من وجود النبي واهل بيته عليهم السلام والانبياء والرسل.

واما ابليس، فحيث لم يكن بهذا التكامل، وقد غلبت على فكرته التخيلات والاوهام انه ارقى من آدم عليه السلام وذريته حيث يقول (خلقتني من نار وخلقته من طين) وليس من شأن ابليس الوصول إلى اليقين وحق اليقين، فأخذ بالظنون والاوهام لانحطاط نفسه وانخفاظها عن الكمالات الحقيقية فاتبع هواه وصفاته الرذيلة، من التكبر والانانية وحب الظهور، فهو قاصر عن حقيقة وجود الانسان على هذا الكوكب فان الانسان جامع للنشأتين، وان الانسان ليس ترقيه باعتبار جسده وبدنه بل لجوهر الروح المجرد.

فالانسان من حيث عقله مجرداً، وان كان من حيث بدنه مادياً، وانه وجد وهو ينتقل من حال إلى حال ومن كمال إلى كمال، وان الانسان قد خلقه الله تعالى سائراً في طريقه من نشأه إلى نشأة أعلى، وان من شأن وجود الانسان، ان يتلبس بلباس بعد خلع لباس ورداء بعد رداء، وإذا لم يمت بنشأة، لم يحيى بحياة ثانية ونشأة باقية دائمة، واجمالاً قد ثبت في محله من فن الفلسفة ان الحركة الجوهرية ثابتة للانسان فهو يتبدل من حركة إلى اخرى على نحو الاستمرار وتكامله بهذه الحركة وتجددها وحدوثها من حال إلى حال فهو في نشأته في اطوار متعددة وحالات متجددة والا لعرض عليه السكون وصار عدماً بعد الوجود فتكامله يستدعي الحركة الجوهرية والحركة التي بنى عليها الفلاسفة لا تختص بالجوهر بل تشمل المقولات العرضية ولا تختص بالاعراض الاربعة من الكم والكيف والوضع والاين، فالحركة الجوهرية قائمة بالجوهر والاعراض كلها وقد بينا في كتابنا (المثل الاعلى) ان

الحركة لا تختص بالاربعة من الاعراض من الكم والكيف والوضع والاين فتعم جميع المقولات من الجوهر والاعراض ولا سيما على ما بنّينا عليه من ان الاعراض مراتب من مراتب وجود الجوهر فالحركة القائمة بالجوهر قائمة بالاعراض وانتظر لتوضيح هذا البحث في الموارد المناسبة له.

وان نظام البشر مما يقتضي السير إلى منتهى الدرجات وهذا بخلاف من غلبت عليه الشهوات واتبع هواه، وقد اخذ ابليس القياس الباطل بقوله «خلقتنى من نار وخلقته من طين»[١] وان شهواته منعته عن الموافقة في السجود مع الملائكة لادم عليه السلام بامر الله تعالى، وما علم ان آدم عليه السلام وذريته من الانبياء، وهم سكان عالم القدس وذلك لكمالهم العلمي ونفوسهم العالية التي تعظم وتجل عن الانحطاط والرذائل، وان الله بتعليمه وتشريعه اوصل النفوس الانسانية إلى الكمالات العلوية، لان التعليم والتهذيب لا يظهران الا ما هو كامن في جبلة الشخص وذاته وان حقيقة الطينة التي خلق منها آدم عليه السلام هي أفضل من حقيقة النار، وان طبيعة الطين هو الترقي، والسير إلى الوجود الاكمل وشأن النار هو الاحراق، وكان قياس ابليس على هذا الوجه من القياسات الباطلة، وما ذاك الا لانانيته وتكبره، فعمى عن الحقيقة والواقع واخذ بالاوهام والخيال.

وان الله قد خلق آدم فتجلى فيه واشرقت انواره في وجوده، وكان من صفاته العلم، وهو افضل صفات في عالم الوجود، فقد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله ان الله خلق آدم فتجلى فيه، فالتجلي في نفخ الروح لادم عليه السلام مستعداً للكمالات والوصول إلى العالم العلوي.

وعندما عرف الملائكة وجود آدم عليه السلام وذريته وما تحتويه نفوسهم من الكمالات من العلم والقدرة والحياة الابدية وسيرهم إلى غاية الفلسفتين من معارف التوحيد والمعاد، ومن الوصول إلى غاية الخلق الكريم، كما قال تعالى لنبيه الاكرم «وانك لعلى خلق عظيم»[٢].

وان آدم وما كان من ذريته من الانبياء والاولياء عليهم السلام مصداقا لقوله تعالى: «وما ارسلناك الا رحمة للعالمين»[٣].

فالانسان إذا تكامل وجوده، كان رحمة لنفسه ولغيره، وكان مثال الله في ارضه، وخليفته على هذا الكوكب وقاطعاً للاسفار الاربعة.

---

١. الاعراف ٧/١٢.
٢. القلم ٦٨/٤.
٣. الأنبياء ٢٧/١٠٧.

وعندما أخطأ آدم عليه السلام على طبق القضاء والقدر وان الترقي إلى غاية الكمال واوج السعادة، لابد ان يكون من العالم الادنى إلى العالم الاعلى.

وعندما توجهت نفس آدم إلى السعادة تلقى من ربه كلمات وانواراً وحقائق وتجليات ليصل بها إلى منتهى درجاته في النشأة الآخرة، ويتبدل العالم السفلي له، بالعالم العلوي، وتنتهي حركته النفسية، وحركته العقلية إلى مرحلة، ليس هناك غاية وراءها، ولا نتيجة يطلبها وسيأتى منا انشاء الله تعالى، في قصص آدم عليه السلام الاتجاه الفلسفي باوسع من هذا.

الاتجاه من ناحية النبي و آله عليهم السلام و أصحابه

عن الفضل بن عباس عن ابي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ما هي قال: اسماء الاودية والنباتات والشجر والجبال من الأرض، وروى في البحار عن جابر بن عبد الله قال قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله «اول شيء خلق الله ما هو قال نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كل خير ثم اقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله، ثم جعله اقساماً فخلق العرش من قسم والكرسي من قسم وحملة العرش وسكنة الكرسي من قسم واقام القسم الرابع في مقام الحب ما شاء الله ثم جعله اقساماً، فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم واقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله، ثم جعله اجزاء فخلق الملائكة من جزء والشمس من جزء والقمر من جزء واقام القسم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله ثم جعله اجزاء فخلق العقل من جزء والعلم والحلم من جزء والعصمة والتوفيق من جزء واقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله ثم نظر اليه بعين الهيبة فرشح ذلك النور وقطرت منه مائة الف واربعة وعشرون الف قطرة فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست ارواح الانبياء فخلق الله من انفاسها ارواح الاولياء والشهداء والصالحين»، وانت إذا تأملت ما ورد في تفسير هذه الآيات وجدتها ترشد الباحث عن سلسلة الكون وان تلك السلسلة قد جاءت من المرتبة العالية في الوجود والتكامل في النور إلى مراتب الوجودات الضعيفة وان الكل يوجد على حسب استعداد مراتبه في التكامل والضعف.

القرآن يفسر بعضه بعضا

«ثم جعلناكم خلائف في الأرض»[١].

«اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح»[٢].

«ويجعلكم خلفاء الأرض»[٣].

الاعجاز (الآية - ٣٤)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

ان الله تعالى، في الآيات هنا قد جاء بالالتفات من الغيبة بقوله: «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة إلى الحضور والتكلم بقوله: «واذ قلنا للملائكة اسجدوا»، والسجود هنا لامر الله تعالى تكريماً لآدم عليه السلام.

ولا يظهر من الآية في سياقها، ان السجود لادم وان كان السجود ليس عبادة ذاتية على التحقيق[٤]، وذلك لقوله تعالى: «ورفع ابويه على العرش وخروا له سجداً».

وقد يكون السجود على نحو السخرية والاستهزاء بشخصية احد، ومع ذلك كله، فالسجود من اظهر مصاديق العبادة لله، فاذا سجد الانسان عند ما يصل إلى البيت الحرام فالسجود لله تعالى، بداعي توفيقه إلى الوصول إلى البيت الحرام.

وهكذا لو سجد عند وصوله إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله فالسجود لله تعالى، وان كان بداعي البركة إلى الوصول إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله فالسجود معنى عبادياً لله، وان اختلفت الدواعي فيسجد لحدوث نعمة، ويسجد لارتفاع نقمة، ويسجد لان الله تعالى رزقه ولداً.

فسجد الملائكة كلهم الا ابليس ابى واستكبر، وقال انا افضل منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فابليس لم يخطر بخاطره السجود لادم عليه السلام، وانما يعرف ان السجود لله، ولكن لا يرتضي بتكريم آدم ووصوله إلى هذه المنزلة التي يرى الملائكة ان الخلافة من آدم وأولاده الانبياء والاولياء، هم افضل من الملائكة.

---

١. سورة يونس آية ١٤.
٢. سورة الاعراف آية ٦٨.
٣. سورة النحل آية ٦٢.
٤. وان كان يفرق بين السجود اللفظي وواقع السجود المنحصر بالحق فان المائز بين انواع السجود يرجع إلى قرآئن مقالية أو حالية كالتناسب بين الحكم وموضوعه أو الصِّدق المفهومي وهذا ليس من شؤون الاطاعة الحقيقية. (حفيده محمد طاهر).

وان فضيلة الشخصيات بفضيلة العلم والتقوى وقد احاط آدم وأولاده من الرسل والاولياء، بما لم تحط به الملائكة، وان التقوى والعمل لله باختيار وانقياد وخلوص هي افضل من طاعة الملائكة التي جبلت نفوسهم على ذلك.

والخطاب وان كان متوجهاً بظاهره إلى الملائكة ولكن ابليس يعلم دخوله في الخطاب، وان الله تعالى قد وصفه بالكفر والتكبر، وطرده عن رحمته.

الاتجاه الفلسفي

ان التكبر والغرور، من اقبح الرذائل النفسية الدالة على خبث الضمير، وانحراف الوجدان. وان للتكبر والغرور مراتب، فقد يتكبر على الله ويعجب بنفسه، وهذا موجب للكفر والجحود للخالق العظيم، وثانياً ان يتكبر عن اوامر الله كما تكبر ابليس على امر الله في السجود لادم وهذا نوع من الكفر والجحود لاوامر الله تعالى، وان لم يكن جحوداً لذاته المقدسة، وثالثاً قد يقع التكبر من بعض الناس على بعض كتكبر الحكام والملوك على رعايا هم، وتكبر اهل الثروات والصناعات على العاجزين. والتكبر بمراتبه، اما كفر و الحاد لله تعالى واوامره او على سائر خلقه ممن هو افضل منه واتقى واورع وانت إذاحطت معنى بالتكبر، وجدته من نقصان النفس وقصورها، فيريد المتكبر ان يسد باب نقصه بالتكبر ويخفى على غيره ما جبلته نفسه على القبائح والرذائل النفسية فيريدان يكمل نفسه، ويسد باب النقص بالتكبر والغرور والطغيان والتمرد، واول من تكبر على وجه الأرض هو ابليس ظناً منه انه اعلى درجة من آدم عليه السلام وقد اراد ابليس (لعنه الله) ان يخفى رذائله ولو يرتكب اعظم الخطايا فيمتنع عن السجود لادم، تكبراً اعلى آدم[1]، وعلى امر الله تعالى وقد اظهر الله له خطئه وان قياسه كان غلطاً وليس قياساً منطقياً كما عرفت.

---

١. إذن فرق بين القياس المنطقي القائم على تطبيق الكبريات على صغرياتها وبين القياس مع الفارق بعد ان علم في محله بان الثاني راجع إلى التشبيه بين الفردين في العرض العام المفارق بخلاف الأول الذي يرجع الى العلّة المشتركة الحقيقيّة كالحكم بحرمة الفقّاع لوحدة العلّة الواقعية بينه وبين الخمر وهو الإسكار وان كانت المناقشة مع سماحة الجد (قده) انه لا يترتب على القياس بشرط الحمل شيء من احكام مورد البحث لان الحديث حول مقام آدم (ع) وكمالاته الرسالية وتطوّر نبوته عرضا على أولاده وأحفاده وهذه من مراتب أصول الافاضة لا من انطبق عليهم السجود حتى يقال ان المقام من باب القياس المنطقي نعم يمكن توسعة الاقيسة بالنحو العام الى صرف القياس لا مطلق القياس حتى يشمل كلا المرحلتين المنطقي والحكمي معا ولكنه لا يفيده (قدس سره) بعد ان جعل السجود بالمعنى الحملي لا بالمعنى الموضوعي الذاتي (حفيده محمد طاهر).

الاتجاه من النبي و اهل بيته و اصحابه

فى الاحتجاج عن موسى بن جعفر عليه السلام عن آياته عليهم السلام، ان يهودياً سأل امير المؤمنين عليه السلام عن معجزات النبي صلى الله عليه وآله في قبال معجزات الانبياء عليهم السلام فقال هذا آدم عليه السلام اسجد الله له ملائكته فهل فعل بمحمد شيئاً من هذا، فقال علي عليه السلام لقد كان ذلك ولكن اسجد الله لادم عليه السلام ملائكته، فان سجودهم لم يكن سجود طاعة، انهم عبدوا آدم من دون الله عز وجل، ولكن اعترافا لادم بالفضيلة ورحمة من الله له ومحمد صلى الله عليه وآله اعطى ما هو افضل من هذا، ان الله جل وعلا صلى عليه في جبروته والملائكة باجمعها، وتعبد المؤمنون بالصلاة عليه، فهذه زيادة له يا يهودي.

وفي قصص الانبياء عن ابي بصير، قال قلت لابي عبد الله عليه السلام سجدت الملائكة ووضعوا جباههم على الأرض قال: نعم تكرمة من الله تعالى.

وفي تحف العقول، قال: ان السجود من الملائكة لآدم، انما كان ذلك طاعة لله ومحبة منهم لادم.

وفي البحار عن قصص الانبياء عن الصادق عليه السلام قال امر ابليس بالسجود لادم، فقال يا رب وعزتك ان اعفيتني من السجود لادم لا عبدنك عبادة ما عبدك احد قط مثلها قال الله جل جلاله، اني أحب ان اطاع من حيث اريد.

وانت إذاتأملت الروايات الواردة، عرفت ان السجود لله تكريماً لادم، فان السجود بمعنى التذلل والخضوع عبادة من العبادات، لا تقع الا لله، وان كان مجرد وضع الجبهة من الانسان ليس سجوداً عبادياً، وان السجود العبادي، ما كان تذللاً وخضوعاً للمولى الحقيقي.

ويظهر من الاخبار التي اوردناها مما قدمنا بيانه من ان خلقة آدم لمصلحة نوعية، وانه يعلم بذلك، ولكن اضطرابه لمفاجئته بالخروج من الجنة سريعاً وقد اعرضنا عن بعض الروايات في المقام التي لا توافق الآيات الكريمة، وان اخبار الاحاد، كما اشرنا لا يمكن تقبلها إذا كانت مخالفة للعقائد الدينية، وان تعرض لذلك بعض المفسرين من الخاصة والعامة.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه

افتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا»[١].

«قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين»[٢].

«وكان الشيطان للانسان خذولا [٣] ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين»[٤].

الاعجاز (الآية ٣٥ - ٣٦)

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾

ان الله تعالى طبقا للمصلحة الشخصية لادم عليه السلام بان يدخل هو وزوجته الجنة فيأكلا منها رغداً إلى حين ما تقتضي المصلحة النوعية بخروجه من الجنة إلى الأرض، ليكون هو واولاده خلفاء في الأرض.

وعندما خدعه ابليس بالقسم، امره الله تعالى بالخروج من الجنة وهو وان كان يعلم ان مستقره الأرض وخلافته فيها، ولكن كان يأمل البقاء فى الجنة طويلاً وان لا يخرج منها بهذه الكيفية من خداع ابليس وقد نسى العهد الذي هو مرتكز كل نبي وصالح من العقيدة بالتوحيد والصفات والخلوص لله تعالى بكل الاعمال، فاغفله ابليس عن ذلك التوجه إلى الله تعالى والانقطاع اليه عز وجل فى كل حركة وسكون وفي كل لحظة، وزمان ونسى آدم ذلك العهد الذي به قوام العبودية وتجلي العبد للصلاح وان نسيان العهد الاساسي اوجب نسيان ما اوعده الله، من خطر ابليس وغوايته، وان لا يأكل من الشجرة، والا كان ظالماً لنفسه، في عدم المكث مدة في الجنة، وهذا الظلم ليس هو ظلم الذنوب والتجري على الله، بل هو فقدان نعمة في الوقت الذي تتوجه اليه وهذا ايضاً يعتبر نوعاً من الظلم.

ومن هذا البيان يظهر لك ان توجيه الآية في الظلم، هو الوقوع في ابتلاء الدنيا واعمالها، فان ذلك بالقياس إلى الانبياء لا يعد ظلماً، لان الوصول إلى اوج الكمال، يستدعي لادم ولغيره الهبوط من الجنة إلى الأرض والا كانت النتيجة في خلق الخليفة في الأرض

١. الكهف آية ٥٠.
٢. الاعراف آية ١٣.
٣. الفرقان آية ٢٩.
٤. البقرة آية ١٦٨.

عقيمة، فلا يراد من الظلم، كما تقتضيه سياق الآيات الا حرمانه من نعيم الجنة الذي كان يؤمل آدم عليه السلام ان يبقى فيها زمنا طويلا، ثم ينزل إلى الأرض، لاداء التكاليف والعروج إلى اوج الكمال.

وان النهي في قوله، ولا تقربا هذه الشجرة نهياً تنزيهياً وارشاداً إلى المصلحة الشخصية، من نعيم الجنة وليست تلك الدار، وهي الجنة دار تكليف وعقوبة، والا لاوجبت العقوبة على آدم عليه السلام بما يعاقب به العاصون لأوامر الله، والمفروض هو أجلّ شأناً، وارفع مكاناً من المعاصي التي توجب العقوبة والنهي اعم من الارشاد والمولوية، في خطاباته تعالى، فآدم عليه السلام قد وقع بين موقعين، بين موقع المصلحة في نعيم الجنة، وموقع القضاء والقدر، التي تقتضيه المصلحة النوعية، ولو نزل آدم عليه السلام باختياره، لما وقعت له تلك التجارب، ولما وقع منه التحذر الشديد من الشيطان الرجيم.

فانا قد بينا ان العمل الصحيح بعد الخطأ هو ارسخ في النفس مما لا خطأ فيه، واحكم في العقل، ممن لا تجربة تعتريه، فان الانسان إذا وقع في الخطأ، توجهت نفسه إلى الصلاح والصواب، وحفظ ثغور العمل الصالح، من كل عدم، يوجب رفع ذلك العمل الصالح، اعلى المراتب، وافضل النتائج.

وهكذا صنع الله في عباده ومشيئته في خلقه وان قصة آدم عليه السلام مع ابليس معركة، ولها نطاق اوسع ومحاولات في حياة الانسان، تفيد التجربة والتحرّز عن الخطأ وظهور القوى النفسانية التي خلقها الله في الانسان، ليتحرز فيها عن الشقاوة، ويخط خطوط السعادة، وتبرز تلك الملكات الفاضلة، وتستهلك الملكات الرذيلة، ويظهر الانسان بمظهر الخلافة، التي قال تعالى: «اني جاعل في الأرض خليفة»، ولا تشتد قوى الصلاح وفضائل النفس الا بتجربة الخطاء، ويعرف الانسان انه في دار الدنيا في معارك شتى، من حيث شهواته وميوله ومن حيث قوى ابليس واضلاله وعند ذلك تتجلى مظاهر العقل واشراق انواره على النفس لاعمال الخير والحسنات والتباعد عن السيئآت.

الاتجاه الفلسفي

ان الله لما خلق الانسان، خلقه ذا جهتين، جهة الرغبات والشهوات، وجهة الحق واليقين، وان الخواطر التي ترد على قلب الانسان وتبعثه على الافعال، فان انبعثت من الجنبة

العالية دفعته إلى الخير، كالعبادات والمعارف الالهية، وان انبعثت من الناحية السفلى فتدعوه إلى المعاصي والغفلة، وان السبب الداعي إلى الخير يسمى ملكاً، وهو خاطر الهامي، والسبب الداعي إلى الشر، يعبر عنه شيطانا، وهذا الخاطر وسوسة، وان خلق الملائكة بصفات الرحمة واللطف، وان خلق الشياطين بصفات القهر والغضب.

وان الانسان إذا اشتغل بعبادة الله والمعارف الالهية، كان في سلك رحمته ودخل في زمرة الملكوت، وإذا اشتغل بالشهوات والمعاصي واتباع الهوى والشيطان استعد لغضب الله وبعده عن رحمته.

فالالهامات من جانب الحق بواسطة العقل، والوساوس من جانب الشيطان وإذا انقاد للوسوسة، انخذل العبد وتوجه للمعصية، والا كان ملهماً بالطاعة والمعارف الالهية، فاذا غفل عن التوجه إلى الله، وقع في المعصية والبعد عنه تعالى وتسلط الشيطان على ابن آدم في فكرته وعقله لتركه للحق، وإذا وافق الحق وعمل على وفقه وتمت معارفه، فليس للشيطان عليه سبيل وإذا تراجع العبد عن وسوسة الشيطان استعد الانسان للالهامات الالهية الداعية إلى الخيرات، والبركات، فأهل الرحمة مآلهم إلى جنة النعيم، وأهل الذنوب مآلهم إلى الجحيم، وعند ما وقع آدم عليه السلام في الخطأ لغفلته خرج من الظلمات إلى النور، فأخذ في السلوك إلى الدار الخالدة بهبوطه إلى الأرض، وطي المنازل والسير من القوة إلى الفعل، و إلى الحقائق، فعندها اشرقت على قلبه كلمات الله تعالى.

«فتلقّى آدم من ربّه كلمات»، كلمات الوحي والالهام كلمات لا يعتريها الباطل، فاتم الله رحمته ولطفه عليه، حتى بلغ منتهى ما يصل اليه آدم عليه السلام ولابد للبشر من سلوك الطريقين طريق المادة وطريق التجرد.

ومن هنا كان الانسان افضل الموجودات واشرف الكائنات، وعند الوصول إلى مراتب الاولياء والانبياء، وقع وصول العبد إلى عين الحق واليقين ورجعت سلسلة وجوده في الصعود إلى الحق مرة اخرى، عند ارتفاعه عن منازل الهبوط والانحطاط.

وان الانبياء هم القائمون باصلاح البشرية، وايصالهم إلى مراتبهم، وان آدم عليه السلام قد سار اولا في منازل الهبوط، إلى ان وصل إلى اوج العلو ومشاهدة الملائكة وعندها جمع آدم بين المنزلتين، وسار من النشأة الاولى إلى النشأة الاخرى، ولولا هبوطه إلى الأرض، لما وصل إلى اوج ذلك الكمال الذي لا يقوم به ملك مقرب.

هذه سيرة آدم عليه السلام في سيره، وان القضاء والقدر قدم المصلحة النوعية لآدم عليه السلام على مصلحته الشخصية من نعيم الجنة، وان السير لا يتكامل في آدم، الا وان يكون مبدؤه الخطأ ليستحكم عقله، ويشاهد المنازل من الخلق إلى الخلق، ويكون نبياً ومشرعاً لأولاده، هذه سنة الله في تكامل انبيائه واوليائه والصالحين من عباده.

الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام وأصحابه

في تفسير القمي، عن ابيه قال سأل الصادق عليه السلام عن جنة آدم عليه السلام امن جنان الدنيا كانت، أم من جنان الآخرة، فقال عليه السلام كانت من جنان الدنيا، تطلع فيها الشمس والقمر ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها احد، قال عليه السلام فلما اسكنه الله الجنة واباحها له الا الشجرة، لانه خلق خلقه لا يبقى الا بالامر والنهي والغذاء واللباس والنكاح، ولا يدرك ما ينفعه مما يضره، الا بالتوفيق فجاءه ابليس، فقال له انكما ان اكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها صرتما ملكين وبقيتما في الجنة ابداً وان لم تأكلا منها اخرجكما الله من الجنة، وحلف لهما انه لهما ناصح، كما قال الله عز وجل حكاية عنه، «ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين»[1]، فقبل آدم قوله فاكلا من الشجرة، فكان كما حكى الله، فبدت لهما سوآتهما وسقط عنهما ما البسهما الله من الجنة، واقبلا يستتران من ورق الجنة «وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين»[2] فقالا كما حكى الله عنهما ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، فقال «لهما اهبطا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين»[3]، قال: إلى يوم القيمة، قال: فهبط آدم على الصفا وانما سميت الصفا، لان صفاء الله انزله عليها ونزلت حواء على المروة وإنما سميت المروة لان المرأة انزلت عليها.

فبقى آدم عليه السلام اربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنة فنزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال اليس خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته قال: بلى قال: وأمرك ان لا تأكل من الشجرة فعصيته، قال: آدم ان ابليس حلف بالله كاذباً وقد ورد عن القمي وغيره بيان

١. الأعراف ٧/٢٠.
٢. الأعراف ٧/٢٢.
٣. البقرة ٢٦.

خداع ابليس لادم بالقسم.

وفي امالي الصدوق، عن ابي الصلت الهروي، قال لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا عليه السلام اهل المقالات من اهل الاسلام والديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين، فلم يقم احد حتى الزمه حجته، فكأنهم القموا حجراً، فقام اليه علي بن محمد ابن الجهم، فقال له: يابن رسول الله اتقول بعصمة الانبياء قال: فما تعمل بقول الله عز وجل «وعصى آدم ربه فغوى»[١] إلى ان قال فقال مولانا الرضا عليه السلام ويحك يا علي اتق الله ولا تنسب إلى انبياء الله الفواحش، ولا تؤوّل كتاب الله عز وجل برأيك، فان الله عز وجل يقول وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم.

اما قوله عز وجل في آدم «وعصى آدم ربه» فان الله خلق آدم حجة في ارضه وخليفة في بلاده، لم يخلقه للجنة وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض لتتم مقادير امر الله عز وجل، فلما اهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصمه الله بقوله عز وجل، «ان الله اصطفى آدم ونوح وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين»[٢].

القرآن يفسر بعضه بعضا

يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوأتهما، انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون[٣] وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم، ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخي، اني كفرت بما اشركتمون من قبل[٤].

الاعجاز (الآية ٣٧ - ٣٩)

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

---

١. طه ٢٠/١٢١.
٢. آل عمران ٣/٣٣.
٣. الاعراف آية ٢٧.
٤. ابراهيم آية ٢٢.

ان آدم عليه السلام لما علم بخطئه واشتباهه، تاب إلى الله تعالى - والتوبة لغة هي الرجوع إلى الشيء، سواء كان عن ذنب أم لا، فيقال فلان تائب إلى الله، اي راجع اليه وان لم يكن عن ذنب.

فالتوبة لا تساوق الذنب، ومفادها هو الرجوع سواء كان اسبابه هو الطاعة والانقياد، او ارتكاب المعصية والذنب ولذا ان الله يوصف بالتوبة والرحمة وهو التواب الرحيم، كذلك الاستغفار ليس من لوازمه الذنب ولذا ان سيد الرسل وآله والانبياء تائبون ومستغفرون مع انهم لعصمتهم لا تتحقق منهم الذنوب.

وان كل عبد تائب قد سبق بتوبة سابقة، وهي رجوع الله إلى عبده بالرحمة واللطف، وبتوبة لاحقة، بعد رجوع العبد اليه فليحظه بالرحمة والعفو وان كان مذنبا وباللطف وان لم يكن مذنبا، فكل توبة من العبد مسبوقة بتوبة سابقة من الله وتوبة لاحقة، فلطف الله شامل لعبده، قبل رجوع العبد اليه وبعده، ولا توبة الا بعد الاستيقاظ والتفات النفس إلى عدم الرجوع إلى الله.

وعندما تلقى آدم الكلمات، استيقظ ضميره وتوجهت نفسيته إلى الله تعالى، فتلقى الكلمات، هي استيقاظ النفس للرجوع إلى الله تعالى وماهي الكلمات، كلمات قد مرت على ذهن آدم التي بها استيقظت نفسه فتدارك ما فات منه اما بتوسيط الرسول الاعظم وآله المعصومين واما بتوجه نفسه إلى اسماء الله وصفاته التي توصله إلى حق اليقين وعين اليقين، وقد عرف آدم عليه السلام كلما ينشأ في الدنيا من خير او شر وعرف تدارك الشر بالخير والعصيان بالتوبة والاطاعة، والغفلة بالرجوع إلى الله تعالى، فتلقى تلك الكلمات تفصيلا، على طبق ما ارتكز في ذهنه اجمالا من الالهام الالهي.

وعندها تاب الله عليه، وارجع رحمته اليه وعرف آدم عليه السلام ان حكم القضاء والقدر، الذي جرى عليه هو افضل من بقائه مدة في الجنة، اذ الاولياء والانبياء والصالحون من عباده هم الذين يفنون المصالح الشخصية والاغراض الفردية للمصالح النوعية التي هي على وفق القضاء والقدر.

فليس هبوط آدم إلى الأرض نادماً عليه، لان به قوام المصالح النوعية وخلقة الانبياء وتوجيه الاولياء وعباده للخير والصلاح.

ولا ريب ان آدم عليه السلام وجميع الاولياء مما يفنون الرغبات النفسية، للكمالات العقلية

والمصالح التي تقع طريقاً لهداية البشر، هذه سنة الله في تكوين الاولياء وعباده الصالحين حيث ان نفوسهم تبتهج بالبلاء كما تبتهج بالنعماء.

وعندما تمت توبة آدم عليه السلام بالرجوع إلى الله تعالى، قال الله سبحانه عز وجل لهم، اهبطوا منها جميعاً وانكم في دار الدنيا بعضكم عدو لبعض، فلا يزال ابليس وجنوده، يوسوسون لاولاد آدم عليه السلام بالعصيان والمخالفة لله تعالى وهذا الهبوط بعد التوبة والوقوع في الخطأ، هبوط تكويني داخل تحت رعاية القضاء والقدر.

فأكل آدم وحواء عليهما السلام للشجرة سبب تام لخروجهما عن الجنة، وهبوطهما إلى دار الدنيا وما استوحش آدم من هبوطه إلى الدنيا، لانها دار خيرات، والوصول إلى اعلى الدرجات ولكنه ارتبك بمفاجئته بالخروج لاكل الشجرة والا فهو عارف ان القضاء والقدر شأن الله تعالى وليس فعل العبد وإنما فعله ما كان تحت اختياره، فمن اتبع هدى الله وسنته وتشريعه وأحكامه، فهو المهتدي وهو الذي تنطبق عليه آية، «فاستقم كما امرت»[1]، فان العبد إذا استقام كما امره الله تعالى، كان على هدى وبينة، ومهتدياً بالتشريع الإلهي والحكم السماوي، فهو يتقلب في الدنيا بمصالح، تؤل به إلى اعلى الجنان، والخطاب حيث كان ارشادياً من الله تعالى لآدم عليه السلام بان لا يخسر حياة الجنة التي وعد للمكث فيها.

وليس الخطاب خطاب تكليف مولوي والا لرجع بعد التوبة إلى الجنة وما كان اكله للشجرة موجباً للقضاء والحكم بالهبوط إلى الأرض، وتشريع الاحكام والعمل على طبقها وهذا الذي جاء به القضاء والقدر، عندما أكل آدم عليه السلام من الشجرة.

واجمالاً، ان قصة آدم عليه السلام وحواء وابليس وما جرى بينهم، هو توطئة لعالم الخلافة وعالم التشريع في دار الدنيا لينهج كل انسان منهجه الحقيقي ويصل إلى طريق الهداية وطريق الغواية، ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حي عن بينة.

وان التكامل في قدرة الله تعالى وتعلق ارادته هو السبب في خلق الموجودات كما قال تعالى (في حديث قدسي) خلقت الخلق لكى اعرف.

فمعرفة الحق منتهى الوصول إلى الدرجات والمنازل العالية، فان الخلقة التي تقتضي الطاعة بالاختبار والعمل، على وفق التشريع الالهي، هو المقصود من خلقة الله تعالى لخلقه وايجادهم لعبادته.

---

[1] ١١/١١٢ ، ٩٠

وقد وردت قصة آدم عليه السلام في أحاديث اهل البيت عليهم السلام بما لا ينافي عصمة آدم عليه السلام ولا تصرف ابليس (لعنه الله) في حقيقته، بل جاءت الروايات، عن أئمة الهدى عليهم السلام طبقا لما بيّناه، من جريان المصلحة الشخصية، والمصلحة النوعية التي فيها جريان القضاء والقدر وقصته تمرين لاولاده والصالحين من عباده، ليتحذّروا، عن الاخطاء والشرور وتستقبل نفوسهم الخيرات والحسنات، وفق الله الجميع لذلك، وبيان ان العبد دائر بين الحق والباطل، فاما ان يكون على هدى واما ان يكون على كفر وتكذيب للآيات والحق فأولئك هم اصحاب النار.

الاتجاه الفلسفي

ان آدم عليه السلام لما هبط من الجنة إلى هذا الكوكب، توجهت نفسه إلى قدس الله وعظمته ولما كانت نفسية آدم عليه السلام متكاملة في الفضيلة ولا افضل منها في ذلك الوقت، توجهت نفسه إلى اشراقات الله ونور عظمته ولطفه، فتلقى آدم من ربه كلمات، كلمات تقربه إلى الحق وتباعده عن الهوى النفسي والميول والشهوات وحيث كانت روحية آدم قابلة للطف تلك الانوار وتوجهات نفسه اليها واستعداده لقبولها، تاب عليه الحق ورجع اليه رجوع اللطف والكرامة رجوع العطف والعظمة لمقام آدم عليه السلام وعند ذلك اخذت روحية آدم عليه السلام في معرفة الكون على الفضيلة وما اعده الله له في هذه الدنيا والاخرة، فقد تجرد آدم عن العالم الحسي وما فيه من النقص إلى العالم العلوي وما فيه من الكمال.

وعندها عرف حقائق الاشياء كما هي وصارت معرفته بالاسماء الحسنى على الوجه الاكمل من مشاهدة اسرارها ولطف تكوينها وحصل لادم عليه السلام العلم البرهاني في نشأة الدنيا، فقد زكت روح آدم واطلع على معارف الحكمة وشاء الله ان يؤتى آدم الفضل الكثير وان الله تبارك وتعالى إذا اتى عبداً الفضيلة والحكمة، فقد اوتي الخير الكثير وعلم الله آدم ما لم يعلم كما قال في حق النبي صلى الله عليه وآله «وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما»[1]، وان آدم بعد هبوطه إلى الأرض، اصبح في عالم وسيع وتوجهت نفسه إلى هدف اعلى لان معرفة الله وصفاته ومعرفة ملكوته واسرار حكمته، اعظم من لذة الجنة التي فارقها ولا تقاس هذه اللذة بلذة المآكل والمشارب وحلوله في جنة، لابقاء له فيها.

---

١. النساء ٤/١١٣.

فمن ذاق طعم الحكمة ونال رتبة المعرفة، كان ارفع نفساً عن الميول والشهوات والرغبات الدنيوية، واي تشابه بين عالم المادة من جنة غير باقية بعالم الروحانية والملكوت واين نظرة العبد إلى المآكل والمشارب وإلى الشهوات والرغبات، من نظرته إلى لذة معرفة الله والنظر إلى قدسه الكريم والشهود لحقائق الاشياء وهذا المقام عند العارف أجلّ وارفع من مقام الحكومة والرياسة.

ومن هنا إذا نظرت إلى العارف الرّباني تراه يؤثر التباعد عن الخلق ورغب في الخلوة مع الحق تعالى، ويستحقر الرياسة في هذه النشأة لعلمه بانقطاع الرياسة وذهاب الشهوة وانها تنقطع بالموت وتكون وبالا على اهلها، وان آدم عليه السلام عند ذلك، ممن يطلع على الملكوت ويعرف الاسرار الكثيرة من الكائنات ويشاهد مظاهر الحق وتجليه.

الاتجاه من ناحية النبي وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه

في الكافي عن ا حدهما عليه السلام في قوله تعالى: فتلقى آدم من ربه كلمات قال: لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوء وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين.

لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوء وظلمت نفسي فارحمني وانت خير الرحمين.

لا إله الا انت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوء وظلمت نفسي فاغفر لي وتب علي انك أنت التواب الرحيم.

وقال ثقة الاسلام الكليني في الكافي وفي رواية اخرى في قوله فتلقى آدم من ربه كلمات، قال سئله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام .

وفي العلل عن الباقر عليه السلام والله لقد خلق الله آدم للدنيا واسكنه الجنة ليعصيه فيرده إلى ما خلقه له.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«الَم يعلمون ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم»[1] «فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه، ان الله غفور رحيم»[2]

١. التوبة آية ١٠٤. ٢. المائدة آية ٣٩.

«وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئآت ويعلم ما تفعلون»[١] «من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً»[٢].

الاعجاز (الآية ٤٠ - ٤٤)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

تعظيم انبياء بني اسرائيل وتكريمهم في القرآن الكريم

ان الله تعالى بعد ما ابان كرامة آدم عليه السلام وتفضيله وانه خليفة الله في ارضه اظهر الله تكريم انبياء بني اسرائيل وكم افاض عليهم من نعمته وتفضل عليهم برحمته فذكر هم نعمته واراد منهم الوفاء بعهده سبحانه ليفوا بعهده، عهد الفطرة والجبلة وعهدة الغريزة التي اقيمت في البشر على فطرة التوحيد، فطرة آدم عليه السلام وذريته، ثم عرضهم على الايمان بالله والتصديق بما انزل من الكتب السماوية ولا تكونوا اول من يكفر بما انزل.

وقد بينت الآيات حالات اليهود من تقلبهم في الكفر وان لا يشتروا بالآيات ثمناً قليلاً وان لا يلبسوا الحق بالباطل، ولا يكتموا الحق بالشبهات، مع علمهم بالحق، ثم حثهم تبارك وتعالى على اقامة الصلاة وايتاء الزكاة، وان يركعوا مع الراكعين.

اليهود وهم الامة المادية، التي لا تعرف ما وراء المادة شيئاً من المعارف الدينية وان القرآن فاجأهم بالانكار «اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم»[٣] لان المرشدين والوعاظ والاحبار الذين تخالف اقوالهم افعالهم، فيتخذون الدين حرفة ووسيلة لاغراضهم المادية والمعنوية ويقولون بافواههم ماليس في قلوبهم، يحرفون الكلم عن مواضعه لاغراض دنيوية وموافقة السلاطين، فخالفوا بواطنهم.

---

١. الشورى آية ٢٥.
٢. مريم آية ٦٠.
٣. البقرة ٤٤.

وان مطابقة القول للعمل والجوارح للضمير والسر للجهر مما يتقوّم به النصح والارشاد وإلاّ كان إلى الرد اقرب والناس لا يفهمون صحة القول إذا كان القائل غير صحيح، ولا يقبلون الحكمة من اناس لا يطبقونها، وان كانت الحقيقة ان ينظر إلى القول، لا إلى القائل.

وان هؤلاء يتظاهرون بصفات الانبياء وافعالهم من حيث الارشاد إلى الهدى وان الله تعالى بيّن كذب هؤلاء.

واما الانبياء والاولياء والصالحين من عباده فليس بين اقوالهم وافعالهم تفاوت ولم يقصدوا بهدايتهم ووقوفهم على الحق ولو بقتل انفسهم واتباعهم الا ارشاد المجتمع إلى حقيقة الدين، فهم على صراط لا يتبدل ولا يتغير ولذا ان النفوس التي ارشدها الانبياء والاولياء بين من كانت نفسه مستقبله للهدى وطالبة للحق وهو باسرع وقت يتجاوب مع الرسل واوصيائهم.

وهناك صنف آخر لا يأتي إلى الحق الا بعد مدة من رؤياه للمعاجز ونظره في استقامة ذلك النبي فاذا حصل له اليقين ولو بعد زمن طويل يستجيب إلى الحق وينقاد اليه.

وهناك صنف ثالث لا يتجاوب مع هداية الانبياء والرسل ولو علم بصدق الانبياء وكرامات الاولياء ولكن يأخذه العناد والخلاف وان هؤلاء لا يهتدون سبيلا وعدم هدايتهم ليس لقصور ارشاد الانبياء وتبليغ العلماء والصالحين ولكنه من جهة بعد نفوسهم عن الحق وعدم استعدادها للتقوى ورغبتهم في الشهوات، لا يستقبلون الهداية وهم على ممر الحياة جاحدون للحق ومخالفين له.

الاتجاه الفلسفي

ان الله اوجد الحياة الانسانية، بنفس ناطقة مدركة شاعرة، التي يعبر عنها الفيلسوف بالقلب الحقيقي وان موت النفس هو حرمانها من العلوم والمعارف الحقة بتقديم الشهوات وظلمة الرغبات على نور العقل والنفس وان المقدمات اليقينية في العلوم، مما توصل العبد إلى الكمال النفسي والترقي العقلي وان حياة الانسان بحياة عقله، ان الحياة بحياته المعنوية لا بحياته الجسمية الارضية التي هي تابعة للميول والشهوات وان الانسان ليتغذى بعلومه ومعارفه.

وقد بينا (في المثل الاعلى) النفس ومراتب اوجها وانحطاطها وان اوجها هو المتقوم

بالمعارف والحقائق ومشاهدة اسرار الكون وكلما ترقى الانسان عن المرتبة الارضية من النفس بلغ منتهى ما اعده الله له، من استعداد نفسه للكمالات والفضائل وكلما هبط الانسان من اوج الكمال وتحكّمت فيه الشؤون الارضية من الهيولى والمادة، خرج عن سلك الاولياء والصالحين، ولبس ثوب الرذائل، حتى يبلغ به الهبوط إلى العصيان والكفر وان من عرف نفسه على وجه الحقيقة، عرف الله سبحانه وتعالى بما تستطيع به طاقته وعرف منه الابداع واليه المنتهى.

وما بدن الانسان، الا كما قال امام الموحدين عليه السلام (بدؤه نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو فيما بينهما يحمل العذرة) فكمال الانسان بكمال عقله ونفسه واوجه بارتباطه بربه، على وجه لا يرى لنفسه اي استقرار، وانه مندك في جلاله وعظمته، وان موت النفس بالجهل وحياتها بالعلم والعمل وعندها يتصل بالملاء الاعلى وعالم القدس والحقيقة.

وان طبيعة الانسان، ما لم يستوف المرحلة السفلى لم يكن له حظ إلى الاشرف والاعلى وان قوله تعالى: «ليقوم الناس بالقسط»[1] تلويحاً وتنبيهاً إلى صورة الانسان بحسب القسط والعدل، في كيفيات عناصره وكمياتها وهو المزاج المعتدل الانساني.

إذا اتضح لك هذا، فلنأتي إلى حياة بني اسرائيل، انها حياة مرت عليها عصور قبل فرعون وعند تملك فرعون صارت حياتهم معقدة، حياة مبنية على الذل وعلى الفقر والمسكنة والعبودية لفرعون واصحابه، لا تجد في بني اسرائيل في ذلك الدور، الا نفوساً منحطة وصفاتاً رذيلة.

ولما أراد الله انقاذهم، جاء لهم موسى عليه السلام وان من سيرة الله تعالى في خلقه ان يبعث النبي من تلك الامة لتتناسب رسالته إلى المرسل اليهم وان الله قد بعث الانبياء لبني اسرائيل، باكثر مما بعثهم لسائر الامم، لعلمه تعالى بانحطاط تلك النفوس وامتزاجها بالرذائل والمكر والخداع فتواترت عليهم الانبياء لارجاعهم إلى الخط الوسط والاستقامة ولان يعرفوا الحق من الباطل ويميزوا الخير من الشر والعدل من الاعوجاج.

ولكن مع هذا كله لم يأخذوا بالحقائق ومالت نفوسهم إلى الشهوات والمادة ومخالفة الانبياء، حتى قتلوا الكثير من انبيائهم.

وقد منّ الله تعالى عليهم بالرسل والانبياء وارشدهم إلى الحق وما زادهم الا ضلالا

---

١. الحديد ٥٧/٢٥.

وتمرداً وعصيانا.

ان الانسان وان خلقه الله على ميزان العدل والتساوي في الصفات، فتدفعه الصفات الفاضلة إلىاوج الكمال، والصفات الرذيلة تدفعه إلى الذل والانحطاط، وأيّد الله الصفات الفاضلة بالرسل والانبياء والاولياء، والصفات الرذيلة تدفعها الشياطين إلى نفسية ذلك الشخص، وجعل فوق كل ذلك العقل وهو من عالم الملكوت ليميز الحق من الباطل ويتباعد عن الشرور ولكن مع كل ذلك فقد تعتري الامة او الشخص الاستعداد للرذائل وتقديمهم الشهوات وحب السيطرة والمادة والهيمنة على الحقائق النفسية.

ومن هذا الصنف بنو اسرائيل، فقد قدموا شهواتهم وميولهم على المعارف الالهية، حتى بلغ بهم الجهل. ان عبدوا العجل وترددوا في رسالة موسى وخالفوا هارون وقتلوا الكثير من انبيائهم وكانوا على حالة التكبر على سائر الخلق وأنّهم شعب الله الخاص، كل ذلك لتقديم نفوسهم للشهوات وحب الغلبة وايثار المادة ولذا ان هذه الصفات كامنة في نفوسهم وما اطاعوا نبياً ولا ولياً من الاولياء، الا القليل منهم وما ذاك الا لاختيارهم الرذائل على الفضائل والجهل على العلم باختيار منهم واقبال نفوسهم على الشرور والجنايات.

وكل امة تكثر فيها بعثة الانبياء، تدل على انحطاط انفسهم وان الله تعالى لاحظهم ببعثة الانبياء ليخرجوا عن عالم الجهل إلى عالم المعارف والحقائق، ويتقدموا إلى الفضائل ويكون الامر باختيارهم في تقديم الفضيلة على الرذيلة.

وقد جاء في القرآن الكريم، في قصص بني اسرائيل آيات مكررة وعلى الحان وامثال مختلفة ليرشد الله المسلمين إلى التباعد عن تلك الحالات والرذائل يتجهوا إلى الاخلاق الفاضلة والعمل الصالح و على الله التوفيق ومنه التسديد.

الاتجاه من ناحية النبي وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه

قال الامام الحسن العسكري عليه السلام قال الله عز وجل يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم لما بعثت محمداً واوضحت علاماته ودلائل صدقه لئلا يشتبه عليكم حاله واوفوا بعهدي الذي اخذته على اسلافكم اوف بعهدكم الذي اوجبت لكم به من النعيم الأبدي في دار الكرامة واياي فارهبون في مخالفة محمد صلى الله عليه وآله وانا القادر على صرف بلاء من يعاديكم، وهم لا يقدرون على صرف انتقامي عنكم اذ آثرتم مخالفتي.

عن علي بن ابراهيم عن ابي عبد الله عليه السلام قال له جعلت فداك، ان الله يقول ادعوني استجب لكم وانا ندعوا فلا يستجاب لنا، قال لانكم لا توفون بعهد الله، ولو وفيتم لله لو في الله لكم.

عن محمد بن يعقوب عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل واوفو بعهدي قال بولاية امير المؤمنين اوف بعهدكم اوف لكم الجنة.

عن الامام العسكري عليه السلام قال الله عز وجل لليهود وآمنوا ايها اليهود بما انزلت على محمد من ذكر بنوته، وانباء امامة اخيه علي وعترته الطاهرين مصدقا لما معكم، فان مثل هذا الذكر في كتابكم، ان محمداً لنبي سيد الاولين والآخرين المؤيد بسيد الوصيين ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، فان تجحدوا نبوة النبي وامامة الائمة وعندها واياي فاتقون.

وهؤلاء يهود المدينة جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وآله وخانوه وقالوا نحن نعلم ان محمداً نبي وان علياً وصيه.

قال الامام العسكري عليه السلام في تفسير قوله «ولا تلبسوا الحق بالباطل» خاطب الله بها قوماً من اليهود والبسوا الحق بالباطل، بان زعموا ان محمداً نبي وان علياً وصي ولكنهما يأتيان بعد وقتنا بخمسمائة سنة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: اترضون التوراة بيني وبينكم حكماً، فقالوا: بلى، فجاؤا بها وجعلوا يقرؤن خلاف ما فيها، فقلب الله الطومار الذي كانوا يقرئون فيه وهو في يد القراء منهم مع احدهما اوله ومع الاخر آخره.

القرآن يفسر بعضه بعضا

«ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين»[١] «ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين»[٢] «ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين»[٣] «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين»[٤] «لقد اخذنا ميثاق بني اسرائيل وارسلنا اليهم رسلا؛ كلما جائهم رسول بما لا تهوى انفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون»[٥].

١. الانبياء آية ٤٨.
٢. الجاثية آية ١٦.
٣. البقرة آية ٦٤.
٤. البقرة آية ٦٥.
٥. المائدة آية ٧٠.

الاعجاز (الآية ٤٥ - ٤٧)

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلا عَلَى الخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

الاستعانة بالصبر في مجال البلاء والمثابرة على الطاعة من افضل مراتب الايمان وللصبر انحاء وتقاسيم، تأتي منا في مناسباتها وموارداها من صبر العاجزين وصبر الشاكرين، وصبر الاولياء والابرار.

وان بالصبر يقاوم الانسان شدائد الزمن وموارد المحن، وان بالصلاة تقبل نفس العبد، ويكون مواجهاً لله تعالى وعندها يستصغر الشدائد، ولا تكبر المحن في ذهنه، وان الخشوع هو التذلل في القلب، كما ان الخضوع تذلل في الجوارح وإذا خشع القلب خضعت الجوارح.

ولذا ينبغي للمؤمن ان يلحظ دائماً خشوع القلب وهو المؤثر الحقيقي في خضوع الجوارح، ثم امر بالاستعانة بالصلاة وهي مثال العبد في عبوديته وخضوعه لمقام الرب، ومقام الرب في طاعته وعظمته، ومواجهة العبد لربه، وعندها فتحس الروح الصلة بينها وبين الله، وان نفسه استمدت من قوة الازل والابد، والصلاة مفزع عند شدائد الأمور والحاجات كما كان النبي الاكرم واهل بيته عليهم السلام يفزعون اليها عند المهمات.

وقد رتب الشارع صلاة الجماعة، وهي كبيرة الا لمن خشع قلبه «الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون»[1].

ان الآية جاءت بعنوان الظن ومقتضى القاعدة ان الآخرة، كما قال تعالى: «وبالاخرة هم يوقنون» نظراً إلى ان الظن يكفي في توجه النفس إلى العمل الصالح والخطر من يوم القيامة، وقد ورد عن اهل بيت العصمة تفسير الصبر بالصوم وهو احد المصاديق، كما ان الخاشع قد ورد انه الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وامام الموحدين عليه السلام من باب اظهر الافراد، كما صرح به تفسير العياشي، وورد في الكافي ورواه ايضاً الصدوق، وما ورد من ان الآية وردت في امام الموحدين عليه السلام وعثمان بن مضعون وعمار بن ياسر واصحاب لهم فمن باب انطباق المفهوم على بعض مصاديقه (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي الخ...)

---

١. البقرة ٤٦.

وان الله تعالى فضّل بني اسرائيل على غيرهم لان من اطاع الانبياء منهم واستنّ بسنة الرسل في ذلك العصر كان افضل اهل زمانه لانقياده إلى الحق وليس المراد تفضيل كل فرد فرد من بني اسرائيل على سائر الامم، اذ فيهم العصاة والمنكرين للرسل فالقضية على نحو القضية الجزئية دون الكلية الاستغراقية وتفضيلهم في زمانهم وبحسب شريعتهم والا فالصالحون من عباده من اخذ بدين الله عند تكامله وبالحق عند منتهى غايته كان افضل منهم.

وان المسلم إذا اخذ بقانون الله وسنة رسوله كان افضل من سائر الامم من اليهودية والنصرانية وغيرهم، لان شريعته منتهى الشرايع ورسوله سيد الانبياء، فالآية ناظرة إلى زمانهم لا إلى زمان تكامل الرسالة وبلوغ البعثة إلى اوجها ودعوة الحق إلى غايتها.

الاتجاه الفلسفي

ان كل مدرك عاقل كالانسان له اعمال تخصه من تجارة وزراعة واجتماع ونظام، ويعبر عن كل هذه الاعمال بالفلسفة الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية وتدبير المنزل وما يحتاج اليه في عالم الرياضة والطبيعة، والاعمال التي تربط العبد بربه المعبر عنها بالطاعة من المكلفين إلى خالقهم، والعبادات نوع من فلسفة الناموس الالهي، وهي على ضربين، ضرب منها ترك ما لا ينبغي فعله من المكلفين ويتحقق بالصبر على ترك المحرمات.

وقد فسر الصبر ببعض مصاديقه بالصوم، والضرب الثاني، هو الصلاة، وهي العمل للخضوع والتذلل لله، فاذا قام المكلف بالصلاة، وكان متقياً، ورعاً، لا يرى في تلك الحالة الا الله، ولا تتوجه نفسه إلى غيره، وفي تلك الحالة يرى نفسه فانياً، خاشعاً، متذللاً بين يدي ربه.

وان الصلاة هي الصلة بين الله وعبده، واقرب ما يكون العبد إلى ربه في حالة الصلاة، وهي المفزع عند الشدائد والنوائب، وقضاء الحوائج وطلب الرزق، فهي الوسيلة وهي الاستعانة، لكل امر يرغب فيه العبد، والخطاب متوجه إلى كافة الناس[1]، بان يستعينوا

---

١. بناء الشمولية على ما حققه جدّنا المقدس (قدس سره) كما عليه في مختلف أبواب الأصول راجع الى جعل الخطاب الأمري أو النهي بنحو القضايا الحقيقية المنطقية وإلاّ فمع النظر إلى تلكم الخطابات بحسب أصل الوضع بنحو الإضافة الخاصة في مقام الاعتبار ولا محض المرآتية في مقام ←

بالصبر والصلاة. غاية الامر ان المؤمن ينقاد، والكافر والمنافق لا ينقاد لسبب منه، والا فهو قادر على ان يستسلم لامر الله ويؤمن بما جاء به الله تعالى.

وان الاستعانة بالصبر والصوم والصلاة تختلف على اختلاف مراتب وجود الانسان ففزع النبي صلى الله عليه وآله او الولي إلى الصلاة والصبر، اشد من فزع العبد الصالح وفزع العبد الصالح الورع اولى من سائر الناس ولكن الكل مأمور بالفزع والاستعانة إلى الصبر والصلاة.

الاتجاه من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه

في الكافي عن الصادق عليه السلام قال كان علي عليه السلام إذااهاله امر فزع إلى الصلاة، ثم تلى هذه الآية، واستعينوا بالصبر والصلاة.

وفي الكافي ايضاً عنه عليه السلام في الآية قال الصبر الصيام وقال إذانزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم، ان الله عز وجل يقول، واستعينو بالصبر يعني الصيام.

وفي تفسير العياشي عن ابي الحسن عليه السلام في الآية، قال الصبر الصوم، إذا نزلت بالرجل الشدة او النازلة فليصم ان الله يقول، واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين، والخاشع الذليل في صلاته المقبل عليها، يعني رسول الله واميرالمؤمنين عليه السلام.

وقد ورد ايضاً ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وان الصلاة قربان كل تقي ومعراج كل تقي ومؤمن، وقد كان الاولياء إذا صلى احدهم حتى لو سقط لهم ولد في البئر لم يلتفتوا اليه، كما ورد ذلك عن الامام زين العابدين عليه السلام.

وان تفسير اهل البيت عليهم السلام ان الصبر هو الصوم لتقابله في الآية مع الصلوة وان كان هذا التفسير بيان لاحد المصاديق كما تقدم.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«واستعينوا بالصبر والصلاة، ان الله مع الصابرين»[1] «يا ايها الذين آمنوا اصبروا

← الثبوت فلا يستفاد العموم والشمول إلا بقرآئن خاصة كقيام النص الشرعي أو الاجماع على إشتراك الاحكام بين الموجودين والمعدومين ولذا لو تردد الامر بين العرف الخاص المنطقي وفهم العرفى العام كان المرجع هو الثاني دون الأوّل وما السير المنطقي أو غيره سوى من المبادىء المبعّدة لفروض الحكم على موضوعه. (حفيده محمد طاهر).

١. البقرة آية ١٥٣.

وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»[١] «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلوة»[٢] «يا بني اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن ا لمنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الأمور»[٣] «انما يوفى الصابرون اجورهم بغير حساب»[٤] «وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى»[٥] «الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور»[٦] «واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر»[٧]

الاعجاز (الآية ٤٨)

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

احذروا يوم الآخرة، فانه لا يقبل ولا يؤخذ من المجرم عوض وعدل ولا هم ينصرون من اي احد كان ولا تجزى نفس عن نفس شيئاً وانما الشفيع هي الاعمال الصالحة وارتباط العبد بربه.

انظر، إلى ما ذكره الله تعالى، في حق بني اسرائيل وانه قد فضلهم على اهل زمانهم ولكن حذرهم عن يوم القيمة حيث لا ملك الا ملكه ولا شفاعة الا باذنه وقد تواترت الآيات، ان لا شفيع الا الله، او من ارتضاه من عباده، من الانبياء والاولياء والصالحين.

وقد جاءت الآيات الكريمة: «هنالك تبلوا كل نفس ما اسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون»[٨] وقال تعالى «يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة»[٩] وقال تعالى «فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم»[١٠]، وقد تواترت، ان لا حكم يوم القيمة الا حكمه ولا شفاعة الا باذنه وان لا يقبل المال والعوض وان يبطل قول الكفار في دعواهم الشفاعة في قوله تعالى: «ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء

١. آل عمران آية ٢٠٠.
٢. الحج آية ٣٥.
٣. لقمان آية ١٧.
٤. الزمر آية ١٠.
٥. طه آية ١٣٢.
٦. الحج آية ٤١.
٧. العنكبوت آية ٤٥.
٨. يونس ١٠/٣٠.
٩. البقرة ٢/٢٥٤.
١٠. الشعراء ٢٦/١٠٠.

شفعائنا عند الله، قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون»[١] وقد جاءت الآيات باختصاص الشفاعة فيه تعالى «قل لله الشفاعة جميعاً»[٢] وان كل شفاعة لغيره، فهي باذنه لقوله «من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه»[٣] إلى غير ذلك من الآيات، كما في سورة يونس والانبياء والزخرف ومريم ولا منافاة، فيمن بنى اختصاص الشفاعة بذاته المقدسة واذنه واجازته للانبياء والصالحين من عباده.

وعلى اضواء الآيات، يتضح لك، ان الكمال الحقيقي والقدرة التامة، او التصرف على الوجه الاكمل، مختص به تعالى، ولا منافاة، ان يتفضل على عباده من الانبياء والاولياء، لكمال ذاتهم في افق الموجودات لمصالح تقتضي ان تفتح لهم ابواب الشفاعة وتعرف كرامتهم بين العباد وفضيلتهم والشفاعة لا تكون الا باذنه سبحانه وتعالى، كما صرح به الكتاب الكريم ولا تقع جزاء ولا اسقاطاً، لمولوية المولى، لرفع قانون المجازاة، بل لوجود صفة في المولى من الرحمة والعطف ووجود صفة في الشافع؛ من القرب والكرامة وقابلية العمل للشفاعة بان لا يكون فاسد العقيدة، او مرتكبا للكبائر، بحيث اوجب ظلمة قلبه ولا شفاعة الا في حقوق المولى دون حقوق العبد وإذا كان من حقوق الناس فالميزان اسقاط حقهم عنه.

نعم إذا ندم وعجز عن الاداء، فقد ورد ان الله تعالى يرضى صاحب الحق.

ومما بيّناه يتّضح ان الشفاعة ليست رفعاً لقانون المجازاة ولا منافية لمولوية المولى ولا موجبة للجرءَة على الذنب وليست الشفاعة مخالفة لسنة قضائه وحكمه.

وقد صرح القرآن الكريم، بوقوعها فضلا عن امكانها، على ان البراهين الفلسفية تقتضي الشفاعة لمن ندم، واقلع عن ذنبه.

وقد صرحت الاخبار، ان المؤمن لابد له من الندم وان قواعد الاجتماع في الانسانية بين الموالي وعبيدهم تقتضي حكومة الشفاعة بين البشر.

وقد تواترت الروايات، في شفاعة الرسول صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام كما في تفسير العياشي عن سماعة بن مهران عن ابي ابراهيم عليه السلام وقد جاء ايضاً من طرق العامة والخاصة فلا نطيل في ذكره.

---

١. يونس ١٠/١٨.
٢. الزمر ٣٩/٤٤.
٣. البقرة ٢/٢٥٥.

وقد ورد في تفسير القمي في حديث طويل، قال ابو جعفر عليه السلام: ان لرسول - الله صلى الله عليه وآله الشفاعة في امته ولنا شفاعة في شيعتنا ولشيعتنا شفاعة في اهاليهم، ثم قال: وان المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر ويشفع لخادمه ويقول: يارب اشفع له لانه كان يقيني الحر والبرد.

وقد ورد متواتراً ايضاً، ان شفاعة الرسول صلى الله عليه وآله عامة لامته ولسائر الامم من الصالحين وان اذنبوا بل حتى للانبياء في تضاعف درجاتهم وعلّو منازلهم.

الاتجاه الفلسفي

ان الوجود يراد به بتمام معنى الكلمة، هو وجود الحق تعالى الذي[1] لا يعتريه حد ولا ماهية، ولا ضعف، ووجود الممكنات وهي تختلف على مراتبها وقربها في العينية والتحقق من المبدء الاعلى وبعدها عنه.

وافضل مراتب الموجودات الامكانية هم الانبياء والاولياء وعلى رأس الانبياء والاولياء الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله الكرام المعصومين عليهم السلام فانهم اشرف الكائنات ووسائط التكوين والتشريع، على ما يراه الكثير من فلاسفة الاسلام ومعنى الوساطة في التكوين والتشريع، ليست هي من اتمام فاعلية الفاعل وهو الله تعالى، فانه هو الفاعل على الاطلاق ولا فاعل سواه في جميع الموجودات.

ولكن لما كانت الوجودات الامكانية تختلف بحسب مراتبها وقربها من المبدء الاعلى وبعدها عنه، فكل مرتبة من المراتب الامكانية، غايته الوجود الاشرف والاعلى، في الممكنات.

فكل وجود غايته هو الوجود الاشرف، كما ان غاية الكل هو وجود الحق تعالى، فالنبي وآله المعصومون عليهم السلام اشرف الكائنات واعظم الموجودات.

ولما كان وجودهم، هو المرتبة العليا في وجود كل ممكن، سواء قلنا بوساطتهم التكوينية والتشريعية وانهم من شرائط قابلية المجعول والموجود، او أنهم اعظم الموجودات ونورهم فائق على كل نور في دائرة الامكان، وكل نور مضمحل في نورهم.

---

١. المراد من الوجود هنا الوجود الحقيقي الفعلي في مقام الاثبات لا مطلق الوجود كما لا يخفى على المتأمّل (حفيده محمد طاهر).

وإذا كان مقامهم هذا، لابد وان تقع لهم الشفاعة والشفاعة للبشر لا تقع للكافر الجاحد، ولمن مات على غير الايمان والتوحيد، حتى لو كان موحداً في حياته ولكن اكثر من الكبائر والذنوب، حتى مات على غير الحق والتوحيد، فلا يمكن ان يتعلق به اللطف الالهي وإنما يتعلق اللطف الالهي على يد نبيه الاعظم صلى الله عليه وآله وانبيائه واوليائه، ان من مات على الايمان وان كان مذنباً، او كان مستضعفاً في العقيدة لقصور في ذاته، لا لتقصير في العقيدة والعمل، فان هؤلاء محل لطف الله وكرامته.

وقد جعل الله تعالى الواسطة في اللطف والكرامة، هو النبي الاعظم صلى الله عليه وآله والانبياء عليهم السلام والاولياء والصالحين من عباده.

فكل له نصيب من اللطف والرحمة على حسب استعداد نفسه وقبولها للفيض الالهي، فالصالحون من العباد يتعلق بهم لطف الشفاعة لعلو درجاتهم وترقي منازلهم.

واما اهل الذنوب والطاعات فيتعلق بهم اللطف والشفاعة بمرحلة عالية، وان لم تكن بتلك المرحلة وكذلك الضعفاء والمستضعفين من الناس في العقيدة، فان الله لا يتركهم من لطفه.

فالشفاعة من شؤون الرحمة واللطف وان فيضه لا ينقطع عن اللطف والرحمة ولما كان سير الشفاعة ان يقدر الله شأن انبيائه واوليائه تعظيماً لمقامهم وتكريما لشأنهم فتح باب الشفاعة لهم في كل ما يمكن ان يتعلق بالمشفوع له من الرحمة والعطف وقد اشرنا في الاعجاز عن بعض معاني الشفاعة وجهاتها، وتفصيل آيات المعاد يأتي في تفسير الآيات اللاحقة وما يقتضيه الامن من ذلك اليوم العظيم بحفظ الفرد أو المجتمع من نظامه الاجتماعي والاقتصادي والناموس الالهي وسياسته الدينية والمدنية، رزقنا الله شفاعة الرسول الاعظم واهل بيته الكرام عليهم السلام .

الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام واصحابه

في امالي الصدوق عن الحسين بن خالد عن الرضا عن آبائه عن اميرالمؤمنين عليه السلام قال، رسول الله صلى الله عليه وآله: من لم يؤمن بحوضي فلا اورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا انا له الله شفاعتي، ثم قال صلى الله عليه وآله: انما شفاعتي لاهل الكبائر من امتي، فاما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل، قال الحسين بن خالد، فقلت للرضا عليه السلام: يابن رسول الله فما معنى قول

الله عز وجل «ولا يشفعون الا لمن ارتضى» قال عليه السلام: لا يشفعون الا لمن ارتضى الله دينه.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له قال عليه السلام لا يشفع احد من انبياء الله ورسله حتى ياذن الله له، الا رسول الله صلى الله عليه وآله فان الله اذن له في الشفاعة قبل يوم القيامة والشفاعة له، وللأئمة عليهم السلام من ولده، ثم بعد ذلك للانبياء.

وفي الخصال عن علي عليه السلام قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون، الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء.

وفي الخصال أيضاً باسانيد عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كان يوم القيامة تجلى الله عز وجلّ لعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنبا ذنبا ثم يغفر الله له، لا يطلع الله على اعماله ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، ويستر عليه بان يقف عليه احد، ثم يقول لسيئآته كوني حسنات.

القرآن يفسر بعضه بعضا

«لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهداً»[١] «ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع»[٢] «يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا»[٣] «يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون»[٤]

الاعجاز (الآية ٤٩ - ٥٧)

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ

١. مريم آية ٨٧
٢. المؤمن آية ١٨.
٣. طه آية ١٠٩.
٤. الانبياء آية ٢٨...

بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

ثم رجع السياق إلى عدد النعم وآلائها، على بني اسرائيل، تلك الامة القاسية، انه تعالى قد نجاهم من آل فرعون، وانه فرق بهم البحر فانجاهم واغرق آل فرعون، ونظروا إلى عدوهم نظر العيان والمشاهدة وهي نعمة في الانتقام من العدو وما كان اداء هذه النعم، الا ان اتخذوا العجل، للعبادة بمجرد غيبة موسى عليه السلام للمناجاة لربه اربعين ليلة فظلموا انفسهم باتخاذهم العجل، ثم عفى عنهم لعلهم يشكرون، فان العفو والمغفرة، بعد القدرة على الانتقام من افضل النعم.

واذ آتينا الكتاب المجمل والفرقان المفصل، رجاء ان يهتدوا ويرجعوا من غيهم وعن تلك الصفات الذميمة، ثم اعلمهم طريقة التوبة ولكل ذنب توبة واقلاعاً خاصاً وشرائط في تحقق التوبة، فارشدهم لظلمهم لعبادة العجل.

ان التوبة إلى الباري والمنعم هنا ان يقتلوا انفسهم، فيقتل بعضهم بعضاً تمحيصاً للمطيع المؤمن وتأديباً للمجرم المرتكب، فتاب عليهم انه هو التواب الرحيم على عباده.

وإذا لم ينته الانسان بالوعظ والارشاد ينتهي بالسيف الصارم، وإذا لم ينته بالضمير والوجدان ينتهي بسفك الدماء والهوان، فعندها تاب الله عليهم، ورجع اليهم، لانهم رجعوا اليه وتابوا، والله هو التواب الرحيم، المتكرر منه العود باللطف والراجع اليهم بالرحمة، وكيف لا يرجع اليهم، وقد رجعوا اليه وكيف لا يفيض الجود عليهم وقد استحقوا الجود بالتوبة.

ثم تعرض السياق إلى بعض الذنوب، اذ قالوا لموسى عليه السلام ارنا الله جهرة، فانه من ضعف عقولهم وقلة معرفتهم لا يؤمنون الا بالمحسوس ولا يعتقدون الا بالمشاهدة الملموسة، فاخذتهم الصاعقة فهلكوا وماتوا ثم مننا عليهم ان بعثناهم من بعد الموت بسبب الصاعقة، رجاء ان يستقيموا ويشكروا المنعم.

وان الله من تمام نعمه على بني اسرائيل ان ظلّلهم بالغمام في مكان التيه لشدة حرارة الشمس في تلك الاراضي وعندما شكو، ذلك إلى موسى عليه السلام ، اظلهم الله بالغمام ودفع الله عنهم حرّ الشمس وقد تكثرت الاخبار في مفاد هذه الآية بان الله استجاب دعاء موسى عليه السلام في دفع الحر عنهم واسدل الله نعمه عليهم بان بعث اليهم المن والسلوى ليعيشوا عيشة

راحة لا عيشة عناء وبلاء.

ومع هذه النعم وتكثرها ما قاموا بطاعته تعالى ولا امتثلوا اوامره الا القليل منهم وهذا العمل ليس فيه ظلم على الله واي قدرة للعبد بان يمس كرامة الله بظلم او تعد، وكل ظلم فهو راجع إلى انفسهم وعند ذلك هداهم الله إلى طرق القبول والتوبة.

الاعجاز (الآية ٥٨ - ٦١)

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

وعند ذلك هداهم الله إلى طرق القبول والتوبة فقلنا ادخلوا هذه القرية من بلاد مصرا وبيت المقدس كما ورد في بعض الاحاديث ليخرجوا منه العمالقة وسياتي في الآيات الدخول من بني اسرائيل وقولهم لموسى لن ندخلها ما داموا فيها وكلوا رغداً حيث شئتم وادخلوا الباب سجداً، واسجدوا لفضل هذه النعم، وادعوا الله ان يحط عنكم اوزاركم، ويغفر لكم، فانا اوعدناكم وعد حق، لا ريب فيه، ان نغفر لكم خطاياكم ونعقب الغفران بالمزيد لمن احسن، وان الله لمع المحسنين.

ومع ذلك كله، بدل الذين ظلموا من اليهود القول غير الذي قيل لهم من التعاليم والناموس الالهي، فانزلنا على الذين ظلموا منهم عذاباً ورجزاً من السماء باسباب الفسق الذي ارتكبوه.

ثم اوضح سبحانه بعض المنن من استسقاء موسى لبني اسرائيل، وهم في بيداء الصحراء وصخورها، فأمر الله موسى عليه السلام بان يضرب الحجارة الصماء، فانفجرت اثنتا

عشرة عينا بعدد اسباطهم وقبائلهم، قد علم كل سبط محل شربه واستسقائه، كلوا واشربوا من رزق الله وفضله، ولا تغدوا وتعثوا في الأرض مفسدين تنبيهاً لهم من غفلة الرقاد انهم مع هذا ربما يعثوا في الأرض الفساد.

ومع هذه الحالة، فنسى بنو اسرائيل انفسهم ونسوا ما كانوا عليه في مصر من الاستعباد والذل والهوان، وما فهموا ان طلب المجد والاستعلاء يستدعي ملاقاة الشدائد، وركوب متون الاهوال، ولا يأتي بالترف والسرف، ولا يأتي، بقولهم لموسى عليه السلام نبيهم لن نصبر على طعام واحد، فطلبوا الدعاء من موسى والسؤآل من ربه ان يخرج لهم مما تنبت الأرض من البقل والقثاء والفوم والحنطة والعدس والبصل.

وهنا استنكر موسى عليه السلام وتعجب وقال اتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير لكم، من طلب المطاعم الشهية، وبقول الأرض وطيب المطعم بالذي هو خير لكم من طلب المجد والفضيلة والاستعلاء بحق، بان تكونوا قدوة الامم وخيار الخلق كافة، لما احباكم باصناف الكرامة والفضل الكثير، وان اردتم الاستبدال وطلب العاجلة، وترك الكرامة الاخروية، فعودوا إلى مصر واهبطوا إلى دار الذل والهوان تجدون ما سألتم، ولكم ما طلبتم.

هنالك ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤ بغضب من الله جزاء ونكالاً لجحودهم للنعم، ونسيانهم للعهود وارتكابهم للفسوق والتمادي في الكفر والعصيان والتمرد على انبياء الله، فيقتلون الانبياء بغير حق وان كل نبي يقتل، فانه يقتل بغير حق، لان هؤلاء تركوا طاعة الله وتمردوا، وكانوا يعتدون.

الاعجاز (آية ٦٢ - ٦٤)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

استعرض القرآن الكريم حال من سمى نفسه مؤمناً او يهودياً او نصرانياً او صابئياً، ان ليس الميزان هذه الاسماء «ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآبائكم ما انزل الله بها من

سلطان»[١] وانما الميزان هي الوحدة ومواجهة الرب بالايمان به، والايمان باليوم الاخرة والعمل الصالح، فان الله لا يضيع اجره، ويجزي باحسن ما كان يعمل، وانهم لا خوف عليهم في اليوم الاخرة والدنيا، ولا هم يحزنون.

اما من سمى نفسه مسلماً، او مؤمناً أو يهودياً، او نصرانياً، او صابئيا، ولكن لم يؤمن بالله ولا باليوم الاخر، وعمل الموبقات والجرائم، وجعل لله بنيناً واوساطاً سبحانه، او عبد النجوم كما يعبد بعض الصابئين فانه يجزي بما عمل.

ثم استعرض بعض المواقف لبني اسرائيل، ان الله اخذ الميثاق عليهم بالايمان، ورفع فوقهم الطور، فرفع الصخرة استظلالاً لهم، خذوا ما آتيناكم بقوة، فقد جئناكم بطرق الاستعلاء، وبنينا لكم سبل المجد والفخر في سماء الدنيا والاخرة وان رفع الطور ليكون لهم ظلا، لا ارعاباً ولا تخويفاً، بل ظلا ورحمة وتوجيهاً لهم، لعظمة الله، وان مثل هذه العظمة والرحمة لا ينبغي لليهود الا ان يطيعوا او يمتثلوا اوامر ربهم الذي جعل الطور ظلالاً لهم.

واذكروا ما كنتم فيه في عصور الفراعنة، فقد اخذ الله بايديكم ورفعكم فوق الامم، وفجّر الصخور لكم ورفع الطور واعزّكم بعد الذلة واعلاكم بعد الضعة.

فالعمل بالعهد والاخذ بالميثاق، هو الواجب على الامم، وان الله تعالى اخذ بايديكم لعلكم تتقون وبعد ذلك كله توليتم عن امره واعرضتم عن حكمه، ومع ذلك فلولا فضله ورحمته لكنتم من القوم الخاسرين.

ثم بيّن لهم القرآن الكريم، بان قسماً منهم وان كانوا بصورة البشر ولكن لما اعتدوا في السبت قلنا لهم، كونوا قردة خاسئين.

وقد ورد في تفسير ائمة الهدى عليهم السلام توضيح هذه الآيات بان موعد موسى عليه السلام كان اولاً ثلاثين ليلة ثم اتمها بعشر، وبينت ايضاً النعم بانفجار الحجر اثنا عشرة عيناً وانهم لما كانوا بالصحراء والتيه، رفع الطور ليظلهم عن الحر وانزل عليهم المن والسلوى والطير المشوي لياكلوا من نعمه.

ومع هذا كله عبدوا العجل، وكانت التوبة عن عبادة العجل ان يقتل بعضهم بعضاً، بعد ان صعد موسى عليه السلام على المنبر وامرهم بذلك فتقاتلوا وكفر الله عنهم عبادة العجل، وتاب عن مقتولهم، وعما بقى منهم.

---

١. يوسف ٤٠.

الاتجاه الفلسفي

ان الهداية للبشر مما لا يمكن ان يهدي بعضهم بعضا، لقصور النفوس غالباً عن معرفة الحقائق والاتجاه للواقع، فكان السير التكويني والسلوك الانساني ان يكون بين البشر وافراد الانسان وبيّن الله المتفضل بالنعم وسائط، وهي ارقى عالم البشرية وهم الانبياء والاولياء ولهم منزلتان، الاولى اتصالهم بالله تعالى بالهام ووحي وليس قبولهم للوحي على نحو التقليد والوثوق بالوساطة من الملائكة لان علم الانبياء علماً يقينيا وكشفاً للواقع، فيبلغون الناس ما ينفعهم في المعاد والاخرة وفي هذه النشأة بان لا يخسروا النشأتين وان ينالوا خير الدارين.

الثانية، اتصال الاولياء والانبياء بالبشر لانه اقرب إلى تفاهم البشر من بعث الملائكة وان الانبياء والاولياء، يوجهون الخلق إلى الخير والكمال، وكل تقصير من امة ليس الا من افعالها، فاذا تكاملت افعالها بالخيرات بلغت اوج السعادة، وإذاتنزلت بلغت إلى الشقاوة.

وان بني اسرائيل مع تلك النعم من رفع الطور وتفجر العيون الجارية والمآكل الشهية والظل بالغمام، قابلوها بالعصيان والتمرد والطغيان، حتى عبدوا ما لا يعقل ولا يدرك وهو العجل وكلما قدمهم موسى للهدى تقدموا للشقاوة، وعندها رجعوا إلى التوبة، وإلى اقوى مراتبها، واشدها على النفس.

فان التوبة، قد تتحقق بالاستغفار والندم وقد تتحقق باداء حق الآخرين، إذا كان من حقوق الناس وقد لا تتحقق الا بترك السيئآت مدة والمواظبة على الحسنات.

ولما كانت التوبة بجميع مراتبها المتعارفة لا تقطع جذور العصيان من بني اسرائيل وقد كفروا بالله وعبدوا ما لا يعقل، فكان من المتعين في عالم القضاء والقدر ان لا تحصل التوبة الحاسمة لمادة الكفر والنفاق، الا بما اخبرهم موسى عليه السلام عن الله تعالى، ان يقاتل بعضهم بعضاً، حيث لا تنقطع مادة الفساد منهم الا بمرحلة القتل والقتال، فلما اقتتل بعضهم مع بعض إلى كمية معينة من القتل تاب الله عليهم ورجع اليهم لاجل ان ينقطع عنهم جذور النفاق ويتوجهوا بعد هذا الانحطاط إلى لطف الله وعطفه، كما منّ عليهم من قبل وكل ذلك رحمة بحالهم لان الانسان هو الذي يجني على نفسه ومع جناية الانسان على نفسه، لم يسد الله باب الرجوع اليه، ففتح اليه باب التوبة والقبول وعفى عن كل ما تقدم إذا اقبلت نفسه على الطاعة والحسنات.

الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام وأصحابه

في الدر المنثور عن علي عليه السلام في قوله تعالى: «واذ قال موسى يا قوم انكم ظلمتم انفسكم»، الآية، قال قالوا لموسى عليه السلام ما توبتنا، قال يقتل بعضكم بعضاً، فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل اخاه واباه وابنه، وولا يبالي بمن قتل حتى قتل منهم سبعون الفاً واقل من ذلك فاوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا ايديهم وقد غفر الله لمن قتل وتاب على من بقى.

وفي تفسير القمي قال عليه السلام ان موسى عليه السلام لما خرج إلى الميقات ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل، قال لهم موسى يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم واقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فقالوا له كيف نقتل انفسنا، فقال لهم موسى اغدوا كل واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكين او حديدة او سيف، فاذا صعدت انا منبر بني اسرائيل فكونوا انتم متلثمين لا يعرف احد صاحبه فاقتلوا بعضكم بعضا، فاجتمع سبعون الف رجل ممن كان عبدوا العجل إلى بيت المقدس فلما صلى بهم موسى وصعد المنبر اقبل بعضهم يقتل بعضاً حتى نزل جبرئيل فقال قل لهم يا موسى ارفعوا القتل فقد تاب الله عليكم فقتل عشرة الاف وانزل الله ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم - ولعل المراد من الرواية الاولى، من السبعين الفاً استعدادهم للقتال وان كان المقتول عشرة آلاف.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين»[١] «ثم صدقناهم الوعد فانجيناهم ومن نشاء واهلكنا المسرفين»[٢] «قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن انجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم انتم تشركون»[٣] «ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل»[٤]

---

١. يوسف آية ١١٠.
٢. الانبياء آية ٩.
٣. الانعام آية ٦٣ - ٦٤.
٤. الانعام آية ١٠٢.

الاعجاز (الآية ٦٥ - ٧٦)

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

الآيات دالة من غير تجوز ولا مبالغة، بانهم لم يخرجوا عن عالم البهائم ولم يتجاوزا حالة السباع والقردة، خسئت نفوسهم عن الترقي والاستعلاء وانحطوا إلى مقام الشهوات، وحب المادة، فلم يخرجوا عن هذا النطاق ولم يتحلوا بحلية الفضيلة والعلم، فقد استحالت نفوسهم وارواحهم إلى القردة المنحطين الخاسئين، وان كانت اجسامهم اجسام الادميين وهذا حكم على الروح والتفكير، من ناحية تأثر الجسم والطبيعة المنحرفة عن الشرف والكمال.

ثم استعرض القرآن الكريم قصة البقرة، اذ قال لهم نبيهم موسى عليه السلام وهو المنقذ لهم من استعباد فرعون، ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة، ولابد ان يطاع امر الله، ويتمثل في عباده، فكان جواب تلك الامة القاسية، التي لا تعرف من الاداب والكمال شيئاً، اتتخذنا هزواً، فارجعهم ذلك النبي الذي يعرف نفوسهم وهو من ابناء جنسهم إلى جادة الادب، وان يرفق

بهم مهما كانوا في غاية الجهل والعمى، فعرفهم برفق، ان الرسول من قبل الله تعالى، لا يجوز له ان يتقول على الله، ولا يتخذ الهزوء في اوامر الله، اذ ان ذلك تعريض لاحكام الله بعدم القبول والشك والتردد، على ان حالة النبوة ومكانة الرسالة ان يتبرء خلق النبي ويتباعد المبعوث من قبل الله، عن افعال الجهلة، ولا يكون من السفهاء الواضعين للاشياء في غير مواضعها وهو ينافي مقام النبوة والرسالة والهداية لارشاد العباد، بل لا تصلح السخرية، والجدل بمقام الصالحين والمتقين من عباده، فكيف بمقام الانبياء.

ولما اجابوا إلى صراط الامتثال وإلى طريق الطاعة، لم يفهموا كيف يكلفون كما هي عادة الاغبياء، وعادة المنحرفين في الطبائع الانسانية والغرائز البشرية، فطلبوا التفصيل، وكانوا في فسحة من الامر ووسعة من التكليف، فاخبرهم ذلك النبي العطوف، امام بني اسرائيل والامم انها لا فارض ولا بكر، ليست بشوهاء كبيرة السن، ولا صغيرة، صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، ولا هزيلة في نشاطها ولا امتلاء بدنها باللحم، في غاية الصحة والاستواء، ولو كانت هزلاء وشوهاء او مريضة فانها لا تسر الناظرين، رؤيتها ولما كلف الله بني اسرائيل، في امتحانهم بذبحها، وان الله اراد ان يفهمهم القاتل للشخص الذي ترددوا فيه، ونسب كل سبط إلى الاخر الجريمة، فجاء الامر من الله تعالى على لسان موسى عليه السلام ان يذبحوا بقرة وعند ذلك فالتفت ايها القارىء إلى عقد نفوس هذه الامة وهم بنو اسرائيل، كيف اتخذوا نبيهم بالاستهزاء، وكيف لم يمتثلوا اول التكليف، بل وجدوا التكليف معقداً عليهم بالاسئلة والتفاصيل، وكيف خاطبوا موسى عليه السلام بقولهم سل ربك ولم يجعلوا الله سبحانه وتعالى رباً للجميع.

واخيراً قالوا، الان جئت بالحق، وقد جاء موسى عليه السلام بأول ما خاطبهم بالحق ولكنهم امة اغبياء، قد تعقدت نفوسهم وابتنت على العناد والجدل والمخالفة لاوامر الانبياء وما امتثلوا ذبح البقرة، الا بعد البينات المتعددة، كل ذلك لعدم الاطمئنان برسولهم، وتحجر نفوسهم.

ولذا تراهم لايقنعون بكون موسى عليه السلام نبياً، بل يريدون ان يثبتوا كل امر يقوله موسى عليه السلام بالحس والمشاهدة، وما ذاك الا لعنادهم وقصور نفوسهم وبعدها عن الحق، فلا يكتفون بالتصديق بنبوته، بل لابد ان يقيم البرهان بالمشاهدة، على كل حكم يريده منهم.

وان حديث ذبح البقرة التي سميت السورة الشريفة بها مذكور في التوراة بصورة

مفصلة من بيان تهمة كل سبط للسبط الاخر بقتله للنفس، وان علماءهم ذبحوها في ارض مخصوصة من الصحراء، وهذا بعيد عن لسان التوراة، من بيان حالتهم وحالة قتلهم، وانكار كل سبط ان يلوث بدم المقتول، فان الحديث عن حالتهم، وقصتهم وذكر اسباطهم، وقتلهم للبقرة في محل مخصوص، مما يبعد انه كلام الله وانها التوراة الاصلية التي جاء بها موسى عليه السلام، ويقرب ان يكون ذلك، من مفتعلاتهم وافترائهم.

وفي المعاني وتفسير العياشي عن البزنطي، قال سمعت الرضا عليه السلام يقول ان رجلا من بني اسرائيل، قتل قرابة له، ثم اخذه وطرحه على طريق افضل سبط من اسباط بني اسرائيل ثم جاء يطلب بدمه، فقالوا لموسى عليه السلام ان سبط آل فلان قتلوا فلاناً، فاخبرنا من قتله، قال ائتوني ببقرة، قالوا اتتخذنا هزواً، قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين، ولو انهم عمدوا إلى اي بقرة اجزأتهم، ولكن شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم.

ثم استعرض الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حالة اليهود للمسلمين، فقال، افتطمعون ان يؤمنوا لكم، ويدخلون في دينكم، وان فريقا من اليهود، يسمعون كلام الله سماع فهم وتأمل ثم بعد ذلك يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه وتدبروه فيوحى القرآن الياس منهم في الرجوع إلى الهدى، فاليأس اقرب من طلب المحاولة، والقنوط اولى من توجه تلك النفوس المنحرفة والذوات القاسية والقلوب المريضة بجرائم الذنوب.

وان استعداد القلوب من شرائط قبول الايمان وخلو النفوس من الامراض الباطنية موجب لاستعدادها للقبول، وبعد ذلك استعرض السياق حالتهم، من النفاق والرياء، وحالة الخداع والمراوغة.

وان من نظر إلى حالات اليهود، وما اخبر به القرآن، فمرة يخاطبهم، على نحو توجيه الخطاب لهم، واخرى على نحو الغيبة، وقد تأتي بعض الآيات، في ذمهم على نحو الغيبة، ثم يأتي الالتفات، في خطاب الله تعالى اليهم على نحو المواجهة، كل ذلك كاشف عن تعسر هدايتهم وجمودهم على الباطل.

ومن نظر إلى الآيات بعين التأمل في بيان حالاتهم وجدهم، وان كانوا موحدين ظاهراً، ولكن عقيدتهم تشبه الطبيعيين، والماديين، فيرون الله جسماً وملكاً كسائر الاجسام والملوك في الدنيا ويتمشى بين اظلال الشجر في الجنة، ولهذا هانت عليهم الحقائق، وما

عرفوا الله حق معرفته، بل عرفوه معرفة مادية، وملكاً جباراً، وهذه المعارف من اليهود او الطبيعيين والماديين، لا تتناسب مع معارف الاسلام، ولذا كان في اذهان كثير منهم انهم يراؤون المسلمين وينافقونهم، وانه يخفى على الله ذلك.

ومن عقائدهم انهم الشعب الخاص لله وابنائه وان القرآن الكريم اظهر جهلهم في كثير من الآيات وان الميزان، هو فعل الحسنات واحاطت السيئآت بالانسان، ومن عمل السيئات واحاطت به سيئآته، فويل له مما جنى وارتكب.

فالمقربات هي الحسنات، والتي توجب دخول النار هي السيئآت.

وإذا نظرت إلى الآيات الكريمة التي تليت عليك تجدها كثيراً قد صرحت بغلطهم ومعتقداتهم، وانهم ينحون نحو المنافع والمادة، فكانوا يهددون المشركين من العرب، بأنه سياتي نبي في هذه المنطقة، ونحن اعوانه وانصاره وانتم اعدائه، فلما جاء وعرفوا انهم فقدوا منافعهم، وان الحق لا يجتمع مع باطلهم، انكروا ما عرفوه من التوراة وحرفوها، وقاموا بضد، دعوة النبي الاعظم ﷺ وقد واجهوه، بالمقاومة والحرب الا لعنة الله على القوم الظالمين.

فاذا لقوا الذين آمنوا بالرسول الاعظم، قالوا آمنا وإذا خلوا بعضهم إلى البعض الاخر من المنافقين او الكفار، قالوا اتحدثونهم بما فتح الله على الامة اليهودية من المبادىء والاحكام المشابهة لما جاء بها الاسلام، فيكون ذلك حجة للمسلمين عليكم، فجاء ما يصدقه كتاب التورات، وما يشاهد في الاحكام او ما علموا ان الله تعالى يأخذهم بالحجة وان لم يعترفوا بافواههم للمسلمين.

الاعجاز (الآية ٧٧ - ٨٣)

﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ

أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

وقد تكررت الآيات بذمهم، على عدم علمهم بحقيقة الواجب وانه محيط بكل ما يضمره الانسان وان الله العليم بما جعله في التوراة من الحق المبين وبما جحدوه وستروه، افيجوز النفاق مع عالم الغيب والشهادة.

ثم استعرض سياق الآيات، في تقسيم بني اسرائيل، بين جاهلين لا يعرفون الا الاوهام والظنون، وانهم لمغفور لهم، وانهم شعب الله المفضل على الناس، فحكاهم القرآن، منهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني، وانهم الا يظنون.

وعند ذلك، فويل لقوم من اليهود يستغلون بعض جهلة اليهود فيغيرون كتاب الله المنزل، على كليم الله موسى عليه السلام كل ذلك ليشتروا به ثمناً قليلاً ويبيعوا الاخرة الباقية بثمن بخس فهذا الامي الجاهل وهذا الشيطان المارد، الذي يحرف الكتاب ايحسب انه ناج من العذاب في الآخرة، ولو مسته النار، لمسته اياماً معدودة هذه امنية وخيال، اين المعاهدة بين الله وبينهم، قل اتخذتم عند الله عهداً وميثاقاً، فلن يخلف الله عهده، بل ولا وعده.

وهنا يتجلى الموقف بين الله وبين ان يكشف لهم حقيقة الامر، فاجابهم بالردع الصريح، بلى من كسب خطيئة واحاطت به خطيئته، ما الطف هذا التعبير وما اقوى هذا البيان.

فالخطيئة قد سجلت الاثم، فهو اسيرها، يعيش في محيط المعصية ويتنفس في افق ذنوبه، قد احاطت السيئة به احاطة العلة بالمعلول فاغلقت عليه منافذ التوبة وحجبت عنه الطاف الرحمة وعندها فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون، جزاء ونكالا بما كانوا يعملون، وهؤلاء على عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقرن العمل الصالح بحسن التوحيد والعدل، وان الايمان إذالم يكن قرين العمل الصالح لم ينشأ من القلب ذلك النماء الجيد وإذاتم الايمان ونمى العمل فاؤلئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون، ما دام الملك الحق وللابد.

ثم اخذ بذكر ما جاء من التكاليف على بني اسرائيل، ان لا يعبدوا الا الله، كما اخذها على سائر الامم، وبالوالدين احساناً ومعروفاً، وذي القربى واليتامى والمساكين، ذلك الدين

القيم الذي يامر بصنع المعروف، مع الاباء والاقارب، واليتيم والمسكين، اذ هو دين الرأفة والمروءة، لان الاباء يحتاجون إلى الرأفة والاحسان حينما تأخذ قواهم الايام وتذهب بقواهم السنين والاعوام، فيصبحون اسراء الله في ارضه، يزعجهم اقل مزعج، فأمر تعالى بالاحسان اليهم كما نهى عن عقوقهم، والاساءة اليهم، وهكذا الاقارب، فان صلة الارحام والاقارب، مما تزيد في العمر والرزق والاولاد، وهكذا الضعيف والمسكين وان يقولوا لكل احد احساناً، لا قولا مملوء بالغلظة والتوهين، ولا قولا مملوء بالشراسة والسخرية، وان قول الاحسان والمعروف والالتفات في مقام الخطاب إلى المواجهين، مما يوجه العبد إلى الهدف السامي، والآيات الشريفة هنا، بان لا يعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً إلى آخرها وان سيقت بمساق الخبر والحكاية، الا ان المراد منها هو الامر، بعبادة الله، والبر بالوالدين والارحام والمساكين الذين هم اضعف حالا من الفقراء وان الامر بصلة الارحام، واليتامى والمساكين، لا ينافي جهادهم إذا كانوا كفرة، ومقاومتهم إذا كانوا مشركين.

ففي حال الشرك من هؤلاء يكون الاخبار والانشاء على وجهة اخلاقية، وان كانوا مسلمين كان على نحو الوجوب او الاستحباب ثم اخبر ان الله اتبع الرسل بعد الرسل بعد نبوة موسى عليه السلام كل ذلك اقامة للحجة على بني اسرائيل.

فالاسلام لم يأت ثقلا على عاتق البشرية، ولا حملا ثقيلا على نفوس الاجتماع، بل جاء الدين الاسلامي، وابرز تلك الغرائز الفاضلة، والصفات الحميدة، من الصدق والامانة والخشوع والتذلل لله واداء حقوق غيره، والاخذ بحقوقه والمساواة في الحقوق، وتنزيل كل شخص منزلته وما تقضيه فضيلته، فان الاسلام دين الفطرة وصراط النفس المستقيمة والجو النافع لكل الطبقات.

فالاسلام دين رأفة ولطف وحنان وشعور روحي وصلة بين العبد وربه وبين العبد وسائر الناس، ولم يكن فيه قانون الاعلى وفق الفطرة، وعلى ابراز تلك الصفات النفسية العالية وان يكون الانسان قد طبقها خارجاً في العمل، من غير كلفة كما روى عن الامام الصادق عليه السلام الدين المحبة بينك وبين الله، والمحبة بينك وبين الناس، فان احببت الله اقمت فرائضه، وانتهيت عن نواهيه، وإذا احببت الناس قمت بحقوقهم، وقاموا بحقوقك.

فالاسلام دين الله الذي جاءت به جميع الانبياء، على وفق الروحانية والكمالات النفسية.

ثم امر الله تبارك وتعالى اليهود، باقامة الصلاة كما امر سائر الامم، وان يؤدوا الزكاة، ومع هذه التعاليم الالهية لليهود، تولوا عن الذكر، وهم معرضون، الا القليل ممن عصمه الايمان، واخذت التقوى بيده.

ما الطف هذا الخطاب والالتفات، من حال الغيبة مع اليهود، إلى حال الخطاب والمواجهة إلى المسلمين، ان لا يسلكوا هذا المسلك الضيق، والمذهب الذي تنحط به الكرامة بهوى النفس وميولها.

الاعجاز (الآية ٨٤ - ٨٥)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

ثم استمر ايضا الخطاب مع بني اسرائيل، فقال: واذ اخذنا العهد الوثيق عليهم، ان لا يسفكوا دماءكم، فيسفك بعضهم دم بعض ولا تخرجون انفسكم من دياركم فيخرج بعضكم بعضاً، ثم اقررتم على هذا العهد وانتم تشهدون، وبعد مدة تقتلون انفسكم فيقتل بعضكم بعضاً، وتخرجون قسماً وفريقاً منكم، من ديارهم، فيخرج اليهودي اليهودي، ويتظاهر اليهودي على اليهودي بالاثم والعدوان.

وقد حرم عليكم وفي سنتكم اخراجهم، افتؤمنون ببعض وهو فداء الاسارى منكم، وتكفرون ببعض في مقاتلة اليهود، فاليهودي يقف بازاء العربي المخالف من الاوس، فيقتل اليهودي الاخر المخالف لقبيلة الخزرج، طمعاً في الغنائم ومصالح الحرب، وقد حرم في التوراة ان يقف مع اليهودي في الحرب، وان لا يخالف اليهودي الاخر، ومع ذلك، فقد فعلتموه طمعاً في الغنائم والمال، لا امتثالاً للشريعة، وانقياداً للرسالة المحمدية، وإذا جاء الفداء من الاسارى، ففدّى اليهودي اسارى اليهود ممن يخالف القبيلة الاخرى فهذا ايمان ببعض الكتاب، وكفر ببعض، وما جزاء من يفعل ذلك الا الخزي في الحياة الدنيا، وأيّ خزي اعظم من خزي الاخرة.

فبسبب المادة العمياء بلا تأمل فيما يفعل فيردوا في يوم القيمة إلى اشد العذاب، لكفرهم باحكامه، وتمردهم على عصيانه وان الله ليس بغافل عما يعملون فانها بمرء ومسمع من الجليل، لا يغادر من اعمالهم، كبيرة ولا صغيرة الا احصاها وانهم قوم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فباعوا الآخرة الباقية، للدار الفانية.

فياله من خسران، وحط كرامة، فلا يخفف عنهم العذاب وليس لهم من ينصرهم من دون الله.

الاتجاه الفلسفي

ان الآيات الكريمة، قد ذكرت حالات بني اسرائيل، وتعرضت لكثير من المعاجز من احياء الموتى، كما في قضيه ابراهيم عليه السلام وعيسى عليه السلام.

قال تعالى: «واذ قال ابراهيم رب ارني كيف تحيي الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزء ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم»[١].

«ورسولا إلى بني اسرائيل، اني قد جئتكم بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وابرىء الاكمه والابرص واحيي الموتى باذن الله وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين»[٢] إلى غير ذلك.

وان من تمام حكمة الله مع بني اسرائيل ان احيى المقتول ببعض البقرة وقد شاهدوا ذلك عياناً فقد تمت عليهم الحجة بكل جهاتها.

ان من راجع الفلسفة، وجد أن البدن قابل لحدوث النفس فيه، ولذا تعرضنا له في (المثل الاعلى) ان النفس تتعلق بالبدن بعد حدوث البدن، ووصوله إلى مرحلة يمكن تعلق الروح والأمورالمجردة به كما هو المختار من رأي الفلاسفة المتأخرين وان خالف الشيخ الرئيس وغيره من القدماء، بان النفس هبطت إلى الاجسام، من المحل الارفع، وان النفس لما اتحدت مع البدن، فانه يعود في يوم القيامة باجزائه الاصلية وان ذهبت منه الكثافات، وان الروح والنفس في قالب مثالي بعد الموت بحيث إذا رأيته لقلت هو هو، من غير فرق، وان

١. البقرة آية ٢٦٠.
٢. آل عمران آية ٤٩.

كان في ذلك الحال لا ينقطع الاتصال بين الروح والبدن المثالي وبين الجسد العنصري، وان صار تراباً في السعادة والشقاوة.

وان الانسان وان ترقى من عالم النطفة إلى عالم العقل فاذا فارق الدنيا تم كماله، والموت كمال الانسان، لا ذهاباً له كما يراه الطبيعيون.

وان الاعجاز، لا ينافي نظام الطبيعة ولا يصدر من غير علة، غاية الامر قد لا تعرف العلة ومنشأها، ولا يدل هذا المعنى على صدور الاعجاز صدفة واتفاقاً فان كل معلول وموجود لابد ان تتم مراتب استعداده وقابليته للايجاد فالله هو القادر بكل معنى الكلمة ولكن لا تجري الأمورالا على حسب الواقع من استعدادها وقابلياتها وسيأتي توضيح ذلك في موارده.

فالاعجاز لا ينافي نظام الكون في حقيقته وماهيته وإذا اوجد الله الانسان بعد الموت واحياه بعد الفناء بقبره فقد يتخطى إلى الذهن انه كيف يصح ذلك لان النفس في سيرها من عالم إلى آخر سير ترق واوج إلى الكمال، وإذا صارت النفس تنتقل من مرحلة إلى اخرى، ومن منزلة إلى اعلى كيف يرجع إلى دار الدنيا بالمعجزة لانه لو رجع إلى دار الدنيا لكان ذلك تنزلا من المرتبة العالية إلى النازلة، ومن الاوج إلى الحضيض ومن الكمال إلى النقص والضعف وحينئذ فكيف يصدق احياء الاموات بعد الموت، ورجوعهم إلى الدنيا، ولو بالاعجاز فانه يستدعي الرجوع من الكمال إلى النقص لان الناس في سيرهم إلى التكامل، مما يتنافى مع هذا.

نعم - تكامل الجسم والروح بأواخر مراحله هو يوم البعث والمعاد وانت عند التأمل لا تجد لهذه التشكيكات اثراً علمياً ولا حقيقة واقعية، بعد ان صدرت على ايدي الانبياء من ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ومما جرى على ايدي سيد الرسل صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام فان وقوع الشيء برهان قاطع على امكانه الذاتي وامكانه الوقوعي.

وان حقيقة الرجوع إلى الدنيا، ليس الا انكشاف حالة الميت في دار الدنيا لا انه يوجد في الدنيا بعد اعدامه في الاخرة وحقيقة ا لمعجزة من الانبياء في احياء الموتى ليس الا انكشاف الميت لاهل الدنيا لا انه انتقل من دار إلى اخرى، ومن الجائز ايضاً ان في الانسان كمال عند وصوله إلى البرزخ ان يتسنى له بحسب المعجزة بان يرى اهل الدنيا ويشاهدونه وليس معنى الموت الا لبس بعد لبس وتكامل بعد ضعف ولا يمتنع ذلك التكامل في عالم

البرزخ عن المشاهدة في دار الدنيا.

وان بعض الاموات من كمال ذاته قد تتعلق به المعجزة بالرجوع إلى الدنيا وانما جاء من الانبياء في احياء الموتى عند التأمل ليس الا انكشاف عالم البرزخ والاموات إلى من كان في نشاة الدنيا وهذا ليس من سير الشخص من منزل إلى آخر اقل من منزلته الاولى، فان انكشاف بعض الاموات لاهل الدنيا بحسب المعاجز ليس الا انكشاف عالم البرزخ لاهل الدنيا لاعادة الميت اليهم بطبيعته الاولى.

فمثلا - اعجاز موسى عليه السلام بمن قتل، وان ذلك كان بذبح البقرة ليس معناه رجوع المقتول إلى دار الدنيا وانما هي مشاهدة بني اسرائيل لذلك المقتول من باب انكشاف حالة الميت للاحياء بسبب اظهار المعجزة من موسى عليه السلام لا ان الميت قد عاد إلى بني اسرائيل بحياة دنيوية.

وعلى كل لم ينكشف للفيلسوف على حسب البرهان القطعي امتناع رؤية عالم البرزخ لاهل هذه النشاة، ولا امتناع على رجوع الميت إلى الدنيا، باسباب معاجز الانبياء.

الاتجاه من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه

في المحاسن عن الصادق عليه السلام في قول الله تعالى «خذوا ما آتيناكم بقوة»، قوة الابدان او قوة القلب، قال عليه السلام فيهما جميعاً.

وفي الدر المنثور، عن ابي هريرة، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله لولا ان بني اسرائيل قالوا، وانا انشاء الله لمهتدون ما اعطوا ابداً، ولو انهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لاجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم.

وفي تفسير العياشي، عن الحلبي في قوله تعالى: واذكروا ما فيه قال اذكروا مافيه، واذكروا ما في تركه من العقوبة.

وفي المجمع في قوله تعالى، وإذالقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذاخلا بعضهم إلىبعض فعن الباقر عليه السلام قال كان قوم من اليهود، ليسوا من المعاندين المتواطئين إذالقوا المسلمين حدثوهم بما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله فنهى كبرائهم عن ذلك، وقالوا لا تخبروهم بما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله فيحاجوكم به عند ربكم فنزلت هذه الآية.

وروى الشيخ في اماليه قريباً من هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله وفي الكافي عن احدهما

في قوله تعالى، بلى من كسب سيئة، قال إذا جحدوا ولاية امير المؤمنين عليه السلام فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون، وبمضمونها ما ورد في تفسير العسكري ونسب إلى الصادق عليه السلام وغيره من الائمة عليهم السلام كما رواه البزنطي والحلبي والعياشي وغيرهم.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين»[١] «فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصباً ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون»[٢] «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا»[٣] «وقال موسى اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»[٤] «قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى»[٥] «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً»[٦] «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين»[٧]

الاعجاز (الآية ٨٦ - ٨٨)

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

(اولئك الذين اشتروا... الخ) بينت الآية الشريفة سيرة اليهود ومن مضى على

---

١. الصف آية ٥.
٢. العنكبوت آية ٤٠.
٣. النساء آية ١٥٥.
٤. المؤمن آية ٢٧.
٥. طه آية ٦١.
٦. النساء آية ٣٦.
٧. الممتحنة آية ٨

طريقتهم من سائر الملل والاديان بانهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فباعوا الاخرة بالدنيا وعوضوا ما لا يفنى بحياة تفنى، واشتروا الضلال بالهدى، فباعوا الهدى مع احقيته، بالضلال مع بطلانه وعدم دوامه، وان من حالات اليهود ملاحظة المادة في كل عصر وحين، ولما يجدوا انفسهم قليلي العدد، غير ملائمين للاخلاق البشرية، لا يفهمون الا طلب المادة والمال من أي طريق كان، من طريق محرم او حلال، من رباً أو خداع، من مكر او مغامرة فلا يخفف عنهم عذاب الدنيا والآخرة ولا هم ينصرون لاعمالهم الباطلة.

«ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وايدناه بروح القدس افكلما جائكم رسول بمالا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون».

ان الله سبحانه وتعالى اوضح للمسلمين في هذه الآية ولسائر الامم ان موسى عليه السلام ممن اوتي الكتاب، وجاءته رسالة السماء وتعاقبت من بعده الرسل، فرادف بعضهم اثر بعض، وتعاقب بعضهم عقيب بعضن وما يخلو دور من زمان موسى عليه السلام إلى زمان عيسى عليه السلام الا برسل متعددة متعاقبة كيوشع وارميا ودانيال وزكريا ويحيى، ولم يكن زمان بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام الا وقد ترادفت فيه الانبياء حيث ان كل امة تغلب عليها الخبث والعناد، يخرج الله من بين ظهرانيها اشخاصا، اصحاب فضيلة وكمال ورسالة من السماء، ليرجعوا اصحاب الغي عن غيهم واهل العناد عن مقاصدهم، حتى يرتدع المعاندون ويتقبلوا صلاح المصلحين، وهؤلاء بخلاف الامة، التي هي منقادة إلى الحق ومستسلمة إلى الواقع، فانه لا يحتاج إلى ترادف الرسالة اليها، بل تقنع برسالة واحدة، بخلاف الامة الخبيثة، فانها لا ترتدع الا باقامة الحجة بعد الحجة، والنذير بعد النذير، ليرجعوا عن غيّهم، ويتناسوا بطلان اعمالهم.

هذه سيرة الله في خلقه ومشيئته في عباده، ان الضلال الشديد والعناد الكثير لا يدفع او يرفع، الا بتكرر الحق وثباته، والا تحكم الظلم والجور، ولابد في الامة المعاندة ان تتعاقب الرسل فيها.

ولما كانت نفوس اليهود معقدة وحاقدة، لا يرون الاصلاح انفسهم، وجمعهم للمادة العمياء، تكثر في الكتاب المجيد التنبيه إلى غلطهم وارتكابهم للمنكرات وانهم لا يؤمنون بشيء، وليست غايتهم الا تفريق المجتمعات، وتخذيل النفوس وحفظ مصالحهم المادية

ولو بسحق كل كرامة.

قال تعالى - (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون).

قد يعترف المجرم بذنبه ويؤمن بأن عنده حالة سيئة وملكة خبيثة، مستمرة على المنكرات وانكار الحقائق والتباعد عن الدين الواقعي، فيقول اليهودي ان قلوبنا غلف مغلقة بحجاب فوق حجاب، فلا نعي إلى الدين ولا نلتفت إلى البينات ولا نصدق بالبرهان، مستمرين على العناد والجحود، متمادين في البغي والطغيان.

وعند ذلك ابعدهم الله عن رحمته وجعل عليهم كلمة العذاب والجزاء بما كانوا يعملون.

الاعجاز (آية ٨٩ - ٩٣)

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

(ولما جائهم كتاب... الخ) ان من عادة اليهود انكار الحق، وان اعترفوا به او لا والعناد للبراهين والبينات وان عرفوها قبل ذلك وصدقوها، فان اليهود كانوا يعترفون بين الناس، ويحتجون على المشركين من العرب بان الله سيبعث محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً للأمم، هادياً للبشرية على سطح هذا الكوكب ويندون بالمشركين بانهم سيغلبونهم، إذا بعث الله محمداً ﷺ.

ولما جاء الرسول ﷺ انكروا ما عرفوه، وجحدوا ما صدقوا به، مع ان ذلك مذكور في كتبهم ومصرح به في اسفارهم، ألا بعداً للقوم الكافرين الظالمين واللعنة الدائمة عليهم أجمعين إلى يوم الدين.

وقد ورد في الكافي، وفي الموثق عن الصادق عليه السلام ملخصاً، ان اليهود كانت تجد في كتبها، ان مهاجرة محمد صلى الله عليه وآله ما بين عير واحد، فخرجوا يطلبون الموضع، ونزله قوم منهم، ثم صاروا يقولون للاوس والخزرج، اما لو بعث محمد صلى الله عليه وآله لنخرجنكم من ديارنا، فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله آمنت به الانصار، من الاوس والخزرج وكفرت به اليهود ويقرب من هذا المضمون ما ورد عن العياشي وغيره وصحيحة اسحق بن عمار.

وقد ورد في الدرّ المنثور، ان اليهود كانوا عند محاربتهم العرب، يستنصرون الله في الدعاء باسم النبي محمد صلى الله عليه وآله ولما جائهم ما عرفوه من الحق برسالة الرسول كفروا به وجحدوه بعد اليقين بمعرفته.

قال تعالى (بئسما اشتروا به انفسهم، ان يكفروا بما انزل الله بغياً ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين).

لقد باع اليهود انفسهم سفهاً وجهلاً، فاشتروا الضلالة بالهدى والعمى عن الحق، فبئسما اشتروا به انفسهم، فباعوها بالرخيص الادنى والدار الباقية بالفانية، كل ذلك لتعقد نفوسهم وتمركز حب المادة وطلب المال في اذهانهم، فلا يرون حقاً الا العناد، ولا يرون واقعاً الا الباطل، الا بئسما اشتروا به انفسهم، والمراد بالشراء في الآية هو البيع.

وعلى كل حال الشراء بمعنى البيع[1]، او الاخذ بالتجارة مما هو خلاف الواقع، كما هو شأن اليهود، كفروا بما انزله الله بغياً وعناداً بان ينزل الله على بعض عباده، النبوة والرسالة، والهداية لاصلاح المجتمع، فارتكبوا جريمة على جريمة وغضباً على غضب وتمادوا في الغي والجحود، ولهم عذاب مهين.

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين﴾.

ان من عادة اليهود انكار الحقائق فعند ما يواجهون بان رسالة هذا النبي صلى الله عليه وآله قد صرح بها التوراة، وانكم ايها اليهود قد اعترفتم، زمانا طويلاً ببعثة نبي يقيم الحق ويدفع الباطل، حتى إذا جاء ذلك النبي وتمت دعوته واقام البراهين، أنكرتموه وقلتم نؤمن ببعض

---

١. اطلاق الاشتراء على البيع بالمعنى اللغوي أو الاصطلاحي انما يكون لورود قرينة على خلاف المعنى الموضوع له والا فالنفس لاتباع ولا تشتري لامتناع ذلك في حقاً عرفاً وانما هي قرينة على بخس تقييم نفوسهم التي هي نفحة من نفحات القدسية من الحق الجليل وبذلك يكون المؤدي من باب سبك مجاز في مجاز (حفيده محمد طاهر).

ونكفر ببعض، وكيف يمكنكم الايمان بالتوراة والكفر بدعوة النبي ﷺ التي صرح بها التوراة، فما ذاك الا تشهّيا على حسب طباعهم وسيراً على سوء ضمائرهم وكيف يبعّض ايحاء التوراة، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فان التوراة وهي الصادقة بالوحي الالهي صرحت برسالة هذا النبي، فلابد ان يعمل به مطلقا، اما العمل ببعض دون بعض، فذاك بحسب الرغبات والشهوات للسير على خلاف الطريق المستقيم.

وعند ذلك يبيّن القرآن حقيقتهم، بانهم قد كفروا بما في التوراة ولم يؤمنوا بما جاء به عيسى عليه السلام من البينات، فخالفوا ما في التوراة من حقيقة، ومن دعوة عيسى في النبوة.

وانكم ايها اليهود قد احلتم الدين على حسب شهواتكم ووجهتموه على وفق رغباتكم، لا تشعرون في الحياة، الا بالمادة ولا تفقهون شيئاً الا على تحصيل الثروات وكيف ادعيتم الايمان وقد قتلتم النبيين بغير حق وكذبتم رسله وقتلتم زكريا ويحيى وكثيراً من الانبياء وكذبتموهم، فلم تؤمنوا بالرسالة ولا برسول الله ﷺ ودعوته، فانتم اشر من الحيوان الضاري وشرّ من الذئب المتمرد.

«ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون».

«واخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا سمعنا وعصينا واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يامركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين».

يابني اسرائيل ان اعظم نبي في زمانه وأجلّ رسول في عصره، هو كليم الله موسى عليه السلام فلقد جاءكم بالبينات واخراجكم من ضغط فرعون وجنوده وعن حياة سجن وضيق إلى حياة حرية وامانة واطمئنان ومع هذا اتخذتم العجل رباً معبوداً وهو على صورة العجل وليس بعجل حقيقي، ولم تنظروا إلى ما جاء به موسى من البينات بعدما آمنتم بموسى ظاهراً وانقذكم من فرعون وجنوده، اصبحتم إلى اخفض المستويات تعبدون جسماً على صورة الحيوان، فكأنكم حيوان بصورة البشر ومتمردين بصورة الانقياد، لم تؤثر دعوة موسى عليه السلام فيكم، ولا مناجاته مع الله فى توجيهكم، اف لكم ولما تعملون ووصفتم انفسكم بالكبرياء وعظمتم انفسكم على سائر الامم وتكبرتم على جميع البشر من غير هدى ولا معرفة.

فان اتباع الشهوات والانقياد إلى الرغبات النفسية مما تبعد عن الانسان الحق ودين الصدق والوفاء، فلم تفوا الله فى عبادته ولا لموسى الكليم في دعوته، تظهرون الايمان وانتم بعين الكفر منغمسين، فقد ظلمتم انفسكم، لبيعكم العلم بالجهل والدين بالعناد ومع

ذلك كله فقد اخذنا منكم الميثاق بالتوحيد وبرسالة الانبياء، وبكل ما قرره التشريع الديني والنظام الالهي.

وقد رفعنا فوقكم الطور ليضلكم عن حرارة الشمس لا ارهاباً لكم، ثم قلنا خذوا ما آتيناكم من البينات والتعاليم الالهية وبتشريع موسى عليه السلام وماجاء به وبما تواترت عليه دعوة الانبياء وقلنا لكم اسمعوا واطيعوا ان كنتم مؤمنين، ثم قلتم سمعنا وعصينا، اي صغت اسماعنا لما يقول الوحي الالهي لنا ولما جاء موسى عليه السلام في التوراة من الاحكام

واذ عنتم ظاهراً للدعوة ولكن عصيتم واقعاً لما اكنته قلوبكم واضمرته سرائركم والجوارح لا تخضع الا إذا خضع القلب، والبدن لا تصلح حركاته الا إذا صلح الضمير والا كانت مراوغة لا عن الحقيقة، وخداع لا عن الواقع، فلبستم ثوب المنافقين، وتدرعتم بثوب المترددين وكانت ضمائركم على عبادة العجل، فاستحكم ذلك الخيال، من عبادة العجل فى اذهانكم واخذتكم الخيالات والاكاذيب، وعبدتم اوهاماً مزيفة وحالات كاذبة من عبادة جسم لا ينفع ولا يضر وتركتم الحق مع وضوحه، والآيات مع بيانها، واشرب حب العجل في قلوبكم، طبقاً للشهوات ووفاقاً لوساوس الشيطان، فبئس الايمان ايمانكم، وبئس الايمان الذي يدعوكم إلى رفض المعبود الحقيقي، فسرتم على هذا، واتبعتم عبادة المجسمات التي لا تغني شيئاً عن النفوس ولا تدفع البأساء والضراء ولكن لا ايمان لكم وبئسما تعملون..

الاتجاه الفلسفي

انك إذا نظرت بعين الحقيقة إلى هذه الآيات الكريمة، وجدتها ناظرة إلى هدفين:

الهدف الأوّل - حالة الانبياء والهدف من رسالتهم وبيان منزلة نفوسهم القدسية وارواحهم الشامخة.

الهدف الثاني - هو مخالفة اهل الضلال وتكبرهم عن امتثال اوامر الانبياء، او لان عدم امتثال اوامر الانبياء كان لمصالح فى انظارهم من حب المال والجاه والسيطرة، والرئاسة وحكومتهم على غيرهم من البشر.

اما الهدف الأوّل، ان النفوس بحسب مراتب وجودها وحدودها تختلف اختلافاً كثيراً، فترى بعضاً من النفوس يمثل الملكات الفاضلة، والصفات القدسية، باعلى مراتبها

ومنازلها، وترى بعض النفوس دون ذلك في ملكاتها القدسية، وتوجهاتها إلى الله، فهي بعد تلك النفوس وان لم تكن بدرجاتها ومنازلها، وترى بعض النفوس قسماً ثالثاً، قد قاموا بالصلاح والايمان والتقوى، وان لم يكونوا بالدرجة الاولى ولا الثانية «قل كل يعمل على شاكلته»[١] والوجود من الله تعالى يتعلق على كل ما يبرز من العدم ويظهر من ظلم الماهيات والحدود، فهو على مقدار الاستعداد.

ولذا لا يمكن فى مقام الايجاد من الله تعالى، ان يجعل ما كان من شأنه الهداية وارشاد البشر، ومن له القدرة على توجيه الخلق إلى المصالح الالهية، بان يصيّره من سائر الناس، فان ذلك مما لا يمكن تعلق الايجاد به، وكل ايجاد من الله تعالى لخلقه من الانسان او الملائكة او النفوس انما يتعلق على حسب استعداده ومراتب كماله، فافاضة الوجود على مقدار ما استعدت له الحدود والماهيات، ولذا لم تكن رسالة الرسل ونبوات الانبياء امراً تعليمياً، ولا دراسة فنية، بل انما هو على طبق استعداده واجداً للكمالات وبعيداً عن الرذائل.

وان اول صفحة يراها الانسان من وجود الانبياء ورسالة الرسل هو النبي الاعظم صلى الله عليه وآله فعقله فوق العقول، ونفسه فوق النفوس، وهو منتهى ارواح الملائكة، ونفوس المجردات، وان كان بشراً في جسمه، وانساناً فى بدنه، ولا منافاة بين الامرين، فباعتبار عقله وروحه أو نفسه فوق كل موجود، وان كان باعتبار جسمه هو من آحاد البشر، (قل انما انا بشر مثلكم يوحى إلي)[٢] ولا منافاة بين كونه اكمل العقول والارواح والنفوس، وبين تعلقه بالجسم والمادة، وان الله قد جعل في قوة الجسم والمادة تحمل النفوس القدسية والارواح الشامخة، التي هي فوق انوار الملائكة.

ومن هذه الناحية، كان الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله مورداً لتوسل الامم في قضاء حوائجها ونيل مقاصدها، كما ورد ان موسى عليه السلام افهم قومه بان يتوجهوا بالدعاء ويستفتحوا باسم محمد خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام غاية لوجود كل ممكن، ولما كان غاية الممكنات، كان هو الوسيلة في ترقي النفوس إلى اوجها، والوصول إلى الغايات والمصالح الالهية بسبب التوسط بذاته المقدسة وآله الكرام عليهم السلام .

وبكلمة موجزة، ان الافاضة من الحق لكل وجود على حسب قابليته واستعداده ومن هنا كان النبي نبياً، والولي ولياً، والصالح صالحاً، والشقي شقياً ولكن باختياره، فوجود

١. الإسراء ١٧/٨٤.
٢. الكهف ١٨/١١٠.

النبي وآله عليهم السلام غاية وجود الممكنات، واشرف ماتعلقت به الارادة التكوينية، في ايجاده صلى الله عليه وآله ومن هذه الناحية كانت رسالته ختاماً للرسالات ونهاية للتبليغ.

واما الهدف الثاني، ان النفوس في مقام نزولها وهبوطها عن اوج الكمال، تختلف في مراحل النزول، فرب نفس تكثر فيها ملكات المعاصي والتباعد عن الحق والواقع، نظير قوله سبحانه وتعالى ﴿سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون﴾[1] فهو لا يقبل اي هداية كانت او تبليغ، رغبة في لذائذ الدنيا، من الرئاسة والسيطرة وحب الشهوات من النساء والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وربما تكون بعض النفوس بعيدة عن الحق،ولكن لا بتلك المرحلة، فيجوز ان يأتي للحق بعد جهود واتعاب من قبل الانبياء، وذلك كبني اسرائيل في سلوكهم واعمالهم، فكثيراً منهم لا يتقبلون الهداية مع كثرة التبليغ من الانبياء وارشادهم إلى الحق، فيرغبون إلى ما تتوجه اليه نفوسهم، ويتقلبون من حال إلى حال بحسب اختلاف الظروف والازمان.

فانك ترى اليهود في المدينة واطرافها، كانوا يهددون الاوس والخزرج ببعثة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وكانوا يدعون بظهوره ويحلفون بذاته، وعند ما جاءهم انكروه وجحدوه، ولم يؤمنوا بما قاله موسى عليه السلام وما جاء به فى التوراة، اذ كان من ظنهم انه إذا جاء الرسول صلى الله عليه وآله حقق رغباتهم المادية من جمع المال والثروة، وهم الامة(الرأسمالية والاقطاعية) ويحقق رغباتهم المعنوية، من السيطرة على الامم واسترقاق القوميات الاخرى تحت ايديهم، ولما جاءهم النبي صلى الله عليه وآله أيسوا من ذلك وقاوموه اشد المقاومة، وانكروا ما دل عليه التوراة بصدق قوله ورسالته، فهم امة انما يستدلون بالتوراة، لتوجيه مقاصدهم، وعند ما تتخلف مقاصدهم ينكرون كل رسالة وكل كتاب.

الاتجاه من النبي و اهل بيته و اصحابه

في الكافي والعياشي عن الصادق عليه السلام انه قال في الآية الكريمة، كانت اليهود تجد في كتبها، ان مهاجر محمد صلى الله عليه وآله ما بين عير واحد، فخرجوا يطلبون الموضع فمروا بجبل يسمى جبيل وبجبل يسمى حداد، فقالوا حداد واحد سواء، فتفرقوا عنده، فنزل بعضهم بتيماء وبعضهم بفدك وبعضهم بخيبر، فاشتاق الذين بتيماء إلىبعض اخوانهم، فمربهم

١. البقرة آية ٦.

اعرابي من قيس فتكاروا منه، وقال امر بكم ما بين عير واحد، فقالوا له إذا مررت بهما فاذنا بهما، فلما توسط بهم ارض المدينة، قال لهم ذلك عير وهذا احد، فنزلوا عن ظهر ابله وقالوا قد اصبنا بغيتنا، فلا حاجة لنا في ابلك، فاذهب حيث شئت، وكتبوا إلى اخوانهم الذين بفدك وخيبر انا قد اصبنا الموضع فهلمّوا الينا، فكتبوا اليهم انا قد استقرت بنا الدار واتخذنا الاموال وما اقربنا منكم، فلما كان ذلك فما اسرعنا اليكم فاتخذوا بارض المدينة الاموال، فلما كثرت اموالهم بلغ تبع (وهو ملك من ملوك حمير) فغزاهم فتحصنوا منه فحاصرهم وكانوا يرقون لضعفاء اصحاب تبع، فيلقون اليهم بالليل التمر والشعير، فبلغ ذلك تبع، فرق لهم وآمنهم فنزلوا اليه، فقال لهم اني قد استطبت بلادكم، ولا أراني الا مقيما فيكم، فقالوا له ان ذلك ليس لك، انها مهاجر نبي، وليس ذلك لاحد حتى يكون ذلك فقال لهم اني مخلف فيكم من اسرتي، من إذا كان ذلك ساعده ونصره، فخلف حيين الاوس والخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون اموال اليهود وكانت اليهود تقول لهم، اما لوقد بعث الله فيكم محمداً لنخرجنكم من ديارنا واموالنا، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله آمنت به الانصار وكفرت به اليهود وهو قول الله عز وجل (وكانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين».

وفي الدر المنثور اخرج ابن اسحاق وابن جرير عن ابن عباس ان اليهود كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وآله قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ماكانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن ابي البراء وداود بن سلمه، يا معشر اليهود، اتقوا الله واسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وآله ونحن اهل شرك وتخبرونا بانه مبعوث، وتصفونه بصفته، فقال سلام ابن مشكم احد بني النضير ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فانزل الله تعالى، ولما جاءهم كتاب من عند الله... الآية.

وفي الدر المنثور عن ابن عباس قال كانت يهود بني النضير وبني قريضة، من قبل ان يبعث محمد صلى الله عليه وآله يستفتحون الله، ويدعون على الذين كفروا ويقولون، اللهم انا نستنصرك بحق النبي الامي الا نصرتنا عليهم فينصرون، فلما جاءهم ما عرفوا محمداً صلى الله عليه وآله ولم يشكّوا فيه، كفروا به.

وبمضمون ما ذكرناه ما ورد ايضا من تفسير الامام العسكري عليه السلام وغيره، عن امير

المؤمنين عليه السلام ان موسى عليه السلام الفت نظر بني اسرائيل انه عند حاجتهم يدعون باسم محمد صلى الله عليه وآله واهل بيته المعصومين عليهم السلام فان الله يستجيب لهم.

وقد طعن بعض المفسرين في هذه الروايات بانها ضعيفة السند وإذا راجع الانسان التاريخ من حالة اليهود قبل مهاجرة الرسول صلى الله عليه وآله إلى المدينة يعرف ان من حالتهم هو الترقب إلى نبي يبعث موصوفاً عندهم في التوراة، وانهم سينتصرون على الاوس والخزرج به، ولعل مضمونها متواتر، فالمناقشة في ثبوتها سنداً بعد تكثرها ودلالتها وتحقق التاريخ الذي لا ريب فيه على مضمون واحد لا وجه له.

واما استبعاد المفسر بانه كيف يدعون بحق النبي على الله فاولا، ان اليهود، كانوا يدعون بحق الرسول صلى الله عليه وآله وليس ذلك الزاماً من الله عليهم.

وثانياً - انا قد بينا في (انوار الوسائل) من كتاب البيع في معنى الحق، وان الحق بمعنى الثبوت، والحق يختلف مصاديقه كثيراً، من حق النبي على الامة والامة على النبي وحق الوالد على ولده وحق الولد على والده، وحق الجار على الجار، والمسلم على المسلم، والزوج على الزوجة والزوجة على الزوج.

وهذه الحقوق كلها بجعل من الله، وتترتب عليها الاحكام والتكاليف الشرعية حتى ان كثيراً منها يطلق الحق على الحكم الشرعي، بمعنى ثبوت الحكم وتحققه وهذا حق بمفاده اللغوي، وان كان باصطلاح الفقهاء قد يختص بالامور الوضعية كحق الشفعة والغبن والخيار، إلى غير ذلك، وكل حق جاء من الشارع المقدس يجب تقبلّه، فقد جعل الشارع حقوقاً له على البشر، من وجوب طاعته وامتثال اوامره[1].

وقد جعل الشارع ايضاً حقا عليه بان المسلم إذا اطاعه قابله بالثواب وجازاه بالنعم، إلى غير ذلك مما يشاهده من الاخبار الكثيرة من طرق الخاصة والعامة، وقد صرح الكتاب الكريم بثبوت الحق على الله، قال تعالى وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين، ﴿وكان حقا علينا ننجي المؤمنين﴾[2] وكيف لا يجعل الله حقاً لرسله عليه بعد قيامهم بدعوته، وتفانيهم في ذاته وجهادهم في دينه، وبذل النفس والنفيس في طاعته.

وثالثاً - ان القسم الذي كانت اليهود تحلف به، انما هو تكريما لمقام النبي صلى الله عليه وآله

---

١. انوار الوسائل - كتاب البيع - ج٧ - ص ٥٠ - ٥١، موسوعة الخاقانية. ط/الجديدة.
٢. يونس ١٠٣.

والقسم إذا كان لمجرد التعظيم والاحترام، فليس هو القسم الذي يدل على ارتباط العبد بربه، وانه إذا كان كاذباً وقع في المحاذير والاخطار في الدنيا والآخرة بعدم الاعتناء بمقامه تعالى، والتّجاسر على ذاته المقدسة.

واما الاقسام التي في حق غيره، فليس المقصود منها الا تعظيم من حلف به، من غير نظر إلى عقد ايجابي مع الله تعالى، بان يكون صادقاً وعقداً سلبياً مع الله تعالى بالانتقام إذا كان كاذباً ومخالفاً للواقع.

وقد تكثر في القرآن الكريم القسم بمخلوقاته، كقوله تعالى ﴿والفجر وليال عشر﴾[١] ، ﴿والتين والزيتون﴾[٢] وبذاته المقدسة، لان القسم بالمخلوقات بما انها اشارة إلى ذاته وقدرته هي قسم بذاته عند الحقيقة والتأمل، وهكذا القسم بالأنبياء، لانهم مظاهر وجود الحق وتجلّى انواره تعالى.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«واما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً اليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً»[٣] «ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين»[٤] «وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون»[٥] «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئآتهم واصلح بالهم»[٦] «ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب اليم»[٧] «الذين قالوا ان الله عهد الينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جائكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين»[٨] «واذ قال عيسى ابن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد فلما جائهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين»[٩].

---

١. الفجر ١.
٢. التين ١.
٣. النساء آية ١٧٣ .
٤. المائدة آية ٦.
٥. البقرة آية ١٣.
٦. محمد آية ٢.
٧. آل عمران ٢١.
٨. آل عمران آية ١٨٣.
٩. الصف آية ٦.

الاعجاز (الآية ٩٣ - ١٠١)

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ العَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا الفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

هناك تظهر الحقيقة، التي لا خداع فيها، ويبرز الواقع الذي لا يشوبه شك، وهو انكم ان كنتم صادقين في دعواكم وانكم حزب الله وجنده وانكم الشعب المختار، فتمنوا الموت، اذ الآخرة خير من الاولى للمتقين، ودار الآخرة انفع للمؤمنين.

ولكن لا تتمنونه ابداً، كما صرح بذلك القرآن الكريم في سورة الجمعة ﴿ولن يتمنونه ابداً بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين﴾[1] وقد اخبر القرآن الكريم، انهم لن يتمنوا الموت ابداً، لان الله عليم بظلمهم وان ماكروا وجحدوا، ولكن يعلمون بظلمهم، ولا تنال دار الاخرة بالظلم، واي ظلم اعظم من الكفر، وانكار رسالة الانبياء، كنبوة عيسى عليه السلام وسيد الرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿ولتجدنهم احرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يود احدهم لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر والله بصير بما يعملون﴾[2].

ثم ان القرآن الكريم، أكّد رغبة هذه الامة المعقدة من اليهود، انك يا محمد، لتجدنّ اليهود احرص الناس على الحياة الدنيا ولو كانت تلك الحياة قليلة وحياة الآخرة باقية دائمة، لتجدنهم احرص الناس على حياة مملوءة بالبأساء والشقاء، مغمورة بالمنكر والخداع متمادية بالجحود وانكار العقائد.

بل تجد هذه الامة الممتلئة نفسياتها بالرذائل، احرص الناس من المشركين على

---

١. الجمعة ٦٢/٧.
٢. البقرة ٢/٩٦.

الحياة الدنيا، ولو كانت اياماً قليلة، مملوءة ببأسائهم وشقائهم، يودّ اليهودي، ان يعمّر الف سنة، ولكن الحياة الممتدة، مهما بلغت من السنين لا تدفعه عن العذاب والله هو البصير والعليم بما يفعلون ويمكرون.

وقد جاء في الآيات الشريفة، نسبة العمل إلى اليد حيث ان اليد مظهر الفعالية إلى البدن، ومظهر البطش من الاخذ والعطاء.

فنسبة الافعال اليها كما قال سبحانه وتعالى، يد الله فوق ايديهم، ذلك بما كسبت ايديهم، إلى غير ذلك، وفي الآيات هنا تفسير لحالاتهم، من الحرص على حياة الدنيا.

وانكر القرآن الكريم، حياة الدنيا لوهنها في نظر الشارع وذهابها وعدم بقائها، وان الآيات هنا تفسر حالات اليهود، من كسب الجرائم بايديهم، ومن حرصهم على الدنيا، ومن عدم تمنّيهم الاخرة، ولو كانوا صادقين، لتمنّوا الاخرة.

﴿قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾[1].

ان الآية الكريمة تستعرض معنى مرتكزاً في اذهان اليهود وهدفاً في مقاصدهم يرون جبرئيل واسطة تبليغ للحروب والقتال ولتخالف الشعوب، هكذا عقيدتهم في جبرئيل، اما ميكائيل، يراه اليهود واسطة الاصلاح.

ولذا لما جاء النبي ﷺ إلى المدينة، وسأله ابن صوريا عن عدة مسائل واجابه الرسول ﷺ وصدقه ابن صوريا وسأله السؤآل الاخير، من يأتيك بالوحي فاجاب بانه جبرئيل، فانكر ابن صوريا واليهود على الرسول ﷺ وقالوا لن نؤمن لك، لان النازل عليك هو جبرئيل، وهو المبلّغ للقتال والخلاف، اما لو كان الوحي يأتيك من طريق ميكائيل، وهو واسطة الاصلاح والرأفة في الخلق لآمنا بك، فاجابهم الله تعالى، بان جبرئيل عليه السلام ليس له بالامر شيء ولا في التبليغ ولا التصرف في التبليغ وانما انزله جبرئيل هو من الله على قلبك ووعيك، وعلى قلبك وعقلك، اذ ملتقى الوحي بين جبرئيل والرسول ﷺ هو عقل الرسول والعقل يعبر عنه بالقلب، في حالة الوعي والالتفات، وما الطف العدول في الآية الكريمة من الغيبة إلى الحضور، وهو قوله على قلبك وهذا الوحي النازل مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين.

---

١. البقرة ٢/٩٧.

ان جبرئيل ملك مقرب كسائر الملائكة المقربين كميكائيل واسرافيل وروح القدس، قال تعالى: «عباد مكرمون، لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون»[١] «وعباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون»[٢].

﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين﴾.

فعندها يأتي القرآن الكريم بالحقيقة الثابتة، بين الله وعبده، وبين الخالق والمخلوق، ان لا فرق في العداوة، بين جبرئيل وميكائيل وسائر الملائكة، وان العداوة لرسل الوحى، عداوة لله وان المخالفة لوسائط التشريع والوحي الالهي، كجبرئيل وميكائيل وسائر الملائكة، مخالفة لله تعالى، والعداوة لله موجبة للانقطاع بين العبد وربه، وان العداوة لوسائط الوحي من الملائكة والرسل هي مبارزة وجحود لاحكام الله تعالى وحدوده، وان ذلك موجب لعداوة الله، فى كل من كفر وجحد، ولم يقبل الوساطة بين الله وبين خلقه.

وقد ورد في المجمع، في قوله تعالى، قل من كان عدواً لجبريل قال ابن عباس رضي الله عنه كان سبب نزول الآية، ما روى ان ابن صوريا وجماعة من يهود اهل فدك لما قدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة، سألوه فقالوا يا محمد كيف نومك،فقد اخبرنا عن نوم النبي الذي يأتي في آخر الزمان، فقال تنام عيناي وقلبي يقظان، قالوا صدقت يا محمد فاخبرنا عن الولد يكون من الرجل أو المرأة، فقال اما العظام والعصب والعروق فمن الرجل، واما اللحم والدم والظفر والشعر فمن المرأة قالوا صدقت فما بال الولد يشبه اعمامه، وليس له من شبه اخواله شيء او يشبه اخواله وليس فيه من شبه اعمامه شيء، فقال ايهما على مائه، كان الشبه له، قالوا صدقت يا محمد، فاخبرنا عن ربك ما هو، فانزل الله سبحانه وتعالى: «قل هو الله احد، الله الصمد» إلى آخر السورة الشريفة، فقال له ابن صوريا، خصلة واحدة ان قلتها آمنت بك واتبعتك، اي ملك يأتيك بما ينزل الله عليك فقال، يأتيني الامين جبرئيل قال ابن صوريا ذاك عدونا، ينزل بالقتال والشدة والحرب وميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنّا بك.

﴿ولقد انزلنا اليك آيات بينات ومايكفر بها الا الفاسقون﴾.

ولقد انزلنا اليك يا محمد آيات بينات كل آية في القرآن آية، وكل سورة آية ومجموع القرآن آية كبرى، وما يكفر بهذا القرآن وسائر معاجزك من الطير المشوي وحنين

١. التحريم ٦٦/٦.
٢. الانبياء ٢١/٢٧.

الجذع، وما يكفر بهذه الآيات ويخالفك يا محمد الا من فسدت عقيدته وفسد عمله. ﴿او كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل اكثرهم لا يؤمنون﴾. ان من عادة اليهود انهم إذاعاهدوا عهداً بين انفسهم وبين نبي من الانبياء، نكثوا العهد، كما عاهد يهود المدينة، وهم بنوا النضير وبنو قريضة وبنو قينقاع، فانهم بعد المعاهدة مع الرسول ﷺ نكثوا وولوا على ادبارهم، ورجعوا على اعقابهم، كما في واقعة الاحزاب والخندق، بل اكثرهم لا يؤمنون بالحق، واكثر فريق منهم لا يرجعوا إلى الواقع والصدق.

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لمامعهم نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون﴾ .

ولما جاءهم الرسول الكريم والنبي العظيم ﷺ، واخبرهم بما في التوراة والتصديق في الكتاب الحقيقي، الذي جاء إلى اليهود نبذه فريق منهم وهو الفريق الكثير، وجعلوا كتاب الله خلف ظهورهم عناداً وجحوداً، فكأنهم لا يعلمون شيئاً من الحق ولكن قد علموه وطالت عليهم شقوتهم، وآل الامر بهم إلى النار، وبئس القرار.

الاتجاه الفلسفي

ان الانسان عند ما يتوجه إلى المعارف الالهية، وإلى ما تقتضيه رسالة الانبياء والاولياء وسائر المعارف والعلوم الحقة، تأتي في الذهن على انحاء:

النحو الأول – ان يقع الانسان في عقائده واتجاهاته، منكراً لكل شيء من وجود المبدع وهو الله تعالى، والانبياء عليهم السلام وما تصرح به رسالاتهم، وهؤلاء الطبيعيون والدهريّون والمشركون من العرب وغيرهم.

النحو الثاني – من اتجاه البشر إلى المعارف الدينية، ان يقع مشككاً ومتردداً حتى الموت، فلا يؤمن بتوحيد ولا برسالة، ولا ينكرها بالدليل والبرهان، فهو نظير سفينة تتلاطم بها الامواج.

النحو الثالث – ان يكون عالماً بالمعارف والعقائد الدينية ولكنه لو ردده المشكك، لم يمكنه الدفاع عن عقيدته، ولا قيام البرهان على ما يعتقده.

النحو الرابع – ان يصل في معارفه إلى عين اليقين وحق اليقين وعند ذلك يشاهد المغيبات، كالمرئيات واسرار الخليفة كالظواهر فلا يطروا عليه التشكيك، ولا يتمكن أحد

ان يردده في يقينه وهذا جار في جميع الاديان والمذاهب وطبقات البشر.

ولما كان اليهود في معارفهم برسالة الرسول ليست بالغة إلى مرتبة اليقين فيقع الشك منهم بادنى مناسبة، فلا يجزمون بشيء، الا بحسب ما ارتكز في اذهانهم وان كان خطاء ولا ينقادون إلى رسالة الاعلى طبق شهواتهم وان علموا بصدقه.

وقد حكى الله حالة اليهود هنا، وفي سورة الجمعة، انكم لو كنتم على يقين في معارفكم، وحق اليقين في عقائدكم، وان علمكم قد كشف الواقع، فان كل مؤمن يتمنّى الفوز بالجنة، ويرغب إلى حياة الاخرة لان بها السعادة والبقاء من غير فناء، ولكنكم ترغبون في هذه الحياة وتعملون لها، وكيف يرغب من كشف له الواقع بدار فانية مملوءة بالاحزان والحوادث والنوائب، ويترك دار الآخرة.

وليس الانسان في هذه الحياة إذا تجاوزها، إلى الآخرة الا بانتقال شخص من منزل وضيع إلى منزل رفيع، ومن النقصان إلى الكمال، ومن دار محفوفة بالبلاء إلى دار محفوفة بالنعيم الباقي، فلو كنتم كما تقولون لطلبتم الاخرة، ولم تطلبوا هذه الحياة، ولو رغبتم البقاء إلى الف سنة، فكل آت قريب، ولا بد أن تواجهوا عقائدكم واعمالكم.

وان كل مؤمن إذاتم ايمانه، وبلغ المعارف الحقيقية، لم ير الدنيا الا طريقاً إلى الآخرة، ولايرغب في هذه النشأة الا لتوفير العمل الصالح والباقيات الصالحات فهو فى كل آن يرغب فى ملاقات ربه، ويرى نفسه عين الارتباط بخالقه. ولذا ان الانبياء عليهم السلام في سيرهم وسلوكهم، لا يحبون الا في الله، ولا تتوجه نفوسهم في جميع ايام حياتهم الا اليه سبحانه وتعالى لوصولهم إلىمراتب عين اليقين وكيف تتوجه النفوس الخبيثة المملوءة بالشهوات والرغبات، إلى حقيقة تكامل العلم والايمان.

وان للنفوس تكاملاً، وانحطاطاً، فاذا تمكن الانسان بحسب قدرته واختياره من الله تعالى، في التوجه إلى المعارف الالهية اشرقت نفسه بانوار قدسية، وتجلت روحه بالمظاهر الالهية، فيعد الغيب كالمشاهد المحسوس، على اختلاف درجات الناس ومنازلها في المعارف، والتوجه إلى الله تعالى، من الانبياء والرسل، والاولياء والابرار والصالحين، وإذا لم تتوجه نفسه، وكان اختياره ونظره إلى الرغبات، في هذه النشأة، والشهوات وحب الثروة والمال، والسيطرة والنفوذ، كان بينه وبين الواقع حجاب، وقد يبلغ به الحال ان لا يشعر بالهداية، ولا يتفطن إلى الغاية المنشودة في وجوده في هذه النشأة. وان ابعد أمة عن الحق،

وارتكاب الجرائم والشهوات هم اليهود، في كل عصر وجيل.

الاتجاه من ناحية النبي و آله عليهم السلام و أصحابه

روى عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال، لو ان اليهود تمنّوا الموت، لماتوا او لرأوا مقاعدهم من النار، فقال الله سبحانه انهم لن يتمنوه ابدا تحقيقاً لكذبهم.

روى الكلبي عن ابن عباس انه قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لهم ان كنتم صادقين في مقالتكم، فقولوا اللهم امتنا، فو الذي نفسي بيده، لا يقولها رجل الا غص بريقه فمات مكانه.

عن ابن عباس في قوله تعالى، او كلما عاهدوا عهداً، أراد به العهد الذي اخذه الانبياء عليهم ان يؤمنوا بالنبي الامي صلى الله عليه وآله .

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحبائه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما واليه المصير»[١] «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً اولئك في ضلال بعيد»[٢] «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آبائكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءَهم ان هذا الا سحر مبين»[٣] «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابنائهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون»[٤] «وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون وما هو الا ذكر للعالمين»[٥].

الاعجاز (الآية ١٠٢ - ١٠٣)

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا

١. المائدة آية ١٨.
٢. ابراهيم آية ٣.
٣. سبأ آية ٤٣.
٤. البقرة آية ١٤٦.
٥. القلم آية ٥١ - ٥٢.

نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

ان الآيات هنا، وان اوّلت بوجوه، وحملت ظواهرها على توجيهات وتأويلات، حتى اختار بعض المفسرين انها من القضايا الخلقية الخيالية، دون القضايا الواقعية، ولكن لا تجد آية من آيات القرآن ما اضطرب مفهومها عند بعض المفسرين كهذه الآيات في نظرهم واخرجوها إلى وجوه بعيدة وكل ذلك خروج عن نطاق القرآن، وعن اهدافه وبلاغته.

ان الآيات هنا تتعرض لتداول السحر بينهم وانهم، يستندون في ذلك إلى الحكاية عن سليمان وعن الملكين هاروت وماروت وقد عرفت ان حالات اليهود، حالات تحريف وتغيير في احكام الله، وقصصه وفي التاريخ، ويميلون في كل عصر من الزمن، على طبق منافعهم واغراضهم المادية.

وان هدف الآيات هنا، ان اليهود كانوا يتداولون السحر وينسبونه إلى سليمان وان سليمان عليه السلام لم يكن عندهم نبيا، وانما هو ملك جبار، سخر الجن والانس والطير والوحش بسحره، وان السحر جاء عندهم من ناحية سليمان عليه السلام ومن الملكين هاروت وماروت.

فاجابهم القرآن الكريم، رداً عليهم ان سليمان نبي ولا يعمل في السحر، لانه كفر بالله، يوجب الحجاب بينه وبين الله وقد نزّه الله سليمان عليه السلام بقوله تعالى (وما كفر سليمان) لان العصمة تمنع عن المعاصي فضلاً عن الكفر.

وان الشياطين من الجن والانس، هم الذين كفروا، اخذوا بالسحر وهم الذين يعلمون الناس السحر، ولقد علموا ان من اشترى السحر وعمل به، ماله في الآخرة من خلاق وعمل، الا الخزي والنار، وان سليمان عليه السلام لما اعطاه الله الملك وسخر له الجن والانس، اتهمه اليهود بالسحر، وهو أجلّ ساحة وارفع مقاماً من هذه الاعمال التي نسبها اليهود اليه.

وقد نزّه الله سليمان في كثير من السور، كالانعام والانبياء والنمل وسورة (ص) وانه وهب له من الملك، مالا ينبغي لاحد من الخلق من بعده، وانه من الانبياء المقربين وعباده المخلصين ورسله المنذرين وانما طلب الملك تحقيقاً لطاعة الله وامتثال خلقه لاوامره وليس غرضه الزعامة والحكومة.

وقد اظهر القرآن الكريم هنا، ان ما نسبه اليهود إلى نبي الله سليمان عليه السلام اساطير خرافية وقضايا خيالية، اتبعوا فيها أهواءهم، وما توحي اليه شياطينهم وهناك قصص خيالية كاذبة وأحاديث مزورة عن حالة سليمان وهاروت وماروت، اعرضنا عن ذكرها، فان القرآن اجل من هذه الخرافات والاباطيل وارفع شأناً من هذه القصص.

وقد وجهنا كتابنا هذا إلى ما يقتضيه في البلاغة او تفسير القرآن بعضه ببعض، أو بما ورد عن أهل البيت عليهم السلام صحيحاً ومقبولاً، أو بما تقتضيه قواعد الفلسفة والعرفان الصحيح ولا ينبغي ان ينسب إلى القرآن خرافات بني اسرائيل ونحوها، مما تشمئز النفس منها ولا ينسب إلى أيّ كتاب منزل.

وقد رد القرآن الكريم عليهم أيضاً، في قصة هاروت وماروت، وان هاروت وماروت وان علما الناس السحر، ليعرف الناس كيفية ابطال السحر فما كان هاروت وماروت ساحرين وما اغريا الناس بالسحر بل كانا يقولان انما نعلم امتحاناً واختباراً لان لا يقع الناس في مشاكل السحر. فتعليمها للناس دفعاً لمضار السحر فلا يدفع الشر الا بالشر وهذا عين الصلاح في فعل الملائكة كما فعل موسى عليه السلام في إبادة السحر بالعصا وان هاروت وماروت ليفهمان من جاء اليهما ان لا يستعمل ما يعلمانه الا لابطال السحر ودفعاً لمضاره لان السحر في تلك العصور كان رائجاً.

ومن لطف الله على عباده ان بعث هاروت وماروت لتعليم البشر في دفع مضار السحر لئلا تتغلب السحرة على المؤمنين ولا تضعف نفوسهم باعمال الشياطين والسحرة وهذا وفق الحكمة والمصلحة النوعية لعامة البشر وان لا يذهب دين الله بأفعال السحرة والمنحرفين.

وان بعض من تعلم من هاروت وماروت لدفع السحر يستعمله في تفريق الزوج عن زوجته وابداء البغضاء بين الناس على خلاف حكمة ما جاء به هاروت وماروت من دفع مضار السحر وانه لا يدفع الامن طريق علمي والا لاخذ السحر باذهان المغفلين وغالب طبقات الناس.

وبعد ما تمت المحاورة في الآيات على كفرهم، اعقب الله انهم لو اتقوا وتركوا ما يعملوه من السحر، ورجعوا إلى الله، كان لهم خيراً وثواباً عما ارتكبوه من اعمال السحر، لو علموا حقيقة الامر وعقلوه.

وان اطلاق الكفر تارة على انكار العقائد من التوحيد والرسالة، وعدم الاعتراف بيوم المعاد، وتارة يراد من الكفر، الكفر في مقام العمل، نظير قول القائل، من ترك الصلاة كان كافراً، ومن ترك الحج وهو مستطيع، فهو كافر.

واطلاق الكفر على انكار العقائد، وعدم العمل في الفرايض، وارتكاب المنكرات، حقيقة لا مجازاً.

فان مفهوم الكفر هو الحجاب والغطاء عن الواقع، سواء كان الحجاب عن العقائد، أو عن الاعمال الواجبة والافعال المحرمة فان الكل مما يلازمها الحجاب وستر الواقع، من غير تجوز.

ولكن مراتب الكفر تختلف شدة وضعفاً[1]، فبالقياس إلى العقائد، اشد كفراً وبالقياس إلى الاعمال اقل كفراً من العقائد، ان الانسان عند ما يتعرف بعلم السحر والكهانة او الشعوذة والتنويم المغناطيسي وتأثير الارادة من النفوس القوية، يجد كل ذلك قائم على مبادىء خفية في الغالب عن الناس، كما هو في السحر الخيالي، وتارة يرى ذلك من قوة الارادة، كالتنويم المغناطيسي، او هتف الارواح، فان جلب الروح وهتفها من ذلك العالم إلى عالم الدنيا، مما ليس الا خيالا تابعاً لقوة الارادة من الشخص، وليس ذلك بأمر واقعي.

فهذه الأموركلها اما تابعة للخيال، كالشعوذة واما لها حقائق، ولكن لا تعرف اسبابها في العادة، كقوله تعالى، فسحروا أعين الناس واسترهبوهم، وذلك أمر خيالي، وجاؤا بسحر عظيم وله واقعية واسباب تكوينية، الا ان الناس لا يعرفون تلك الاسباب الا بالتعليم والتجربة، وقد تؤثر الارادة بقوتها، كما في التنويم المغناطيسي وصحة مزاج المريض بتوجه ارادة الطبيب اليه، ولعل كثيرا من معاجز الانبياء كان بهذه الكيفية.

ومن ذلك هتف الارواح، فانه ليس المقصود الا قوة ارادة الشخص، وبتلك القوة يتصور اشياء في عالم الخيال، فيخبر عنها، ولذا تكون اخباراته اما موافقة للواقع أو مخالفة له ولو كانت الروح قد احضرت حقيقة، لما تخلف خبرها عن الواقع.

وعلى كل فالسحر، وهتف الارواح وانقياد البشر لشخص، والتنويم المغناطيسي اما لاسباب تكوينية، كما في بعض موارد السحر واما خيالية، كالشعوذة، واما لقوة الارادة، وكلها

---

١. سرّ اختلاف الكفر شدة وضعفا مع انه من المعاني العدميّة انما هو بالقياس الى موضوعه ومتعلقه لا محض الكفر إذ لا ميز في الاعدام من حيث العدم (حفيده محمد طاهر).

ناشئة عن اسباب تكوينية، ولكن في غالب انظار الناس، يتوهمون انها خوارق الطبيعة، ولكن لا يعرفون اسبابها، ولو عرفوا ذلك لكانت هذه الأمور عادية لااستغراب فيها.

وهذا كله لا يرتبط بمعاجز الانبياء، لانها ناشئة عن اسباب لا يصل اليها البشر وان وصل البشر في قوة الارادة، فهي مرحلة لا ترتبط بالمعاجز، وقوة ارادة الانبياء هي من خوارق العادة للبشر وان البشر وان جاؤا بخوارق العادة في انظار الناس، ولكن بصورة محدودة، بحيث لو جربها الناس لوصلوا اليها.

أما قوة الارادة، واظهار المعجزة بقوة الارادة من الانبياء فهو نطاق لا تصل اليها الايادي، مهما بلغت قوة ارادتهم وسيأتي ان شاء الله منا في مواضعها مزيد توضيح لمعاجز الانبياء.

الاتجاه الفلسفي

ان كثيراً من اليهود يعتقدوا ان سليمان بن داود عليه السلام لم يكن نبياً، وانما كان شخصاً يعرف السحر والشعوذة والكهانة ونحو ذلك، وان الله تعالى، في كتابه المجيد، نزّه سليمان عن ذلك، وابان خطأ معتقدهم.

وان هذه الفنون، من الشعوذة والكهانة ونحو ذلك من تسخير الارواح والتنويم المغناطيسي ونحوها، انما تبتني على اسباب طبيعية، كمن طلا نفسه بمايع فيدخل النار ولا تؤثر النار فيه او يتعود على الحرف والخداع التي تخفى على المقابل، وقد يكون لقوة ارادته، يتخيل شخصاً ميتاً، انه يخاطبه ويكشف عن غيب بعض الأمور وما ذاك الا لسبب طبيعي، من قوة ارادة الشخص واحضار صورة الميت لا حقيقته، فيتوهم انه قد احضر الميت والا فحضور الميت من عالم البرزخ والاخرى إلى عالم الطبيعة والدنيا، لا يمكن الا على الاعجاز، وكل هذه الأمور لها مبادىء طبيعية، يأخذها أهل الشعوذة والسحر، لمقاصدهم.

ولما كان سليمان عليه السلام نبياً ومبشراً ومنذراً، وان اساس ملكه واعجازه على طريقة اعجاز الانبياء وكرامة الاولياء نزّهه الله عن السحر والشعوذة ونحو ذلك.

والاعجاز تارة يكون بامور طبيعية، ولكن بعيدة عن قدرة البشر، وثانيا قد يكون لاسباب الهية، كعروج النبي صلى الله عليه وآله إلى السماء وتكلم الشجرة لموسى عليه السلام ونحو ذلك.

وما كان سليمان عليه السلام الا نبياً وهادياً، وما أراد الملك الا لتتم هدايته على الناس لا لحب الدنيا، لانا قد بيّنا ان نفوس الانبياء والاولياء ليس لها تعلق برغبات الدنيا وشهواتها، وانما رغبتهم بماتعلقت به ارادته تعالى، فليس لهم رغبة الا الفناء في ذات الله، وطلب مرضاته، وإنما القى الشيطان تحت كرسي سليمان عليه السلام من السحر، ليدخل في اذهان الناس ان سليمان عليه السلام كان ساحراً. وقد وردت اخبار في حالات سليمان واوضاعه، من طرق غير معتبرة اعرضنا عن التعرض لها لسقوطها وعدم المناسبة لمقام الانبياء كما قد ورد في هاروت وماروت. من طرق اخواننا العامة، مما لا يتقبله العقل السليم، وهو انحطاط لمراتب الانبياء والملائكة ومقامهم. وما كان هاروت وماروت، يعلمان الناس السحر الا لتخلص الناس من السحر فلا يدفع الشر الا من طريقه، ولئلا يدخل في اذهان الناس انها معاجز، وإذا عرفوا الناس السحر تخلصوا منه باسبابه.

واجمالاً - ان نفوس الانبياء والملائكة، من حيث تعلقها بالواجب تعالى وفنائها في ذاته على قدر استعداد النبي للتوجه إلى الحق، لا يمكن ان تصدر منه ما ينافي شأن مقامه، وجلالة قدره من سحر او شعوذة وان دعامته قائمة على الاعجاز والكرامة، وان نفسه أجلّ شأناً عن ان تنخفظ إلى المنازل السافلة، وان كل وجود ونفس تأتي ملكاته على مقدار استعداد وجوده، وشأنية مقامه، فلا يصدر من الانبياء الا الاعجاز والكرامة بخلاف نفوس سائر البشر، فانها على اختلاف مقاماتها من الصلاح والتوجه إلى الحق، لا يصل إلى مقام الانبياء والملائكة، ولذا قد توجد المعجزة بارادة النبي، ولكن من طريق غير طبيعي، فاذا توجهت نفسه واراد المعجزة جاء وجودها من الحق من غير اسباب طبيعية، فسليمان عليه السلام ما طلب الدنيا للدنيا، وانما طلب الدنيا للآخرة، وانما يشاهد الناس منه المعاجز والكرامات تحقيقا لامنيته في الدعوة إلى الله، ولما كان في اذهان كثير من اليهود انه ساحر وطالب للدنيا جاء في القرآن الكريم تعظيمه وتكريمه، وابطال هذه الدعوى عنه، ان طلب سليمان عليه السلام للملك انما كان طلباً لمقامه للآخرة وليست نفوس الانبياء الا متوجهة لذاته وكل نبي يطلب من الله المقام الشامخ بحسب استعداده وكان لسليمان المقام الرفيع في هداية البشر.

وحيث ان ارواح الانبياء ليس لها التوجه والهدف الا التعلق بذات الحق تعالى فيكون الطلب الذي يريده النبي من الله تعالى ليس طلباً لدار الدنيا وانما طلب نفس النبي بذلك الطلب، فيطلب النبي ما يكون فيه من تكامل ذاته والوصول إلى غاية درجاته طبقاً للوح

القضاء والقدر وتحقيقاً لعلم الله تعالى الازلي من كمال النفوس.

فالسير من الانبياء والصالحين طبقاً للقضاء كما مر منّا في قصة آدم عليه السلام وان كان للعرفاء معنى وراء ما حققناه من عشق نفوس الانبياء والابرار والصالحين من عباده إلى ذات الحق، والانبياء اعلى مراتب العشق لذات الحق تعالى والذي بيّناه ادق من هذا الوجه الذي ذكروه والآيات الآتية في تفسير القرآن بعضه لبعض تلوح بما ذكرناه.

الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام واصحابه

في تفسير العياشي والقمي، عن الباقر عليه السلام في حديث، فلما هلك سليمان عليه السلام وضع ابليس السحر وكتبه في كتاب ثم طواه وكتب على ظهره، هذا ما وضع آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، من أراد كذا وكذا فليعمل كذا وكذا، ثم دفنه تحت سريره. ثم استتاره لهم فقرأه، فقال الكافرون، ما كان يغلبنا سليمان الا بهذا، وقال المؤمنون، بل هو عبد الله ونبيه، فقال الله جل ذكره واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان. وفي العيون في حديث الرضا عليه السلام مع المأمون، واما هاروت وماروت، فكانا ملكين. علما الناس السحر ليتحرزوا به عن سحر السحرة، ويبطلوا كيدهم وما علما احداً من ذلك شيئاً الا قالا له انما نحن فتنة فلا تكفر، فكفر قوم باستعمالهم لما امروا بالاحتراز عنه، وجعلوا يفرقون بما يعملونه بين المرء وزوجه، قال الله تعالى: «وما هم بضارين به من احد، الا باذن الله».

واما ما ورد في الدر المنثور، عن ابن عباس من طرق اخواننا ابناء العامة قال كان سليمان بن داود عليه السلام إذاراد ان يدخل الخلاء، او يأتي شأنا من شأنه، اعطى الجرادة وهي امرأته خاتمه وان الشيطان تلبّس بصورة سليمان، واخذ الخاتم من زوجته، فهي من القصص الخرافية التي لا ينبغي ان يأتي بها، في تفسير القرآن الكريم.

واما ما ورد ايضاً في الدر المنثور، من قصة هاروت وماروت والزهرة، عن ابن عمر، من ان هاروت وماروت، انه استغربا مخالفة البشر لله، فانزلهما الله تعالى، والقى فيهما الشهوة، فاحبا امرأة، وراوداها، ثم نسخت وصارت هي الزهرة الحمراء.

فما ذاك الا خرافة من الخرافات، ولا ينبغى ان يجعل مثل هذه الخرافات في تفاسير القرآن الكريم، ولا التعرض إلى رد ذلك لانه لا تتقبله عقول الاطفال فضلا عن رجال

الفضيلة. واني لاستغرب من اجلاء المفسرين ان يذكروا ذلك لانه من القصص الخيالية والخرافية.

القرآن يفسر بعضه بعضا

«ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب»[١] «ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا، ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين»[٢].

«وداوود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان وكلا اتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين»[٣] «ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين»[٤].

«وورث سليمان داوود وقال ايها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين»[٥].

«كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين»[٦].

«وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخي اني كفرت بما اشركتموني من قبل»[٧].

«قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة»[٨]

الاعجاز (آية ١٠٤ - ١٠٥)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلا المُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ

١. ص آية ٣٠.
٢. الانعام آية ٨٤.
٣. الانبياء آية ٧٨ - ٧٩.
٤. الأنبياء آية ٨١.
٥. النمل آية ١٦.
٦. الحشر آية ١٦.
٧. ابراهيم آية ٢٢.
٨. الزمر آية ١٠.

﴿بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

ان اول خطاب من القرآن الكريم، لمن اتقى وتوجه إلى اهداف الايمان «يا ايها الذين آمنوا» وهذا التعبير خاص بمن آمن بالرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام والخطاب لهم باهل الايمان تكريماً لهم وتعظيماً لدرجاتهم، حتى جاء في بعض الآيات الحاق ذرياتهم بهم في الايمان قال تعالى ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من عملهم من شيء كل امرء بما كسب رهين﴾[1] وان كان للايمان مراتب ومنازل، فان السابقين السابقين، هم ارفع درجة واعلى منزلة قال تعالى ﴿والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم﴾[2] فالايمان له مراحل ومراتب، نظير الكفر، فان له ايضاً مراحل في الظلمة والبعد عن الله، فمن اشرك وعاند، هو اشد ولم يعاند، ومن كان محارباً لله ورسوله، فهو أشد من غير المحارب.

وان اليهود كانوا يخاطبون الرسول ﷺ في قولهم راعنا، وقد اظهر الله مقاصدهم في هذه الكلمة من لغتهم بانها كلمة توهين، ومعناها اسمع غير مسمع، وان لفظ راعنا قد جاء في آية من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه: ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع راعنا ليا بالسنتهم وطعنا في الدين، وبدلت كلمة راعنا في القرآن الكريم، بانظرنا وان للكافرين عذاب اليم، وقال ما يود الذين، فان الخطاب وان كان ظاهره لليهود الا ان الخطاب عام، يشملهم ويشمل غيرهم، لان الحقائق القرآنية، وان جاءت في موردها، او ان السياق في الآيات السابقة يختص باليهود، ولكن القرآن قواعد عامة يؤتي بها للتعاليم البشرية.

وان الله قد حبا المؤمنين واتباع الرسول بالخير الكثير ويراد من الخير هو نعمة الايمان والوصول إلى حقائق التشريع، فكان هذا المعنى ابغض شيء على اليهود والمشركين من العرب بان يتجردوا عن دينهم ويختصوا باتباع الرسول، فلا يحبون لمن اتبع الرسول الهداية بدينه واتباع سنته.

فانهم وان الحدوا ونازعوا الرسول الا ان كثيراً منهم يعرفون الواقع، غاية الامر قد حالت الشهوات والرغبات والرئاسة بينهم وبين ذلك، وان الله يختص برحمته ودينه من يشاء من عباده ممن تقبل الهداية بعد الهداية، وعرف الطاف الانبياء من الهداية الثانوية التي

١. الطور ٥٢/٢١.
٢. الحشر ٥٩/١٠.

ترد على الهداية الاولى مما فطر الله العباد عليها.

فالمؤمن والمسلم والكافر والملحد كل فطر على الهداية الاولى من غير فرق بينهم، لتقام الحجة على الكل، الا ان المسلمين والمؤمنين اندفعوا إلى الهداية الثانوية من هداية العقل وتبليغ الرسل ومعرفة المعاجز والحجج البالغة، والمنافقون والكافرون لم يوفقوا إلى الهداية الثانوية وانغمرت نفوسهم بالرغبات والشهوات والله ذو الفضل العظيم.

الاعجاز (الآية ١٠٦ - ١٠٧)

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

ولما كان اليهود اهل كتاب، فلا يرغبون بان ينسخ كتابهم وتبقى التوراة غير منسوخة حتى يتم شرفهم وكرامتهم وقال تعالى (ما ننسخ من آية... الخ).

صرح القرآن الكريم في الآية الاولى بالنسخ، والنسخ هو ازالة الشيء، كنسخ الضياء للظلام، وحيث ينتهي امد الحكم السابق، ومجيء الحكم الاخر، فالنسخ ذهاب حكم وعدم وجوده في الزمن اللاحق والنسيان ذهاب صورة الحكم من العلم به.

وإذا نسخت الآية او نسيت، فلابد وان يأتي الحكم الثاني بافضل من الحكم الأوّل، أو بمثله ونظيره، فانتهاء حكم قد يستدعي التبديل بالاحسن أو المثل.

وقد اطلق النسخ على التبديل، كما في قوله تعالى ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون﴾[1] ان الآيات تختلف من حيث التشريع والتكوين، فالآيات تكوينية وتشريعية وتختلف مراتبها قوة وعظمة، فان كتاب موسى عليه السلام اهم مما جاءت به صحف نوح عليه السلام وان القرآن الكريم اهم من كل كتاب سماوي.

واما الآيات التكوينية من خلقة الانسان، فتراه فوق وجود الحيوانات، وهكذا وجود الانبياء والرسل، فانه فوق وجود البشر ووجود خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله الكرام عليهم السلام فوق الموجودات، فالآيات تختلف وجوداً وتوجها، وتختلف في جهات متعددة، او جهة واحدة.

ولما انتهى النسخ والتبديل في الآيات جاءت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿الم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض﴾[2] تنبيهاً لرفع التوهم في صحة التبديل، بانك اما تعلم يا

١. النّحل، ١٦/١٠١.
٢. البقرة ٢/١٠٧.

محمد بان التبديل على الله ليس بعزيز، لان له ملك السموات والأرض والعالم بالمصالح في اوقاتها، وملك الله للموجودات من السموات والارضين، ملك ايجاد وتأثير، واشراق تلك الذات بالتجلّي على هياكل الماهيات فيصير الانسان انساناً، والملك ملكاً، والسماء سماء، والأرض ارضا، ملكية حقيقية، لاملكية اعتبارية، كملكية الناس إلى املاكها، بل هي ملكية اشراقية وايجاد تكوين وبها تتجلّى الماهيات، وتظهر من العدم إلى نور الوجود، وانه ليس لكم من دون الله من ولي ولا نصير.

وانما الذي يقربكم اليه هي الاعمال الصالحة، وسيأتي منا بيان معنى النسخ في القرآن، ونسيان الآيات، وما ورد في ذلك عن اهل البيت عليهم السلام في تفسير العياشي وفي الدر المنثور، في سورة الانبياء ان شاء الله تعالى.

الاتجاه الفلسفي

ان الآيات الكريمة هنا، قد تعرضت لامرين: إلى النسخ وإلى النسيان.

اما الاتجاه الأوّل - وهو النسخ وترك الشيء بمعنى نسيانه فهو على طبق حكمة التشريع والتكوين، اذ المصالح في اعمال المكلفين من عبادات ومعاملات واجتماعيات، مما تختلف بحسب العصور والاجيال ولذا جاءت الشرائع متعددة، وختمت بشريعة سيد الرسل محمد صلى الله عليه وآله بتكامل البشرية، وان كان وصولها إلى المعارف والطاعة، على حسب ما يقتضيه تكامل الانسان.

فالشريعة التى جاء بها آدم عليه السلام إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وآله هي شريعة الاسلام، كما قال تعالى ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾[1] وانما تترك بعض الاحكام، او تنسخ لانتهاء مصلحة ذلك الحكم، فربّ حكم تكون مصلحته في عصر وجيل، دون عصر وجيل آخر، كما هو المشاهد في المصالح الدنيوية.

فالاحكام في الشرائع تأتي على نحوين، نحو لا يعتريه التغير ولا يوجب اختلافه في الازمان، نظير حرمة الخمر ووجوب الصوم، وحرمة أكل مال الغير، والتعدي على البشر من بعض على بعض وسرقة اموال الناس والاحتكار الذي يوجب هلكة النفوس، واستهلاك النفوس واستملاكها، وتوارث الخلف عن السلف في الميراث، واحكام الزوجية في غالبها،

١. آل عمران ٣/١٩.

كل ذلك قوانين لا تختلف، وشريعة لا تتبدل، اذ المصلحة أو المفسدة، قائمة على مر العصور والاجيال، فان نهب اموال الناس وقتلهم واستهلاكهم واستملاكهم مما لا تختلف فيه العصور والاجيال ولا تختلف هذه الاحكام باعتبار عصر دون عصر، إذ المصالح والمفاسد فيها مما لا تختلف في كل زمان.

ونحو الاخر، ما كانت المصلحة في زمان دون زمان وذلك كالنسخ فانه في موارد قصور المصلحة في استمرارها في جميع العصور، وبطبيعة الحال ينتهي الحكم بانتهاء المصلحة والمفسدة، ولا نعني من النسخ الا هذا، فالنسخ لا يتوجه في القضايا الحقيقية الشاملة لجميع العصور والاجيال وانما يختص بالقضايا الخارجية المحدودة بزمان دون زمان وجيل دون جيل.

وقد يطلق على النسخ البداء والتبديل فى كتابه المجيد، وقد بينا في مقدمة هذا التفسير، ان البداء هو الابداء للشخص، وبعد كون الشيء خفيا عليه، يظهره الله تعالى لرسوله واوليائه.

فالبداء هو ظهور الشيء بعد خفائه لمصلحة الهية، في خفائه على الرسل والانبياء والأولياء، وذلك معنى قوله تعالى ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده‌ام الكتاب﴾[1] فالعلم بام الكتاب إذا ظهر للانبياء والاولياء فلا موقع للبداء وإذا كان خفيا عليهم ثم ظهر لهم، فقد حصل البداء بالنسبة اليهم.

واما البداء بالنسبة إلى الحق تعالى، فمعناه الابداء، واظهار ماخفي على الناس ثم ظهر لهم، فالبداء في حقه بمعنى الابداء وليس معناه والعياذ بالله خفاء الاشياء عليه، ثم ظهورها له.

وقد بيّنا في «المثل الاعلى» ان وجود الحق، هو الوجود من غير قيد ولا ماهية ولاحد، وان كل ما عداه، لابد وان يكون محدوداً بمرتبة من المراتب وماهية من الماهيات، وان وجود الممكنات عين التعلق بذاته تعالى، فالكل مظاهره وتجلياته، وتقع هذه المظاهر والتجليات على حسب مالها من الاستعداد والقابليات[2].

وإذا كانت جميع الموجودات نفس حقيقتها عين التعلق بذاته، فكيف تخفى عليه،

---

١. الرعد ١٣/٣٩.

٢. مثل الاعلى فى الفلسفة - موسوعة الخاقانية ج١ - ص١٤٣ - ١٤٤ - الطبعة الجديدة.

فهو الوجود الاسمى المستقل، بكل معنى الكلمة وهو غاية كل وجود، ونهاية كل تقرر وثبوت، فكيف يتصور في حقه البداء ما كان من شأنه وذاته عين النور وحقيقة الاشراق، وقد بينا في المقدمة النسخ والبداء.

وبكلمة موجزة، ان النظام التام، والنظام الاكمل يستدعي ثبوت النسخ في أحكامه تعالى بالمعنى الذي ذكرناه مما تكون المصلحة او المفسدة ليست مستمرة على جميع العصور، فلابد أن يأتي الحكم الاخر، ولا موضوع للحكم الأوّل حتى يترتب عليه الحكم، وان هذا المعنى من شؤون التشريع والنظام البشري.

واما البدا فهو من شؤون التكوين ومظاهره، اذ المصالح والمفاسد قد يقتضي اظهارها من الله تعالى لاوليائه، وقد تقتضي المصلحة التكوينية اخفائها عن اوليائه، في جميع الازمان، او في بعض الظروف والازمان لا مطلقا.

وعندما خفي معنى النسخ عند اليهود، والبدا عند اخواننا ابناء العامة، اشكل اليهود على المسلمين بالنسخ، وان حكم الله لا يأتي عليه التغيير والتبديل، حتى انكر النسخ بعض علماء الاسلام.

وقد عرفت ان مصلحة التشريع توجب ذلك احياناً، كما ان مصلحة التكوين توجب البدا في بعض الظروف والحالات، فما اشكل به اليهود على الاسلام لا وجه له، وما اشكل به علماء العامة على علماء الامامية في البدا، كان من عدم معرفة ما قصده علماء الشيعة من معرفة البدا عندهم.

الاتجاه الثاني النسيان، اعلم ان النسيان في الآيات باختلاف القراءتين، فقد قرء ابن كثير وابو عمر، وننسأها بفتح النون والسين واثبات الهمزة، والباقون بضم النون وكسر السين بلا همزة هو معناه ترك الشيء لا بمعنى الذهول عن الشيء بعد انتقال الذهن اليه ؛ وانما كان لانقضاء مصلحة الأوّل وتحقق مصلحة الثاني، فالنسيان والنسخ والبداء مما يقتضيه نظام التشريع والتكوين، على الوجه الاكمل التام.

الاتجاه من ناحية النبي وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه

ومن اضواء ما تقدم بقوله ﴿يا ايها الذين آمنوا...﴾، ان مرحلة الايمان في أهل البيت عليهم السلام اقوى من غيرهم، كما صرحت به بعض الاحاديث، في الدر المنثور اخرجه ابو نعيم في الحلية عن ابن عباس، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما انزل الله آية فيها يا ايها الذين

آمنوا، الا وعلي عليه السلام رأسها وأميرها، وبهذا استفاضت الروايات، قال الامام العسكري عليه السلام قال محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام ما ننسخ من آية أي نرفع حكمها أو ننسها بان نرفع رسمها، ونزيل عن القلوب حفظها، وعن قلبك يا محمد، كما قال «سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله نأت بخير منها يعني اعظم لثوابكم وأجلّ لصلاحكم من الآية الاولى أو مثلها من الصلاح لكم، أي انا لا ننسخ ولا نبدل الا وغرضنا في ذلك مصالحكم.

وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام في قوله ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، قال النسخ ما حول، وما ننسيها مثل الغيب الذي لم يكن بعد قوله «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب»[١] قال فيفعل الله ما يشاء ويحول ما يشاء مثل قوم يونس، اذ بدا له فرحمهم، ومثل قوله: «فتول عنهم فما انت بملوم»[٢]، قال ادركهم برحمته.

وفي بعض الاخبار عن ائمة أهل البيت عليهم السلام عند موت امام وقيام امام آخر مقامه، من النسخ بمعنى انتهاء زمان امامة الأوّل وابتداء امامة الثاني وليس معناه ازالة الامامة عن الأوّل ومجيىء امامة الثاني.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيآتهم واصلح بالهم[٣].

«لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة»[٤]

«وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون»[٥].

«الا ان لله ما في السموات والأرض»[٦].

وان الآيات هنا تشير إلى النسخ والتبديل بما هو اولى لانه الملك العالم بمصالح عباده.

---

١. الرعد ١٣/٣٩.
٢. الذاريات ٥١/٥٤.
٣. محمد آية ٢.
٤. البينة آية ١.
٥. النحل آية ١٠١.
٦. يونس آية ٥٥.

الاعجاز (الآية ١٠٨ - ١١٢)

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

ان بعض اصحاب الرسول، يسأل من الرسول ﷺ اسئلة تشابه من سأل موسى عليه السلام من اليهود ارنا الله جهرة، إلى غير ذلك فنهى الله اصحاب النبي ﷺ عن الاسئلة في غير موضعها، اذ المقصود من الرسالة، هو الهداية إلى دار الاخرة، والهداية إلى التوحيد، والرسالة والعمل الصالح، ولا سيما وانهم يعلمون انه هو الرسول فلا موقع للاسئلة التي لا تقع في طريق الهداية والرشاد وان من طلب اسئلة لا تناسب فقد خسر خسراناً مبيناً وان من يبدل ويأخذ الكفر عقيدة وعملا بدل الايمان توحيداً وفعلاً فقد اضل الطريق وهلك باعماله وكفره حيث انه ترك الجادة المستقيمة وارتكب الضلال.

وان امل كثير من اليهود والمشركين من العرب ان يردونكم ايها المسلمون عن دينكم، وذلك حسداً منهم حيث وجدوا فيكم النشاط والقدرة، ووجدوا انفسهم في خسران، وقد ظهر لهم ان النبي ﷺ وأصحابه على حق لما وجدوه في التوراة من التصريح بنبوة النبي ﷺ فاعف يا رسول الله واصفح انت واصحابك عنهم، وبادلوا الاساءة بالاحسان والسيئة بالعفو إلى ان يأتي الله بأمره وقضائه في الدنيا وفي الآخرة من دخول المؤمنين الجنة، والكفار النار.

﴿واقيموا الصلاة وآتو الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ان الله بما تعملون بصير، وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أونصارى تلك امانيّهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾[1].

واقم يا رسول الله انت وقومك الصلاة، كما ينبغي ان تقام، وآتوا الزكاة للفقراء

---

١. البقرة ٢/١١١.

المستحقين، لئلا ينهار الاجتماع ويحفظ توازن المعاش في الطبقات، وكلما تقدموا من خير تجدوه يوم القيامة عند الله، وان الله بكل ما تعملونه بصير.

وان اليهود والنصارى قالوا لن يدخل الجنة الا من كان من اليهود أو النصارى تلك امانيهم وآمالهم الكاذبة، فاجابهم الله تبارك وتعالى، آتوا برهانكم ان كنتم صادقين.

﴿بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

نعم من توجه إلى الله واسلم اسلاماً حقيقياً، وتعمق بالمعارف الالهية وعمل عملا صالحاً وهو مؤمن في عقيدته فلا خوف عليه ولا يحزن يوم القيمة.

الاعجاز (الآية ١١٣ - ١١٦)

﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إلا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء... الخ الآية﴾.

ان اليهود ذهبوا ان دينهم هو الحق وان النصارى على الباطل، وقالت النصارى اننا على الحق، وان اليهود على الباطل، وكل منهم يتلون الكتاب، وهو التوراة والانجيل.

وقد صرحت التوراة بمجيىء نبي في آخر الزمان اسمه (احمد) وكذلك قال المشركون، مثل قول اليهود والنصارى، وان الله ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون من العقائد غير الصحيحة والاعمال الباطلة.

﴿ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله ان الله واسع عليم﴾[2].

---

١. البقرة ٢/١١٢.
٢. البقرة ٢/١١٤.

ليس هناك اظلم من البشر، ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه ويسعى في خراب المساجد والعبادات، وليس لهؤلاء الحكم بالدخول الا خائفين ومحكومين بما يراه الرسول ﷺ وأصحابه، وان لهؤلاء في الدنيا الذل والخزي وفي الآخرة العذاب الشديد.

ان هذه الآيات الكريمة، افادت المستمع منهاج الدين الصحيح، وهو ان من توجّه إلى الله تعالى بقلبه وعقيدته، وقام بالاعمال الصالحة، من اقامة الصلاة، ولغيره من أداء الزكاة والحقوق كان مؤمناً.

ولهذا المسلم جهتان، جهة مع ربّه وهي العقيدة الثابتة بالتوحيد، واقامة الاعمال الصالحة من الصلاة والصوم والحج وجهة مع عباده، وهي أداء الحقوق وحفظ الاجتماع، وان لا يهاجم احداً او يذهب حقوقه في المعاملات وغيرها.

ومن ترك الجهتين من العقيدة الثابتة والخضوع إلى الله بالعمل الصالح، ومن حفظ الاجتماع والتوازن البشري، فليس بمؤمن.

فالمشركون من العرب واليهود والنصارى، منهم من لا يعرف الحق ولا يتوجه اليه، وليس عنده الا خيالات واماني، فانهم تارة يزعمون انهم ابناء الله والشعب الصالح، وتارة يدعون ان بعض انبيائهم ابناء الله، كعزير والمسيح، وكل ذلك خيالات واوهام، اذ شأن الله اجل من التوالد، حيث ان التوالد ينحل إلى انه جزء منه بعد الدفق في رحم المرأة، يخرج مولوداً، والله اجل من شأن الطبيعة وتوليدها.

فالآيات الكريمة قد توجهت هنا إلى هدف التوحيد والخضوع لله، والقيام بصلاح المجتمع، ان من تعرى عن ذلك سواء اتصف باسم الاسلام، او اليهودية، او النصرانية، او المشركين من العرب وغيرهم فلهم الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولله المشرق والمغرب ويأتي تفسيرها منا في آيات القبلة.

وان الله يملك المشرق والمغرب والسموات والارضين جميعاً، فيوجه عباده إلى أي جهة مما خلق على حسب المصالح الواقعية، وحيث ان المشرق والمغرب وكلما في السموات والأرض خلقه وايجاده، فكيف يصح لاحد تعيين القبلة، في جهة دون جهة وفي مكان دون مكان، اذ كل من توجه، إلى الله تعالى بعقيدته كان مسلماً وموحداً.

«وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون».

قد نبّه الله تعالى على غلط النصارى واليهود، حيث قالوا، ان الله اتخذ ولداً، اما علموا

ان الولادة من شؤون المادة، ومن بعض انواعها، وان الله تعالى يجل شأنه عن المواد وعن ان يكون مولوداً لاحد، أو يولد منه شخص من الاشخاص وهذا يدل وراء كفرهم وجحودهم، انهم لا معارف لهم ولا اطلاع لهم على عالم الغيب والشهادة، وكل من قصرت معارفه بحقائق الأمور، وقع في الاغلاط.

ولو ان اليهود والمشركين والنصارى عرفوا عالم المجردات والمواد، ما تخيلوا هذه الخيالات ولا توهموا الأمورالباطلة، وان الكل ملكه، وكل موجود مخلوق بارادته.

الاتجاه الفلسفي

ان الله تعالى الفت نظر الناس إلى ان التوجه إلى الله إذا كان عن برهان ودليل وحكمة نافعة، فلا تطرو على الايمان الشبه ولا يتبدل الانسان من حالة إلى اخرى، حيث انكشفت له الحقائق وتم له اليقين، عرف العقائد على الوجه الاتم والاحسن والاوفى، اما إذا كانت معارفه ليست على وجه اليقين بالتوحيد والاعمال الصالحة، تراه يتقلب من حالة إلى اخرى، كما تشاهده في اليهود.

فمرة يرون انفسهم شعب الله، ومرة اخرى يرون بعض انبيائهم ابناء الله، ومرة ثالثة يحاولون ان يبدلوا رجال الاسلام والحقيقة إلى النفاق والدجل وإلى التغير بالاهواء طبقاً لنفوسهم، وما علموا ان العلم إذا وصل إلى الحقيقة واسرار الواقع فلا يتبدل إلى حالة الجهل والعناد، وان كل نفس في حالاتها واطوارها تابعة لتلك الملكات النفسية التي استحكمت فيها من الخير والبركات، أو الشرور أو السيئآت، وان من تبدل من عقيدة إلى اخرى ومن مذهب إلى مذهب آخر، فهو لعدم وصوله إلى الحقائق، وليس علمه يقينا، والا لما اختلف ضميره، وما تبدلت عقيدته.

ان الله سبحانه منّزه عن التوالد، بان يولد او يولد من احد، فان الولادة انبثاق وامتداد، ووجود زائد بعد نقص او عدم، والولادة زوجية تقوم على التماثل، وتحليل جزء من اجزاء البدن، ليتولد شخص من آخر، وان التوالد بين شخصين من شؤون عالم الطبيعة، ولا يتمثل ذلك حتى في العقول والملائكة، فضلا عن واجب الوجود سبحانه وتعالى، وكيف تكون الولادة منه، او انه مولود من احد ووجوده صرف الوجود الذي لا يعتريه حد، ولا يختص بمرتبة، وهو الاحد الحقيقي، في ذاته وصفاته وافعاله وعبادته، وان كل موجود هو ملكه

وايجاده وخلقه وما تعلقت به ارادته، فجل عن التركيب والتوالد، وعظم عن نشأة الطبيعة، وكان صرف الاحدية لا ثاني له ولا شبيه ولا مثيل.

ولكن اليهود والنصارى، لجهلهم بحقيقة الله تعالى ادعوا اولا انهم ابناء الله وأحبّاؤه، ولما علموا ان هذه اسطورة لا تتقبلها العقول، ولا تكون تحت موازين العلم، ولا يمكن ان يصيروا بهذا الحديث ابناء الله والشعب المختار من البشر، فنسب اليهود عزيراً انه ابن الله، ونسب النصارى ان عيسى ابن الله، تحقيقا لامنيتهم ليمتازوا على الشعوب وذوي الاديان، وما علموا ان هذه اسطورة، وان الله تعالى لايمكن ان يكون له نظير او ولد، فان كل ذلك مما قامت عليه الفلسفة العلمية بأوائل معارفها، على امتناعها، وأنّها خرافات أرادوا بها تعظيم انفسهم، وما علموا ان بهذه الخرافات ونحوها قد عرفهم العارفون والفلاسفة وارباب العلوم، انهم اجهل الناس واقلهم معارف، ولا يميزون بين الحق والباطل، ولا بين واجب وممكن ولا بين الوجود البسيط الذي لا تعتريه التحليلات العقلية، والخارجية فله الملك والايجاد خلق كل وجود من غير نظير ولا مثال له، فهو المبدع لكل وجود والخالق لكل موجود سبحانه وتعالى عما يصفون.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه

قال الامام العسكري عليه السلام قال علي بن موسى الرضا عليه السلام «ام تريدون» بل تريدون يا كفار قريش واليهود، «ان تسئلوا رسولكم» ما تقترحونه من الآيات التي لا تعلمون فيه صلاحكم أو فسادكم «كما سئل موسى من قبل» واقترح عليه لما له «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة ومن يتبدل الكفر بالايمان بعد جواب الرسول له ان ما سأله لا يصلح اقتراحه على الله او بعدما يظهر الله تعالى له ما اقترح ان كان صواباً «ومن يتبدل الكفر بالايمان» بان لا يؤمن عند مشاهدة ما يقترح من الآيات، فلا يؤمن إذا عرف انه ليس له ان يقترح وانه يجب ان يكتفي بما قد اقامه الله تعالى من الدلالات واوضحه من الآيات البينات، فيتبدل الكفر بالايمان بان يعاند ولا يلتزم الحجة القائمة عليه فقد ضل سواء السبيل.

قال الامام الحسن بن علي العسكري عليه السلام في قوله تعالى «ودّ كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا» بما يوردونه عليكم من الشبهة، حسداً من عند انفسهم لكم بان اكرمكم الله بمحمد وعلي وآلهما الطيبين الطاهرين، من بعد ما تبين لهم الحق

المعجزات الدالات على صدق محمد ﷺ وفضل علي وآلهما عليهم السلام فاعفوا واصفحوا عن جهلهم وقابلوهم بحجج، وارفعوا بها باطلهم حتى يأتي الله بأمره فيهم بالقتل يوم فتح مكة، فحينئذ تحوّلونهم عن بلد مكة وعن جزيرة العرب، ولا يقرون بها كافراً ان الله على كل شيء قدير، ولقدرته على الاشياء قدر ما هو الاصلح لكم من تعبده اياكم من مداراتهم ومقابلتهم بالجدال الذي هو احسن.

قال الامام العسكري عليه السلام اقيموا الصلاة باتمام وضوئها وتكبيراتها وقيامها وقراءتها وركوعها وسجودها وحدودها، وآتو الزكاة مستحقيها، لا تؤتوها كافراً ولا منافقاً، فقال رسول الله ﷺ المتصدق على اعدائنا كالسارق في حرم الله، وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله، من مال تنفقونه في طاعة الله، فان لم يكن مال فمن جاهكم تبذلونه لاخوانكم المؤمنين تجرون به اليهم المنافع وتدفعون به عنهم المضار.

قال امير المؤمنين عليه السلام وقالوا يعني اليهود والنصارى قالت اليهود لن يدخل الجنة الا من كان هودا اي يهوديا، وقوله او نصارى يعني وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصرانياً قال امير المؤمنين وقد قال غيرهم، قالت الدهرية الاشياء لابدء لها وهي دائمة، من خالفنا في هذا فهو ضال مخطىء مضل، وقالت الثنوية النور والظلمة هما المدبران، من خالفنا في هذا فقد ضل، وقال مشركوا العرب ان اوثاننا آلهة من خالفنا في هذا ضل، فقال الله تعالى تلك امانيّهم التي يتمنونها قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين.

قال الامام العسكري عليه السلام قال الله عز وجل وقالت اليهود ليست النصارى على شيء من الدين بل دينهم باطل وكفر وقالت النصارى ليست اليهود على شيء من الدين بل دينهم باطل وكفر، وهم يتلون الكتاب، التوراة، فقال هؤلاء، وهؤلاء مقلدون بلا حجة وهم يتلون الكتاب فلا يتأمّلونه ليعلموا بما يوجبه فيخلصوا من الضلالة ثم قال كذلك قال الذين لا يعلمون الحق ولم ينظروا فيه من حيث امرهم الله، فقال بعضهم لبعض وهم مختلفون كقول اليهود والنصارى بعضهم لبعض، وهؤلاء يكفّر هؤلاء، ثم قال الله تعالى «فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» في الدنيا يبين ضلالتهم وفسقهم ويجازي كل واحد منهم بقدر استحقاقه.

وعن ابي عبد الله عليه السلام في معنى الآية ﴿ومن اظلم ممن منع مساجد الله﴾ انهم قريش حين منعوا رسول الله ﷺ دخول مكة والمسجد الحرام.

عن هشام الجواليقي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله سبحانه: «بل له ملك السموات والأرض» ما يعني به قال تنزيهه.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«الم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار»(١).

«قل افأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير»(٢).

«الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلوات واتو الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور»(٣).

«وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحبائه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير»(٤).

«ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون»(٥).

«ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم»(٦) «رب المشرقين ورب المغربين»(٧).

«قل ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين»(٨).

الاعجاز (الآية ١١٧ - ١١٩)

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

ان الله تعالى الفت نظر العارفين ومن لهم اليقين في العلوم الالهية، بقوله: «بديع

---

١. ابراهيم آية ٢٨.
٢. الحج آية ٧٢.
٣. الحج ٤١.
٤. المائدة آية ١٨.
٥. المائدة آية ٦٦.
٦. الحج آية ٢٥.
٧. الرحمن آية ١٧.
٨. الزخرف ٨١.

السموات والأرض»، ما ادق معنى هذه الآية وابعد مرماها، ان الله تعالى يخبر عباده انه هو الذي ابدع ما في السموات وما في الأرض، وما فيهن من غير مثال، وان ايجاده الاشياء، لا بد وان يكون على وجه الابداع والاختراع.

وان كل وجود إذاقسته إلى نفسه وحدوده ومرتبته من مطلق الوجود، وجدته مبدعاً ومخترعاً، لا يشاركه في وجوده احد من الموجودات.

فمن تمام القدرة ان لا يتحد موجود ولا يقع وجود مشارك لوجود آخر، لا في وجوده ولا في حدوده، وهذا من تمام القدرة والعظمة، وان الارادة الالهية والمشيئة الربانية لا تتعلق الا بوجود على حسب استعداده وقابليته، وكل وجود واقف على مرتبته، وكل مخلوق قد وجد على طبق المشيئة الالهية، وان القضاء والقدر لا يقعان الا على طبق الواقع الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، بحيث لو كشف لنا الغطاء، لوجدنا القضاء والقدر قد وقعا في محلهما، ولم يتغيرا عن واقعهما، فسبحان من لا تبديل لخلقه ولا تغيير لمشيئته وارادته وعندما تتوجه الارادة والمشيئة يقول الله تعالى ببيان القدرة والنفوذ لشيء كن فيكون.

﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله او تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون انا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسئل عن أصحاب الجحيم﴾.

ان المشركين في افكارهم، من العرب وغيرهم، يشبهون اليهود والنصارى في طلباتهم من موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ما لا يغنيهم شيئاً، ولا يقربهم إلى هداية نفوسهم كطلبهم لرؤية الله مما لا يفيدهم في الهداية، ولا يقربهم إلى الله زلفى، ولو جاء النبي صلى الله عليه وآله للمشركين بما ارادوه، لما قبلوا دعوته، وانما هي حجج يلقونها على الرسول صلى الله عليه وآله ليدور امر الرسول بين امرين، بين اجابة لطلبات لاغية، وهذا مما تجل عنه الرسالة، وتبعد عنه النبوات، وبين ان يجيبهم إلى ما رغبوا فيه، لكن لضلالتهم لا يهتدون، فهم مصداق قوله تعالى، (سواء عليهم أنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) فبيّن الله حالة المشركين، انها كحالة اليهود والنصارى، من ان طلباتهم لا تغني شيئاً ولا يعتني بها.

ثم ان الله بيّن مقام النبوة والرسالة، انها مقام تبشير وهداية، إلى الوصول إلى ارفع الدرجات وإلى الانذار والتحذير عن الوصول إلى اسفل الهويات والاخطار وما كان طلبهم الا كطلب قوم موسى ان يكلمهم الله او يرون الله جهرة، او يرفع لهم الجبال او يغير لهم سير

الشمس، كلها طلبات تافهة مبتنية على العناد، ولا تبتني على الهداية وسلوك الحق. وانت يا رسول الله لا تسأل عن اصحاب الجحيم وانما يؤخذون باعمالهم ويجزون بافعالهم.

الاعجاز الآية ١٢٠ - ١٢٣

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

ان الله الفت نظر نبيه ﷺ ان اليهود والنصارى، لا يتقبلونك ولا يرضون عنك رضاية واقعية، تطمئن بها نفوسهم، وان وجدوك على الهدى والحق حتى تتبع ملتهم من اليهودية والنصرانية وان عرفوا انما بايدهم ليس هو التوراة او الانجيل المنزل من قبل الله تعالى، لانهم يدورون مدار شهواتهم ورغباتهم من حب الرئاسة والمادة ونفوذ اوامرهم، قل يا محمد لهم، ان ليس الميزان هو اليهودية وانما الميزان هو الهدى من الله وطريق الحق، لا الطريق الذي تخترعه الا هواء وتقننه الشهوات والميول، ان هدى الله لا يختلف وطريقه لا يعتريه الاعوجاج، لانه على طبق المصالح الواقعية والمنافع النوعية ولا طريق لله الا هداه لخلقه وانك يا محمد ان اتبعت اهواءهم بعد ما جاءك من الهدى والعلم، وهذا من النبي ﷺ محال، وكيف يصدر الضلال بعد الهدى، لسيّد الانبياء والاولياء، وانما هذه تعابير عامة، وتشريع خالد يراد به، ان كل من تخلّف عن الهدى، لا نصيب له في الآخرة فانه ليس له من دون الله ولي ولا ناصر.

ثم ان الله بيّن ان من أوتي الكتاب وتلاه حق تلاوته وان حق تلاوته ان يعمل بقوانينه واحكامه، فان من عمل بقوانين الكتاب وبمن جاء بالكتاب من الرسل، والحاملين لاثقاله من الاولياء كأئمة الهدى، فانهم يؤمنون به، وان من كفر بالكتاب ومن جاء به، فأولئك هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

ثم ان الله خاطب بني اسرائيل اني فضلتكم في الزمان السابق على الأمم، ومقتضى تفضيلي لكم هو ان تتبعوا الهدى واذكروا نعمتي التي انعمت عليكم، ومقتضى اداء حق

النعمة، هو الشكر والثناء على الله، لا الانكار لنعمه وعدم تقدير فضائله.

يا بني اسرائيل احذروا يوماً واتقوا يوم لا تنفع شفاعة ولا عدل الا العمل الصالح والتقوى، «ولا تجزى نفس عن نفس شيئاً وليس لكم يوم القيامة من ناصر».

الاتجاه الفلسفي

ما الطف هذه الآية الكريمة واعمق معناها، مما يتحير العقل ويقف مندهشاً بهذا البيان الدقيق بألطف عبارة واسرع انتقال.

ان لله في ابداعه للموجودات، وفي تشريعه للشرائع والأديان ارادتين، ارادة تكوينية وهي الجارية على اكمل النظام واتم الخلق والايجاد، وبسببها تكون الاشياء مبدعة وخارجة من عالم الظلمة إلىعالم النور، ومن عالم الماهية إلى عالم الثبوت والتقرب، وكل ابداع لا يشابهه ابداع آخر، وكل وجود لا يكون له وجود آخر، لان كل وجود قائم بحدوده[١] وبماهيته فان ذات النبي الاكرمﷺ وجود لا يضاهيه وجود وكمال لا يساويه في عالم الامكان كمال. وان المشيئة الالهية والارادة الفعلية منه تعالى على حسب استحقاق كل وجود وموجود، فالكل سائل بلسان حاله ورافع يده إلى الاعطاء من قبل الحق فى افاضة الوجود عليه وان يتحلى بألبسة النور والاشراق، ولا يمكن ان يعطى كل وجود مرتبة الوجود الاخر، وما كان ربك بظلام لكل ما اوجده وكل وجود على حسب سؤاله وقابليته يفاض عليه ذلك النور والاشراق، وليس ارادة الحق تعالى ناشئة عن تصور الشيء والتصديق بفائدته والميل والشوق اليه، ثم تأتي الارادة، فان ذلك من شأن المخلوقات المتصورين للارادة، وان ارادة الله التكوينية، تأتي على نحوين: ارادة ذاتية وهي عين ذاته وارادة فعلية وهي التي تتعلق بايجاد الاشياء[٢]، وكل مخلوق وموجود فهو شأن من شؤون ارادته الذاتية، فان الله سبحانه وتعالى حيث انه فى منتهى الابتهاج والمحبة لذاته فهو مبتهج

---

١. وان توحدت حقيقته وهذا مبني على مبناه (قدس سره) في وحدة الوجود وتعدد الموجود إذ الحق بما له من كمال لامتناه فى ذاته وصفاته العالية يمكنه خلق موجودات مختلفة ذى حقائق شتى (حفيده محمد طاهر).

٢. تقسيم الارادة هنا بلحاظ موضوعها لا ذاتها والا فالارادة واحدة ذاتا وفعلا وكما لا والظاهر من عباراته رحمه الله أنه قد سلك مسلك الحكماء في نظرتهم الى النسبة الواقعة بين حيثية الذّاتِ بالاطلاق السعي وحيثية الممكن بالحيثية التعليليّة لا في صدد بيان كون الارادة من تجلياته أومظاهر اسمائه العليا كما عليه العرفاء. (حفيده محمد طاهر).

بمخلوقاته ومحب لها وكل شأن من شؤون الوجود، هو من توابع شأن ذاته، ولما كان محبا لذاته احب مخلوقاته.

ولما كان غاية كل وجود ونهاية كل كمال، فلا تتعلق ارادته الفعلية في ايجاد شيء، الا على الوجه الاكمل والنظام التام، الذي هو على طبق الواقع في نفس الامر الذي لا يتبدل في علمه ولا يتحول، فان علمه بالاشياء على طبق النظام التام والمصالح التي لا تغيير فيها ولا تبديل وإذاتعلق علمه وقضائه بشيء، فيقول للشيء كن فيكون، وكيف تتخلف الموجودات عن ارادته، او تتغير حقائقها عن علمه وقدرته فسبحان من احسن خلق كل شيء ثم هدى.

هذا كله في الاشارة إلى ارادته الذاتية والفعلية واما ارادته التشريعية، فهي عبارة عن اطلاع الانبياء على مصالح التكاليف ومفاسد النواهي. فيأمر الرسول الاعظم وأولياءه ورسله وانبياءه، ان يبلّغوا الناس ويدفعونهم إلى تلك المصالح، ويزجروهم عن تلك المفاسد، او ينطق الله شجرة في طور سيناء لرسوله الكليم.

فان كل ذلك مما لا يقوم بذات الواجب، فالارادة التشريعية بما هي لا تقوم بذات الواجب ولا تكون عين ذاته تعالى، فهي بعث من الانبياء والرسل، او بتوسط الملائكة او بتوسط شجر ينطق، فيندفع النبي اليه، فيبلّغهم تلك المصالح وينهاهم عن المفاسد، والا فالارادة التشريعية ليست عين ذاته، ولا قائمة بذاته المقدسة والا لكان محلا للحوادث والعياذ بالله وعندها فقد يمتثل العبد بافضل مراتب الامتثال وقد يتباعد عن الحق.

وقد اشار للمطيعين بقوله: «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، اولئك يؤمنون به ويمتثلون اوامره»[1].

وانت ايها النبي الكريم، لا يمكن أن تتخلف عن الهدى لان حقيقة نفسك عين الهدى وحقيقة الواقع، وان كانت اليهود والنصارى يرغبون ان تتبع دينهم وملّتهم، ولكن ذلك مجرد خيال منهم.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه

في الكافي والبصائر عن سدير الصيرفي قال سمعت عمران بن اعين يسأل الامام الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى «بديع السموات والأرض، فقال ابو جعفر عليه السلام ان الله عز

١. البقرة ٢/١٢١.

وجل ابتدع الاشياء كلها بعلمه، على غير مثال كان قبله، فابتدع السموات والأرضين ولم يكن قبلهن سماوات ولا ارض اما تسمع لقوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء.

وفي ارشاد الديلمي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته»، قال يرتلون آياته ويتفقهون به ويعلمون احكامه ويرجون وعده ويخافون وعيده ويعتبرون بقصصه ويأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه وتلاوة سوره ودرس اعشاره واخماسه، حفظوا حروفه واضاعوا حدوده، وانما هو تدبر آياته والعمل باحكامه، قال تعالى: «كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته».

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل «يتلونه حق تلاوته» قال عليه السلام: الوقوف عند الجنة والنار.

وقد حث القرآن الكريم على ان نزوله ليتدبر الخلق اسراره وحكمه ويطبقوا معارفه ويتوجهوا إلى اهدافه، ومن المؤسف ان الملتزم بمعارفه وتشريعه قليل من الناس، وان الغالب من الناس لا يعرفون من القرآن الا تلاوته او مجرد قراءة الفاظه في الفواتح والمقابر، وما كان هدف النزول الا ان يتوجه الخلق إلى معاني القرآن من غاية اعجازه وحكمته وتفسير رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام واهدافه الفلسفية.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«انما امره إذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون»[١].

«وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه عليّ حكيم»[٢].

«وما ارسلناك الا مبشراً ونذيراً»[٣] «يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير»[٤].

«الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما

١. يس آية ٨٢
٢. الشورى آية ٥١.
٣. الفرقان آية ٥٦.
٤. المائدة ١٩.

له من هاد»[١].

«ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين»[٢].

«يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا»[٣].

الاعجاز (الآية ١٢٤ - ١٢٦)

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

إنّ الله سبحانه وتعالى في هذه السورة، بعد التعرض لقضايا آدم عليه السلام وموسى عليه السلام جاء ببيان الامامة لابراهيم عليه السلام واتخاذه خليلا.

انك إذا راجعت الآيات في حق ابراهيم عليه السلام في هذه السورة وغيرها وجدت ابراهيم عليه السلام له المزايا الخاصة، دون كثير من الانبياء، اتخذه الله خليلا، واستجاب دعوته في مواقع عديدة، وكان بناء الكعبة على يده، وخروج ماء زمزم على يد ولده اسماعيل عليه السلام وان الله حباه بقمرين نيّرين اسماعيل واسحاق، ومن اولاد اسماعيل الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله والائمة الطاهرين عليهم السلام ومن اولاد اسحق انبياء بني اسرائيل، ولم ترد دعوة لابراهيم عليه السلام وان من عرف كرامات الله التي حبا الله تعالى ابراهيم عليه السلام بها على سائر الانبياء، وجد له المزية على كثير من الانبياء، لان الانبياء جلهم من ذريته وانه هو الباني لبيته الحرام وانه المؤسس للحنيفية البيضاء، وهذا كله بعد الابتلاء والامتحان.

وان الله تعالى يعطي كل احد بمقدار ما يليق به، وعلى حسب استعداده ونفسيته، وان التجارب قضت بعظمة هذا النبي صلى الله عليه وآله وكل شيء لا يعرف الا بعد التجربة فلا يعرف الذهب الا بعد التصفية ولا تعرف النفوس الا بعد التجارب بالامتحان والاختبار وكل شيء ما لم يقع

---

١. الزمر آية ٢٣.
٢. الجاثية آية ١٦.
٣. طه آية ١٠٩.

عليه الاختبار والتجربة، لا تعرف حقيقته ولا كماله، فكيف يعرف الحليم الا عند الغضب، ولا الكريم الا عند الاحتياج اليه ولا الشجاع الا في الحرب ولا اليقين الا عند طرو التشكيكات، ولا الصبر الا عند الابتلاء فان كل صفة نفسية كامنة في النفس من فضيلة او رذيلة لا تعرف الا بعد الاختبار، فانها تظهر حقائقها، وتبدو ما كانت النفس تخفيه فان المرائي والذي يظهر الصبر والشجاعة بين الناس لا يعرف الا بعد الاختبار والتجربة، فانه عند التجارب، تبدوا حقائق النفوس وافعالها، من خير او شر، وتظهر للافراد حقيقة تلك الشخصية من كمال او نقص، وقد خرج ابراهيم عليه السلام عن هذه التجارب كلها.

مقامات ابراهيم عليه السلام

ان الذي يظهر من الآيات والروايات، ان اول مقام لابراهيم عليه السلام هو العصمة والعصمة ملكة نفسانية توجب على العبد اطاعة الله وامتثال اوامره، والانتهاء عن نواهيه وهذه الملكة النفسانية التي تنشأ في نفوس الانبياء والرسل والاولياء، ليست جابرة لهم على الطاعة بل الشخص قادر على المعصية، وتشبه ملكة الانبياء مرتبة العدالة في المتقين والصالحين، التي لا توجب ان الانسان غير قادر على المعصية، فهو على وفق الموازين الشرعية بطور أعلى من العدالة، ولكن القدرة على المعصية باقية، ولهذا يثاب على الطاعة وترك المعصية.

ومن اضواء ما بيّناه تعرف، ان ما اورده بعض علماء العامة على مذهب الامامية من ان العصمة توجب العجز عن المعصية لا وجه له حيث ان القدرة على المعصية باقية، فهو قادر على المعصية وتركها، الا ان الملكة تمنعه عن العصيان وترك الطاعة، وان الله في كتابه الكريم قد وصف ابراهيم بالصالحين، واتخاذه خليلا لله، وانه رسوله بالحنيفية البيضاء وانه مستجاب الدعوة، حيث دعى للبيت ان يكون مطافا ومزاراً، ومن الطاف الله به ان جعل له ولدين، اسماعيل واسحق وهما آباء الانبياء، وخصه باستجابة الدعاء، فابراهيم عليه السلام له العصمة، ومن نتائج العصمة فعل الخيرات، لقوله: «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين»[1]، وقوله تعالى: «اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدة واتخذ الله ابراهيم خليلا»[2].

المقام الثاني – ان ابراهيم عليه السلام وراء النبوة والرسالة واتخاذه خليلا جعله اماماً للناس،

١. الأنبياء ٢١/٧٣.
٢. النساء ٤/١٢٥.

والامامة في هذه الآية لا يراد بها الامامة التي هي من شأن النبوة، وإنما يراد بالإمامة معنى وراء ذلك، وهو ان يهتدي بانواره والاخذ باقواله في الحياة والموت ولماتم امر الامامة له، سأل ابراهيم ربه سؤال استفهام، ان الامامة منحصرة به او تقوم باولاده، فاجابه الله تعالى، انه لا ينال عهده وعصمته من كان ظالماً لنفسه او لغيره، ولو في وقت من الاوقات وساعة من الساعات بقوله: «لا ينال عهدي الظالمين»[١].

والمراد والله العالم، ان من كان شأنه الظلم، ولو في زمان سابق لا يستحق الامامة والخلافة الالهية، فضلا عمن كان ظالماً بالفعل والا كان معنى الآية، ان من لم يكن ظالماً فعلاً، ولو كان ظالماً في زمان من الأزمنة، يستحق الخلافة الالهية والامامة من قبل الله تعالى وهو بعيد جداً، اذ يستدعي ان من كان متلبساً بالظلم بحياته في الجملة يستحق الامامة[٢].

وعليه فكل من اتقى او آمن، ولو في زمان من الازمنة يستحق الامامة، وهو بعيد، اذ الامامة في القرآن الكريم، تساوق العصمة، وان الله سبحانه وتعالى قد ابتلى ابراهيم قبل امامته بكلمات، كمقاومة النمرود، ومقابلة الاصنام وردع قومه عن عبادة الاوثان، وابتلائه بوقوعه في النار، وابتلائه في ذبح ولده اسماعيل وفي بناء الكعبة، وما لاقاه من ابتلائه بالناس.

كل ذلك اختبار وتجربة واظهار من الله ان ابراهيم بعد ابتلائه بالكلمات كان مستحقاً بان يكون خليلا لله واماماً هادياً للناس على اختلاف طبقاتهم وشؤونهم وبذلك صرحت الروايات بما ورد في الكافي والمفيد وامالي الشيخ وعن مناقب ابن المغازلي والدر المنثور وتفسير العياشي إلى غير ذلك من الروايات.

﴿واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن بالله واليوم الاخر قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾.

---

١. البقرة ٢/١٢٤.

٢. القول بمحض التلبس بالظلم انما هو لاجل كون الظلم علة تامة لعدم تحقق الامامة بعد ان علم في محله ان الامامة الحقيقية كهمى بشرط لائي عن عروض الموانع والمعدومات لا ما احتاجت الامامة العنوانية لعدم عروض النوافي والسلوب وبينهما بون كبير وكون الامامة علة تحليلية لدفع السلوب ولو في مقام التحقق لا ينافي تجرّدها بعد ما كان التحليل بالبناء الواقعي لا بالبناء الاعتباري (حفيده محمد طاهر).

ان الله سبحانه وتعالى اخبر عن بيته الحرام ان جعله مثابة ومرجعاً للعباد يرجعون ويتوجهون اليه، من جميع انحاء الدنيا واقطارها، وان البيت آمنا للناس حتى لو وجد الشخص قاتل ابيه لم يقتله.

ثم خاطب الله عباده بان يتخذوا من مقام ابراهيم الذي كان يعبد فيه، المتصل بالبيت، ان يكون محل عبادة للناس ومصلى والمراد بالمصلى اتخاذه محلا للعبادة من الدعاء والصلاة والاستغفار، لا خصوص الصلاة، لا للامر باقيموا الصلاة فيه، فالمقصود هنا مطلق العبادة.

وعهدنا، ويراد من العهد الامر إلى ابراهيم واسماعيل والقرار معهما، ان طهرا بيتي من النجاسة والقذارات من القادمين على البيت وطهرا بيتي ايضاً للطائفين والعاكفين، والامر بالطهارة هنا يشمل المعنى العام من الطهارة الظاهرية، والطهارة الباطنية، فكان ابراهيم عليه السلام مأموراً ان يطهر البيت الحرام، بان يوجه الناس إلى ازالة القذارات الظاهرية والقذارات الباطنية من ترك المعاصي، والتوجه إلى الطاعة.

وهذا المعنى لا يحتاج إلى التجوز والكناية، من ان حمل الطهارة على الطهارة الباطنية، نحو كناية ومجاز، بل الامر بمطلق الطهارة بجميع مراتبها، من تطهير النجاسة، وتطهير الباطن عن الذنوب، وتطهيرها بالفضائل والطاعة، نظير قوله تعالى (وطهرهم تطهيراً) وكلا على حسب مقامه، من التطهير بالتحلي بالطاعة والانقياد والخلوص إلى الله تعالى من اقامة الصلاة والطواف في البيت والاعتكاف به إلى آخر مراحل الطاعة وان ادعية ابراهيم مستجابة، كما سيأتي على ضوء الآيات الكريمة.

وان ابراهيم عليه السلام لم يدع بدعاء الا وقد استجيب له، وقد جعل الله البيت أمنا للناس ومأواً لهم، ودعى بالرزق لمن يقيم في مكة ومن سكن باطراف البيت من غير تخصيص بالمؤمن، لان الرزق في الدنيا لا يختص بالمؤمنين وان من لم يؤمن لا يحرم من رزق الدنيا فانه سبحانه يمتعه، ثم يضطره الله إلى عذاب اليم. قال تعالى ﴿ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خيراً لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين﴾ فدعوة ابراهيم عليه السلام في الرزق لأهل الدنيا جرت على منهاج الطبيعة، من عدم اختصاص الارزاق بالمؤمنين، فتعم المؤمنين والكافرين.

الاعجاز (الآية ١٢٧ - ١٣٤)

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنْ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾

واذ يرفع ابراهيم القواعد، وهي اساس البيت، واسماعيل عليه السلام كان مشاركاً له في العمل وفي اتمامه يدعو ابراهيم عليه السلام له ولولده، ان يتقبل منهما هذا العمل العظيم واي عمل يقابل هذا العمل في عصر إبراهيم عليه السلام .

الاسلام له مراتب

ان اول مراتب الاسلام، كلمة الشهادتين، واعلى درجاته رسالة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله واهل بيته المعصومين عليهم السلام وما بينهما كمقام ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام والانبياء الصالحين من عباده، وهذا نظر الآية في قوله ﴿ربنا واجعلنا مسلمين... الخ﴾ .

ثم ان ابراهيم عليه السلام دعا لنفسه ولولده اسماعيل في الاسلام، ولما كان الاسلام ذو مراتب وتجليات فطلب ابراهيم من الله تعالى ان يكونا مسلمين، والمراد المرتبة العالية من الاسلام على حسب ما تقتضيه قابلية نفس ابراهيم عليه السلام واسماعيل عليه السلام فان كل مؤمن إذا دعا بشيء واقتضت المصلحة الاجابة له، كانت الاجابة على قدر قابلية الشخص ومكانته.

فابراهيم عليه السلام قد دعا الله بالاسلام الذي يناسب مقامه وراء العصمة، بما يقتضيه مقام الامامة والحنيفية البيضاء.

وان ابراهيم عليه السلام منذ خلق كان نبياً ومعصوماً لا يأتيه الباطل من بين يديه، فهو قبل دعوته بالاسلام سأل الله، بان يكون هو وولده اسماعيل مسلمين له ومن الواضح ان اسلام

الانبياء والصالحين من عباده، ليس الاسلام الذي يوجب حقن الدماء فقط ولا ما يجامع الايمان، كقوله تعالى ﴿قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾[١] فالاسلام جامع لمراتب الايمان كلها.

وقد طلب ابراهيم عليه السلام لنفسه ولولده ان يكونا مسلمين بالدرجة العالية، والمنزلة الرفيعة، ودعا ايضاً بان يكون بعضاً من ذريته امة مسلمة بالمعنى الاخص الذي يجامع اعلى مراتب الايمان واكملها، وقد كان من ذريته أمّة مؤمنة، فضلا عن الانبياء والاولياء، ثم ان ابراهيم عليه السلام طلب من الله معرفة المناسك له ولولده والمناسك هي الشرائع الدينية، التي يعمل المكلف على طبقها كقوله تعالى: «ولكل امة جعلنا منسكاً وعبادة»[٢] ثم طلب من الله التوبة.

وقد عرفت منا سابقاً، ان ليست التوبة هي الرجوع عن الذنب، بل التوبة، كما عرفت في قصة آدم عليه السلام هي الرجوع من العبد إلى الله تعالى، ورجوع الله إلى عبده، وان الرجوع عن الذنب من افراد التوبة ومصاديقها، لا انها نفس التوبة مفهوماً وحقيقة.

﴿ربنا وابعث فيهم... الخ﴾ وعلى حسب تتبع الآيات الشريفة من هذه السورة وسورة الانعام وغيرها ان ابراهيم عليه السلام له دعوات متعددة لنفسه ولبنيه وللبيت والدعاء بان الله يبعث في الامة الاسلامية رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة، وان يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويبعدهم عن الخبائث ورذائل النفوس، انك انت العزيز الحكيم في افعالك.

ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله انا دعوة ابراهيم عليه السلام ما الطف هذا التعبير، من قوله صلى الله عليه وآله انا دعوة ابراهيم عليه السلام وما قال صلى الله عليه وآله انا وجدت بدعوة ابراهيم، لان لوح القضاء والقدر، قد اثبت وجود النبي صلى الله عليه وآله وبعثته قبل وجود ابراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام وآدم عليه السلام وسائر الانبياء وانه صلى الله عليه وآله غاية الموجودات والمخلوقات.

وكيف يكون من كان وجوده اقل فضلا من غيره ان يقع دعاؤه سببا لغاية الوجود الممكن فان ابراهيم عليه السلام من مراتب الوجود الذى ليس وجوده كوجود النبي صلى الله عليه وآله فكيف يكون دعاؤه علّة لوجوده، بل وما ذاك الا من الالطاف الالهية التي يتشرف بها ابراهيم عليه السلام وان من سعادته عليه السلام ان يدعو الله بوجود نبي هو اكمل المخلوقات وأجلّ الكائنات، تشريفا لمقام ابراهيم عليه السلام ورفعاً لدرجاته في الدنيا والآخرة.

---

١. الحجرات ١٤/٤٥.
٢. الحج ٣٤/٢٢ - ٦٧/٢٢.

وقد ورد في روايات اهل البيت عليهم السلام ما بيّناه من قصة ابراهيم عليه السلام وان في هذا السير الذي سلكه ابراهيم عليه السلام من تأسيس البيت والطواف فيه، وكون اسماعيل عليه السلام قرباناً مما هو اساس لما اتمه الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله من الوقوف بعرفات والمشعر ورمي الجمرات في منى والطواف والسعي بين الصفا والمروة، ولذا كانت الجاهلية، تطوف بالبيت وتدعوا تبعاً لما شرعه نبي الله ابراهيم عليه السلام .

ولذلك قال تعلى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام﴾[١] ﴿قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[٢] وقد دعا ابراهيم عليه السلام من في زمانه، ومن في الاصلاب إلى التوجه إلى البيت، قال تعالى، ﴿واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[٣] .

﴿ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه؛ ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين﴾[٤] .

﴿اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين﴾[٥] ﴿ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون﴾[٦] ﴿ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾[٧] ﴿تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾[٨] .

ان من يرغب ويعرض عن ملة ابراهيم عليه السلام ، فقد سلك طريق السفاهة والجهل، وترك طريق العقل والحكمة، اذ ملة ابراهيم عليه السلام هي الاسلام والاسلام هو القانون الذي يجري على طبق العقل والفطرة وعلى طبق ما اوهب الله العباد من القوة العاقلة فان الاسلام ليس تحميلا على البشرية، ولا ثقلا على عاتقهم، وانما هو تلك الفضائل النفسية، ابرزها الشارع المقدس وجعلها قانوناً، ليصل الانسان إلى كمالاته وغاية وجوده.

فمن خرج عن هذا الطريق المستقيم والطريقة القويمة كان سفيهاً وجاهلاً في فعله،

---

١. الشورى ٤٢/١٣.
٢. الأنعام ٦/١٦١.
٣. الحج ٢٢/٣٩.
٤. البقرة ٢/١٣٠.
٥. البقرة ٢/١٣١.
٦. البقرة ٢/١٣٢.
٧. البقرة ٢/١٣٣.
٨. البقرة ٢/١٣٤.

وان الله قد اصطفى ابراهيم عليه السلام على طبق ما استعدت ذاته، وانه من المقربين في الدنيا والآخرة، وصلاح كل نبي على حسب مرتبة ذاته وكمال نفسه والصلاح مفهوم، له مراتب في وجوده، وكلا جعلنا صالحين، في حق الانبياء، ولكن الصلاح يختلف بحسب مراتب وجوده، وقابلية الشخص للصلاح.

فان من الواضح ان صلاح ابراهيم عليه السلام ليس كصلاح سائر الانبياء من بني اسرائيل، وصلاح جميع الانبياء ليس كصلاح الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وآله الائمة المعصومين عليهم السلام وقد تكرر في القرآن الكريم لفظ الصالحين في حق الانبياء ﴿ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا﴾.

وقد تكثرت الاخبار في حقيقة الاسلام والايمان، واعلم ان للصلاح والاسلام مراتب وآخر مرتبة لابراهيم عليه السلام في الاسلام قوله اسلم قال اسلمت لرب العالمين اي توجهت نفسي لذات الحق الذي يملكها ويملك تصوراتها، وجميع ما هو كائن.

وقد عرف ابراهيم عليه السلام ان هذه المرحلة، هي منتهى مراحل الكمال لذاته، وبهذه المرحلة اوصى بنيه اسماعيل واسحق ويعقوب ان يقوموا انفسهم على طريق الحق واليقين، وعلى طريق الاسلام الذي اختاره الله لعباده فاوصى ابراهيم بنيه، وبهذه الوصية اوصى يعقوب اولاده، ان يستقيموا على الاسلام، وان تتفانا ذواتهم على الدين القويم، كما تفانى آباؤهم، ابراهيم واسماعيل واسحق عليهم السلام في ذات الله.

ثم ان الله سبحانه وتعالى، نبّه عباده ان تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، وكل يؤخذ بعمله، من خير او شر، وان كل احد مسؤول عن عمله وعقيدته، «ولا تزر وازرة وزر أخرى وإلى الله تصير الأمور»[1].

الاعجاز (الآية ١٣٥ - ١٤١)

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ

---

١. النساء ٤/٦٩.

اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

قد نبّه الله عباده، ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب لم يكونوا هوداً ولا نصارى، وان اليهودية والنصرانية نشأت بعد زمان ابراهيم عليه السلام واولاده، فكيف يكون ابراهيم عليه السلام تابعاً لهم، وقد نبّه الله عباده على غلط اليهود والنصارى، من قولهم كونوا هوداً او نصارى تهتدوا، وان الاهتداء للحق، هو الاهتداء بالاسلام، فمن اهتدى بقوانين الاسلام، كان من الصالحين.

وان الله قد اجابهم ان الاتباع لدين ابراهيم عليه السلام لا لليهودية والنصارانية القائمة على الشقاق والنفاق والرغبات، وحاشا ابراهيم عليه السلام ان يأخذ بقواعد مجهولة على طبق الشهوات والرغبات، فانه عين الشرك في التوحيد والعمل، وان الحق هو الشهادة بما يقوله الانبياء من غير فرق بين الانبياء وان الاسلام لا يفرق بينهم، وان كل نبي على طريقة ابراهيم عليه السلام وهي الاسلام بل الحكم حتى قبل ابراهيم عليه السلام.

وان الرسالة واحدة والاتجاه إلى المبدء واحد، وان من سار على طريقة الاسلام فقد سار على طريقة كل نبي وعلى الصراط المستقيم، وليس المقصود فقط هو رفض اليهودية والنصرانية، بل كل شريعة تحكم على خلاف القواعد الاسلامية يتعين على المكلفين رفضها.

ولو ان اليهود والنصارى او سائر الملل من المشركين عملوا بما انزل على ابراهيم من التشريع الإلّهي لما كان بين طوائف العرب وقبائلهم من ولد اسماعيل ولا اسباط اليهود من ولد اسحق خلافاً ونزاعاً، اذ الكل قد اهتدى بدين الله وعمل على وفق الشريعة التي لا تتغير ولا تتبدل وان الله اوعد رسوله الاعظم صلى الله عليه وآله ان سيكفيك شرهم وكيدهم.

ومن الواضح للفطرة السليمة ان صبغة الاسلام وتلون البشر بشريعة الهية على طبق النظام الاكمل والسير على الفضائل ليس هناك صبغة افضل منها، فان الانسان إذاتجاوز صبغة الله، رجع إلى صبغة الميول والشهوات وترك الحق وان كان يراه يقيناً.

وان كل محاجة من أي قوم او قبيلة إذاخرجت عن النظام الأكمل الإلّهي كانت تحت النزعات والشهوات مما يريد بها الاختصاص بشخصية دون اخرى، او بقومية دون قومية، حيث يرى نفسه عزيزاً ومحترماً بانتسابه لقبيلة او قومية دون اخرى، او ان اغراضه دنيوية وميوله، وعواطفه لا تمتلاء ولا تتم رغباته الا بأنتحال إلى سبط دون سبط او إلى قبيلة وطائفة دون اخرى فلنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون.

وان الاسلام كما بيّناه هو دين الله هو ناموس البشرية وليست الشرايع الا هي الاخذة بقواعد الاسلام الذي هو ميزان الحقيقة والاعمال في هذه النشأة ولما جاء به ابراهيم عليه السلام واوصى به نبيه على وجه العموم من اسباط بني اسرائيل وطوائف العرب من ولد اسماعيل، وان يسيروا على هذا الصراط القويم، صراط الفضائل وترك الرذائل وما جاء به موسى وداوود وعيسى وانبياء بني اسرائيل عليهم السلام الا على نهج الإسلام ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾[1].

ولكن غيّر اليهود الاحكام طبقاً لشهواتهم والنصارى طبقاً لميولهم حتى خرجوا عن الاعتدال ونسبوا ابراهيم واولاده ومن كان قبل موسى إلى اليهودية وهذه الدعوة في غاية المجازفة وان ارادوا ان ابراهيم عليه السلام على طبق اليهودية فهو خلاف الواقع وان الحنيفية البيضاء في أحكامها اسبق مما شرعه موسى عليه السلام.

وعند التأمل ومراجعة الضمير يرى الشخص ان لشريعة موسى أحكاماً تختص ببني اسرائيل، وإذانظر إلى شريعة عيسى عليه السلام يجدها على طبق شريعة موسى ويرى شريعة ابراهيم عليه السلام لا تختص بقوم دون قوم وان كانت شريعة موسى وعيسى عليهما السلام لا تنافي الاسلام وقواعده وان اختصت باحكام على وفق تلك العصور وعلى مصالح تختص ببعض الاجيال وهذا ينافي التشريع الذي يساير الزمن ولا يختص بجيل دون جيل، فانه قد تكون هناك احكاماً ومصالح في عصر دون عصر.

ولكن بعد ذلك يرجع كل مكلف إلى القواعد التي لا تختص بجيل او عصر ولا بقومية دون قومية، اذ الكل عباد الله والكل تحت نظام التشريع الالهي.

ان اليهود والنصارى زعموا ان ابراهيم واولاده اسمعيل واسحق ويعقوب عليهم السلام كانوا على ملتهم وهذا من الجهل المفرط، فان ابراهيم واولاده قبل مجيىء موسى عليه السلام وتشريعه

---

١. آل عمران ٣/١٩.

وقبل مجيىء التوراة والانجيل، وهذا عين الادعاء والجهل فان حاولوا ان عمل ابراهيم عليه السلام على طبق شريعة موسى او عيسى عليهما السلام عملا وان لم يكن تابع له في شريعته حتى تكون الدعوة ليست بتلك المثابة من الجهل فليس هذا بأولى من ان يكون موسى وعيسى على طريقة ابراهيم وشريعته وليس ابراهيم على شريعة اليهودية والنصرانية وان الله هو العالم على طبق الحقائق وعلى طبق الواقع لان شريعة ابراهيم هي الحنيفية، وان كل شريعة فهي الحنيفية ولعل الحنيفية قبل زمان ابراهيم من زمان نوح وآدم وان جذورها قد جاء بها آدم عليه السلام .

فانك قد عرفت ان الدين عند الله الاسلام، وقد كتموا الشهادة وتركوا الحق مع علمهم به، وان كتمان الشهادة وعدم ادائها، او عدم تحمّلها عند وجوب التحمل من اعظم الجرائم والذنوب فهو من ظلم البشر في ترك الحق وان الله ليس بغافل عن ظلم هؤلاء وكتمانهم للحق واظهار الباطل.

وان الآية تومىء إلى تحمّلهم الشهادة ولكن قد غيروها وإلى وجوب الاداء ولم يؤدوها، كل ذلك لما انطبعت عليه نفوسهم من التعدي على الحق وترك العمل به.

﴿تلك امة قد خلت.. الخ﴾ ما اعمق التكرار في الآية هنا انها تلفت نظر القارىء للكتاب الكريم ان الانسان مرهون بعمله فهو محاط باعماله من الحسنات والسيئات، فكرر الله سبحانه وتعالى، ان تلك الامة قد مضت بذنوبها وجرائمها فلها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وانتم ايها المسلمون مرهونون باعمالكم ولا تسئلون عن اعمال هؤلاء، اذ كل مسؤول بعمله.

الاتجاه الفلسفي

قد جرت سنة الله في خلقه، ومشيئته في عباده، ان يختبر كل نفس وان اي مرتبة من الصلاح لائقة بتلك النفس، سواء كان نبياً، أم لا.

ان ابراهيم عليه السلام قد ابتلاه الله تعالى بكلمات وتجارب، وقد قام بتمام التجربة والاختبار والامتحان من الله تعالى، واي اختبار اكبر واعظم من اختبار ابراهيم عليه السلام، من القائه في النار بأمر نمرود، واختبار ابراهيم في ذبح ولده.

وانت إذا نظرت إلى حالات ابراهيم عليه السلام مع ذات الحق تعالى لاترى له ارادة ولا

شوقاً الا إلى الله، ولا بد لكل نبي يكون على بساط الاختبار، حيث لا تبرز تلك الصفات الفاضلة امام نفس الانسان، ولا امام المجتمع، الا إذاجاءت التجربة والاختبار، وقد خرج ابراهيم بتلك النفس الزكية التي ملئت فضائلا، واضمحلت فيها الرذائل، وكان قريباً من الله لقوله تعالى ﴿واتخذ الله ابراهيم خليلا﴾[١].

ولا ريب ان الخلّة مع الله وكونه خليلا لله ما جاءت عفواً، وما جاءت تفضلاً من الله عليه، بل لما في نفس ابراهيم من تلك المثل العليا والنور الساطع على قلبه وعقله، وان الانسان إذا جاهد الشهوات، ولم يعنها على نفسه وقاومها بالبراهين القاطعة وتشبه الانسان باخلاق الملائكة، وباقتناء المعارف الالهية واستنّ بقوة الايمان واليقين، كان مثلا اعلى في عقله ونفسيته وإذا انصرفت النفس إلى ذكر الله، ارتحل الشيطان وضاق مجاله، وان اقرب مصداق إلى الحق، هو ايمان ابراهيم عليه السلام بالله تعالى وانقطاعه عما سواه، وقد خرج عن مقام التجربة والامتحان حيث قال تعالى في حقه «واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن» ولم يخرج حين الابتلاء عن جادة الحق، ولا عن صراط المستقيم ولم يتهاون، او ينحاز ولو في الجملة إلى خلاف ما اراده الله فنفس ابراهيم في منتهى الحقيقة الواقعية التي لا يطروا عليها شك ولا ترديد.

فابراهيم عليه السلام قد قاوم الباطل نفسيا وجوارحياً، وكان اشد من كثير من الانبياء في التفاني في ذات الحق، وكانت نفسيته حاضرة لقبول الفيض الالهي، وبعيدة عن الرذائل.

ان معرفة النفس الانسانية، هي الاساس لمعرفة الله على مقدار استعدادها، وتقبلها للفيض الالهي، وان روحية ابراهيم لما كانت فوق روحيات الانبياء في الغالب، توجهت نفسه في الدعاء إلى ايجاد نبي في الامة الاسلامية، وهو محمد صلى الله عليه وآله وما كان دعاء ابراهيم علة محدثة لوجود خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله ، بل كان ابراهيم عليه السلام لعلو نفسه، دعا على طبق الواقع[٢] ، ودعا على ان يكون البيت مهبط الصالحين والابرار وان يأتي الناس اليه، من كل فج عميق.

فعلو نفس ابراهيم توجب مطابقة ادعيته للوح الواقع، من وجود خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله

---

١. النساء ٤/١٢٥.

٢. وبعبارة أخرى دعاؤه على خلاف معنى المصطلح من المعنى الانشائي والايجادي وإنما تلحق بمعنى الاخبار عن واقع لعلمه (ع) بمجيء النبي الخاتم (ص) بعد ان كانت الشريعة واحدة بالتشكيك لا واحدة بالعنوان الاقتضائي (حفيده محمد طاهر).

وآله المعصومين عليهم السلام وان يؤتى البيت، وتسعى الناس فيه، وقد دعا ابراهيم عليه السلام بادعية لم تتخلف عن لوح القضاء والقدر.

ولذا كان له المقام الشامخ بين الانبياء، وكان خليل الله في ارضه «ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه»[1].

ان ابراهيم واسماعيل عليهما السلام قد اسسا البيت وجعلاه حرماً آمناً، لتفهم الامة العربية وسائر الأمم، ان تكون حياتهم في امان وبلادهم من غير اضطراب، وان يكون المسلم مع اخيه المسلم في جميع الاخطار سلماً واخاً كريماً لاخيه المسلم. فهذه الدعوات من ابراهيم عليه السلام دعوات دراسة وتعاليم واظهاراً للقيم الانسانية من حفظ الدماء والفروج والاعراض والاموال، وكانت الانبياء لعلو شأنه ومقامه من ذريته.

ولو ان المسلمين اخذوا بتعاليم ابراهيم عليه السلام وصفاته مع الله تعالى، ودرسوا اخلاقه وتجاربه وخلوصه مع الله لكان المسلم في اوج الكمال، ولم يقع بين المسلمين التشاجر، ولا النفاق والتغالب على الرئاسة والدنيا، وكانوا حزب الله الواقعي وعباده المخلصين.

ولما لم يأخذوا بتعاليمه، بل ولا بتعاليم سيد الانبياء صلى الله عليه وآله، مع انه قد جاءهم بالخير كله والحياة الفاضلة، ولكن تركوا كل ذلك وراء ظهورهم، رغبة في الجاه والمال وحب السلطنة والقدرة، ونسى الناس كل فضيلة بيّنها القرآن الكريم على لسان رسوله، والانبياء، كل ذلك تحكيماً للنفوس الناقصة بشهواتها ورغباتها، وتركوا الحقائق والتكامل إلى اوج السعادة.

ومن الغريب ان تنقلب حقيقة الايمان من ابراهيم عليه السلام ومن المؤمنين الذين اتبعوا ابراهيم عليه السلام وتلك الحنيفية البيضاء والانبياء والرسل، كموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام وسيد الانبياء محمد وآله الطاهرين عليهم السلام من تلك الحقيقة الثابتة والايمان الراسخ، الذي بلغ اوج الكمال في نفوس الانبياء والاولياء والابرار والصالحين، إلى اليهودية، والنصرانية، وما ذاك الا قول السفهاء الذين لم تصل عقولهم إلى شيء من الحقائق، وكيف يتحكم هؤلاء مع جهلهم في العلماء الذين لا يختلف علمهم عن الواقع من الرسل والصالحين من عباده.

وان صبغة الله التي هي مرتكز العقائد والجذور التي قامت عليها الاولياء، كيف تبدل بصبغة الجهل والعمى، صبغة الفطرة وصبغة الهداية الثانوية، من اتباع الرسل، وصبغة تطهير النفس وترك الرذائل وكيف يتنزل العبد بعد وصوله إلى المراتب العالية والدرجات الرفيعة

---

١. البقرة ٢/١٣٠.

ان يترك علمه ويقينه ويتبع جهل اليهود ورغباتهم.

ولما ظهر الاسلام بحقيقته اباد الله على يد رسوله اليهود من بني النظير وبني قريظة، فقضى عليهم وبدل الله ذلك الجهل وتلك الغواية بالهداية.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه

في الكافي عن الصادق عليه السلام ان الله عز وجل اتخذ ابراهيم عليه السلام عبداً قبل ان يتخذه نبياً، وان الله اتخذه نبياً قبل ان يتخذه رسولا، وان الله اتخذه رسولاً قبل ان يتخذه خليلا، وان الله اتخذه خليلا قبل ان يتخذه اماماً، فلما جمع له الاشياء قال «اني جاعلك للناس اماماً، قال عليه السلام فمن عظمها في عين ابراهيم قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين، قال لا يكون السفيه امام التقي.

وفي تفسير العياشي باسانيد عن صفوان الجمال قال كنا بمكة فجرى الحديث في قول الله «واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن بمحمد وعلى والائمة من ولد علي في قول الله ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم».

في الكافي عن الكناني قال سالت ابا عبد الله عليه السلام عن رجل نسى ان يصلي الركعتين عند مقام ابراهيم في طواف الحج والعمرة، فقال عليه السلام ان كان بالبلد صلى الركعتين عند مقام ابراهيم فان الله سبحانه وتعالى يقول واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى، وان كان قد ارتحل، فلا آمره ان يرجع.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال ان الله عز وجل يقول في كتابه، طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود فينبغي للعبد ان لا يدخل مكة الا وهو طاهر قد غسل عرقه وتطهر.

وفي المجمع عن ابن عباس قال: لما اتى ابراهيم باسماعيل وهاجر فوضعهما بمكة وأتت على ذلك مدة ونزلها الجرهميون وتزوج اسماعيل امرأة منهم وماتت هاجر، واستأذن ابراهيم سارة فاذنت له، وشرطت عليه ان لا ينزل، فقدم ابراهيم وقد ماتت هاجر، فذهب إلىبيت اسماعيل، فقال لامرأته اين صاحبك، قالت له ليس هو ههنا ذهب يتصيد، وكان اسماعيل يخرج من الحرم يتصيد ويرجع، فقال لها ابراهيم هل عندك ضيافة فقالت ليس عندي شيء، وما عندي احد، فقال لها ابراهيم، إذاجاء زوجك فاقرئيه السلام وقولي له،

فليغير عتبة بابه، وذهب ابراهيم، فجاء اسماعيل ووجد ريح ابيه، فقال لامرأته هل جاءك احد، قالت جاءني شيخ صفته كذا وكذا، كالمستخفة بشأنه، قال فما قال لك قالت قال لي، اقرئي زوجك السلام وقولي له فليغير عتبة بابه فطلقها وتزوج اخرى، فلبث ابراهيم ما شاء الله ان يلبث، ثم استأذن سارة ان يزور اسماعيل واذنت له واشترطت عليه ان لا ينزل، فجاء ابراهيم حتى انتهى إلى باب اسماعيل فقال لامرأته اين صاحبك قالت ذهب يتصيد وهو يجيء الان انشاء الله، فانزل يرحمك الله، قال لها هل عندك ضيافة قالت نعم فجاءت باللبن واللحم، فدعا لها بالبركة، فلو جاءت يومئذ بخبز او برا وشعير او تمر لكان اكثر ارض الله براً او شعيراً وتمراً، فقالت له انزل حتى اغسل رأسك فلم ينزل، فجاءت بالمقام، فوضعته على شقه، فوضع قدمه عليه، فبقى اثر قدمه عليه فغسلت شق رأسه الايمن ثم حولت المقام إلى شقه الايسر فغسلت شق رأسه الايسر فبقي اثر قدمه عليه فقال لها، إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام، وقولي له قد استقامت عتبة بابك فلما جاء اسماعيل عليه السلام وجد ريح ابيه، فقال لامرأته هل جاءك احد قالت نعم. شيخ احسن الناس وجها واطيبهم ريحاً فقال لي كذا وكذا، وقلت له كذا وغسلت رأسه، وهذا موضع قدميه على المقام، فقال اسماعيل لها ذاك ابراهيم الخليل عليه السلام.

وفي الكافي عن احدهما عليه السلام قال ان الله امر ابراهيم ببناء الكعبة وان يرفع قواعدها، ويرى الناس مناسكهم، فبنى ابراهيم واسماعيل البيت كل يوم ساقاً، حتى انتهى إلى موضع الحجر الاسود وقال ابو جعفر عليه السلام فنادى ابو قبيس ان لك عندي وديعة، فاعطاه الحجر فوضعه موضعه.

وفي تفسير العياشي عن الثوري عن ابي جعفر عليه السلام قال سألته عن الحجر، فقال نزلت ثلاثة احجار من الجنة، الحجر الاسود استودعه ابراهيم ومقام ابراهيم وحجر بني اسرائيل.

وفي الكافي عن سماعة عن الصادق عليه السلام قال الاسلام شهادة ان لا اله الا الله والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث وعلى ظاهره جماعة الناس والايمان والهدى وما يثبت في القلوب من صفة الاسلام.

وفيه عن سماعة ايضاً عن الصادق عليه السلام الايمان من الاسلام بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم، قد يكون في الحرم، ولا يكون في الكعبة، ولا يكون في الكعبة حتى يكون في

الحرم.

وفي الكافي عن البرقي عن علي عليه السلام قال الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين.

وقد ورد في الاحاديث ان ابراهيم عليه السلام كان عنده مالاً كثيراً فانفقه في وجه الله.

وفي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى صبغة الله... الصبغة هي السلام.

وفي الكافي والمعاني عن الصادق عليه السلام قال: صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق.

القرآن يفسر بعضه بعضا

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين»[١].

«وحاجه قومه قال اتحاجوني في الله وقد هدان ولا اخاف ما تشركون به الا ان يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون»[٢].

«وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم»[٣].

«يا اهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون»[٤].

«ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[٥].

«ولقد اتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين»[٦].

١. الانعام آية ٧٥.
٢. الانعام آية ٨٠
٣. الانعام آية ٨٣.
٤. آل عمران آية ٦٥.
٥. آل عمران آية ٦٧.
٦. الانبياء آية ٥١.

سورة البقرة ـ الجزء الثاني

الاعجاز (الآية ١٤٢ - ١٤٥)

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

ان من لا يدرك حكمة توجيه القبلة، ولا يعرف اسرار تبديل قبلة بني اسرائيل، إلى البيت الحرام، يقول السفهاء من بني اسرائيل، وغيرهم، ما ولّى أمّة محمد ﷺ عن قبلتهم التي كانوا عليها، فانه لله حكمة التوجيه من جهة إلى اخرى، وبأيّ جهة.

وكيف لا يتوجه المسلمون إلى الجهة التي كان عليها ابوهم ابراهيم الخليل عليه السلام وهي عين الصراط المستقيم فان لله المشرق والمغرب، ويهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم فان التوجيه إلى الكعبة انشاء للمبادىء الصحيحة، التى تقوم عليها الامة الاسلامية المستخلفة في الأرض، إلى يوم البعث والنشور.

وان هذا البحث من القرآن مختصر فيه على تحويل القبلة إلى الكعبة، وتبديل بيت المقدس إلى البيت الحرام وكان هذا الحادث في المدينة المنورة، بعد سبعة عشر شهر أو ستة عشر شهر، من هجرة النبي ﷺ ومن مجموع هذه القصة والمستفاد من الروايات، ان المسلمين كانوا يتوجهون إلى الكعبة في مكة، ولما هاجر النبي ﷺ توجه المسلمون إلى بيت المقدس بامر الرسول الاعظم ﷺ وبعد هذا جاء النص من القرآن، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره.

وكان في مرتكز اذهان اليهود والنصارى، ان توجه النبي ﷺ إلى القبلة للصلاة من الادلة القاطعة ان دينهم في اتخاذ بيت المقدس قبلة هو الحق، وانهم الاصل في الاديان دون المسلمين، فالاولى بمحمد ﷺ وأصحابه ان يتبعوا دين اليهودية والنصرانية، وان الرسول ﷺ تابع لهم في الدين، فكيف يدعوا إلى دين جديد.

وكان الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء، من غير ان ينطق او يتفوه بكلمة منتظراً التوجيه الذى كان يترقبه وقد اشار الكتاب الكريم إلى ذلك «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها» حيث انها على طبق المصلحة الواقعية[١].

ولما سمع المسلمون بتحويل القبلة وكان بعضهم في اثناء الفريضة والصلاة فحوّلوا وجوههم إلى الكعبة، واكملوا الصلاة اتجاه البيت العتيق، وعندها فقد اليهود حجتهم وعز عليهم التحويل نحو الكعبة، وقد دسّ اليهود في اذهان المسلمين القلق وشككوهم في عقيدتهم وحيث قالوا لهم ان التوجه السابق ان كان باطلا حوّل البيت المقدس، فكيف بصلاتكم الاولى، وان كانت حقا فالتوجه إلى البيت الحرام على غير هدى.

وعندها جاءت حكمة التشريع والنظر إلى الواقع، كما اشارت اليها الآية الشريفة بقوله تعالى «وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه»[٢] حكمة بالغة وتجربة واختبار لتخلص نفوس المسلمين من رواسب الجهل المرتكز في نفوسهم من اليهود والمشركين من العرب.

وليتضح من يتبع الرسول ﷺ حقيقة ممن يتبعه على غير هدى، ويظهر الراسخ في العقيدة من المتردد والشاك ممن ينقلب على عقبيه بالجاهلية الاولى من ادعاء الشرف والمكانة بشعور خيالي من التعلق بالجنس والقومية، ومن الاعتزاز بارض خاصة ومناخ مخصوص وتاريخ بعيد ومع هذا، فقد ثبت المؤمن في الاتجاه إلى المسجد الحرام، وهو بيت ابراهيم الخليل واسماعيل وهو تراث النبوات.

وقد تمت دعوة ابراهيم من قوله في دعائه لربه ان يبعث في الامة المسلمة رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

---

١. تبعيّة المصلحة الواقعية لموضوعها وهي الكعبة المشرفة انما هي بنحو كان التامة لا ما تعلق ببيت المقدس لارجاع المصلحة فيها الى متعلق الحكم في تشريع خاص وفي ظرف مخصوص وان كان الاكتفاء بها من باب الاجتزاء عن المصلحة الواقعية مبنيّاً على الحكومة الواقعية او الورود (حفيده محمد طاهر).

٢. البقرة ٢/١٤٣.

وان الملتفت الفطن عندما يلتفت بتأمل، ويراجع ضميره يعرف الغاية التى من اجلها بني ابراهيم واسماعيل الكعبة المشرفة، وقد اتخذ ابراهيم مصلى قرب البيت، ومسجداً لله تعالى، فاذا لم يترتب على هذه المتاعب اتجاه خالد ما دام بنو آدم على هذا الكوكب، لم تكن لهذه المتاعب، غاية ملموسة وان الله قد عهد لابراهيم واسماعيل باقامة قواعد هذا البيت ومن فضل الله على الامة الاسلامية ان يكونوا هم الورثة لما عهده لابراهيم واسماعيل، فالامر قد جرى على طبيعة الحال باتخاذ المسلمين المسجد الحرام قبلة.

وإذا تأمل الانسان الآيات هنا، وما ورد فيها من الاحاديث، لا يحصل له الجزم بجعل بيت المقدس قبلة للناس ولم يكن البيت والكعبة ايضاً مما حكم الشارع المقدس بالتوجه اليها لان الآيات المذكورة هنا صريحة، بان النبي ﷺ يترقّب حكماً من الاحكام، وهو التوجه إلى الكعبة والبيت الحرام، وكان يترقب ذلك الوحي، وذلك التكليف.

ولم يظهر من الآيات والروايات هنا، ان بيت المقدس كان قبلة للناس، ثم نسخ بالبيت الحرام وحيث لا حكم في الطرفين وتعيين القبلتين، كان التوجه إلى البيت المقدس ليس على نحو ان البيت المقدس كان قبلة، فللنبي ﷺ في ذلك الحال ان يتوجه إلى أي جهة كان، لان التوجه لاي جهة هو التوجه إلى الله تعالى اذ ليس لله مكان خاص ولا جهة خاصة، ولم يتوجه النبي ﷺ إلى الكعبة في سفره إلى المدينة وبعد مدة في المدينة، لان تعيين الكعبة قبلة لم يكن مشرعاً، وانما يأتي في محله وفي مورده.

والفاتاً لليهود والمشركين، ان ما عيّنه ابراهيم عليه السلام اولى مما صلى فيه داود وسليمان عليهما السلام، وان التشريع من سليمان وداود، ما لم يكن تشريعاً من موسى، لا يتعين كونه قبلة، لان المشرع في دين اليهودية هو موسى عليه السلام والقبلة من الاحكام العامة للمكلفين، فكيف يتركها موسى عليه السلام .

ولا يظهر من حكاية داود وسليمان عليهما السلام انهما اتخذا البيت المقدس قبلة للناس من يهودي وغيره، بل ولا يظهر ان بيت المقدس قبلة لليهود فضلاً عن غيرهم.

وان من راجع الادلة وتأسيس بيت المقدس لا يرى فى رواياته، الا انه محل عبادة، وليس قبلة لعامة المكلفين، بل وليس قبلة لليهود ايضاً.

وسيأتي توضيح ذلك في اخبار تأسيس بيت المقدس والكعبة.

وبكلمة موجزة، ان صيرورة الكعبة قبلة على طبق الطبيعة والشعور المستقيم، حيث

ان ابراهيم قد اسسه مثابة للناس وإذالم يترتب على هذا التأسيس ان تكون الكعبة قبلة للناس، كان العمل جزافاً ومن غير نتيجة مثمرة في تأسيس البيت العتيق.

وان الناس في عبادتهم قبل مجيىء النبي ﷺ كانوا يتوجهون في ادعيتهم إلى اي جهة كانت، فيتوجه اليهودي إلى بيت المقدس والنصراني إلى المشرق والمشركون من العرب إلى الكعبة كل ذلك ليس من التشريع من قبل الله، وانما كان الناس يتوجهون إلى أي جهة، ولكن إذا كانوا في البيت يتوجهون إلى الكعبة واليهود يتوجهون إلى البيت المقدس، وانما لم يأتِ التشريع من ابراهيم في التوجه إلى الكعبة، لان هذا الحكم يختص بالامة الاسلامية والشريعة باقية على ممرّ العصور والاجيال، فالتأسيس من ابراهيم عليه السلام ، وتشريع القبلة من محمد ﷺ .

اما اتجاه المسلمين للمسجد الاقصى، في ظروف خاصة فكان لحكمة يقتضيها الوقت ويناسبها الزمن، والا فان الذي تقتضيه الطبيعة والسير النفسي، والدليل المنطقي هو التوجه إلى الكعبة، وان حقيقة التوجه إلى الكعبة هو التوجه إلى الله بكلية حواسه وقلبه وضميره وجوانحه وجوارحه، لا مجرد الصور والاتجاهات الشكلية، فان المسلم من اتجه بقلبه وجميع حركاته نحوه تعالى[1] .

فالصلاة او الدعاء ما لم يكن فيها توجّه روحي حتى تتألّف نفسية المؤمن مع ظاهره ويستجيب إلى الفطرة التي فطره عليها والا كانت اشكال عبادة لا عن حقيقة ولو كان بيت المقدس قبلة لشريعة موسى اذ هو النبي المؤسس للشريعة ويتعين عليه الحكم العام للامة المبعوث اليها فان الاحكام العامة من الصلاة والصوم والقبلة وغيرها يشرعها ذلك النبي المؤسس للمذهب والتشريع ولم يكن ذلك في زمان موسى وعلى هذا فالبيت المقدس محل عبادة.

«وكذلك جعلناكم امة وسطاً» ان الله جعل الامة الاسلامية وسطا في الشعور والعقيدة بين التجرد الروحي والانغماس في المادة، فيرجع المسلم إلى اصول وتجارب ومناهج وسطاً في الارتباطات والعلاقات فلا يذهب شخصية الفرد ولا يهمل مقوّمات حياة الفرد،

---

١ . وكأنّ جدنا المقدس (قدس سره) يوجه أنظار القارىء البصير الى المنهج الرمزي القائم على مناشىء نوريّة كما في قوله تعالى: ومحلها الى البيت العتيق ونظيره رمى الجمار والوقوف في المشاعر وقد أشار سماحة الوالد آية الله العظمى الشيخ محمد الخاقاني الى اسسه وضوابطه في كتابه نقد المذهب التجريبي فراجع.(حفيده محمد طاهر).

وهو النظام الكامل بين الفرد والاجتماع.

والاسلام ايضاً وسط في الصفات النفسية بين الافراط والتفريط ولا يعمل الشهوة والغضب من غير تحديد والمسلمون هم الوسط، بين المادة والروح، وليس المسلمون كاليهود في الانغماس في المادة و لا كالنصارى في التشبه بالروح المجردة، ومن هذه العناية كانت هذه الامة ويراد منها الابرار والاولياء والصالحين من عباده، هم الشهداء على الامم فلهم الرقابة وتوجه النظر إلى سائر الامم، ويكون الرسول صلى الله عليه وآله هو الشهيد على هذه الامة.

فالامة الاسلامية تشهد على سائر الامم بالعدل والقيم الانسانية والموازين الحقة، ويكون الرسول هو الشهيد على هذه الامة، لانه الشخصية الكاملة والعدل الحقيقي الذي شرع تلك الموازين والقيم بين الله وعباده، لا تبديل لحكمه وليس مطلق الامة الاسلامية شهداء على الامم، اذ الشهادة تقتضي العدالة والتوازن ولا يكون الشهيد شهيداً وهو قد فرط في الحق وارتكب الجرائم.

واعلم ان قوله تعالى «قد نرى تقلب وجهك في السماء» فان تقلب وجهه طبق ما تعرفه نفسه بحسب استعدادها، بان القبلة الاصلية هي القبلة الحقيقية، وعليها طريقة ابراهيم عليه السلام وان بيت المقدس محل عبادة لا قبلة، ولو كان قبلة لكان منسوخاً بالبيت الحرام، وان يكون اتجاه المسلمين اتجاهاً واحداً وغاية واحدة، فان اتجاه المسلمين للقبلة في جميع الحالات على نهج واحد في الصلاة والحج والموت والحياة، في النوم واليقظة، في الذبح والجلوس وفي القبر، وهذا شيء كله يرضى الله والرسول، لانه على طبق المصلحة والملاك الكامل، وهي قبلة في السفر والحضر بجميع اتجاهات المسلمين واجتماعهم، وان القبلة تربط اجتماعهم وافكارهم وتربطهم ربطاً حقيقياً في الحج، في كل عام، فالقبلة توحد المسلمين في الوحدة الاجتماعية وتجمعهم على هدف واحد ومقصد غير متعدد، وهذا التوجه إلى الله سبحانه وتعالى والانقياد اليه.

ومن الواضح ان ظواهر التكاليف الشرعية وان توجهت إلى الرسول صلى الله عليه وآله ولكن يدخل فيها عموم المسلمين والمكلفين، ولا تختص به وحده، الا بقرينة ودليل خاص، حيث ان الاحكام المتوجهة من القرآن او من السنة، في الغالب جاءت على نحو القضايا الحقيقية لقوله تعالى «اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا» «وكتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم» وقل ما تأتي الاحكام على

صورة القضايا الشخصية، كقوله تعالى في سورة الاسراء «ومن الليل فتهجد به نافلة لك» حيث ان لفظة لك دالة على اختصاص التكليف به ولا يشمل غيره.

فالمسلم أين ما كان إذا أراد الاستقبال في فريضة او نافلة فلابد ان يكون اتجاهه شطر المسجد الحرام، فقد يتوجه إلى جهة المغرب او إلى المشرق، ويختلف سمت القبلة باختلاف الاقطار والبلدان، وهذا بخلاف بعض المذاهب، كالنصرانية حيث يتوجهون إلى جهة المشرق وان اختلف الشرق بحسب البلدان، واليهود يتوجهون إلى بيت المقدس وربما يختلف الاستقبال إلى بيت المقدس كما يختلف في البيت الحرام، والمسلم من آمن بالله ورسله وكتبه، وبمحمد ﷺ وسنته،واعتقد الفروع من الصلاة من الصلاة والزكاة والحج وغيرها.

«وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون».

ان اليهود والنصارى وغيرهم ممن أوتي الكتاب ليعلمون ان الرسول ﷺ جاء من الحق ودعا إلى الحق، ويعلمون ان البيت الحرام هو القبلة الحقيقية القديمة التي احكم قواعدها ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ولا يمكن ان تترك ويتوجه الناس إلى بيت المقدس وانما تأسيس ابراهيم وعناية الله فيها، واهتمام التشريع في التوجه اليها هو الانسب لسياق الآية.

فترك اليهود ذلك الحق اتباعا لشهواتهم ونفوذ سيطرتهم ومخافة ان يكونوا تحت يد العرب وسلطانهم وما علموا أنهم لو اتبعوا الرسول ﷺ حقيقة لنفت الرسالة كل قبيلة وقومية، وكل تكتل وحزب «وما انت بتابع قبلتهم».

قد يرغب اليهود والنصارى اتباع النبي ﷺ لقبلتهم او الرجوع اخيراً لدينهم فقطع امنيتهم بقوله: «وما انت بتابع قبلتهم ولا هم بتابعين لقبلتك»، ولا اهل الكتاب من اليهود والنصارى يتبع بعضهم قبلة بعض فلا تترك اليهود ما هم عليه، ولن تترك النصارى ما هم عليه من الاستقبال.

واليهود والنصارى إذا راجعت تاريخهم واخبرت حوادثهم، وجدتهم فرقا متعددة، يحارب بعضهم بعضاً ويترصد بعضهم إلى أذيّة البعض، وان الله تعالى نبّه نبيه ﷺ على شدة المقاومة معهم وعدم الاعتناء بمبادئهم كقوله تعالى «ولئن اتبعت أهواءهم» وحاش الرسول ﷺ ان يتبع اهوائهم وهو معصوم من الخطاء والذنوب من بعد ما جاءه من العلم، ووقع ما كان يترقبه من تحويل القبلة والتوجه إلى الكعبة طبقا لواقع الامر والمصلحة، ومن المحال

ان يكون الرسول ﷺ ظالماً نفسه.

وان معرفة القبلة بهذا العصر اصبح واضحاً، لما حرره الكابلي في رسالته «تحفة الاجلة في معرفة القبلة» ومن تحقيقه ثبت اتجاه محراب الرسول ﷺ في المدينة على الكعبة الحقيقية بعد ان مضت عصور واجيال في التشكيك بمحراب الرسول ﷺ وتوجهه إلى الكعبة، وبذلك ظهرت كرامة النبي ﷺ وعلمه بمطابقة المحراب للقبلة.

وقد عيّن اكثر قبلة بقاع الأرض المهندس الفاضل عبد الرزاق البغائري واصبح اليوم بحسب دقّة الفن، تعيين القبلة بأحسن الوجوه.

نظرة حول القبلة

ان حديث تبديل القبلة يتضمن اتجاهات يقتضيها الموقف الاسلامي من اختبار المسؤولين وابتلائهم مدة بقبلة اليهود.

وامل اليهود أنّ الرسول يرجع اليهم، وثانياً: ان التبديل إلى الكعبة مما يهدم اساس ما بنت عليه اليهود وتحكيم اساس ما بنى عليه ابراهيم عليه السلام والمسلمون، وثالثاً: ان اتجاه الضمير والشعور القلبي لكل مسلم او مؤمن لا يكفي الا ان يتوافق مع الاتجاه الحسي، وحينئذ فترجع الامة إلى اتجاه واحد في الباطن والظاهر، ورابعاً: ان الاتجاه إلى الله يتعين في العبادات والادعية، في التلقين، وفي جلوس الاماكن إلى ذلك الاتجاه الحسي الذي يتقوم بالشعور القلبي والادراك العقلي ليكون المسلم موحداً في الظاهر والباطن في الشعور والحس، وخامساً: ان تقلب وجه النبي ﷺ في المساء يدل على حكم مترقب مقطوع به ولذا يترقب مشاهدته وكيف لا يترقبه الرسول ﷺ وهو البيت الحقيقي، الذي امر الله ابراهيم عليه السلام ببنائه والتوجه اليه، ولا يمكن رفع اليد عما هو اساس في الاديان إلى البيت الموقت الذي أسسه داود وسليمان عليهما السلام ، فداود وسليمان وموسى وغيرهم تابعون لما اسسه ابراهيم عليه السلام من الاساس الذي لابدو ان ترجع اليه العصور والاجيال، وسادساً: ان الاتجاه في المستحبات لكل جهة، كما قال تعالى «اينما تولوا فثم وجه الله»[1] ويتعين في الواجبات التوجه إلى البيت الحرام، ليتوافق الضمير مع الحس، والعقل مع الهيكل الجسمي، وسابعاً: ان السفهاء اخبر الله نبيه بانهم يتعرضونه عند تحويل القبلة، وما علموا ان سير القبلة

١. البقرة ٢/١١٥.

قد جرى على طبق الطبيعة واضواء التشريع وثامناً: ان الله اخبر نبيه ﷺ بمن لا توازن في افعاله، لان افعاله لا توافق الوجدان ولا العقل السليم، وان المصالح لخفية على العباد، بل المصلحة العامة تقتضي التوجه إلى الكعبة لانها بيت ابراهيم، واليهود لما منعوا النسخ ولم يؤمنوا بالانبياء من بعد موسى ورأيهم في الأنبياء قبل موسى عليه السلام انهم جاؤا لتمهيد رسالة موسى عليه السلام وليسوا بانبياء مرسلين اشكلوا على النبي ﷺ بتغيير القبلة، وقد عرفت الجواب مفصلا.

ومن الواضح ان بيت المقدس لم يأت من صاحب شريعة عامة التوجه اليه على نحو الوجوب، ولذا ان النصارى يستقبلون المشرق.

وتاسعاً: ان انكار اليهود إلى البيت الحرام لا وجه له، لان المشرق والمغرب لله تعالى والتعبير يعم الجهات لان شروق الشمس وغروبها يعم جهات كرة الأرض، وان القبلة وهي الكعبة قد اوعد فيها ابراهيم عليه السلام ودعا ان يسكنها امة مسلمة، ويخرج من انفسهم نبيا لعامة المكلفين، ولو تأمل اليهود لعلموا ان القبلة السابقة هي الكعبة وانها المترتبة لجميع العصور.

وان الله جعل هذه الامة هي الوسط، ومقتضى الوسطية تكامل الجسم والروح على أتمّ الوجوه، وهذا المعنى مما هو قرينة على اختصاص جماعة من الامة لا كل فرد من الامة.

وكيف يكون القاصر شهيداً على الكامل فتختص الآية بالاولياء من أهل بيت النبوة ومن كان بمنزلتهم من الابرار ومن بلغوا اوج الكمال فى التقوى، لا مطلق الامة وافرادها.

وإذابلغت النفوس الكمال ومتهى الفضيلة، كانوا شهداء على غيرهم، وكان الرسول شهيداً على مثل هؤلاء لاكملية ذاته على كل موجود وهم الوسط بكل معنى الكلمة، من الفكر والشعور وفي الطاقات النفسية وفى الكمال في المادة والروح، وسط في قانونهم الإلّهي وتكوينهم النفسي.

واما الشهادة فهي تختص هنا بالطبقة العالية من الاولياء والابرار، كما صرحت آية عيسى عليه السلام «وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد»[1] فهم منتهى العدالة والاعتدال من حيث الفطرة والتوجيه، ومن حيث العلم والعمل فهم في غاية الاعتدال في الصفات النفسانية والغرائز والوجدان، وهم الميزان لكل امة اختلفت فأخذت بالافراط والتفريط، والتهور والجبن، فهم شهداء عليهم.

---

١. المائدة ٥/١١٧.

ومن جملة الشهداء العلماء المبلّغون لعامة الناس، قال النبي الكريم ﷺ: خير الأمور اوسطها.

وان اليهود يعرفون الحق لتصريح كتابهم، ولكن دأبهم الجحود والا فهم عارفون بصدق الدعوة ولو اتيتهم يا محمد بكل آية ما قبلوها.

ونتيجة مفاد الآيات ان تقلب وجه النبي ﷺ كان على علم منه بتغيير القبلة، ومن آدابه لم يدعوا في المقام بتعجيل الامر فاجابه الله بالرحمة والعطف الربوبي عليه وعلى امته لتغيير القبلة، وحكى الله تعالى بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات بقوله (وما انت بتابع قبلتهم) فكان المسلمون بعد اتجاههم إلى القبلة الحقيقية قبلة ابراهيم كشخص واحد وجسم واحد، موحدين لله في ذاته وصفاته وفي عبادته والاتجاه إلى القبلة.

وليس رغبة الرسول بالتوجه إلى الكعبة انه يرغب التوجه اليها ويكره التوجه إلى بيت المقدس، فان الرسول الاعظم ﷺ اعظم من هذا الشأن، وانما رغبته طبقا للواقع ورعاية للمصلحة وانه ليعلم انه في القريب العاجل يتوجه إلى الكعبة.

وقد تكرر في هذه الآيات عنوان الالتفات من الغيبة إلى الحضور وبالعكس وهذا يؤكد المعنى ويقرره كما يقتضيه علم الادب، وان وحدة القبلة مما تؤكد الاجتماع وتحفظه وهذه كلها نعم على العبد كما صرحت الآيات الشريفة ان الهداية إلىالتكليف والعمل بمقتضى الهداية نعمة من النعم.

الاتجاه الفلسفي

ان الله عندما خلق العباد، لابد ان تكون ضمائرهم خاضعة للعقائد، مطمئنة بالبرهان، في انه الواحد في ذاته وصفاته وافعاله وعبادته.

ولما كانت الضمائر في العقائد، متوجهة بكل معنى الكلمة إلىالحق تعالى، فيستعين العبد ثانيا بان تكون الجوارح كالضمائر خاضعة لذاته تعالى، لان العبادة كما صرحنا به هي اداة الخضوع والعمل الفاني في ذات الحق، فالعبادة الحقيقية لا يمكن ان تكون لغير الله، وان كان من عبد الاصنام كالمشركين من العرب او من عبد النار كالفرس، يتوجهون إلى معبودهم، ولما كان هذا التوجه لا حقيقة له، وليس بقائم على جذور صحيحة علمية، خص الله العبادة بنفسه ولا عبادة إلاّ له.

ولما كان التوجه اليه يأتي على نحوين، الأوّل: ان يتوجهوا اليه إلى أيّ جهة كانت، كما في الصلوات المستحبة والادعية، والنحو الثاني: ان يتوجه اليه على توحيد صفوف المسلمين في جميع الاقطار، في المسجد والبيت، في الصحراء والمدينة، في الليل والنهار وكان التوجه إلى جهة واحدة، لانه بعيد عن تشتت الضمائر، واختلاف النفوس فانك إذارأيت مسلماً قد توجّه إلى الكعبة، ورأيت آخر قد توجه إلى جهة اخرى تفرقت كلمتهم وتعددت مقاصدهم فاراد الله سبحانه وتعالى ان يوحّد كلمتهم توحيداً حقيقيا في العقيدة والعمل، وكأنّهم انسان واحد في جميع الاقطار فالاسلام دين التوحيد والوحدة في العقيدة والعمل، في الاتجاه إلى القبلة وفي الذبائح وفي القبر وفي الجلوس، فان ذلك كلّه من مقتضيات التوحيد وجمع الكلمة ورفع الشحناء والتخالف.

وان التوجه إلى القبلة وان كان عملا من الاعمال الا انه يوجب توحيد الروح والضمير، ويكون التوجه إلى القبلة من الاسباب الداعية للتوجه الحقيقي إلى الله وان المسلم في حال توجهه خاليا عن كل توجه عما عدا الله، ولو كان في بعض حالات الصلاة غير متوجه، ولكنه لا يخلو من التوجه في بعض افعالها او في جميعها.

وان الهدف من وحدة القبلة هو وحدة الاجتماع وحفظ المسلمين بوحدة عملية ووحدة عقائدية، والهدف الفلسفي هو عبارة عن الاتحاد روحاً وعملا، ضميراً وفعلا ليحفظ الاجتماع فيى جميع اقطار المسلمين، وان الهدف هو التوجه اليه نفسياً وعملياً، والقرآن الكريم لا يختص بجهة من الفلسفة بل هو عام للفلسفة البرهانية والروحية، والاقتصاد والاجتماع وكل ما يوجب الوحدة في جميع اقطار الاسلام وهذا الهدف في غاية العلو في كرامة المسلم وحفظ حياته الروحية والمادية والمعنوية.

وان ترقب النبي ﷺ إلى القبلة من البيت الحرام لم يكن مجرد فرض بل توجه إلى الايحاء في اول فروضه واول زمان يترقب الوحي فيه، فان افعال النبي ﷺ كلها هي التوجه إلى الله.

وعندما جاءت آيات القبلة وتحقق التوجه اليها في الموت والحياة اشارت بعض الآيات الكريمة كقوله تعالى «وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» ما ابلغ هذه الآية واعمقها، وبيان تكامل الاسلام بين المسلمين بان جعل هذه الامة امة وسطا، فان الوسطية تمنع الافراط والتفريط وتأخذ بالعدالة فهم وسط في عقائدهم، ومعتدلون في

مبادئهم وهم اهل العدالة في افعالهم فقد جعلهم الله في عالم التكوين ووجودهم على هذا الكوكب ميزاناً في العقائد وميزاناً في الافعال والعبادة وميزاناً في الاخلاق، وميزاناً في تربية النفس والاقتصاد.

وقد جاءت الوسطية على طبق التكوين وخلق الانسان ذا مادة وروح ذات عقل وجسم، فهو مجمع الكمالات في المادة وهو مجمع المعنويات في الروح والعقل، ولذا كان في منتهى التكامل لاشتماله على العالمين من المادة والروح.

وهذا من خصائص العقائد الاسلامية، وما بنى عليه المسلمون في كل عصر وانهم ليسوا كالنصارى في اعتقادهم بالروح والرهبنة، فان الانسان لفطرته يرى نفسه متقومة بعالمين، بالعالم العلوي في عقله وروحه، وفي عالم مادي بجسمه وبدنه.

وان هذا على خلاف ما يراه افلاطون من ان العالم كله روحي ومعنوي، أو ما يراه ارسطو من اهمية المادة والجسم في الانسان، وكان مذهبه كما بيّناه ان الله لا يعبد لانه فوق العبادة، ولعل نظره تقديم المادة في الانسان على روحيته.

وعليه فلا يكون اهلا للعبادة وقد بينا خطأ هذا المسلك كخطأ مذهب افلاطون فقد اظهرت الآية الكريمة ان الوسطية قائمة بالروح والجسد، وان انسانية الانسان لا تكون متكاملة الا إذا امتزج العالمان، عالم المادة والروح، لانه كما سيأتي منافي آيات المعاد اعادة الروح والجسد، وان حقيقته متقومة بالعالمين فسبحان الذي جعل المادة في اوجها اعلى مراتب الروحيات، وجعل الروح في منتهى وجود المادة فتبارك الله احسن الخالقين.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام وأصحابه

عن علي بن ابراهيم باسناده عن الصادق عليه السلام قال تحولت القبلة إلى الكعبة بعد ما صلى النبي صلى الله عليه وآله بمكة ثلاث عشر سنة إلى بيت المقدس، وبعد مهاجرته إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس سبعة اشهر قال ثم وجهه الله إلى الكعبة وذلك ان اليهود كانوا يعيرون رسول الله صلى الله عليه وآله ويقولون له انت تابع لنا تصلي إلى قبلتنا، فاغتم رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك غما شديداً وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء ينتظر من الله تعالى في ذلك امراً فلما اصبح وحضر وقت صلاة الظهر، كان في مسجد بني سالم قد صلى من الظهر ركعتين، فنزل عليه جبرئيل فأخذ بعضديه وحوله إلى الكعبة وانزل عليه «قد نرى تقلب وجهك في

السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام» وكان قد صلى ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة.

فقالت اليهود والسفهاء ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها.

وروى بريد بن معاوية البجلي عن الباقر عليه السلام قال نحن الامة الوسط ونحن شهداء الله على خلقه وحجته في ارضه وفي رواية اخرى قال الينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصر.

وعن سليم بن قيس الهلالي عن علي ابن ابي طالب عليه السلام ان الله تعالى ايانا عني بقوله «لتكونوا شهداء على الناس» فرسول الله صلى الله عليه وآله شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحجته في ارضه، ونحن الذين قال الله تعالى «وكذلك جعلناكم امة وسطا».

وقال جعفر ابن مبشر ليس في القرآن ما يدل على التعبد بالتوجه إلى بيت المقدس وعن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام في قوله تعالى «اينما تولوا فثم وجه الله» فان هذه الآية عندنا مخصوصة بالنوافل في حال السفر.

وقال قوم كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي بمكة إلى بيت المقدس الا انه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس ولا يصلي في غير المكان الذي يمكن هذا فيه.

وفي المناقب عن الباقر عليه السلام ولا يكون شهداء على الناس الا الائمة والرسل واما الامة فغير جائزان يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته على حزمة بقل.

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم الآية» فاني ظننت ان الله عني بهذه الآية جميع اهل القبلة من الموحدين وافترى ان من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الامم الماضية؟ كلا! لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الامة التى وجبت لها دعوة ابراهيم عليه السلام «كنتم خير امة اخرجت للناس» وهم الامة الوسطى وهم خير امة اخرجت للناس.

وفي التهذيب عن ابي بصير عن احدهما عليهما السلام قال قلت له امره ان يصلي إلى بيت المقدس قال نعم، الا ترى ان الله تبارك وتعالى يقول، «وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه» الآية.

وان التأمل في هذه الروايات الشريفة يعطى ان بيت المقدس لم يجعل من قبل موسى عليه السلام وانما كان بيتا ومسجداً اسسه داود واتمه سليمان عليه السلام ولكن لا يوجب ذلك نسخ

الكعبة، ولا عند ما جاءت الكعبة قبلة كانت نسخا لبيت المقدس بل كانت الامم السابقة مثالا لقوله تعالى «اينما تولوا فثم وجه الله».

غايته انه في شريعتنا كانت الآية للصلاة المستحبة، وانما صلى النبي ﷺ إلى بيت المقدس قضاء للتجربة والاختبار من المسلمين المنحرفين واليهود.

وعند الاختبار وتمامية الامتحان قال الله تعالى لنبيه ﷺ «فول وجهك شطر المسجد الحرام» فكان البيت قبلة راجحة لكافة الامم، لكن لا على نحو التشريع.

ولما جاء النبي ﷺ جاء التشريع للقبلة في الكعبة خاصة، وكان واجبا في العبادات الواجبة من الصلاة اليومية، وصلاة الآيات والصلاة على الاموات، ونحو ذلك.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين»[١].

«ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم»[٢].

«واذ بؤانا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود»[٣].

«واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»[٤].

ان الآية الاولى ظاهرة في ان اول بيت وضعه الله للطاعة والتوجه هو الكعبة والبيت الحرام، ولو كان نسخا لهذا الحكم لتعين على موسى عليه السلام اظهار النسخ بان القبلة هو البيت المقدس وهذا لا يتنافى مع كون المساجد واماكن الطاعة هي لله سبحانه وتعالى «وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا»[٥].

وكم فرق واضح بين كون البيت قبلة وبين كون المساجد لله فى انها اماكن طاعة ومحال للعبادة..

---

١. آل عمران آية ٩٦.
٢. الحج آية ٢٥.
٣. الحج آية ٢٦.
٤. الحج آية ٢٧.
٥. الجن آية ١٨.

الاعجاز (الآية ١٢٦ - ١٥٣)

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

ان الآيات الكريمة وان جاءت فى قوم معينين من المنافقين، من اليهود والمشركين الا ان القرآن الكريم إذاجاء إلى موضوع او تاريخ او تربية او تعليم او اخلاق لا يأتى به على القضايا الشخصية والخارجية وانما يأتي به على نحو القضية الحقيقية الكلية، لتشمل الاجيال والازمان وان يتوجه الخلق إلى القوانين الاسلامية المبنية على كمال العدل واللطف وان يلتفتوا إلى انهم كانوا فى ظلالهم وآبائهم وقد تحلوا بنور الاسلام وكرامة الشريعة، واصبحوا في نعم لا تحصى، واي نعمة أعظم من ان يكون العبد على صراطه المستقيم في جميع الازمان والاجيال وانه في اوج التربية والخلق الكريم لترتفع عنهم البغضاء ووحشة التقاطع والتنازع والقتال ويصبحوا اخوانا على سرر متقابلين، ويكونوا المثل الاعلى في العالم، فان سلكوا على هذا النهج اقتدت بهم الامم، وتحلت بهم البيئآت والا فان بقى الاسلام على النزاع والخلاف والتقاطع، كما نشاهده في هذا العصر والعصور السالفة، فما استفادوا من تلك القوانين العالية ونزلوا إلى الحضيض والاخلاق الرذيلة واسأله تعالى ان يتوجه المسلمون إلى تجليات الحق والتعاليم الاسلامية والتربية التى جاء بها الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله الكرام عليهم السلام وان معرفة اليهود واهل الكتاب للرسول صلى الله عليه وآله باكثر من معرفتهم لابنائهم الذين لا يشكون في نسبهم.

ومن جملة ما يعلمون انه رسول حق في تغيير القبلة، ثم امر الله المسلمين بان يسارعوا ويتسابقوا إلى الخيرات والفضائل، فالتوحيد باكمله من توحيد الذات والصفات والعبادة

والمسارعة إلى الاعمال الصالحة، كالصلاة إلى اول اوقاتها، فانها رضوان الله وفي آخرها عفو الله وان يصوم شهر رمضان فى وقته دون القضاء والحج في اول سنة الاستطاعة وهذه كلها نعم للمسلمين وتكريما لهم.

وان علماء اليهود والنصارى على بينة واضحة من نبوة محمد صلى الله عليه وآله كيف والتوراة والانجيل قد بشرا بالرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وذكرا صفاته كما اعرب عن ذلك القرآن في سورة الاعراف «يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل»[١]، وفي سورة الصف في اخبار عيسى عليه السلام بانه «يأتي من بعدي رسول اسمه احمد فلما جائهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين»[٢] كما يشهد لذلك ان عبد الله بن سلام لما اسلم وكان من احبار اليهود، قال انا اعلم بنبوة محمد مني يا بني لان ولدي يجوز ان قد خانت به امه.

ثم اوضح الله معرفة بعضهم وهم العالمون بالحقيقة وواضح الرسالة، لقوله «وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» كل ذلك حفظا على مصالحهم، «الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» ان الله الفت نظر نبيه ان كل ما جاءه هو حق، ومن الحق تعالى، وان الحق لا يمتري ولا يقع الشك فيه، وحينما قال له تعالى في آية ثانية «فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك» قال لا اشك ولا اسأل.

وان هذا الايحاء عند ما يلاحظه الانسان، بفكرة مستقيمة ويرى ان الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ليس مورد شك فيما يوحى اليه من ربه يعرف ان الآية ونظيرها مما جاء في القرآن الكريم يراد به هدف آخر، وهو الفات نظر المسلمين بصورة عامة سواء كان المسلم يتأثر باباطيل اليهود والمشركين أم لا.

وان هذا التحذير لا يختص بعصر دون عصر ولا بجيل دون جيل، ولو اخذ المسلمون في اوج النظام الاجتماعي، وترقّي النفس إلى عالم الكمال، ولكن من المؤسف جدا، ان المسلمين اخذت عليهم الآراء الغربية فأثرت على آذانهم وقلوبهم واصبحوا متأثرين باخلاق الاجانب من حيث يعلمون من حيث لا يعلمون وامسى المسلم وقد بعد عن الحنيفية البيضاء، وارتكب خطوطاً غير اسلامية، واسأله تعالى ان يرجع المسلمون إلى هداهم وانوار النبي الكريم صلى الله عليه وآله واهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

وانه في غالب الخطابات المتوجهة على النبي صلى الله عليه وآله يراد بها الامة الاسلامية الا ان

١. الأعراف ٧/١٧٥.
٢. الصف ٦١/٦.

تقوم قرينة على الاختصاص به ﷺ.

«ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات» اشارت الآية الكريمة إلى كل قبيلة من اليهود والنصارى في التصميم على اتخاذ قبلة لهم وان كانت باطلة.

ثم صرحت الآية بالاستباق إلى الخيرات بان دعوا اهل الضلال من اليهود والنصارى ومشركي العرب باتجاههم واصرارهم على العناد والضلال، وبادروا ايها المسلمون إلى عمل الخير فان المرجع إلى الله، واين ما تكونوا يأت بكم الله فيثيب اهل الطاعة ويعاقب اهل المعصية، فان الله قادر على بعثكم واعادتكم مرة اخرى، ليثيب المحسن ويجازي المسيء.

وقد كرر القرآن الكريم التوجه شطر المسجد الحرام ثلاث مرات، وفي آية ١٤٥ مرتين فلعله كان الاهتمام، بامر القبلة لشدة التعريض على ذلك «لئلا يكون للناس عليكم حجة» وكان يتردد خاطر بين مشركي العرب ان محمداً يدعي النبوة وهو يتوجه إلى بيت المقدس، ولا يتوجه إلى اتجاه ابراهيم واسماعيل.

وتردد الكتابيون فى امر محمد ﷺ حيث ان الموجود فى كتبهم ان النبي الذي يبعث في آخر الزمان يصلي إلى الكعبة «فلا تخشوهم واخشوني» إذ أنا المالك للنفوس وانا المالك لكل مخلوق، فاعرفوا عظمتي دون ما لا يملك لكم شيئاً كالكفار من اليهود والمشركين وغيرهم، ولاتم عليكم نعمتي بالاسلام، وعرفتكم قوانين، من ان الاتجاه إلى البيت الحرام، اتجاه لإله واحد وهو الخالق، وكتاب واحد وهو القرآن الكريم ورسول واحد وهو النبي الذي ارسل رحمة للعالمين ﷺ، لا يختلف مسلم عن مسلم باختلاف الأوطان ولا تختلف اتجاهاتهم وان تفرقت الاقطار، واختلفت الألسنة والأنساب، وتلونوا بالابيض والاسود.

ثم اشار القرآن الكريم إلى مقام الرسالة، بان ارسل في هذه الامة رسولا منهم يتلوا عليهم الآيات ويزكّي نفوسهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، فقد انعم الله على هذه الامة بكتاب في غاية الاعجاز، وبنبي هو اكمل الموجودات الامكانية حيث طهركم من ارجاس الشرك، ووثنية الجاهلية ودفع بكم إلى الاخلاق الشريفة وأسّس لكم العدل والمساواة وميّزكم بالاحسان والمروءَة وجعل لكم دولة وديناً فلا تنفك الحكومة عن الدين، ولا ينفك الدين عن الحكومة، والا لما كنتم شيئاً في تاريخ الدنيا وتراثاً على وجه هذا الكوكب، سوى حمية الجاهلية، وقذارة الوثنية، وقتل البنات خوفا من النفقة ولذا يتعين عليكم ان لا تكفروا

بهذه النعم، فانه ان ذكرتموني ذكرتكم، وان كان ذكركم في نطاق ضيق اذكركم في نطاق واسع غير متناه بما لا تسعه عقولكم وافكاركم، لان ذكر الله لايحد بحد، ولا يقدر بتقدير[١]، واشكروا لي على نعمي وان كانت النعم مني اشكركم بمجازاة لا تدركها عقولكم ولا تصل اليها افكاركم، نعم متواترة وآلاء غير متناهية فاشكروا لي ولا تكفرون.

فمن ذكرني باطاعة، ذكرته بالثواب وان شكرتم لي افضت عليكم نعمي ولان شكرتم لازيدنكم، وما كان الله يفتح باب الشكر ويرغب العبد اليه، ويغلق عنه باب الاجابة.

كما صرح الامام علي بن ابي طالب عليه السلام بذلك، وان شكر النعم من ضروريات العقل لكل محسن ومتفضل فكيف وهو الخالق الرزاق المتفضل على عباده، فان كان شكر النعمة واجبا لمخلوق، فكيف بالخالق.

وقد عقد علماء الاخلاق بابا طويلا في هذا الموضوع وقد ذكروا من اقسامه الشكر على المصائب والنوائب وهو من افضل مراحل الشكر.

ثم انتقل القرآن الكريم بعد هذا كله وخاطب المؤمنين، يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين، فقد نادى الله عباده بان استعينوا بالصبر والصلاة ونبههم على ذلك.

وقد اخذ القرآن الكريم في تعداد الصبر في سبعين مقام، وان الصبر طريق ووسيلة لغايات شريفة كالصبر على البلاء وعلى الفقر، وعلى فقد الاحبة، وعلى مكاره الدنيا واغاثة الملهوف وتحمّل المضار، ولو بكلمة مؤلمة، وكالصبر على الجهاد في طاعة الله واقامة حدوده والصبر على الطاعات من الصلاة والصيام وحج بيت الله الحرام والصبر على جور السلاطين وظلمهم ومن مقاسات الشدائد إلى كل ما يجري في هذه الدنيا، من الحوادث فان الانسان قد خلق على متون الاهوال وان الصبر يهون على الصابر الشدائد.

فأول مراحل الزهد والعرفان هو الصبر وان الصبر مما تكمل به النفوس وتقوى به الغرائز وتتم به التربية ومما يجعل الانسان كالجبل الراسخ عند عروض الحوادث.

واما الصلاة فهي الغوث عند الشدائد والربط بين الله وعبده فاقرب منزلة بين العبد وربه إذا اقبل عليها واتم شرائطها واجزاءها.

وان العبد ليختبره الله في الجهاد والجوع ونقص الثمرات والانفس حتى تبرز تلك

---

١. وذلك لكمال فاعلية الحق وقصور في قابليّة الممكن (حفيده محمد طاهر).

القوى التي جبلت على الخير واستقامت على المعروف.

وليس من الصبر تحمل الجوع مع القدرة على قضاء حوائجه وتحمّل الظيم مع القدرة على التخلص فان ذلك خضوع وخنوع ومذلة، وقرن الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة بين الصبر والصلاة لان المداومة على الصلاة واداء شروطها مما يستدعي الصبر..

الاتجاه الفلسفي

ان الله تعالى اظهر حالة اليهود والكفار، في ان معرفتهم للنبي ﷺ اقوى معرفة، وأأكد علماً، وان العرب من عادتهم في المثال في الأموراليقينية يتمثل باني اعرفه كما اعرف ولدى، لتأكد انساب اولادهم منهم، وهو كفاية عن منتهى المعرفة للشيء.

وان فريقا من اليهود، الذين لم يؤمنوا واخذتهم العصبية يكتمون الحق بعد علم، وهم يعلمون الحق، وان الحق لا يرتاب فيه من له يقين ومعرفة، فلا تكن ممن يعتريه الشك والتردد وليس النبي الاعظم ﷺ مورد شك او تردد، ولكن المقصود اظهاره للامة الاسلامية، ان لا تردد في عقائده ولا في افعاله.

وان الجهات إذا كانت احدها قبلة وهو الموجه لها وكل جهة تحت قبضته وهو المعين لها، فسارعوا للخيرات، فان الكل غداً يأت به الله بما فعل من خير او شر.

وعند ما تمّت تلك الآيات فى القبلة عادت هنا على وجه الاجمال تأكيداً لخطأ اليهود، وتثبيتاً للحقيقة عند المسلمين وان الله غير غافل عن افعالكم.

وانتم ايها الامة الاسلامية، وعلى رأسكم النبي الاعظم ﷺ اينما تولوا في الاقطار فتوجهوا إلى البيت الحرام لان الكعبة فيه، حتى تنقطع آمال اليهود، ويحصل اليأس من تراجعكم اليهم، ولا تكن حجة عليكم في وقت دون وقت او في بلد دون اخرى، ثم الفت الله نظر نبيه ﷺ ان الظالم من اليهود وغيرهم، وان سعى في ظلم المؤمنين، ولكن لا يهمكم ذلك فان الخشية والخوف من الله تعالى، لا من الناس، والا لكان كل ظالم يخاف منه، وكيف يترك الله تعالى الظالمين، حتى يفتكون بالرسول ﷺ واتباعه.

ثم اعلم ان نعم الله سبحانه وتعالى على عباده، وفضله عليهم في مرحلتين.

المرحلة الاولى: فضل الايجاد والتكوين، بان اوجدهم على احسن تقويم واتم عليهم نعمة الايجاد، من وجود النفس الناطقة والعقل المتكامل على اختلاف مراتبه في

الناس، واستعداده في البشر، تلك النعمة العظمى، التي لا يقابلها شكر الشاكرين، ولا مدح المادحين.

المرحلة الثانية: النعمة التدوينية والتشريعية، بان بعث للناس الانبياء والرسل ليوصلوا البشر إلى ارقى المراتب واقرب الوسائل، خلق لا ينطق ولا يتحرك، ولا يفهم شيئاً ولكن امدّه الله بالعقل حتى إذا تكامل عقله ونفسه، تقبل نعمة التدوين ونعمة التكوين، من معرفة النفوس والافاق ومعرفة ما وراء الطبيعة.

وليس فوق هذه النعمة التكوينية والتدوينية، من ارشاد النبي ﷺ بان بعث فى هذه الامة نبياً يتلوا عليهم آياته التكوينية واسراره الملكوتية، وان يزكيهم بتطهير تلك الخبائث عن النفوس وتطهيرها بالفضائل، فان النفس لا تتقبل اسرار التكوين ونكات التشريع الا إذاطهرت من الخبائث، وتوجهت إلى الفضائل وتحلّت بنور الايمان والمعرفة.

فعندها تتوجه نفسه إلى قبول الحق وإلى معرفة اسرار الوجود والتدوين، وعند ذلك يعرفون تعاليم الرسول ﷺ لهم بما اورده الكتاب من الدروس والتربية وتفوق النفس بالمعارف، وبعلمهم الحكمة واسرار الوجود، حتى كأنهم يشاهدون الكون باسراره.

وان الحكمة كما بيناها في محله من (المثل الاعلى) هي المساوقة للفلسفة التي عرفها الفلاسفة بانها العلم باعيان الموجودات، ومعرفة حقائق الاشياء[١].

وان العالم الحسى والعقلي، يكون عند العارف نظماً عقليا مثالا لهذا النظام التكويني، ويكون العبد مثالا لله في ارضه، ومتشبهاً باخلاقه، كما قال ﷺ تشبهوا باخلاق الله، فيكون العبد الواصل بالمعارف عالماً بعلمه، وقادراً بقدرته ومريداً بارادته وعندها، فتستكمل النفس الانسانية كما صرح به الفلاسفة، ان العلم بالفلسفة استكمال النفس بقدر الوسع في الطاقة البشرية والعقل الانساني، وعند ذلك تتم النعمة من الله على خلقه نعمة المعارف تكويناً وتشريعاً.

وان قلنا في محله من (المثل الاعلى) ان الفلسفة الحقيقية هي معرفة الوجود الاتم وهي معرفة وجود الحق، وهذه الفلسفة مما لا يمكن وصول عقول البشر اليها، وانما يصلون على حسب استعدادهم[٢].

---

١. المثل الأعلى في الفلسفة – موسوعة الخاقانية ٢: ج ١ ص ٢٠ – ٢١ – الطبعة الجديدة.
٢. المثل الأعلى في الفلسفة – موسوعة الخاقانية رقم (٢) – ج ١ – ص ٤٠ – الطبعة الجديدة.

وكيف يكون العلم بوجود الحق لمن كان معلولاً ووجوده في منتهى الفقر، والعلة في منتهى الغنى، وانما يصل الانسان إلىالفلسفة الظلية، والا فالفلسفة الحقة مما لا يصل اليها تأليف التدوين ولا المعارف بين البشر، وانما يتوصلون في الجملة إلى الفلسفة الظلية من الوجود الامكاني المفتقر إلى وجود الحق وان تعاليم الرسول الاعظم ﷺ إذا علمها الانسان كما يريده الله عرف ان اعماله الجوارحية وتقبله للاحكام واستقبال القبلة في التوجه إلى الله، وتكرار التوجه في الآيات كلها مما يعرف الفطن انها امور ترتبط بعضها ببعض، وان العمل البدني مربوط بملكات نفسية وتوجهات غيبية.

ولذاترى ان الابرار الشامخين ممن كانت اعمالهم وتوجهاتهم ليست عملا عادياً، وانما يعرفون ان هذه الاعمال والجوارح مرتبطة باسرار التكوين، وان الطريق إلى معرفتها هو التكامل في معرفة رسالة هذا الرسول الاعظم ﷺ وهدايته وان الرسول عند ما يريد العمل من امته الصالحين الزمهم بالتنزيه عن الرذائل، وتطهير النفس بالفضائل حتى ينطبق عليهم «ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً»[1].

وان الانبياء وان جل مقامهم، وكان بعضهم ذا شريعة عامة للبشرية كافة، ولكن ليست الهداية كهداية هذا النبي ﷺ ولا اهدافهم اهدافه، فاذا وصل العبد إلى حقيقة رسالته وتشريعه كان مثلا ونوراً يستضاء به، ويقتدى بافعاله.

ثم جاءت الآية بعد ذلك خطاباً لعباده الصالحين «اذكروني اذكركم واشكرو لي ولا تكفرون».

وان الذكر حضور الشيء عند الذاكر، وان الله ذاكر لعبده قبل ذكره له، وحاضر في علمه الازلي بتمام الحضور، فاذا ذكر العبد خالقه بالطاعة والضمير، وباللسان والتسبيح، ذكره الله بما لا يخطر على ذهنه، اذ منتهى الفيض، مما لا يحيط به العبد واشكروا لي ايها العباد على النعم التي تفضلت بها عليكم، من التكوين والتدوين.

كما ورد إذا ذكرتموني فانتم جلسائي والحاضرين عندي، وما خلقتم الا لتنتهوا إلى اعلى الدرجات، ولا تكفرون فانكم ان بعدتم عني نالكم العذاب الاليم.

وان غاية الذكر من العبد حضور ذات الحق، في ذاكرته، وفناء الذاكر فيمن ذكره.

وان الذكر لساني وقلبي وعقلي، ولا يمكن ان العبد يصل في ذكر الله تعالى في

---

١. البقرة ٢/٢٩٦.

عباداته الا إذا شرع الله على يد انبيائه ذلك العمل الذي يوصله إلى النشأة الاخرة ولا يصح للعبد ان يجعل عبادة من نفسه ويتوجه بها إلى الله تعالى، كما تصفه جهلة الصوفية، اذ الوصول إلى الحقائق لابد ان يكون على يد من انكشفت الحقائق عنده، لا على من كان دينهم على الخيالات والاوهام.

ثم ان الله تعالى أعقب آيات القبلة وارشاد النبي ﷺ إلىان العبد لابد ان يستعين بالصبر على اعماله من الطاعات والعبادات، أو من البلاء والنوائب.

وان الصبر له مراحل، ويراد من الآية الكريمة هو صبر الذاكرين والشاكرين، والصبر الذي تبتهج النفس به وترتاح اليه دون صبر العاجزين، وأنّىٰ للعاجزين ان يصلوا إلى هذه المراحل.

والمراد من الآية، هو صبر الشاكرين والمحبين لذات الله والمتفانين في حقه والذاكرين له، وهذا هو الصبر الذي يقرن بالصلاة، وهي الصلة بين الله وعبده وهي معراج الاولياء وقربان كل تقي.

ولذا ان الآية لما كانت في هذا المقام اشارت إلىمعنى دقيق وغاية توجب التفات العارف بختمها لسائر الآيات، ان المعونة على ما تقدم من الآيات الكريمة، ومفادها انما هو بالاستعانة بالصبر، ومقارنة الصبر بالصلاة.

وان القارىء لكتابه الكريم يلتفت هنا إلى نكتة لطيفة، ان الله وان كان هو الموجد والفاعل لكل شيء، وهو الباعث للرسل بالتشريع، ولكن العبد إذاقام بوظائف العبودية بما تقدم بيانه منا، كان الله مع الصابرين معية ما الطفها، ومصاحبة ما اجلها.

فالله على عظمته وعلوّ شأنه وان كل موجود قائم به، ومع كونه العلة التامة والفاعل لكل شيء هو اللطيف على عباده بالرحمة ومعهم بالعطف والكرامة وهذه العبارة في الآية من الطف الاعجاز واتم البيان.

الاتجاه من ناحية النبي ﷺ وآله عليهم السلام واصحابه

في تفسير القمي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون، الآية قال نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، يقول الله تبارك وتعالى، والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه، يعني يعرفون رسول الله كما يعرفون أبناءهم، لان الله عزّ وجلّ قد

انزل عليهم في التوراة والانجيل والزبور صفة محمد ﷺ وصفة اصحابه ومهاجرته، وهو قوله تعالى «محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل»[1] وهذه صفة رسول الله في وصفه اصحابه، فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب كما قال جل جلاله، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

وفي قوله تعالى «اينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً» من طرق الشيعة انها نزلت في اصحاب القائم (عج) وفي بعضها انه من التطبيق على المورد.

في عدة الداعي روى ان رسول الله ﷺ قد خرج على اصحابه فقال، ارتعوا في رياض الجنة، قالوا يا رسول الله، وما رياض الجنة، قال مجالس الذكر، اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحب ان يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فان الله تعالى ينزل العبد حيث انزل العبد الله من نفسه، واعلموا ان خير اعمالكم عند مليككم وازكاها وارفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالى، فانه تعالى اخبر عن نفسه فقال انا جليس من ذكرني وقال تعالى، فاذكروني اذكركم بنعمتي اذكروني بالطاعة والعبادة اذكركم بالنعم والاحسان والراحة والرضوان.

في المعاني عن الحسين البزاز، قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام الا احدثك بأشد ما فرض الله على خلقه قلت بلى، قال انصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك وذكر الله في كل موطن اما اني لا اقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا لله والله اكبر وان كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن إذا هجمت على طاعته أو معصيته.

في عدة الداعي عن النبي ﷺ قال قال سبحانه إذاعلمت ان الغالب على عبدي الاشتغال بي، نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فاذا كان عبدي كذلك واراد ان يسهو حلت بينه وبين ان يسهو، اولئك اوليائي حقاً، اولئك الابطال حقاً، اولئك الذين إذااردت ان اهلك اهل الأرض عقوبة ذويتها عنهم من اجل اولئك الابطال.

في المحاسن عن الصادق عليه السلام قال قال الله تعالى ابن آدم اذكرني في نفسك اذكرك في نفسي، ابن آدم اذكرني في خلاء اذكرك في خلاء، اذكرني في ملاء اذكرك في ملاء خير من ملاك، وقال ما من عبد يذكر الله في ملاء من الناس الا ذكره الله في ملاء من الملائكة.

---

١. الفتح ٤٨/٢٩.

في الدر المنثور اخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ من اعطى اربعاً اعطى اربعاً، وتفسير ذلك في كتاب الله تعالى من اعطى الذكر ذكره الله، لان الله يقول اذكروني اذكركم ومن اعطى الدعاء اعطى الاجابة لان الله يقول ادعوني استجب لكم، ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة لان الله يقول «لان شكرتم لأزيدنكم»[١]، ومن اعطى الاستغفار اعطى المغفرة، لان الله يقول «استغفروا ربكم انه كان غفارا»[٢].

وقال الصادق عليه السلام فمن صبر كرها ولم يشكوا إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العام ونصيبه ما قال الله تعالى، وبشر الصابرين اي بالجنة، ومن استقبل البلايا بالرحب وصبر على سكينة ووقار، فهو من الخاص ونصيبه ما قال الله تعالى ان الله مع الصابرين.

الفات نظر

قد جاء في تفسير اذكروني اذكركم ان المراد من الذكر هو ليس مجرد الذكر اللساني، وانما يراد به الذكر بحقيقته، التي هي حلول الله تعالى في نظر العبد بقلبه وعقله ولسانه، وإذاجاء هذا الحلول المعنوي، فان الله يحلّ العبد بمرحلة من لطفه وكرامته.

وإذا ذكر الانسان الله، ذكره الله تعالى بالفضل وكان ذكر الله مما لا يتصوره البشر، لان ذكر العبد لله تعالى بمقدار شأنه ومعرفته.

اما ذكر الله لعبده فهو بما يقتضيه فيضه واحسانه الذي لا يمكن للبشر ان يعرفوه او يتصوروه، وان الذكر من الله تعالى هو عين اللطف بعباده عند طاعته وترك معصيته، وعند موارد الاستحباب والكرامة، وإذا بلغ العبد هذا المقام فلو غفل، وجهه الله إلى ذكره، وإذا جاء البلاء على الامة زواه عنهم ونقله إلى مكان آخر، كما نقل انبياءه عند نزول البلاء على الامم.

وما ورد عن الصابرين ومنازل السالكين، فان الصبر صبر العاجزين وصبر الشاكرين وصبر المخبتين، والصبر باستقبال البلاء والابتهاج به، وقد بينا مراتبه في «المثل الاعلى».

القرآن يفسر وبعضه بعضا

«الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابنائهم الذين خسروا انفسهم فهم لا

١. إبراهيم ١٤/٧.
٢. نوح ٧١/١٠.

يؤمنون»[١]. «فذكر انما انت مذكر»[٢].

«وما لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا اوليائه ان اوليائه الا المتقون ولكن اكثرهم لا يعلمون»[٣].

«ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم»[٤].

«الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب»[٥].

«والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرئون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار»[٦].

الاعجاز (الآية ١٥٤ - ١٦٣)

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

ان من قتل في سبيل الله حي، بل ينتقل من حياة ادنى إلى حياة عالية، وعيشة طيبة، والآية نزلت في قتلى بدر وقد كان الاولياء، كسيد الموحدين امير المؤمنين عليه السلام يتمنى الشهادة وان الموت على الفراش ميتة هينة، وان عيشة الشهداء يوم الاخرة، فمما لا تراه العيون ولا تعيها الاسماع، وما كل مؤمن يدعي الايمان صادق في دعواه، فلا يعرف الصدق

١. الانعام آية ٢٠.
٢. الغاشية آية ٢١.
٣. الانفال آية ٣٤.
٤. الحج آية ٢٥.
٥. الرعد آية ٢٨.
٦. الرعد آية ٢٢...

والحقيقة من التظاهر والتمويه، الا كما قال تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع)[١] والا لما كان للمؤمن فضل، فاذا لم يبتلَ بالخوف والجوع ونقص الاموال والثمرات والانفس، لم يعرف الحق من الباطل والتمويه من الحقيقة.

وان البلاء يأتي على الاشخاص، على مقدار منازلهم (الم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم)[٢].

وان الامم السابقة قد مسّتهم البأساء والضراء فللجنة ثمن وهو التضحية في سبيل الله بمال او جهاد أو مقاومة الباطل، ولذا ان الله تعالى وصفهم بقوله (الذين إذااصابتهم مصيبة) لم يخرجوا عن دينهم، ولا يذهب البلاء عقلهم، ولا يقدمون على شتم او توهين اولئك لهم الكرامة وعلو المنزلة من الله قال بعض العلماء «السعادة منوطة بالمصائب وتحملها» وقال ارسطو في كتابه الذي ارسله إلى الاسكندر ما معناه، ان الناس يتحملون المصائب ولكنهم لا يتحملون النعم، ثم اوضح ذلك بما ملخصه ان كل امة توفرت فيها النعم وجانبها النصب وابطرها الرخاء فساعتها قد اقتربت، ومن ناصبتهم الحوادث او الكوارث فهم الذين يبنون مجداً لهم.

وما من مسلم اصيب بمصيبة ففزع بقوله انا لله وانا اليه راجعون، اللهم عندك احتسب مصيبتي فاجرني فيها وعوضني خيراً الا اجاره الله وعوّضه خيراً منها.

فقد مدح الله الصابرين، بان الله يحبهم، وان النصر والجنة لهم، وهكذا الاجر الجزيل والبشارة لهم والصلاة عليهم والهداية لهم والعطف وهو معنى الصلاة عليهم وراء الرحمة بهم او مقدمة الرحمة، فالعطف من باب المقدمة للرحمة والفوز لهم إلى غير ذلك، كما يأتي بيانها في الآيات الشريفة.

وان الصفا والمروة جبلان بمكة قريبان من الكعبة يسعى كل حاج ومعتمر بينهما، والسعي عبادة من العبادات، ففي الحج الواجب في العمر مرة.

والحج احد الاركان الخمسة التي بني الاسلام عليها، فان الاسلام بني على خمس، وهذه امور توقيفية، كالصلاة والصوم، مما لا يصل العقل إلى مصالحها، فاذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة اشواط، فقدادى هذه الطاعة ولا جناح ان يطّوّف بهما، والتعبير بلا جناح حيث فسر بالامر فيحمل عليه، او يراد ان السعي مشروع.

---

١. البقرة ٢/١٥٥.
٢. العنكبوت ٢٩/٢.

واما التعرض بانه فرض او سنة فيؤخذ من السنة النبوية واجماع المسلمين، وكان المشركون يسعون بين الصفا والمروة تقربا إلى اوثانهم واصنامهم، فعلى الصفا اساف وعلى المروة نائلة، فلما ان جاء الرسول الاعظم ﷺ فقطع فساد هذه العقيدة واوجب السعي لله، حيث لا طاعة الا لله، فمن تطوّع وتبّرع للسعي بين الصفا والمروة إذا أدّى الواجب الذي عليه فالله يثيبه ويشكر عمله ويرضيه بنعمه، فهو العليم بمن اطاع وعصى.

(ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى) عدول عن ذلك السياق وإلى هدف ثانٍ، كما هي عادة القرآن الكريم، وبيانها ان من كتم من كتاب الله أو سنة رسوله، أو بفطرة العقل فهو بعيد عن الله وعن اوليائه.

(الا الذين تابوا) استثناء مما شملته اللعنة فقد استثنى منه من تاب على وجه ان يتظاهر بالتوبة، ولازم التظاهر بالتوبة ان يظهروا ما كتموه عن الناس وان يتوب حقيقة.

(اما الذين كفروا وماتوا وهم كفار) مصرّين على العناد والكفر، فأولئك هم من اصحاب النار فتشملهم اللعنة إلى يوم الدين، خالدين في اللعنة لا يخفف عنهم العذاب، ولازم اللعنة العذاب.

وقد اشتملت هذه الآيات على كثير من الالتفات من حالة إلى حالة، ومن جملة ذلك العلماء إذا فسدت عقيدتهم.

وفي المجمع عن النبي ﷺ من سئل عن علم يعلمه وكتمه ألجم يوم القيمة بلجام من النار، وهو معنى قوله تعالى: «اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون»، فقد اوعد الله سبحانه وتعالى الرحمة والتوبة لمن تاب واصلح، واللعنة والعذاب لمن بقى على ضلالته، وان الكتمان للحق لا يختص باليهود، وان الله لا يعاقب أمّة او فرداً، الا بعد البيان فاذا لم يصل التكليف إلى العبد. فالعقاب من المولى بلا بيان قبيح.

نعم يحكم العقل بالبحث والتنقيب عن الحكم الالهي، في مضانّه، فاذا قصر واهمل فهو كالعامد، لانه ترك البحث والفحص، وكانت المسؤولية على عاتق العبد وحقيقة البراءة والاشتغال العقليين ان المولى إذا لم يكلّف، ام كلف ولم يصل العبد مع الفحص والتنقيب إلى التكليف، فالمسؤولية على المولى وعلى عهدته.

اما إذا كلّف ووصل التكليف بالطرق المتعارفة في الايصال من الموالي للعبيد، فالمسؤولية على عاتق العبيد لاعلى عاتق الموالي.

وفي الحقيقة ان روح البراءة والاشتغال، هو ما اشرنا اليه في علم الاصول، ان المسؤولية والعهدة قبل البيان على عاتق المولى، وبعد التكليف وايصال البيان واقامة الحجة ببيان التكليف فالمسؤولية والعهدة على عاتق العبد، وقد وصف الله العظيم نفسه بانه يتوب عليهم، ثم قال «انا التواب الرحيم».

وان من صفات الله هو التواب، وليس التعبير بالتوّاب من المبالغة ولا مجازاً ولا استعارة، لان التوبة معناها الرجوع، سواء كان من العبد الرجوع إلى الله او كان الرجوع من الله للعبد، فالله راجع إلى عبده، متوجه اليه ببيان السبل وطرق الهداية التي توصله إلى الرفيق الاعلى، وفي هذه المرحلة، فالرجوع متكرر بتكرر الطافه على عبده من ارسال الانبياء والاولياء، ثم عند المخالفة من العبد يرجع اليه، ولو تعددت المخالفات واكثر من الاساءآت والسيئآت، ولكنه اكثر من التوبة، ولا يستحق الا من خالف الله وتعدى بالكبائر، والا رجعت على صاحبها وقد لعن رسول الله ﷺ عمرو بن العاص حيث هجى الرسول، فقال ﷺ اللهم ان عمرو بن العاص هجاني وقد علم اني لست بشاعر فلعنه، ذكر ذلك القاضي ابو بكر المعافري، في كتاب احكام القرآن، وبالاخير ان قوله تعالى، وانا التواب الرحيم، ليس فيها كثرة مبالغة، بل الصيغة كانت للمبالغة لا ان المعنى فيها للمبالغة.

ثم ان الظاهر من ترتب العذاب على اللعنة، انها لعنة على موعد من اعمالهم الباطلة، منبوذون من الله وعباده وعند الملائكة وفي الملاء الاعلى.

اما الذين تمادوا بالطغيان والكفر، ولم يتوبوا، وماتوا وهم كفار، فعليهم اللعنة الدائمة من الله وملائكته ولا يخفف عنهم العذاب.

ثم يأتي القرآن الكريم، فيقول، (والهكم اله واحد) فقد جاء القرآن بشتى الاساليب في تأكيد توحيد المعبود ليتوجه المسلم إلى ما قرره القرآن، من حقيقة وجود إلّه وهو وجود الله، وانه لا اله الا هو، وانه الرحمن الرحيم، فرحمته سابقة ورحمته دائمة، فتنبثق من رحمته كل تشريع وتكليف، وكل وجود وكائن وهذه الخلائق تشهد بوجوده وتدبيره، وهذا الكون شاهد بوحدانيته لعجائبه التي لا تحصى وغرائبه التي لا تنتهي، فكم في هذا المشاهد من العالم من عجائب وغرائب اجرام ضخمة وابعاد هائلة في تجاذب في ما بينها وحفظ كل كرة.

انظر إلى كرة الأرض، وهي معلقة، وقد بعدت عن الشمس بابعاد، لو قربت منها ما

كان الانسان حياً، ولو لم تكن بهذه الابعاد.

وبهذا الترتيب لم يكن الانسان هذا الانسان ولا الحيوان هذا الحيوان، ولا الجماد فيها هذا الجماد، فهي بحكمة الحكيم متوازنة، وبتقدير الحكيم غير متصرمة وهو الرحمن الموجد والرحيم بعد الايجاد.

الاتجاه الفلسفي

ان وجود الانسان، ليس وجوداً مادياً محضاً، بل هو مركب من عالم الطبيعة ومن عالم المجردات.

وقد اثبتنا في «المثل الاعلى» تجريد النفس ببراهين متعددة، وان الآيات الكريمة، مما تصرح بذلك، من قوله، «ونفخنا فيه من روحنا»[١]، ومن عالم الامر من قوله تعالى: «كن فيكون»[٢].

ولما كان الانسان بحسب البرهان الفلسفي المذكور في علم النفس، علم بانها متجردة، ولكن لا تأتي النفس إلى هذا الجسم الا في حالة تكامله.

وليست كما قال الشيخ الرئيس انها هبطت من المحل الارفع، بل النفس تحدث عند وصول الجسم إلى حالة من الحالات، وان الموت ليس الا تكامل لوجود الانسان لا انه نقص واعدام، بل كما اشرنا اليه، لبس بعد لبس وحالة بعد حالة.

وان عالم البرزخ للانسان هو نحو تكامل له بنحو افضل من تكامل المادة، وتكامله في دار الاخرة، هو غاية التكامل، ويبقى ببقاء الله، اما متنعماً او معاقباً.

والآية الكريمة، وان نزلت في شهداء بدر ولكن قد عرفت منا ان القرآن دراسات عامة وقواعد كلية لا تختص بموردها، والا لكانت الآية هنا مختصة بأهل بدر، ولا تشمل حتى الانبياء والصالحين من عباده حتى لو قتلوا في سبيل الله، ولا يلتفت إلى ما ذهب اليه بعض المفسرين من اختصاصها بشهداء بدر، فانه كلام لايصح ان يورد، وقد اثبتنا في محله ان ليس الموت هو الفناء بل هو تكامل الروح والجسم إلى اوج السعادة في المؤمنين وآخر النزول للكافرين والفاسقين.

---

١. التحريم ٦٦/١٢.

٢. البقرة ٢/١١٧، آل عمران ٣/٤٧ - ٣/٥٩، الأنعام ٦/٧٣، النحل ١٦/٤٠ مريم ١٩/٣٥، يس ٣٦/٨٢، غافر ٤٠/٦٨.

وان النفس في تكاملها مختلفة فتارة ترقى إلى اوج السعادة، واخرى إلى آخر مراحل الانحطاط.

ولذا عبر الله تعالى في قوله «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون»[١].

فالقتل كالموت عند ما يتوفى، فان الله تعالى يتوفى الانفس حين موتها، والوفاة هنا، انقضاء زمان الحياة لا اعدام الحياة.

ثم الفت الله نظر المؤمنين، إلىان الجنة لا تنال، الا بالمحن، ولا تنال الدرجات في الآخرة، الا عند الاختبار، فالذهب لا يعرف صحيحه من باطله، الا بعد التصفية والاختبار، وكذلك النفس، لا تعرف كما هي الا بعد الامتحان والتجارب، لتبرز ملكاتها الفاضلة والرذيلة عند الفعل، وان الابتلاء والتجربة لا يختصّان بشكل دون شكل، او بحالة دون اخرى، حيث ان الانسان في الدنيا، يجمع ملكات عديدة، من قوة نفسه ووجوده، ومن نشاط بدنه وصحته، ومن رزقه للاموال والاولاد والجاه، ومن حلوله في اهل بيته والسير معهم، ومن تكونه في المجتمع، وانه قد خلقه الله عضواً في المجتمع الانساني، وجذراً من جذور الحياة، فكما ان له اتجاهات في السعادة من العلم والعمل الصالح وتقوية النفس والفضائل ومن الاجتماع والاخلاق، وكل الصفات الكاملة فيه، كذلك هو محل للرذائل النفسية وقد جعل الله عالم الاختبار والتجربة وامتحانه في هذه النشأة لتخرج النفس من القوة إلىالفعلية، ومن الاجمال إلى التفصيل، ومن الغيبة إلى الشهود.

ولذا انه في دار الآخرة يشاهد اعماله، من خير وشر، من غير ان يحاسب عليها، فلا بدّ وان يبتلى بانواع البلاء من الجوع والخوف ونقص الثمرات، وما هو اعظم من ذلك، وهو نقص النفوس، لتمر عليه احوال التجارب في جميع حالاته النفسية، من علم النفس والاخلاق والسياسة والمنزل إلى غير ذلك.

ان الله تعالى جعل للعبد حياة بعد موته إذا كان مؤمنا صالحاً مجاهداً، وليسوا باموات بل هم احياء، اذ الانسان مركب من مادة وروح، «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي»[٢] أي من عالم الامر والمجردات وانها حياة واقعية فوق هذه الحياة وادراكه بعد

١. البقرة ٢/١٥٤.
٢. الاسراء ١٧/٨٥.

الموت فوق هذا الادراك «فكشفنا عنك غطاءَك فبصرك اليوم حديد»[١] .

فالانسان في نار وجحيم ان كان من اهل السيئآت وفي جنة ونعيم ان كان من اهل الحسنات.

وقد ورد في القرآن الكريم، ان الانسان ذو جسم وروح كما قال تعالى بعد كونه نطفة ومضغة وعلقة قال تعالى «ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين»[٢] .

وقد سلك الطبيعيون مسلكاً غير ما سلكه الإلٰهيون من ان ليس هناك في اجسام البشر روح مجردة تدير البدن، وان كل شيء من الادراك والتصورات، يؤول إلى تفاعل المادة والاعصاب، وليس وراء الاعصاب والمادة اموراً مجردة.

وقد ثبت في فن الفلسفة تجرد الروح وتصوراتها وانها وراء المادة وهي المدبرة للبدن، وعلّله الطبيعيون ان ذلك يعجزنا عن تطبيق حقيقة المادة، والا فليس وراء المادة شيء آخر يعبّر عنه بالروح والعقل.

وقد اثبت الفلاسفة، واقاموا ادلة عشرة على تجرد النفس ودوامها، والا لتبدلت وانحلت، والقرآن الكريم، صريح في بقائها، وهو يلازم التجرد وان ذهب بعض المحدثين لبعض الروايات انها جسم مادي لطيف يدوم ولا يفنى، وتكون النتيجة مع الفلاسفة واحدة.

وان الانسان تكامله بتكامل علمه وعمله فاذا اصبحت روحه فلسفة علمية وعملية، وتخلق بالأخلاق الفاضلة، من الصبر والشكر والعفة والوفاء والمحبة لله، وتعرّى عن الرذائل من التعدي والظلم والجور، وعدم العفة والامانة، كان مثال الله في خلقه، وانطبقت عليه قواعد العلم، وسنن الاخلاق واصبح مثلا اعلى، وان بين عالم الدنيا وعالم الآخرة عالم البرزخ، وان الروح في بدن لطيف. ولذا يتحدث المؤمنون ويتباشرون بقدوم مؤمن من الدنيا عليهم، وليست ارواح المؤمنين في حواصل الطيور كما روته العامة، فالمؤمن أجلّ قدراً من ذلك وقد تكثّرت الاحاديث في عالم البرزخ، وعن حالاته.

وبكلمة موجزة ان الادلة العقلية والسمعية على ممرّ البحوث من تجرد النفس واتحادها مع الجسم نحو اتحاد قائمة على التجرد وتدبير البدن.

ومن هنا دامت بعد الموت وتكاملت بعد هذه الحياة، وقد اوضحناه في «المثل الاعلى» وسيأتي على ممر الآيات تفصيلا.

---

١. سورة ق، آية ٢٣.
٢. المؤمنون ٢٣/١٤.

الاتجاه من النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام وأصحابه

عن الباقر عليه السلام قال اتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال اني راغب نشيط في الجهاد، قال صلى الله عليه وآله فجاهد في سبيل الله فانك ان تقتل كنت حياً عند الله مرزوقا، وان مت فقد وقع اجرك على الله - الحديث.

في الخصائص عن امير المؤمنين عليه السلام قال وقد سمع رجلا يقول انا لله وانا اليه راجعون، يا هذا ان قولنا انا لله وانا اليه راجعون اقرار منا بالملك، واقرار منا بالهلاك.

في الكافي عن ابن سنان عن الصادق عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله قال الله عزوجل، اني جعلت الدنيا بين عبادي قرضا، فمن اقرضني فيها قرضا اعطيته بكل واحدة عشراً إلى سبعمائة ضعف، ومن لم يقرضني قرضاً واخذت منه شيئاً قسراً اعطيته ثلاث خصال، لو اعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها عني ثم قال أبو عبد الله قول الله «الذين إذااصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم، فهذه واحدة من ثلاث خصال ورحمة اثنتان، واولئك هم المهتدون ثلاث، ثم قال ابو عبد الله عليه السلام هذا لمن اخذ الله منه شيئاً قسراً.

في المعاني عن الصادق عليه السلام الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة التزكية، ومن الناس دعاء.

في الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث حج النبي صلى الله عليه وآله بعد ما طاف بالبيت وصلى ركعتيه قال صلى الله عليه وآله ان الصفا والمروة من شعائر الله، فابدء بما بدء الله عز وجل وان المسلمين كانوا يظنون ان السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فانزل الله عز وجل (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما».

في الدر المنثور عن عامر الشعبي، قال كان وثن بالصفا يدعي اساف، ووثن بالمروة يدعي نائلة، فكان اهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت يسعون بينهما، ويمسحون الوثنين، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا يا رسول الله ان الصفا والمروة، انما كان يطاف بهما من اجل الوثنين وليس الطواف بهما من الشعائر، فانزل الله تعالى ان الصفا والمروة من شعائر الله.

فذكر الصفا من اجل الوثن الذي كان عليه، واثبت المروة، من جهة الصنم الذي كان عليه موثباً.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياءٍ عند ربهم يرزقون»[١].

«الذين إذاذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما اصابهم»[٢].

«اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا»[٣].

«ثم ليقضوا نفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق»[٤].

«يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب اليم»[٥].

«الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يبدل الله سيئآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً»[٦].

«ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم»[٧].

«ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل»[٨].

الاعجاز (آية ١٦٤ - ١٦٩)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ العَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

الفت الله النظر نحو هذه الاجرام السماوية والعوالم الكونية، وما اطلع الانسان الا على شيء قليل من قليل، لا يوصف بانه عالم او عارف بها.

---

١. آل عمران آية ١٦٩.
٢. الحج آية ٣٥.
٣. القصص آية ٥٤.
٤. الحج آية ٢٩.
٥. الجاثية آية ٨
٦. الفرقان آية ٧٠.
٧. محمد آية ٣٤.
٨. الانعام آية ١٠٢.

فالعلم إلى هنا قاصر عن ابعادها، وكيفيات اتصالها بعضها من بعض، وان اختلاف الليل والنهار، وتعاقب الضياء والظلام، ليحدث في قلب الانسان افكاراً مستغربة، ويضل دائماً في روعة خلق جديد، وان الفلك التي تجري في البحر، في عمق وغزارة ماء وموج متلاطم وفلك سابحة، فلا يرى هناك الا قدرة الله ورعايته.

وقد ينقطع عن الشخص كل امل إذاكان في ضغط الامواج وزوابع الرياح ولو نظر إلى كل شيء في الوجود حتى إلى الحبة والنواة، اندهش من صنعها افكل ذلك جاء صدفة، فمن اعطى الحياة للموات ومن اعطى القدرة والارادة في الجماد؟

وان من نظر إلى لطف الآية، وغرائب بيانها، من تسخير السحاب، واختلاف الليل والنهار، شاهد صنعاً متقنا، وحكمة ثابتة، وان هذا العالم خلق لاجل الانسان ومنافعه، ووصوله إلى اعلى المراتب، على وجه لا يحس بالمبادىء، ولا يعرف كيف نشأ هذا العالم بهذا الاتقان واني للطبيعة ان تكوّن نفسها على هذا النظام الكامل، وتصيّر نفسها عاقلة مدبرة، سائرة على نظام متقن، وكل ذلك انما كان هذا العالم من الطبيعة بتقدير العليم الحكيم.

ان اختلاف الليل والنهار مما يوجب اختلاف الايام والسنين في الاقطار، فرب بلد ليلها اطول من نهارها، ورب بلد اخرى على عكس ذلك، وربما كان الظل محققا فى بلد، ولا ظل في بلد اخرى.

وقد تبلغ الايام والليالي عند كل ليلة ويوم ستة اشهر، ولكن المناسب لوجود الانسان والحيوان ما كان فيه الاعتدال في الجملة.

والا ففي بلد يكون ليلها مقارباً ستة اشهر ونهارها يقارب ذلك، فان البشر لا يمكنه ان يعيش في مثل تلك البلاد الا بصعوبة.

وقد جعل الله السفن نواقل للتجارات والمنافع من بلد إلى بلد، وجعل اجرامها اخف من جرم الماء، لئلا ترسب في الماء.

وان كل جسم كالحديد ونحوه ان لم يكن مجوفاً فانه يرسب في الماء، لأن المجوف فيه الهواء والمجموع من المجوف والهواء اخف من الماء بخلاف ما كان خفيف الجرم كالخشب ونحوه، فقد جعله الله نواقل للتجارات والمعاملات.

وانك إذاتأملت السحاب والمطر، وجدته قد احيا الأرض والنفوس.

فلم يكن قريبا جداً، لتضيق حياة البشرية به، ويهلك السائر والقاطن، وليست مرتفعة

فوق المتعارف من الارتفاع، حتى لا يكون لها نفع في النبات والحيوان.

وان من تمام الحكمة في الموجودات انه سبحانه وتعالى، في غاية الحكمة والتدبير لمخلوقاته.

وسيأتي منّا على ممر التفسير بطلان ان وجود الكائنات، من عالم الطبيعة، وانى للطبيعة ايجاد هذا العلم، الذي تحيرت به عقول الاولياء والعرفاء.

وانه ليقف الملحد حائراً ببصيرته، ان كيف دبت الحياة في الجمادات.

انظر إلى الامم الملحدة في عصرنا هذا كالماركسيين ونحوهم، يستحيل لهم البيان عن هذا الجواب، وكيف صارت هذه الطبيعة العمياء، منظمة للكون باحسن نظام، اذ لو اختل التوازن في هذا الكون، او في بعضه ما نشأ هذا السير الدقيق، ولا هذا القصد والاختيار، ولا جاءت رحمة التدبير، ان في كل ذلك، لآيات لقوم يعقلون.

ولكن حالت الشهوات بينهم وبين عقولهم، فانساقوا إلى شهواتهم، ولم يلتفتوا إلى التناسق والجمال في الكون ثم اشار القرآن الكريم (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً) فيتخذون احجاراً واشجاراً ونجوماً وكواكب ونيراناً او ملائكة وشياطين، فكل ذلك شرك، ويجعلون حب هذه الانداد، كحب الله او اشد حباً؛ بل لا يكون في ذهنهم، الاحب هذه التماثيل.

اما المؤمن فلا يتعلق بقلبه الا الحب لله سبحانه وتعالى، وان التعبير بالحب، تعبير التجاذب الروحي والمودة والعطف.

(ولو يرى الذين ظلموا) حينما يتبرّء المتبعون من المتبعين، وقد شاهدوا العذاب، وذهبت عناوين الدنيا من الرئاسة والقيادة والحاكم والمحكوم، وظهر عز الملوك والجبابرة امام عظمة الله وامام عذابه، وعندها ظهر الحنق والغيض من التابع المخدوع، للقائد المستهتر، وتقطعت بهم الوسائل التي يعتمدوا عليها، والاسباب التي يرجعون اليها عند الشدائد.

(وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرء منهم كما تبرؤا منا) ويتمنى الكافر عند ذلك ان يرجع إلى الدنيا ويتبرء ممن خدعه وسيّره على غير الحق، لانكشاف الواقع عند التابع فيما عمله المتبوع، وهيهات لهم ذلك (كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) فقد حقّت عليهم كلمة العذاب.

واعلم انه قد ورد عن الامام الباقر عليه السلام انه قال الانداد الذين اتخذوهم واحبوهم كحب الله هم الائمة الظلمة واشياعهم، واما معنى الحب لله هو المعرفة بكمال توحيده وعظمته بما يليق به تعالى.

وتختلف مراتب المحبة باختلاف علم الشخص ويقينه، فقد تكون المحبة هي الايمان بالمبدء الاعلى وان كل شيء تحت يده وقدرته.

ثم ان القرآن الكريم استعرض حكم الحلال، فقال (يا ايها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) فخاطب الناس بصورة عامة، ان اباح الله المأكول لهم، الذي هو الحلال الطيب، دون ما نهى عنه من الحرام الخبيث.

فالحلال ما قابل الحرام الذي يمتنع اقتحامه فيراد به الارسال وعدم التقييد، نظير حل العقد بما قابل شده، فارسال الشيء قبال الحرام، والطيب قبال الخبيث سواء كان طيباً من القول، بان يلائم قوة السماع او قوة الشامة، والطيب من الفعل قبال خبث العمل وقبحه.

ثم صرح ان لا يتبع الانسان خطوات الشيطان بان يطابق رضى الشيطان بالاغواء بالشرك وفساد العمل من عدم تمام شروطه وقيوده، او ما كان العمل بنفسه قبيحاً كالزنا، فان مقارنة الشيطان واتباعه تبعد عن الله، والشيطان يأمر بوسوسته وتلبيسه وتزيينه من المفاسد بصورة الحق ما يبعده عن نظر الاجتماع والحقيقة، فاذا ارتكب العمل كان فحشاء كالزنا.

والخطاب عام لكل الناس من المشركين الذين حرموا على انفسهم اشياء، كثقيف وخزاعة وبني عامر بن صعصعة، حيث حرموا اشياء كالحرث والانعام والسائبة والوسيلة، وغير العرب من المشركين والكتابيين، مما حرموا على انفسهم اشياء، كحرمة الصيد في السبت ونحوه افتراء على الله، وتشريعاً للمبدع.

فاما المؤمنون فهم، ان لم يكونوا بهذه المنزلة من البدع والافتراء، الا ان كثيراً من المؤمنين، قد اخذ التراث والتقليد، عن آبائهم، فبقيت آثار الخرافة في الاسلام وهذا طبق ما يقتضيه علم النفس وناموس الطبيعة في توازن الاخلاق والاداب والتربية القومية والسنن المنسوخة، فان كل ذلك يبقى في نفوس الوارثين والاجيال، سواء كانت تلك الاخلاق والاداب شرعية او قومية، ولا يدفعهما الا حسن التربية والذي يعمل بشريعة الاسلام.

والمراد في الآية من الاكل، ليس خصوص الابتلاع بل يراد مطلق التصرف، كما قال

تعالى «ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض»[١] والمؤدى ان الله يخاطب الناس، كلوا وتصرفوا، وتمتعوا في الحياة الدنيا، مما في الأرض من النعم التي جادت بها الطبيعة من قبل الله تعالى، الا ما استثنى، حلال لكم ومباح، من غير اشتراط، ولكن لا تتبعوا خطوات الشيطان واتباعه، انه يأمركم بالفحشاء، وانما حرم الله عليكم الميتة ونحوها وان التحريم من غير دليل تشريع محرم.

وان من تعبّد لله من غير امر الله، كان متبعاً لخطوات الشيطان ولأوامره ووسوسته، وان الشيطان لا يأمر الا بالسوء والفحشاء، في الفعل والقول من غير اختصاص بالفعل، كما يظهر من بعض المفسرين.

«وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله» كان الجواب (نتبع ما الفينا عليه آباءَنا) من عقائد واعمال، من غير علم وهدى وهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون، لانهم لا علم لهم، ولا علم لابائهم، وهذا كلام لم يأتِ للمبالغة، وانما جاء على طبيعة الحال في التعبير.

وليعلم ان السوء في الآية الشريفة، كل عمل تسوء عاقبته واما الفحشاء اما مطلق المعاصي، أو أقبح المعاصي.

الاتجاه الفلسفي

«ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون».

ان جملة الحوادث والموجودات في كل لحظة مفتقرة لموجدها، وليس في سلسلتها ما لا يتناهى في التأثير، ودل اتقان الصنعة على حسن الحكمة والتدبير، فاختلاف الليل والنهار وجريان الفلك في البحار والمنافع للناس، من التجارات وطرق المواصلات وخواص الماء النازل من السماء.

فجعل سبحانه وتعالى، ما بذاته وطبيعته الهبوط ان يترقّى إلى مرتفعات الاشجار وتجاويفها وانتشار الماء في الاوراق والغصون وتحول الماء من صورة إلى اكمل وغاية اسمى، فاخذت الأرض زخرفها بانواع الازهار والرياحيين والنبات ومختلف الاشجار

١. النساء آية ٢٨.

وصارت الحياة النباتية سبباً لحياة الحيوان والانسان، فاحيى الله الأرض بعد موتها، وبث في اقطارها من انواع الحيوانات مما شاكل الانسان، ومما لا يشاكله، وقد اتم الله خلقة الانسان بقوة الادراك والشعور والعقل.

ثم انظر ايها الباحث الكريم إلى عجائب ما في الجو من الرعد والشهب والثلوج والامطار والسحاب المسخر من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى آخر.

وإذا نظرت إلى قطرات المطر، وتأملت صفحات المياه لرأيت مكتوبا على صفحاتها، انها رزق الحيوان الفلاني تحيي به البلد الفلانية، رزق لبلد وحيوان مخصوص في وقت لا يتجاوزه، عجائب لا تحصى واسرار لا تستقص، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها كل ذلك بعناية الله ورحمته.

وان اقرب شيء اليك نفسك وفيها العجائب والغرائب والآيات الكثيرة، على وجود الصانع الحكيم، ما لو اراد الباحث الخبير والعالم القدير، ان يبحث مدة حياته لم يعثر الا على القليل من اسرار حياة الانسان.

وقد ملاء القرآن الكريم بين دفتيه بالفات النظر والتوجيه للافكار في آيات الله تعالى، والانقطاع عما سواه وقد اعقب القرآن المجيد كثيراً من الآيات، بقوله «افلا يتدبرون» «افلا يعقلون» «افلا يتفكرون» ايقاضاً من سنة الغفلة وتنبيهاً عن نوم الجهل.

واعلم ان معارف البشر لحقيقة الله تعالى، اما من ناحية الاثار من خلق السموات والأرض وعالم الملك والملكوت واسرار الموجودات، مما توجب القطع لعامة الناس معرفة الله تعالى، واما ان تكون معارفهم فوق ذلك فيعرفون صفاته وكمالاته، وما يترتب عليها من الاثار والاسرار وهذه معرفة العارفين بالله.

واما ان تكون معارف الانسان اكثر من ذلك كمعارف الانبياء حيث أنّ لهم السير من عالم الخلق اليه تعالى، ومنه تعالى إلى صفاته، ومن صفاته إلى افعاله حتى تتجلى لهم اسرار الموجودات، وتعرف حقائق الكائنات ويشاهد ابداع الحق إلى مرتبة ان يحصل للنبي او الولي مشاهدة الكائنات على الوجه الاكمل.

وان الحب والبغض نتائج العلاقة، بين المحب والمحبوب، والباغض والمبغوض، فالحب هو الشعور بمناسبة المحبوب، وتختلف مراتب الحب، وقد تكون في الأمورالطبيعية، كحبه للطعام الشهي، وبغضه للطعام الرديء.

فالحب هو الشعور بمناسبة الطعام للقوة البدنية وقد يكون الحب لامر طبيعي وشعور تكويني، كحب الحركة الجوهرية في الأمورالطبيعية، من حالة إلى اخرى ليحصل التكامل، فالنطفة تنتقل إلى العلقة، والعلقة إلى المضغة[١].

وهكذا حتى يتكامل الانسان، فهو حب تكويني وان لم تشعر الحركة بذلك وقد يكون الحب بين الناس بعضهم من بعض لغاية تجمعهم وغرض واحد تتوجه اليه نفوسهم، ومن جهة اخرى يكون الحب بين الله وعبده وهذا الحب تكويني او إراديّ، وان الله لما كان محباً لذاته لابد وان يكون محباً لمخلوقاته.

وان العباد لو عرفوا حقيقة الحب بينهم وبين الله، لعرفوا حبهم، وانه معلول لحب تلك العلة التامة، التي لا يعتريها نفص ولا حذر.

فالكفار وان احبوا ما يعبدونه من الاصنام والنار والشمس والقمر، الا ان هذا الحب ليس على اساس فلسفي، ولا على قواعد حكمية.

اما حب الانبياء، والاولياء، فهو على قواعد فنية، فان حب العلة للمعلول، والمعلول للعلة تكويني وليس الحب الا ان الله حيث احب نفسه احب مخلوقاته على مقدار ما تتعلق به نفوس الاولياء من المحبة لله، وإذا كان الولي ولياً، ووصل إلى مراحل التكامل، اشعر بمحبة المعلول للعلة، وانه من تجليات تلك العلة، واشراقات انوارها، وان لم يتمكن النبي او الولي ان يحب حباً كاملاً بما تقتضيه المعارف الواقعية، فالانبياء والاولياء وان احبوا الله غاية المحبة، ولكن لا يصلوا إلى كنه المحبة إلى ذاتهالمقدّسة ، لقصور كل موجود عن ادراك الخالق والاله المعبود، فكلّ يؤدي المحبة على مقدار استعداده وقابليته، واسأله تعالى ان يمدنا بمحبته الكاملة.

ومن اضواء هذا البحث تعرف ان الاولياء والصالحين من عباده، يبتهجون بالبلاء، كما يبتهجون بالنعماء وذلك لمحبتهم له وشعورهم بارتباطهم به تعالى.

واما خلود اهل النار في النار دائماً فيأتي في الآيات المصرحة بذلك، وتفسيرها منا بما يناسب المقام باكثر من التعرض لها هنا، وان اورد بعض المفسرين عنوان الخلود في النار وعدمه في هذه الآيات.

---

١ . اعلم ان النقلة الحاصلة من المبدء الى المنتهى انما هي بحركتها الجوهرية الموجبة لوحدتها العرضية بناء على أصالة الوجود لا ما يوجب التمايز التشخصّي من مرحلة القوة الى الفعل أو من مرحلة الاستعداد الامكاني لى التحقق الفعلي (حفيده محمّد طاهر).

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام واصحابه

في المجمع ان النبي صلى الله عليه وآله كان إذا هبت ريح قال اللهم اجعلها رياحاً و لا تجعلها ريحاً، ان ما ورد عن ابن عباس عن الرسول صلى الله عليه وآله دال على ان الرياح وغيرها مما هو قد خلقه الله لمنافع البشر وحياتهم في هذه النشأة، ليقع تارة بمنافع البشر من ريح او مطر او سحاب، وتارة يقع في غير منافعهم، وما ذاك الا لتعديهم عن صراط الطاعة وارتكاب المعصية، وما ذكره النبي صلى الله عليه وآله من الريح من باب المثال والا فالأمر اوسع من الريح والسحاب واختلاف الليل والنهار مما يقع تارة في منافع البشر واخرى في عدم منافعهم.

العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام قوله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حباً لله) و هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الاختصاص والكافي والعياشي، عن الباقر عليه السلام في قوله (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً) الآية قال هم والله يا جابر ائمة الظلمة واشياعهم.

الشيخ المفيد في اماليه عن جماعة منهم على بن مهزيار عن احدهما عليه السلام في معنى قوله عز وجل (كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم) قال الرجل يكسب مالا فيحرم ان يعمل فيه خيراً، فيموت فيرثه غيره، فيعمل فيه عملاً صالحاً فيرى الرجل مما كسب حسنات في ميزان غيره.

وعن ابي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم، قال هو الرجل يدع ماله، لا ينفقه في طاعة الله بخلاً ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله او في معصيته، فان عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرة وقد كان المال له، وان كان عمل به في معصية الله، قوّاه بذلك المال حتّى عمل به في معصية الله.

وعن منصور بن حازم قال قلت لابي عبد الله عليه السلام وما هم بخارجين من النار قال اعداء الحق هم المخلدون في النار ابد الابدين ودهر الداهرين.

وفي التهذيب عن ابي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله العبادة سبعون جزء افضلها طلب الحلال.

عن عبد الرحمن عن ابي عبد الله عليه السلام قال إذا حلف الرجل على شيء والذي حلف عليه اتيانه خير من تركه فليأت الذي هو خير ولا كفارة عليه وانما ذلك من خطوات

الشيطان.

عن محمد بن مسلم قال سمعت ابا جعفر يقول، لا تتبعوا خطوات الشيطان قال كل يمين بغير الله فهي من خطوات الشيطان.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«الذي خلق سبع سماوات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور»(١).

«ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين»(٢).

«قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم»(٣).

«يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفى صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون»(٤).

«لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا ان تتقوا منهم تُقَةً ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير»(٥).

«يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين»(٦).

«ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا»(٧).

الاعجاز (الآية ١٧٠ - ١٧٦)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ

---

١. الملك آية ٣.
٢. المؤمنون آية ١٧.
٣. آل عمران آية ٣١.
٤. آل عمران آية ١١٨.
٥. آل عمران آية ٢٨.
٦. المائدة آية ٨٧
٧. النساء آية ١١٩...

اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

عندما يخاطبون باتباع ما انزل الله على نبيه ﷺ من القانون اجابوا بتقليد الآباء، مع ان آباءَهم لا يعقلون شيئاً، يحكون آباءَهم في العمل والعقائد، كمحاكاة الطفل للكبير، ومحاكاة صوت حيوان لحيوان ونهيق لنهيق، وان لم يفهموا جهل التقليد وما قلدوا به وما تقليدهم هذا الا كما يقلد الشرقي الغربي في الحياة والاجتماع، من غير معرفة لحسن الشيء وقبحه حتى في اللباس والشكل.

وان للتقليد شروطاً، فلا تقليد في اصول الدين بل يجب البحث والمعرفة ولو على وجه الاجمال، ولا تقليد في الفروع الا إذاا حكم الاصول وعرفها بمعرفة تامة تفصيلية او اجمالية ترجع إلى البرهان والدليل.

وان مشركي قريش وغيرهم والكتابيين من النصارى واليهود، كما قيل لهم اتبعوا ما انزل الله ودعاهم الرسول ﷺ إلى الاسلام والشريعة الحقة، وترك ما الفوه من غرائز الجاهلية، اجابوا بهذا الجواب المبني على التقليد الخائب وعلى الجمود لرأى آبائهم نظير البهيمة السارحة، بل هم اقبح من البهائم، اذ لا عقاب على البهيمة، وهم في خطر الآخرة وعذابها، بل البهيمة تسمع وترى وتصيح، وهؤلاء صم قلوبهم، وبكم ضمائرهم، وعمي عقولهم، لا يهتدون بما جاء به التبليغ، وما مثلهم وهم الذين كفروا الا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون فهم صم ولو كانت لهم آذان، وعمي وان كانت لهم عيون وبكم وان كانوا ينطقون، الا انهم لا ينتفعون ولا يهتدون عطّلوا تلك الجوارح عن الاحساس والعقل عن الادراك.

واعلم ان التقليد ان رجع إلى حكم العقل من ان الجاهل بالحكم يرجع إلى العالم به وهذا هو التقليد الصحيح، واما إذا رجع إلى عقائد المشركين والجاهلين باحكام الله، فهو تقليد مذموم، اذ لا مدرك له من حكومة المعقل.

ثم ان الله سبحانه وتعالى، جعل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ان الكفار

تعصبوا لدين آبائهم فشبههم الله بالبهائم، وشبه من يدعو إلى الحق بالراعي، فالبهيمة لا تعقل شيئاً من كلام الراعي، بل تسمع صوتاً، فتقبل بسمعها، او تدبر بصداء الراعي بعد التمرين والعادة، والكفار لا تعرف الحق الذي تدعوا اليه الانبياء، وما يترتب عليه من النفع فهم كالاصم والاخرس والاعمى فهو وان سمع الحق، ولكن لا ينقاد اليه، ولا تقر نفسه بسببه، فلا يسمع الا دعاء ونداء، وهم كما قال تعالى (سمعنا وهم لا يسمعون)[١].

فتقدير الآية ان مثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق والهدى، نظير الذي ينعق بما لا يسمع، وانما هو تمرين على الصداء والصوت، وعند تمام هذا الموضوع، قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا) مخاطباً للمؤمنين في الخصوص انه لا يمنع من الطيبات، كالقسيسين والرهبان وغيرهم، فقد احل للمؤمنين التمتع بالحياة، ولم يحرم عليهم طيبات النعم وامر بالشكر على تلك النعم، واقل شكر للعبد، كما قال امير المؤمنين اقل ما يلزمكم لله، ان لا تستعينوا بنعمه على معاصيه، وانما حرم على المؤمنين الميتة والدم ولحم الخنزير، وحرم عليهم اكل الميتة من كل حيوان مات ولم يكن مذكى بما ذكاه الشارع والدم المسفوح المتميز عن اللحم، دون ما يختلط من الدم باللحم فانه معفو عنه، كما صرح به اعلام الفقه، والخنزير بجميع اجزائه لا مجرد لحمه، وما أهلّ به لغير الله وما لم يذكر عليه اسم الله سواء أهلّ للاصنام ام لا، وتحريم الثلاث الأوّل لجهة الصحة، والحكمة في الاخير هو التوجيه للتوحيد الحقيقي وحفظ النفوس عن الخروج عن مقام التوحيد.

ولا تنحصر المحرمات بما في الآية، بل جاءت السنة بتحريم الكلب بجميع اجزائه والحشرات والسباع المفترسة وبعض الاسماك، ومحرمات الذبيحة.

ويكفي في ذكر الذابح، ان يقول، الله اكبر، او الحمد لله، او بسم الله، ونحو ذلك وعلى الاجمال، فان آية (يا ايها الذين آمنوا) خطاب خاص، وانصراف عن خطاب إلى خطاب آخر، حيث لا يقبل الكفار النصح، فتوجه الخطاب لاهل الايمان المستعدين للقبول، والرزق من الطيبات يكون وسيلة لطلب الشكر لله.

والظاهر من قوله تعالى (من طيبات ما رزقناكم) بحسب القواعد العربية من اضافة الصفة إلى الموصوف وليس من قبيل قيام الصفة مقام الموصوف وان جاز ذلك ولا يختل به المعنى، إذالتقدير، كلوا من طيب الرزق، لا من خبيثة، كما ان الوجه الأوّل معناه كلوا من

---

١. الانفال آية ٢١.

رزقنا الذي كله طيب ويناسبه العطف على العبيد، والوجه الثاني قد يبعد في المناسبة عن المقام الذي هو مقام رفع الحظر والنهي عن الامتناع عن بعض ما رزقهم الله تعالى تشريعاً من عند انفسهم وقولا بغير علم.

واعلم ان الميتة والدم، مما تأباه النفس السليمة وقد اثبت الطب بعد فترة طويلة من تحريم القرآن، انها مجمع الميكروبات الضارّة، ولعله هناك اسرار في تحريمها لم يصل اليها الطب إلى الآن، وان في لحم الخنزير الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة.

وقد يكون هناك شيء غيره لا يموت بالحرارة عند الحكيم الخبير، واما ما أهلّ به لغير الله، فهو الصق بالعقيدة وطهارة الروح، وان التوجه إلى الله وحده صلة قوية في الاعتقاد بالتوحيد الحقيقي وتلقي اوامر الله في الحلال والحرام.

(فمن اضطر...) وان الحكم بالتحريم قد رفعه الشارع عند الاضطرار للاكل على نفسه او على متعلقيه فيجوز له ارتكاب المحرم بمقدار حاجته وهذا العنوان غير عنوان الباغي ومن لا يعتني بمحرم ولا عاد يرتكب من المحرم في حاجته، فان الحرمة باقية عليهما واستثناء المضطر بمقدار حاجته ويأتي تفصيله في الآيات على ما بيّناه في الفقه من قاعدة الضرر والحرج وشمولهما لرفع التكليف.

(ان الذين يكتمون) إلى آخر الآية الشريفة، الآية لفظها عام، والمعتبر هو عموم اللفظ، وان نزلت في حق اليهود من اهل الكتاب، الذين يكتمون نبوة محمد ﷺ وحالاته وخصوص النزول لا يخصص الآية، فمن عرف الحق وكتمه او بعض موارد الحق لمنافعه الشخصية، فالآية واردة في حقه، وانها وعيد لأشد العذاب وغضب من الله، فان الحق يتعين على كل مؤمن اظهاره وتعظيمه وتنفيذه والتضحية لاجله بكل غال وعزيز، لان نظام الدنيا والآخرة، بنفوذ قوانين الحق ورفع الشبهات، فهؤلاء يجب لهم العذاب في النار فاذا كتموا واكلوا الحرام دخلوا النار وكانت في بطونهم النار الملتهبة، اولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار.

والتعبير بالبطن اشارة إلى انهم كالحيوانات فهمها علفها، وان الله لا يكلمهم يوم القيامة، وكيف يكلمهم[1]، وقد اعرض عنهم وغضب عليهم ولا يزكيهم، حيث قد اعوجّت طبائعهم وجبلاتهم، وقد ظهر ذلك الانحراف عن الفطرة حيث اشتروا الضلالة

---

١. عدم الكلام منه تعالى ناظر الى عدم تقبلهم لوصول المعاني الحقّة اليهم لامنع كلامه في مقام جعله العام ذ له الكلمات التّامات والمثل العليا (حفيده محمد طاهر).

بالهدى، فاتبعوا الهوى وتركوا كتاب الله، وهذا ليس خاصاً بالكفار، كما اشرنا، بل يشمل المسلمين وان كانت عقائدهم صحيحة، ولكن لتحريفهم وتأويلهم الكتاب ونصرهم للباطل، فلابد ان يذوقوا ما عملوا به من النار التي تشب في قلوبهم، ذلك بما اخذوه من ثمن الضلالة، فينزل عليهم العذاب.

وان الله نزل الكتاب بالحق، وقد اخبر الكتاب بان كتمان الحق يؤول إلى النار، وان كان مسلماً حينما ينحرف ويكتم في نفسه ووجدانه جانب الحق وهو عند العقل والتصور والوجدان يرى الحق، وعند ميوله وشهواته يتبع الباطل فهو بين جاذب حق وجاذب باطل.

اما المشركون والكتابيون، فليس عندهم الا الباطل وان الذين اختلفوا في الكتاب، فقالوا ان القرآن سحر وقالوا انه اساطير الاولين، فهي تملي عليه بكرة وعشيا.

وهذا التعبير عام ولا يختص بالكفار، كما عن كثير من المفسرين، فيشمل المسلمين فانهم اختلفوا في تفسيره وتأويله ولم يرجعوا في فهم خطابه إلى الرسول والائمة عليهم السلام فان القرآن لا يفهم تأويله ولا تفسيره، الا من خوطب به، وانما يعرف الناس ظواهره واعجازه القائم بالظواهر والفصاحة والبلاغة، فهم في شقاق مع الحق، ومع الفطرة التي فطر الناس عليها، وهذا لا يختصّ بالكفار الكتابيين، فيشمل المسلمين في حال تفرقهم في هذا العالم، وتشتتهم عن هدف الرسول والكتاب، فما اصبر هؤلاء على النار، جزاء لاعمالهم وطول مدتهم في النار التي اختاروها وفي المجمع عن علي بن ابراهيم عن الصادق عليه السلام قال: ما اجرأهم على النار.

وعن الصادق عليه السلام في تفسير العياشي وفي الكافي قال ما اصبرهم على فعل ما يعملون، انه يصيرهم إلى النار، وبهذا المضمون روايات اخرى، تأتي في تفسير اتجاه الروايات.

ويراد من المجموع الصبر على سبب النار، او الصبر على النار بالجرءة عليها، وهي لازمة للصبر او بالعمل بما يعمل به اهل النار، من المفاهيم المتقاربة.

وقد ذكر بعض المفسرين في آية (الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب) ما يدل على تجسم الاعمال من اختيارهم الثمن القليل على ما انزل الله من البينات.

ويدل اختيار الكتمان وعوض الثمن، على ما بيّنه الله وانزله من اختيار الضلالة على الهدى، واختيار العذاب على المغفرة، ثم التعقيب بقوله: «فما اصبرهم على النار».

والذي كان منهم ظاهراً هو الادامة للكتمان والبقاء عليه، وقد ذكرنا في محله من (المثل الاعلى) ان تجسم الاعمال وان العقاب تابع للملكات النفسية، وانه لا ينافي دخول العاصي إلى النار .

واما ما ذهب اليه الفلاسفة، من ان الجنة والنار، من الأمورالمعنوية والملكات النفسانية، فسيأتي بطلانه مفصلا، وان ما ذهبوا اليه ينافي الشرائع والاديان، كما تقدم في الجزء الأوّل من «العقل البشري» في بحث المعاد.

وقد صرح صدر المتالهين في بعض كلماته، ان ما جاءت به الانبياء، هو موصل إلى الواقع، من غير حاجة إلى المقدمات الاقيسة.

ولا ريب ان الاخبار والآيات صريحة في وجود جنة ونار، بالمعنى المعروف بين الناس، لا بمعنى الملكات الحسنة والرديئة، وان الملكات الحسنة، هي الجنة للشخص وان الملكات الرديئة هي النار والعذاب عليه.

نعم لا مانع ان يكون من انحاء السرور في الآخرة ملكاته الحسنة في الجنة وتعذيبه من الملكات الرديئة في النار ايضاً وان دلت بعض الروايات والآيات على ذلك، فهذا هو المقصود من ذلك، ولا يراد منها انكار الجنة والنار بالمعنى المعروف بين الناس، وقد صرحت الروايات الكثيرة بوجود النار قبل موت الانسان، وهذا مما يدل على ثبوت الجنة والنار بالمعنى المعروف.

وعلى كل، فحمل الآيات والروايات على الفلسفة الاغريقية اليونانية، مما لا ينبغي لرجال الدين المتمسكين بالادلة الشرعية ان يلتزموا بها، وان مسائل الفلسفة الاغريقية قد انكشف بطلانها في العلم الحديث، ولهذا الموضوع تتمة تأتي على ضوء المباحث الآتية في التفسير مفصلا.

وان الله الفت نظر العباد انهم على صنفين، الصنف الأوّل، من وافق الكتب السماوية وطبقها في العمل والعقيدة، الصنف الثاني من كان في شقاق وعناد مع الحق، شقاق في الضمير وتباعد في العقيدة، وعصيان في العمل، وهذا لا يختص بأمة دون اخرى.

الاتجاه الفلسفي

ان الله خلق الانسان بنفس ناطقة مدركة شاعرة، وجعله مثالاً لذاته، وعنوانا لقدسه،

ووجهه إلى العلوم النظرية والعلوم العملية، وخصه بخواص تهدف به إلى الصلاح، وتدفعه إلى كل خير.

ان الانسان، وان كان فيه قوة الخيال والواهمة وربما اخرجته عن الطريق المستقيم، وقد يمتلىء خياله باوهام موروثة ومأخوذة من تقاليد غيره، ولكن هذا لا يصيره خرافيا، وان اعماله لا تطابق الحقائق، ولا تهدف إلى هدف صحيح، فان الانسان بفطرته إذا خلي من الشوائب والاوهام وتقاليد الشرق والغرب واسطوراتهم في الحياة، ونظر إلى الواقع وجد نفسه مملوءة بالكمالات والمثل العليا، ونظر إلى الاديان بنظرة واقعية، فيجد عند ذلك ان الله لم يهمله، ولم يتركه على غير هدى بل دفعه في مقام الفكر إلى الفلسفة النظرية التي بها يعرف حقيقة التوحيد، وفي مقام العمل إلى قوانين مثبتة، وقواعد محكمة، تبتني على العدالة والاحسان وكيف لا يكون كذلك وهي القوانين التي جاء بها الانبياء لنظام الوجود وتعديل البيئآت والاجتماع.

فينظر الانسان تارة إلى احكام تخصّ عمله، من ارتباطه بربه وارتباطه بالناس فيجد ان اضافته إلى الله اعلى مراتب الاضافة، وتجد الاضافة إلى المخلوقين، في منتهى الكمال، ويجد ان اخلاقه تحت قانون الله الذي لا يتبدل، ويرى ان جميع حركاته ونشأته مقرونة بالمصالح، مدفوع عنها كل المفاسد والشرور وانه محاط بقوانين العدالة والتربية، والاخلاق بنظام ليس فوقه نظام.

الا فانظر إلىما ورد عن اهل البيت عليهم السلام في تكامل النفس في افعالها واخلاقها وتربيتها، كل ذلك لئلا يخرج البشر عن جادة الحق والترقي إلى الكمال.

وتجد ان الله في اول خلقة الانسان سيرة على قانونه، قانون العدل والحكمة، مذ جاء آدم وبعث ادريس عليه السلام ، قبل ان تكون هناك فلسفة هندية أو مصرية او يونانية او اسكندرية لاجل حفظ نظام البشر، وتوجيهه إلى الحق.

ولما ان جاءت برهمة الهند وفلسفتها، ومصر واليونان والاسكندرية، فاعقب الله كل فلسفة باطلة بنبي من الانبياء، في دعوته وقانونه.

فقد جاء ابراهيم عليه السلام بعد فلسفة الهند ومصر وقضى عليها، عند كل من كان عنده عقل سليم.

وجاء عيسى عليه السلام بعد فلسفة افلاطون واتباعه وقضى عليها.

وجاء سيد الانبياء ﷺ فقضى على الفلسفة الاسكندرية وغيرها.

ولما كانت هذه الفلسفات تبتني على الاساطير والاوهام،وليست مبنية على حقائق، فقد ذهب اليونانيون وغيرهم إلى شعور الافلاك ونحوها، وإلى عنوان العقول والمثل.

وانت إذا تأملت هذا، وجدت هذه الافلاك قد عرفت في عصورنا بالجوامد، وان ليس فيها عقل ولا نفس، وان ما رتبوه من العقل الأوّل، والعقول، والمثل، قضايا شعرية، ولم يقم عليها برهان، وقد خدعوا الناس باسطورة المكاشفة، وانهم تنكشف لهم اسرار الحياة، وتراتيب الكون.

وما جاء نبي الا وقد بنى على هدم هذه الاوهام وقلعها من جذورها، وكلما استحكمت في العصور جاء نبى على خلاف ماذكروه، كما عرفت من مجيء ابراهيم عليه السلام وعيسى عليه السلام وسيد الانبياء ﷺ .

ومن الغريب من المسلم العارف، بعد ان اطلع على مقاومة الانبياء لهذه الاوهام والفلسفات التي لا تبتني على جذور العلم، كيف يأخذها ارسال المسلمات ويجعلها قانونا مثبتا، ودراسة علمية، حتى انه إذاتردد بين ما ورد عن النبي ﷺ واهل بيته عليهم السلام وما ذهب اليه افلاطون او ارسطوطاليس، وجدته آخذاً بفلسفة يونانية وقد فتح باب التأويل والمفاهيم البعيدة في الآيات والروايات وان كانت نصاً او صريحة في ذلك ونسأله تعالى التوفيق لما اسسه آدم إلى خاتم الانبياء ﷺ .

وان القرآن الكريم، قد صرح في هذه الآيات ان الكثير من الناس إذاتبين لهم الحق وجاءتهم هداية الانبياء اجابوا انا نتبع ما الفينا عليه آباءَنا، حتى لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وما مثلهم الاكمثل الذي ينعق بما لا يسمع اولئك هم الصم والبكم والعمي عن الحقائق.

ثم ان الله سبحانه وتعالى بعد ما بيّن حقيقة هؤلاء من التجاوب إلى الحق، قال «يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» تكريماً منه اليهم بالأكل من الطيبات، واشكروا نعمه، فان النعمة لا بد ان تقابل بالشكر، إن كنتم مؤمنين، ومن صفات المؤمنين ان يشكروا الله على نعمه، ويحمدوه ويمدحوه على فضله.

ثم نبّه المؤمنين بتحريم اشياء، لوجود مضارّها ولم تنكشف إلى الآن جميع مضارها، فمنع عن الميتة والدم ولحم الخنزير، وقد اشرنا في الجملة، إلى بيان مضارّها في الاعجاز،

ويجوز للمضطر ان يأكل منها[١] ، فان الانسان إذالم يكن متعد في السيئآت، ولم يكن باغ ولا عاد، وجب عليه الاكل، لحفظ حياته. ثم اعقب سبحانه وتعالى: ان الكفار قد يتمادى بهم الغي والعناد، فيكتمون ما انزل الله من الكتاب، من احكام ومن ارشاد إلى دعوة النبي ﷺ طمعاً بان يشتروا به ثمناً قليلا في الحياة الدنيا، اولئك انما يأكلون في بطونهم النار، جزاء بما عملوا في الدنيا، وان الله لايكلمهم ولا يزكي اعمالهم ولا نفوسهم، يوم القيمة ولهم عذاب اليم.

وعندها مثلهم الحق بمثال، يطابق ضمائرهم ونفسياتهم فانهم قد اشتروا الضلالة بالهدى، والربح بالخسران والعذاب بالمغفرة فما اصبرهم على النار، وان الله تعالى قد انزل كتابه بالحق، فلم ترضخ نفوسهم إلى الحق، وكانوا في شقاق وبعد عنه تعالى.

وان من نظر إلى هذه الآيات وجدها وقد جسمت نفسيات المؤمنين، وتقدمهم إلى الهدى، ونفسيات الكفار بالتلّون من شكل إلى آخر، ومن سيئة إلى اخرى ومن جمود على الباطل بحيث لا يرون الاشياء فقد جسمت الآيات الكريمة نفسيات المؤمنين، ونفسيات الكفار على اختلافهم، في العناد والشقاق، ليرى المؤمن ان الله قد اوهب المؤمنين نفسيات تتقبل الهدى بحسب استعدادها وتقرب إلى قدسه تعالى، ونفوس بعيدة عن الحق قد تلبسوا بثوب العناد وتمثلوا بالنفاق وتمثلت على مقاومة الدين وعدم تقبلهم، بما ارشدت به الانبياء، وجاءت به الاولياء.

الاتجاه من ناحية النبي ﷺ واهل بيته عليهم السلام واصحابه

محمد بن يعقوب عن هشام بن الحكم قال قال لي ابو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام يا هشام ان الله تبارك وتعالى بشّر اهل العقل والفهم في كتابه فقال «فبشر عبادي الذين يستمعون القول الآية» وذكر الحديث بطوله إلى ان قال وذمّ الذين لا يعقلون فقال «وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» وقال ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون.

---

١. لأخذ قاعدة الاضطرار على الحكم الشخصي الموردي وان كان اساس تشريعة نوعيا شاملاً لمثل التقيّة والمضطر اليه الخاص بجعل إعتباري بحيث يشمل الموردين المتقابلين خارجاً. (حفيده محمّد طاهر).

عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام في المرأة والرجل يذهب بصره فيأتيه الاطباء فيقولون نداويك شهراً او اربعين ليلة مستلقيا وكذلك يصلي فرجعت له، فقال «فمن اضطر غير باغ ولا عاد».

عن بعض اصحابنا قال اتت امرأة إلى عمر، فقالت يا امير المؤمنين اني فجرت فأقم فيّ حد الله، فامر برجمها وكان علي عليه السلام حاضراً قال فقال له سلها، كيف فجرت، قالت كنت في فلاة من الأرض اصابني عطش شديد، فرفعت لي خيمة فاتيتها فاصبت فيها رجلا اعرابيا فسألته الماء فابى على ان يسقيني الا ان امكنه من نفسي، فوليت عنه هاربة، فاشتد بي العطش حتى غارت عيناي وذهب لساني، فلما بلغ ذلك مني اتيته فسقاني ووقع علي، فقال له علي عليه السلام هذه التي قال الله «فمن اضطر غير باغ ولا عاد» وهذه غير باغية ولا عادية فخل سبيلها، فقال عمر: لولا علي لهلك عمر.

العياشي عن ابن مسكان رفعه إلى ابي عبد الله عليه السلام قوله «فما اصبرهم على النار» قال ما اصبرهم على فعل ما يعملون انه يصيرهم إلى النار.

في المجمع عن الباقر في قوله تعالى «ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق الآية» قال اي مثلهم في دعائك اياهم إلى الايمان، كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم وانما تسمع الصوت إلى غير ذلك من الروايات المتواترة اعرضنا عنها خوف الاطالة.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني عن الحق شيئاً»[١].

«قل انما انذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء»[٢].

«واحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور»[٣].

«انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم»[٤].

«يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون»[٥].

---

١. النجم آية ٢٨.
٢. الانبياء آية ٤٥.
٣. الحج آية ٣٠.
٤. النحل آية ١١٥.
٥. آل عمران آية ٧١.

«يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون»[١].

«وقالت طائفة من اهل الكتاب آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون»[٢].

الاعجاز (آية ١٧٧ - ١٨١)

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

انتقلت الآيات من الموضوع السابق، إلى موضوع آخر، وهو ان ليس البر والقصد من التوجه إلى الكعبة ان يولوا وجوههم إلى البيت الحرام، او البيت المقدس، فانها ليست غاية للبر، وانها ليست الا شعارات وتظاهرات، ولا تكون هذه الشعارات حقيقة، الا إذااصحبها السلوك والشعور الباطني والاعمال الصالحة في نفوس الامة، حتى ينشأ اثره في الاجتماع، فان التوجه إلى الكعبة، او إلى البيت المقدس، او الشعائر العملية، لابد ان تكون عن مبدء وثيق وعبودية حقة لخالق الكون كله ويكون جميع البشر فى صف واحد ونفس واحدة، نفس الانضمام الذي يتمركز به الشعور الديني والخضوع امام الله، وان الارتباط بين العبد وربه، هو الارتباط بالتوحيد الحقيقي والهدف والايمان بالله وباليوم الاخر وانه عادل وان الحياة ليست فوضى وانما هي سلسلة يرتبط بعضها ببعض، اعتقاد بالله وباليوم الاخر والايمان بالكتاب والانبياء وان المنهج كله واحد واتيان المال على حب الله تعالى لذوي القرابة مطلقاً ولا

١. آل عمران آية ٧٠.
٢. آل عمران آية ٧٢.

اختصاص للاية في الهاشميين وايتاء المال للمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب فيؤدي المال عن خضوع لله، ومحبة للنفوس، وبذلا للخير، ورفعاً عن الحرص، وحفظاً للاجتماع.

هذه انسانية الانسان وهذا تحريضه عن الشهوات، هذه كرامة الانسانية مع الاسرة وكرامة الاسرة مع المجتمع وان تقديم المال لليتيم مما يورث الرعاية وحماية كبير الامة لصغيرها وتحقق التضامن.

فالانسان كبدن واحد محتاج إلى حفظ اعضائه وانما يعطى اليتيم وابن السبيل والسائل والمسكين عند حاجتهم إلى المال و لا يصح السؤال من هؤلاء، الا ان يضيق بهم العمل ويفقد المال عند الاحتياج وان يبذل المال في عتق الرقاب، فان الاسلام جعل الوسائل كثيرة لحرية الرقيق.

وان الشارع المقدس قد جعل شتى الوسائل لاخراج الرقيق من العبودية إلى الحرية لاجل ان تسترد حريته وهو من افضل الاعمال.

(واقام الصلوة واتى الزكوة والموفون بعهدهم إذاعاهدوا و...) سواء عاهدوا الله، كالقسم والنذور، او عاهدا الناس في المعاملات فان الجميع مما يجب الوفاء به ولا مانع من ظهور الآية الشريفة، في مطلق التعهدات، بين العبد وربه وان لم تكن بعنوان القسم والنذر.

واما مطلق الوعد، فمن كمال النفس الوفاء به وان لم يكن مخالفته موجبة للعقوبة.

وان الآية الكريمة قد تعرضت لامور منها اصول العقائد والتكاليف المالية والعبادات والوفاء بالعهد والصبر فى الشدائد وان البار من جمع هذه الحالات من العقائد والعمل والاخلاق.

وحرض الكتاب الكريم على اقامة الصلاة، من توجه الانسان بكليته إلى خالقه، جسما وروحاً وعقلاً.

وليس المقصود من الصلاة مجرد التوجه إلىالقبلة بل هو توجه جسمي وروحي، فاذا لاحظت الصلاة وجدتها فكرة اسلامية مملوءة بالخضوع والانقياد، خضوعاً في جسمه وعقله وروحه ومظهراً لقواه الظاهرية والباطنية وإذاتأملت الصلاة وافعالها رأيتها تقوم بعمل جسمي ونشاط بدني، ورأيتها حياة روحية وعقلية.

وان الاسلام على الدوام يقوي جنبة الروح والجسد، لا مجرد تقوية الجسم، كاليهود

في اعمالهم، ولا مجرد تقوية الروح كالنصارى، وايتاء الزكاة ضريبة يحفظ بها اجتماع الضعيف وحقا لهم في ثروة الاغنياء وان الانفاق بر لا يتم الا بالقربة والحنان بين الغني والضعيف، وهي فريضة لا تسقط بمجرد الانفاق الا بالخلوص والنية.

وان الوفاء بالعهد ضرورة الحياة، وغاية الاحسان يورث الثقة والطمأنينة بين الافراد والجماعات، وبين الامم والاجيال، والا فتقع الخصومة في الاجتماعات، ولا ثبات لامة ولا عدل في المجتمع ما لم ينضم بعضهم إلىبعض والا فيغلب على الناس البأساء والضراء والضعف في نفوسهم والمرض فى اخلاقهم.

وان الوفاء بالعهد مما يحرض الفرد والاجتماع على الصلاح، والصبر في الفقر والبأساء.

وقد اشتملت الآية على العقيدة والعمل والوفاء بالعهد، وهي الجهة الاخلاقية فى البشر، وان تكون تلك الاعمال على حبه تعالى واخلاص العمل والمراد بذوي القربى ليس بخصوص ذو القربى من آل الرسول ﷺ وهكذا اليتامى والمساكين بل يعم كل قريب من رحم أو قربى للرسولﷺ وابن السبيل من انقطع به الطريق وان كان غنياً في بلده فانه محتاج في سفره، ويتعين له الانفاق من القادرين وفي الرقاب، من كاتب مولاه على حريته، للتخلص من الرقية إلى الحرية والصابرين في البأساء والضراء وان البأس في الآية يراد به الفقر والضراء المرض، واما حين البأس، فالمراد به شدة الحرب.

فهذه التربية الاسلامية حفظاً له لئلا يذهب إذا حلت به النوازل واعترته الفجائع فالله رجاء كل مؤمن وثقة لكل صالح وهذه الآية هي الاساس لمبادىء الاسلام ولا يستقيم الاسلام بدونها في العقيدة والعمل والاخلاق وان من كان بهذه الكيفية من العقيدة والتربية، فهو الصادق في ايمانه وهو المتقي في اعماله، فصدق مع الله وخشية له.

وقد تخرج النفوس عن نظام التشريع والتربية القويمة، فتخاصم الغير، وتقاتله وتعتدي عليه، قال تعالى «يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل» فاذا صار الاعتداء بين الاسرتين او القبيلتين او حكومتين، الحر بالحر والعبد من احدهما بالعبد من الاخر، والانثى من امة بالانثى من امة اخرى، ولكن من عفى عن اخيه، فان باب العفو لم يغلق والتراضي لإبقاء المودة واداء للمعروف وذلك مما يوجب صفاء القلوب وشفاء لارواح النفوس ومن اعتدى بعد ذلك كله بعد التراضي والقبول، فنكث العهد وأثار الشحناء

فلا يجوز له ان ينتقم ولابد ان يبقى على سماحة عفوه وهو خير له في الدنيا والآخرة.

فالاسلام يقرر القصاص العادل، ليردع الجاهل وفي الوقت نفسه يحبب الاسلام العفو والتسامح وما الذ العفو عند القدرة، ومع ذلك كله، فلكم في القصاص حياة يا اولي الالباب، حياة شاملة.

وان الاعتداء على فرد اعتداء على حياة الانسان والمجتمع.

واعلم ان الآية السابقة، قد تعرضت لاصول العقيدة وللتكاليف العبادية والمالية، والاولى ترجع إلى العقائد والثانية ترجع إلى القانون الاسلامي، والوفاء والصبر وهو الثالث.

ولا ينبغي للمسلم او المؤمن ان يقول ما لا يفعل، او يبخل بقليل ذاهب بالدائم من الخيرات، التي فيها نظام الاجتماع وحياة الانسانية.

فالايمان بالله واليوم الاخر يجعله انساناً كاملاً، ومن الصالحين الابرار، وليس الاخلاق وحدها تجعله عبداً لله، فالبار من المؤمنين المعتقد العامل والوفي الصابر.

ثم ان الآية الكريمة، توجهت إلى القصاص والعقوبات، في قانون الاسلام العقوبة الاولى الحدود لقطع يد السارق وجلد شارب الخمر والعقوبة الثانية العقوبة المالية وهي مذكورة في باب الديات من الكتب الفقهية، العقوبة الثالثة، القصاص من قتل وقطع وجرح وقد ذكرت في باب القصاص.

وقد جاء الاسلام وقرر قوانين القصاص، بعد ان كانت الجاهلية يقتلون بادنى سبب وهم على الفوضى، فقد يقتلون الابرياء وإذاقتل رجل من قبيلة قتلوا عدداً كثيراً لدم المقتول وإذا قتلت امرأة، اخذوا مكانها رجلا من اسرتها وقد- ادت هذه الفوضى بينهم إلى الحروب الطاحنة وغرزت الاحقاد في الذراري، فنّزه الاسلام والكتاب المجيد الانسانية عن هذه الوحشية، ان لا تقتل الابرياء وان يكون القاتل متعمداً ولا قصاص على القاتل إذاقتل خطأ او شبيها بالعمد والآية واضحة الدلالة في قتل الحر بالحر والانثى بالانثى إلىغير ذلك وانها تؤدي معنى قوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)[1] ولا حق له ان يسرف في القتل، كما قال تعالى في سورة الاسراء، فلا يسرف في القتل، لان (جزاء سيئة سيئة مثلها)[2].

والآية الشريفة لم تتعرض لغيره، كهذه الصور الثلاثة، من قتل الحر والعبد والانثى،

١. البقرة آية ١٩٤. ٢. الإسراء آية ٤٠.

فلابد ان يرجع إلى السنة.

واما إذا قتل الحر عبدا، فلا يقتل ويغرم دية العبد ويضرب ضربا شديداً وإذا قتلت المرأة رجلا عمداً، كان ولي المقتول مخيراً بين اخذ الدية وبين قتلها وإذا اختار القتل الولي فلا يغرم اهلها شيئاً من المال واما إذا قتل الرجل امرأة، كان الخيار بيد الولي في اخذ الدية وبين ان يقتله الولي، على ان يدفع لورثة القاتل نصف دية الرجل خمسمائة دينار، اما إذاعفى، فينبغي ان يقابل القاتل هذا العفو من ولي المقتول بالمعروف، وان يؤدي اليه الاحسان والمروة ولا يطلب ولي المقتول اكثر من حقه إذا اراد القصاص (ذلك تخفيف من ربكم) فالله شرع الدية بدلا عن القصاص، رحمة وتخفيفاً عنهم، وإذااعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم.

وكانت الجاهلية، إذاعفت عن القصاص واخذوا الدية وتمكنوا من القاتل، قتلوه، فتوعد الله اهل هذا العمل بالعذاب الاليم، ولكن مع ذلك، لكم في القصاص حكمة وصيانة عن الاعتداء، فاذا علم انه يقتل، خاف على نفسه من التلف ولا يكفي دفع المال، فانه لا يكون رادعاً عن قتل الناس بعضهم بعضاً وان في الآية من وجوه البلاغة الشيء الغريب.

والمراد من القصاص وتسميته اختصاصاً لما فيه من مقابلة الجاني بجنايته ولكن يجزى بنظيرها لا بالتعدي عن حدود القصاص والعفو عن القاتل فيما هو حقه.

ويراد من الشيء في الآية، هو الحق وفي تفكير الشيء تعميم للحكم في تمام الحق او بعضه، إذا تعدد اولياء الدم فعفى بعضهم عن حقه، فينتفي القصاص ويرجع الامر إلى الدية.

وفي التعبير من ولي الدم بالاخ، اثارة لهواجس المحبة وتلويحاً للرأفة وان يؤدي اليه الدية في احسان من غير مماطلة وايذاء.

وان في الانتقال من القصاص إلى الدية، تخفيف من الله ورحمة وإذاعفى فليس له اعتداء، فاذا اعتدى واقتص بعد العفو، فله عذاب اليم، ثم وجه الله عباده إلى الالتفات إلى حكمة التشريع في القصاص، فالعفو تخفيف ورحمة وتودد وهذا لا ينافي من ان تكون المصلحة العامة والضمان الاجتماعي في الحياة في القصاص او لا دون العفو والدية فانهما في مناسبات خاصة مما يقتضي العفو والدية.

والا فالحكمة العامة هي القصاص، إذاكان الانسان ذو لب وتفكير عميق، لعلكم

تتقون وتحفظوا الدماء في القصاص وان في التعبير لكم في القصاص حياة يا اولي الالباب، ايجازاً وسلاسة تعبير وجمال تركيب وجامعة بين الاستدلال وقوته وجمال المعنى ولطفه ورقة الدلالة ووضوح المدلول وهو اولى مما عبر عنه العرب القتل انفى للقتل.

والآية، بجمال معناها واسلوبها، تزداد تجليا عند التأمل في اطرافها وكلمة الله هي العليا.

وقد ورد عن بيت العصمة،عليهم السلام ان الله يكفر عن الشخص من ذنوبه، بقدر ما عفى، كما في الكافي عن الحلبي وانه ينبغي للذي عليه الحق ان لا يعسر اخاه إذا صالحه على دية وان لا يماطل في الاداء إذاقدر على ما يعطى ويؤديه اليه باحسان وإذا عفى فلا يعتدى عليه فانه يقتل، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه والروايات في هذا المضمون كثيرة.

وان الله قد كتب القصاص في التوراة (وكتبنا لهم فيها؛ ان النفس بالنفس والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص)[1].

والنصارى لا تقتص بالقتل وحكمها العفو او الدية وقد سلك الاسلام في قانونه الطريقة الوسطى، كما هو مسلكه فاثبت القصاص وجوز العفو والدية وفضل العفو على القصاص والمعادلة بين الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى وان في العصر الحديث قد قامت القوانين المدنية على تقبيح القصاص بالقتل وان ذلك تابع للوحشية والانحطاط على اوج التربية والفوضى في الاجتماع.

اما إذاكان الاجتماع راقيا والمدنية في اوجها فان العقل يستقبح قتل الانسان مجازاة للقتل، لانه اعدام لفردين وكان المقتول فرداً واحداً وتأديب المجرم وعقابه بحكم العقل، بما دون القتل، مما يعادل القتل في نظر العقلاء في النتيجة، كحبس المجرم إلى الابد، او مدة سنين وان هذا جمع بين حقين من حق المجتمع وحق اولياء الدم.

وقد رفع هذه الشبه والاساطير، بقوله تعالى «من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن احياها فكانما احيا الناس جميعاً» وسياتي منا في مورده، حكمة القصاص والدية واقامة الحدود باوسع من ذلك.

وان من الاحكام التى جاءت في هذه السورة، احكام الوصية وان من حضره الموت كان عليه الوصايا، والوصايا قد تكون واجبة، كاداء ديون الموروث وان الوارث غير مأمون

---

١. المائدة آية ٤٨.

باكل مال الميت، والا فقد ضيع الشخص حقوق الناس، اما إذا لم يكن هناك دين ولا حق، فان ترك خيراً، وهو المال، فالوصية بالبر والاحسان للوالدين، وان كانا من الوارث كالذكور والاناث من ذرية الميت، أو أن الوصية بالبر للاقربين مما ليس بوارث وهذا مما اتفقت عليه علماء الامامية، خلافاً لما ذهب اليه علماء العامة من المذاهب الاربعة، انها لا تصح الوصايا، معتمدين على ما روى «لا وصية لوارث» وانما الوصايا للاقربين من غير الورثة، ولكن حيث ان ما روى عنهم لايقول علماء الشيعة بصحته فتبقى الآية على ظهورها، من الوارث وغيره.

والآية الكريمة ظاهرها الوجوب، لقوله تعالى «كتب عليكم» وظاهر الكتابة هو التشريع على وجه الوجوب ولا قائل بالوجوب من علماء الامامية، لما ورد في باب الوصايا عن ائمة الهدى عليهم السلام على ان الحكم على وجه الرجحان والاستحباب.

وان ظهور الآية، إذا فسرت على وجه من ائمة الهدى عليهم السلام، فيؤخذ بما اخذوه من الوجه.

واجمالا انما هو مذكور في باب الوصايا، ان الموصي إذا اوصى بمال بعد موته، فيخرج من الثلث واما لو اوهب او اعطى او وقف في مرض الموت مالا، تعيّن من اصل المال.

وقد بينا في «انوار الوسائل» تفصيل هذه الفروع وان المريض إذانجز شيئاً في مرضه الذي مات فيه من عطية، او وقف، او هبة، كان نافذاً، وإذااوصى بعد الموت كان من الثلث، وان الانسان املك بماله إلى آخر نفس من الحياة[1].

وما ورد من ان الوصية لا تكون الا في الثلث، فالمراد به، الوصية بعد الموت، فان الميت بعد الموت ليس له الا ثلثه، هذا بحسب ما تقتضيه الادلة في باب الوصايا، وان ليس هناك دليل على حصر منجزاته ووصاياه في الثلث لا في مجموع المال وقد بينا في محله ان منجزات المريض نافذة في اصل ماله، وانه املك بماله، وان كان لا ينبغي له ان يفعل ما يضرّ بالورثة ولا سيما إذاكانوا محتاجين إلى المال، فانه من الاجحاف وخلاف المروة، وتفصيل ذلك في «انوار الوسائل»[2].

اما من بدل الوصاية او غيرها، فانما اثمها على الذي بدلها وغيرها.

---

١. أنوار الوسائل - موسوعة الخاقانية (رقم ٢) كتاب المواريث ج ١١ - ص ٣٠ - ٣٨/٣١ - ٣٩.
٢. أنوار الوسائل - موسوعة الخاقانية (رقم ٢) كتاب المواريث ج ١١ ص ٣١.

واجمالا، ان المورد تارة يلحظ فيه تصرف المالك وله التصرف بالمنجزات حيث شاء، وتارة اخرى، تلحظ الجهة الاجتماعية والاخلاقية بين الورثة، بان لا يحيف الموصي عليهم، وان كان المال له، فيجعل وصاياه ومبراته في ثلثه ولا يحيف على وارث، بل لو كان الوارث ضعيفاً، فالاولى بالموصي ان يبره دون غيره، من بعيد او قريب.

فالآية قد اشتملت على وجهة الحكم الشرعي، وعلى وجهة الاخلاق والنظام في اهل بيته واقاربه وان الله سميع عليم.

الاتجاه الفلسفي

ان البر والانقياد الحقيقيين، والاطاعة من عباده، ليس ان يولي وجهه قبل المسجد الحرام.

بل ان البر الحقيقي والايمان الصحيحين، ان يطابقا امورا ثلاثة، مطابقة الضمير للعقائد الواقعية من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، على وجه الكشف والحقيقة، بحيث يرى التوحيد كالمشاهدة ومعرفة الملائكة والانبياء والكتب، كما يشاهد الانسان ضياء الشمس، وإذا تجلت نفسه بهذه المعارف وانقادت افعاله واعماله، على حسب معتقداته وكان عمله على حسب معارفه من التوحيد والرسالة والمعاد، بحيث يدفع المال على حب الله والخلوص له من غير ان يقصد به الرياء والسمعة، فلا يقصد به الا وجه الطاعة، ويأتي به على وجه الحب لله، الذي ينقطع عند الحب امل العامل من الخوف من النار والطمع في الجنة ونعيمها من الحور العين والولدان المخلدين فيتوجه نحو الحق، من غير توسيط من مقصد من المقاصد ولا هدف من الاهداف، بل قصده خلوص الطاعة ومحض المحبة لله لانها هي الاساس في العقائد والعمل وفي الاخلاق، ولهم الصبر في البأساء والضراء.

وعند ذلك فتتم لهم حكمة النظر والعلم للمعارف وهي اساس الدين وقوامه، ثم تكون جوارحه وافعاله منقادة في العبادة، راغبة في رد لهفة الملهوف وقضاء الحوائج واقامة الصلاة، فيكون العبد، حينئذ قائماً بمعارفه وعقائده، قائماً باحكامه وعبادته، فلايرى الا الله، في العقيدة والعمل وعند ذلك فتخرج النفس من القيود البشرية، إلى التحرر بالتوجه إلى الله وعبادته وقضاء حاجة المحتاجين، على وجه ان تكون هذه الأمور لم يقصد بها رياء ولا

سمعة ولا مفخرة لاعمال دنيوية وعند ذلك فتتحرر نفسه وتتوجه إلى الله بمحبة باقية.

وعندما تعرضت الآيات الكريمة، إلى مقام الجوانح ثم إلى مقام الجوارح، على ان لا يكون الهدف الا الله، يحتاج إلى مقام ثالث وهو الصبر على البلاء والبأساء وحين البأس.

فان هؤلاء من العباد صدقوا في اعمالهم وعقائدهم وفي اخلاقهم.

فالآيات الكريمة قد جاءت بمراحل ثلاثة، الاولى عقائد التوحيد، الثانية العمل الالهي الخالص، الثالثة تحمل الصبر عند البلاء، حتى ان بعض المؤمنين، كما بيّناه سابقاً، تبتهج نفسه بالبلاء كما، تبتهج بالنعماء وعند ذلك، يتم له قوس الصعود وترقى نفسه عن قوس النزول ويتشبه باخلاق الله.

وقد ورد في الحديث، عن النبي صلى الله عليه وآله ما اوضح فيه مقامات الاولياء ومنازل الابرار، كما يأتي منا، في تفسير الآيات، بما ورد عن اهل البيت عليهم السلام .

فالآيات الكريمة، عند التأمل فيها يراها انها وجهت العبد من مقام ادنى إلى مقام اعلى، وانه بحسب قابليته، يتوصل إلى المراحل الثلاثة كلها فقد بنيت درجات الاولياء وما يقربهم إلى الله زلفى.

وإذا امعن الانسان إلى هدف هذه الآيات وان البر، توحيد وعمل وعبادة واخلاق، ينظر بنظرة اخرى، فيجد ان البر في التوحيد والعمل الصالح والاخلاق الفاضلة تأتي من الاشخاص على حسب معارفهم وتوجههم في العبادة وتحليهم بالفضائل على مراتبها، فيخرج عند ذلك جملة من الابرار عن مقام الحور والجنان والخوف من النار، إلى تجلي نور الاحدية على ذاته والوحدانية على قلبه وروحه، حتى يبلغ الامر في الولي، كما قال الشاعر.

وحقك لانظرت إلى سواكا بعين مودة حتى اراكا

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله عليهم السلام واصحابه

عن النبي صلى الله عليه وآله من عمل بهذه الآية، فقد استكمل الايمان.

في الدر المنثور عن ابي عامر الاشعري، قال قلت يا رسول الله: ما تمام البر، قال: ان تعمل في السر ما تعمل في العلانية.

وفي المجمع عن ابي جعفر وابي عبد الله ذوي القربى قرابة النبي صلى الله عليه وآله .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: الفقير الذي لا يسأل الناس والمسكين اجهد منه

والبأس اجهدهما.

وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته، وقد ادى بعضها، قال يؤدي عنه من مال الصدقة فان الله عز وجل يقول وفي الرقاب.

وفي تفسير القمي في قوله والصابرين في البأساء والضراء قال قال عليه السلام في الجوع والعطش والخوف وفي قوله وحين البأس قال قال عليه السلام عند القتال.

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى «الحر بالحر» قال لا يقتل الحر بالعبد ولكن يضرب ضربا شديداً ويغرم دية العبد وان قتل رجل امرأة فاراد اولياء المقتول ان يقتلوه، ادوا نصف ديته إلى اولياء الرجل.

وفي الكافي والتهذيب عن محمد بن مسلم عن الصادق سألته عن الوصية تجوز للوارث قال نعم، ثم تلا هذه الآية ان ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين.

وفي المجمع عن ابي جعفر عليه السلام في قوله، فمن خاف من موص جنفاً او اثماً الآية، قال الجنف ان يكون على جهة الخطاء من حيث لا يدري انه يجوز.

وفي تفسير القمي قال الصادق عليه السلام إذاالرجل اوصى بوصيته، فلا يجوز للوصي ان يغير وصية يوصيها بل يمضيها على ما اوصى، الا ان يوصى بغير ما امر الله، فيعصي في الوصية ويظلم فالموصي اليه جائز له ان يرده إلى الحق مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كله لبعض ورثته ويحرم بعضا فالوصي جائز له ان يرده إلى الحق وهو قوله جنفاً او اثما والجنف الميل إلى بعض ورثته دون بعض والاثم ان يأمر بعمارة بيوت النيران واتخاذ المسكر، فيحل للوصي ان لا يعمل بشيء من ذلك.

وفي الكافي عن محمد بن سوقة قال سألت ابا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل «فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه» قال نسختها التي بعدها قوله تعالى «فمن خاف من موص جنفاً او اثماً فاصلح بينهم فلا اثم عليه» قال: يعني الموصي اليه ان خاف جنفا من الموصي في ولده فيما اوصى به اليه فيما لا يرضى الله به من خلاف الحق، فلا اثم عليه اي على الموصي اليه ان يبدله إلى الحق وإلى ما يرضى الله به من سبيل الحق.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى

والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخورا[١]».

«ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا، انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا»[٢] «الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالاخرة هم يوقنون»[٣] «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه»[٤] «وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون»[٥] «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله»[٦].

الاعجاز (آية ١٨٢ - ١٨٦)

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

إذا علم الموصى اليه او الولي، بل وكافة المؤمنين، من موص خطاء وهو الجنف، او اثماً وهو تبديل احكام الله تعالى، او الحيف على الوارث، وان لم يكن تبديلا لحكم الله، كما لو اوهب ماله لشخص غير الورثة، فانه ينبغي، ان يفهموا الموصي بخطئه او ارتكابه خلاف الشريعة.

وبكلمة موجزة، ان الموصي إذاارتكب خلاف الشرع والعدالة في حق الوارث

١. النساء آية ٣٦.
٢. الدهر آية ٨ و ٩.
٣. لقمان آية ٤.
٤. الاحزاب آية ٢٣.
٥. المائدة آية ٤٥.
٦. الاحزاب آية ٦.

فيردع ويلزموه بالحق وان كان حيفاً عرفيا وخلاف المروة، فيردع ايضا، ويوجه إلى ما هو الاولى، الذي ليس فيه حيف على وارث ولا ظلم.

(يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون).

يأتي في النظر ثقل هذا التشريع على هذه الامة، فبيّن ان الحكم ليس مقصوراً عليها، قد كتب على الذين من قبلكم، وهي ايام معدودة، ليست على نحو الدوام في السنة وان العمل بهذا، هو خير زاد وتقوى ويرتفع هذا التكليف في حالة المرض والسفر ويقضي من ايام اخرى من السنة.

اما من طاقه بمشقة فله ان يبدله بفدية بطعام مسكين تسهيلا على الناس، اما من تطوع، فهو خير له لانه افضل الاعمال احمزها وجاءت الايام منكرة ايا ما محدودة، دلالة على تسهيلها ولا وجه لعد التنكير هنا للتحقير، كماعن بعض المفسرين ومن تطوع بالصوم، فهو خير له.

وكانت هذه الآيات، سياق اخبار، عن كتابة وتشريع، ثم جاءت آية التشريع «شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن» وكانوا اهل الاوثان يصومون، لإرضاء آلهتهم واطفاء نار غضبها عليهم، اذ جرت منهم المعاصي، فالصيام نظير كفارة، لقضاء حاجة بينه وبين الوثن، وان الله جل شأنه، اعلى مما تصوره هذه النفوس المنحطّة فاشارته ان الصوم غايته التقوى، فيتنزه بالطهارة والكمال الروحي عن استيفاء شهوات الجسم، من الطعام والجماع فيترك هذه الأمورمن المباحات والمحرمات طاعة لله وامتثالاً لامره وليس التنكير في الايام تحقيراً للتكليف، من حيث المشقة وتشجيعاً للمكلف من حيث قلة العدد وحقارته، بل ان هذه القلة تساوق الامر.

والمقصود في التشبيه، في قوله كما كتب على الذين من قبلكم؛ اصل الصوم لا التشبيه من حيث المقدار والكيفية فقد كتب على بعضهم الصوم، صوم يوم وليلة (اياماً معدودات... الخ الآية).

وقد كتب الصوم على النصارى، ثم زادوا فيه ونقصوا حتى التزموا، بخمسين يوماً، ثم شرع في الاسلام بأيام معدودة وهو شهر رمضان، فمن كان مريضاً او على سفر فعدة من ايام اخر.

وهذا التفريع عن الفريضة، فلا يرفع اليد، عن صيام عدة ايام اخر، وقد اشار الله تعالى في الآية، ولتكملوا العدة وقد ذهب علماء الجماعة، ان العدة من ايام اخر، هو الرخصة دون العزيمة، ولهم الصيام، ولهم الافطار.

ولكن الآية، ان من كان مريضا، وافطر فعليه عدة من ايام اخر وتقدير، افطر، لا يستفاد منها الرخصة، وان المقام مقام التشريع وهو ظاهره الوجوب.

وان الصوم من اشق التكاليف، ما عدا الجهاد، لان فيه مغالبة النفس وجهادها، وضبطها عما تميل اليه، من الطعام والشراب وشهوة الجنس.

واما من يطيقه ففدية طعام مسكين، بان يشبع جائعاً، من اوسط ما يطعم الانسان نفسه، وحكم الفدية فرض وليست ظاهرها الرخصة، ثم نسخت، كما يقوله بعضهم، كقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) او ان المنسوخ حكم غير العاجز واما الشيخ الهرم والحامل والمرضع، فحكمهم باق على الفدية، وكل هذه التصرفات لا تليق بقداسة القرآن.

وان الآيات الكريمة، قد سيقت لغرض واحد، فلا يتدافع الكلام بعضه عن بعض، كما في هذه الوجوه، التي هي مختلفة في حد ذاتها، وغير متناسبة، مع بلاغة القرآن (ومن تطوع فهو خير له) بان فعله بالرضا والرغبة، من دون كره، فهو خير له باداء الواجب، من غير شائبة الاكراه، واستعمال التطوع في الاستحباب، من الاستعمالات المتأخرة عند المتشرعين والا فلا دلالة للتطوع لمادته ولا هيأته على الندب، فان من أتى بالخير والواجب تطوعاً، كان خيراً له من ان يأتي به كرهاً ولو اختص التطوع بالمستحبات فلا يظهر لتفريع التطوع بالزيادة على حكم الفدية، بوجه معقول، مع ان التطوع لو كان خير له لا دلالة له على الزيادة، فان التطوع بالخير، غير التطوع بالزيادة.

ثم قال تعالى (وان تصوموا) فمعناه مسوق بمؤدى الآيات السابقة لان التطوع به خير على خير واما احتمال ان الخطاب للمعذورين في رجحان صومهم وهذا يناسب الاستحباب دون الوجوب، في اصحاب الرخصة من المريض والمسافر وربما يقال، ان المعنى ان من تطوع على مفاد المعنى السابق، من قوله «على الذين يطيقونه» فمن تطوع خيراً، من فدية مسكين، بما يعادل فديتين لمسكينين او لمسكين واحد، فهو خير له.

وقد عرفت ان التطوع لا يختص بالمستحبات، ولا دلالة فيه على التطوع بالزيادة وان الخطاب لا يختص بالمعذورين.

«شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون).

لم يتعرض القرآن الكريم لاسماء الشهور الا لشهر رمضان تعظيماً له ولنزول القرآن دفعة واحدة فيه بخلاف التنزيل في الحوادث والوقائع[١] ، فانه نزل تدريجا وان الانسان إذاتدبر مواقع النزول على رسوله بكتابه الكريم، ربما يخطر في ذهنه انه نزل عليه ليلة المعراج، من قوله تعالى «فاوحى إلى عبده ما اوحى» فان في بعض الروايات، انه اوحى اليه تفاصيل جميع الاشياء، ومن لوازمه نزول القرآن على قلبه وظاهر التعبير من قوله تعالى في ليلة القدر فان الذي يأتي في الذهن ابتداء، هو نزوله جميعاً في ليلة القدر الا ان يأتي دليل واضح في نزول بعضه، كما يدعيه بعض المفسرين واما نزوله مفصلا فبحسب الوقائع والحوادث الواقعة، في زمان رسول الله ﷺ، فانه على وجه التفريق والتدرج، لمدة الدعوة لثلاث وعشرين سنة تقريباً وهدايته الشأنية، في اول نزوله وهدايته الفعلية، بحسب البروج والايام.

فان القانون، قد يجعله المنظم والمشرع قبل الخطاب والتكليف الفعلي بعدة سنين واعوام والقرآن من هذا القبيل ولعل الآيات الكريمة، من قوله انا انزلناه في ليلة القدر؛ وفي ليلة مباركة، وقوله تعالى «كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[٢] ان نزول مجموعه في رمضان وفي ليلة القدر وان جاز ان يكون قوله «اقرء باسم ربك»[٣] وقوله: «يا ايها المدثر»[٤] انها نزلت في اواخر رجب اول الدعوة وقوله تعالى وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين.

وبالجملة فلا مانع من تلقي النبي في حالة نزوله دفعة، ثم يأتي تدريجا في اول الدعوة، ثم يأتي مجموعاً، ثم يأتي آيات مفصلة، بحسب المواقع، كما يشعر قوله تعالى، «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ»[٥] «وانا انزلناه في ليلة القدر»[٦] وقوله «ولا تعجل

---

١. وجه التعظيم انما يكون للزماني اما بلسان النص التشريعي واما بلسان واقعي واما بنحو الاضافة بين النص وواقع الامر وما يبدو من سماحة الجد (قدس سره) كونه بوجهين طوليين احداهما بلسان رفض لأصل نزول القرآن بالكتاب التكويني والآخر بحسب الانجم والحوادث وهي تابعة للامور الاعتبارية والا فأصل الزمان لا واقعية له لانه من التحليلات العقلية (حفيده محمد طاهر).

٢. هود ١/١١.
٣. العلق آية ١.
٤. المدّثر آية ١.
٥. البروج ٨٥/٢٢

بالقرآن»[٧]، وقوله: «لا تحرك به لسانك لتعجل به»[٨] «إنّ علينا جمعه وقرآنه فاذا قرئناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه»[٩] مما تدل الآية، انه على علم منه والنهي عن الاستعجال بالقراءة، قبل قضاء الوحي والقرآن يطلق على المجموع وعلى البعض، قال تعالى: «هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان»، فالناس حيث كان اغلبهم لا يعلمون، وسطح اذهانهم لم يكن بمثابة من العلم، وانهم اهل التقليد ولا يعرفون البرهان ولا يفرقون بين الحق والباطل، الابهاد يهديهم، وهو القرآن الكريم، والفرقان العظيم ويبين الحق من الباطل، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم[١٠] فالهدى لقوم والبينات لقوم آخرين.

ثم جاء القرآن بالتحريض على الصيام «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» والشهادة هي الحضور لبلوغه والعلم به، فاذا رأى الهلال وجب عليه الصوم.

ثم جاءت الآية، «فمن كان منكم مريضا»، تكرار وتأكيد وتمهيد وان الحكم هو الذي ظهر في الآية الثالثة، فلا تكرار إلى ان قال «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» فان الصيام لعدة من ايام اخر تكليف يسر لكم، حتى تكملوا العدة في الافطار ولتكبروا الله على ما هداكم، فغاية الصيام، وهو شهر رمضان، ولعلكم تشكرون، بالهداية إلى الحق والاخلاص في طاعته.

وقد قرن الله الشكر بكلمة الترجي وتكبروا الله على ما هداكم، ففي الحديث القدسي، قال تعالى (الصوم لي وانا اجزى به).

فان التعبير بنسبته اليه لانه تنزه عن الشهوات، حتى من الرياء والسمعة.

وان الصوم، امر بين العبد وربه، لا يطلع عليه بحسب الطبع الا الله، نظير الصدقة، لقوله، ويأخذ الصدقات[١١] وان كانت العبارة، المبني للمجهول، وان كان خلاف الظاهر من التعبير، فهو كناية، عن ان اجر الصائم هو القرب منه تعالى.

فكان رسول الله ﷺ واهل بيته عليهم السلام يصومون في كل شهر ثلاثة ايام، مضافا إلى صيام شعبان وشهر رمضان وان الامر بالصوم عام للمؤمن والمنافق، كما كتب القتال كذلك وان جاء التعبير بلفظ المؤمن في الآيات القرآنية، من قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا كتب

٦. القدر آية ١.
٧. طه ٢٠/١١٤.
٨. القيامة ٧٥/١٦.
٩. القيامة ٧٥/١٧.
١٠. المائدة آية ١٨.
١١. التوبة آية ١٠٥.

عليكم الصيام).

واما ما ورد من المنع عن السفر في شهر رمضان، فيراد به شدة الاستحباب والتأكيد، لتفسير الاخبار بعضها من بعض وقد ورد في بعض الاخبار عن حفص بن غياث عن ابي عبد الله عليه السلام كما في الكافي،قال سألته عن قول الله تعالى، شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن، وانما انزل في عشرين، بين اوله وآخره، فقال ابو عبد الله عليه السلام نزل القرآن جملة واحدة، في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثم نزل في طول عشرين سنة، ثم قال عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله نزلت صحف ابراهيم عليه السلام في اول ليلة من شهر رمضان، وانزل الزبور لثمان عشر خلون منه وانزل القرآن في ثلاثة وعشرين من شهر رمضان، ونزول القرآن في ليلة القدر وقد تكثرت به الاخبار.

ويظهر من بعضها انه نزول في البيت المعمور، ثم على الرسول صلى الله عليه وآله.

ولعل هذه الاخبار اشارة إلى اللوح والقلم والحجب والبيت المعمور، ويمكن الجمع بينها باصول القرآن، بكل مرتبة من مراتب القرآن وهذه الروايات مما تؤكد نزوله جميعاً في ليلة القدر.

واعلم ان الدعاء لا ينافي القضاء والقدر وليس كما زعمته اليهود وغيرهم، ان طلب الحاجة اما مقدرة مقضية ولابد ان تقع واما ممتنعة فلا تقع.

والجواب ان فرض وجود الشيء لا يستدعي الاستغناء عن السبب وان الدعاء من اسباب وجود الشيء، فيكون من باب تحقق الشيء، لتحقق سببه، كما ورد مستفيضاً، ان الدعاء من القدر.

وقد ورد عن اهل البيت عليهم السلام ان الدعاء يرد القضاء، فاذا قدر الشيء وقضى به ولم يبق الا امضاءه فاذا دعى العبد وسئل الله صرف الله البلاء عنه.

وان الدعاء يدفع القضاء المبرم، فليكثر المؤمن من الدعاء، فانه مفتاح كل رحمة ونجاح كل حاجة ولا ينال ما عند الله، الا بالدعاء، فان من اكثر طرق الباب يوشك ان يفتح له وان الالحاح يوجه النفس إلى الخلوص ويستحب اخفاء الدعاء كما في رواية اسماعيل بن همام عن ابي الحسن عليه السلام دعوة العبد سراً، دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية، لانه احفظ للاخلاص والنية وينبغي ان يقرن بالصلاة على محمد وآله، فقد ورد في المكارم، عن الصادق عليه السلام لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلي على محمد وآله وينبغي ان تحمد الله اولا

وتمجده وتذكر نعمه عليك فتشكره ثم تصلي على محمد وآله، ثم تذكر ذنوبك فتقربها، ثم تستغفر منها، فهذه جهة الدعاء، كما في مكارم الاخلاق.

وقد ورد عن اهل البيت عليهم السلام من اعطى الدعاء اعطى الاجابة والحاصل ان المسببات لا تختلف عن اسبابها، وان لم يكن للاسباب في عالم الامكان، الا الوساطة، دون التأثير والعلية التامة لله، فلا مؤثر في الوجود الا الوجود وهو الله.

فالعلم بان الله تعالى هو المختار والمريد، يوجب الجزم بان ما ليس بمحال ذاتي فان الله مورد استجابة العبد له.

فلابد ان يؤمنوا به، بانه قادر على مايسأل لعلهم يرشدون إلى الواقع، فيصيبون الحق والهدف.

وبالجملة، فيراد من الدعاء، ليس لقلقة اللسان بل عن قلب مخلص وصادق وان لا يتخلف الدعاء عن الاستجابة اذاتمت شروطه، من كونه غير طالب للمحال، ولا يطلب الرزق من غير سعي، او العلم من غير تعليم، فاذا تحقق المقتضي وارتفعت الموانع تحققت الاستجابة، حتى لو كان من ابليس، فقد استجاب الله له دعاءه، حيث قال، انظرني إلى يوم يبعثون قال انك من المنظرين فاذا طلب خلاف سنن الطبيعة، والاسباب المتعارفة، كطلب العلم من غير تعلم والمال من غير تكسب، فهو من الجهل وان يدعو للتوفيق والهداية لاحكامه كاهدنا الصراط المستقيم، وربي اشرح لي صدري ويسر لي امري كما هو دعاء الانبياء عليهم السلام .

وقد يعطي من لم يسأل، فان رحمته قد وسعت كل شيء وعلى كل فهو الغني المطلق المجيب لدعوة الداعي والاولى بذلك ان يكون العبد ايضاً مجيبا له في الدعاء لاوامره لاحتياج العبد اليه، من كل الوجوه.

واعلم ان اي رقة وانعطاف واي حنان ورحمة في هذه الكلمات، فان من الله الجزاء الاوفى والعطاء الاكمل على الاستجابة، وقد حلت العبارة محل افضل تعبير وحنان (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان).

وحقيقة الدعاء هو السؤال من العبد، إلى ربه ومرجعه اليه تعالى، ثم اثبت القرب الحقيقي، لانه العلة الحقيقية، قال تعالى «واتاكم من كل ما سألتموه».

والسؤال الحقيقي ان لا يكون لسانا، بل قلباً، يسأله من في السموات ومن في

الأرض، فالمراد ما يدعو به القلب بلسان الفطرة البشرية وهذا لا يتخطى الاجابة، لان السؤال من العبد في محله، فلا يطلب مالا يقع في سلسلة التكوين، كما لو طلب ملك الدنيا ويسأل عن اخلاص، فلا منجي الا الله، وقد سمى الله الدعاء عبادة.

(وإذا سألك عبادي عني الخ...) ما اجمل هذا الاسلوب وما ارق هذا المضمون، حيث خاطب الله العبد بنفسه عناية منه بالامر وأكّده بقوله: «فاني قريب» بالصفة دون الفعل، دلالة على دوام القرب وثبوته وتجدد الاجابة من الله، حيث قال «اجيب» بالمضارع، باختصار وايجاز والدعاء توجيه نظر المدعو نحو الداعي، ثم ان العبودية المستدعية للمعلولية والقرب من العلة التامة. وان كل ما في نفسه، من روح وعقل وبدن وما ينتسب اليه من الاباء والاولاد والاموال، تحت عبوديته تعالى فقربه قرب العلة من المعلول.

ولذا قال تعالى (ونحن اقرب اليه من حبل الوريد)[1] فالملك له على الاطلاق والتصرف، وان حقيقة الدعاء، ما يحمله القلب بلسان الفطرة، لا مجرد النطق باللسان.

والسؤال الفطري من العبد، بحسب جبلته وقلبه لا يتعدى الاجابة، ولا يتخطاها وان تخطى فلم يكن هناك دعاء حيث يسأل ما لا يكون له مورداً، كطلب احياء الميت من غير الانبياء والاوصياء عليهم السلام ولو علم بحقيقة الامر لم يسأل لما اعد الله له خيراً من هذا.

واما ان السؤال محقق ولكن لآمن الله وحده لتعلق النفس بالاسباب والأمور الوهمية، فلم يخلص بالدعاء، فلا تستجاب له دعوته من يجعل مع الله شريكاً من الاسباب والاوهام «قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية» «لان انجانا من هذه لنكونن من الشاكرين» «قل ينجيكم منها ومن كل كرب ثم انتم تشركون»[2]. فان سأل العبد ربه سؤال فطرة وجبلة ولم يكن سؤاله متوجهاً على الاسباب الشرعية، فلا يستجاب له.

ولابد ان يدعو العبد مخلصاً لله تعالى، فان الله قريب من عباده، قرب العلة من المعلول، فاذا طلب العبد ما يناسبه وكان ممكناً في حقه والتجأ اليه تماماً، يستجاب الله دعوته وقد ورد كثيراً من الاخبار في استجابة الدعاء ومن احث على الدعاء، من قوله «فان دعاني اجبته وان سألني اعطيته وان استغفرني غفر له».

وليعلم، ان ليس المقصود من الدعاء ابطال سببية الاسباب، التي جعلها الله وسيلة بين الاشياء وحوائج العبد حيث انه بفطرته، يشعر الانسان، ان للحادث سبباً وان كل سبب

١. ق ٥٠/١٦.
٢. الأنعام ٦٤.

ظاهري، يمكن ان يتخلف عن اثره الا السبب الواقعي من الله، الذي يبتدء عنه كل امر ويركن اليه في كل حاجة.

وان كثيراً ما يحب الانسان شيئاً ثم ينكشف له ضرره وقد يهرب من شيء ثم يعلم بحسنه له، كالمريض عند علاجه، فصلاحه بالدواء وان كره المريض الدواء.

الاتجاه الفلسفي

ان الانسان في حال حياته، وبعد موته، له اهداف في سلوكه وسيره، وفي نفسه واهل بيته، وفي ماله الذي يكتسبه في دار الدنيا.

ولما كان المرء ذا مال في حياته، ببذل جهوده في تحصيل ذلك المال، كان النظام الاجتماعي ان يكون ماله لولده، ولمن هو اقرب اليه نسباً كوالديه لئلا تضيع جهود الانسان في الحياة.

فان الانسان إذا جهد في عمل من الاعمال لشخص ولم يقابل جهوده بمال، او بمتاعب اخرى، كان جهوده ضياعاً.

والعقل بفطرته، لايضيع جهود اي انسان في حال حياته من اعماله وكسبه، ومن ضيع جهود البشرية، كان قصده استغلال جهودهم له، وسيطرته عليهم، واستهلاك نفوسهم طمعا في الرئاسة.

ولذا لم يأت دين على هذا النسق، وانما صار هذا، شعاراً في عصور الشيوعيين والماركسيين، وليس قصدهم الا استهلاك نفوس الناس، واستملاك ثرواتهم لحزب مخصوص ويكونوا بقية الافراد من الشعب حكم البهائم، والحيوان المستغل بالعمل إذ المال والثروات لابد وان تضاف، اما لمن بذل جهده فيها، واما إلى سيطرة حزب دون من بذل جهده فيها.

ولما كان قانون الله وعدله لا استملاك فيه، ولا استهلاك، وانما المال حصناً لحفظ النظام، وهدفاً قيماً لحفظ الاجتماع.

فقد يدخل المال الانسان الجنة، او يكون محبوباً لبذله للفقير والمحتاج.

حدد الله تعالى المال بعد الموت من الموصي، بان لا يحيف على افراد وجوده بعد الموت، فان الوارث وجود للميت في الزمن المتأخر، وباق ببقائه، وكأن حياته حياته فلا

ينبغي له ان يذهب ماله عن اولاده الفقراء، وان كان هو املك بماله، وله التنجيز في الهدايا والصدقات في مرض الموت، لكن العدالة في الشريعة، ان يبذل ماله في خيراته وإذاكان الوارث فقيراً فهو اولى، بثلث الميت.

فالوصية منه بر للموصي له من اولاده، وكلما امكنه ان يجعل المال على الوجه المشروع للورثة كان حسناً.

وان الشارع المقدس هنا، لاحظ الموصي والوصى ومن يوصى اليه، وان يكون الكل على طريق الاعتدال والنفع الاخروي للميت، فاذا خرج كل واحد منهما عن منهاج الشرع، بان اوصى الموصي بجميع ماله لاجنبي كانت وصيته ملغاة الا في ثلثه، وإذا اخرجه عن الوارث مع الاحتياج اليه، كان عمله على غير منهاج صحيح، ولا على سنة متبعة.

فالشارع المقدس هنا، ان كان كلا من الموصي والوصى والموصى اليه على منهاج الشرع والمروة، وحفظ الوارث عن الفقر، كان نظاما اجتماعياً وشرعياً.

واما إذا خرج كل واحد منهم عن الطريقة المستقيمة فلابد وان يرجع بحكم الله إلى الطريقة المستقيمة، من الموصي والوصى والموصي اليه.

فنظرة الشارع المقدس هنا إلى هدف خاص وهو حفظ مال الميت بعد الموت، لمن كان من شؤون حياته وهم أولاده ووالديه، وان يسير الميت على هدف شرعي بالمروة واللطف، مع من تأخر عنه، فكل من الوالد والاولاد في نظام التكوين محتاج للآخر في التربية وفي النظام الاجتماعي، وفي الجهود البشري وفي صرف المال على وجه اللطف والكرامة.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ انه جاءه رجل من اصحابه يشهده بهبته لاحد اولاده،فقال رسول الله ﷺ اكل ولدك اعطيت، قال لا، فقال رسول الله ﷺ لا تشهدني على جور.

واجمالاً ان جهود الانسان، في كسبه وتجاراته في الحياة لابد وان تبذل على الوجه الاكمل، من حفظ النظام بينه وبين الورثة، وان يكون البذل في غاية الجود وحفظه في حياته وموته مع الوارث، والا كان اجحافاً او مخالفاً للاحكام الشرعية.

فالآية قد بينت الملكية وشؤونها، ورجوعها إلى افراد بعد الموت، هم كوجود الميت في حال حياته، وان سلب الجهود وبذلها في غير محلها، مخالفة للدين، او سفاهة في العقل.

وعندما تمت الآية الكريمة في الوصايا، توجهت الآيات بخطاب مملؤ باللطف وعناية من الرب لعباده، بقوله تعالى «يا ايها الذين آمنوا» ولم يقل يا ايها الناس، كما هو مقتضى التكاليف العامة، المتوجهة إلى كافة البشر، ولوح الله سبحانه وتعالى في كتابه، ان الصوم قد كتب عليكم في عالم اللوح، وفي عالم بعث الرسالة، وفي عالم الكتب المنزلة، كما كتب على الذين من قبلكم، وان كان الصوم مختلف بين صوم الامم السابقة، من صوم يوم وليلة او اكثر، او الصوم حتى من الكلام.

ثم خص الله عز وجل هذه الامة بصوم افضل الايام، اياماً معدودة، وهي ايام شهر رمضان.

وفي الصوم مزايا، قد لا توجد في سائر العبادات، منها الانقطاع إلى الله والخشية منه والابتهال اليه، ومنها تمرين النفس على الجوع والعطش، ليشعر الغني بنفسية الفقير وان الفقير دائماً في عناء من العيش ومن القوت، وقلة النفقة.

وعندها فيرى الغني نفسه، انه بحكم الفقير تمرينا على طاعته، وجذبا إلى مستوى الفقير؛ ومنها ان نفسية الغني عندما يشاهد الصوم، ويقوم بواجبه، تتساوى روحيته روحية الفقير لما يرى انه وان كان غنياً، ولكن في الحقيقة في التشريع الاسلامي مساوياً في روحيته للفقير.

وان للصوم منافع، منها ان الصوم نعمة من الله على عباده، ولاتحل تلك النعمة والبركة، الاعلى من اتبع آداب الدين واخلاقه.

ومنها، انه رياضة روحية، تبعد النفس عن مألوف عادتها وتوجهها إلى الصبر والتحمل، ومنها على ما اثبته علم الطب اخيرا انه يدفع بعض الامراض وإلى الآن لم يتضح كيفية الدفع، ولعل العلم الحديث يطلع الانسان على كثير من اسرار الصوم.

وعندها توجهت الآيات الكريمة، إلى استجابة الله للعبد في دعائه، وان هذه الآية في غاية العمق واللطف فقد اعتبرت ان السائل ان يكون من عباده المضافين اليه، كقولك محمد عبده ورسوله، وقوله تعالى عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ولم تأت الآية، وإذا سألني الناس فاني قريب اجيب دعوة الداعي.

فالآية الكريمة، لم تنظر إلى مطلق الانسانية، بل الانسان الذي له اضافة إلى خالقه، حيث ان الانسان إذاوصف بالعبودية لله كان الانسان الكامل الذي تكون توجهاته دائماً إلى الله تعالى،

ولا يطلب ما لا يعنيه او ما لا حاجة له، او بامر لا يتناسب في الطلب من الله، فان كل ذلك لا يتوافق مع عنوان العبادة لله.

فاذا كان عبد الله بتمام العبودية فلا يطلب الا ما يناسبه، اما لشخص نفسه، واما للامة التي هو فيها، كالانبياء والاولياء، ولذا قال تعالى، «وإذاسألك يا محمد عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي إذا دعان، اقرب من الحاجب إلى العين.

بل المراد من الآية الكريمة هنا، من القرب، قرب المعلول من العلة، اذ لاقرب اقرب من العلة إلى المعلول، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي وباستجابتي لهم لعلهم يرشدون. وهناك شرائط للدعاء، وللداعي وللمدعو اليه وان العبد الصالح إذا دعى قام بجميع الشرائط من اهلية السائل للسؤال، وقابلية الاستجابة، ولطف الله للاستجابة عند تمام شروطها من الداعي، وكيفية الدعاء، ولذا قل ما لا يستجاب الدعاء من الاولياء والصالحين من عباده.

الإتجاه من النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام واصحابه

تفسير العياشي عن يونس رفعه إلى ابي عبد الله عليه السلام في قوله «فمن خاف من موص جنفا او اثماً فاصلح بينهم فلا اثم عليه» قال يعنى إذاما اعتدى في الوصية وزاد في الثلث.

وقد ورد عن اهل البيت انه يرد الموصي والوصى والموصي اليه إلى الحق إذاخالفوا الاحكام الشرعية، وقد فصلنا ذلك في انوار الوسائل[1].

تفسير العياشي عن البرقي عن بعض اصحابنا عن ابي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى «يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام» قال هي للمؤمنين خاصة، وفي رواية جميل بن دراج هي لكل من أقرّ بالدعوة الظاهرة.

تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر في قوله: «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين»، قال الشيخ الكبير والذي ياخذه العطاش.

وفي الفقيه عن حفص، قال سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول ان شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على احد من الامم قبلنا، فقلت له، فقول الله تعالى: «يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم» قال انما فرض الله شهر رمضان على الانبياء دون الامم، ففضل الله هذه الامة، وجعل صيامه فرضا على رسوله صلى الله عليه وآله وعلى امته.

---

١. أنوار الوسائل .

وفي الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام قال فاما صوم السفر والمرض، فان العامة قد اختلفت في ذلك، فقال قوم يصوم وقال آخرون لا يصوم، وقال قوم ان شاء صام وان شاء افطر واما نحن فنقول يفطر في الحالين جميعاً، فان صام في السفر او في حال المرض، فعليه القضاء، فان الله عز وجل يقول، فمن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من ايام آخر.

وفي تفسير العياشي، عن ابي بصير عن ابي عبد الله عليه السلام قال إذاحضر شهر رمضان فقل: اللهم قد حضر رمضان وقد افترضت علينا صيامه وانزلت فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، اللهم اعنا على صيامه وتقبله منا وسلمنا فيه وسلمه منا، وسلمنا له في يسر منك وعافية انك على كل شيء قدير يا ارحم الراحمين.

وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في قوله: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه)، قال عليه السلام ما ابينها لمن عقلها قال، من شهد رمضان فليصمه ومن سافر فيه فليفطر.

وفي تفسيره ايضا عن الصادق عليه السلام قال المرأة تخاف على ولدها والشيخ الكبير.

وفي الدر المنثور عن ابن عباس، قال شهر رمضان والليلة المباركة وليلة القدر فان ليلة القدر هي الليلة المباركة وهي في رمضان نزل القرآن فيها جملة واحدة من البيت المعمور وهو موقع النجوم في سماء الدنيا، حيث وقع القرآن ثم نزل على محمد صلى الله عليه وآله بعد ذلك في الامر والنهي وفي الحروب.

عن النبي صلى الله عليه وآله فيما رواه الفريقان، الدعاء سلاح المؤمن.

وفي عدة الداعي عن النبي صلى الله عليه وآله قال قال الله تعالى ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني الا قطعت اسباب السموات واسباب الأرض من دونه، فان سألني لم اعطه وان دعاني لم اجبه، وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي الا ضمنت السماوات والأرض رزقه، فان دعاني اجبته، وان سألني اعطيته، وان استغفرني غفرت له.

وفي تفسير العياشي عن بن ابي يعفور، عن ابي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي) يعلمون اني اقدر على ان اعطيهم ما يسألون.

وفي نهج البلاغة، في وصية لامير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسين عليه السلام «ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء ابواب نعمه واستمطرت شئآبيب رحمته، فلا يقنطنك ابطاء اجابته فان العطية على قدر النية، وربما اخرت عنك الاجابة ليكون ذلك اعظم لاجر السائل واجزل لعطاء الامل، وربما سألت

الشيء فلا تؤتاه واوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلا، او صرف عنك لما هو خير لك، فلرب امر قد طلبته، فيه هلاك دينك لو اوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفي عنك وباله والمال لا يبقى لك، ولا تبقى له».

وفي عدة الداعي عن ابي جعفر عليه السلام ما بسط عبد يده إلى الله عز وجل الا استحى الله ان يردها صفرا، حتى يجعل فيها من فضله ورحمته مايشاء، فاذا دعا احدكم فلا يرد يده حتى يمسح بها على رأسه ووجهه، وفي خبر آخر يمسح بها وجهه وصدره.

وفيه ايضاً قال رسول الله صلى الله عليه وآله لابي ذر يا ابا ذر الا اعلمك كلمات ينفعك الله عز وجل بهن، قلت بلى يا رسول الله قال احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده امامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وإذا سألت فاسأل الله، وإذااستعنت فاستعن بالله، فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، ولو ان الخلق كلهم جهدوا على ان ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ما قدروا عليه.

وفي الدر المنثور عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لو عرفتم الله حق معرفته لزالت لدعائكم الجبال.

قد عرفت على ما بيّناه ان يرد الموصي والوصي والموصي اليه إلى الحق، وانه قد كتب صيام شهر رمضان على هذه الامة لافضليتهم على سائر الامم، فصار صومهم كصوم الانبياء في شهر رمضان، وانزل الله كتابه في ليلة القدر لبركة هذا الشهر.

وما ورد في بعض الاخبار من عدم جواز السفر ففي بعض الاخبار الاخر الجواز ومقتضى الجمع، بين هذه الادلة كما بيّناه في «انوار الوسائل» هو استحباب الصيام والمكث في الوطن دون السفر، او كراهة السفر من غير موجب.

وبيّنا ايضاً مراتب الدعاء، ومن اي عبد يصدر وموارد الاستجابة، وان كان من لطفه العميم ان يستجيب من عباده، ولو كانوا على غير هدى.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون»[1].

«ذلك ادنى ان يأتوا بالشهادة على وجهها او يخافوا ان ترد ايمان بعد ايمانهم واتقوا

١. الحجرات آية ١٠.

الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين»[١].

«حم والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم»[٢].

«انا انزلناه في ليلة القدر»[٣].

«وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا»[٤].

«امن يجيب المضطر إذادعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أَءِلَهٌ مع الله قليلا ما تذكرون»[٥].

الاعجاز (الآية ١٨٧ - ١٩٠)

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

قد احل الله الرفث، وهو الكناية عن المقاربة للزوجة من المباشرة للنساء، وكنى بها عن عمل الجماع، نظير اللمس والمس ونحو ذلك من آداب القرآن، او لفظ كاشف عن الجماع، على وجه الاداب.

فالقرآن الكريم، في امثال مباشرة النساء يأتي بالعفة في الخطاب وتكريما للانسانية، عن الالفاظ التي هي لا تخلو من التوهين.

---

١. المائدة آية ١٠٨.
٢. الزخرف آية ١- ٤.
٣. القدر آية ١.
٤. الاسراء آية ١١١.
٥. النمل آية ٦٢.

ثم قال هن لباس لكم وانتم لباس لهن؛ فان المرأة في حياتها مع الزوج، هي حياة انضمام واندكاك روح بروح وامتزاج الاخلاق بالاخلاق، فهي اللباس الذي توقيه مما يكره وتحفظ عرضه وسره وهو يحفظها في الاجتماع، وتكون المرأة تحت نظره في منتهى الخلوص والازدواج.

ثم علمت الخيانة وان الخيانة مستمرة سراً بينهما ويظهر من الآية حرمة الجماع في ليالي الصيام، كما عن كثير من المفسرين وان الآية هنا نسخت بعض احكام الآية الاولى واما ان الآية ظهورها في النسخ، لا يخلو عن تأمل.

فلعل الحكم كان بالكراهة الشديدة في المقاربة في ليالي رمضان، سواء كان الحكم تحريمياً، او على وجه الكراهة الشديدة وان المقام ليس من النسخ المصطلح، كما هو غير بعيد لمن تأمل اطراف الآيتين.

ثم اجيز ذلك لقوله، احل لكم وتاب عمن مضى عنكم وعفى عنكم وقد يقال ان ليست في مقام النسخ للحرمة في الليل وانما كان المسلمون توهموا من قوله تعالى: «كتب عليكم الصيام كماكتب على الذين من قبلكم».

فجاءت الآية الكريمة بحرمته في النهار، وان هذه الخيانة، ليست بخيانة واقعية ولكن الاقوى ما تقدم، ويشعر بذلك قوله، فالآن باشروهن، وظاهر الجواز من ذلك الوقت والتعليل في ان النساء لباس للرجال، وبالعكس.

فمن جهة ان احد الزوجين، لما كان لباساً للآخر فيجب ان يجوز الرفث بينهما مطلقاً والظاهر من اللباس هو حكمة التشريع وجواز المقاربة دون الاسباب الواقعية.

فالمقام مقام تشريع وحكمة، لا مقام الاسباب الواقعية للاحكام وان الملابسة بين الزوجين مما يؤدى إلى بقاء النسل واستحكامه.

ومن الواضح، لمن له فكرة صحيحة، ان الله تعالى جعل الشهوة بين الرجل والمرأة مقدمة لحصول الاجتماع ونظام البشر، فرب رجل وامرأة يتولد منها شخص عابد بل ونبي عظيم.

فالمقصود عند التأمل هو هذه النظرة، من تحقق الاجتماع وحفظ نظام البشر فالغاية المهمة، التي يقتضيها امتزاج الروحين بين الرجل والمرأة، هو تحقق النظام الاجتماعي في الخلق، ليكونوا مورد التكليف وتوجه ارادة الحق تعالى اليهم.

ثم قال تعالى، كلوا واشربوا، إلى ان يتبين الفجر الصادق من الكاذب، الشبيه في ذنب السرحان وعمود شعاعي من ناحية الافق المشرقي، إذابلغت فاصلة الشمس من دائرة الافق، إلى ثمانية عشر درجة تحت الافق، ثم يبطل ويقع البياض معترضا مستطيلا على الافق، كالخيط الابيض الممدود، وبالاخرة يتصل بطلوع الشمس.

والظاهر من كلمة، من الفجر، هي البيان دون التبعيض وغيره من المعاني التي ذكروها لمفاد .

واتموا الصيام إلى الليل، عبادة مستمرة، ثم قال: «ولا تباشروهن وانتم عاكفون في المساجد» من العبادة الخاصة اللازمة في المسجد، وان لا يخرج منه الا لعذر والمعتكف ممنوع عن الجماع، حتى في الليل، فان تلك الحدود والموانع، لايقر بها المعتكف ولا يتعداها وقد كتب الفقهاء باب الاعتكاف وبيان شروطه، فراجع «انوار الوسائل» وغيره، والفت الله نظر عباده انما بيّناه من الآيات هي حدود واحكام لله تعالى فلا يصح لاحد التعدي عليها ومخالفته، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون .

ثم قال تعالى: «ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل» والمراد من الاكل التصرف والاخذ، وان المال ما تتعلق به الرغبات والتبادل ويشبه ان يكون مأخوذاً من الميل، فالباطل ما يقابل الحق.

وقد تعرض المفسرون هنا، إلى احكام الرشوة والقضاء بالحق والباطل، ونحن نذكر هذه المباحث على وجه الاجمال وهو ان الشارع قد جعل في باب المرافعات في الاموال، الحاكم الشرعي قاضياً، لقوله، في مقبولة عمر بن حنظلة، «إذا عرف حلالنا وحرامنا ونظر في احكامنا، فانا قد جعلناه حاكماً من رد علينا رد على الله تعالى، وغيرها من الاخبار الدالة على جعل الحاكم الشرعي قاضياً.

فاذا حكم وجب امتثاله وارتفعت الخصومة، وحصل الفصل بين المدعي والمدعى عليه ولا يجوز رد حكمه الا إذااتضح انه على خلاف الموازين الشرعية، فلو علم شخص من الخارج ان الحاكم وان استند إلى شهادة العدلين، ولكن الشهود قد أخطؤا، فانه لا يجوز له رد الحكم، الا إذا تبّين للقاضي عدم عدالة الشهود، او اشتباههما في الشهادة فعلى مذهب الامامية، ان الحاكم الشرعي، لابد فيه من شرطين، الأوّل: بلوغه إلى مرتبة الاجتهاد المطلق، الثاني: العدالة المانعة له من ارتكاب الكبائر والاصرار على الصغائر.

واما على مذهب اخواننا ابناء العامة، فلا يعتبرون الاجتهاد ولا العدالة في حكم الحاكم ويكتفون بنصبه من الحكام والامراء ويذهبون إلىسببية حكمه التامة في الاشياء ولسنا الآن في بيان خطأ هذا الحكم، فان له محلا آخر.

والا فاجمالاً، ان القاضي إذالم يكن فيه ارادة عن دفع المعاصي، كيف يؤتمن على اعراض الناس واموالهم ونفوسهم وكيف يكون رادعاً عن الباطل ومحقاً للحق فإذاً تأخذه الرشوة وميل الصداقة والقرابة والوطن والقومية.

ولذا ان مذهب الامامية إذا لم يكن القاضي عادلا، كان قضاؤه باطلاً وكان من أئمة الجور، فكيف ينفذ حكمه وكيف ينتقل المال من شخص إلى آخر بحكومة مثل هؤلاء الذين هم معرض الميول والشهوات والرفاقة والصداقة وتحت نفوذ الحكام.

فعلى مسلك الامامية ان مثل هؤلاء القضاة، لا من جهة انهم ابناء التسنن، بل من جهة فقدان الاجتهاد والعدالة لا ينفذ قضائهم.

ولو أن قاضيا من الامامية، لم يكن مجتهداً ولا عادلاً كان من قضاة الجور، ولا يصح للمترافعين ان يتحاكما عنده، وكان الاخذ بحكمه اخذاً للمال بالباطل.

وانت إذاالقيت نظرة من غير تعصّب ولا تقليد رأيت ان الحكم من القاضي الواجد للعدالة والاجتهاد، هو مأمون من الرشوة والميول ونفوذ الحكام عليه وان الله لا يعطي امانته لمن يجوز في حقه عادة الخيانة او الرشوة والصداقة والقومية ولابد في حكمه من شاهدين عادلين او شهود اربعة في بعض المقامات، فاذا حكم بحكم الله نفذ حكمه وكان الراد عليه راداً على ائمة الهدى عليهم السلام.

ثم اعلم ان الانسان من حالته في النواميس الاجتماعية يختص بالملك بشتى اسبابها، من البيع والحيازة وغيرهما.

ويتعين عليه ان يقيم الحق على نفسه وان يؤدي حق غيره.

فالحكم فطري من هذه الجهة، والتجارة والربح والحيازة والارث والغنيمة للانسان البالغ وغيره، ان يكون على قوام العدل، لا على وجه الجور والاستحكام.

ثم قال تعالى: «ويسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج».

القمر اول الشهر يسمى هلالاً، لخروجه عن شعاع الشمس في الليلة الاولى والثانية، إلىان يتحجر ويستدير، بل إلىان يبهر نوره ظلمة الليل، من الليلة السابعة، ثم يسمى قمراً

وفي الرابع عشر يسمى بدراً والاهلة جمع هلال وانما قيل هلالاً لان الناس يهلون بـذكره والمواقيت الاوقات المضروبة للفعل او المكان، كمواقيت الحج.

وظاهر الآية، هو تعدد السؤال من ظهوره هلالاً بعد هلال، فانها مواقيت للناس، في امور معاشهم ومعادهم فلابد للانسان ان يقدر افعاله واعماله، حسب الزمان، فان لكل زمان يتمكن الانسان ان يعمل فيه ويتملك، في صلاح الحياة وتسهيل السبل وقد اوكل الله الحساب إلى الشهور القمرية لتعيينها ووضوحها في امور الناس من عباداتهم ومعاملاتهم، كالحج ونحوه.

ثم بيّن الله سبحانه وتعالى، ان ليس البر عند ما يحج الانسان، ان يأتي البيوت من ظهورها، كما يصنعه بعض من جاهلية العرب.

ولعل الآية، تشير إلى المعنى الاوسع من الانسان من البر، ان يمتثل امر الاهلة كلها، من حج وصيام وصلاة فالبر هو التقوى، لا التشريع من قبل نفسه كناية عن العادة المألوفة، من وقوع شيء في محله وهذه هي التقوى، التي تجتمع مع مراتب الايمان ومراحل الكمال.

ولما كان السؤال عن خصوصيات الكواكب، وسيرها وتأثير الحوادث منها مما لا يفيد عامة البشر، بل لو تعرضت الآيات الكريمة إلى ذلك، لما فهم الا بعد عصور واجيال متعددة.

فالفت الله نظر عباده إلىما يستفيدون من حالة الهلال، في معاشهم ومعادهم وان هذا هو المهم للبشرية واما معرفة علم النجوم وخصوصيات النجوم، فامر لا يمكن أن يعرفه عامة الناس، ولا يعرفه الا المنجمون وكم وقعوا في الخطأ إلى زماننا هذا، فان معرفتها ومعرفة تأثيرها فى غاية الخفاء على الناس.

ثم جاء السياق على القتال في سبيل الله من قوله وقاتلوا في الله، ولكن لا على وجه الاعتداء، لان الله لا يحب المعتدين.

وانك إذا تأملت هذه الآية ونظائرها في القرآن الكريم تعرف حقيقة الاسلام، وان الاسلام ليس دين حرب ومقاتلة وفتكاً في البشرية، بل النظام الاسلامي قانون اصلاح وتربية ومجارات ولا يتخذ الحرب وسيلة للغلبة وانما شأن الاسلام في الغالب هو الدفاع، دون الهجوم، ولكن قد يضطر الاسلام والمسلمون في موارد خاصة كما في دفع البغاة ومن يريد اضمحلال الشرائع، او يريد ظهور الكفر والتعدي على الناس، وقطع كلمة التوحيد من

على وجه الأرض، فان الاسلام عند ذلك يضطر إلى التأديب مهما كلف الامر.

فالاسلام دين العفو والاصلاح، ولكن قد تقتضي بعض الظروف خطراً من البغي الشديد واذهاب كلمة التوحيد ولا يكون على وجه الأرض موحداً.

وعندها فالاسلام يقوم بواجبه، وتأديب مثل هؤلاء،حفظاً لنظام البشرية، واصلاحاً للمجتمع وهذا في الحقيقة ليس من التعدي، بل من قطع دابر الفساد الموجب لذهاب العدالة بين البشر وذهاب كلمة التوحيد ودفعا لئلا يقع الاختلال في النظام وصيرورة البشر فوضى، هذه حقيقة الاسلام وليس الاسلام هتكاً وفتكاً وكذباً وافتراء ولا وسيلة للرئاسة والحكومة.

الاتجاه الفلسفي

ان الله تعالى أحلّ للرجل، في ليلة الصيام، الرفث من جواز الجماع، من الرجل بالمرأة وان الصيام كما عرفت سابقاً توجه خاص، بين العبد وربه وفي ذلك التوجه يمتنع اجتماع الرجل بالمرأة بالجماع وكذلك المأكل والمشارب، لتنافي شهوات الدنيا وملذاتها، مع هذا التوجه الخاص بين الله وعبده.

فالآية اما ان كانت، مجوزة للرفث، في بعض الليل، او مطلقا، كما احتملناه، او ان بعض المفسرين فهموا المنع مطلقا، فجاءت الآية في التفصيل، بين الليل والنهار والتوبة من العبد لا تدل على المعصية كما بيّناه.

فلعل الصائمين توهموا المنع مطلقا، فرجعوا إلى الله تعالى بعد ذلك.

وان الله سبحانه وتعالى، كنى عن الزوج والزوجة بان احدهما لباس للاخر وان علاقة الرجل بالمرأة وبالعكس تأتي على وجوه.

اولا، ان يحصل التبادل بينهما بالحقوق، لان لكل منهما حق على الاخر، من غير ان يكون هناك امتزاج روحي كما سيأتي في بعض الآيات الدلالة على الحقوق من الطرفين من دون ان يكون بينهما اتحاد روحي ووحدة عقلية.

ثانيا، ان يكون بينهما اتحاد معنوي، من وحدة الضمير والتوجه إلى الله وإلى منافع الدنيا ولكن لا بمرتبة شديدة.

ثالثا، ان يكون الاتحاد بينهما، قد بلغ غايته واعلى مراتبه فكما ان اللباس يستر الظاهر

والباطن ويمنع من الحر والبرد، ومن العوارض الاخرى كذلك الرجل بالقياس إلى زوجته وهي بالنسبة إلى زوجها، يستر كل منهما الاخر في هذه النشأة ويحيي كل منهما بحياة الاخر، فترى روحاً واحدة ونفساً مفردة، قد حلت في جسمين وعند ذلك فتسقط جميع الجهات بينهما ولا يرى احدهما الا القيام بشؤون الآخر.

وهذه الزوجية، هي اعلى مراتب الزوجية، اذ يرى كل واحد منهما الفناء في نفسية الاخر.

ولعل الشارع المقدس، يحث على هذه المرحلة لكن بوجه ان تكون على الموازين الشرعية والقوانين التي شرعها الشارع المقدس، من غير اسراف في التخلق.

واما ما يراه ابناء الزمان، من اتحاد الزوج والزوجة على وجه غير مشروع، فهو منهاج غير مستقيم وزوجية لو جاءتها العوارض، لانفرد كل عن صاحبه.

ثم وجه الله خلقه إلىابتداء الصوم وانتهائه من الفجر الصادق إلى غروب الشمس، على حسب ما قرره الشارع المقدس، ثم نبه الله عباده على انه مهما كانت العلاقة بين الزوجة والزوج ثابتة فلا يصح ان يباشر الرجل امرأته ويقاربها في الاعتكاف لانها عبادة خاصة وتوجه إلى الله، بحيث لايجوز له اتخاذ شهوات الدنيا، من الاكل والشرب والجماع وغيره، فيكون صائنا لنفسه بكل معنى الكلمة ولابد في العمل على طبق حدود الله، فيما شرعه من الصوم والاعتكاف.

وتوجهت الآيات الكريمة إلى النظام الاجتماعي، بين البشر في سلوكه وفي امواله وتبادل بعضهم بعضاً من المعاملات والتجارات.

وقد بينا سابقاً، ان الملكية شخصية ونوعية وملكية لولاة الامر وكل من الملكيات لا تزاحم الملكية الاخرى وكيف يستحسن العقل، ان شخصا يستعمر جهود الاخر، ويغصب متاعبه، كما عليه اليوم من الحكومات الشيوعية والماركسية، وهذه الآية تعطي التنديد والتهديد، لقوم لا يعتبرون جهود الآخرين ويرون تملك الاموال من اي طريق كان من جهود نفسي او استغلالي، او استهلاك واستملاك، فالآية قد الفتت نظر الاجتماع، ان التجارات والارباح والمعاملات، لابد وان تسير على منهج صحيح معتدل، لا حيف فيه من غير ضرر ولا اضرار، بان لا تأكلوا الاموال بالجِرَف الباطلة من اختلاسها، او استملاكها، او قهر الاخرين بقوة قهرية، او بطرق اخرى ملتوية، كالسرقات والغش والتدليس، وبيع

المعيب وغيرها.

فان كل ذلك يوجب اختلال نظام المعيشة والنشأة، في هذه الدار.

فالعدالة تسير في الارواح والابدان والاموال على طبق النظام الاكمل، الذي شرعه الانبياء واكده الاولياء.

وعندها انتقل الكتاب بالسؤال، عن الاهلة، فالفت الله نظر الانسان إلى ما يفيده من سير الكواكب والقمر واغلق الباب عنه في تأثير سيرها وكيفيات حركاتها، فان ذلك مما لا يمكن ان يعرفه جميع طبقات البشر.

وان القرآن الكريم لو فتح لهم الدراسة عن تكوينها وتأثيرها وعللها ومعلولاتها لاحتجنا إلى كتب متعددة وانى يفهم ابناء تلك العصور ذلك وقد اوكل القرآن الكريم المعارف والعلوم، إلى جهود الانسان في تحصيلها، ليتميز الجاهل من العالم والعارف من المتردد ولا ينفع معرفتها، الا لافراد في غاية القلة.

فعرفهم بما يحتاجون اليه من سير الكواكب والقمر من معرفة الاهلة والحج والمواقيت.

ثم عدلت الآية، إلى معنى غير ما تقدم، او بالاشارة إلى ما تقدم في الجملة بان الفت الله نظر عباده أن الأمور لها سير واقعي وفلسفة ثابتة، فمن طلب علما من العلوم كالفلسفة الاولى، لا يمكن ان يتوصل اليها بالرياضيات وكل من احكم عملا، فلا بد ان يأتيه، من الطريق المعتدل لينال الغرض منه والا لتخلف عمله عن غرضه، نظير من طلب الماء، في حالة انه محتاج إلى استعمال النار.

فمقتضى الحال، ليس مختصا بالاقوال والخطابات بل يجري مقتضى الحال في جميع سلوك الانسان، من علومه وتربيته ونظامه واجتماعه، والوصول به إلى اعلى الدرجات.

والبيوت هنا ان تؤتي من أبوابها، بمعنى وضع الشيء في محله والسير اليه من طريقه، لا خصوص البيوت والمنازل، بان يؤتى من باب تلك الدار، فالآية تشير إلى معنى اوسع واعمق، من كيفية سلوك الانسان، في هذه الدار، على النهج المستقيم في معارفه وعلومه، في سيره وسلوكه.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه

في تفسير القمي، عن الصادق عليه السلام انه قال، كان الاكل والنكاح، محرمين في شهر رمضان بالليل بعد النوم وراء صلاة العشاء وغير ذلك من الروايات.

وفي جميع هذه الروايات المروية، عن ثقة الاسلام الكليني والعياشي وغيرهما، ان سبب النزول، في كلوا واشربوا هو قصة اخوات ابن جبير الانصاري وان احل لكم هو ما كان يفعله الشبان من الجماع في الليل سراً.

وبهذا المضمون ما ورد في الدر المنثور، عن عدة من اصحاب التفسير من العامة، وروى من طرق العامة القصة في ابي قيس بن صرم وفي بعضها صرم ابن مالك الانصاري.

واخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ذلك وعلى كل، فالمروية عن العامة، هو التحريم بعد النوم خلف صلاة العشاء.

واما الفجر الصادق، فكثير من روايات اهل البيت عليهم السلام وفي بعض طرق العامة، كالدر المنثور، ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال الفجر فجر ان، اما الذي كانه ذنب السرحان، فانه لا يحل شيئاً، ولا يحرم شيئاً واما المستطيل الذي يأخذ الافق، فانه يحل الصلاة ويحرم الطعام.

ففي الكافي، عن الصادق عليه السلام في نفس الآية، كان يقارن الرجل باهله وماله، فنهاهم الله عن ذلك وفي الكافي ايضاً عن ابي بصير، في تفسير الآية، قال يا ابا بصير ان الله عز وجل قد علم ان في الامة حكاماً يجورون، اما انه لم يعني حكام العدل ولكنه عني حكام الجور، يا ابا محمد لو كان لك على رجل حق، فدعوته إلى حكام اهل العدل، فابى عليك، الا ان يرافعك إلى حكام الجور ليقضوا له، لكان ممن يحاكم إلى الطاغوت وهو قول الله عز وجل «ألم تر إلى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا إلى الطاغوت».

وفي المجمع قال روى عن ابي جعفر، يعني بالباطل اليمين الكاذبة من قولهما يقطع بها الاموال.

وفي الدر المنثور، عن ابن عباس، قال سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وآله عن الاهلة، فنزلت هذه الآية الشريفة يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس، يعلمون بها اجل دينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم.

عن الباقر عليه السلام في محاسن البرقي في قوله تعالى وأتوا البيوت من ابوابها، قال يعني

ان يأتي الامر من وجهه، اي الأمور كان.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام الاوصياء هم ابواب الله التي منها يؤتى، ولولاهم ما عرف الله عز وجل وبهم احتج الله تبارك وتعالى على خلقه.

وفي الدر المنثور عن ابن عباس في قوله تعالى، وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين، نزلت هذه الآية الشريفة في صلح الحديبية وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج هو واصحابه في العام الذي ارادوا فيه العمرة وكانوا الفاً واربعمائة، فساروا حتى نزلوا الحديبية، فصدهم المشركون عن البيت الحرام، فنحروا الهدى بالحديبية، ثم صالحهم المشركون على ان يرجع من عامه ويعود العام القابل، ويخلو له مكة ثلاثة ايام، فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء فرجع إلى المدينة من فوره، فلما كان العام المقبل تجهز النبي صلى الله عليه وآله واصحابه لعمرة القضاء وخافوا ان لا تفي لهم قريش بذلك وان يصدوهم عن البيت الحرام ويقاتلوهم وكره رسول الله صلى الله عليه وآله قتالهم في الشهر الحرام فانزل الله تعالى هذه الآية.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة»[١].

«الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم»[٢].

«فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبا واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون»[٣].

«يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما»[٤].

«هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون»[٥].

«قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين»[٦].

---

١. الروم آية ٢١.
٢. النور آية ٥.
٣. النحل آية ١١٤.
٤. النساء آية ٢٩.
٥. يونس آية ٥.
٦. التوبة آية ١٤.

الاعجاز (الآية ١٩١ - ١٩٦)

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ القَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

قد توجهت الآيات الكريمة، إلى قتل الكفار والمعاندين ولا سيما إذا القوا الفتن وحرفوا الحق بالباطل وشوهوا الشريعة الاسلامية، ليتباعد البشر عنها وينفروا منها، والفتنة والتغيير في النظام الاسلامي، هو اشد من القتل لان القتل يختص بجماعة من المؤمنين، على ايدي الكفار.

اما الفتنة والانحراف وتغيير المبادىء الاسلامية، فهي مما توجب هدم الاسلام، في العصور والاجيال، فضرر الفتنة اشد من قتل بعض المسلمين.

وان الغاية من وجود الانسان، تكامله وتوجهه إلى المبدء الاعلى وكل ما يوجب الانحراف عن ذلك وهدم هذا المبدء يتعين على المسلمين مقاومته.

فوجه المسلمين إلى قتل هؤلاء بماتقتضيه القواعد الاسلامية من عدم التمثيل بالانسان وحرم القرآن الكريم القتال عند المسجد الحرام وجعله ذنبا كبيراً وجريمة كبرى، فانه امان لمطلق البشرية، كما دعى إلى ذلك ابراهيم الخليل عليه السلام فيؤمنون به ويتوجهون اليه وهو بيت الامن والسلام الا إذالم يرع الكافر، حرمة المسجد، فانه يتعين على المسلمين قتاله وإذاانتهى الكفار عن ذلك، او تابوا، فان الله غفور رحيم.

والتعبير بالغفران والرحمة للكفار، توجيها لهم إلى لطف الله وكرامته، ليرجعوا عن

الغي إلى الصواب وإذا اسلم الكافر، صار في صف المسلمين وقد اسقط عنه القصاص والدية، لطفا ورحمة، ليعرف كرامة الاسلام، وعظمته وعفوه.

فالمقاتلة دائمة إلى ان يفيء إلى أمر الله ويكون الدين كله لله، لا لطغيان المشركين والكفار وقد كرر القرآن الكريم عنوان الفتنة، ليحرض المسلمين، على قطع جذورها وقلع اساسها، فالله تعالى يلوح للمسلمين، ان شأن الكفار المعاندين، هو ايقاع الفتن بين المسلمين واظهار عدم انتظام دينهم وانه دين لا تتقبله الاجيال والشعوب فالفت نظر المسلمين، إلى مقاومة الفتن، في كل عصر وجيل لئلا يسودوا صحيفة الاسلام.

ولذا ان الدول الغربية والشرقية، على ممر العصور، يأتون بالحان البدع في الاسلام ويخلقون اناساً يحرفون الكلم عن مواضعه، ليظهروا ان الاسلام دين الحرب والقتال ودين الفتك في الشعوب.

ومن هنا يتعين على عامة المسلمين، ان يعالجوا هذا المرض السرطاني على ممر العصور وان الاسلام لا عدوان فيه، والتعبير بالعدوان في القرآن الكريم، على ما هو مبني المحاورة، بين ابناء اللسان في مقابلة المثل بالمثل.

ثم ان الله الفت نظر المسلمين، بان القتال لا يحرم فقط في البيت الحرام، بل حتى في الاشهر الحرم.

فقال: «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص»، فان من جار واعتدى عليكم، فاعتدوا عليه، بمثل ما اعتدى عليكم، فالبيت الحرام والاشهر الحرم، تضمن للانسانية الامن والراحة فاذا اعتدى الكفار، تعين على المسلمين مجازاتهم، في الاشهر الحرم وفي البيت وان من انتهك الحرمة، لا تصان له حرمته في الاسلام لتمرده على قوانين الامن في البيت والاشهر الحرم.

وليعلم ان الجهاد في بدء الاسلام، كان يقوم بمؤنة الشخص نفسه، حتى ان بعضهم اسفوا على عدم جهادهم لعدم قدرتهم على المادة ولكن كلما توسع الاسلام وانطبقت قوانينه المادية على الحقوق واتسع بيت مال المسلمين، فالمجاهد محفوظ المؤنة من حيث المادة في الجهاد.

ولذا اشار القرآن الكريم وصرحت السنة النبوية ﷺ إلى اتساع المادة في سبيل الله المجاهدين والمناضلين لحفظ الدعوة الاسلامية، وقد صرح بقوله تعالى «وانفقوا في سبيل

الله ولاتلقوا بايديكم إلى التهلكة، واحسنوا ان الله يحب المحسنين».

واحسنوا ايها المسلمون في اعمالكم، من الجهاد والبذل في سبيل الله، واقامة الشعائر والا آل بكم الامر إلى الهلكة وعند ما انتهى هذا الموقف، توجهت الآيات الكريمة إلى موقف آخر وهو موقف الحج ورغبة الرسول ﷺ في الحج والعمرة ولكن منعت الموانع، من قدرة المشركين على منعه، ووصوله إلى البيت ويختلط بطوافهم وهم عرات، فكره الرسول ﷺ ذلك، حتى جاءت سورة البراءة، فاعطاها لوصيّه، امام الموحدين وامير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ليبلغ بها الناس ولم يعطها لغيره، لان المقام مقام تشريع وتبليغ ولا يقوم بذلك الا من قامت عليه الدعوة وكان من اركانها والمبلغين لاحكامها.

فالصحابي مهما بلغ لا يمكن ان يقوم بمقام التشريع، والتبليغ وانما ينقل التبليغ والتشريع للامة، بخلاف من قامت عليه الدعوة وانه مبلغ لتشريع الله الذي جاء على لسان نبيه ﷺ .

وعندما اعلن امير المؤمنين عليه السلام يوم النحر عند اجتماع الناس بمعنى، انه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد عامه مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو نافذ إلى مدته، ثم لم يحج الرسول ﷺ حتى تطهر البيت من المشركين والعرايا.

واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدى إلى آخر الآية، ان الحج من ضروريات المسلمين كالصلاة والصوم والزكاة ومن انكره انكر الرسالة، وان الحج عبادة خاصة، في اماكن مخصوصة، كما هو المعروف بين المسلمين.

واما العمرة فلغة وعرفاً مطلق الزيارة وفي الشريعة الاسلامية زيارة بيت الله، في عبادة مخصوصة وهي مستحبة وان اوجبها بعضهم وقال باستحبابها الحنفية والمالكية.

وان العبادة لابد فيها من خلوص لله وكان المشركون من العرب وغيرهم يحجون للاجتماع والتفاخر بالنسب والتنافر في الاعمال ولغلبة بعضهم على بعض ولقضاء حوائجهم وللربح في البيع بالاسواق وهذه كلها دواع دنيوية واغراض نفسية، ثم نبه الله سبحانه وتعالى ان الحج والعمرة، قد يكون لهما موانع تمنع من اكمالها او الشروع فيها، من مرض او عدو وغير ذلك من العوائق، فاذا كان المانع، فما عليكم، الا ان تذبحوا ما يتيسر من الهدى واقله شاة واوسطه بقرة واعلاه ناقة.

وان المحصورين الذين منعوا من اتمام الحج او العمرة فلا يحلون من احرامهم، إلىان يعلموا ان الهدي قد بلغ محله من منى، هذا إذاكان الاحرام للحج واما إذاكان الاحرام للعمرة، فمكان الذبح ليس بمنى وانما هو في مكة وهذا الحكم الذي بيّناه في الحج[1] والعمرة انما هو في المرض العارض في الحج.

واماإذا كان المانع من اكمال الحج والعمرة هو العدو او قطاع الطريق، فمحل الذبح هو المكان الذي حصل فيه المنع لزائر بيت الله الحرام، وذلك لما ورد صحيحا، ان النبي صلى الله عليه وآله ذبح هديه في الحديبية حين صده المشركون، عن زيارة بيت الله الحرام.

فمن كان منكم مريضاً او به أذىً من رأسه ففدية من صيام او صدقة او نسك، يعني ان المحرم إذا حلق رأسه لضرورة، فعليه كفارة، مخيراً بين صيام ثلاثة ايام، او اطعام ستة مساكين، او التضحية، واقلها شاة.

فاذا امنتم ولا خطر عليكم، من اتمام الحج واكماله على الوجه المأمور به، فاذا تمتع بالعمرة إلى الحج الواجب عليه فيؤدي ما استيسر من الهدى، فمن اتى بالعمرة وحج بعد العمرة في تلك السنة نفسها، فيتعين عليه الهدى، وهذا القسم من الحج يعبر عنه بحج التمتع، وهذا واجب على غير اهل مكة، وانه بعد عمرة التمتع يحل له كل شيء احله الله له،ويحرم عليه إذااحرم للحج، كما ذكره الفقهاء في كتبهم، وقد اوضحناه في «انوار الوسائل» وسيأتي مناتوضيح بعض فروع الحج والعمرة في الآيات المناسبة في الكتاب الكريم ولولا التطويل لذكرنا ذلك كله.

وقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام إذا لم يجد المتمتع الهدى صام ثلاثة ايام في الحج، السابع والثامن والتاسع، من ذي الحجة ولا يشترط فيه الاقامة، وسبعة ايام إذا رجع إلى اهله تلك عشرة كاملة بدلا عن الهدي، وهذا الحكم لمن لم يكن من اهل مكة، ولا حاضراً فيها وهو من كان بينه وبين مكة، اكثر من اثني عشر ميلا من كل جانب، وذهب علماء الامامية، ان حج التمتع، هو فرض وحكم للبعيد عن مكة، ولا يجوز للبعيد عن مكة ان يحج حج القرآن والافراد، وان حج القرآن والافراد فريضة لأهل مكة ونواحيها.

«واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب».

---

١. أنوار الوسائل - موسوعة الخاقانية (رقم ٢) - ج٩ - كتاب الحج - الطبعة الجديدة.

الاتجاه الفلسفي

ان الانسان في نفسه الناطقة[١]، هو مثال الله في ارضه وهذه النفس عند ما خلقها الله مع البدن، لها شؤون، فقد جعلها مفطورة على الخير والصلاح، فقد تكمل عند التوجه إلى الحق والعمل الصالح، وهي على مراتب ومنازل كما اشرنا إلى ذلك في البحوث السابقة.

ورب نفس تقبل الخير بأولّ مراتبه، ولكن ليس لها سعة روحية بان تقبل باكثر من ذلك، ورب نفس فيها سعة وتوجّه من الخير باكثر من ذلك، وعندها تتوجه نفسه إلى الخير وان لقى نوائب ومصائب، فيخرج هذا الشخص من عالم المادة إلى عالم التجرد النفسي.

وقد تبلغ بالنفوس الكاملة، ان لا توجه لها عملا وعقيدة، الا إلى الله، حتى لو اوذوا في الله تجد العفو والصفح من هؤلاء، لا يجازون مسيئاً، ولايأخذون نكالا ولا يقتلون نفساً، ولا يزاحمون احداً، هذه حالات الايمان ومنازل التقوى.

وعلى العكس من ذلك منازل الفسق والكفر، فرب فاسق او كافر لا يهتدي ولكن لو توجه اليه الخطاب وباشره المصلح، توجهت نفسه إلى الخير والعمل الصالح، واقبلت نفسه بتمام الاقبال، على الخير والهداية.

وقد تكون بعض النفوس بعيدة عن الهداية ولكن يحتاج من رجال الاصلاح هدايتهم بشتى الطرق لان نفوس هؤلاء قابلة للهداية، ولكن إلى امد بعيد، وقد تكون بعض النفوس، لا يمكن ان تهتدي او ترعوي عن غيها، مع علمها بالحقائق وتوجهها إلى الواقع، لغلبة الشقاء والخبث الباطني فينتقل من معصية إلى اخرى ومن كفر إلى كفر ومن جريمة إلى جريمة هكذا نزعات النفوس، وتوجهها إلى الخير والشر.

وانت إذا امعنت النظر إلى هذه الآيات، من قتال المشركين وقتل دابر الكافرين، وسير عباد الله الصالحين معهم تجد ذلك على انحاء، فرب رجل لا يترك حقه من القتل، فجوز الله له ان يأخذ بحقه، ورب رجل هو اعلى منزلة من ذلك فيعفو وان قتل منه احد.

وقد حرض الله المؤمنين على العفو، وجعل منزلتهم، اعلى ممن اخذ حقه في القتل، وانه المؤمن المتقي ولا سيما إذاكان في الدرجة العالية من الايمان ان يقتل دابر الكافرين الذين يسعون في الأرض فساداً، ويلقون الفتن والذم للشريعة المقدسة، ويصرحون بان هذا

---

١. ذكر النفس الناطقة هي لشدة علاقتها برب النفوس والعقول واما الحيوانية الناطقية وهما من أجزاء الماهيات وجزئياتها فهي من التحليلات التوليفية في عالم المفهوم وليس لها واقعية إلا بالمقيد لا ذات القيد (حفيده محمد طاهر).

الدين، دين فتك وهتك، وليس بدين مروة واحسان فان هؤلاء من الكفرة، اشد ممن قتل بعض المسلمين او المؤمنين لانه يلقى الجذور المبعدة عن الاسلام، والمفترين على الدين بما ليس فيه، فبدلوا الرأفة والرحمة الاسلامية بضدها من الفتك بين الناس والجور عليهم.

وان الآيات هنا لا تخفى على من له ذوق سليم وفكرة مستقيمة، فيجد الآيات تقابل الايمان بالكفر، وتقابل مراتب الايمان بمراتب الكفر، وان كل مرتبة من الايمان، قد تقصر عن المرتبة التي هي اكمل منها، فان للاولياء درجات وللابرار منازل تختلف بحسب مراتب شأنهم.

فالقرآن الكريم، يلفت نظر القارىء، والمتوجه إلى الحق، إلى مراتب الصلاح ودرجاته، وإلى مراتب الكفر والشقاوة، ليعرف الانسان في هذه الحياة كيف يسير وانه لو سار بالعفو والصفح عن المسيء كان افضل، واعلى روحاً ومقاماً، ممن اخذ بالمقاصة واستوفى حقه، ومن ترفعت نفسه عن ذلك،كان من عباد الله الابرار.

واجمالا ان الآيات، تنظر إلى هدف الفطرة، وان الاسلام جاء على طبقها، واظهر فضائل النفس للمكلفين، وان الفطرة تقضي، ان من اراد اثبات الشرك على وجه الأرض، او الفتنة بتبديل الشريعة ونسبتها إلى الظلم والجور، فهو مما لابد ان يقضي عليه ويجاهد المسلم المشرك، في التوجه إلى هذا الهدف من اثبات الشرك على وجه الأرض، وتبديل الاسلام إلى قانون الجور والعدوان، فاذا لم يقضِ الاسلام على هذين الاتجاهين، ذهبت حقيقة التوحيد والناموس الإلّهي وانما يعامل الكافر كالكتابيين، او من يريد الحق، وان كان كافراً إلى جهات اخرى، من السلم، او المفاهمة على الحق، وكما توجهت الآيات إلى سحق الشرك وان لا يعبد غير الله توجهت إلى هدف آخر وهو رفع الكفر والشرك بالايمان والتقوى.

وان كل مرحلة ومرتبة في منتهى الايمان تقابل منتهى الكفر، وكل مرتبة ثانية اقل منها تقابل مرتبة من الكفر، وهكذا في بقية المراتب، فان كل مرتبة من الايمان تقابل مرتبة من الكفر.

فالآيات الكريمة ابدت التقابل، بين الايمان والكفر، على وجه يتضح للقارىء والباحث، ان كل مرتبة من الكفر تقابل مرتبة من الايمان وتعاندها، فلابد ان يقابل بالسلب

الكامل والاعدام التامّة[١] ، والا لاصبحت رسالات السماء وما جاء به الانبياء والاولياء الا من قبيل الاشكال والاقيسة، التي لا تنتج نتيجة صحيحة، وان الله أجلّ شأنا ان يهمل هذه الجهة، مما لو بقت لقضت على كل دين.

وهناك تعرضت الآيات، تقابل المثل بالمثل وحرمة القتال في الاشهر الحرم الا إذا اعتدى المشركون بذلك.

ثم تعرضت الآيات إلى اتمام الحج، وانه إذا احصر الانسان، فله طريق إلى التخلص بما بيّنته الآيات الكريمة وقد لوحت الآيات هنا ان التوجه والتكليف يأتي على مراحل، فإذا لم يتم الهدف الأوّل والغاية القصوى توجه الهدف الثاني، لان الميسور لا يسقط بالمعسور، وان مراتب المصالح الخفية على العباد، تكشفها الاوامر الشرعية، وتحفظها الخطابات الالهية، وتفيد ان نفسية المؤمن والتوجه إليه لا ينقطع بمرحلة واحدة، بل ينتقل الايمان وتوجه روح المؤمن إلى المراتب الاخرى من المصالح الالهية التي بها حفظ نشأة المؤمن في الدارين.

وان ارتباط هذه النشأة من عباداتها واخلاقها بالنشأة الاخرى ومقاماتها، تشبه ارتباط العلة بالمعلول، والمقدمات بالنتائج، حتى يحصل المؤمن طرق السلوك كلها والسير إلى ذات الحق بشؤونه واطواره.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام واصحابه

في مجمع البيان نزلت هذه الآية الشريفة في سبب رجل من الصحابة، قتل رجلا من الكفار في الشهر الحرام، فعابوا المؤمنين بذلك فبيّن الله سبحانه ان الفتنة في الدين وهو الشرك اعظم من قتل المشركين في الشهر الحرام وان كان غير جائز.

وفي الدر المنثور في قوله تعالى: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة»، الآية بطرق عن قتادة قال: وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة اي شرك، ويكون الدين لله قال حتى يقال لا اله الا الله عليها قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله .

وفي مجمع البيان، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة قال: اي شرك، وهو المروي عن

١ . التقابل بين مراتب الكفر والايمان انما هو بلحاظ تقابلهما الوارد على المتعلق لا اصل الكفر والايمان فلا تعدد ربَي بين الظلمات والنور ولا بين العدم والوجود ولا الظل ولا الحرور وانما النظر الى اختلاف صورها وجهاتها خارجاً واعتباراً (حفيده محمّد طاهر).

ابي عبدالله عليه السلام .

وفي المجمع في قوله تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص المراد بها ههنا ذو القعدة وهو شهر الصدعام الحديبية (والحرمات قصاص) قال مجاهد لان قريشا فخرت بردها رسول الله صلى الله عليه وآله عام الحديبية محرماً في ذي القعدة عن البلد الحرام فادخله الله مكة في العام المقبل فقضى عمرته، وروى عن ابن عباس وابي جعفر الباقر عليه السلام مثله.

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام) عن العلاء ابن الفضيل، قال سألته عن المشركين ابتدأهم المسلمون بالقتال في الشهر الحرام قال إذا كان المشركون ابتدؤهم باستحلالهم، رأىٰ المسلمون بما انهم يظهرون عليهم فيه، وذلك قوله: «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص» وفي الدر المنثور عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يغزو في الشهر الحرام حتى يغزى.

في الكافي عن معاوية بن عمار قال سألت ابا عبد الله عن رجل قتل رجلاً في الحل ثم دخل الحرم، فقال عليه السلام لا يقتل ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد قال قلت: فما تقول في رجل قتل في الحرم او سرق قال عليه السلام يقام عليه الحد في الحرم لانه لم يرَ للحرم حرمة وقد قال الله تعالى: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم».

وفي العياشي عن حماد عن ابي عبد الله عليه السلام قال لو ان رجلا انفق ما في يديه في سبيل الله ما كان احسن ولا اوفق، اليس الله يقول: «ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين» يعني المتصدقين.

والرواية ظاهرة في ان انفاق جميع المال، مما هو تهلكة للنفس، وجعل الانسان في الاضطرار إلى المال والسؤال من غيره، وهذا مما لا يرضى الله به، وان الشارع المقدس في بياناته يصرح بان الانسان يتعين عليه الكسب وسد حاجته وعدم الاسراف والتبذير، ولا يجوز له بذل ماله جميعاً، لان احتياجات الانسان في الدنيا كثيرة إلى المال والتكسب.

وفي العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى (واتموا الحج والعمرة لله) قال: هما مفروضان، وان الفرض في الرواية يشمل الواجب والمستحب، وان ذهب بعض الفقهاء إلى وجوب العمرة مدة العمر كالحج، ومن اراد تفصيل ذلك فليراجع (انوار الوسائل، وغيرها من الكتب الفقهية).

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام قالوا سألناهما عن قوله «واتموا الحج والعمرة لله»، قالا فان تمام الحج ان لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل.

في الكافي عن الصادق عليه السلام في المتمتع لا يجد الشاة، قال: يصوم قبل التروية بيوم التروية ويوم عرفة، قيل فانه قدم يوم الترويه، قال يصوم ثلاثة ايام بعد التشريق قيل لم يقم عليه جماله، قال يصوم يوم الحصبة، وبعده يومين، قيل وما الحصبة قال يوم نفره، قيل يصوم وهو مسافر، قال: نعم اليس هو يوم عرفة مسافر، انا اهل بيت نقول بذلك، يقول الله تعالى (فصيام ثلاثة ايام في الحج) يقول في ذي الحجة.

وفي العياشي عن حماد بن عثمان عن ابي عبد الله عليه السلام في حاضري المسجد الحرام قال دون المواقيت إلى مكة، فهم من حاضري المسجد الحرام، وليس لهم متعة.

وفي العياشي ايضا عن سعيد الاعرج عنه عليه السلام قال ليس لاهل سرف ولا لاهل مرة ولا لاهل مكة متعة يقول الله تعالى (ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام) [١].

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر و لايحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق»[٢].

«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير»[٣].

«ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها اربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن انفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين»[٤].

«الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»[٥].

---

١. سرف ككتف موضع على ستة اميال من مكة وقيل سبعة وتسعة واثني عشر ومر بفتح الميم موضع بينه وبين مكة خمسة اميال.
٢. التوبة آية ٢٩.
٣. الانفال آية ٣٩.
٤. التوبة آية ٣٦.
٥. آل عمران آية ١٣٤.

«جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وان الله بكل شيء عليم»[١].

«هم الذين كفرو وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا ان يبلغ محله»[٢].

«لكل امة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الامر وادع إلى سبيل ربك انك لعلى هدى مستقيم»[٣].

الاعجاز (آية ١٩٧ - ٢٠٢)

﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللّهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

ان الله سبحانه وتعالى ألفت نظر المسلمين إلى أحكامه وعباداته، وان الحج، وهو القصد المخصوص إلى بيته، في اشهر معلومات، وايام من السنة، من شهر شوال وذي القعدة والعشر الاوائل من شهر ذي الحجة او التسع، وانه فيما عدا ذلك فهو محل احكام العمرة.

فاذا الزم نفسه المكلف بهذه الاشهر المعلومات من انها اوقات الحج، فيتعين عليها ان يعمل على وفق احكام تلك الايام، فانه لا رفث ولا فسوق فيها، والرفث اما كناية عن الجماع، واما اسم لاسبابه ودواعيه، واما الجدال، فهو المناقشة وتغليظ الكلام من بعض على بعض، واخذ الشدة في الخطاب حتى يلزم من ذلك الغضب بين المتجادلين.

واما الفسوق، فهو ارتكاب المعاصي، وظاهر اطلاق الآية، الشمول لمطلق المعاصي من الكبائر والصغائر، لا لخصوص الكبائر.

---

١. المائدة آية ٩٧.
٢. الفتح آية ٢٥.
٣. الحج آية ٦٧.

وان الآية الكريمة وغيرها من آيات الحج، وان فسرت بمعاصي خاصة، او جدال خاص، فمن باب الانطباق على المورد لا تخصيصاً له، ويراد به العموم في مطلق الفسوق وما يعد جدلا.

وقد وجهت الآية العبد، إلى ان الحج عبادة من اعلى المراتب العبادية، وفيه التجريد عن جميع ملاذ الدنيا وشهواتها والرئاسة، وان كل ذلك يتنافى مع التجرد الروحي والخلوص لله في ذلك العمل.

فان الحج كما اشرنا اليه سابقا، ليس هو خلع اللباس والتباعد عن النساء والشهوات ونحو ذلك، بل يقوم بأمرين مقام التخلية ومقام التحلية.

اما مقام التخلية، هو ان يتجرد العبد في تلك الايام التي حج بها، عن كل لذة وشهوة، من حب النساء، وملاحظة الارباح، والمعاملات في الاموال، مما توجب صد الانسان، من التوجه إلى الله، وإذا حصل له مقام التخلية، اراد الله منه تعالى مقام التحلية، بان يجرّد نفسه، ويحصل له الاتصال التام مع الله تعالى.

وان مقام التخلية هنا عن اللباس حتى المخيط وعن الشهوة في النساء والاموال وعن السيطرة على العباد مقدمة للتجاذب الروحي لله تعالى، فكانه قد تعرى عن الدنيا واهلها، وصار يشبه المؤمن في يوم القيامة من التوجه إلى الله.

(وما تفعلوا من خير يعلمه الله...) فقد وجه الله عبده للهدف الاقصى ورغبة في فعل الخيرات، بان الله تعالى يعلم جميع اعماله من خير ويجازيه بافضل الجزاء.

وهذا الاخبار من الله لعباده مما يوجب لهم ان يسارعوا في فعل الخيرات، والمسابقة إلى الاعمال الصالحة، ويكون ذلك دافعاً لهم للتوجه إلى كل خير.

ثم الفت نظر عباده، ان خير الزاد الذي يحفظ الانسان حياته في نشأة الدنيا والآخرة، هو التزود والاكثار من الاعمال الصالحة، والوقاية من الاخطار بالتقوى وان من اتقى هو من ذوي الالباب والافكار المستقيمة.

(ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم....)

ثم ان الآيات، تتوجه، إلى بيان اعمال الحج، فصرحت الآية،ان لا جناح عليكم،ان تتوجهوا إلى فضل الله بالاعمال الصالحة، والاعمال التي تأخذ بايديكم إلى اوج الكمال، فانكم تقيمون العبادة في عرفات،فتقفون في ذلك الموضع من الصحراء من عرفات،

والمراد من الوقوف الحضور في ذلك الموضع، لا الوقوف على القدمين.

فاذا افضتم وخرجتم من عرفات، فأتوا المشعر الحرام واذكروا الله حيث هداكم إلى هذه الاعمال، وانكم قبل بعثة هذا الرسول، وبيان احكام الحج، كنتم من الضالين عن طريق الحق والاخذ باحكام الله، وكنتم إذاتوجهتم إلى البيت وقصدتموه القيتم مؤنة المعاش على الناس واصبحتم كلا عليهم. وان خير الزاد التقوى بحفظ النشأتين من التكسب في الدنيا على الوجه الحلال، وإلى التوجه بالتقوى للنشأة الاخرة، فخير الزاد في الدنيا والآخرة، هي التقوى والعمل بصلاح الدنيا والآخرة.

وعند اتمام الوقوف بالمشعر، افيضوا من حيث افاض الناس، وتوجهوا من المزدلفة إلى منى. وكان من عقائد العرب في تلك العصور، انهم إذا توجهوا إلى بيت الله، لا يجوز لهم الكسب ولا التجارات ويعدون ذلك منافيا للطاعة والعبادة، فاظهر الله لهم ان لا مانع من ذلك، بقوله تعالى: «ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم».

وان لا مانع بين التكسب والتجارات وبين اعمال الحج، التي هي عين الطاعة والخلوص.

وقد تكثرت الاخبار، وتواترت من طرقنا وطرق العامة، عن رسول الله ﷺ من جواز التجارة وصحة البيع والشراء والتبادل في المعاملات والارباح، وانه قد اشار الله إلى ذلك بهذه الآية (ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم).

وليست التجارة عند التأمل الا طلب الرزق من الله تعالى، وعدم الحاجة والسؤال.

وهذا مما يرغب الانسان إلى العمل الصالح ولا ينافي اعمال الحج، والتوجه إلى الله، وعبرت الآية عنه بان تبتغوا فضلا من ربكم.

وعند ذلك يشعر المكلف، بشعور وتوجيه الهي ان التجارة والتكسب نوع عبادة من العبادات، فهو متوجه إلى عبادة الحج ولامتثال امر الله، وطلب رزقه وعدم الحاجة إلى السؤال.

وان اهم المواقف هو الموقف بعرفات، وقد ذهب الامامية والعامة ان ابتداءَه من الزوال والانتهاء إلى الغروب، على مسلك الامامية، او ذهاب القرص عند العامة، ولم يخالف في ذلك الا احمد بن حنبل، فانه جوّز الوقوف، ولو في الضحى، او في الصبح، وسيأتي بيان ذلك.

وان المسلم عندما يخطر في ذهنه، هذه المشاعر ومواقف العبادة، من عرفات والمشعر ومنى، ثم ينظر إلى حالته في الجاهلية، من عبادة الاصنام، وان لله مصاهرة مع الجن، وخصوصيات مع الملائكة، فيقيس هذا الموقف الذي يمثل طاعة الله والخلوص اليه، وترك ما كان عليه من الخرافات واسطورات الجاهلية يشكر الله لما دعاه اليه، والقيام بعبادته وانه الانسان الكامل، بعد ماكان شبيها بالحيوانات.

وقد نظّم الاسلام حياة العرب والامم باحسن نظام، لا فوضى فيه ولا جاهلية ولا تنازع، ولا تشاحن كما هي عادة العرب وسائر الامم في اطوارها قبل الاسلام وان الله يذّكر المسلمين حالة جاهليتهم، واتمام نعمته عليهم بقانون العدالة والاسلام وتنظيم الحياة نظاماً رفيعاً، وأخوّة صادقة بين المسلمين، واذكروا الله جزاء وشكراً، على ما هداكم عن ذلك الضلال، وقريشا كانوا وكل من كان على سيرتهم الحمس يقفون بالمزدلفة والمشعر وسائر العرب يقفون بعرفات، وترى قريش واتباعهم، انهم أجلّ من سائر الامم في الوقوف بالمزدلفة، وهي من حدود مكة في نظرهم بخلاف سائر الامم، فان وقوفهم خارج عن هذه الحدود ويرون الميزة لهم على العرب وسائر الامم بهذا الوقوف.

ولما جاء القانون الاسلامي، أمر الله نبيه ﷺ ان يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، لان الاسلام ينفي الطبقات والقوميات، ويجعل الناس صنفاً واحداً، واستغفروا الله ايها المسلمون، من جرائم الجاهلية وشحنائها فان دين الاسلام دين المساواة من غير اختلاف في القوميات والبيئآت.

(فإذا قضيتم مناسككم... الخ) واعلموا ايها المسلمون انكم إذاقضيتم مناسككم واعمال الحج، فاذكروا الله، وان تذكروه كما يذكر الولد والده تلويحا على شدة الذكر وتأكده. ان الذكر كلما جاء في القرآن والادعية، ليس مقصوراً على اللفظ، وانما اللفظ احد المصاديق، حتى لو وصف بالذكر الكثير، فيراد مطلق الذكر سواء كان قلبيا، او لفظياً، ولا مانع من اتصاف وجود الذكر القلبي واللفظي فى الشدة والقوة كما إذا كان التوجّه القلبي إلى الله في غاية التوجّه والالحاح في الذكر اللفظي ايضاً، فإنّه نوع من الشدة.

ثم أفهم البشر ان ذكر الله فوق ذلك،فان هذا الذكر يبتني على المجانسة والمماثلة.

اما ذكر الله فيبتني على تعلق المخلوقات بالخالق وانها صرف الربط بوجوده تعالى، ولا نسبة بين الارتباطين وانما عبر القرآن الكريم بان ارتباطه، كأرتباط الوالدين او اشد تنزيلا

على ما في اذهان الناس من شدة العلاقة بين الوالد والولد، والا فعند الحقيقة، لا نسبة في الارتباط بين الوالد والولد، وبين ارتباط العبد بربه، واي شباهة بينهما.

ولكن القرآن الكريم كثيراً ما يتمثل الواقع بما يتناسب مع اذهان الناس، ومع ذلك يقيم الدلائل والتلويحات على اختلاف المقامين، بين الوالد والولد، وبين الله وعباده وهذا التشبيه ليس خاصاً بالمورد، بل في جميع الموارد بان تعلق العبد بربه لا يقاس بتعلق العباد بعضهم ببعض او تعلق الارحام والاولاد بالآباء.

ثم ان الآيات الكريمة، بيّنت ان الناس بعضهم يقول ربنا آتنا في الدنيا، وليس له في الآخرة من عمل صالح يثاب عليه، وبعضهم يقول ويطلب من الله ان يأتيه في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة ويطلب من الله دفع النار عنه، وقد فرق الله سبحانه وتعالى، بين الطائفتين ان الطائفة الثانية لها نصيب وحظ مماكتسبت بخلاف الطائفة الاولى حيث لا نصيب لها اصلا في الآخرة.

فالآيات الكريمة توجه العبد في الدعاء إلى عالم التجرد، وتلفت نظر الناس ان الدعاء إلى الله عين الربط بالله تعالى، والفناء في ذاته بخلاف الدعاء في حق الآباء فانها روابط دنيوية، وتجانس فى عالم الطبيعة ولا يرتبط احدهما بالاخر، فأبان الله واظهر غفلة البشر عن حقيقة الدعاء، وان كانت في الدعاء هو الوجه الثاني من التوجه إلى الله، وخلع جميع الحيثيات ما عدا ذاته المقدسة.

وان الاسلام يجمع بين نشأة الدنيا والآخرة فيحرضه على التكسب والتجارات والمبادلات، ويحرضه على النشأة الاخرة.

فالاسلام جمع النشأتين، الا انه يريد ان يجعل نشأة الدنيا بما فيها من المنافع والكسب طريقا إلى النشأة الاخرة، وعبوراً من منافع الدنيا إلى منافع الآخرة.

وقد جاءت الآية من قوله تعالى (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) توجيها للمكلفين ان وجودكم واعمالكم معلومة لله بعلم حضوري، من حضور المعلول عند اعلى مراتب العلة وانه لاتخفى عليه خافية، وانه تعالى حثكم على العلم للعمل، فالعلم طريق إلى الواقع ومقدمة لتحصيل العمل الصالح، والا كان العلم للانسان جريمة من اعظم الجرائم وسيئة من اعظم السيئآت.

وان قوله تعالى: «ليس عليكم جناح»، فانه كان من غرائز العرب والجاهلية ان من حج بيت

الله، لا يجوز له التكسب، اذ الحج عبادة خالصة لله، مقربة للعبد يوم القيمة إلى الله، فكيف يكون القاصد إلى بيت الله متكسبا ومتوجها إلى الدنيا فالفت الله نظر العبد إلى فضله، وان الدنيا لا تنافي الشعائر الدينية، وان طلب الدنيا للعاقل الرشيد وسيلة للآخرة، ومن هنا فسرت السنة الشريفة البيع بالابتغاء من الفضل.

وقد توجهت الآية من قوله، فاذا افضتم، والافاضة توجه جماعة من مكان إلى آخر، وفي الآية الكريمة تلويح بان عمل الحج اوله الوقوف بعرفات، ثم التوجه إلى الوقوف بالمشعر والمزدلفة، وانه يتعين عليكم ان تذكروا الله بما يليق بشأنه من هدايته لكم، بعد أن كنتم أمّة ضالّة لا تعرف من مراسم الحق واليقين شيئاً.

ثم نبّه على غلط الجاهلية، حيث كانت قريش واتباعهم يرون المشعر وهو محلّ الوقوف بعرفات هو وظيفة المنحطّين من الناس، وحيث أنّهم أعلى مراتب الانسانية في عقيدتهم فموقفهم اللائق بهم هو المشعر، فاظهر الله غلطهم، وان يفيضوا حيث افاض الناس من عرفات.

وان الافاضة في هذه العبادة مرتبة من عرفات إلى المشعر، ثم إلى منى، فان لكل عبادة شؤون من حيث التقديم والتأخير.

وان الله اظهر للمشركين من العرب خطأهم حيث كانوا بعد الوقوف بالمشعر يأتون إلى منى؛ فيتفاخرون بانسابهم وقبائلهم وشجاعتهم، وانتقام بعضهم من بعض فوجههم الله إلى ان هذا الموقف موقف عبادة، وان يكون اشد من موقف الطاعة لابائكم. حيث ان العرب من عادتهم، اطاعة الشيخ الكبير، ولا سيما إذاكان والداً.

فالفت نظرهم ان الروابط الجنسية بين الاباء والابناء ليس كرابطة الخالق بالمخلوقين، لانها رابطة ايجاد واصدار، فالفتهم إلى الربط الحقيقي والاتجاه من الخلق إلى الخالق، حيث ان الاتجاه من الخالق اتجاه العلة بالمعلول والاحاطة بكل موجود.

ثم ابانت الآية من قوله تعالى «ربنا آتنا في الدنيا الآية» ان الناس على نوعين الأوّل: هم الذين يتوجهون إلى الدنيا ولا يلتفتون الا إلى منافعهم، والنوع الثاني: من يطلب ما اراده الله من خلقه من العمل الصالح والتكسب الصحيح في الدنيا من غير معاملة باطلة، على اختلاف مراتب التقوى والايمان.

ان الدنيا طريق للبقاء في الآخرة، ولا استقرار لها ولا بقاء، فمن ميّزها وعرفها ولم

تغلب عليه الشهوات والميول والاغراض توجه إلى طلب الحسنة في الدنيا والآخرة، اما طلب الحسنة في الدنيا، فقد جاءت الروايات، انه الرزق والعمل الحسن والزوجة الصالحة إلى غير ذلك وهذا من باب التطبيق كما مر منا غير مرة، والا فالحسنة في الدنيا اوسع من ذلك، واما الحسنة في الآخرة، هي الوصول إلى اعلى الدرجات، ومعاشرة الانبياء والابرار من عباده.

وان الله لسريع الحساب من خلقه، وان سريع الحساب من اسمائه، واي حساب اسرع، من حضور المكلفين واعمالهم عند الله من خير او شر، فهو سريع من غير حاجة إلى المقدمات وبيان الحساب.

الاعجاز (آية ٢٠٣ - ٢١٠)

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنْ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

قد نبّه الله العباد، ان العبادة في ايام معدودات، من المكث في عرفات والمشعر وايام منى، وبهذا البيان والشعور الإلّهي في اعمال الحج انقطعت بذور الجاهلية، والمراد بأيّام معدودات هي ايام التشريق، وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، من شهر ذي الحجة الحرام، ولا يجب على الحاج المبيت بمنى ليلة الثالث عشر، ولابد ان يخرج على هذا في اليوم الثاني عشر بعد الزوال، وقبل المغيب، بشرط ان يكون قد اتّقى النساء والصيد وهو محرم.

واطلاق الحج ثلاث مرات في الآيات الكريمة، يراد به زمان الحج اولا، واعماله ثانيا

والعمل والمكان ثالثاً، وهذا نوع الفات نظر للبشر، بمكانة الحج، واعماله للمسلمين.

وإذا شرع في الحج وجب عليه الاتمام، كما صرحت به الآية الكريمة: وان كان العمل بنفسه مستحباً، فمن تعجّل في يومين، او من تأخر فلا اثم عليه.

والمراد ان من أتّم عمل حجه، فهو مغفوراً له سواء تعجّل في يومين او تأخر، وان الآية الكريمة ليست في بيان مقام التخيير، وانما يراد نفس التقدم والتأخر للناسك. ومن الناس من يعجبك قوله: «في الحياة الدنيا»؛ الآية؛ قد ينظر الانسان إلى بعض النفوس والاشخاص، فتراه يعجبك في قوله، لانه اخذ ظاهر الصلاح شعاراً له، وتمسك ظاهراً باقوال وافعال الصالحين من عباده، ومع ذلك فانه يشهد الله والناس ان الواقع وما انطوت عليه نفسه خلاف مايتظاهر به بين الناس، وانه ممن تكامل خلقه الديني واخلاقه النفسية، وهو من أشّد الناس عداوة للخير، وبغضا للصفات الفاضلة والاخلاق الكاملة، فيضمر الخبث، ويظهر الصلاح، وإذاتمكن من النفوس وقدر على الانتقام في الخلق سعى في الأرض، ليحقق منتهى الانتقام وافساد ما هو الصلاح، وإذاقدر على اكثر من ذلك، اهلك ما عليه معاش البشرية، من الزراعة والاشجار، واهلك كل حرث يمكن ان يستفيد البشرية منه، واهلك الاجيال والطبقات بسفك الدماء وقطع التناسل، وان الله ليبغض هذه الاعمال وهذه الصفات الخبيثة، لانها تنافي رحمته وفضله، وإذا وعظه الواعظ بالتقوى، اخذته العزة والتكبر والعظمة لنفسه، والتزم بالاثم والعقوبة، ولم تنخفض نفسه إلى الواقع من العقيدة والعمل الصالح وليس جزاؤه الا جهنم وبئس القرار.

والقسم الآخر ان يبيع نفسه تضحية لله واقامة دينه، وما يطلب الا مرضاة الله والقيام بالوظيفة الشرعية وهؤلاء القسم من العباد، هم محل رحمة الله ولطفه، وقد صرّح بذلك بقوله والله رؤوف بالعباد، وليس النظرة في الآيتين، إلى بيان خبث بعض النفوس، وانقياد بعضها إلى الحق، وانما جاءت الآيتان للتنبيه لمعنى وراء ذلك، حيث قابلية بعض النفوس للشر والسيئآت، وقابلية بعضها للخير والحسنات امر فطري في اذهان البشر وانما جاءت الآيتان تمهيداً وتقريراً للآيات الاتية، والمقصود من الآية وما قبلها هو ظهور الافعال على الصفات النفسية وتكاملها في الخير والشر، وقد نزلت آية من يشري نفسه... في حق الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام كما صرح به الرازي والثعلبي وصاحب ينابيع المودة والحاكم في المستدرك واحمد بن حنبل في مسنده...وان كان عمومها يفيد كل من كان من

الاولياء قد باع نفسه في مرضاة الله (يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين).

فان الله تعالى بعد ما قسم البشرية على قسمين، قسم يرون الحق ويرتكبون خلافه، وقسم يتقبل الحق، فعبر عنه الله بيا أيّها الذين آمنوا ادخلوا في السلم والاستسلام للحق، فان دين الاسلام دين الاستسلام للعدل والاحسان، دين السلم والمساواة، دين يوصل الانسان إلى افضل مراتب الكمال ويحقق له الانسانيّة الكاملة.

فقد ألغى الاسلام القوميات والطبقات، وألغى الثروات على وجهٍ غير شرعي كل ذلك ليتساوى العدل بين الامم، على وجه هذه الكرة، وحذّرهم تعالى ان لايتبعوا سير الشياطين، من الإغراء والنفاق والتشاجر وسفك الدماء، وعدم الاستقرار على وجه الأرض واستهلاك الضعيف، وتمرّد القوى، فان الشيطان عدّو لكل مؤمن وأنّه ليدفعه إلى الشقاء ودخول النار.

والفت نظر كل مسلم، ان الانسان، عندما تقام عليه الحجة، وبيان التكاليف التي عليه «فان الله عزيز حكيم» يجازيه على طبق ما عمل، وانه من تمام عزته وحكمته ان يتوجه على هذا القسم من الناس، العذاب كالظلل والغمام المزعج، ويحيط بهم رعد العذاب ولا يمكن لهم التخلص عن ذلك جزاء لاعمالهم، وحكم عليهم بقضاء الله تعالى وامره والجزاء بما فعلوا، فان زللتم من بعد ما بيّنّا لكم طرق الهداية والوصول إلى اعلى المنازل، من بعد ما جاءتكم البينات، فاعلموا ان الله عزيز وحكيم.

وهذه العبارة ابلغ مما لو كانت قد بيّنت العقوبة فان بيان عقوبة المعاقب، وانه عزيز فوق كل حد،وحكيم بتمام الحكمة، فاذا اقتضت حكمته وعظمة عزّه بان يعاقب المسيء بما يستحقه واقعاً، وهذا من مزايا القرآن الكريم، انه في مقام التهديد، وفي مقام الرحمة للعباد لايذكر صورة العقاب، لانه يجوز ان تكون العقوبة والمثوبة اعظم مما في ذهن العامل للحسنات والسيئآت.

ان الله لم يذكر لهم زمان العقوبة ولا كميتها ومقدارها وانما جعل حالتهم، كحالة من هو واقف للاخطار، وهذا التعبير بالاستفهام الانكاري يظهر موقفهم الخطير، الذي لا يعلم كيفية عقابه لهم، ولا مقدار ذلك العذاب، فيترك الله ذلك، ولم يعين لهم، ليقع في نفوسهم الاضطراب، وتكون غير آمنة في كل وقت، وان عقابهم يأتيهم كالظلل والرعد، بما لا يخطر

في بالهم.

وان هذه الآية، من بيان العقوبة والتهديد على الوجه الاتم، مصداق لما تقدم من قوله تعالى: «والله عزيز حكيم»،فوق كل عزيز وحكيم،ومن تمام عزته ورحمته ان يعاقبهم بما يستحقونه واقعاً وقضى الامر وإلى الله ترجع الأمور.

بيان للآيات الكريمة على وجه الاجمال

ان الآيات الاتية، هي في مقام بيان العبادة الحقيقة، وان العبادة لها توجه ذكريّ ولها توجه حقيقي، والتوجه الحقيقي، هو حقيقة العبادة، وان الثواب والدرجات الرفيعة تتبع العبادة الحقيقية، فالصلاة او الحج، او الزكاة او الخمس تارة يأتي بهم المكلف بما انه وظيفة شرعية لامر المولى بها.

وهذه العبادة تسد على المكلفين ابواب النيران واما العبادة الحقيقية، وهي المقصودة في العبادة، فتأتي على مراحل، مرحلة للشكر له تعالى، واخرى للتوكل عليه، وثالثاً للشوق اليه، او لمحبته، او التفاني في ذاته تعالى، فان للعبادة درجات ومراحل وآخر مرحلة، هو ان يبيع الانسان نفسه، ويضحيها لا لغاية تعود اليه، من جنة، او دفع نار، ولا لعنوان الشوق اليه او المحبة او التوكل والتفويض، بل هي فوق كل ذلك، هي طلب مرضاته، وامتثاله لاهليته، فلا يرى غير مرضاته تعالى شيئاً يخطر بباله، ولا يرى العمل الذي يقوم به لاي غاية من الغايات، ولا يصل إلى هذه المرحلة، الا عبد الله الحقيقي، الذى اضمحلت في نظره الاشياء، وتفانت في فكره جميع الحيثيات والرغبات، وكان توجهه اليه تعالى، لانه الاهل للعبادة والمولى الحقيقي، فلابد ان تطلب مرضاته، ويرغب في رضاه، وان الله تعالى راض بذاته بتمام الرضاء، بالغاً منتهى الاشراق والتجلّي، فاذا وصل العبد مقام رضاه، وهو عين ذاته، ومقام اشراقه وهو عين قدسه، فقد كان عبداً حقيقياً، وقد بلغ غاية العبادة والوصول إلى الحق.

والعباد الذين يعبدونه لا لغاية الجنة والنار، تختلف مراتبهم وقد تعرضت الآيات الشريفة، لاكمل مراتب العبودية.

ويقابل هذه العبادة وعباده الحقيقيون، عباد لا يتوقفون عن المنكر، ويحبون في الأرض الفساد والقتل، وابادة الحرث والنسل، وكلما تقدر عليه نفوسهم من السيئآت يرتكبونها، فهم دائماً في رغبة إلى الشرك في الله، والاعمال الباطلة، وقديكون الامر ليس

كذلك، وان كانوا اشقياء فتختلف مراتبهم في الشقاوة، كماتختلف مراتب الصالحين، في القرب منه تعالى، على حسب الاعمال واستعداد النفوس،وقد ينتهي الامر إلى الطاعة الذكرية والعبادة الصورّية فلكل من الطبقات درجة في القرب منه والبعد عنه تعالى.

الاتجاه الفلسفي

ان الحج في اشهر معلومة، من شوال وذي القعدة وتسعة او عشرة ايام من ذي الحجة الحرام على ما هو المعروف، والا فبعض علماء العامة، يرى مطلق ذي الحجة.

والحج له مظاهر، ان يترك الرفث، من مقاربة النساء ولمسهن، والشهوة بهن، والفسوق من مطلق المنكرات والجدال بانواعه، وله باطن وحقيقة، وليس مجرد هذه الافعال كافية في الحج الحقيقي، فان كلما تفعلونه من مظاهر الحج وحقيقته التي هي ربط العبد بربه واتجاههه باتجاه مخصوص فان الميزان والحقيقة التي يصل العبد بها إلى ربه، ويؤخذ بيده إلى الهدف الاقصى، ان يتزود بالتقوى لا مجرد الشعارات الظاهرية، فان العبودية لله هي ذلك الارتباط والفناء في ذات الله فان كل نعمة تنتهي وتفنى، ولا تفنى التقوى.

فان التقوى عند التأمل، هي روحية الانسان وتمام تكامله، لان الانسان لم يخلق بهيمة، ليأكل ويشرب، وانما خلق ليتمثل بالواجب، ويخرج عن نطاق الجسمية والطبيعة، إلى عالم الملائكة والارواح.

ثم نبه الله تعالى ذوي الالباب، ومن عنده المعارف الدينية والثقافة الاسلامية ان الميزان في الخلود، وبقاء النفس باوجها الكامل، هو التقوى، فهي الوقاية من كل شر، وهي الثروة في كل خير.

ثم الفت نظر من حج بيته تعالى، بان من حج في تلك المواقف وقصدها كان في نطاق واسع، وكان اهلاً لان يرد عليه فضل الله، واستعدت نفسه لعنوان الفضيلة.

ثم نبه الحجاج، ان عرفات، وهي الأرض الجبلية التي تعرفها ابراهيم، وآدم عليهما السلام من قبل،او تعارف آدم وحواء فيها، انها آخر المواقف من مواقف الحج، فليتوجهوا إلى المشعر،ثم إلى منى، ورمى الجمرات، وهذا هو السير الروحي والتهذيب النفسي، فان الوقوف بعرفات، ثم التوجه إلى المشعر ومنى، مما يجعل العبد، لا ربط بينه وبين احدا إلاّ

الله، فاراد الله البيان للناس، ان هذه المواقف وان كانت شعارات ظاهرية، وانتقالات الجسم من حالة إلى حالة ولكن روحها هو التجرد عن عالم المادة، والتوجّه اليه تعالى، بحيث يتخلّى الانسان عن ولده وماله، وزوجته واقاربه، ووطنه وقوميته.

ثم نبّه العباد على الذكر في المشعر الحرام، وليس المراد بالذكر اللساني والتعبير بالالفاظ، فان حقيقة الذكر هو توجه النفس إلى المبدء الاعلى، وفنائها في ذاته، ثم توجهه اليه بالاستغفار المعنوي والشعور القلبي، وعندما تنقضي المناسك والاعمال الواجبة،اذكروا الله ذكراً روحياً، وشعوراً واقعياً، كما تذكرون آباءكم وهذا التعبير جاء في القرآن، مناسباً لأفق البشرية وتقريباً لاذهانهم، وقد اشار إلى ذلك ان الذكر الحقيقي أشدّ من ذكر بعض افراد الطبيعة لغيرها، كذكر الاباء والاصدقاء، بان يكون الذكر،اشد من هذه المراحل ذكر ارتباط الوجود الذي لانفسية له في قبال الواجب بل ذكره له،عين الفناء في ذاته.

ولذا ان من توجه اليه تعالى، خلى ذهنه عن كل شيء، وتوجه ان نفسه صرف الفناء في ذات الحق، وصرف كونه رابطا لذاته تعالى[1].

ثم بيّن الله تعالى، في قوله: «فمن الناس من يقول» إلى آخره،ان بعضهم لا تصل نفسه إلى اوج الكمال،فيطلب من الله الحسنة في الدنيا فقط، وماله في الآخرة من نصيب ولازاد يتقوّم به في الآخرة.

وان بعض الناس، من يطلب الحسنة في الدنيا والآخرة وقد اوعده الله تعالى ان له في الدنيا نصيب ،وفي الآخرة النصيب الاوفر، والله سريع الحساب.

وان العمل كما اشرنا اليه، تارة يكون ذكرياً، وتارة يكون اتجاها إلى الحق تعالى، ولذا ورد ان الصلاة ان لم يقبل عليها المصلى، فلا ينال الثواب في الآخرة، وانما الصلاة الذكرية، تدفع عن العبد النار. دون الصلاة الحقيقية، فانها هي الصلاة الواقعية.

ولذا ورد، ان ليس لك من صلاتك، الا ما اقبلت عليه، وقد ختم الله الآية بانه سريع الحساب، الفا تالنظر المكلفين، ان جميع الاعمال تكون مشاهدة لهم، وليس هناك شيء اسرع من مشاهدة العاملين لاعمالهم.

ثم نبه الله تعالى من حج إلى بيته، ان يذكر الله في ايام معدودات، وهي الايام التي

---

١. ذكر عنوان الرابطية لا الربطية هو لاجل تصنيف البحث الى المجال الحكمي والفلسفي لا انه (قدس سره) لا يقول بالامكان الفقري (حفيده محمّد طاهر).

يحل بها الحاج في منى ومن تعجل في يومين او تأخر في يومين، فلا اثم عليه، لانه ادى ما عليه من الواجب، وان الكل من مؤمن وكافر وفاسق فالى الله يحشرون.

ثم بيّن الله تعالى في كتابه توجهات العبد،واهدافه في الحياة الدنيا والاخرة فان منهم من يعجبك قوله بلين الخطاب وحسن العبارات،ويشهد الله، على ان ما يظهره عين ما يضمره، وان ما يعمله عين مايعتقده،وهو اشد الناس خصاماً وعناداً للحق،واذاقدر وامكنته الدنيا سعى في الأرض،واوقع الافساد فيها، وهذا الشخص يبلغ به الحال فيالعناد مع الحق والشرائع، حتى يهلك الحرث ويبيد الأرض، بان لا ينتفع بها الناس، ويعدم النسل ايضاً، وان الله لا يحب الفساد والخراب في ارضه، ولا قتل النسل والاجيال، وانما خلق الانسان لعمران الدنيا وحياة نفسه، وماخلق الانسان ليكون نقمة على البشر وافساداً في الأرض، وإذا جاءته الموعظة من الواعظين اخذته العزة بالاثم والتكبر والطغيان، فجزاؤه جهنم وبئس المصير.

وان بعض الناس تكون نفسيته،على خلاف نفسية المشركين والكفار، او المتمردين عن احكام الله تعالى فيضحي نفسه ويفنيها،ويبيعها لمرضاة الله ومحبته وان الله رؤوف بالعباد.

فما الطف هذا البيان وارقه، واعمق مغزاه فانه صريح، بان العبادة من بعض المؤمنين،لا يكون المقصود منها هو الثواب، او الخوف من العقاب،بل ولا الشكر لأنعمه،وانما هي فوق كل ذلك، هي طلب مرضاة الله فهو دائماً يرغب ان يكون في عناية مرضاته، وطلب رضاه فوق ان يكون لمحبته والشوق اليه.

وهذه المرتبة العالية من النفوس الكاملة، انهم لا يطلبون الطاعة خوفا من ناره، ولا طمعاً في جنته ولاطاعة لشكره، ولا امتثالاً لشوقه ومحبته، وانما طاعته فوق كل هذه المراتب، طلباً للمرضاة، فلا يرى لنفسه وجوداً وانتفاعاً وتوجهاً الامرضاته تعالى، وهذا هو العبد الحقيقي الذي تنطبق عليه حقيقة العبودية وعنوان الرقية.

ان هذه الطبقة من المسلمين،هي غاية اوج تكامل البشر، فالتكامل في هؤلاء، هو تكامل السعادة وماتقدم من حالة الكفار والمنافقين،تكامل في الشقاوة والبعد عن الحق.

ثم نبه الله الطبقة المتوسطة في الايمان، لامن بلغ اوج السعادة والفناء في ذات الحق، ان يدخلوا فى السلم، ولا يراد بالسلم الا القواعد الاسلامية، والشريعة المقدسة.

وان الاسلام له عنوان وله حقيقة، فعنوان الاسلام شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً

رسول الله ﷺ، وحقيقة الاسلام، هو تطبيق الناموس الإلّهي على افعاله، واعماله، فلا وجه لان تأخذوا حكماً وتتركوا حكماً آخر، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، فانه يضلكم ويدفعوكم إلى النار.

ولتعلم النفوس المكلفة، انها ان زلّت بعد ما ظهر لها الحق، فان الله عزيز، ومقتضى عزته، هو تأديب من يخالفه، وان هؤلاء ليأتيهم العذاب في ظِلّ من الغمام وتأتيهم الملائكة، وقضى امر الله وحكمه فيهم، واليه ترجع الأمور كلها.

الاتجاه من النبي ﷺ واهل بيته عليهم السلام واصحابه

عن معاوية بن عمار عن ابي عبد الله عليه السلام قال الحج اشهر معلومات، هو شوال وذو القعدة وذو الحجة، العياشي حديث (رقم ٢٥١). واطلاق ذي الحجة ظاهره الشمول لما بعد عشرة ايام ولكن يقيد بما دل على التسعة او العشرة.

وفي العياشي ايضا عن زرارة عن ابي جعفر عليه السلام قال الحج اشهر معلومات قال شوال وذو القعدة وذو الحجة، وليس لاحد ان يحرم بالحج فيما سواهن، وفي العياشي فمن فرض فيهن الآية، الفرض التلبية والتقليد والاشعار فاي ذلك فعل فقد فرض الحج.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى، فلا رفث ولا فسوق الآية، الرفث الجماع، والفسوق الكذب، والجدال قول الرجل لا والله، وبل والله والاقرب في الرواية الانطباق على هذه الموارد دون التخصيص.

وفي العياشي عن محمد بن مسلم، قال سألت ابا جعفر عليه السلام عن قول الله، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، قال يا محمد ان الله اشترط على الناس شرطاً وشرط لهم شرطاً، فمن وفى الله له، قلت فما الذي اشترط عليهم وما الذي شرط لهم، قال: اما الذي اشترط عليهم فانه قال: «الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج»، واما شرط لهم فانه قال، «فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى»، قال: يرجع ولا ذنب له.

وفي البحار ج ٢١ والبرهان ج١ والعياشي ج١ عن ابي بصير عن ابي عبد الله قال إذاحلف ثلاث ايمان متابعات صادقاً فقد جادل فعليه دم، وإذا حلف بواحدة كاذباً فقد جادل فعليه دم.

وفي العياشي عن عمر بن يزيد وفي البحار ايضاً عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «ليس عليكم جناح ان تبغوا فضلا من ربكم»، يعني الرزق، إذا أحلّ الرجل من إحرامه، وقضى نسكه،فليشتر، وليبيع في الموسم.

العياشي عن رفاعة، عن ابي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله تعالى: «ثم افيضوا من حيث افاض الناس»، قال: ان اهل الحرم كانوا يقفون على المشعر الحرام، ويقف الناس بعرفة لا يفيضون حتى يطلع عليهم اهل عرفة، وكان رجل يسمى ابا سيار، وكان له حمار فارة، وكان يسبق اهل عرفة، فاذا طلع عليهم قالوا هذا ابو سيار، ثم افاضوا فامرهم الله ان يقفوا بعرفة، وان يفيضوا منه.

وفي الصافي عن الامام عليه السلام كانت قريش وحلفاؤهم من الحمس لا يقفون مع الناس بعرفات ولا يفيضون منها ويقولون نحن اهل حرم الله تعالى، فلا نخرج من الحرم، فيقفون بالمشعر، ويفيضون منه فامرهم الله ان يقفوا بعرفات ويفيضوامنه.

وفي المجمع عن الباقر عليه السلام كانوا إذافرغوا من الحج يجتمعون هناك يعدون مفاخر آبائهم ومآثرهم ويذكرون ايامهم القديمة واياديهم الجسيمة، فأمرهم الله تعالى ان يذكروه مكان ذكر آبائهم في هذا الموضع، او اشد ذكراً او يزيد على ذلك، بان ذكروا نعم الله سبحانه وتعالى ويعدوا آلاءه،ويشكروا نعماءه،لان آبائهم و ان كانت عليهم ياد ونعم، ونعم الله سبحانه عليهم اعظم واياديه عندهم افخم ولانه سبحانه المنعم بتلك المآثر على آبائهم وعليهم.

وفي الكافي والعياشي عن الصادق عليه السلام في قوله سبحانه وتعالى ومنهم: «من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة»، قال عليه السلام رضوان الله والجنة في الآخرة، والسعة في المعاش وحسن الخلق في الدنيا.

وفي الصافي عن امير المؤمنين عليه السلام في الدنيا المرأة الصالحة وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار امرأة السوء، والظاهر من هذه الرواية هو الانطباق دون التخصيص.

في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى، واذكروا الله في ايام معدودات الآية، قال هي ايام التشريق.

وفي العياشي عن محمد بن مسلم قال سألت ابا عبد الله عليه السلام عن قول الله واذكروا الله في ايام معدودات، قال التكبير في ايام التشريق في دبر الصلاة.

وفي الفقيه في قوله تعالى، فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه سئل الصادق عليه السلام فقال ليس هو على ان ذلك واسع ان شاء صنع ذا، لكنه يرجع مغفوراً له لا ذنب عليه.

وفي العياشي عن سعد عن ابي جعفر عليه السلام ان الله تعالى يقول في كتابه وهو ألدّ الخصام، بل هم يختصمون، قال قلت: ما ألدّ الخصام قال شديد الخصومة.

وفي العياشي عن ابي اسحق السبيعي عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في قوله (وإذاتولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) بظلمه وسوء سيرته والله لا يحب الفساد.

وفي امالي الشيخ عن علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى(ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله الآية) قال نزلت في علي عليه السلام حين بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله يقيه بنفسه لماطلبته كفار قريش.

وفي العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام قالوا سألناهما عن قول الله تعالى (يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) قالا: امروا بمعرفتنا.

وفي التوحيد والمعاني عن الرضا عليه السلام في قوله تعالى، هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام، قال: يقول هل ينظرون الا ان يأتيهم بالملائكة في ظلل من الغمام.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه واحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور»[١].

«ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب»[٢].

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد ابداً ولكن الله يزكي من يشاء»[٣].

«الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له»[٤].

---

١. الحج آية ٣٠.
٢. الحج آية ٣٢.
٣. النور آية ٢١.
٤. العنكبوت آية ٦٢.

«ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منه واطعموا البائس الفقير»[١] .

«ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق[٢] الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار»[٣] .

«واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة اناهدنا اليك قال عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء»[٤] .

«من كان يريد حرث الاخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب»[٥] .

«وذكرهم بأيام الله ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور»[٦] .

«والذاكرين الله كثيرا»[٧] .

«يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله»[٨] .

«ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»[٩] .

«بل الذين كفروا في عزة وشقاق»[١٠] .

«وإذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كانهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون»[١١] .

«الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون»[١٢] .

«ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم»[١٣] .

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»[١٤] .

---

١. الحج آية ٢٨.
٢. الحج آية ٢٩.
٣. آل عمران آية ١٥.
٤. الاعراف آية ١٥٦.
٥. الشورى آية ٢٠.
٦. ابراهيم آية ٥.
٧. الاحزاب آية ٣٥.
٨. الحديد آية ٢٨.
٩. المنافقون آية ٨.
١٠. ص آية ٢.
١١. المنافقون آية ٤.
١٢. الشعراء آية ١٥٢.
١٣. التوبة ١١١.
١٤. آل عمران آية ١٠٣.

«هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة او ياتي امر ربك»[١] .

«فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا»[٢] .

الاعجاز (الآية ٢١١ - ٢١٥)

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

عبّر الله بخطابه لنبيه ﷺ سل بني اسرائيل، وليس المراد به هو ان النبي ﷺ يسأل عن حالة بني اسرائيل لانها منكشفة للخلق كافة، وانكشافها للرسول ﷺ بنطاق اوسع، مما يعرفه الناس، ولا اظهار حالة بني اسرائيل للمسلمين، وانما المراد تطبيق من خرج عن القواعد الاسلامية، بان انطبقت عليه حالة بني اسرائيل، من مجازات النعم بالكفر، فكم من نعمة واجهها بنو اسرائيل، وشملتهم رحمة الله فيها من خروجهم من قيود العبودية لفرعون، وانزال المن والسلوى، وتظليل الغمام لهم، ونعمة الهداية والارشاد إلى الحق .

كل ذلك جعلوه تحت اقدامهم، وخرجوا عن نطاق العبودية إلى عبادة الحيوانات، وان مصير المتخلف عن نعمة الهدى والرحمة في الدنيا والآخرة هو مصير بني اسرائيل في جحودهم وتمردهم عن الحق، فان الله شديد العقاب.

(زين للذين كفروا الحيٰوة الدنيا... الآية) ثم ان القرآن الكريم، ابان موقف المؤمنين والايمان وموقف الكافرين والمنافقين والكفر، ان الكفار والمنافقين تحكم في انظارهم

١. النحل آية ٣٣.
٢. الحشر آية ٢.

وانطبع في ضمائرهم حب الشهوات من النساء وجمع المال والثروة والاخذ بالترف والسرف، وقدموا مصالحهم الشخصية في هذه الدار على المصالح النوعية في دار الاخرة لضعف نفوسهم وعدم وصولهم إلى اليقين، فقدموا الأمورالعرضية الزائلة المضمحلّة على الأمور التي ثابتة وقائمة على ممر العصور والدهور ما دام الله موجودا وهذا التقديم وان كان لحب الشهوات والميول وانحطاط النفوس عن اوج الكمال؛ الا انه باختيار منهم.

فقد تكرر منا، ان الله، غرز في النفوس تلك الهداية الفطرية، فذلك البيان الذي لولا توجه النفوس إلى الشهوات والمعاصي، لاقبلوا على الحق، واخذوا به فان الانسان قد ملىء بالاختيار كافراً كان أو مسلماً، فاسقاً كان او مؤمنا.

وما اقبح هذه الافكار التي تقدم العوارض الزائلة واللذات المضمحلة، من فجور وارتكاب جرائم، ثم لاترى على وجه الأرض، الا الحروب والتشاجر، ولاترى الا الشقاق والنفاق، وهتك الحرمات.

وتراهم قد جدوا واخذوا بمنافع ذاهبة، ولذات يومية وتركوا الدائم الباقي.

اما ميزان الله تعالى في خلقه، وعهده لعباده فهو قانون البقاء والمنافع النوعية من دون نظر إلى شخص دون شخص، وامة دون امة.

وان المنافقين والكافرين، لما كان من خلقهم ارتكاب الشهوات، وانطباع نفوسهم على السيئآت، فهذه الطبقية توجب لهم السخرية بالمؤمنين،والاستهزاء بعباد الله الصالحين، فان السخرية من لوازم الاعمال الباطلة وارتكاب الجرائم، وما علموا ان العاقبة لمن سار على قانون العدل والحق ومن لم تأخذ الشهوات نفسيته فالسخرية هم احق بها، لو كانوا يعقلون.

وقد بيّن مقام المؤمنين، ان الايمان والعقيدة بمجردها لا توجب المنازل العالية في دار الآخرة، وانما تترتب الاثار على المؤمن بالعقيدة الثابتة، والعمل بالتقوى فان المتقين غداً يسخرون بهؤلاء، ويترفعون علىٰ مكالمتهم واستهزائهم في الدنيا، قال تعالى «ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين»[1] وان الله تعالى يرزق عباده بغير حساب، وقد يرزقهم من غير سعي،وان كان المتعارف، وما عليه نظام البشرية ان الرزق ياتي من طريق السعي والعمل، ولكن قد يأتي للانسان من غير سعي ولا عمل، كهبة بعضهم لبعض، وموت

١. النحل ١٦/٢٧.

الموروث، وتلقى المال إلى الوارث، وقد يهيىء الله للكفار اسباب الراحة والرفاهة ليصلوا إلى منازلهم في الجحيم والعذاب الاليم، لان كل مؤمن وشقي له منزلته في دار الآخرة، ولابد تتهيىء له الاسباب ويتم له الاختيار، ليصل إلى منزلته من خير او شر.

«كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين الآية» اظهر الله حالة البشر في اوائل نشأتهم فقال كان الناس امة واحدة وكون البشر امة واحدة،في اول نشأتها هو على طبيعة الحال والفطرة، اذ لا تنازع ولا خلاف ولا اسباب توجب النزاع بينهم، فهم على فطرة التوحيد التي جاء بها ابو البشر آدم عليه السلام ولم يكن هناك ما يوجب البغي بينهم من حب الشهوات، من الثروة والرئاسة وحب السيطرة، واستملاك النفوس، وليس هناك بينهم دواع تدفع بعضهم إلى الاستيثار ببعض الاشياء او كلها.

والانسان في ذلك العصر بعيد عن تفكر الخلاف والشقاق، لتوجه نفسه إلى التوحيد وامتزاج نفسه مع ابناء نوعه.

ومن الواضح ان هذا السير والمنهج منهم كان في عقيدتهم واعمالهم، وليس هناك اسباب توجب التكتل والانفراد، حتى إذا كثر البشر وتوجهت نفوسهم نحو الثروات والرئاسة والجاه، وتكتل جماعة دون اخرى،وتعدد في الاراء والعقول، استاثر جماعة بحسب تفكيرهم وطبعهم ان يأخذوا منافع غيرهم، وان كل جماعة، تريد الاستئثار بالمنافع.

ولذا ان اول من قام بالفساد على وجه الأرض قابيل في قتله لهابيل، فنشأ الفساد والتخلف واستهلاك بعض الآخرين.

ولما كان هذا موجباً للسفك والهتك،وانتهاك الحرمات وان توجههم للمنافع دون الله تعالى بعث الله فيهم الرسل، مبشرين ومنذرين.

ثم توالت الرسل وتواترت على طبق رسالة السماء ليتم الحق ويعرف طريق الباطل، فهدى الله بعضهم هداية ارشاد ورسالة على وفق الهداية الطبيعية، التي في نفوسهم، وان الله يهدي من يشاء على وفق ارادته، واختياره إلى صراط الحق المستقيم وقد اعرضنا عن كثير من كلمات المفسرين هنا، لانها لا تتعلق بالآيات الكريمة وان الامة كانت امة واحدة على طريق هدي آدم عليه السلام ثم اخذتهم النزعات فاختلفوا، ولا يمكن ان يترك الله البشر في تلك العصور عن الهداية كما فسره بعض المفسرين من انهم كانوا على ضلال، فان الله لا يترك امة ولاجيل عن الهداية والا لكانوا كالبهائم الذين لا طريق لهم إلى الهدى.

«ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين الآية» قدالفت الله نظر عباده المتوجهين إلى الطاعة، انكم تحسبون وتظنون ان تدخلوا الجنة من غير امتحان و لاتجربة، وان الجنة حفت بالمكاره، والنار بالشهوات، كما ورد ذلك عن النبي ﷺ وهل يؤخذ الشيء الثمين، الا بعوض ثمين، فكيف يدخل الانسان الجنة، التي لا تخطر منافعها على ذهن الناس ونعمائها، على نفوسهم من غير ثمن ولا متاعب في هذه الدنيا، فلا تنال الجنة الا بالبأساء والضراء ونقص بالثمرات والانفس وحوادث يصعب تحملها ليخرج الانسان الذي صفت نفسه وخرجت بالتجارب وتحلّت بنور الفضائل والثواب الجزيل، عن عالم المادة وشهوات الطبيعة، والثواب الجزيل لا يأتي جزافا،وإنما يأتي على مقدار التحمل والمحن، وتجارب الشدائد في هذه النشأة. قد قضت حكمة الله ومشيئته وعلمه الازلي بالصلاح ان لا تنال المثوبات والنعم الخالدة للنفوس الا بعد طهارتها عن الادناس وتحملها للمصائب.

ولا يأتي الشيء الثمين بابخس الاثمان، وانما يأتي بما يعادله من الثمن، حكمة لا تتخلف، ومشيئة لا تتبدل في كل جيل وعصر، وفي كل امة، فلا يمكن وصول النفوس في دار وعلو منازلها، الا حين ان تبتلى النفوس في الدنيا، بشدائد الدهر والمحن.

فالانسان الكامل خلق على متون الاهوال تعرضه الشدائد، وتأتيه النوائب، ليخرج ذلك الجوهر الثمين الذي هو من مراتب نفسه، وشؤون خلقته إلى عالم الآخرة.

فللحق منهاج وسير، لا يصل الانسان إلىالهدف الاخير الا بعد طي المنازل، من عوارض الزمن، لتخلص تلك النفس من العوارض الزائلة، وتثبت لها تلك الصفات الفاضلة الدائمة مادام الله تعالى، لتخرج تلك المزايا من نفوس الاولياء وتنال بها الدرجات التى لا تخطر على ذهن البشر.

وان اعطاء الشيء الثمين من دون بدل شيء يقابله فعل من افعال المجازفة، وعمل من غير دليل.

ولذا ان الاولياء، كما تقدم منا تبتهج نفوسهم بالبلاء كما تبتهج بالنعماء، وهذا الخطاب من الله تعالى، ليس خاصاً بالنبي ﷺ واصحابه، بل يجري في كل عصر وجيل، جرياً على السنة المحكمة والطريق المستقيم وعند ذلك يقول المؤمن متى نصر الله، وليس ذلك من الرسول والمؤمنين استبطاء لنصره ما ذكره بعض المفسرين وانما هو طلباً لحكمته ومشيئته لانهم على ثبات في دينهم واستحكام في عقيدتهم، الا ان نصر الله من عباده قريب.

«يسألونك ماذا ينفقون الآية» وعندما توجهت نفوس الصالحين، إلى امتثال اوامر الله واطاعته، والانقياد له في هذه الدار، بالاعمال التي فيها الصلاح، فسألوا ماذا ينفقون وهذا السؤال، عن اصل الشيء الذي ينفقونه، وليس سؤالاً على من ينفقونه توجيها لعباده بما هو الاصلح، واخذاً بنفوسهم إلى الاكمل، فان انفاق الشيء يتعين بأول بيان والمهم الانفاق على من يستحق الانفاق.

فالفت نظر السائلين إلى ما هو الاولى في السؤال والارجح في العمل، اذ الانفاق على من يستحق، هو العمل الصالح من المنفق الذي يترتب عليه الثواب.

واما تشريع ماذا ينفق، فهو مختص بالمشرع، وعليه بيانه، وليس في المورد مما قد يورد على الآية، بان المقام هو بيان ما ينفق، لا بيان من ينفق عليه.

فوجه الله عباده الممتثلين لطاعته، وبين الله تعالى ان الانفاق تختلف مراتبه، من حيث القرب والبعد، فالاولى من كل احد هو الانفاق على الوالدين، لانهم اعظم صلة باولادهم ثم من بعد ذلك، ذوي القربى، على اختلاف مراتبهم، من الاولاد والاخوة والارحام من الاعمام والاخوال، ثم اليتامى من الرحم اولا، وغيرهم ثانيا، والمساكين يراد بهم مطلق الفقراء لا ما كان اسوء حالا من الفقير.

نعم لو دل دليل بالخصوص بالتفرقة في الاعطاء بين مطلق الفقير، وبين من هو اسوء حال منه وهم المساكين وجب اتباع الدليل، ولكن المفروض عدم وجود ذلك في الادلة، واما ابن السبيل فهو كل من احتاج في السفر إلى المؤنة، وان كان في بلده غنيا.

وان المراد في تعبير الآيات الشريفة بابن السبيل، مطلق ما كان في سبيل الله سواء كان مسافراً محتاجاً، او بذل المال لجهة من الجهات الشرعية،كبناء المساجد والقناطر، وما يحتاج اليه المسلمون فى شؤونهم، وان انفاق الخير انما يتحقق من النية الخالصة والتوجه إلى الله وعبّر الله عن المال بالخير، لانه وسيلة للطاعة واهتم التعبير في الآية الكريمة بمن ينفق عليه وان كان الترتيب يقتضي اولا بماينفق دون من ينفق عليه ولكن لاهمية ما ينفق عليه توجهت الآية إلى هذه الجهة دون اصل الانفاق وما تفعلوا من خير فان الله به عليم.

الاعجاز (الآية ٢١٦ - ٢١٩)

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيْئاً

وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللّهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ القَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

ان الله تعالى كتب القتال على المؤمنين وشرعه عليهم، على نحو الوجوب وقال، وهو كره لكم، وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

وان الآية الكريمة تحتاج إلى توضيح وبيان، فان شؤون النبوة في سيد الانبياء صلى الله عليه وآله تقوم على دعامتين.

الدعامة الاولى – هو تشريع الاحكام، ووجوبها على المكلفين او تركها، وهذا عالم التشريع الذي يأتي به الانبياء من قبل الله تعالى على طبق المصالح والمفاسد الواقعية، وكل نبي من الانبياء، لا يمكن ان تحدد نبوته على تشريع الناموس الالهي من بيان الاحكام الشرعية فقط، فان التشريع إذاكان مجرداً من التنفيذ، كان مجرد كتاب لا يعمل فيه، ولا يمتثل في مقام التطبيق. الدعامة الثانية – التي قامت عليها الشرائع، هو تنفيذ التشريع والقيام بمؤدّاه على حسب الظروف والاتجاهات وقد توجب الظروف الجهاد والقتال، إذاجزم النبي، ان عدم الجهاد موجب لتحكم جذور النفاق والكفر على وجه الأرض، ولازم ذلك ذهاب الايمان والعدالة البشرية، وكون الدنيا مجمعاً للفوضى والشقاق والحروب، وفتك بعض الناس ببعض واضمحلال القوى للضعيف، فالسير على طبق العقل وفطرته وجبلته، هو ان النبي المشرع يأخذ بخطوط التبليغ والاصلاح والتجاوب مع الخصماء، وارشادهم إلى الطريق المستقيم، فان انحل الامر واستحكم الاسلام على النفوس من هذه الجهة، تم المقصود للرسول المبعوث وعندها فلا يرتكب خطوط الجهاد والحروب،ولا خطوط الدفاع ايضاً.لان الاسلام دين السلام ودين المحبة والوفاق بين افراد البشر، وإذاكان التشريع

معطّلا، والاصلاح والهداية ممتنعة ولم يستجب الخصم للتفاهم بالدليل ورفع الشحناء والبغضاء بالسلم والتفاهم، تعين على الرسول طبقا لاوامر الله، ان يقلع جذور الباطل المستحكمة بالدفاع او الجهاد.

فالجهاد وان لم يكن محبوبا في المرحلة الاولى، ولكنه المحبوب في المرحلة الاخيرة، اذ لولاه لعمّ الجور والظلم، وكثر الفساد في الأرض، واختلّ نظام التكوين.

فالآية الشريفة، ليست في مقام ان المسلمين ومن أخلص لله يكره الجهاد، فقد تواتر عن المسلمين واهل الايمان تهافتهم على الجهاد، بل اذارجع المسلم من الجهاد ولم ينل الشهادة تأثرت نفسه، واحبت لقاء ربه لينال الشهادة، فانها المقام الرفيع في اثبات الحق وهداية الاجيال، وانتظام العصور وان كان لا ينافي ان تكون بعض النفوس والافراد لا يرغبون في الجهاد على حسب طبيعة البشر.

وكيف لا يرغب المؤمن، ان تكون حياته وفناؤه في الجهاد وسيلة لاحياء الشعوب والاجيال، وهداية البشرية بصورة عامة، فان كل مجاهد ومقاتل، يكون شريكاً مع المسلمين في اعمالهم، مهمامرت العصور وجاءت الاجيال.

ويرى المسلم بنور الايمان، ان حياته تفي باعوام قليلة وان كان العمل صالحاً وبين ان يكون وسيلة لاظهار الحق، وتوجه الناس إلى الاسلام،وتنظيم الاجيال لتقبل الدين، فاين الحياة الفانية، وهذه الحياة التي هي عين الفناء في ذات الحق والبقاء ما دام الله تعالى.

وظاهر الآية، وان كان يعطى «كتب عليكم القتال وهو كره لكم» فهذا من باب القضية الحقيقية، بمعنى ان شأن الجهاد وقتل النفوس مما لا تتقبله طبيعة الانسان او لا وبالذات.

فالجهاد كره لكم بحسب الطبيعة البشرية، لا انه كره للمسلمين الذين يريدون اقامة الحق مهما كلف الزمن، واذهاب الباطل، فهؤلاء يرغبون إلى الجهاد، كما يرغب العطشان إلى الماء، والجائع إلى الغذاء.

نعم قد يتخوف المسلم والمؤمن، ان لا يتمكن من اقامة الحق، وعندها فيستحكم الباطل، وهذه الفكرة قد تعترى كل مسلم عند توجهه إلى الجهاد، ولكن لا تبقى في اذهان المسلمين كيف وقد وعدهم الله النصر[1].

وان الاسلام يتغلب على الكفر،وان النتيجة والعاقبة هي للمسلمين، وان تغلب

١. ما ذكرناه في نظرنا اولى مما ذكره بعض المفسرين في بيان الآية.

الكفار في بعض الحروب، وقد جاء في التاريخ، ان المسلمين في واقعة بدر الكبرى توجهوا إلى غلبتهم على الكفار من حيث التجارة التي جاء بهاالكفار، فابد لهم الله بالافضل، فهو جهاد المسلمين واستئصال الكفار في تلك الواقعة واخماد الباطل واظهار الحق، وهذا مما لا يقاس على الغلبة من حيث الاموال والمنافع.

«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير الآية».

ان القتال في الاشهر الحرم، كان سابقاً، وعليه الانبياء وانما اخذ العرب به تقليداً لا تأسيساً، وجاء الاسلام فأكد ذلك حرمة للبيت وتعظيماً له، وتقليلا للفتك والقتال من غير وجه ومع ذلك، فالجاهلية لم تترك القتل، في الاشهر الحرم، كما صرح التاريخ به، من قضية عمار بن ياسر وابويه، وغيرهم من المسلمين، ولماتجرؤا على القتال في ذلك الوقت، فلابد للشارع ان يحكم عليهم بالمثل، والا فلو كان القتل لهم، والمسلمون قد كفواايديهم عن القتال في الاشهر الحرم، لأخذوا ذلك تنكيلا بالمسلمين في تلك الاشهر، فهم لما هتكوا الحرمة، اباح الله دماءهم في تلك الاشهر، وهذا الحكم على طبق الفطرة السليمة.

فان القتل في الاشهر الحرم وفي بيت الله الحرام، وان كان ذنبا كبيراً، لكن التعدي من المشركين على حرمة الكتاب، ومن قامت عليهم دعائم الاسلام اشد ذنباً، واعظم جريمة، فانه لو تم لهم الامر، لذهبت كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة على وجه الأرض، فلذا ان الله اباح سفك دمائهم تأديباً لهم.

ثم نبه الله تعالى في الآية على أمرين، اولا: انه ان لم تسفك دماؤهم، ولو في الاشهر الحرم لعمّ الفساد وجه الأرض، وتبدّل الايمان بالشرك، وثانيا: ان الاكاذيب التي وجهوها على المسلمين، بانهم كيف يقتلون الكفار في الاشهر الحرم وما يلقونه من الفتن بتعذيب المسلمين، ومحاولة القاء الشبهات، في اذهان الناس بان المسلمين لا يرون حرمة للاشهر الحرم، فيقاتلون فيها، وان الفتنة كلما جاءت في الآيات الكريمة، اشعرت بعظم الامر وتهويله، لانها الفساد الكبير واضمحلال المسلمين من وجه الأرض على ممر الاجيال.

ان قداسة الاسلام تمنع من أي جور وظلم، وتوجه الناس إلى التكامل النفسي والخلقي،حيث ان الكفار والمشركين من العرب، لم يحترموا دينا، ولم يلحظوا انسانية قتلوا في الاشهر الحرم وفي بيت الله وضغطوا على المسلمين بالقتل والتنكيل في ضمن ثلاثة عشر سنة فلو اهمل هذا الصنف من البشر في جرائمه وارتكابه لمابقيت اي قداسة لدين من

الاديان وان التعدي من الفاسق او الكافر إذالم يوجب قطع جذور الاسلام واصوله لكان الاسلام مواجها لهم بصورة اخرى من الهدنة أو الصلح أو الجزية.

اما إذا تمرّدوا وبلغوا منتهى الشقاء فهم يقتلون في الاشهر الحرم وإذاقاتلهم المسلمون في الاشهر الحرم علت اصواتهم بان المسلمين شرّ الناس لتعدّيهم على الاشهر الحرم وفي بيت الله وما التفتوا ان الاسلام لا يبتدي بشر وانما يقلع جذور الشر وكم فرق بين المبتدىء بالشر ومن يطلب بحقه ثم اخذوا بالطغيان.

وقد صرحت الآية بجرائم كثيرة فعلها المشركون من القتال في الاشهر الحرم والقتال في المسجد الحرام والكفر بالله والصد عن الهداية والارشاد ووراء ذلك ان اخرجوا اهل البيت عن حرم الله وهذا اكبر عند الله من القتال في المسجد الحرام وان الفتنة هي اكبر من ذلك لانها استئصال لجذور الاسلام.

«ولا يزالون يقاتلونكم الآية» ولا يزال الكفار بخبث سرائرهم وتصميمهم على الباطل يقاتلون المسلمين ويحاولون ارجاع المسلمين إلى الكفار ووقوع الفتنة بينهم ولو استطاع المشركون لردّوا المسلمين عن دينهم وما عرفوا ان لاضلال بعد الهداية ولا تشكيك بعد اليقين.

«ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر، الآية» ان القرآن هنا يقف بازاء حقيقة، عليها اعمال البشر قديما وحديثا ان المؤمن إذاعمل الصالحات، وزكت نفسه، كان محط رحمة الله تعالى.

واما من كان مؤمنا او مسلماً، وارتد عن الاسلام بعد الهداية، وكفر بعد الايمان ومات على الكفر، فهذا من حبطت اعماله، ولابد في توضيح الآية إلى بيان.

وهو ان الطبقات من المسلمين والكفار، فتارة يسلم الشخص من اول نشأته ويبقى مؤمنا حتى الموت، وثانيا ان يكون كافراً، ثم اسلم واستمر اسلامه إلى الموت، وكان على هدى من ربه، فهؤلاء توفى اجورهم بأحسن مما كانوا يعملون.

واما من وقع منه الارتداد بعد الاسلام والهداية، وبعد ان وصل إلى طريق الحق ثم ارتد، فهذا على صنفين، الصنف الأوّل ان يكون فطرته الاسلام، وهو على هدى من ربه، ثم اخذ بالشبهات ووسوسة النفس، فضيع عقيدته وعمله، وارتد من الحق إلى الباطل، ومن الايمان إلى الشرك، فقد عبر الله، عن هؤلاء انهم حبطت اعمالهم.

والصنف الثاني، انه لم يكن مسلماً في بدء نشأته، وانما كان كافراً، ثم اسلم، وجاء إلى الهدى، وبعد ان وصل إلى اليقين اخذه الشك والارتداد، واذهب يقينه وايمانه، فهؤلاء ايضاً من الذين حبطت اعمالهم وبطلت.

وقد ذهب اعلام الفقه وبيّناه في محله، ان الارتداد ان كان عن فطرة،فلا يمكن ان تقبل له توبة، إذا اراد الرجوع إلى الاسلام.

واما ان كان ارتداده ليس عن فطرة، ويعبر عنه بالكفر الملّي، فاذا رجع إلى الاسلام، قبلت توبته، وانما الخلاف، ان الاعمال السابقة على الكفر، من الاعمال الصالحة هل يجازى عليها بعد اعماله اللاّحقة بعد التوبة، اوانها حبطت كما يراه كثير من الفقهاء، ولا يكتب له الا العمل الصالح بعد الرجوع إلى التوبة، وحسب القواعد الفقهية هو هذا الوجه، وان تلك الاعمال ذهبت وبطلت، لان الكفر يوجب احباطها، هذا بحسب ما تقتضيه الصناعة والقواعد الفقهية.

والا فلو نظرنا نظرة اخرى إلى موضوعية المسألة جاز ان يقال، ان الله يعلم رجوعه إلى الحق، وتمسكه بالشريعة اخيراً، ومن لطف الله وكرمه، ان لا تذهب منه تلك الاعمال الحسنة لعلمه بزوال هذا العارض، وهو الكفر.

وعلى كل فهذه المسألة موكول امرها إلى الله وحكمته البالغة، والا بحسب القواعد الفنية ان الكفر يحبط العمل، وانه لابد له من عمل مستأنف، اذ الكفر كالنار في الحطب.

هذا بحسب السيئآت، وقد يكون الشخص مسلماً وله اعمال صالحة، ولكن له سيئآت كثيرة، او كان له اعمال وسيئآت، ولكن له اعمال صالحة.

وعند مراجعة اخبار هذا الباب، يرى الباحث، ان الحسنات، وخصوصا، إذاكان لها الاهمية كحفظ النفوس عن القتل والاعراض عن الخطر، ونحو ذلك، فانه مما ينطبق عليه، ان الحسنات يذهبن السيئآت، وقد تواترت الاخبار بذلك وقد يأتي بالسيئآت، على وجه ان تذهب منه حسناته كقتل النفوس ونحوها.

فحالات الانسان في عمله، قد تستلزم الاحباط كالارتداد والكفر إلى الموت.

اما من رجع عن الكفر والارتداد فتكتب له حسناته الآتية، ولعله فضل الله يشمله، فيما جاء من الاعمال الصالحة قبل الارتداد، هذا في حال الكفر بعد الايمان.

واما الايمان بعد الكفر، فقد ورد في الحديث المعروف ان الاسلام يجبّ ما قبله، فلو

قتل كافر مسلماً او مؤمناً، وبعد ذلك اسلم طوعاً، وجاء إلى الاسلام، فانه لا يقتل به، حيث ان الاسلام يجبّ ما قبله، ويحبط تلك الاعمال عن تأثيرها، وتكون كما لو لم تكن صادرة منه.

هذا حال الاسلام والكفر، اماحال اهل المعاصي فقد جاء في الآية الشريفة «ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئآتكم» فقد اوعد الله عباده ان من انتهى عن الكبائر كلها، فان الله يغفر له الصغائر يوم القيامة، ولم تعين الآية ان الانتهاء عن الكبائر في مجموع العمر او في بعضه بل تركت هذاالتفصيل، وعند ترك التفصيل، ينساق الذهن إلى الترك في مدة العمر، لئلا يطمع الانسان، في التجرّي على المعاصي.

والا فلو عيّن في اوائل العمر، او في اوساطه، قدم الناس على الصغائر، واما احباط السيئآت للحسنآت، فما قام المذهب على خلافه بل يثاب من جهة ويعاقب من جهة اخرى.

ولعل المسلمين الا ما شذ منهم ذهب إلى احباط الحسنات بالسيئآت او حساب السيئآت مع الحسنات فالباقي اما سيئة او حسنة.

ولكن هذا وما قبله من الاحباط ليس من شعائر المسلمين ولا مذهبهم من الخاصة والعامة والآية الشريفة متعرضة لصورة من الاحباط ولم تتعرض للصور كلها ولعله في المستقبل مما نتعرض إلى ذلك في بعض الآيات التي يفهم منها الاحباط.

واجمالا الاحباط من غير الكافر وهو المسلم العامل للسيئة والحسنة خلاف مرتكز ابناء الشريعة على ان الادلة على خلافه.

«ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله» الآية.

ان التقابل بين الكفار والمؤمنين المجاهدين يقتضي ان يذكر كل منهما ليعرف كل واحد ما تقتضيه نفسيته وعمله وبعد التعرض للكفار وحالاتهم تعرض الله تعالى تفهيما للسامع التقابل بين الكفر والايمان فقال «ان الذين آمنوا والذين هاجروا الآية».

ان من حصلت له صفة الايمان وواقع الاسلام وهاجر مع الرسول وجاهد في سبيل الله وهذا العنوان وهو المجاهدة في سبيل الله تشمل المهاجرين والانصار فان اولئك الذين تفانوا في ذات الله فليس لهم تعلق الا بالله ورحمته والله تعالى غفور رحيم لهؤلاء باعلى مراتب الرحمة والغفران فجاءت الآيتان للتقابل بين الكفر والايمان وتنبيهاً للغافل بان مقام المؤمنين مقام السعادة ومقام الكفار مقام الشقاوة وكل منهما قد انتهى إلى آخر مراحل

الايمان والكفر، وقد تعرض بعض المفسرين في هذه الآية، والاولى ان لا يرجع إلى تفسيره واطالوا في المقام، الذي يناسب الآيات الاتية، التي تأتي في محلها، وقد اعرضنا عنها، وليترقب القارىء تفسيرها في محلها.

(يسألونك عن الخمر والميسر الآية...)

ان الله اعقب تلك الاحكام السابقة بحكم الخمر والميسر وهذه الآية قد جاءت بعد آية مكة في الخمر، وان طبيعة الانسان والافراد والمجتمع إذا داومت على شيء واعتادت عليه واصبح فطرة لهم وكان ذلك الشيء الذي ارتكبوه مما فيه المفاسد المهمة والاضرار في الجسم والمال، فلا يمكن لمثل ذلك ان يتوجه خطاب بالمنع على وجه القطع من تردد، اذ من الجائز ان يتخلف من اعتاد على ذلك ولا يمتثل امر الشارع، انظر إلى باب الاسترقاق وملكية العبيد فان الشارع لا يرغب فيها ولكن لما علم ان الناس لا يتركون استرقاق العبيد ويرون لانفسهم بذلك العظمة لاسترقاقهم العبيد وجلب المنافع والكسب بحسب من يتملكونهم من الناس، فالشارع هيأ الجو لحرية العبيد وجعل الحرية من افضل مراحل الاستحباب وفتح ابوابا للحرية كالعبد المكاتب والمشروط وفي دبر الموت لاجل رفع الاسترقاق واوجب الكفارة بعتق رقبة في القتل والصوم وانما كان كل ذلك تدريجا في الصلاح وسد ابواب الاسترقاق حيث ان الانسان او المجتمع إذاطبع في ذهنه شيء واستمر عليه سنيناً كان اخراجه عن العادة فى غاية الصعوبة وربما كان في الغالب إذا جاء التشريع الاسلامي او الالهي مطلقا لم يرتبوا عليه الاثر وبقوا على حالتهم من استرقاق العبيد.

والمقام هنا من حرمة الخمر والميسر وهو القمار شبيه بحرية العبيد فان الخمر وعمل القمار كان مألوفا عندهم ولا يمكن رفعه من الاجتماع باول خطاب يتوجه اليهم، فجاءت آية مكة وفيها اشعار بالحرمة (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق) فان عنوان الاثم ومفهومه يشمل الخمر وان لم يكن صريحا في دلالته على عنوان الخمر حتى جاءت آية (يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى) ولاريب ان الاثم يعرفه كل احد بانه مستلزم للجريمة ولا اثم الافى جريمة وليس المقصود من الاثم هو الضرر وان آية الاثم مصداق للضرر لعدم اتحاد مفهوم الاثم ومفهوم الضرر خارجا ولو كان المقام من باب الضرر لالتزم كثير ممن لا يبالي بالمعصية انه لا ينطبق عليه الضرر للنفع الكثير فلا ربط للآية بعنوان الضرر اصلا.

ثم بيّن الله تعالى ان الخمر مما يسلب العقل ويذهب بادراكه وانه وان دخل في ذهن الناس ان فيه منافع لبدن الانسان ولكن ما علموا ان كل موجود من الكائنات من نبات واشجار لا يخلو عن منافع، فان الله لا يخلق شيئاً من غير منفعة ولكن هذا لا ربط له بالحرمة وقد جاء العصر الحديث وكشف مضاره من ذهاب الادراك والخلل في النسل وصيرورة الانسان ناقصاً في التفكير إلى غير ذلك مما كشفه العصر الحديث وما جاء نبي الا وحرم الخمر.

ولما علم الله انه إلى هذا الحد من البلوغ والتوجيه لا يدفع الامة عن ترك الخمر لشدة رغبتهم به فجاءت آيتان عقيب ذلك من قوله تعالى فاجتنبوه وهل انتم منتهون وقد ورد في بعض الاخبار أنّ عمراً قال يا رسول الله قد انتهينا قد انتهينا وهذا دال على تمركز اجسامهم على الخمر بحيث كان غذاء لابدانهم وبه قوام اجسامهم، واجمالا ان الفطرة قاضية ان الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر إذاوجدوا البيئة او الاجتماع قد ارتكز في اذهانهم او طباعهم طعام شيء أو شر به فلا يمكن للامر ان يرفعه بحكم واحد والا امكن التخلف وكثرت الضوضاء والتشاجر ولكن جاءت آيات الخمر ونحوها على نحو اغلاق ابواب العدم وسد ثغوره لجهة دون جهة حتى اكمل الله جهات المنع وبعد هذه الآية جاءت آية لا تقربو الصلاة وانتم سكارى حتى تفهموا ما تقولون وهذا المنع في اوقات خمسة مما يقلل الخمر إلى اكثر من النصف بكثير ولما علم الله ان النفوس استعدت للقبول وتأثرت بالحرمة من بعض الجهات والزمان عندما كان الامر بحرمة الخمر في الصلاة مما يوجب ترك خمسين بالماءة، فتلك الساعة جاءت آية فاجتنبوه وهل انتم منتهون، حينما وجد الله ان الخطاب مؤثر وانهم منتهون عن تلك الجريمة.

ثم عطف الله تعالى الميسر على الخمر في الحرمة لان الخمر ضرره بدني واجتماعي واقتصادي وحرمة الميسر كذلك اقتصادية واجتماعية.

فان اخذ المال من غير جهود، اخذ للمال على وجه الجزاف ولذا قال تعالى(ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض) فاخذ المال على وجه ان يكون باطلا او على وجه المغالبة والتدليس مما لا يقتضيه النظام الصحيح من النظام الاسلامي، فالنظام الاسلامي يريد بذل الجهود في اخذ المال وان لا يكون مما طلا وآخذاً للمال من دون جهود وبذل والا امكن لجماعة من المقامرين ان ياخذوا ثروة الناس من غير جهود

كاخذ المال بالربى او اخذه بالقمار ونحوه.

(ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون، في الدنيا والآخرة.

ويسألونك ايها النبي الكريم ماذا ينفقون فكان الجواب عن حقيقة ما ينفقون دون من ينفق عليكم كما في الآية السابقة وهنا قد تطابق السؤال والجواب على مورد واحد بخلاف الآية السابقة فقد وجهت السامع إلىما هو الذي ينبغي فيه السؤال وهو بيان من ينفق عليه فاجاب قل انفقوا العفو، والعفو اسم إذا تتبع السامع موارد استعماله فتارة يراد به الصفح والعفو عن الشيء كما لو اساء شخص على آخر فعفى عنه، وثانيا يراد به ازالة الشيء كقولك عفت الدار بمعنى زالت آثارها، وثالثاً يراد بالعفو الزيادة على مؤنة الانسان في سنته او يومه والآية متوجهة إلى هذا المعنى ومقتضى الآية لولا ما دل على الاستحباب لكان الانفاق عما زاد على قوت الانسان واجباً والمستفاد من الادلة هو استحباب الانفاق عما زاد عن المؤنة ولكن الآية ولو بتفسيرها من اهل البيت عليهم السلام في الاستحباب لا يدل على عدم وجوب الانفاق في ظروف خاصة فانه إذااخذ الاجتماع الفقر وكان هناك أهل ثروات واسعة تعين على ولي المسلمين اخذ ما زاد على حاجاتهم وهذا الحكم فطري بنظر العقل لانه، اولا يذهب الاجتماع ويؤول به إلى الهلكة، وثانيا ربما يؤول إلى الفوضى والقتل إذاوجد المجتمع نفسه في حاجة ولا طريق إلى سدها الا باخذ المؤن الزائدة من الاغنياء وانفاقها على المجتمع.

وببيان آخران الضرائب المالية من اداء الزكاة والخمس والانفاق في صورة العفو ومجهول المالك ورد المظالم هي تحت ولاية الحاكم الشرعي في مصرفها وتدبيرها فاذا وجد ولي المسلمين الحاجة بكثرة من عموم الناس تعين عليه ان يسد هذا الفراغ ويحفظ النفوس من الشقاق والتضارب فينفق الزكاة والخمس ورد المظالم ومجهول المالك على المجتمع.

فالشارع بحكمته وتدبيره قد سد حاجات الناس وجعلهم على وزان واحد من حيث المعيشة على المادة ليحفظ النفوس من الهلكة، فالآية الشريفة مما تحقق الانفاق وتوجبه عند احتياج الناس إلى القوة كالمأكل والمشارب لاجل ان لا ينهدم الاجتماع وتعم الفوضى ويأخذ القوى الضعيف، فمال كل شخص وان كان يملكه وهو اولى به ولا يحل

للغير استيفاء جهود الاخرين ولكن لما كانت الحاجة ملحة تعين على ولي المسلمين حفظ الاجتماع من الفوضى وتعدي بعض الناس على بعض فللولي ان يقبض اموال الناس او شيئاً منها وينفقها على المحتاجين والمستضعفين.

وقد اعقب الله تعالى تلك الآيات بقوله، وكذلك يبين الآيات لكم وانها على طبق الحكمة البالغة من المنهاج الصحيح من حفظ الاجتماع في الدنيا وإذا حفظ الاجتماع في الدنيا على الوجه الاكمل توجهت النفوس إلى حفظ الحياة الباقية في دار الاخرة وتكون الوسيلة في منافع الاخرة من جهة ان سيره في الدنيا على طبق الحكمة التي بها يحفظ النَّشأتين، فصاحب المال لا يزاحم على ماله الا إذااضطر الاجتماع إلى القوة والمؤن، فيتعين على ولي الامر الاخذ بميزان العدل وميزان العدل لا يحيف، وعندها يتفكر المؤمن وينتبه العباد ويتفكروا في عقولهم ان السير على طبق ما فرضه الله وهو السير الحقيقي وميزان العدل في الدنيا والآخرة.

الاتجاه الفلسفي

قد جاء من الله تعالى لرسوله ﷺ ان يسأل بني اسرائيل كم آتاهم الله من بينة،وليس المراد، الا اخبارهم عن حالة الانبياء، من حالة موسى وداود وسليمان عليهم السلام، إلى غير ذلك.

والآيات التي جاءت إلى انبياء بني اسرائيل، اغلبها كانت بينات تكوينية من تظليل الجبال ونزول المن والسلوى، واغراق فرعون، وانفلاق الحجر إلى اثني عشر عينا.

فهذه المعاجز والبينات، جاءت تكوينية، والتدوين وان جاء بالتوراة وزبور داود وانجيل عيسى. الا انها ليست في الواقع، منتهى الاعجاز في اللغات فالتوراة والانجيل والزبور، وان كان لها مقامات عالية، ولكنها ذهبت في العصور القديمة بالتحريف فاصبحت هذه الكتب الثلاثة، ليست اعجازاً للمتردد في الدين ولا ثبوتها يثبت نبوة موسى وعيسى عليهما السلام، فانه لا تثبت الرسالة للمتردد الا بالتدوين، على وجه الاعجاز.

فالآية ناظرة إلى البينات التكوينية، التي يسلمها اليهودي او النصراني، ويؤمن بها بحسب النقل المتواتر عندهم.

ان نبوة هذا النبي وخلافة اوليائه مما لا تقبل الترديد والتشكيك، وان من بدل الهدى،

من الله، وهي النعمة الكبرى بالضلالة والعمى، بعد ان اتضح له الحق وعرف الباطل من الصدق،فان الله يجازيه باشد العقاب، لان نفسه بعد اليقين قامت على الخلاف، وبعد الصدق، قامت على الباطل، فكيف لا يستحق اشد عقابه.

ثم جاءت الآيات تعبر عن نفسية البشر وهو أن نفسيتهم، وان كان الكل جلب على الفطرة وسلامة اليقين ولكن بعض النفوس قد احاطت بها الشهوات وغرتها الميول، وتوجهوا إلى اهداف زائلة من مصالح الدنيا ومنافعها، وتركوا اليقين بالواقع، بعد الاحاطة بحق اليقين.

وقد بيّنّا في المباحث السابقة، ان النفس الناطقة والنفوس البشرية لها اوج استعداد إلى الترقي والمنازل الشامخة، ولها انحطاط إلى غاية الهبوط والذلة.

وان النفوس وان فطرت على الحق ولكن قد تغلبها الشهوات وتسّيرها الميول فكأنه لم يسمع حقاً، ولم يشاهد باطلاً.

وان بعض النفوس، كما انها في غاية الترقي ونهاية المشاهدة للحق، يكون بعضها في غاية الانحطاط فكانه لا يدرك بعقله ولا يشاهد الحق بفطرته.

فللنفوس عالم سعة وكمال وعالم ضعف وانحطاط وقد صرحت الآية الشريفة بانه قد زين للذين كفروا الحياة الدنيا بالشهوات والمعاصي، والملاذ الفانية، وإذا كانت هذه الطباع السيئة من لوازم نفوسهم، نفوس تستدعي السخرية بالذين آمنوا فان كل من ارتكب طريقا وكان باعتقاده انه على الواقع يسخر بغيره، ويستهزء به

وان المؤمنين فوق من تعدى حدود الله يوم القيامة، وفوقهم في الدرجات الرفيعة والمنازل العالية، وعّبر بالفوقية، هي الفوقية المعنوية، وهي الخلوص لله، في الاعمال والتوجه اليه في كل حالة وليس المراد الفوقية الخارجية اذ ليس التقوى والايمان، في افق الكفر والفسوق.

وعندما بيّن الله حالة المتقين والاشقياء جاءت الآية الكريمة باسباب بعثة الانبياء،وكمال منزلتهم، فقال تعالى، كان الناس امة واحدة بعد آدم، اذ ليس فيهم القبائل ولا الشعوب، ولا تعدد العناصر واللغات، بل هم بشر لم تعتريهم ما يوجب الاختلاف، وعندما تكثروا واختلفوا في الآراء وطلب المنافع، بعث الله فيهم الانبياء.

ايها القارىء الكريم التفت إلى الهدف السامي في هذه الآية، وهو ان البشر حين

اختلافهم وتعدد اهدافهم احتاجوا بحسب الفطرة إلى الهداة، وان الهداية تارة تكون طبيعية، كادراك العقل، للحسن والقبح، والحق والباطل، الا ان العقل، وان ادرك باب الحسن والقبح، ولكنه لا يمكنه ان يهدي البشر، ويلقى عليهم نظرة إذا عملوا على طبقها بلغوا السعادة، فان العقل غاية ادراكه بحسن الاشياء وقبحها، ولا يدرك ان اي عمل إذا ارتكبه الانسان، بلغ السعادة والغاية، وانه إذاارتكب خلاف ذلك، انحط إلى الادنى، فان تشخيص السير والسلوك وترتيب الاعمال من العبادات وغيرها، لا تأتي الا من طريق رسالة السماء، والا لبقي الانسان، على غير هدى حتى الموت.

ولما كان بعث الامم إلى الصلاح الكامل لا يمكنه الا برجال من الهداة، يسّيرون البشرية إلى الفضيلة في الدنيا والآخرة،وهم البشر الكامل الذي بكمالهم استحقوا ان يبعث الله اليهم ملكا يوحى اليه نظام الحياة، وناموس الكمال، وهذا ليس كل انسان يقدر على الهداية، وانما خصّ الله بذلك افراداً لتكاملهم في الوجود، وانهم نور الموجودات والكائنات، وكانت نفوسهم مستعدة لقبول الوحي والالهام، فبعث الله فيهم النبيين مبشرين ومنذرين،حتى يتمكنوا من توجيه الخلق بالاتصال بالمبدء الاعلى، وان يجعل لهم ناموساً يعملون به، ويصلون في التربية إلى اوج الآخرة.

ولا يمكن ان تكون كل نفس واسطة بين الله وخلقه بل لابد ان يكون الوسيط لكرامته وشرفه ولنفسيته القدسية يقع هادياً ومرشداً، والا فلو كانت نفوس الانبياء، كسائر النفوس، لا يمكنها القيام بهداية البشر، لان المتساوي بالجهل والفضيلة لا يهديه الا من هو افضل منه، والا لسقط باب الارشاد والنبوات، وكان الناس في اوج واحد.

فوجود الانبياء والاولياء هم الوجود الاكمل،المحيط بما دونهم،والابطل الارشاد والرسالة، لان الكل في افق واحد،وليس الانبياء الا بحكم غيرهم، ولولا استعداد تلك النفوس وقابلياتها، ما جاءت رسالة من السماء ولا توجه نبي إلى الملاء الاعلى.

فالانبياء واسطة التشريع والبيان، لكل طبقات البشرية، لاجل هدايتهم.

فالانسان إذا محتاج في هذه النشأة إلى الفلسفة النظرية، بان جعل الله فيه العقل، وإلى الحكمة العملية لتوسيط الانبياء ومعارفهم، فهم الوسائط لصلاح اعمال المكلفين، وساطة تشريع وبيان، وان لم يكونوا وساطة تكوين وايجاد، إلا سيد الانبياءﷺ.

فقد ذهب الفلاسفة، إلىانه هو الوسيط في التكوين،وغاية التشريع والتدوين، وكون

الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وساطة التكوين،لا يوجب نقصاً في العلة التامة، وهو الله تعالى، وانما هو واهل بيته عليهم السلام شرائط المعلول، وقابلية المحل وان السير التكويني يحتاج إلى الوساطة، وهم اجل من العقول فيما ذهب اليه الفلاسفة، من الوساطة في التكوين.

وبعدما انتهى ذلك الموضوع، عبّر الله تعالى ام حسبتم وزعمتم ان تدخلوا الجنة، وتنالون نعيمها، او ما رأيتم من سبقكم في اعمالهم الباطلة، فانهم مستهم البأساء والضراء ووقعوا في الزلازل والمشاكل، وفي قبال هؤلاء، ما قاله الرسول والذين آمنوامعه، متى نصر الله ووعده، الا ان نصر الله قريب.

فان الآية الكريمة ابدت معنى وراء ظاهرها وهو ان الافعال الخارجية والاعمال من خير او شر، هي مظاهر النفسيات، فالنفسية اذاً تنورت بنور العلم وتنورت بنور العمل، كان حقا على الله ان يجازي هؤلاء بافضل الجزاء جزاء الحكيم القادر المتفضل، على عبده العاجز المحتاج إلى رحمته، وفي قبال هذه النفسيات نفسيات من وصفهم ببعدهم عن الحق،ومآلهم إلى النار، فان اعمالهم وان كانت قبيحة وخبيثة الا انها نتائج تلك الملكات الكامنة في النفس.

ولذا ان الانسان عند التأمل تجد ان نفسيته في غاية الرَّداءَة، وفي اسفل الانحطاط فكيف تنتج الاعمال الصالحة، اذ ان النفوس الباطلة والنفوس الحقة، هي مبدء لصور اليقين والمعرفة، وصور التباعد عن الله تعالى فكلما تمت معارف الانسان قلّت ذنوبه وكلما قلّت معارفه، كثرت ذنوبه، اذ فعلية الشيء ووجوده يتبع اقتضاء النفس.

فان النتيجة تتبع المقدمات، والفعليات تتبع القابليات، ولذا ان الله تعالى اكثر على الناس براهين الحق والآيات والمعجزات، حتى يرتدع من كان قابلا للهداية ولا يبقى الا الشرير الذي بلغ إلى منتهى الشر والبعد عن الله.

ثم الفت الله نظر المؤمنين إلى الانفاق، وإلى من يستحقه، ومن هو اولى به فان سألوك يا ايها الرسول الكريم ماذاينفقون، قل ان كل ما تنفقوه فينبغي لكم ان تصّيروه باعلى مراتب الانفاق، وهو الانفاق على الوالدين والقرابة واليتامى، إذاكانوا من القرابة والمساكين، ومن كان في سبيل الله، فان للاعمال مراتب وفضائل، كما ان لوجود الانسان مراتب في الفضيلة، وان التشكيك كمايجري في وجود الانسان يجري في افعاله واعماله،وان الله عليم بما تفعلون من الخير، على اختلاف مراتبه وتوجّه النفس اليه.

ثم اظهر الله تعالى، ما هو اعلى مراتب الطاعة وان اجل مراتب الطاعة التضحية والجهاد، فقد يبذل الانسان ماله، ولكن لا يقدم نفسه للفناء، وقد الفت الله هنا نظر المؤمنين، ان غاية العبادة، هوة تضحية النفس لاقامة الحق.

واي عبادة اجل واسمى، من ان يقدم الانسان نفسه تضحية للشريعة، واقامة للعدل الإلّهي، على وجه البسيطة،ان الصلاة وان كانت قربان كل تقي، ومعراج المؤمن، ولكن لا تصل إلى مرحلة التضحية لله.

والتعبير بانه، قد تكرهوا شيئاً وهو خير لكم او تحبون شيئاً وهو شر لكم، قضية حقيقية، منزلة على الغالب،والا فان المسلمين الاتقياء في صدر الاسلام، يتهافتون على الجهاد، كما يتهافت الظامى على الماء، رغبة لتلك الدرجات الشامخة، ورغبة في ايصال الاجيال إلى الهدى.

فهؤلاء الطبقة من الابرار، قد جمعوا بين المصلحتين من المصلحة الشخصية وهي وصولهم بالجهاد إلى غاية المنازل في الآخرة وإلى مصلحة نوعية،وهي حفظ الاجيال في العصور المستقبلة،باقامتهم للحق، وحفظهم عن الزيغ والضلال وهذه مرتبة عالية، في النفوس الشامخة القدسية.

ان الناس يسألونك ايها الرسول الكريم، عن الشهر الحرام، هل فيه قتال ام لا، والجواب، ان القتال فيه[1] كبير وعظيم، وان فيه الصد عن سبيل الله، وعدم التوجه إلى الله، وكفر بالله، وان اخراج المؤمنين من بيت الله اكبر حادثة عند الله، من افعال الكفار.

وان الفتنة التي مر بيانها، هي اشد من قتل النفوس المحترمة، لانها اساس الشرور،وجذور السيئآت وان غرض الكفار، ان يقاتلونكم، لترجعوا إلى دينهم، وان من رجع إلى الكفر، فقد حبط عمله، واضمحلت حسناته، في الدنيا والاخرة، وهم اصحاب النار الخالدون فيها.

وان الآية الكريمة،تلفت نظر القارىء، ان من نشأت نفسه، على الشرور والسيئآت، واستمرت لهالمدة بترك الحسنات، وتأكدت في نفسه السيئآت، رسخت تلك الملكة في نفسه، وهو في افعال لا تصدر منه الا القبائح، ويريد دائماً ان يرجع ذوي الحسنات إلى الشرور، فتجسمت فيهم تلك الاخلاق الرذيلة، بحيث انطبعت تلك الصفات، في ظواهرهم

---

١. وفي نسخة الأصل (فيه قتال).

وبواطنهم، فلا يفهمون في الحياة الا التعدي والفتن، واضمحلال الحق.

تجسمت هذه الصفات في ارواحهم، وانطبعت في عقولهم،وكما ان الخير إذا تكرر وصدر من الشخص جذبه إلى الخير الكثير، فكذلك الشرور، إذا استحكمت في النفس وازيلت منها الخيرات، تراه يعقب السيئة السيئة، ولا يستلذ روحياً، الا بشهوات زائلة، وصفات رذيلة،وهذا بعكس من جاهد بنفسه، وضحّى بحياته، فهما على طرفي نقيض، في دعوة الحق والباطل.

وان افعال العباد، من اهل التقوى والفسوق وان رأيتها هيئآتاً وحركاتاً وافعالاً مقولية، وانفعالات واوضاعاً، تجدها متفرقة في النظرة الاولى.

ولكن إذاامعنت بنظرة ثانية، وجدتها سيولا من منبع ونتائج من مصادر ثابتة في النفس تتجسم يوم القيامة فيراها العامل، من خير وشر، ويجزى بها العامل، بالنار او الجنة.

وان النفس عند التأمل، وبنظرة حقيقية، تجد هذا في اتجاهين وهدفين، هدف إلى نشأة الدنيا، وهي اضافة النفس إلى الكثرات والتعدد، وإلى التباين والاختلاف كما تقتضيه ماهية الانسان،فانها مثار الكثرة والتعدد،ومنشأ الاختلاف والتباين.

والهدف الاخر، هو التوجه إلى النشأة الاخرة، وهي جهة اضافة النفس إلى الوحدة الحقيقية، من عالم التوحيد والارواح، وان النفس إذا اوجدت عملاً جسمانيا، او نفسانيا روحيا، فانها عند ذلك تتكيف بالجهة الجسمانية، والجهة الروحية، وان نتائج حسن اتصافها بالجهة الدنيوية، ان تبعد عن الرذائل، وعندها تتمحض النفس للصفات الفاضلة والتباعد عن الخبائث.

واما إذا توجه هدفها إلى الآخرة، وهو الفراغ عن عالم الدنيا والانفصال عن العالم الجسماني، والتوجه إلى عالم القدس والتوحيد، فانه اعلى لذة من المآكل والمشارب.

وإذا ارتد المؤمن والعياذ بالله، حبط عمله ولاقى اشد العذاب.

اما عباد الله المخلصون، وهم الذين هاجروا من عالم المادة، إلى عالم العقل والروح، وجاهدت نفوسهم الباطل، فهم مهاجرون من هذا العالم، إلى العالم الاسمى، ومجاهدون في اقامة الحق، لانفسهم ولغيرهم فهم الذين يرجون اتم رحمته، ويجازيهم بافضل جزائه، وان الله لغفور رحيم.

وان للمآكل والمشارب لاثار طبيعية، وقد تؤثر بالروح والفكر، ومن هنا حرم الشارع

المقدس، كل مأكل ومشرب يؤول امره إلى تبدل روحية الانسان، وخروجها عن النظام المعتدل.

ولذا ان الشارع المقدس، حرم الخمر لما فيه من المضار الجسمية والروحية وقد ذكر الاطباء في هذا العصر تعداد مضاره وهي كثيرة، كالضرر بالقلب والرئة وتغيير الدم،بحيث يؤثر على النسل، في سقوط تفكيره، وخروجه عن نظام الاعتدال.

وقد حرض القرآن الكريم على تحريمه، ليبعد المسلم عن كل طعام وشراب كالخمر الذي هو في الحقيقة، يسلب روحية الانسانية، ويعقد حياته في المجتمع ويصبح عضواً ناقصاً. وان الميسر وهو القمار، مما يدفع النفس إلى عدم العمل والجهود، في هذه الحياة، فيقبض المال من غير استحقاق، ويضيق على الناس معاشهم. وان من مراتب النفوس العالية والعقول الكاملة، هو ان يعفو ويبدل سيئة المسيء بالحسنة، وتتعالى نفسه عن المجازات وهذا العفو من تمام الرحمة وتدبير العقل، وان الله اظهر لكم آياته وحكمه، وبيّن لكم نفوس اوليائه والاشرار من عباده، وانكم ان كنتم على يقين، فلابد من التفكر في آياته والسير على صراطه ومنهاجه.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله عليهم السلام واصحابه

العياشي، عن ابي بصير عن ابي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى «سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة، فمنهم من آمن، ومنهم من جحد، ومنهم من اقر، ومنهم من انكر ومنهم يبدل نعمة الله.

وفي المعاني والخصال عن عتبة عن ابي ذر (رض) قال قلت يا رسول الله كم النبيون، قال مائة واربعة وعشرون الف نبي قلت كم المرسلون منهم، قال ثلاث مائة وثلاثة عشر جما غفيراً قلت من كان اول الانبياء، قال آدم عليه السلام قلت وكان من الانبياء مرسلا؟ قال نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم قال يا ابا ذر، اربعة من الانبياء سريانيون، آدم وشيت، واخنوخ وهو ادريس وهو اول من خط بالقلم ونوح واربعة من العرب، هود، وصالح وشعيب، ونبيك محمد صلى الله عليه وآله، واول نبي من بني اسرائيل موسى، وآخرهم عيسى وستمائة نبي، قلت يا رسول الله كم انزل الله تعالى من كتاب، قال مائة كتاب واربعة كتب، انزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى ادريس ثلاثين صحيفة، وعلى ابراهيم عشرين

صحيفة وانزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان.

وفي نهج البلاغة، من خطبة لامير المؤمنين عليه السلام يذكر فيها آدم عليه السلام فاهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية واصطفى سبحانه من ولده انبياء اخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة امانتهم لمابدل اكثر خلقه عهد الله اليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الانداد معه، واحتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر اليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسى نعمته ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة، من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، و اوصاب تهرمهم، واحداث تتابع عليهم، ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل او كتاب منزل، او حجة لازمة او محجة قائمة، رسل لا يقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمى له من بعده او غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور،وسلفت الاباء، وخلقت الابناء، إلى ان بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله لانجاز عدته وتمام نبوته - إلى آخر الخطبة.

وفي المجمع،نزلت الآية الكريمة في عمر بن الجموح وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير،فقال يا رسول الله: بماذا اتصدق وعلى من اتصدق، فانزل الله تعالى هذه الآية، ويسألونك ماذا ينفقون إلى آخر الآية.

في الدر المنثور، اخرج ابن جرير عن ابن عباس قال كنت رديف رسول - الله صلى الله عليه وآله فقال يابن عباس ارض عن الله بما قدر وان كان خلاف هواك، فان ذلك مثبت في كتاب الله، قلت يا رسول الله، فاين وقد قرأت القرآن قال، وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون.

الدر المنثور اخرج ابن جرير من طريق السدى ان رسول الله صلى الله عليه وآله بعث سرية وفيهم سبعة نفر عليهم عبد الله ابن جحش الاسدي وفيهم عمار بن ياسر وابو حذيفة ابن عتبة ابن ربيعة وسعد بن ابي وقاص وعتبة ابن صفوان السلمي حليف لبني نوفل وسهل ابن بيضاء وعامر وعامر ابن فهيرة وواقد ابن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب وكتب مع ابن جحش كتاباً وامره ان لا يقرئه حتى ينزل «ملل» فلما نزل ببطن ملل فتح الكتاب فاذا فيه ان سر حتى تنزل ببطن نخلة فقال لاصحابه من كان يريد الموت فليمض وليوص فاني موص وماض لامر رسول الله صلى الله عليه وآله فسار وتخلف عنه سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان اضلا

راحلة لهما وسار ابن جحش فاذا هم بالحكم ابن كيسان وعبد الله بن المغيرة ابن عثمان وعمر الحضرمي فاقتتلوا فأسروا الحكم ابن كيسان وعبد الله بن المغيرة وانفلت المغيرة، وقتل عمر الحضرمي قتله واقدابن عبد الله فكانت اول غنيمة غنمها اصحاب محمد ﷺ فلما رجعوا إلى المدينة بالاسيرين وما غنموا من الاموال قال المشركون محمد يزعم انه يتبع طاعة الله وهو اول من استحل الشهر الحرام، فانزل الله «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير» لا يحل وما صنعتم انتم يا معشر المشركين اكبر من القتل في الشهر الحرام، حيث كفرتم بالله وصددتم عنه محمداً والفتنة اعظم عند الله من القتل في الشهر الحرام، فذلك قوله تعالى وصد عن سبيل الله وكفر به.

وفي الكافي عن علي بن يقطين، قال سأل المهدي ابا الحسن عليه السلام عن الخمر هل هي محرمة في كتاب الله تعالى، فان الناس انما يعرفون النهي عنها، ولايعرفون تحريمها، فقال له ابو الحسن بل هي محرمة، فقال في أي موضع هي محرمة في كتاب الله عز وجل يا ابا الحسن فقال، قول الله تعالى «انما حرم ربي الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، والاثم والبغي بغير الحق إلى ان قال، فاما الاثم فانها الخمر بعينها، وقد قال الله تعالى في موضع آخر «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما» فاما الاثم في كتاب الله، فهي الخمر والميسر واثمها اكبر من نفعهما كما قال الله تعالى، قال المهدي يا علي بن يقطين هذه فتوى هاشمية، فقلت له صدقت يا امير المؤمنين الحمد لله الذي لم يخرج هذا العلم منكم اهل البيت، قال فوالله ماصبر المهدي ان قال لي صدقت يا رافضي.

وفي الكافي عن ابي بصير عن احدهما عليه السلام قال ان الله جعل للمعصية بيتاً ثم جعل للبيت بابا ثم جعل للباب غلقاً ثم جعل للغلق مفتاحاً، فمفتاح المعصية الخمر.

وان لترتب الاثار السيئة على مشرب الخمر، ورد في هذه الرواية وغيرها انها اعظم الجرائم، ويجوز ان يكون الخمر اكبر الجرائم في المأكولات والمشروبات.

وفي الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام العفو الوسط.

وفي الدر المنثور عن يحيى انه بلغه ان معاذ ابن جبل وثعلبة، اتيا رسول الله ﷺ فقالا يا رسول الله، ان لنا ارقاء واهلين فما ننفق من اموالنا، فانزل الله تعالى، ويسألونك ماذا ينفقون، قل العفو.

وفي الدر المنثور في قوله تعالى، «ويسألونك ماذا ينفقون» الآية عن ابن عباس، ان نفراً من الصحابة، حين امروا بالنفقة في سبيل الله اتوا النبي ﷺ فقالوا انا لا ندري ما هذه النفقة التي امرنا بها في اموالنا، فما ننفق منها، فانزل الله تعالى «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو» وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد مايتصدق به ولا ما لا يأكل حتى يتصدق به.

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين»[١].

«ان الذين لا يؤمنون بالاخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون»[٢].

«الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم»[٣].

«وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما انذروا هزواً»[٤].

«واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين»[٥].

«وآت ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا»[٦].

«فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجراً عظيما»[٧].

«يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال»[٨].

«لان اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين»[٩].

«الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون»[١٠].

«يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان

---

١. الاعراف آية ١٧٥.
٢. النمل آية ٤.
٣. التوبة آية ٧٩.
٤. الكهف آية ٥٦.
٥. النساء آية ٣٦.
٦. الاسراء آية ٢٦.
٧. النساء آية ٧٤.
٨. الانفال ىية ٦٥.
٩. الزمر آية ٦٥.
١٠. التوبة آية ٢٠.

فاجتنبوه لعلكم تفلحون»[1].

الاعجاز (آية ٢٢٠ - ٢٣٠)

﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلا أَنْ يَخَافَا أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

قد اعقب الله تعالى تلك الاسئلة، بقوله تعالى: «ويسألونك عن اليتامى»، وكانت في جاهلية العرب من يستأصل مال اليتيم، ويجعله ثروة له، او يتزوج البنت او يزوجها لولده، وسيلة لقبض اموال الايتام، وهذه الحالة من الصفات الرديئة المنحطة، حيث تأخذه

١. المائدة آية ٩٠.

الشجاعة على من كان اسيراً عنده ومحتاجاً اليه.

فنبه الله النبي ﷺ عندما سأله العرب عن ذلك، فبيّن النبي ﷺ لهم انه من التعدي والظلم، وهو لا يستحق من المال شيئاً، فيتعين عليهم التكسب.

وان الله قد فتح باب الرزق، لمن دخل ابواب التجارة، وجاهد في تكسبه ومعاملاته، حتى ان بعضهم يدخل طعام اليتيم في طعامه. فنبّه الله تلك النفوس المنحطّة على الخطأ، وان لا بد لها من التكامل، والتكامل هنا رفض مال اليتيم، بكل معنى الكلمة، والانحياز عن المعاملة معه، بل ما يقتضيه الاجتماع، هو ان يدخل الناس في معاملات الايتام واموالهم لحفظها وامانتها، والتوافق معهم في التجارة بها حتى يربح اليتيم والعامل ويكون النفع للطرفين من غير اجحاف ولا تبذير.

وعندها فيصح ان يأخذ الكاسب شيئاً من المال على نحو الجعالة او المضاربة او تقدير متاعب العامل بقدر مخصوص من المال (فخير الأمور اوسطها) في السلوك مع الايتام ومعاشرتهم في اموالهم.

فحكم الله بطريق الوسط، من رفض اليتيم وماله وجميع شؤونه، ومن استغلال مال اليتيم، والتصرف فيه من غير رضى.

فجعل الطريق الوسط، بين التصرف والاستبداد في اموالهم، وبين رفضهم ورفض اموالهم، فحكم بالتبادل لاجل ان ينتفع اليتيم والشخص، فامر بمخالطتهم والصلاح معهم،وان مقتضى الاخوة، هو مساعدتهم بالكسب، وحفظ اموالهم، وان لا بأس بالاستفادة من اموالهم على الوجه المشروع، وان الله يعلم بمن يدخل معهم، لاصلاحهم واصلاح نفسه والمفسد الذي لا يرى إلاّ صلاح نفسه والسيطرة على اموال الأيتام.

ولو شاء الله لجعل بين سير الناس وسير اليتامى الصعوبات الكثيرة، ولكن الله لعزته وعظمته وحكمته البالغة، بيّن لكم طريق المعاشرة معهم بحفظ اموالهم، وان لكم حقوقاً إذا جعلتموها في الكسب وطبقاً للحكمة والفطرة على الصراط المستقيم استقام نظام الكل. وحصلت العدالة في التكسب والمعاشرة.

«ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولوا عجبتكم، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم اولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة باذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون».

قد جاءت الآية الكريمة وما بعدها، لبيان الاحكام الشرعية، وان تقارب النوعين من الذكر والانثى من غرائز الطبيعة، ولذا لا يختص بالانسان، بل يجري في الحيوانات والنباتات ايضاً.

فانك إذاراجعت الاشجار، رأيت فيها ذكراً وانثى بل قد يثبت العلم الحديث الزوجية من الذكر والانثى في مطلق الطبيعة، ولا يختص ذلك بالانسان، قال تعالى: «وخلق الزوجين الذكر والانثى»[١] ولم يذكر تخصيصه بالانسان والحيوان وحيث كان الزواج بين الذكر والانثى فطري، وعلى وفق الطبيعة، ومن الزوجية، نشأت الشعوب والقبائل، ونشأت القوميات والانساب وصار كل يدعى لابائه، قال تعالى «ادعوهم لآبائهم»[٢].

فان تعدد القوميات والقبائل لها خواص طبيعية وخواص شرعية، وحيث كان الازدواج بين الرجل والمرأة، هو امتزاج الروحين، وعلاقة الجسمين،وان هذه العلاقة إذا كانت على طبيعتها، فيحصل التأكد عند التزويج والامتزاج، كما قال الله «هن لباس لكم وانتم لباس لهن»[٣].

وبطبيعة الحال ان الرجل والمرأة، إذا كانا على مبادىء وعقائد مختلفة وافكار متغايرة، لا يمكن ان يحصل الاجتماع بينهما دائماً ولايمكن ان يقعا على الوداد، فيختلفان ولو بعد حين، وإذا نشأ من الزوج والزوجة ذرية،فيكثر فيها التشاجر والتباين، هذا من الناحية الخلقية والطبيعية.

وقد جاء النظام الشرعي والحكم بالاجتماع بين الرجل والمرأة على طبق هذا النظام النفسي، فقال تعالى «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» تأكيداً لماحكم به العقل، واقتضته الفطرة، فان كلا منهما، لا ينساق إلى الاخر، ولا يهتدي بافكاره.

والمراد من النكاح هنا، كما هو الغالب في اطلاقه وعبر عنه الراغب وغيره انه العقد ولا يراد به الوطي وان كان الاستعمال كثيراً في الوطي،ولعله من مداليله في المحاورات العرفية.

ولكن القرآن الكريم، لما بنى على الاداب والخطابات البليغة الموجهة للانسان نحو الشعور والهدف العالي في الحياة الانسانية، لم يعبر عن الوطي بالنكاح وانما التعبير منه بنحو

١. النّجم ٤٥ / ٥٣.
٢. الأحزاب ٥ / ٣٣.
٣. البقرة ١٨٧ / ٢.

لامستم النساء، ولا تقربوا النساء، ونحو ذلك.

والمراد من المشركين في الآية، هو ما قابل الكتابيين من اليهود والنصارى وان اطلق على الكتابيين الكفر، لان مفهوم الكفر معنى وسيع، وهو مطلق الحجاب على الشيء، فيطلق على منكر التوحيد والرسالة ومن لم يعمل بالوظائف الشرعية كالصلاة والصوم والحج. فانه اطلق على تاركها عنوان الكفر، وان كانت عقيدته ثابتة.

واطلاق الكفر على الكتابيين لا يلزم اطلاق الشرك عليهم، فان الظاهر من اطلاق لفظ الشرك هو من جعل لله شريكاً، او انكر اصل وجوده، ولذا لم يطلق لفظ الشرك على اليهود ولا على النصارى، مع ان بعض النصارى، كان قائلا بان عيسى عليه السلام ابن الله او ثالث ثلاثة، وان كان في هذه العصور،على حسب الاستقراء منهم لايقولون بان الله ثالث ثلاثة، ولا ان عيسى عليه السلام ابن الله، بمعنى المتولد منه، وكثير منهم يؤوّلون هذه العبارة بانه ابان الله واظهر التوحيد للعالم.

واجمالا ان عنوان الكفر،ليس عنوان الشرك والآية هنا غير متعرضة لحالة اليهود والنصارى، فالحكم بالحاق الكتابيين بانه لا يصح التزويج منهم، ولا تزويجهم، فله باب آخر، وسيأتي إن شاء الله ان التزويج منهم بشرائطه وقيوده في بعض الاحوال، مما قام عليه الدليل.

وان الآية استثنت لو آمنت المشركة والمشرك فانها تبقى على الزوجية، كما يبقى هو على الزوجية ايضاً ثم نبه الله تعالى ان الاتحاد النفسي والروحي، بين الزوج والزوجة، هو اشد مما تثيره الشهوة، من حب الجمال فاشار إلى ذلك بقوله «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» فان الجمال يذهب بعد ايام قلائل من المرأة، فلا يبقى بينهما الا العلاقة الروحية والامتزاج النفسي.

وان المسلم لا بد ان ينظر إلى ماله دوام في الاجتماع دون ما ينقضي بايام قلائل وان العبد المؤمن الثابت على ايمانه والقائم على عقائده وسننه خير من مشرك وان اعجبكم خَلقَه وخُلُقه، لتباعد الروح المسلمة المطمئنة بالايمان مع من ينكر الله، او يجعل له شريكا، وان المودّة والرفاقة لا تدوم، الا إذا كانت جذورها وبذورها ثابتة دائمة،ثم نبّه الله تعالى، ان الحكم السابق على طبق الفطرة الشرعية، وان المشركين يدعون إلى النار، والمسلمين يدعون إلى الجنة، وكل له هدف، لا يجتمع مع الهدف الاخر.

وان الله يدعو إلى الاسلام الحقيقي، وهو الجنّة والمغفرة التي يؤول اليها الانسان بعد الموت، ويدعو إلى الطمأنينة والامن في دار الدنيا، ولا طمأنينة مع المشركين فهدف المشركين يختلف مع هدف المؤمنين، في الامن في الدنيا والمغفرة في الآخرة.

وقد اظهر الله سبحانه وتعالى ما بيّناه في الآيات السابقة، ان المشركين يدعون إلى النار، ومن يدعو إلى النار، لا ينبغي التوافق معه في المعاشرة، فضلا عن الزواج الذي يقع منه النسل، وبقاء الانسان ببقاء ولده، فان الشرك بين الرجل والمرأة مما ينجرّ إلى قطع علاقة التوحيد ويصبح المسلم الذي يتزوج المشركة ولا سيما إذا أحبّ الجمال، وانقادت اليه فى الاخلاق ينقطع عن مبدء التوحيد ويتعرّى عن حقيقة الاسلام، فيصبح بعد زمن قصير اما على مسلك زوجته من الشرك واما ان لا يلتزم بدين من الاديان، كما هي الحالة المشاهدة، من اولاد المسلمين وبناتهم إذا عاشروا الغربيين المستهترين.

وبعد زمن قليل لا يبالي بأي حرمة للاسلام وما شأنه الا الاستهتار والاستهزاء بالاديان، ظنا منه ان ذلك من كمال المدنية، وان الدين يتبعه ضعفاء النفوس.

فالاسلام حرض على عدم التقارب، بين المسلم والمشركة وبالعكس، مخافة ان يقع التجاذب الروحي من المسلم للمشركة.

ومن اراد تفصيل الحال في الزواج بالكتابية من اليهود والنصارى، فليراجع الكتب المفصلة في الفقه.

وعلى الاجمال فعلماء بنوا على صحة زواج الكتابية، يهودية او نصرانية واما عند- اعلام الفقه من الامامية فذهب بعضهم إلى المنع، الا في العقد المنقطع، والحق الجواز مطلقا، وعليه تساعد الادلة، وليطلب هذا الموضوع من محله في الكتب الاستدلالية الفقهية.

«ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهّرن فاتوهن من حيث امركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين».

قد تكثرت الاسئلة من المسلمين للرسول الاعظم ﷺ كما تشاهدها في الآيات السابقة، وفي هذه الآية.

فالسؤال كان منهم هو جواز المقاربة، من الرجل للمرأة في ايام حيضها، فجاء الجواب، فاعتزلوا النساء في المحيض وكانت بعض الامم كاليهود وغيرهم إذا حاضت

المرأة، تجنبوها وتجنبوا جميع ما تباشره، وكانها في حال الحيض جرثومة بلاء لا ينبغي تقاربها.

وعلى عكس هذا ماعليه سيرة النصارى، وان لم يعلم انه مذهب ديني لهم فيقاربون المرأة عند حيضها كما يقاربونها عند عدم الحيض.

فجاء الاسلام بالعدل الوسط، وما تقتضيه ايام الحيض في المرأة.

وان الحيض في تكوّن الولد، مما له التأثير في الاخلاق والنفسية، حيث انه ينشأ وقد اغرق في دم الحيض، فمنع الاسلام مقاربة المرأة في حيضها، فالحكم من الله لا يأتي الا على وجه الصلاح، وان الله سبحانه وتعالى يربي البشر تربية واقعية، لا يمازجها خبث النفوس والرذائل، فلذا ان الشارع منع، لتلك المصالح الواقعية التي كشف العصر الحديث بعض منافعها وبعض مضارها وان تكّون الطفل في رحم المرأة في أيام الحيض مما يوجب رداءَة الطفل في اخلاقه وخلقه، فاراد الشارع ان يكون الطفل نقيا من الرذائل، فمنع من مقاربتها، حتى يطهرن، وإذاارتفع خبث الدم، كان المحل نقيا.

وقد جوز اعلام الفقه من الامامية المقاربة، بعد نقاء المحل من الحيض، لان السبب هو الحيض وما تقوم به المفسدة[1] ، هو تحقق الدم وخروجه من محله، وان كان بعد الطهارة اولى وانقى.

وذهب علماء العامة، إلىانه لا تصح المقاربة الا بعد الغسل والتطهير، ومن الواضح في مدلول هذه الآية، وفيما جاء من السنة، ان الموجب للكراهة وانحطاط الطفل عن كماله، انما هو من حيث وجود الدم، لا فيما إذانقى المحل وان ذهب بعض علماء العامة إلى ما تقوله الامامية.

وان كثيراً من نواهي الشرع التي كانت مجهولة جداً في العصور السابقة قد ظهرت ثمراتها في العصور اللاحقة.

ثم بين سبحانه وتعالى، انهن إذاتطهرن او طهرن فليأتي الرجل المرأة، من حيث امره الله.

ولعل هذه الآية الشريفة تعطي بظهورها حرمة الوطي في الدبر،وتفصيل هذا الفرع

---

١ . لأن الشارع المقدس وكذا العقل قد حصرا الحكم بنحو القضية الشخصية بالحيض فلا ينبغي جواز مقاربتها عمّا بعد ذلک (حفيده محمد طاهر).

موكول إلى الكتب الفقهية من انوار الوسائل وغيرها.

ثم ان الآية ذيلّت بمعنى عرفاني، وهدف عال في تكامل النفس، ان الله يحب التوابين، وليس المقصود، ان من وطي المرأة حائضا، فرجع عن ذلك بل التوبة كما بيناها في الفلسفة واوائل هذا التفسير انها هي الرجوع إلى الله وان لم يكن هنا ذنب ولا جريمة، وان التوبة من العبد هي الرجوع إلى الله، كما وان التوبة من الله هي الرجوع إلى العبد،وليس من شأن التوبة، ان تكون رجوعاً عن الجريمة.

وقد اوضحنا ذلك في «المثل الاعلى» ثم عبّر الله تعالى عن مقام أرفع من مقام التخلية، وهو مطلق الرجوع إلى الله، وان الله يحب المتطهرين، يحب من اتصف بفضائل النفس، فان من اتصل بالفضائل النفسية، هو ارفع واسمى ممن تخلى عن الرذائل فقط بعد ما بين حرمة مجيء الرجل في حال نزول حيضها، قال تعالى (نساؤكم حرث لكم... الآية) فالمرأة من حيث ان رحمها مزرعة النسل، فصرح الله تعالى ان المهم للرجل والمرأة ليس هو الشهوة والشبق، بل الشهوة وسيلة إلى معنى سامي من النسل وتعدّده وتكّثره في الاجيال وليس ذلك الا محل الحرث وهو الفرج من النساء، فعبر عنه بالحرث، لان منشأ النسل منه، كما ان الأرض المعمورة هي منشأ للزراعة.

وأنّىٰ شئتم بمعنى من اين شئتم ويصح بمعنى متى شئتم كماتقتضيه سياق الآية، ولا تنافى بين هذا المعنى ومعنى كيف شئتم ومتى شئتم، فان سياق الآية لا يتنافى مع هذه الوجوه.

والاقرب في مفاد الآية بحسب سوقها بعد حرمة مجيء الرجل للمرأة في كل زمان خلت المرأة من الحيض جاز للرجل مقاربتها ولم تكن المقاربة والشهوة الا وسيلة لكلمة الله الخالدة على وجه الأرض من التوحيد والعقائد الشرعية، لان الغرض من تقارب النوعين هو تلك النتيجة الصالحة بان يغرز الرجل والمرأة الكلمة الخالدة بوجود الذرية الصالحة وان مجيء الرجل للمرأة في هذا النظر هو من أهمّ العبادات التي تبقى كلمة التوحيد على الأرض ما دام الانسان موجوداً، فالنظر في الآية إلى الزمان وتوجيه البشر إلى العناية في النسل، فربّ ذرية تكون من الرجل والمرأة هي افضل بشر على وجه الأرض في زمانه، وان الله جعل الشهوة في الرجل والمرأة تحقيقاً لايجاد الابرار والاخيار والانبياء والاولياء والصالحين من عباده، ولو اريد في الآية المحل فلا تتوجه ايضاً الا إلى المباشرة بين الرجل

والمرأة وليس لها نظر إلىغير القبل وجسم المرأة في الاستمتاع من غير ترخيص وتوجيه إلى غير هذا المعنى مما ذكره بعض المفسرين.

ثم ان القرآن الكريم مما يعلم منه هو النظر في المباشرة في البدن والقبل دون نظر إلى تجويز الدبر او منعه، قوله تعالى (وقدموا لانفسكم واتقوا الله... الآية) فان التقديم هنا ناظر إلىالنسل الصالح وأيّ تقديم اعظم من ذلك في هذا الكون،فان الانسان خليفة الله في ارضه، وعليه محور التكاليف والعبادة وقوله: خلقت الخلق لكي اعرف، وأيّ تقديم اعظم من هذا التقديم وارفع منه في هذا الدار، واتقوا الله في حفظ فروجكم ونسلكم، واعلموا انكم ملاقون الله تعالى في دار الاخرة وتجزون مما كنتم تعملون.

وعند ذلك الفت القرآن الكريم نظر الامة ان من سلك طريق الحق يستحق التبشير من الله وانه من المؤمنين والهدف من الآية الكريمة وما تقدم هو توجيه البشر إلى هدف سامي ومنزلة رفيعة وهو ملاحظة الذرية والنسل وان يكون نسل الانسان خليفة الله في ارضه، وهم القائمون بعبادته والتّفاني في ذاته تعالى، فكم من مولود يوجد على هذا الكوكب هو عند الله افضل المخلوقات ومن اجل الكائنات.

«ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم».

قد توجهت الآية في مقام القسم إلى هدف سامي وهو ان الناس لما كانوا يكثرون بالقسم، حتى لو كان القسم غير كاذب، فان الله تعالى فوق مقام اغراض الناس ومنافعها، فيحلفون لمنافعهم ويحلفون للتبرّي من امور يرون انفسهم لا يعملونها ويحلفون عند كل معاملة وحاجة والشيء إذاتكثر ذكره، هان في النفوس مقامه، فاذا حلف الشخص للمنافع ودفع المضار والتكسب والمعاملات، او كثر القسم في بيته، فقد جعل ذلك الوجود العظيم، محل الشيء العادي والمتعارف بين الناس، فيجعلونه تعالى عرضة والعرض هنانظير عرض المال للبيع والغذاء للاكل.

والمعنى هنا غير ما يقال ان الفتاة عرضة للزواج او الهدف انه عرضة للسهام، وليس المقصود هنا من العرض بمعنى المانع، فالمراد من العرض هنا لا تجعلوا الله هدفا بكثرة القسم.

ونسبة القسم إلى الايمان على نحو التجوز، لان بالايمان غالباً تقضى غالب الاعمال،

فاشتق من آلة العمل اسم للعمل، وهذا كثير التداول في لغة العرب، من استعمال الشيء بمعنى آلته، والمعنى ان لا تجعلوا الله هدفاً لايمانكم وان تبرّوا وتتقوا خير لكم، فلابد ان تقع منكم المبررات والخيرات وتتركوا ما نهاكم الله عنه من القسم في غير موضوعه، وانما جعل القسم مأموراً به من قبل الشارع في مقام حسم الدعوة بين المترافعين، فانه إذاحلف المدعي، او رضى المدعي عليه بقسم المدعي،انحسمت الدعوة بحيث حتى لو كان المدعي واقعاً ان المال له، ولكن حلف المدعي عليه، فلا يجوز له المال وان كان المال واقعاً ماله، كما في الحديث في السؤال جواز اخذه، إذاعلم المدعي انه ماله.

فقال عليه السلام قد اشتراه بيمينه، وفيما عدا هذا فلا ينبغي ان يجعل الحلف بالله هدفاً لاغراض الناس وحوائجها وانتفاعاتها، وان يكون المؤمن ذو بر وتقوى وان كان ترك القسم في هذا الموضوع اولى اجلالا وتعظيماً لمقامه تعالى.

لا يؤآخذكم الله باللغو في ايمانكم الآية، وبعد ان نهى الله تعالى عن القسم، من غير ضرورة ملجئة لذلك فان الله اعظم من ان يكون مقالة للالسن، وهدفا للكلام،نبه على ان القسم المنهى عنه، هو ما كان من غير ضرورة ولكن بقصد القسم.

والقسم حقيقة يتم بعقد ايجابي وسلبي، اما الايجابي فمفاده ارتباط العبد بربه، ان كان صادقاً، ويسلب الارتباط ان كان كاذبا.

ولكن الايمان اللغوية، التي بنيت على اللغو في الخطاب او على ذكر الله تعالى من غير قصد إلى القسم، او من عادة اللسان كما يعتاد الانسان حركة اصابعه ويده، من غير التفات إلى عمل عقلائي، فلا يؤآخذكم عليه بالعقوبة، لانه ليس من باب القسم الواقعي، وانما يؤاخذكم بالقسم الذي انعقدت عليه قلوبكم، وان قصد الحالف الارتباط بربه، والا فيحصل عدم الارتباط بالله والخروج عن طاعته.

«ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» ان الآية الكريمة قد تعرضت لليمين الذي تترتب عليه الآثار، واليمين الذي عبر عنه باللغو يقع بعادة اللسان وليس من قصده القسم الحقيقي.

اما القسم الحقيقي الذي يكسبه القلب ويقصده الفكر هو الذي يعتبره الله قسماً وترتب عليه الآثار من الحنث والكفارة.

وانت إذاتأملت الحلف والقسم وجدته قسماً لاغياً لا يقصد منه التوجه إلى الله

وارتباط العبد بربه ولانفيه عنه وهذا نحو من الكلام اللغو الذي لا يترتب عليه كل اثر كمن قبيل عادة بعضهم لا والله وبلى والله من غير قصد إلى عقد القلب إلى شيء المعبر عنه في الآية الشريفة بماكسبت قلوبكم وانعقدت على اليمين والتعبير بماعقد عليه القلب من دون ان يقع التعبير بما جزم به الفكر والدماغ لنكتة وان لم يصل العلم الحديث اليها.

ومن الجائز ان يعبر عن النفس بالقلب لان القلب هو مبدء سير الدم إلى الجسد كله وبهذااللحاظ تقوم الروح بآثارها والدماغ بتصوراته.

ولذا ورد كثيراً في القرآن الكريم وفي كلمات ابناء المحاورة التعبير عن النفس بالقلب بل قد يعبرعن العقل والروح بالقلب لان منشأ الحياة والعقل في عالم الطبيعة هو القلب بحركاته ولذا ان بعض الحيوانات قد تفقد الحركة الذهنية والدماغية وهي باقية ولا تموت الا بموت القلب.

وكذا الانسان يفقد شعوره وتصوراته النفسية ويغفل عن نفسه والقلب باق على حركاته ومجراه في حركة الدم للجسد.

وان هذا القسم مما تترتب عليه الكفارة من عتق رقبة او اطعام عشرة مساكين او الصدقة او صيام ثلاثة ايام وهذا القسم لايقطع العصمة بين الله وعبده والقسم الثالث من القسم، ان يحلف كاذباً، ويعلم بكذبه لتحصيل مال او منصب ورئاسة، وهذا القسم يقطع العصمة بين العبد وربه، وهو من اعظم الكبائر واقبح الذنوب،وماهو الا مستهتر بمقام التوحيد.

ولذا ان كثيرا من علماء الخاصة والعامة، لم يلتزموا في هذا الفرض بالكفارة لان الكفارة تدفع الذنب مالم يصل العبد بذنبه إلى غاية التجري، فليس له عند الله تعالى الا العقاب، والله غفور رحيم لمن تاب واقلع عن قسمه، ورجع إلى الله وله الرحمة والغفران حتى في الصورة الثالثة، من القسم الكاذب.

اما القسم الرابع من القسم، وهو القسم عند الاضطرار كالخوف على نفسه او على عرضه، او لتخلص ماله،فقد ورد في الاحاديث الشريفة، عدم التعقيب عليه وانه جائز في نظر العقل،وواقع في محله، كما ورد في القسم للعشار فاضطر إلى القسم لحفظ ماله او نفسه، بل ربما كان واجبا، كما إذا خاف على نفسه او على عرضه، فانه يتعين عليه القسم لحفظ نفسه، وتوابعه وعرضه.

«للذين يؤلون من نسائهم تربص... الآية» ان حالات الزوج مع الزوجة على اطوار، طور منه، الامتزاج الروحي بينهما، وفي هذه الصورة لا يقع خلاف ولا نزاع ولا تشاجر «وحالة ثانية» وهي منتهى التنافر والخلاف،وعم التئآم احدهما مع الآخر، وفي مثل ذلك فتح الشرع الاسلامي باب الطلاق،ليستريح كل من تعذيب الاخر بل الفطرة وحكم العقل قاض،بان الزوج والزوجة إذا كانا في غاية الخلاف فلا مبرر لهما الا الطلاق والا كانت حياة تعذيب وانتقام.

وهناك حالة ثالثة، بين الرجل والمرأة من التبادل في الاخلاق الحسنة، فيعاملها بالحسنى وهي تعامله كذلك وهذا من باب التبادل والمعاوضات فكما تجري المعاوضات في الاموال والتجارة تجري المعاوضات في الاخلاق الانسانية وعلى هذااكثر اخلاق البشر في معاشراتهم.

والحالة الرابعة انه هناك تشاجر وخلاف ولكن يمكن علاجه بصورة يرجع الرجل إلى العدل او المرأة وهذه الحالة قد يصدر من الرجل الايلاء وهو القسم فيحلف انه لا يطىء زوجته ابداً او مدة تزيد على اربعة اشهر وفي هذاالفرض جعل الشارع قواعداً في الاسلام كما ان الايلاء في الامم السابقة وفي زمان الجاهلية له تحقق وان كان بوجه غير مافي الشريعة الاسلامية وليس الايلاء الا اقراراً من الشارع لهذا القسم من الرجل، واسباب الدواعي إلى امضائه، هو المحاولة في المرأة التي لا اخلاق لها، ولا عرف الا التوبيخ والتشاجر.

فالله تعالى قد فتح لعبده باب المعالجة، وان يعالجها بالايلاء وان ترجع إلى طريق الزوجية المستقيمة فاذا حلف لم يقاربها وعند ما تزيد المدة على اربعة اشهر كماهو المعروف بين الناس ان عدم المباشرة لا تزيد على اربعة اشهر.

ومن الجائز جداً ان التقارب الجنسي لا يحدد باربعة اشهر بحسب البيئآت والاماكن من حرارة الهواء وبرودته وكان الحكم منّزلا على الغالب فاما ان يرجع ويكفر كماإذا عادت إلى الصلاح وعند ما يؤول امرها إلى الصلاح وإلى السيرة المستقيمة في الزوجية ومع هذا والرجل آب عن الرجوع فقد حكم الشارع المقدس عليه بطلاقها لئلا تكون حياتهما في جحيم وإذا امتنع عن الطلاق الزمه الحاكم الشرعي بالطلاق ليتخلص كل واحد منهمامن عذاب الاخر وإذا رجع فلابد ان يكفر.

ولم يظهر من الآية او الروايات ان التكفير عن ذنب بل لعل السيرة في البشر تقتضي الايلاء في بعض الاحيان بين الزوج والزوجة لاجل الرجوع إلى الصلاح او إلى الطلاق ليستريح كل من عذاب الآخر.

(والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء الآية) ان الطلاق هو ازالة العلقة الثابتة، بين الزوجين ويعبر عنه في بعض كلمات اللغويين بالتخلية وحقيقتها ازالة علقة الزوجية بين الرجل وامرأته.

والطلاق الذي جاء به‌الإسلام وجعله ناموساً في الحياة،هو على جبلة البشر وطبيعتهم فانه إذا حصلت المشاجرة والنزاع والعداء على وجه لا يمكن الاصلاح فلابد من طريق للحياة والراحة للطرفين وليس هو الا الطلاق وقد جعله الله تعالى بيد الزوج دون الزوجة لانه لو كان الطلاق بيد الزوجة لاختلّ نظام الازدواج واصبحت الحياة بلاء على أهلها.

فالمطلقات في الآية الكريمة يراد به مطلق المطلقة في اول التعبير ولكن يأتي التخصيص والبيان في الآية فان المطلقة إذاكانت يائساً او غير مدخول بها او دون التسع فلا تحتاج إلى التربص والعدة فيختص الحكم هنا بالمرأة المدخول بها وحكمها ان تتربص ثلاثة قروء والقرء اسم للطهر والحيض.

وقد ذهب علماء الامامية انه بدخول الطهر الثالث تخرج عن العدة وذهب علماء العامة انها لا تخرج الا بالحيضة الثالثة.

ثم تعرضت الآية الكريمة ان المرأة في زمان عدتها يجوز ان تكون حاملاً وليس لها ان تكتم ذلك فان الولد منسوب لوالده الا ان تخرج عن امر الله بعدم الاعلام بما في بطنها من الحمل.

ثم سن الله حكم جواز الرجوع لزوجها في زمان العدة وهو احق بها ومعنى الاحقية هو ان الرجوع له لا انه احق من غيره اذ ليس لها ارتباط في حال الزوجية لاحد غيره فهو حقيق بها لا احق من غيره ولكن ان يكون الرد من الزوج على وجه الاصلاح للندم على تعديه عليها وإساءته لها.

او أن الطلاق يكون تأديبا، إذا كانت سيئة الاخلاق، فالرجوع مصلحته اقلاع الذنب والرجوع إلى التلائم من الطرفين،والا فلو قصد الرجل في الرجوع بالزوجية الا ضرار بها،او

الانتقام منها، كان مأثوماً ومعاقباً وان صح الرجوع، وكون الرجوع من الزوج للزوجة حكماً او حقاً فذاك موكول إلى الكتب الفقهية.

وقد فصلنا ذلك في «انوار الوسائل» وإذاارجعها في هذه الحالة من الاضرار الزمه الحاكم الشرعي بالطلاق وقد يؤول الامر بطلاقها قهراً عليه وعند الرجوع فيكون للمرأة حق على الزوج وللزوج حق عليها، حسبما فرضه الله تعالى في كتابه وسنة نبيه وان تكون العشرة والصحبة بالمعروف، ليرتفع سوء التفاهم السابق، والتأثر بينهما.

ثم تعرضت الآية ان للرجل درجة على المرأة وبقرينة سوق الآية ان الدرجة ليس مطلق تقديم الرجل على المرأة في جميع الاحوال بل الدرجة هي ان له جواز الرجوع او حق الرجوع مادامت في العدة ولعل التنكير في الدرجة يراد به التعميم من جهات اخرى من ان الرجل له ولاية على امرأته ومن ان الرجال بالقياس إلى النساء لهم درجات اخرى.

فالقاضي لا يكون الا رجلا والحاكم والمقلد وصلاة الجماعة من خواص الرجل وان جاز للمرأة ان تصلي بالنساء ومن نقصان شهادتها وميراثها وفي القصاص من اختلاف حكمها عن الرجل في القتل.

وسيأتي منا في اضواء الآيات في السور، ان ذلك على وفق وجود الرجل والمرأة من حيث الاجتماع ومن حيث الخلقة ومن حيث التكامل وان الرجل في عقله اوسع دائرة كما ان المرأة اوسع دائرة في العواطف ولذا جاءت الاحكام على وفق نشأتها ونشأته لا حيف على احدهما حتى ان دماغ الرجل يخالف دماغها في التركيب في الجملة بحيث إذا جاءت الصورة الذهنية فقد تنفعل بها المرأة بسرعة بخلاف الرجل وذلك من حيث ان تركيب دماغها يخالف تركيب دماغه في الاعوجاج والاستواء وان الله سبحانه وتعالى قد خلقها على طبق حكمته وعلمه وعظمته.

(الطلاق مرتان فامساك بمعروف؛ الآية) ابتدء سبحانه وتعالى بالطلاق واحكامه من غير ذكر متقدم يدل على قطع دابر الفساد الذى كانت ترتكبه الجاهلية والامم السابقة من طلاق المرأة مرات متعددة ولو إلى مئة مرة او اكثر سلبا لحرية نوع المرأة التى تقابل نوع الرجل فقد كانت الامم قبل النظام التشريعي في الاسلام مبنية على الضغط والانفجار وصيرورة المرأة مستهلكة في ارادة الرجل باشد من استهلاك العبد المملوك، فقطع القرآن الكريم جذور هذه الفوضى وحكم بان الطلاق مرتان، فيما يمكن للرجل ان يلتئم مع المرأة.

فان كل انسان إذا تنفر ممن يعاشره، فيمكن ان يتراجع اليه مرتين، فيحمله على الخطأ والاشتباه في المرة الاولى، وفي المرة الثانية على وجه التردد، بأن الحالة من الشخص، هل هي طبيعة له وخلق جاف، فاذا طلق في الثالثة سد عليه الشارع باب الرجوع، اذ اصبح الانتقام من الزوجة من عادته واخلاقه، وعندها تنكح زوجاً آخر، وإذاطلقها فيجوز له ان يتوافق معها، ولكن على اصول تبتني على التفاهم والتآم الاخلاق والمودة.

وإذانظر الانسان نظرة تأمل في الطلاق وجد حكم الشارع، في هذا المقام على طبق الطبيعة الانسانية الاولية.

ثم صرحت الآية، ان الطلاق الثاني إذاكان بامساك بمعروف، فيتراجع اليها، او تسريح باحسان اعم من ان يكون التسريح بالاحسان ليحصل التلائم بالاخلاق بابقاء الطلاق من دون رجوع حتى تخرج من العدة او يعقب الطلاق الثاني طلاق ثالث، وإذااريد بالتسريح بالاحسان ما يشمل الطلاق الثالث، فيراد ان لا يجعل لها طرق الاذى وتكون مختارة في تزويجها من أي شخص، او بقائها من غير تزويج.

وقد بين حالة الطلاق، بان لا يكون الطلاق ان يرجع بما اعطاها من صداق إذادخل بها، أو اعطاها هدية او ملكها مالا، فلا يجوز له الرجوع به او بادلته بمال، ولو كان اقل من ماله فلايصح له التعدي، بأخذ المال في جميع الصور.

ثم استطرقت الآية حكماً آخر، وهو تعدي حدود الله تعالى واحكامه من طرق الزوج او الزوجة وهذا الحكم وهو الطلاق الخلعي لم يكن في الأمم السابقة، واما في الجاهلية فلا يتصورن هذا الحكم اذ بنيت نفوسهم على الضغط والاذى فنبه الله تعالى ان للمرأة جواز ان تخلع نفسها من زوجها سواء كان التعدي من الزوج، أو منها فان باب الخلع مفتوح في الصورتين فاذا خاف الزوج او الزوجة ان لا يقيما حدود الله واحكامه، بان يتعدى احدهما على الآخر، فقد فتح الله باب السلم والفراق من غير اذى، فتبذل صداقها او باكثر من الصداق لئلا تكون حياتهما حياة جحيم.

وقد تكثرت الاخبار ان بدء هذا التشريع هو قصة ثابت بن قيس، فانه كان متزوجاً بنت عبد الله بن أبي، وكان يحبها وهي تبغضه فأتت النبي ﷺ وقالت يا رسول الله لا انا، ولا ثابت لا يجمع رأسي ورأسه شيء وكان ثابت قد اصدقها حديقة، فقال ثابت والحديقة فقال لها الرسول ﷺ ما تقولين، فقالت نعم وازيده قال رسول الله ﷺ لا، الحديقة فقط

فاختلعت منه وروى ابن جرير باسناد عن ابن جرير انه سأل عكرمة، هل كان للخلع اصل، قال كان ابن عباس يقول، ان اول خلع كان في الاسلام في اخت عبد الله بن أبي، انها اتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله لا يجمع رأسي ورأسه شيء ابداً انـي رفـعت جـانب الخباء فرأيته قد اقبل في عدة، فاذا هو اشدهم سواداً واقصرهم قامة واقبحهم وجها، فقال زوجها يا رسول الله، اني قد اعطيتها افضل مالي، حديقة لي، فان ردت على حديقتي، قال ما تقولين، قالت نعم وان شاء زدته، قال فقرق بينهما.

فان الروايات وان تعددت في قصة زوجة ثابت، فان مضمونها واحد، فللزوجة ان تفتدى نفسها من الزوج برضا كل منهما، بحيث لا يتعدون حدود الله واحكامه من الاخذ بمال محرم، او بشروط غير شرعية ولا جناح عليهما ولا منع بل قد يقتضي الموقف الخلع وانه راحة للزوج والزوجة، قال تعالى: «ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون».

(فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا الآية) وإذاطلقها زوجها ثلاثاً كان الطلاق الثالث مانعاً من رجوعه بها ونهل ذلك سيرة فطرة الانسان حينما تتكرر منه خلاف الاخلاق والغضب.

فان الانسان إذاصدر منه ما لا يناسب من حالة الغـضب لم يـرتب العـقلاء وذوي الاخلاق خروجه عن طبيعة البشرية فان الانسان قد يغضب وقد يتجاوز على غيره فاذا عاد إلى ذلك وقع اهل المعرفة في التشكيك بحياة ذلك الشخص بانه على وفق الطبيعة او كان غير مستقيم على الجادة المعتدلة، فاذا جرى منه خلاف السير الطبيعي من التوهين والفتك بزوجته عرف كل عاقل ان عادته في حياته السير على غير الاستقامة.

ولذا ان الشارع المقدس على وفق السير الطبيعي جاراه مرتين في الطلاق بخلاف الطلاق الثالث فانه لو جاز له الرجوع والطلاق بعد ذلك لحكم الشارع المقدس نوع الرجال على النساء بالظلم والهوان وان الشارع من مهمته السلوك بينهما على وجه لا يـبقى تأثـر بينهما وإذاطلقها بالثالثة وتزوجت برجل آخر، ولكن بشرط كما ورد في بعض الروايات ان يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته وهو كناية عن التقارب بالجماع، فـاذا طـلقها الثـاني وأراد الرجوع بها الأوّل فان كان كل منهما قد وطن نفسه على حياة زوجية صحيحة على طبق ما فرضه الله من نظام اجتماع الزوجية من غير تعد من كل منهما على ما رتـبه الشـارع مـن الوظائف والاحكام صح الرجوع والعقد من جديد.

فان الانسان قد يعرف بالتجارب سلوك الحياة بين الصحيح وغير الصحيح وإذاتراجعا، كان في الغالب كل منهما نادماً على افعاله، فيحيون حياة طيبة بعد الشقاء، ويعتبر عند علماء الامامية ان يكون الطلاق في دفعات ثلاث، ورجوع في العدة الاولى والثانية دون الطلقة الثالثة.

وقد جوز علماء العامة ان يطلقها بانشاء واحد، ثلاث مرات، فيقول زوجتي طالق ثلاثاً، او يكرر صيغة الطلاق، ولكن مذهب الامامية على خلاف ذلك حفظا للعلاقة الزوجية، فان الانسان قد يعتريه الغضب فيطلق ثلاثاً دفعة واحدة.

ويحاول المذهب الامامي، ان الطلاق من الرجل ان يكون عن تروٍّ وتأمل وان لا يكون في تسارع ولعل من يطلق ثلاثاً بانشاء واحد ان يكون طلاقه قد تسارع فيه لانهيار اعصابه، ولعل مثل هذا الطلاق لا يقع صحيحاً بل مشوبا بنوع من الجنون، وتلك الحدود، هي ناموس للحياة يعرفها كل من التفت إلى حقيقة الواقع وان الآية الكريمة قد اشتملت على الطاف في البيان والتعبير واظهار احكام متعددة في اقصر عبارة، كما هو شأن القرآن في اعجازه.

وقد اشتملت الآيتان على الكنايات المتعددة من الامساك بالمعروف وتسريح باحسان وقوله تعالى مما آتيتموهن شيئاً كني به عن المهر وان قوله تعالى «وان خفتم» قد كني به ان الخوف جار على مجرى العادة، واماالفداء بالمال فهو استعارة او كناية عن المال من المرأة في الخلع وان التراجع في الآية عبارة عن العقد.

الاتجاه الفلسفي

ان هذه الآية، وما يتلوها من بعض الآيات قد توجهت إلى الوجهة الاخلاقية من الفلسفة وإلىعالم التربية والتعليم فقال تعالى «ويسألونك» ايها الرسول الاعظم عن اليتامى، فأجبهم ان السير والنظام، والخلق الكريم يحفظ نظام الاصلاح والعدل بين الكبير والصغير، الولي واليتيم.

ثم نبه الله تعالى، ان اليتيم لا قصور فيه من الناحية الإنسانيّة، فمن بدا معروفاً على أحد، وسيما الاطفال قبل بلوغها، حصلت منه الرأفة للكبير والاحترام له واصبحت الاخلاق متبادلة فيوم يرعى الكبير الطفل واليتيم ويوم آخر يرعى الطفل الكبير والعاجز من آبائهم

وغيرهم.

وان الله يعلم من يعاشر بالعدل والإحسان، مع اليتيم ويقصد تربية النوع ونظام الاجتماع، ويعلم من ليس له الا الاغراض الشخصية والمنافع الدنيوّية، فيعلم الصالح من الفاسد ومن تمركزت فيه فضائل النفس، او من طبعت نفسه على الاخلاق الذميمة ولو شاء الله لاعنتكم وضيّق عليكم في أمر اليتامى.

ولكن حيث ان النظام الاخلاقي والاجتماعي يقضي بالرحمة واللّطف من الاباء والأرحام وسائر الطبقات باليتامى لتكون التربية على منهاج صحيح تربية اسلامية ليس فيها غرور ولا طيش ولا استهتار لا من طرف الاباء ولا من طرف الايتام.

فان الاسلام يلزم الناس بالاخلاق الفاضلة ويربيهم تربية صالحة وان الله حكيم في تدبيره في جميع الطبقات فما قام العدل والاحسان في امة بعضها لبعض، الا كانوا منهاجاً للسائرين والصالحين حيث ان الاسلام كماتشاهد تقاديره واحكامه قد جمع شتى الفضائل وانواع الكمالات، دين تربية وتعليم دين نفسية واطلاق حرية وتكامل.

ولو ان المسلمين عملوا بما شرعه الاسلام من حالات النفس ومن تكاملها ومن الاخلاق والتربية والاحكام، لاكلوا من فوق رؤوسهم ومن تحت ارجلهم وكانوا اخوانا لافضل لاحد على احد الا التقدم بالتقوى والمعارف.

فالاسلام منهاج وميزان لا تبديل له ولكن المسلمين في اقطار الدنيا لم يعملوا على وفق نظامه.

ثم نبه الله تعالى على ان البشر إذالم يكونوا في افق واحد من الهداية، كان بعضهم لبعض عدواً فلذا حرم الله نكاح المشركات للمسلمين لان التوافق إذا لم يكن في العلم والعمل وفي النفس والعقل فلا التئآم بين الزوجين، وكان التزويج بالمشركة، بثاً لبذور النفاق بين المسلمين فان الولد إذاكبر ورأى امه مشركة ولها مباني وعقائد تنافي الاسلام ومعارفه، كان الطفل عند رشده آلة لتفريق المسلمين فان الجمال يذهب من المرأة المشركة، والخلق يبقى في ولدها ولا خلق مع اختلاف المبادىء في التوحيد والرسالة والولاية.

واذا اندمجت هذه الحالات المبنية على اختلاف العقائد والميول والشهوات لا يحصل التلائم بين الزوجين.

فان نسبة النفس إلى الروح نسبة الزوجة إلى الزوج لانفعالها وتأثرها به، وإذا كانت

المرأة صالحة مطاوعة لزوجها، غير ناشزة ولا مخالفة لاوامره وليست غدارة في صحبته فتكون نفوس الازواج والزوجات متوجهة إلى الحق وإلى اوامره تعالى.

وعندها يكون الزوج والزوجة في افق سامي من الحياة وهذا هو الذي تحاوله الآيات الشريفة، وتلوح اليه.

وقد بينا آنفاً ان الزوجية اما امتزاج اخلاق بينهما واما تبادل في الحالات والنفسيات واذا كان كل من الرجل والمرأة في افق يغاير افق الاخر في العقيدة والعمل كانت الحياة بينهما جحيماً وما توالد منهم يكون بؤساً على المجتمع.

وان العبد إذاكان مؤمناً ملتزماً على منهاج الشرع القويم خير من مشرك وان اعجبك وضعه وخلقه.

ثم نبه الله سبحانه وتعالى ان التوافق بين العلم والعمل انما هو في حالة المؤمنين دون المشركين فأن الله يدعو إلى الجنة والمغفرة باذنه ومن خرج عن طاعة الله يدعو إلى النار ثم لوح الكتاب الكريم بالسؤال عن المرأة الحائض هل يصح مقاربتها في الحيض فان الاسلام بيّن الخط الوسط الذي به صلاح سلوك المرأة والرجل بان لا يقرب الرجل المرأة في حيضها فانه بهذا العمل يبعد عن الحق.

وان للحيض مضار واقعية وضرر بالطفل المتولد في حال الحيض واذاتطهرن فقاربوهن بما امر الله به فان الله يحب من رجع اليه ويحب من طهر نفسه من الخبائث فان الدين حقيقته تلك الطهارة النفسية فالله يحب من رجع اليه وكان متطهرا.

ثم ان الله عز وجل صرح بان النساء نظير الأرض في الزراعة للنسل لقوله تعالى «نساؤُكم حرث لكم» اي منهن يقع النسل ومنهن تنشأ العباد ومنهن ينشأ البشر الذي يترتب عليه الصلاح واتقوا الله في افعالكم فانكم تلاقون الله وبشّر الصالحين إذاقاموا بسنة الله في عدله وناموسه بين خلقه.

ثم نبّه تعالى ان حقيقة القسم في كل مورد بين الله وخلقه يتقوم بقضيتين قضية ايجابية وقضية سلبية فكأنه يقول الحالف اني معتصم بحبل الله في صدق معاملاتي واقوالي وإلى عقد سلبي وهو التبري من الله ان كان كاذباً.

فهنا عقد ايجابي يربط العبد بربه وهذا المعنى الذي يتوجه عليه العباد ويوجهون انفسهم نحوه فانه القسم لا يتناسب مع الله إذاكان القسم لقلقة لسان او يكثر من الشخص

بحيث يسقط عن الاعتبار ويكون الشخص كالهازل في قسمه ولا يقصد القسم الصحيح وهذا لا يتناسب مع جلال الله وعظمته بأن يكون محطاً للكذب او اللغوية وكيف يفتح الله تعالى هذا الباب على نفسه فلابد وان يسد الطريق على الحالفين، فسد الله تعالى باب اللغو والجدل واللقلقة في اللسان والزمهم بما كسبت قلوبهم فان ذلك هو القسم الحقيقي بل من لم يقسم تنزيها لله في عظمته وتجليلا له كان افضل ممن حلف صادقاً وهذا قد لاحظ الله في عظمته وشأنه وقد راعى وجه الكمال والخضوع لله تعالى خضوعاً مملوء بتنزيه مقامه ان يحلف به في امور الدنيا.

وان الله اعظم من ان يقاس او يحلف به في هذه الأمور ولذا قد ورد عن اهل البيت عليهم السلام ان تنزيه الله عن القسم من افضل مراتب الاحترام لمقامه تعالى لانه لم يقرن ذاته مع الأمور الدنيوية وهذا من مراتب تكامل الطاعة. وان الله قد خلق الانسان على فطرة التجرد والبعد عن علائق الاجرام والتخلي عن الآثام وان نفسه متهيئة لقبول الحق، وانها مما يكن ترقيها بالعلم والعمل إلى ارفع المنازل، والانسان جبل على طهارة ذاته واستعداده للمعرفة واليقين وتعلقه بمشاغل الكون لضرورة حياته الدنيوية، وان الشواغل الدنيوية تلهيه عن الطاف الحق، وان ارتكاب الخطيئآت واغتراف السيئآت لتبعد الانسان عن جوار الله وقربه، وعن ادراك انوار الحق.

وان قلب الانسان ذو جهتين، جهة إلى عالم الملكوت وهو عالم اليقين والمعرفة، وجهة إلى الحس وهو عالم الجهل والاشتغال بلهوات الدنيا، وان الجهة الاولى تدعوه إلى الخير،والجهة الثانية تدعوه إلى الموبقات والسيئآت.

إذا اتضح ذلك لديك تعرف، ان قوله تعالى «لا يؤآخذكم الله باللغو في ايمانكم» انها مرحلة جهل لا مرحلة يقين، ومرحلة لو التفت اليها الحالف لتبرء منها لانه قد جعل الله عرضة ليمينه، وكلما كثر الشيء قلت الرغبة فيه، وكلما كثر تهاونت الناس بالاخذ به والتحافظ عليه.

والايمان إذاكثرت، كانت من هذا القبيل ولكن يؤآخذكم عند ما تصمم قلوبكم على القسم.

وان الله إذاكانت ايمانكم صادقة، فهو الغفور لكم، والمتفضل عليكم.

فالانسان إذاتحلى بالصفات الجميلة، والمعارف الحقة نزه الله حتى عن القسم

الصحيح ووجد أن تعريض الله لامور مادية او معنوية في الدنيا، اما لعدم معرفة الله واما لاستهتاره، فما يبالي بما قسم به، فان الله الفت عباده اما ان لا يقسموا به تعظيماً له، واما ان يكون عن حقيقة وواقع، وإذا خرج الانسان عن هذه الحالتين كان القسم اما كذباً، وشأن الله لا يتوافق مع الكذب واما ان القسم لغو فهو شأن من شؤون الجاهلين.

وإذا استوفت النفس كمالها كان العبد منزهاً لله عن القسم وكانت سيرة ائمة الهدى عليهم السلام لايحلفون بالله على الامر الواقع فضلاً عن الامر الذي لا واقعية له فينبغي للانسان العارف الذي شملته العناية الآلهية ان يعظم الله عن تنزله إلى مقاصد الدنيا وشهواتها والرغبة في منافعها.

للذين يؤلون من نسائهم...، ان القسم من الرجل بالتباعد عنه بينه وبين زوجته، قد تقتضيه الحالة الزوجية ولم يسد الله الطريق على الناس من هذه الجهة وان ترتبت على ذلك آثار، فان وجد الزوج ان ذلك خلاف الخلق الكريم بينه وبين زوجته، فالله هو الغفار لتجاوز عباده وان جزموا بالطلاق فذاك اليهم وعند الطلاق فله حالات في الكتب الفقهية من كونها حاملاً ومدخولاً بها وغير مدخول بها ويائسة وغير يائسة، ولكل واحدة من الحالات نظام اجتماعي وخلقي ويتعين على الزوج والزوجة رعاية ذلك، وقد اشارت آيات الطلاق إلى السلوك الحسن من الزوج والزوجة في هذه الموارد وانه طبق الخلق الكامل ان لا يكتمن ما في ارحامهن وان لايضيعن حق ذلك الحمل من خلق وانتساب رحم واجتماع بيئة مما يقتضيه النسب الصحيح حتى في حالة الطلاق، فالآيات الشريفة هنا اشارت إلى النظام الخلقي والبيئآت والانساب وكلما تقتضيه الحياة في القومية والرحم.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام واصحابه

في تفسير القمي، في قوله تعالى، ويسألونك عن اليتامى، عن الصادق عليه السلام قال لما نزلت (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) اخرج كل من كان عنده يتيم وسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله في اخراجهم، فانزل الله تعالى (ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم في الدين والله يعلم المفسد من المصلح).

وفي الدر المنثور، عن ابن عباس، قال لما انزل الله سبحانه وتعالى، (ولا تقربوا مال

اليتيم الا بالتي هي احسن) ونزلت هذه الآية، (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله او يفسد فيرمى به، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فانزل الله ويسألونك عن اليتامى، قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم) فخلطوا طعامهم بطعامهم،وشرابهم بشرابهم.

في المجمع، في قوله تعالى ولامة مؤمنة الآية، نزلت مرثد بن ابي مرثد الغنوي، بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان قوياً شجاعاً، فدعته امرأة يقال لها عناق إلى نفسها فأبى، وكانت بينهما خلة في الجاهلية فقالت، هل لك ان تتزوج بي، فقال حتى استأذن رسول الله ﷺ فلما رجع استأذن رسول الله ﷺ في التزوج بها.

في الدر المنثور،اخرج الواحدي من طريق السدى، عن ابي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية ولامة مؤمنة خير من مشركة،قال نزلت في عبد الله ابن رواحه وكانت له امة سواء، وانه غضب عليها، ثم انه فزع فاتى النبي ﷺ فأخبره خبرها، فقال له النبي ﷺ ما هي ياعبد الله، قال تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد ان لا اله الا الله وانك رسوله،فقال ياعبد الله، هذه مؤمنة فقال عبد الله فوالذي بعثك بالحق، لاعتقها ولاتزوجها،ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين،وقالوا نكح أمة، وكانوا يريدون ان ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في احسابهم فانزل فيهم (ولامة مؤمنة خير من مشركة).

وان الحكم المذكور في الآية، ليس المقصود به من نزلت بسببه بل حكم عام، ومن نزلت بسببه احد المصاديق، كما هو شأن القرآن الكريم، ان مورد النزول لا اثر له، إذاكانت الآية فيها العموم او الاطلاق،وانما المورد، وقع سببا لمجيىء الحكم العام.

وفي الكافي، سئل الصادق عليه السلام ما لصاحب المرأة الحائض منها فقال عليه السلام كل شيء، ما عدا القبل بعينه.

وفي الدر المنثور، اخرج احمد وعبد بن حميد والدارمي وابو داود والترمذي ومسلم والنسائي وابو يعلي وابن ماجة وابن المنذر وابو حاتم والنحاس وابو حيان والبيهقي في سننه عن انس ابن مالك، ان اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم اخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت فسئل رسول لله ﷺ عن ذلك فانزل الله تعالى (ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض الآية، فقال

رسول الله ﷺ جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء الا النكاح؛ فبلغ ذلك اليهود، فقالوا ما يريد هذا الرجل ان يدع من امرنا شيئاً الا خالفنا فيه، فجاء اسيد ابن خضير وعباد بن بشر، فقالا يا رسول الله ان اليهود قالت كذا وكذا، افلا نجامعهن فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا ان قد وجد عليهما، فخرجا، فاستقبلها هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فارسل في اثرهما فسقاهما فعرفا انه لم يجد عليهما.

وفي الدر المنثور عن السدي في قوله تعالى: «ويسألونك عن المحيض» قال الذي سأل عن ذلك، ثابت بن الدحداح.

وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى، (فأتوهن من حيث امركم الله) الآية، قال عليه السلام هذا في طلب الولد، فاطلبوا الولد من حيث امركم الله.

وفي الرواية تنبيه للغافل، ان تكون الولد في الحيض مما لا يتوافق مع كرامة الآباء والاطفال المتولدين في الحيض.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، قال كان الناس يستنجون بالكرسف والاحجار ثم احدث الوضوء وهو خلق كريم، فامر به رسول الله ﷺ وصنعه فانزل الله في كتابه ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وهذه الرواية وان كان ظاهرها التوبة والتطهير الظاهري الا انه قد صرحنا مراراً، ان تفسير الآية في رواية من الروايات او بوجه من الوجوه، لا يتنافى مع الاخذ بعمومها واطلاقها، الا ان يكون التفسير الوارد عن ائمة الهدى عليهم السلام يفيد الحصرفي ذلك الوجه وعند ذلك فيمتنع العموم والاطلاق.

وفي الكافي عن سلام ابن المستنير قال كنت عند ابي جعفر عليه السلام فدخل عليه حمران ابن اعين، وسأله عن اشياء، فلما هم حمران بالقيام، قال لابي جعفر عليه السلام اخبرك اطال الله بقاك وامتعنا بك، انا نأتيك فما نخرج من عندك حتى يرق قلوبنا وتسلواانفسنا عن الدنيا وهون علينا مافي ايدي الناس من هذه الأموال ثم نخرج عندك فإذا صرنا مع الناس والتجار،احببنا الدنيا فقال ابو جعفر عليه السلام اما ان انما هي القلوب مرة تصعب ومرة تسهل ثم قال ابو جعفر عليه السلام اصحاب محمد ﷺ قالوا يا رسول الله نخاف علينا من النفاق، فقال ﷺ ولم تخافون ذلك قالوا يا رسول الله نخاف علينا من النفاق، فقال ﷺ ولم تخافون ذلك

قالوا إذا كنا عندك فذكرتنا ورغبتنا، وجلنا ونسينا الدنيا وزهدنا حتى كنا نعاين الآخرة والجنة والنار ونحن عندك فاذا خرجنامن عندك ودخلنا هذه البيوت وشممنا الاولاد ورأينا العيال والاهل يكاد ان تحول عن الحالة التي كنا عليها عندك وحتى كأنا لم نكن على شيء، افتخاف علينا ان يكون ذلك نفاقاً فقال لهم رسول الله ﷺ: كلا أن هذه خطوات الشيطان فيرغبكم في الدنيا والله لو تدومون على الحالة التي وصفتم انفسكم بها لصافحتكم الملائكة ومشيتم على الماء، ولولا انكم تذنبون فتستغفرون الله تعالى لخلق خلقاً حتى يذنبوا فيستغفروا الله فيغفر لهم ان المؤمن مفتن تواب، اما سمعت قول الله تعالى (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) وقال تعالى: «استغفروا ربكم ثم توبوا اليه».

وان هذه الرواية تعطى التوسعة في رحمة الله وان العبد وان وسوس له الشيطان وتوجه نحو وسوسته الا انه محفوظ برعاية الله في عقائده وطاعته وليس المقصود منها عدم التوجه للطاعة بل من طبيعته وحالته هو العقيدة الصحيحة والعمل الصالح ولكن قد تطرواعلى الانسان حالات توجب الخروج عن الطريق المستقيم ولكن حسن العقيدة والعمل الصالح يرجعه إلى ماكان فيه من التقوى والصلاح.

وفي العياشي عن ابي بصير عن ابي عبد الله عليه السلام قال سألته عن الرجل يأتي اهله في دبرها مكره ذلك، وقال: واياكم ومحاش النساء وقال انما معنى نسائكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم، اي ساعة شئتم.

وفي الدر المنثور اخرج ابن راهويه في مشكل الاثار وابن مردويه بسند حسن عن ابي سعيد الخدري ان رجلا اصاب امرأته في دبرها فانكر الناس عليه ذلك فانزلت نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم الآية.

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم» الآية قال عليه السلام: هو قول الرجل لا والله وبلى والله.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في الآية قال إذا دعيت لتصلح بين اثنتين فلا تقل على يمين ان لا افعل.

وفي الكافي عن مسعدة عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم الآية قال عليه السلام: هو قول الرجل لا والله وبلى والله.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في الآية قال: إذا دعيت لتصلح بين اثنتين فلا تقل على

يمين ان لا افعل.

وفي الكافي عن مسعدة عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «لا يؤآخذكم الله باللغو في ايمانكم» الآية قال: اللغو قول الرجل لا والله وبلى والله ولا يعقد على شيء.

في تفسير القمي وقد فوض الله إلى النساء ثلاثة اشياء الطهر والحيض والحبل.

فجعلهن مصدقات في ذلك، لان الطهر والحيض والحبل من شؤونهن فلهذا ان الشارع جعلهن مصدقات في ذلك.

وفي المجمع عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى ولا يحل لهن ان يكتمن ماخلق الله في ارحامهن الآية الحبل والحيض.

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى الطلاق «مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان»،عن ابي جعفر عليه السلام قال: ان الله يقول الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان والتسريح بالاحسان هو التطليقة الثالثة، وهذا من وارد تطبيق المفهوم العام على مورده.

التهذيب، عن ابي جعفر عليه السلام قال طلاق السنة يطلقها تطليقة، يعني على طهر من غير جماع، بشهادة شاهدين ثم يدعها حتى تمضي اقراؤها فإذا مضت اقراؤها فقد بانت منه، وهو خاطب من الخطاب، ان شاءت نكحته، وان شاءت فلا، وان اراد ان يراجعها اشهد على رجعتها قبل ان تمضي اقراؤها، فتكون عنده على التطليقة الماضية. الحديث:

وفي الفقيه عن الحسن ابن فضال، قال سألت الرضا عليه السلام عن العلة التي من اجلها لا تحل المطلقة لعدة لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره، فقال عليه السلام أن الله عز وجل انما اذن في الطلاق مرتين،فقال عز وجل: «الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان»، يعني في التطليقة الثالثة، ولدخول فيماكره الله عز وجل من الطلاق مرتين، فقال عزوجل: «الطلاق الذي حرمها عليه، فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، لئلا يوقع الناس في الاستخفاف بالطلاق ولا تضار النساء - الحديث.

وفي الرواية تصريح بحفظ الحقوق، بين الزوج والزوجة في حالة الطلاق والانفصال، وفي حالة الاجتماع والالتئام، في الاخلاق وغيرها.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: «ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً، الا ان يخافا ان لا يقيما حدود الله» الآية، عن الصادق عليه السلام قال: الخلع لا يكون الا ان تقول المرأة

لزوجها الا ابر لك قسماً، ولاخرجن بغير اذنك، ولاوطئن فراشك غيرك، ولا اغتسل لك من جنابة، او تقول لا اطيع لك امراً او تطلقني، فاذاقالت ذلك فقد حل له ان يأخذ منها جميع مااعطاها وكل ما قدر عليه، مما تعطيه من مالها،فاذاتراضيا على ذلك طلقها على طهر بشهود، فقد بانت منه بواحدة وهو خاطب من الخطاب، فأشاءت زوجته نفسها، وان شاءت لم تفعل، فان زوجها فهي عنده على اثنتين باقيتين وينبغي له ان يشترط عليها، كما اشترط صاحب المباراة، فاذا ارتجعت في شيء مماعطيتني فاناملك ببضعك،وقال عليه السلام: لاخلع ولا مباراة ولا تخيير الا على طهر من غير جماع بشهادة شاهدين عدلين والمختلعة إذا تزوجت زوجاً آخر ثم طلقهايحل للاول ان يتزوج بهاوقال لا رجعة الزوج على المختلعة ولا على المباراة الا ان يبدو للمرأة فيرد عليها مااخذه منها.

وفي الفقيه عن الباقر عليه السلام قال: إذا قالت المرأة لزوجها جملة لااطيع لك امراً مفسرة او غير مفسرة حل له ان يأخذ منها وليس له عليها رجعة.

وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: «وتلك حدود الله فلا تعتدوها» الآية، فقال: ان الله غضب على الزاني فجعل له مائة جلدة فمن غضب عليه فزاد فانا إلى الله منه بريء فذلك قوله تعالى تلك حدود الله فلا تعتدوها.

وفي الكافي عن ابي بصير قال المرأة التي لا تحل لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره وقال هي التي تطلق ثم تراجع ثم تطلق الثالثة وهي التي لا تحل لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره ويذوق عسيلتها.

وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام عن تزويج المتعة أيحلل قال: لا، لان الله يقول: «فان طلقها فلا تحل له الا ان تنكح زوجاً غيره» فان، طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا والمتعة ليس فيه طلاق.

وهذه الرواية اخرجت الحكم عن المتعة فالمتعة وان كانت زوجة على التحقيق الا انها مستثناة عن هذا الحكم ومن اراد التفصيل في هذه المباحث فليراجع ماحررناه في كتابنا (تحرير الاستدل في الطلاق.

القرآن يفسر بعضه بعضا

«وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا اموالهم إلى اموالكم انه

كان حوباً كبيرا»[١].

«وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم واماثكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله»[٢].

«واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر واللائي لم يحضن واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من امره يسرا»[٣].

«ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة»[٤].

«لا يؤآخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤآخذكم بماعقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم او تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام ذلك كفارة ايمانكم إذا حلفتم واحفظوا ايمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشركون»[٥].

«يا ايها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولايخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امرا»[٦].

«وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم إلى بعض، واخذن منكم ميثاقاً غليظا»[٧].

الاعجاز (الآية ٢٣١ - ٢٣٣)

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ

---

١. النساء آية ٢.
٢. النور آية ٣٢.
٣. الطلاق آية ٤.
٤. الروم آية ٢١.
٥. المائدة آية ٨٩.
٦. الطلاق آية ١.
٧. النساء آية ٢١.

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

ثم جاء سياق الآيات الكثيرة وراء موازين العدل، فان الله جعل للعباد نظام العدل وهي القواعد التي لاحيف فيها ولا جور ولا تعدي ولا انتقام ولكن الله في حكمته البالغة وجّه الناس إلى طريق الاحسان بعضهم لبعض فان العدل وان كان نظام البشرية ولكن قد يبقى في النفس اغراض ونوايامن بعض الناس على بعض فجاءت الآية الكريمة لرفع مستوى الانسانية من الرجل والمرأة وليست المرأة نوعاً غير الرجل بل كل منهما على بساط واحد في نعمة التكريم من الله وحفظ الاجتماع بهما وهذه الآية فيها الاشارة والتلويح إلى خطأ الأمم في الجاهلية فقد كانت المرأة تعامل معاملة الرق والمملوك وتعامل بالضغط والتوهين ليس للرجل معها عفة لسان ولاعفة نظام ولا اجتماع ولا يرى لها اي كرامة، وكان سائر الامم على هذا قرون واجيال ولما جاء الاسلام وهو دين الفطرة اظهر للجاهلية ان مقام المرأة كمقام الرجل وان كلا منهمامحفوف بألطاف خاصة ولا قصور في حقوقها،فرفع عنهاذلك الضغط والاستملاك وتلك الوحشية التي يستقبح الانسان ذكرها، فاذا طلقتم النساء وبلغن اجلهن وهو الاشراف على انقضاء العدة لاذهاب العدة بتمامها فان العدة إذاذهبت بتمامها انقطع صلة الرجل بعودة المرأة اليه وهذاحكم مملوء باللطف الالهي قبل ذهاب العدة ولو بزمن يسير، فنبّه الله عباده من مؤمن وغير مؤمن ان يصنع المعروف ان اراد الرجوع بها وان يصنع المعروف ان لم يرد الرجوع بها والمعروف هنا ان لا يضغط عليها في عدم التزويج وان لا يحتكرها في عمل، واطلاق المعروف هنا بمعنى عدم الايذاء وهو نوع يراد به انحفاظ الزوجة عن الاذى بعد الطلاق فأما ان يتحقق المعروف بتمامه وكماله وذلك في صورة رجوعه بها واما المعروف على نحو المسامحة إذا سرحها بان لا يضغط عليها بعد الفراق وليس لاوليائها الضغط عليها فالتعبير بالمعروف في الصورة الثانية وان كان ظاهره الزوج الا ان ملاك الحكم يسري اليه وإلى الاولياء وإلى سائر الطبقات من الاقارب او الاجانب الذين يتصدون إلى تعذيب المرأة في الحياة وجعلها كالحيوان في شواغلهم وانه

يحرم عليكم ان ترجعوهن ضراراً او تتحكموا فيهن بعد الطلاق ومن فعل ذلك من الرجال مع النساء فقد ظلم نفسه وظلم غيره ولا يصح لكم ان تتخذوا آيات الله واحكامه هزواً، فان من لم يطبق الناموس الإلٰهي على افعاله واقواله كان مستهزء في أحكام الله في مقام العمل وان لم يصرح بالاستهزاء قولا.

ولابد أن تذكروا نعمة الله من هداية دينه والاتجاه إلى الحق والنعم التي هي على الانسان في الدنيا ولا نعمة هي أكبر من ان يوفق الله عبده إلى الهداية والرشاد وبلوغ الانسان اعلى منازل الانقياد إلى الله وقد اتم نعمه عليكم بان انزل الكتاب والحكمة البالغة من التعاليم الشرعية والمعارف، فانها لا تساويها نعمه، وان الكتاب والمعارف الإلٰهيّة هي الصراط المستقيم والموعظة للمؤمن، فاذا توجهت اليكم تلك المعارف وعرفتم حقيقة الاسلام فاتّقوا الله ما استطعتم فان الله خبير بأعمالكم لايغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها.

(وإذا طلقتم النّساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ... الآية).

إنّ الآية السابقة قد تعرضت لبيان الاحكام قبل إنتهاء العدّة وفي أواخرها وهذه الآية قد تعرضت لانتهاء العدة وان الحكم من الشارع مانع عن مزاحمتها من الزوج بحبسها عن التزويج او بإرجاعها اليه قهراً، فإنّ الآية قد هددت هؤلاء الذين يرتكبون الإضرار بالزوجة مادامت في حبالهم او بعد انقضاء العدة منهم كما هو اعمال الجاهلية وان الحكم وان توجّه ظاهراً إلى الازواج إلاّ أنّك عرفت منافي الآية السابقة أنّها لم تكن مساقة في التخصيص في الأزواج إلاّ أنّك عرفت منافي الآية السابقة انها لم تكن مساقة في التخصيص في الأزواج حيث أنّ القرآن الكريم يأتي غالباً بقواعد عامة تنطبق على جميع افراد البشر، فالآية ان لم يتم مفادها في العموم وكان سوقها لخصوص الأزواج فهي عامة لغيرهم من الاولياء والاقارب وكل من يتعرض لايذاء النساء، فالآية تشمل من حيث التشريع والحكمة وان لم تشمل من حيث الدلالة وظهور اللفظ، وللزوج التزويج بها من جديد اذاكان عن صلاح وتقارب في النفوس وهذاالحكم يقوم ويعمل به كل من آمن باليوم الاخر.

واما ما عن بعض المفسرين من ان الآية في شرطها متوجهة إلى الأزواج ومن حيث جزاؤها متوجهة إلى الأولياء فكلام لا ينبغي نسبته إلى القرآن الذي هو غاية الاعجاز، اذ مؤدّىٰ الجملة ان مفاد الشرط لا يرتبط بمفاد الجزاء فان ذلك وهو الرجوع مع الرضا والتوافق هو أزكى لنفوسكم وأطهر لضمائركم فان الانسان ينبغي له ان يتربّىٰ على العفو

والكرامة ولا يتربى على الحقد والانتقام فان الله يعلم بأسرار تشريعه وحكمه وانها اوفق بكم وأنتم لا تعلمون.

(والوالدات يرضعن أولادهنّ الآية...)

ثم بيّن الله تعالى حكما وراء ما تقدم، والآية وما تقدم عليها تلّوح إلى معنى أنّ الولد ذكراً كان او انثى هو استمرار وجود الآباء والأمّهات ولم يجعل الاسلام انفراد الولد عن والديه بل يظهر من بعض الاخبار ان البِرّ بالوالدة في الحياة الدنيا ان يكون أكثر من البِرّ بالوالد فمن جاء بهدية لوالديه يقدّم الأمّ على الأب او يكثر في هديّتها، فهذا مما فرضه الاسلام في حفظ التناسل وجعل العطف عليها اكثر من العطف على الأب لما ذكرنا ان العاطفة في الامهات على أولادهنّ اكثر من عاطفة الاباء على ابنائهم وبناتهم ومن جهة علاقة العاطفة الطبيعية للنساء جعل الرضاع لهن في أولادهنّ وان كان بعد طلاق الام وان الآية من قوله تعالى: «والوالدت يرضعن اولادهن» ليس مخصوصاً بالمطلّقات كماهو ظاهر الآية المتقدمة، بل مطلق الوالدات كمايقتضيه نهج القرآن الكريم فى بيان الاحكام العامة وان خص بعض المفسرين الوالدات بالمطلقات ولكن القرآن الكريم في احكامه واخلاقه، في عبره وامثاله لا يأتي على القضايا الخاصة بل هو قوانين كلية يلحظ فيه في كل مورد القضايا العامة ولعل من خص الآية بالمطلقات ناظر إلى العطف بالواو والعطف بالواو غالباً يوجب تناسق المعطوف مع المعطوف عليه ولكن الواو كما تستعمل عطفاتستعمل استينافاً وليس هناك ظهور في تقدّم العطف على الاستيناف كمايتراءىٰ في الاذهان البسيطة بل ذلك يعرف من مناسبات المقام والمناسبة هنا التعميم، فهنّ يرضعن اولادهنّ حولين كاملين، فعبّر الله تعالى بكمال الحولين تاكيداً إلى تمام الحولين حيث يستعمل الحول في الاقل تسامحاً.

ولما كان الطفل محتاجاً في حياته ونشأته إلى الارضاع بتمام الحولين، فالرضاع بتمام الحولين والحضانة من الام مما تنمى عنصر الطفل وتقوّي جسده على ذلك وإلاّ فلا يبلغ تمام الكمال في تربيته وجسده، فان من فطم قبل هذا فلربّما كانت صحته ليست بتلك المثابة، ولذا ان العصر الحديث قد استغنى عن البان الامهات بالبان سائر الحيوانات وان في ذلك ضعف عرى المودة وضعف مادة الطفل في جسده وان غذاء الطفل بلبن أمّه مما يؤكد المودة بينهما والعطف وقد جعل الله تكافل الحقوق بين الأولاد والآباء والأمهّات تكافل تضامن في الحياة بان يتربّىٰ الطفل بأحضان الأمّهات وبتدبير عقل الآباء، فاذا مضى دور

وسنين متعددة صار الضعف في طرف الآباء والأمّهات وعندها، فلابدّ من تعهد الأولاد بآبائهم وأمهّاتهم، فكان التعهد أولاً من الآباء والأمّهات في حفظ الطفل وحياته وتربيته وعند انتهاء هذا الدور يأتي دور عجز الاباء والامهات فيتعين عليه خدمتهما كما يعين عليهما خدمته ورعايته، كل ذلك حفظا لنظام التكوين والاجتماع.

وان المولود له هو الأب فعليه ان يقيم زوجته في حال رضاعها للطفل بأحسن إقامة بما تحتاج إليه من نفقة وكسوة وشؤون التربية لولدها وان ذلك عليه بل حتى لو طلقها وارضعت الطفل كان لهاحق عليه من مسكن ومطعم وكسوة لأنّ هذه الأمور وان كانت شرعية إلاّ أنّ قوامها هو التبادل الاخلاقي والتوافق في النفسية، فالأب والأمّ مسؤولان في حفظ حياة الولد وتربيته على الوجه الاكمل وللمرأة حق على اب الولد في النفقة والكسوة والمسكن بما هو المتعارف من شأنها وشأنه.

وان كل تكليف هو دون القدرة ولذا ورد في بعض الروايات من الحديث النبوي صلى الله عليه وآله: «رفع عن امتي مالا يطيقون»، فالتكليف دون الطاقة والوسع في الرجل والمرأة بالقياس إلى حق الولد عليها.

ثم ان الله أبَان حكماعاما ولكن طبّقه على الآباء والأمّهات فقال تعالى: «لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده» وهذه كبرى وقاعدة شرعية بان الله نفى الضرر من كل احد ونفي تقابل الاضرار من شخصين، فهنا عبر عن التضارّ دون الضرر لان المقام هنا يقوم بالاب والأمّ فهو من المضارّة دون الضرر وقد نفى الله تشريعا الحكم الضرري وأبعده عن الشريعة السمحة السهلاء وان الروايات والآية هنا ليست في مقام النهي عن الضرر والاضرار بل المقام نفى الضرر والاضرار تشريعاً كما اوضحنا ذلك في الاصول.

واما قوله تعالى: «على الوارث مثل ذلك»، فالظاهر منه ان الذي جعل على الوالد من الكسوة والنفقة فهو مجعول على وارثه ان مات يؤدي الوارث للمرأة النفقة، وهل انه من مال الطفل ان كان له حق من الميراث ام لا؟ فالظاهر وجوب النفقة من مال الطفل وهذا هو المطابق للمروي عن اهل البيت عليهم السلام وقد ذكر للآية وجوهاً لا تناسب الظاهر.

وقوله تعالى: «فان ارادا فصالا» الخ، فانه لاجناح ولا منع بل من تمام الرجحان إذا توافق الوالد والوالدة بشرط ان يكون ذلك بمصلحة الطفل لا لغرض شخصي لهما فقد تقتضي مصلحة الطفل الفطام قبل الحولين وقد تقتضى المصلحة بعد الحولين لضعف

جسده او لعوارض اخرى.

هذا إذا كان التوافق بين الزوج والزوجة وقد يكون التوافق بينهما على امرأة اجنبية او لرفض الام الولد عن الرضاع، فيتعين على الاب تعيين امرأة اجنبية وان يعاملها معاملة اللطف والمعروف من الاجرة والاخلاق لترعاه حق الرعاية وتلحظه كولد لها وقد صرح الكتاب بما ذكرنا من قوله تعالى: «وان اردتم ان تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف»، وانت إذا لقيت نظرة على آيات القرآن من حالة الوالدة والوالد والمرضعة الاجنبية وجدتها سلوكاً في حياة البشرية بأفضل سلوك وأفضل تربية وعناية وحفظاً لحقوق كل واحد منهم على وجه الإحسان والمروّة لا مجرد التبادل في الاخلاق والمال.

واعلموا ان الله بماتعملون من خير بصير ومجاز على الثواب وان كان العمل عملا لا يرجع نفعه إلى الله تعالى.

الاعجاز (آية ٢٣٤ - ٢٣٧)

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى المُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ لا تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

إنّ الأمم السالفة تضغط على حرية المرأة بعد موت زوجها سواء كانت الاخلاق متلائمة بينهما في الحياة او غير متلائمة، فيضغطون على المرأة بعد موت زوجها، بان لا تتزوج أصلاً أو في مدة ستة اشهر او سنة وكان عرب الجاهلية يعتبرون السنّة عدة لها بل ان بعض الامم يلحقها بزوجها في القبر والدفن وكلها اعمال همجيّة وحشيّة تتبع البيئة وغرائز

ذلك المحيط من غير سنن عادلة واختار بعض النصارى عدم جواز زواجها بعد موت زوجها حتى الموت وكل هذه الاعمال لا تبتني على العقل فضلا عن الشرايع، فجاء الاسلام فقضى على كل ذلك من أوهام الجاهلية والأمم واستعباد المرأة بعد موت زوجها.

فجعل الإسلام العدة لها تكريما للمتوفى وتبعيداً لها عن يد الخيانة والتصرف في عدتها بعد الموت، فجعل العدّة لها اربعة اشهر وعشرة ايام على وجه بها احترام المؤمن من عدم التجمّل وبقائها في المنزل من غير تبرج ومعاشرة الرجال ولا يجوز لاحد من اولياء الزوج او أوليائها ان يسكنها مكانا ضيّقا او يلبسها لباساً رديئاً.

فاذا انتهت العدة من احترام زوجها في المدة المذكورة كانت هي املك بنفسها ان شاءت تزوجت والا بقيت على حالتها، وان الآية الثانية المتعرضة بان العدة للحامل هي وضع حملها فقد ذهب الامامية إلى ابعد الاجلين من الحمل ومن الاربعة اشهر وعشرة ايام، لانها إذاانتهت عن الاشهر وكانت حاملا فان الفطرة قاضية بانها في تبعات الزوج الميت من جهة الحمل فتبقى إلى وضع حملها وقد جاءت الاخبار مفسرة للآيتين انها تبقى في العدّة لاحترام الميت ان وضعت حملها قبل انتهاء اربعة اشهر وعشرة ايام والا تعين عليها البقاء حتى تضع الحمل.

وقد ذهب علماء العامة جميعاً ان العدة تنتهي بوضع الحمل او بذهاب اربعة اشهر وعشرة ايام نظراً إلى ان كلا منهما سبب فى خروجها عن العدة، الا ان اهل بيت العصمة عليهم السلام هم المفسرون للقرآن وقد حكموا بأبعد الاجلين طبقا للفطرة القاضية ان الاحترام الأوّل هو الأشهَر فاذا كان في بطنها حمل فهي في الحقيقة منسوبة إلى زوجها حتى تضع الحمل، وان الله بما تعملون خبير فحافظوا على ما أسّسه الله في العدّة لا على غرائز بيئاتكم.

(ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء... الآية)

بعد ان جاءت الآيات المتقدمة في بيان العدة من عدة الوفاء والرجعية وعدة البائن، تعرض القرآن لحكمين وهو خطبة المرأة والقرار معها على الزوجية بعد العدّة والثاني التعريض لها والتلويح، فجاءت الآية الكريمة، بأن لا مانع من التعريض والتلويح في خطبة النساء وان كن في عدة الوفاة والبائن، واما العدة الرجعيّة فقد ورد النهي حتى عن التلويح والتعريض بها، اذ من الواضح عدم انقطاع المرأة عن الرجل فى العدّة الرجعيّة فهي في حباله حكماً او موضوعاً ومع هذا فكيف يعرض لها او يصرح بالتزويج والآية في مقام عدة الوفاة

والبائن فقد منع من خطبتها صريحا والقرار معها حيث ان المرأة وان طلقها زوجها بائنا او مات عنها زوجها فالعواطف بينها وبينه باقية اما من حيث بينهما ارتباط واما ان يكون هناك علاقة بينهما كوجود الاطفال لها او حملها منه ومع هذا فكيف يأتي شخص اجنبي يقطع تلك العلاقة والعاطفة التي بين المرأة وبين زوجها فأن هذا ليس من الاخلاق الانسانية التي بنيت على اوج التكامل في النفوس بل يتنافى مع الاخلاق البشرية إذاكان الشخص ذا ضمير ووجدان، وان الشارع المقدس والتشريع الاسلامي مما يقوّي جنبة الخلق الكريم والاخلاق الفاضلة، ولما كانت النفوس مجبولة على الشهوة والرغبة من الرجال للنساء وهذا أمر ارتكازي وفطريّ في ذهن كل شاعر ومدرك لم يغلق الشارع باب هذا التوجّه بل فتح الباب للناس وجوّز لهم التعريض والتلويح لئلا تكبت نفوسهم وتسير البشرية على خلاف فطرتها وقد منع بعض المفسرين الكناية معها وجوز التعريض، والظاهر ان الكناية مما يشملها عنوان التعريض والكنايات والاستعارات والمجاز تختلف باعتبار قربها للمعنى الحقيقي والبعد عنه، فالمجاز او الاستعارة والكناية اذاكانت كالعنوان الصريح في الحقيقة فلعلّة يشكل الأمر فيها اما إذالم يكن الا على وجه الالتفات البعيد فالظاهر دخولها في عنوان التعريض والتلويح وقد منع الشارع ايضاً التفاهم بالسرو الخطبة بالعلانية بما بيّناه من ان هذه الحالة من الحالات المنحطة والاسلام بعيد عنها وان ما اضمرتموه فى نفوسكم او اشرتم اليه بالتعريض فلا مانع منه وقولوا فى مقام التفاهم معهن بقول الاحسان والمروّة.

واما التصميم بالخطبة والنكاح فلا يجوز حتى يبلغ الكتاب اجله وهو كناية عن إنتهاء العدّة وأنّ الله يعلم ما تضمرون وما تظهرون وما تسيرون به على طريق الحق او التعدي على كرامة المرأة وشرفها، فان كل ذلك لا يغيب عنه وهو المجازي على فعل الخير والمعاقب على الافعال السيئة فاحذروا الله فى مخالفة أوامره وارجوا منه المغفرة والرضوان على الاعمال الصالحة وما كان فيها على وفق الشريعة المقدسة.

(لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن...الآية)

ان المرأة المعقودة على شخص ولم يجعل لها صداق فاذا اراد طلاقها تعيّن عليه ان يعطيها شيئاً ويعبر عنه بالمتاع واستعمال لاجناح في الحكم الوجوبي كما هو الغالب في استعمال لا جناح وليس المقصود التخيير بين الاعطاء والمنع فيتعيّن على الموسر الغني المتمكن ان يعطيها بما يناسب حالها وحاله وعلى المقتر وهو العاجز والفقير أن يعطيها على

حسب حاله ويختلف الايسار والاعسار شدة وضعفا وكل بحسبه وجعل الله هذا الحكم وهو إعطاؤها من الرجل على نحو الوجوب او الاستحباب تلافياً لما بين الفرقة بين الزوج والزوجة من النكرة والتباعد الاخلاقي فاراد الله تعالى ان يجمع بين القلوب بان جعل على الرجل ان طلق المرأة ان يبذل لها شيئاً من المال عوضاً عن الصداق ليحصل نوع من المودّة بينهما ورفع الشحناء ولو بعد الطلاق، فان القرآن الكريم فى هذا المورد حكم طبقا لتلائم النفوس وكثيراً ما يوجه القرآن الناس إلى هذا الهدف فان التشاجر وإبداء الافعال السيئة طبقا للاخلاق الخبيثة شأن الوحش لا شأن الانسانية وذلك حقا على المحسنين فعبّر تعالى عن الرجل الذي يعطي الزوجة شيئاً من المال ولم يكن لها صداق معيّن عليه عبر عنه بالمحسن ترغيبا في العمل الانساني وإرشاداً إلى سمو الاخلاق.

(وان طلّقتموهن من قبل ان تمسّوهن وقد فرضتم لهن...الآية)

الآية الكريمة قد تعرّضت للحالة الاخرى من المرأة المطلقة قبل الدخول بها ولكن قد فرض لها فريضة وهو المهر فان لها نصف المهر فريضة، فهذه حالة الحكم الاولى في المرأة المطلقة قبل الدخول بها وكان لها مهراً.

ثم بيّنت الآية الوجهة الاخلاقية التي تقوم على حسن المعاشرة والاخلاق بان يعفو الرجل عن الصداق كله ويبذله لها وهي تبذل نصف الصداق له او وليّها ان كانت الزوجة طفلة.

فمن عفى وأصفح فهو خير له وهذه الحالة من مراتب التقوى وعفة النفس عن الطمع وان يتفارقا عن نحو من المحبّة بحيث لا يذكرها بسوء ولا تذكره هي بسوء ايضا بعد الطلاق، فالعفو اقرب للتقوى.

ثم نبّه تعالى كلا من الطرفين ان يسبق إلى الفضل والفضيلة وهو بذل ماله والفضل هو الزيادة فى الاحسان كما ان الفضولي هو الزيادة في التصرف قولا او عملا وان الله بصير بأعمالكم من فضلها وخيرها او غير ذلك من مقابلة السيئة بالسيئة.

الاتجاه الفلسفي

ان الحياة الانسانية على ظهر هذا الكوكب من نوع الرجل والمرأة لابد وان تنظم على الوجه التام من حفظ نظام الاجتماع وحفظ النسل ورغبات الزوج والزوجة فان الانسان وان

كان بعض افراده ممن له عقل واسع ولكن لا يمكن التنظيم الحقيقي بحفظ الحياة وادارة المنزل الا من اللطيف الخبير، فان الجاهلية كانت في تزويجها وطلاقها وتحكم الرجال بالنساء مما لا يراه العقل السليم صحيحاً، فلذا ان الله تعالى افاد الناس تربيتهم في هذه النشأة وان الرجل والمرأة كما بيّنّاه لهما حالات اربعة، امتزاج روحي وعقلي وحياة مبادلات في الاخلاق بان يقوم الرجل بشؤونه والمرأة بشؤونها وحياة وقع فيها النزاع والتشاجر ثم امكن اصلاحها ولو بالطلاق والرجوع بعده او بالإصلاح بين الرجل والمرأة بتوسط ارحام كل منهما وأمّا ان ليس هناك طريق من الطرق وعندها فيؤول الأمر إلى الفراق.

وقد حكم الشارع بعدة الوفاة بأربعة اشهر وعشرة ايام احتراماً للزوج واظهاراً للتألّم النفسي، فلا يصح لها في هذه المدّة التجمّل والابتهاج لانه خلاف كرامة المسلم ولم يجعل المدّة اكثر من ذلك لما يعلم من اغلب النساء من عدم طاقتهن على اكثر من اربعة اشهر وعشرة ايام من عدم تماس زوجها والاتصال بها، وهذه الوجهات التي تعرضت لها الآيات وجهة الحكم الشرعي ووجهة الاخلاق ووجهة تدبير المنزل والعائلة في بيتها ونظامها.

ثم انتقل القرآن الكريم إلى حفظ النظم والاهتمام بتربية الطفل والحالة الزوجية وفى حالة الطلاق والموت حتى لو طلقها الرجل وتزوجت بزوج آخر فيتعين على الزوج الأوّل مداراتها وبذل المال لطفلها ولها ولحاظ الرأفة بها ولو كانت عند زوج آخر، لان الاسلام دين الاخلاق، دين المروءَة، دين الكرامة والعفة وتربية النفس فان الزوجة إذا خرجت من حبال زوجها ولم يلحظها الزوج بلحاظ الكرامة وبذل المال لها صار الانتقام على النسل والطفل ويصبح ما يأتي من النسل اعداء للآباء والأمّهات، نسل حقد وانتقام ونسل خلاف وتشاجر، فأمر الاباء ان يؤدّوا مالا للأمّهات من ناحية الرضاع وناحية التربية وان الطفل في تربية امه وحضانتها احسن من غيرها في مزاجه وتربيته وان الرجل إذاطلق زوجته فرجوعها اليه هو خير له وازكى وان الله يوعظ به من كان على طريق الحق والهدى فانه ازكى لنفوسكم واطهر لمقاصدكم ونفسياتكم وان الله يعلم بضمائركم وقد حرر لكم طريق المودّة وابان لكم قانون الخلوص بين الزوج والزوجة والاولاد.

ثم ابان الله التربية على احسن وجوهها في حق الولد بان ترضع الام ولدها من ذكر او أنثى حولين كاملين والتعبير بحولين كاملين ان لا يكون في الرضاع نقص عن الحولين فانه قد تطلق المدة من الحولين او الشهرين على الاقل من الحولين الكاملين والشهرين

الكاملين تسامحاً ليتم للولد صحة مزاجه وقوة اعصابه ولا سيما إذاكانت المرضعة هي الام، فهذه تعاليم ودروس للأمّهات والآباء في سيرهم وسلوكهم مع الأبناء فان الطفل إذا تربى تربية على الوجه الاكمل لاحظ ابويه عند الكبر وهنا يتقابل الاحسان والاحسان والمروءَة بالمروءَة ليحصل اللّطف في الحياة من البدء إلى الختام ومن النطفة إلى فراق الدنيا فانه مالم يحصل التكامل والتضامن من الطرفين لم يحصل نظام الحياة، ولذا تعبر الآيات بالفضل تعبيراً عن هذا التضامن فان هذا التضامن هو جذور من جذور الاجتماع واسس التكوين والخلقية، وعلى المولى له ان يقيم نفقة اولاده.

ثم اوضح الله ان قانون التكامل والتضامن وبذل المال من الزوج على الزوجة في اولادها وعلى المحافظة عليهم بحسن التربية وحسن الاخلاق مع زوجته انما ذلك في نطاق الوسع والقدرة من الطرفين فلا يكلف الرجل بأكثر مما يطيق وكذلك لا تكلف المرأة في التربية بأكثر مما تطيقه وان من وسع الرجل إذاقدر على الانفاق ان يلحظ زوجته في افضل الانفاق المناسب لكرامتها والا فليس ذلك من الخلق الاسلامي، فالوسع كما يقع في اصل النفة يقع في كمالها وما يقتضيه شأن المرأة وان التكليف من الشارع انما يتوجه على العباد بما يطيقون، اما مالا يطيقونه ولو بحسب العادة فلا يكلف الله به تعالى، فاذا لم يقدر المكلف على النفقة وكان فوق مقدوره عقلا سقط وجوب الانفاق بحكم العقل والضرورة، والآية الشريفة من قوله تعالى: «لا يكلف الله نفساً الا وسعها»، ناظرة إلى ما يطاق بحسب العادة وليست الآية ناظرة إلى مالا يطاق عقلا فان ذلك خارج عن نطاق التكليف والعقل حاكم بمحاليته، فالاية انما هي ناظرة إلى ما يطاق عادة لا إلى ما يخرج من قدرة الرجل والمرأة عقلا.

وعندما انتهى القرآن الكريم عن نفقة الولد وشؤون العشرة والتربية، بين الكبرى المنطقية على تلك الموارد وهي عدم القضاء من المرأة لولدها ومن المولود له وهو الاب بولده، إذ الضرر والاضرار منفي في الشريعة الاسلامية فلا يصح ان يضرّ الآباء والأمّهات اولادهن ولا الاولاد الآباء والأمهّات، وان الحكم بنفي الضرر وامتناعه في الشريعة كما هو المستفاد من قوله ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» وغيره من الادلة ان المراد ان الضرر والاضرار منفي في شريعة الاسلام وهنا الآية تشير إلى ذلك والتعبير بعدم الإضرار ليس مخصوصاً بالآباء والأمّهات والابناء والاولاد بل هو حكم عام على كل احد، فانه لا يصح الاضرار حتى

في الكتابي المعاهد، بل حتى في المشرك وانما يقابل المشرك بالحرب والجهاد لارجاعه إلى الاسلام لا للاضرار به.

فالايات هنا قد توجهت بعضها إلى احكام خلقية وبعضها إلى احكام شرعية ولكن الكل بنطاق الفطرة والجبلة التى خلق الانسان عليها وقد اشرنا في تفسير الفاتحة من المجلد الأوّل، ان الانسان إذا لاحظ الاحكام الاسلامية وتأمّلها بعين البصيرة وجدها إظهاراً لتلك الفضائل الكامنة في النفس بصورة الاحكام الشرعية وتلك الصفات الخبيثة في النفس بصورة الحرمة، فان كانت تلك الفضائل لازمة في سلوك البشر جاء الخطاب بالوجوب والا فبالإستحباب وإذاكانت هناك رذائل وهي في منتهى القبح جاءت الخطابات بالنهي عنها وإلاّ جاءت بالكراهة.

وقد عقّب ما تقدم بالايات المتعرضة لعدّة الوفاة والطلاق وجواز رجوع المطلقة على زوجها بالرضا بينهما وان يبذل الرجل الاخلاق في المهر ولو لم يدخل بها بنصف ماله وان يقوم كل منهما في صورة الطلاق وعدمه بتربية الاطفال على الوجه الاكمل لينشىء الطفل وله علاقة بابويه وإذا حللت هذه الآيات الكريمة وجدتها على طبق نواميس النفس وتربيتها في الاخلاق من الرجل مع زوجته واهل بيته بافضل من الاخلاق مع الاجانب لان بذلك يحصل النظام المنزلي وهو نوع من علم الاخلاق لئلا يقع التشاجر والتخالف وسوء التفاهم، فهي احكام شرعية من ناحية وناموس الهي واخلاق وتربية من ناحية اخرى، فما ترك الاسلام من واجب او مستحب او محرم او مكروه او جهات اخلاقية الا اظهرها وصيّرها متجلّية في كل ذهن مستقيم.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه

في تفسير القمي، في قوله تعالى: (وإذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف إلى آخر الآية، قال عليه السلام: إذا طلقها، لم يجز له ان يراجعها ان لم يردها.

وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام قال: لا ينبغي للرجل ان يطلق امرأته، ثم يراجعها، وليس له فيها حاجة، ثم يطلقها، فهذا الاضرار الذي نهى الله عنه، الا ان يطلق ثم يراجع، وهو ينوي الامساك.

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى، «ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم»، الآية، عن عمر بن الجميع يرفعه إلى امير المؤمنين عليه السلام في حديث قال: ومن قرء القرآن من هذه الامة ثم دخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هـزواً- الحـديث، وفـي صحيح البخاري في قوله تعالى: (وإذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن)، الآية، ان اخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها فأبـى مـعقل، فـنزلت الآيـة، فـلا تعضلوهن ان ينكحن ازواجهن».

اعلم ان سبب نزول الآية لا يخصص موردها، بل هي عامة، كما هـو شأن القـرآن الكريم من القضايا العامة الموجهة للبشر على طريق الحق وفي تفسير العياشي في قـوله تعالى: «والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين»، الآية، عن الصادق عليه السلام قال: والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين، مادام الولد في الرضاع فهو بين الابوين بالسوية، فاذا فطم فالوالد أحقّ به من العصبة، وان قال الاب من يرضعه باربعة دراهم، وقالت الام لا ارضعه الا بخمسة دراهم فان له ان ينزعه منها، الا ان ذلك اجبر له واقدم وارفق به ان يترك مع امه.

قد بينت الرواية الشريفة، ان حق كل من الاب والام في الولد على حد سواء مادام الرضاع في الحولين واما بعد ذلك، فالاب اولى به، من حيث التربية، وله ان يأخذ من امه، إذاطلبت الام اجرة الرضاع باكثر مما تطلبه الاجنبية، ولكن الرواية اظهرت مقام الاخلاق بأنّ الزوج ينبغي له ان يجعل الطفل عندها، ولو باكثر اجرة من الاجنبية، لان الحضانة للأمّ، مما لها الاثر في صحة الولد وتربيته، فاشار الامام للحكمين، من الحكم الوضعي والتكليفي من رضاعها، والحكم الاستحبابي الاخلاقي من ان الاب الاولىٰ له ان يوافق الام، ولو باجرة اكثر من غيرها.

وفي البرهان- قال قلت له: جعلت فداك كيف صارت عدة المطلقة ثلاث حيض او ثلاثة اشهر، وعدة المتوفي عنها زوجها اربعة اشهر وعشراً، قال: اما عدة المطلقة ثلاثة قروء فلاستبراء الرحم من الولد، واما عدة المتوفى عنها زوجها، فان الله عز وجل شرط للنساء شرطاً، وشرط عليهن شرطا، فلم يحابهن فيها شرط لهن ولم يجز فيما شرط عليهن، فاما ما شرط لهن في الايلاء اربعة اشهر اذ يقول عز وجل: «الذين يؤلون من نسائهم تربص اربعة اشهر» فلم يجوز لاحد اكثر من اربعة اشهر في الايلاء لعلمه تعالى انه غاية صبر المرأة من الرجل، فاما ما شرط عليهن، فانه امرها ان تعتد إذا مات زوجها، اربعة اشهر وعشراً، فأخذ

منها له عند موته ما اخذ منه لها في حياته عند الايلاء، قال تعالى: «يتربصن بانفسهن اربعة اشهر وعشراً، ولم يذكر العشرة الايام في العدة، الا مع الاربعة اشهر، وعلم ان غاية صبر المرأة الاربعة اشهر في ترك الجماع، فمن ثم اوجبه عليها ولها.

وان هذه الرواية حيث ابدت المحاولة بين الحكمين وارجعت كلا منهما إلى اربعة اشهر معللة بعلم الله تعالى ان التقارب بين الرجل والمرأة، وعدم مماسة الرجل للمرءَة ان لا يكون اكثر من اربعة اشهر تلويحاً منه عليه السلام ان هذا طبق علمه بجبلة الرجل مع المرأة وليس كما عن بعض مفسري العامة ان عمراً سأل حفصة عن مقدار ما يمكن فيه تجنب المرأة للرجل، فاجابت باربعة اشهر، وعند ذلك حكم عمر بن الخطاب، ان لا يفارق الرجل المرأة اكثر من اربعة اشهر. حتى لو كان في الجيش

ومن البعيد صحة هذه الرواية، لانه كيف يحكم عمر بن الخطاب، بان لا يتباعد الرجل عن المرأة باكثر من اربعة اشهر، لقول حفصة، وكيف يأخذ عمر بقول حفصة وهي لا تحكي الا عن نفسها، لا عن طبيعة النساء مع اختلافهن في الشعوب والاقطار، وفي البلاد الحارة والباردة وان هذا الحكم ثابت عن الرسول صلى الله عليه وآله قبل حكومة عمر وأبي بكر وان بعض الناس قد يفرط به الحب، فينسب إلىبعض الافراد مالا يناسبه، ظناً منه ان ذلك فضيلة له.

وعن ثقة الاسلام في الكافي عن الصادق عليه السلام في رجل طلق امرأته ان يدخل بها، قال: عليه نصف المهر، إن كان فرض لها شيئاً، وان لم يكن فرض لها، فليمتعها على نحو ما يمتع مثلها من النساء.

عن محمد بن يحيى بسنده عن علي بن أبي حمزة قال سألت ابا الحسن عليه السلام عن قول الله عز وجل، (ولكن لاتواعدوهن سراً)، قال: يقول الرجل اواعدك بيت آل فلان يعرض لها بالرفث ويرفث، يقول الله عز وجل «الا ان تقولوا قولا معروفاً»، والقول المعروف التعريض للخطبة على وجهها وحلها، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب اجله.

العياشي عن عبد الله بن سنان عن ابيه قال سألت ابا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل، «ولا تواعد وهن سراً»، الا ان تقولوا قولا معروفاً، قال هو طلب الحلال «ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب اجله» اليس الرجل يقول للمرءَة قبل ان تنقضي عدّتها أوعدك بيت آل فلان ثم طلب اليها الا لسبقه بنفسها إذاانقضت عدتها قلت فقوله: «الا ان

تقولوا قولا معروفاً»، قال: هو طلب الحلال، في غير ان يعزم عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب اجله.

وقد تعرض بعض المفسرين لعدة روايات بهذا المضمون، اعرضنا عن ذكرها تفصيلا، لان مؤداها ما ذكرناه.

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: «لا جناح عليكم ان طلقم النساء، الآية» عن الصادق عليه السلام قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل ان يدخل بها، فلها نصف مهرها، وان لم يكن سمى لها مهراً، فمتاع بالمعروف على الموسع قدره وعلى المقتر قدره وليس لها عدة، وتتزوج من شاءت من ساعتها.

وعن ثقة الاسلام، وتفسير العياشي والتهذيب وغيرها، عن الباقر والصادق عليهما السلام في قوله تعالى: «الذي بيده عقدة النكاح»، قالا: هو الولي.

وروى من طرق اهل السنة والجماعة، عن النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام: ان الذى بيده عقدة النكاح الزوج.

وقد ورد من طرق الامامية تفسير، الذي بيده عقدة النكاح، بالولي، وورد ايضا من طرق العامة، كما روى عن ابن عباس، وطاووس، ومجاهد، وعطاء والحسن، وعلقمة والزهري والشافعي، إلى ان الذي بيده عقدة النكاح، هو الولي الذي لا تنكح المرأة الا باذنه، فان له العفو عن المهر إذا كانت المنكوحة صغيرة في رأي البعض ومطلقا في رأي الاخرين.

وفي البرهان عن ابي حمزة عن ابي جعفر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يأتي على الناس زمان عضوض، يعض كل امرء، على ما في يديه، وينسون الفضل بينهم، قال الله سبحانه وتعالى: «ولا تنسوا الفضل بينكم».

القرآن يفسر بعضه بعضا

«فاذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف واشهدوا ذوى عدل منكم واقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الاخر»[1].

«اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وان كن اولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فان ارضعن لكم فاتوهن اجورهن وأتمروا

١. الطلاق آية ٢.

بينكم بمعروف وان تعاسرتم فسترضع له اخرى»[١].

«ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك الي المصير»[٢].

«يا ايها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا»[٣]

الاعجاز (آية ٢٣٨ - ٢٤٥)

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى المُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

ثم انتقل البيان الفرقاني من اقسام الطلاق والعدد ومقاربة النساء في المحيض إلى موضوع رفيع وهو المحافظة على الصلاة التي هي الصلة بين الله وعبده وهي اعظم الطاعات لانها تبلغ بها الحال ان تكون معراج المؤمن، فلذا نبّه الله تعالى عباده على المحافظة على الصلوات اذ لابد في حال الصلاة من الانقطاع الحقيقي والتوجه اليه تعالى، فلقد كان عباد الله الابرار في حال الجهاد إذا صلوا الفريضة وجاءَتهم السّهام لا يحسّون بألمها لأنّهم في تلك الحال قد توجهت نفوسهم إلى الحق وليس لها توجه إلى غيره.

فالصلاة ملجأ الخائفين ولا تسقط بحال حتى يبلغ بها إلى الايماء والاشارة وقد شرع الله صلاة الخوف في حال الحرب حتى يلتجىء الناس في حال الصلاة إلى الله والانقطاع اليه تعالى عن كل ما عداه.

---

١. الطلاق آية ٦.
٢. لقمان آية ١٤.
٣. الاحزاب آية ٤٩.

حافظوا وثابروا وليكن العمل عن إتقان بإتيان العمل باجزائه وشرائطه وترك موانعه وان اختلفت الصلاة في حالاتها من الاضطرار وعدمه.

ثم اكدت الآية على المحافظة على الصلاة الوسطى على ما اختلفوا فيه من انها صلاة العصر او الجمعة أو الظهر إلى غير ذلك، والاقرب في النظر هي كل صلاة لها اهميتها في نفسها كصلاة الجمعة والظهر، او تأتي عليها العوارض فقد ينسى وقد يشتغل عنها وقد ينام وعند ذلك فتنطبق على صلاة العصر، هذا إذا حملنا الوسطى على الوقت او فيما كان لها اهمية في الوقت كالجمعة وقد روى عن اهل البيت عليهم السلام انها صلاة الظهر وقد فسر بعضهم ان المراد بالوسطى لا من حيث اهمية نفسها ولا من كونها وسطاً في الوقت لان صلاة العصر وسط بين الفرائض النهارية والليلية من الصبح والظهر والمغرب والعشاء بل لانها توجب اعتدال العبد في عمله وكماله.

وقوموا لله قانتين متوجّهين اليه خاشعين فان الخشية هي اعظم عمل يقوم به الانسان في الفرائض ولعل الآية ردعاً لبعض ردعت بعض من كان يتكلم في الصلاة مع غيره إذا كان له غرض مهم في نظره.

(فان خفتم فرجالا أو ركباناً... الآية)

إنّ الآية أعقبت ما تقدم من المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وجاءت هذه الآية بالشرط، فان خفتم تلويحاً بان الصلاة لو عرض الخوف على الانسان فيها فانها لا تسقط بحال، كما ورد ان الصلاة لا تسقط بحال على اختلاف مراتبها حتى تبلغ إلى الالتفات القلبي والذكر النفسي فقط لانها ملجأ الخائفين وانها عصمة المعتصمين، فاذا خفتم فصلوا صلاة الخائف في حالة كونكم راجلين أو راكبين متوجهين إلى القبلة ام لا وعندها فتقصر الصلاة وتكون ركعتين الا المغرب، ويروى أن علياً عليه السلام صلى ليلة الهرير خمس صلوات بالايماء وقيل بالتكبير وأن النبي صلى الله عليه وآله صلى يوم الاحزاب بالايماء.

فتبلغ صلاة الخائف إلى الايماء والاشارة وإذا رجع الأمن عليكم وارتفع الخوف فأدّوا الصلاة كما فرضها الله عليكم باجزائها وشرائطها واول اوقاتها وانه تعالى علّمكم الصلاة وهي أعظم مظهر للإسلام والمسلمين ما لم تكونوا تعلمون، فان من صلّى والتفت إلى ما يقول عرف أنّها وراء الوظيفة العملية دروس في العقائد من التوحيد والخلوص له واتصافه باعظم الصفات من الصفات الذاتية والفعلية ولا معبود سواه وان المؤمن قد وقع

على صراطه المستقيم، فيعرف المعارف توحيداً ورسالة ويعرف العمل القائم به بأي مرحلة من الخلوص وانه لا توجه إلى العبد الا إلى الله، فالمصلى إذاامعن النظر من تكبيرة وقراءة وإلى عمله القائم به عرف انه في مرحلة من العبودية وانه اقرب إلى الله من كل احد.

(والذين يتوفّون منكم ويذرون ازواجاً وصية الآية...)

كانت العرب في الامم السابقة لا يورثون المرءَة بعد موت زوجها من ماله شيئاً، فليس لها الربع إذالم يكن له ولها ولدا وكان لها ولدا وله فلم يكن لها الثمن وان هذا الحكم جاء في التشريع الاسلامي وأما الآية فناظرة إلى ما قبل الاسلام من العادات بان لا ميراث لها وعليها العدة اربعة اشهر وعشرة ايام وان الرجل لابد ان يوصي بعد ذهاب عدة الوفاة بالنفقة لها سنة كاملة ان لم تخرج من بيته والا فلا نفقة لها.

والآية في التوصية لها بالنفقة مع انه حكم كان في الجاهلية لا في الاسلام فهو في اول الدعوة والمعروف بين المفسرين، ان الآية شرعت او امضت ما كان عليه العرف من الايصاء بمال لها مدة سنة ان لم تخرج من البيت ثم نسخت الآية بآية الميراث بان لها الثمن بان كان له أولها ولد منه وان لم يكن له ولد وليس لها منه ولد فلها الربع.

فآية الميراث نسخت هذه الآية وان كانت الآية عند التأمل لا تعطي تشريعاً على ما عليه الامم السابقة بل في ذلك الوقت لم يتوجّه حكم من الشارع لها بالميراث لابان الآية شرعت او امضت العمل السابق وانما توجهت إلى جهة اخلاقية وهو بقاؤها في بيت زوجها سنة كاملة وإذا خرجت فلا يجب الانفاق عليها وهي أولىٰ بنفسها في التزويج وان الله عزيز في عظمته حكيم في أحكامه.

(وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين... الآية)

ان من الراجح والمستحب الاكيد الذي هو من شأن المتّقي ان يعطي المرأة متاعا وهذا المتاع باطلاق اللفظ وظاهر الجملة يعم جميع صور المطلقات حتى من لها عدة، ولم تكن الآية هذه في مقام التخصيص للآيات السابقة، فيؤخذ باطلاق هذه الآية وظهورها في جميع صور الطلاق من غير استثناء بمناسبة الحكم للموضوع بأن هذا من شؤون التقوى وشأن التقوى يستدعي الاخذ بالرحمة مع المرأة باعطائها متعة ومالاً لتعيش به مدة وتنتفع بذلك المال فتبقى جذور الرحمة بين الذكر والانثى حتى فيمن لم يبتل بطلاق المرأة من غير عدة فهو حكم شرعي ومستحب وخلقي من غير تخصيص له بمورد من الموارد.

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون الآية...)

وهذا الحكم من جملة الآيات والبينات للنظام البشري لعلكم تعقلون وتعرفون مزايا هذا التشريع والمراد بالعقل هنا ليس العقل في قبال الحس والوهم بل مطلق ادراك الشيء ومعرفة حقيقته ولذا قد جاء كثيرا في الآيات التعقيب بالتفكر والتعقل والفهم والتدبر بما هو يتقارب بعضها من بعض ويراد بالجميع هو المدرك الشاعر والملتفت إلى حقائق الأمور من غير نظر إلى تخصيصه بخزانة الدماغ كالمتخيلة او الواهمة فيراد مطلق الشعور والادراك لا العقل بالمعنى المصطلح الفلسفي.

(ألم ترا إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف الآية...)

ألم تر يا رسول الله انت واصحابك والرؤية بمعنى العلم على وجه الحقيقة دون المجاز كما قال تعالى: «الم ترا ان الله خلق السماوات والأرض بالحق»، وغيرها من الآيات، فبيّنت الآية أنّ قوما من الناس خرجوا من ديارهم حذراً من الموت خائفين منه فأماتهم الله ثم احياهم وهذه الآية لا تعطي ان القوم كانوا من بني اسرائيل ولذا انها لم تنقل في توراتهم او تاريخهم وخرج هؤلاء حذراً من الجهاد فأماتهم الله ثم احياهم ولا استبعاد بالاخذ بظاهر الآية من الموت والحياة وقد نطق القرآن بنظائر هذا الموقف كموت عزير واحيائه واهل الكهف في حياتهم وموتهم فأبان الله لهم ان ما هربتم منه من الجهاد حذراً من الموت فقد جاءكم الموت وان النفوس عندما تحيي تقوم على الشدائد وتقوم بالجهاد وبجميع مااعده الله لهم من الوقوف على اقامة الخير تمريناً للبشر وجعل الطريق لهم بهذا السلوك تربية لنفوسهم وتمريناً لها باقامة العدل ولو بتضحية النفوس ولا امتناع في الاخذ بظاهر الآية فقد ورد كثيراً في احياء الله للنفوس فلا استغراب ولا استبعاد وانما يستغرب ذلك من قلّ اطمئنانه.

وقد يراد من الموت ذهاب الشعور والادراك كما يطلق على المغميّ عليه وربّما كانوا عند فرارهم من الوباء اصابهم على وجه ذهلوا وذهب شعورهم ثم عادوا إلى الحياة المستقيمة وقد اراهم الله تعالى بهذه المرتبة من الموت ان الحق يجب اقامته ولو بتضحية النفوس، فالانسان إذا ضحّى بنفسه إلى اقامة العدل والحق كان مثلا أعلى ونفساً عالية تقدم الحياة الأبدية على أيّام تنقضي وتفنى وتتوجه النفس من الخمول إلى الشجاعة ومن الاوهام والاخطار إلى الحقائق الثابتة.

هذه سنة الله في خلقه في تمرين اوليائه بان يربيهم مرحلة بعد مرحلة فاذا قدم الانسان على الخطر القليل استعدت نفسه إلى الخطر العظيم، فالشجاعة كماتكون طبيعية وغريزة في النفس تكون تمرينية وعملا وقدماً بعد قدم وسيراً إلى ما هو الاهم، هكذا فطر الانسان على هذه الجبلّة وقد فسر الآية محي الدين العربي: ان الله أماتهم بالجهل واحياهم بالعلم، وهذا التفسير منه خلاف ظاهر الآية وان رجع إلى التأويل فقد بيّنا سابقاً ان التأويل والمعنى الخفي مخصوص بالرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وآله الكرام عليهم السلام لما قلنا لا يعرف القرآن على وجه التأويل والمعنى الخفي إلاّ من خوطب به، فكم لابن عرب من هذه التصورات في تفسيره وفلسفته بما لا يطابق القوانين العلمية.

وذكر صاحب المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده ان الآية يراد بها المثال للعظة وليست قضية حقيقية وان الهدف من الآية هو بيان سنة الله في الأمم بان الامة المجاهدة عن حق تحيى حياة طيّبة واما الامة التي تجبن وتستسلم للظلم والاضطهاد تحيى بالذّل والهوان، فأراد بقوله: «موتوا» استمروا بالاضطهاد والاستعباد للجبن، فهو موت لاحياة ثم أحياهم بحياة طيبة لتضحيتهم واقامة الحق، والآية بظاهرها على خلاف ذلك ولا يرجع إلى خلاف الظاهر إلاّ بقرينة وجوّز بعضهم تعميم الموت والحياة للحالات النفسية وان ذلك مفاد المعنى العرفي واللغوي فيكون الوجه المذكور مطابقاً للعرف واللغة ولكنه بعيد عن مفاد معنى الموت والحياة عند اطلاقهما عرفاً ولغة وان هذا الوجه قريب مماذكره محي الدين العربي.

وان الله لذو فضل على الناس بهدايتهم وتوجيههم إلى منهج الحق ولكن اكثر الناس لايشكرون فضله اما لقصور ذواتهم عن ادراك الفضل والحقائق واما لنفاقهم وجحودهم للايمان.

(وقاتلوا في سبيل الله...) ثم ان الله امرهم بالقتال في سبيله اقامة للحق ودفعاً للباطل واعلموا ان الله سميع لاقوالكم وعليم بافعالكم من تضحية النفوس للجهاد ومن الجبن عن الحق.

(من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً... الآية)

إنّ الآية الكريمة وما تقدمها من الامر بالقتال تكيف لنا حياة الانسان الكريمة في هذه الدنيا اذ خلق ليبلغ اعلى المنازل وياخذ بقوس الصعود فان كل انسان له مدة من الزمن

ولكن إذا انتهت حياته بجهاد وامر بمعروف ونهى عن منكر والقيام بالوظائف الشرعية اصبحت حياته نسمة السحر وضياء الفجر وكأنّ مثلاً لغيره ومنهاجاً يسير عليه، من بعده، فالخوف من الجهاد جبن وموت لا حياة فيه وكما ان الانسان كرامته بحياته الجميلة كذلك كرامته بماله، فاذا انفق ماله في الطرق المشروعة كان له النصيب الوافر في النشأة الآخرة والإنسان يتقوّم بروحه ونفسه وجسمه ويتقوّم بماله وكلّ ذلك طريق السعادة، وقد صرح الله تعالى في أنّ المال خير ما فيه بذله في الخيرات وان الجهاد كما انه كمال لشخصيات المجاهدين، وانه يتقوّم ببذل المال وما ألطف هذا التعبير وأجمله في المعنى فعبّر الله عن المال الذي هو مرتبط بالناس بارتباط اعتباري وإلاّ فالمالك الحقيقي هو الله تعالى لانه هو الذي اوجد المال كما اوجد الاشخاص، ومع هذا فالقرآن في غاية الادب واعتبر المال للانسان وانه يملكه تماما ولكن يقرضه لله ونسب القرض إلى الله، لان الجهاد بامره وكل حكم شرعي ينسب لله تعالى، فاذا اقرض الانسان مالا للجهاد، وتم امر الحق واقامة العدل فان الله يضاعف ما أعطاه بمضاعفات لا تخطر على خاطر البشر.

وروى عن الامام الصادق عليه السلام انه لما نزلت (الآية ٩٤) من سورة النمل (من جاء بالحسنة فله عشر امثالها) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: رب زدني فانزل الله تعالى (فيضاعفه له اضعافا) فالاضعاف الكثيرة المنسوبة إليه تعالى لا تدخل تحت الحصر والعدوان. الله هو الذي يقبض على الأمور لعدم استحقاق الشخص من العفو والرحمة ويبسط على الاشخاص رحمته وعفوه فالكل راجع إلى الله.

الاعجاز (آية ٢٤٦ - ٢٤٨)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

ان القرآن الكريم كتاب تشريع واحكام وكتاب فلسفة واخلاق وكتاب معاجز وكرامة وعِبر وأمثال ولكن قد يستطرق قصة تاريخية من حيث ان تلك القضية تشتمل على فوائد نافعة من بيان حكم او خلق او توجيه البشرية إلى هذه الأموروان بني اسرائيل بعد ان خرجوا من عبودية فرعون واستهلاكه لهم برسالة موسى عليه السلام وتوجيه الله له تعالى بان يخرج بني اسرائيل من تلك القيود الشاقة إلى عبادة الحق، وان من عادة هذه الأمّة الذّل والهوان لمن تملكها، فبعد موسى كانت الانبياء تتعاقب الواحد بعد الواحد والجمع بعد الجمع حتىٰ آل بهم الأمر ان سيطر عليهم جالوت فعندها ضاقت نفوسهم وتوجه المؤمن منهم إلى الجهاد حقيقة وإلى الحرية في دينهم وتوجه الكثير منهم إلى التخلّص من عذاب جالوت واستملاكه لهم لا لفرض ديني وهدف تشريعي،بل كان التوجّه إلى الدّين منهم وسيلة لان يستقلّوا ولا يكونوا تحت سيطرة حاكم، فتوجّهوا إلى نبيهم ويقال ان اسمه صمويل او إسماعيل وطلبوا منه ان يكونوا احراراً في دينهم ودنياهم ولماكان ذلك النبي عارفاً باخلاقهم وانهم لم يتوجهوا إلى الدين حقيقة وانما يريدون الفرار من رقية الحكام،فيوم يملكهم فرعون ويوم يملكهم جالوت، وان اليهود في جميع عصورهم أرقّاء لشعوب او لملوك إلى يومنا هذا فهم وان ادعوا الاستقلال والحرية ولكنهم في الحقيقة مستعبدين لاقوام آخرين.

وان القصص في القرآن ليست الا تعاليم ودروس وتوجيهات لاهداف الحياة التي تبتني على كرامة الانسان وعلوّ شأنه وقد جاءت بعض الآيات تنبيهاً لحالات البشر (لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب)[1] وقال تعالى (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظرواكيف كان عاقبة المكذبين)[2] وعندما جاء اليهود لنبيهم وارادوا ان يقيم ملكا للجهاد،فأجابهم النبي انكم قد تخالفون امر الله فيما يامركم به وحيث ان لا امر بالجهاد فلا عقوبة عليكم فاذا امركم بالجهاد وعيّن عليكم ملكا يديركم كنتم مأثومين بالمخالفة، فما قنعت نفوسهم بذلك فألحّوا على نبيهم، وقالوا: كيف نصبر عن الجهاد وقد اخرجنا من بلادنا وفرق بيننا وبين ابنائنا واصحابنا، ارقاء يوماً يملكنا فرعون وآخر جالوت وما ندري ماذا يصير امرنا في مستقبل العصور، وهذه الكلمات منهم مشعرة بان الدافع هو خروجهم

١. يوسف ١٢/١١١.
٢. آل عمران ٣/١٣٧.

عن ديارهم واستملاك الحكام لهم لا انهم ارادوا الجهاد بدافع الهي وباعث شرعي كماتعطيهم كلماتهم وان كان فيهم المؤمن ولكن المؤمنين فيهم على قلّة، وعندما استجاب لهم نبي عصرهم ولما اختار النبي طالوت بامر الله تعالى استنكروا خلافته عليهم بانه لم يكن من البيوت العالية والنسب الرفيع ومن اشخاص لا مال لهم والذي يقود الاجتماع والرئاسة لابد وان يكون ذا نسب جليل وذا مال كثير وقد فقد طالوت كلا منهما فأجابهم النبي ان ميزان إدارة المجتمع هو اشتمال تلك الشخصية على حسن السياسة والتدبير والتصرف بأحسن الوجوه، وليس الميزان عظم النسب او كثرة المال، فان شخصية كل نفس تقوم بوافر العلم والعمل ولا تقوم بآبائه او ماله وقد وهب الله طالوت حسن الارادة والقدرة على تنظيم المجتمع والجهاد وكفاءَته في تدبير الجيش على الوجه الأتمّ ومع ذلك لم يعتبروا قول نبيهم ووقعوا في الترديد والتشكيك كما هو عادتهم، فقالوا نريد المعجزة على مكانته وحسن ادارته فاجابهم ان المعجزة في ذلك هو رجوع التابوت اليكم وقد كان وجود التابوت لبني اسرائيل احد المنافع والكرامات لهم والاطمينان لحياتهم وقد رفعه الله عنهم عند ارتكاب المنكرات والجرائم وقيل كان في التابوت شيء من ألواح التّوراة وعصا موسى وكان قد سلبه اياهم الفلسطينيون في بعض الحروب.

فلما جاء التابوت أقرّوا لطالوت بالرئاسة والزعامة ولما كان غالب اليهود انما خضعوا لقول نبيهم والانقياد لطالوت لابدافع ديني حقيقي بل هي رغبات للرئاسة والحرية والاستقلال قال لهم طالوت: انكم ستمرّون بنهر وهو موضع اختبار لكم من حبّكم للجهاد لأمر الله او حبّ الجهاد لدوافع أخرى دنيوية،فانكم تمرّون بنهر قد امتلاء ماء فمن شرب منكم من النهر وارتوى فهو دليل على عدم توجهه للطاعة والجهاد وانما غايته التخلّص من الفلسطينيين ومن لم يشرب منه فأولئك هم على الهدى بدء وختاماً ولكنهم لمّا جاءوا إلى النهر شرب الغالب منهم وارتوى الا نفراً قليلاً ممن ثبت على الهدى واخلص لله في العمل.

ولما رأى اليهود كثرة الجنود لجالوت وقدرتهم على الحرب اظهروا ما في انفسهم من انه لا طاقة لنابجالوت وجنوده وقال القليل ممن اخلص لله في العمل كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

ولمّا علم الله صدق النية من النفر القليل أجابهم بالنّصرة على عدوهم فقتل داوود جالوت فانهزم اصحاب جالوت وقد ذكر بعض المفسرين كيفية حرب داوود لجالوت

وجنوده بأمر مستغرب اعرضنا عن التعرض له ولا شاهد من القرآن عليه من انه رمى يمين الجيش بحجارة فانهزموا وبحجارة في يساره فانهزموا ايضا ثم رمى بحجر ثالث فضرب جبهة جالوت وهناك اشياء ذكرت هنا لا تستحق الذكر ولا يقبلها العقل وان النكتة في الآية ان الله اظهر لعباده ان القيادة الدينية والحكومة الشرعية تتبع صلاحية الشخص وتكامله في المعارف ولا تتبع نسبه وآباءَه ولا يتبع المال الكثير وان كان بذل المال في الخيرات من الأمور الراجحة وكذلك إذا كان النسب شريفا كتولده من الانبياء والصالحين وهو من الكمالات التي تخضع لها النفوس ولكن الحقيقة والواقع تتبع الكفاءة والكمال في العلم والعمل دون المال والنسب، فلما امروا بالجهاد تخلّف الكثير منهم عنه كما هي العادة في كل نفس غير راضخة لأوامر الشارع ولا متفانية في حبه واوامره وان اظهروا وزعموا انهم رجال الحقيقة والدين ولكن إذا جاء الموقف واليوم الموعود تخاذلوا وفرّوا منه وقد فرّ اليهود من هذا الموقف وما قام به إلاّ طالوت وداوود وقليل من المؤمنين.

(وقال لهم نبيهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت... الآية).

وان موقف طالوت مع اليهود كان على حسب غرائزهم وتقاليدهم من ان النبوة في بيت والملوكية في بيت آخر وانه لا تقبل حكومة غير ذلك البيت ولا النبوة إلاّ من البيت الثاني وبهذا، اسقطوا الفضيلة من كل شخص وما علموا ان ميزان التقدم والتكامل هي المعارف، فان كمال النفس بالمعارف لا بالاموال، والانساب وهذه تقاليد بائدة وقد افهمهم ان الله اصطفى طالوت وله القدرة على إدارة الحكم والاجتماع والقيام بالجهاد وأنّ الميزان هو التّكامل في العلم وتطبيق العمل على العلم وازاده الله بسطة في الجسم فان قيادة الجيش تستدعي صحة المزاج فان المريض لا يمكنه ادارة الحرب وتوجيه الناس إلى الجهاد وقد اوضح الله لهم بطلان هذه الغرائز المبنية على التقليد وان الله يؤتي ملكه من يشاء من عباده على حسب استعداد النفوس وكفائتها في القيام بالأعمال الصّالحة وأنّه تعالىٰ واسع في قدرته واسع فى ايجاده، عليم باحكامه وأنّه تعالىٰ وان لم تكن افعاله معللة بالاغراض ولا ايجاده ناشئاً عن عنوان مصلحة لاحظها والا للزم والعياذ بالله تكملة ذاته بذلك الغرض والمصلحة وان وجوده غاية كل وجود ولكن مع هذا ففعله على طبق الواقع ولا يتخلّف عن جري الأمورعلى واقعها، فسبحان من كانت حكمته وعلمه وقدرته في ايجاده وتكوينه وفي تقديم شخص وتأخير آخر على طبق الحكمة وحقيقة الواقع.

(وقال لهم نبيهم ان آية ملكه الآية.

وعندما اعترضوا على نبيّهم في نصب طالوت ملكاً عليهم طلبوا منه المعجزة في هذا المقام ليصدقوا امره وظاهر هذا الحال انهم في الحقيقة في شك من نبوّة نبيهم وإلاّ فلو اعتقدوا على وجه اليقين والعلم بنبوّته لما كان معنى لعدم امتثاله ولا وجه لطلب المعجزة منه، لان طلب المعجزة انما يصح من الناس في كل مقام ادعى شخص النبوة فلا يمكن ان يصدق بدعواه حتى تظهر المعجزة على يده عند التحدّي معه والشك في نبوته وفي هذا المقام يظهر من بني اسرائيل الشك في نبوة صمويل فلذا طلبوا المعجزة، ولما طلبوا المعجزة ارجع الله لهم التابوت فيه آثار من الواح موسى وعصاه وغيرها مما لم يصرح القرآن ببيانها حيث ان بني اسرائيل كانوا يعلمونها ويكفي البيان على وجه الاجمال في القصة لرسول الله ﷺ، ومعنى سكينة التابوت ونزوله عليهم وان فيه آثار آل موسى وهارون تأتي به الملائكة لهم وهذاغاية ما يحتجون به في اقناع نفوسهم، فمن اهتدى بذلك فقد اخلص لله ومن ارتاب فهو على شك بدء وختاماً ولابد لكم من التصديق ان كنتم مؤمنين.

الاتجاه الفلسفي

ان الله تعالى عقب آيات الطلاق والعدد بموضوع هام فقال سبحانه وتعالى: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى»، فان الانسان إذا راجع ما جاءت به الشريعة المقدسة ونظر إلى واجباتها من الحج والصوم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر يجدها واجبات محدودة من القدرة على الحج ومن قدرته على الصوم ومن تمكنه على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ويجد الانسان واجباً على الاطلاق وفي كل يوم وليلة وهي الصلاة والصلاة كمااشرنا سابقاً ان لها مقامين مقام سقوط الواجب من اداء اذكارها في اوقاتها ومقام آخر وهو صلة العبد بربّه وتفانيه في ذاته، فان الانسان إذا نظر إلى سورة الفاتحة والتوحيد وذكر الركوع والسجود يجدها قد بيّنت مقام التوحيد من توحيد الذات وتوحيد الصفات والافعال وانه تعالى القيوم علىٰ كل شيء وان لا معبود سواه وأنّ الاحديّة مختصّة بذاته المقدسة، فهو صرف الوجود الذي لا حد له،ثم ينظر الانسان إلى مقام التسبيح في الركوع والسجود وهو مقام التنزيه عن كلما عداه وكلمة الشهادة حيث يشهد العبد وكأنه يقول اني ارى الوحدة لذاته في كل مقام وان لا يمكن أن يأتي له شريك لا في ذاته ولا في صفاته ولا

في أفعاله، فيتجلّى الحق بأظهر تجلّياته في ذهن المصلّي المتوجّه بروحيّته إلى الله ولذا كان اولياء الله إذا جاءوا في الحرب وحضر وقت الصلاة فانهم إذا اصابتهم السهام كانوا لا يلتفتون اليها الا بعد الفراغ وكما ورد في الخبر الصحيح في نداء زين العابدين عليه السلام في حال صلاته عند ما سقط ولده الباقر عليه السلام في البئر فلم يلتفت إلى ذلك الا بعد الفراغ من الصلاة، وقد جعل الله تعالى العلاقة بينه وبين عبده في الصبح والظهر والعصر وفي وقتين من الليل حتى تكون توجهات العبد كلها إلى الله تعالى ولذا جاء في الحديث: انها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وجاء في الحديث: انها قربان كلّ تقي ومعراج المؤمن وهذه الآثار الثلاثة تتبع نفسية المصلّي فينتهي عن الفحشاء في اول مراحله ويتقرب إلى الله بصلته ويعرج قلبه وروحه في آخر المطاف من الصلاة ولذا لا تسقط عن صحيح ومريض ولا في سلم او حرب او كون الانسان راجلا او راكباً حتى ان الله تعالى اوجبها على الغريق والحريق وانها لا تسقط بحال، كل ذلك لمكانة العبد وربه وهي الوسيلة لقضاء الحوائج وقد ورد في أحاديث ائمة الهدى كما سيأتي بيانه ان الصلاة الوسطى هي صلاة الظهر وعند العامة صلاة العصر وظهور التعبير وان كان ظاهراً في الوسطية بين الصلوات وان محلّها هو الوسط ولكن الانسان إذا أمعن في الآية وجرّد نفسه عن تفسيرها بالظهر والعصر وجد المراد من الوسطى هي غاية الشيء ونهايته وان التعبير بالوسط فيما جاء من الآيات والروايات يراد به الاعتدال الحقيقي الذي لا افراط فيه ولا تفريط، فعبّر الله سبحانه بقوله «والصلاة الوسطى» بيانا للمحافظة على الصلاة كلها دون التخصيص بين الفرائض بمعنى ان المقصود من الصلاة كونها واقعة في اوساط الطاعة ونهاية الانقياد وهذاالمعنى لا يتنافى مع التفسير بانها الظهر او العصر اذ، قد ذكرنا مراراً ان التفسير من اهل البيت عليهم السلام لا يتنافى مع ظهور الآية الا ان يأتي التفسير بصورة حصر المعنى فيما أقرّه أئمة الهدى عليهم السلام فحينئذٍ لا يمكن التخطّي عما صرحوا به من الحصر وان اقرب ساعة بين العبد وربه هي المناجات الحقيقية وهي حالة الصلاة وليس في الشريعة الاسلامية وغيرها عمل افضل من الصلاة، وسيأتي توضيح ذلك في اخبار اهل البيت عليهم السلام ما يدلّ على كرامة هذه الامة بمناجات العبد لربه في حال الصلاة وان العبد إذا تأمل موقعيته في الصلاة لم يجد وجوداً ولا كائنا ولاملكا ولا نبياً غير ما توجهت اليه نفسه وهو الله تعالى وقد جاءت الصلاة على وفق اوضاع الانسان من قيام وقعود وركوع وسجود.

ولما كان الله عالماً ان العبد قد لا يصل في الصلاة إلى تلك المراتب وإلى ترقي نفسه إلى تجليات الحق واعلى منازل الاولياء اكتفى منه في الصلاة بالذكر وجعل الفوز في الآخرة مدار إقبال النفس وتوجهها إلى مضامين اذكارها واظهرت السنّة انها لا تسقط بحال.

والمراد بالذكر في الآية هو حصول الاطمئنان بها واتيانها من غير خوف ولارجاء بل نفس التعلق بالذات المقدسة وقد ورد كما سيأتي في مناجات موسى عليه السلام لربه افتخار هذه الأمّة بالصلاة كما تفتخر بصوم شهر رمضان الذي هو صوم الانبياء وبحج الانبياء لبيت الله الذي هو من خواص ابراهيم عليه السلام.

واجمالاً ان الآية الشريفة ليست ناظرة إلى تشريع الصلاة بل النظر فيها إلى قيام العبد بأعلى مراتبها وان يأتي بها بكل هدف اراده الله في الصلاة من مراحل القبول وخضوع النفس وتوجه الروح والجسد إلى الله تعالى وان العبادات الاخرى وان كان فيها التوجّه إلى الله كالصوم وحج بيت الله الحرام إلاّ ان التوجه فيها في الغالب إلى توجه الجسد واطاعة اللسان وفي الصلاة التوجه باعلى مراتبه روحاً وعقلاً وجسداً لله تعالى.

وعندما انتهى بيان اوج الصلاة من ان حقيقتها هو غاية الاعتدال في العبادة جاءت الآية من قوله تعالى: «خرجوامن بلادهم حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم» بسبب ذلك النبي في زمانهم وهو اما خرقيل وهو المعبر عنه بذي الكفل او غيره ولا استبعاد في احياء النفوس وان كانت الوفاً، فان المعاجز والبينات من الله تعالى تأتي عند خروج الناس عن الصراط المستقيم.

وهنا يقع البحث في معنى عرفاني وهو انه قد ورد كثيراً ان الصدقة على الفقراء او الدعاء عند الاضطرار او اجابة الملهوف واغاثة المضطر وغير ذلك مما يوجب تغيير لوح القضاء والقدر ولذا ورد في بعض الروايات ان عيسى عليه السلام اخبر بموت شخص في وقت معين واخبر الحواريين بذلك ولما جاءوا اليه وجدوه حياً فسأل عيسى عليه السلام جبرئيل فقال قد قلت لي بموته وهذا هو حي ،فأجابه جبرئيل انه تصدق بمال كثير فدفع الله عنه الموت.

وهدف البحث ان لله تعالى علمين، علم يعلمه للانبياء والمرسلين والملائكة ولكن لله البدأ في ذلك وقد تقدم منا ان البدأ بمعنى الابداء للانبياء والملائكة، فيظهر لهم ما خفي عنهم وهذا العلم يجري على حسب المقتضيات والشروط وعدم الموانع وقد يحصل المقتضي ولكن لا يحصل الشرط أو يأتي المانع وعندها فلا يؤثر المقتضي في المعلول شيئاً

وهذا العلم لا يمكن ان يكون علماً ازلياً وعلماً يتجلّى عن ذاته المقدسة بل هو علم بحسب الظروف والازمان والحوادث والمقتضيات.

واما العلم الذي يتجلى من ذاته وعين انكشاف الواقع فلا تبديل فيه ولا تغيير وكيف يحصل التغيير للحقيقة الثابتة والانكشاف الواقعي وهذا هو لوح القضاء والقدر وانما أخفاه الله على الانبياء والملائكة ليتوجه الناس بحسب نفوسهم اليه تعالى حسب ماتستطيعه نفس النبي والملك فتاخذ روحية النبي التوجه إلى الله تعالى وطلباً لمرضاته وشوقا اليه، ومن هنا يظهر لك ان الآية على طبق القضاء الواقعي لتستقيم النفوس المنحرفة وتسير إلى الاعتدال، فان كثيراً من النفوس غير خاضعة للحق الالهي بتمام معنى الكلمة وانما تخضع له عند مشاهدة البينات والنظر إلى البرهان ولو كانت النفوس كلها في اوج الكمال لتوجهت إلى الله والهمت ارواحهم من قبل الحق تعالى ولما احتاجوا إلى الرسل والملائكة ولكن قد عرفت منّا ان الوجود له مراتب وله ترقّيات وقد لا يصل إلى اوجه الا بسبل الهداية والمعاجز التي يشاهدها، هكذا حكمة الله في خلقه.

(من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً... الآية)

ما ألطف هذا التعبير وأرقّه وما أجلّ هذا البيان، فمن يقرض الله جاء استفهاماً من الله بمعنى يصدر منه القرض وان يكون القرض على وجه حسن، فيضاعف له الثواب، اي شيء يقرضه العبد لربه وقد كان وجوده وماله من مال وولد ومقام وقدرة منه تعالى ولكن بعين هذا التنزل من الله في الاستقراض من العبد هو بيان عظمته وجلاله ولطفه على العباد، وان هذا التنزل مما يوجب للعبد إذاكان ذا كمال ومعارف ان لا يرى نفسه مقرضاً وان ينظر إلى ما يضاعفه الحق تعالى على فعله، فبعين هذا التنّزل ارتفاع شأنه تعالى[1] ، كل ذلك لمنتهى اللطف والعطف على العباد ليوجّههم إلى تكامل نفوسهم.

وان القرض هنا ليس المقصود منه خصوص المال فان العبد يقرض الله باعطاء الفقير وقضاء الحوائج واعانة الضعيف والبشرى مع المؤمنين، يقرض الله في عباداته وصلاته، يقرض الله في صومه وجميع اعماله من اعمال الخير، فالعبد في هذه الدار اتجاهه إلى الله تعالى وإلى ابناء نوعه وقد عبّر هذا البيان ان وجهته التي بينه وبين العبد تكون إلى

١ . هذا القول منه (قدس سره) مبنيّ على نظرية استكمال القوى في الأسفار الاربعة التي منها السير من الحقّ الى الخلق ان عوضد ببرهان نقلي. (حفيده محمد طاهر).

غاية الكمال والتمام إذاتوجه العبد إلى ابناء نوعه وابناء جنسه، وأخلص في التوجّه إلى عبادته والقيام بكل ما ينتهي اليه العبد من المنازل العالية.

ثم عبّر عنه تعالى فيضاعف له وان المضاعفة هنا بما يقتضيه شأنه تعالى فيضاعف الواحد بسبعين او بسبعمائة او اكثر وقد ذكرنا في محله من الفلسفة وعلم الاصول ان الثواب وان كان من فضل الله ولطفه وتمام رحمته الا انه بمعنى آخر يقوم بمفاد الاستحقاق، فالعبد يستحق الثواب إذا كانت نفسيته مستحقة لذلك فمن الله فضل وبعين ذلك الفضل يستحقه العبد لكماله وعلوّ منزلته واستعداد نفسه لانه ليس في الله جزاف بل لابد وان يجري الفيض الالهي على طبق الاستعداد وكمال النفس ووصولها إلى اوج السعادة.

وان الله هو القابض الباسط في وجود النفوس وتكامل العقول، فهو القابض للأرواح عند الموت وهو الذي بسط الأرواح في الاجسام عند خلقتها ووجودها وهو القابض للصّدقات من الاغنياء والباسط لها على الفقراء وهو الباسط للقوى في الاجسام والنفوس في طاعته وهو القابض لها عند التمرد[1] والطغيان وهو القابض لافكار البشر وقلوبهم ليستيقضوا إلى طرق الحق واليقين وعند ذلك يبسط فضله ورحمته عليهم وإذا وصفنا الانسان بالباسط والقابض فهو من ألهم بدايع الحكم وأوتي جوامع الكلم من الانبياء والرسل والاولياء وان الله هو الباسط لآلائه ونعمائه على قلوب اوليائه وهو القابض عليها لجلاله وكبريائه وعظمة شأنه والانتقال من اعدائه.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله عليهم السلام واصحابه

في البرهان - عن زرارة ومحمد بن مسلم، انهما سئلا ابا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى «حافظوا على الصلاة الوسطى» قال صلاة الظهر، وفيها فرض الله الجمعة، وفيها الساعة التي لا يوافقها عبد مسلم فيسأل خيراً، الا اعطاه الله اياه.

وان الذي يأتي في النظر، ان الصلاة الوسطى صلاة الظهر ومنها الجمعة؛ لان ما ورد فيها اكثر من غيرها وهي معرض الشواغل وتكسب الناس، فلهذا امر الله على التأكيد على صلاة الظهر.

---

١. وان كان علم السالك به تلقائياً لا موضوعيا نظره قوله تعالى سنريكم آياتنا في الآفاق وفي انفسكم» (حفيده محمد طاهر).

وفي الدر المنثور، اخرج احمد وابن المنبع والنسائي وابن جرير والضياء من طريق الزبرقان، ان رهطاً من قريش مربهم زيد بن ثابت، وهم مجتمعون فارسلوا اليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى، فقال هي الظهر ثم انصرفا إلى اسامة بن زيد فسألاه، فقال هي الظهر، ان رسول الله ﷺ كان يصلي الظهر بالهجير، فلا يكون وراؤه الا الصف والصفين، والناس في قائلتهم وتجارتهم فانزل الله «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا الله قانتين».

وعن ثقة الاسلام في الكافي، عن الصادق عليه السلام وذكرها صاحب البرهان عن محمد بن يعقوب عن عبد الرحمن بن ابي عبد الله عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: (فان خفتم فرجالا او ركباناً الآية) اذاخاف من سبع او لص، يكبر ويؤمى ايماء.

العياشي عن ابي بصير قال سألته عن قول الله والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً وصية لازواجهم متاعاً إلى الحول غير اخراج، قال عليه السلام هي منسوخة، قلت: وكيف كانت؟ قال: كان الرجل إذا مات انفق على امرأته من صلب المال حولا، ثم اخرجت بلا ميراث، ثم نسختها آية الربع والثمن، فالمرأة ينفق عليها من نصيبها.

وبمضمون هذه الرواية ما ورد عن معاوية بن عمار وغيره.

وعن محمد بن يعقوب بسنده عن ابي عبد الله عليه السلام في الرجل يطلق امرأته، ايمتعها، قال: نعم، اما تحب ان تكون من المحسنين، اما تحب ان تكون من المتقين وهذه الرواية في غاية تأكد الحكم ورجحانه.

وفي الاحتجاج، عن الصادق عليه السلام في حديث قال عليه السلام: احيى الله قوماً خرجوا من اوطانهم هاربين من الطاعون لا يحصى عددهم، فأماتهم الله دهراً طويلا، حتى بليت عظامهم وتقطعت اوصالهم، وصاروا ترابا، فبعث الله في وقت نبيا يقال له حزقيل، فدعاهم فاجتمعت ابدانهم، ورجعت فيها ارواحهم، وقاموا كهيئة يوم ماتوا، لا يفتقدون في اعدادهم رجلا، فعاشوا بعد ذلك دهراً طويلا.

وبمضمون هذه الرواية رواية طويلة البيان في الموضوع رواها محمد بن يعقوب عن عدة من الاصحاب عن ابي جعفر عليه السلام ولا استبعاد في احياء الله لهؤلاء كما ورد في القرآن كثيراً احياء الموتى، وان استبعده بعض المفسرين الا ان يحمل الموت على نحو المفهوم العام من الاغماء واذهاب الشعور، كما عن اهل الكهف فلا يراد بالموت هنا ازهاق

النفس.

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام لما نزلت هذه الآية من جاء بالحسنة فله خير منها قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم زدني فانزل الله، من جاء بالحسنة فله عشر امثالها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم زدني، فانزل الله: «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة»، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله ان الكثير من الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى[1].

وفي الدر المنثور اخرج عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن اسلم قال لما نزلت من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً الآية، جاء ابو الدحداح إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا نبي الله الا ارى ربنا يستقرضنا مما اعطانا لانفسنا،وان لي ارضين احداهما بالعالية والاخرى بالسافلة، واني قد جعلت خيرهما صدقة، وكان النبي صلى الله عليه وآله يقول كم من عذق مدلل لابي الدحداح في الجنة.

وبمضمونها رواية محمد بن يعقوب عن الصادق عليه السلام وان آية من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسنا، وان جاءت في مورد الجهاد الا ان الحكم عام للصدقات والخيرات ولكل معروف يبذل لله تعالى، بل حتى لو كان البذل غير مالي، كقضاء الحوائج، واجابة الملهوف، واكرام الضيف إلى غير ذلك.

وفي المجمع في قوله تعالى اذ قالوا لنبي لهم الآية، هو شموئيل، وهو بالعربية اسماعيل.

وشموئيل هو الذي يوجد في العهدين صموئيل وفي العربية اسماعيل، ويجوز ان يكون شموئيل من باب تبديل الصاد بالشين، وروى انه ارميا النبي، وان الملوكية، كماورد في بعض الروايات انها في ذرية يوسف والنبوة في بيت لاوى، وحيث ان هذا لما كان لا اهمية فيه لم يتعرض القرآن لذلك.

العياشي عن محمد الحلبي عن ابي عبد الله عليه السلام في قوله: (الم تر إلى الملاء من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) قال: وكان الملك في ذلك الزمان هو الذي يسير بالجنود ويقيم له امره، وبين بان الخير من عند ربه، فلما قالوا ذلك لنبيهم قال لهم انه ليس عندكم وفاء ولا صدق ولا رغبة في الجهاد،فقالوا كيف لا نرغب

---

١ . لان عطاء اللامتناهي في ذاته لامتناهٍ في فعله وفيضه وهذا ما يدل عليه البراهين العرفانية كبرهان بسيط الحقيقة وأشباهه (حفيده محمد طاهر).

بالجهاد وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا فلابد لنا من الجهاد ونطيع ربنا في جهاد عدونا،قال فان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فقالت عظماء بني اسرائيل وما شأن طالوت يملك علينا وليس من بيت النبوة والملوكية فقال ان الله قد اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والملك بيد الله يجعله حيث يشاء، ليس لكم ان تختاروا الا مااختاره الله، وان آية ملكه ان يأتيكم التابوت من قبل الله تحمله الملائكة فيه سكينة من ربكم، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون وهو الذي كنتم تهزمون به من لقيتم من اعدائكم، فقالوا ان جاء التابوت رضينا وسلمنا.

القرآن يفسر بعضه بعضا

«والذين هم على صلواتهم يحافظون»[١].

«فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فاذا اطمئننتم فاقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا»[٢].

«وأتوا النساء صدقاتهن نحلة، فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مرّيا»[٣].

«قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون على عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون»[٤].

«قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم»[٥].

«ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كانهم بنيان مرصوص»[٦].

«من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله اجر كريم»[٧].

«فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال، لولا اخرتناإلى اجل قريب،قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلا»[٨].

---

١. المؤمنون آية ٩.
٢. النساء آية ١٠٣.
٣. النساء آية ٤.
٤. الجمعة آية ٨.
٥. يس آية ٧٩.
٦. الصف آية ٤.
٧. الحديد آية ١١.
٨. النساء آية ٧٧.

«قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء»[١].

«هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما»[٢].

«ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين»[٣].

«ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون»[٤].

«ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين»[٥].

الاعجاز (الآية ٢٤٩ - ٢٥٢)

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

لما علم طالوت بالتردد من الكثير منهم وانهم انما خضعوا للمعجزة مخافة ان يعرفوا بالمخالفة، ابتلاهم الله بالنهر واخبرهم طالوت ان من شرب منهم من النهر فهو على غير هدى الا من اغترف بيمينه غرفة فان الله لا يؤاخذه بذلك، فشربوا منه الا قليلا منهم ممن اخلص في دينه وانقاد لقول نبيه، ومع هذا كله من الاختبارات التي عرف بها المحق والمهتدي من المتردد والشاك، فانهم عند عبورهم النهر لما وجد واكثرة جيوش جالوت قال الكثير المترددون في العقيدة، لا طاقة لنا بجالوت وجنوده لكثرتهم وقدرتهم، فاجابهم

١. آل عمران آية ٢٦.
٢. الفتح آية ٤.
٣. الروم آية ٢٢.
٤. الروم آية ٢٣.
٥. الشعراء آية ١٧٤.

عند ذلك من اخلص لله وامتنع من شرب النهر الا غرفة، كم من فئة قليلة وجمع لا كثرة فيه غلبت فئة وجمعا كثيراً،لان الميزان وسنة الله في خلقه ان الغلبة لقوة الارادة وحس العقيدة وثبات الضمير، فان من كان هذا شأنه وقف على الحق ولو بتضحية نفسه،اما من لم تكن له عقيدة راسخة فهم وان كثروا الا ان حب الدنيا وبقاءَهم في هذه الحياة تقربهم إلى التخلّف وعدم الثبات عند الشدائد واخطار الحرب،ثم قال لهم القليل ممن خلص لله وثبت على دينه ان الله مع الصابرين الثابتين من غير تردد والواقفين إلى آخر النصر الالهي وان من لم يصبرو كان ضميره متردداً فانه ينهزم عند الشدائد ولا يصبر في الدفاع عن الحق واذهاب الباطل.

(ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ... الآية).

وعند تواجه الفئتين للقتال قالت الفئة المؤمنة اللهم افرغ علينا صبراً وثبت قلوبنا عند مواجهة العدو حتى لا ننهزم ونقف حتى النصر النهائي وانصرنا على من جحدك وكان غير معتقد بألوهيتك وربوبيتك.

(فهزموهم بأذن الله وقتل داوود جالوت... الآية).

وعندما التقى الجمعان في الحرب تغلب المؤمنون على جالوت وجنوده واقدر الله داوود ان ضرب جالوت فقتله وقد قام داوود بعد طالوت بأمة بني اسرائيل ورئاسته عليهم وأيّده الله وافاض عليه الحكمة والنبوة وعلمه مما يشاء طبقا لمقامه واستعداده لتلك الفضائل، وألان له الحديد وليكن قوته ومعاشه من نفسه لا على أمّته تكريما لمقامه واظهاراً لكرامته وان من تمام حكمة الله ان يدفع اهل الشرور والعصيان باهل الايمان والا لبقى اهل العصيان بلا رادع ولفسدت الأرض واختلّ نظام أهلها وكان الجور والظلم والإلحاد قد عمّ البريّة ولكن حكمته اقتضت ان يرتدع الملحد واهل الفسوق بوقوف رجال الدين واهل الايمان، فالله ذو فضل على العالمين في ارشادهم وهدايتهم ووقوف الصالحين في دفع الباطل حتى لا يتغلّب الشرك على الايمان ولا الكفر على التقوى.

(تلك آيات الله نتلوها عليك الخ الآية)

فهذه القصص في القرآن عبر وامثال ومواعظ لمن اهتدى ومنهاجاً لعباده الصالحين، كل ذلك نتلوه عليك ايها الرسول بالحق وطبق الواقع والعدالة وانك لمن المرسلين إلى كافة الامم على ان تهديهم وترشدهم وتقيم الحق وتذهب الشرك والباطل.

الاتجاه الفلسفي

ان النفس الانسانية في حالاتها وصفاتها تارة يكون كمالها من شؤون ذاتها فتوصف بالعلم وتوصف بالعمل من الفلسفة النظرية والفلسفة العملية وهذه الصفات قد انطوت في النفس ولذا امكن للنفس ان تظهرها إلى الخارج ولولا انطواء المعارف والعلم وقوة العمل الصالح في النفس لما تمكن الانسان من اظهار تلك الصفات وتعليمها لغيره، لان فاقد الشيء لا يمكن ان تتجلّى فيه مظاهر تلك الصفات وذلك الشيء.

وللنفس حالة اخرى من الكمال وهي قوة الجسد والشجاعة القائمة بالبدن والنفس، وللنفس حالة ثالثة وهي الكمال بامر خارج عن ذاتها وعن البدن وهو كمال الانسان بالمال والاصدقاء والأولاد والاخلّاء والاقارب والعشيرة، فالكمال النفسي الحقيقي هو ما رجع إلى حقيقة النفس وفي المرحلة الثانية إلى الجسد.

ولكن لما كانت اليهود ذانفوس معقدة وتخلّفوا عما جاء به موسى عليه السلام حتى في زمانه وكفروا بأنعم الله، رجع عليهم الذل والهوان في زمان العمالقة وكانت الانبياء توجههم فلا تسمع اقوالهم وكان شعارهم قتل الانبياء وعدم امتثال أوامرهم حتى شملهم الذّل والهوان وتملّكتهم العمالقة واستخدموا نساءَهم واطفالهم،ولما استمرّ بهم الحال أرادوا الرجوع إلى الله تعالى وإلى نبي ذلك الزمان وهو اشموئيل وهو اسماعيل في لغة العرب او غيره فشكوا إلى ذلك النبي ذل حالهم وهوانهم واسترقاقهم ولما كان النبي من جنسهم ويعرف حالاتهم نبّههم على غلطهم وان طلب الجهاد لله تعالى محتاج إلى المقاومة وحسن العقيدة والثبات وان كل أمّة القت على نبيها ماظاهره الانقياد والطاعة تعين على النبي ان يجربهم وان كان سيء الظن بهم، فترقب مقاومتهم ووقوفهم على الجهاد، ولما جاء الوحي لذلك النبي بنصب طالوت ملكاً كما هو عادة بني اسرائيل ان من يدير الجيش والمقاومة مع الكفار يكون بنصب ذلك النبي في زمانه، فلما عيّن ذلك النبي طالوت للملك وإذا بهم رجعوا إلى غرائزهم ونفاقهم وتكبروا وقالوا كيف يكون طالوت ملكاً علينا وهو ليس من ذرية لاوى التي منهاالانبياء ولا من ذرية يوسف عليه السلام التي منها الحكام والملوك وانما هو من ذرية بنيامين.

انظر ايها الباحث إلى نفوس هؤلاء وضمائرهم كيف تخلفوا عن نبيهم مع الاعتقاد بنبوته وانه لا ينطق الا عن الحق، فاجابهم ذلك النبي مجاراة لهم ان الله اصطفاه عليكم

واعطاه بسطة في العلم والجسم، والعلم هو الكمال النفسي والشجاعة والقوة الجسمية هي الكمال الجسمي وقد افاض عليه ذلك، فما كان آباؤكم من الحكّام الا باصطفاء الله تعالى فكيف تترددون وتتحكمون في قبال من اصطفاه الله للملك والجهاد.

وايضا عندما تنظر إلى الآية الكريمة لاترى فيها محبّة الجهاد لإقامة الحقّ والدّين بل علّلوا ذلك للنبي في زمانهم بانهم اخرجونا عن بلادنا وفرّقونا عن أولادنا فما كان الاتجاه، اتجاهاً دينياً وانما هو اتجاه منافع ومصالح وقد نظر هؤلاء إلى الكمال الذي هو خارج عن مقام النفس من المال والنسب، نظروا إلى ان الكمال هو الكمال بالآباء والقوميات وبكثرة المال، وان الحاكم إذا لم يكن ذا مال فكيف يدير الأمور، هذه غرائزهم وجبلّاتهم ولماكان هذا الموقف من موقف المخالفة للحق والتباعد عن احكام الله وانبيائه، صرح لهم النبي بانه لا اطمئنان لي بوقوفكم بالجهاد والتفاني لاقامة الحق وانما هي اغراض لجلب المنافع والسيطرة من بعضكم لبعض وعندها اختبرهم الله عند مقابلتهم لجالوت ان من عبر النهر وشرب من ماء النهر فليس بصالح للجهاد في دين الله، وعندما عبروا النهر شرب الكثير وامتنع القليل وهم اهل الصلاح والممتثلين لأوامر الله والانبياء وعندما عبروا وعرفوا من انفسهم التخلف عن التجربة والامتحان الذي يكشف حقائق النفوس من ثبوتها على الحق وزيغها عنه، قال هؤلاء المترددون: «لا طاقة لناعلى جالوت وجنوده»، وكيف يقف المتردد عن الحق والشاك فيه على ازالة الباطل وعند ذلك اجابهم النفر القليل كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، اذ الغلبة ليست مقرونة بكثرة الجيش والجنود وانما هي مقرونة بقوة الارادة، فالفئة وان كانت قليلة ولكنها ذات ارادة قوية وعقيدة ثابتة ويقين ومشاهدة للحق وهم الذين تقع منهم الغلبة على اعدائهم، اذ الكفار والمنافقون يترددون وعقائدهم غير ثابتة على امر وعند ذلك أيّد الله داوود بالنصر فضرب الجيش وقاومهم فجعل الله الرعب في قلوبهم فان للحق رعب في قلب المتردد،فقتل داوود جالوت فتم امر الله في الفئة القليلة بان انتصروا على العمالقة وجنود جالوت وقالوا ربّنا افرغ علينا صبراً فان المؤمن عند الشدائد يطلب من ربه ان يصب عليه الصبر ويثبت اقدامه وينصره على القوم الكافرين، وقد استخلف الله داوود للنبوة والرئاسة وجعله خليفة في ارضه وعلمه علما كثيراً وقد تمت له الرئاسة والهداية لبني اسرائيل فان الله ليدفع شرور الكافرين بالمؤمنين والا لاختلّ النظام وكثرة الفوضى والقتل ولكن الله ذو فضل على العالمين بان يأتي لهم برجال اصلاح ليحفظوا

نظامهم واجتماعهم.

واعلم ايها الرسول الاعظم انما جرى في بني اسرائيل والانبياء كلها آيات وعبر نقرؤها عليك بالحق وانك يا ايها النبي الاعظم من المرسلين إلى عباده برسالة اولى واتم من رسالات الانبياء.

الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام وأصحابه

عن ابي بصير، عن ابي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى «ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني» فشربوا منه الا ثلاثمائة وثلاث عشر رجلا فمنهم من اغترف ومنهم من لم يشرب، فلما برزوا قال الذين اغترفوا «لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده» قال الذين لم يغترفوا «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين».

عن علي بن ابراهيم قال حدثني ابي، عن ابن ابي عمير عن جميل قال قال ابو عبدالله عليه السلام: ان الله يدفع بمن يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا وان الله ليدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي من شيعتنا ولو اجتمعوا على ترك الزكاة لهلكوا، وان الله ليدفع بمن يحج من شيعتنا عن من لا يحج ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا، وهو قوله عز وجل: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين».

والروايتان بقرينة الآية من الفساد في الأرض ان الله لا يعاقب في الدنيا من كان مسلماً، لتركه الصلاة والزكاة والحج والصوم لاجل من يقيم الواجبات، ويأتي بها على وجهها.

وليس المقصود منهما هو عدم العذاب في الآخرة، وانما المراد هنا العذاب في الدنيا،لكرامة الاولياء والصالحين من عباده كما ورد في بعض الاخبار المعتبرة، ان العذاب باسباب ذنوب الناس ودفع بمجيىء رسول الله صلى الله عليه وآله وآله الطاهرين عليهم السلام .

القرآن يفسر بعضه بعضاً

«يا ايها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون»[1] .

---

١. الانفال ىية ٤٥.

«وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين»[١] .

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلاً»[٢].

«تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين»[٣] .

١. آل عمران آية ١٤٧.
٢. النساء آية ٨٣
٣. آل عمران ١٠٨..

ختام

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّا تركنا بعض الخصوصيات لبعض الآيات، وجعلناها ختاماً ليطلّع المراجع على وجه الاجمال تفاسير بعض الآيات السابقة وبعض نكاتها وان الختام مسك كالبدء، والقرآن كله مسك معنوي، وتعرضنا لختام الجزءَين، ليكون تفسيراً موجزاً، لبعض النّكات المهّمة، في بعض الآيات.

ايجاز واعجاز لما تقدم وتفسير على وجه الاجمال

إنّ الله تبارك وتعالى، ابتدء كتابه باسمه العظيم، الدال على الصفات الجمالية الثبوتية والجلالية التنزيهية، وهو الرحمن الموجد بلا انقطاع فيض، والرحيم بعباده في النشأتين .

وقد تعرض الكتاب الكريم، في سورة الحشر،في كثير من اسمائه الحسنى، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق الباري المصور.

ان الحمد على الله والثناء عليه، لا يحيط به الا هو حتى مقام النبيين فانه لا يمكنهم الثناء عليه بمايطابق ذاته، وما ألطف انشاء الحمد من العبد، بتسبيب الربوبية وتربية النشأتين، الدنيا والآخرة، وما ألطف تكرار الافاضة بالرحمانية والتفضّل عليهم بالرحمة، وان لا مالك ليوم الجزاء الا هو بملكية حقيقية اشراقية، من غير تجوز ولا اعتبار.

وعند ماتوجه العبد إلى ربه، خصه بالعبادة والاستعانة، اذ لا معبود سواه، لانه لا يعبد الا هو، ولا خضوع إلاّ له، ولا استعانة إلاّ به، وعندها يتم مقام التوحيد من العبد في الذّات والصفات والافعال والعبادة.

ولما تمّت جهة الربوبية والعبودية، جاء مقام العبد في طلب الهداية إلى الصراط

المستقيم، علما وعملا، كما نطق الكتاب،عن هود عليه السلام ان ربي على صراط مستقيم، صراط الصديقين والشهداء والانبياء والاولياء، صراط الذين انعم عليهم، دون صراط المغضوب عليهم والضالين، من اليهود والمشركين والنصارى وغيرهم وعندها فينتهي مقام العبودية،إلى الاسفار الاربعة،فيسافر من الخلق إلى الحق، ومن الحق إلى الحق،ومن الحق إلى الخلق، ومن الخلق إلى الخلق، وان آخر ثناء اهل الجنة،الحمد لله رب العالمين.

(سورة البقرة)، الم سر الحبيب مع الحبيب ومناجاة القريب مع القريب حروف إذا جمعت بلغت إلى منتهى الاعجاز، بالقرآن الكريم.

ذلك الكتاب لا ريب فيه، انه منزل على نبيه وطرق اعجازه شتى، كما تقدم، ان الله قسم البشر على اصناف ثلاثة.

الصنف الأوّل اهل التقوى، الذين لهم مشاهدة الغيب والشهادة، ويقيمون الحكمة علماً وعملا، وهم الموقنون بالآخرة، على وجه اليقين، وحق اليقين ولهم مراتب متعددة في القرب من الله.

الصنف الثاني – اهل الكفر والجحود، والعناد للحق، مهما جاءت البينات.

الصنف الثالث – اهل النفاق الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر، يريدون الربح في الدنيا إذا تغلب المؤمنون، أو الكافرون، وقد وصفهم الكتاب بصفات تليق بهم، من خبث الضمير والخداع، والمكر والنفاق، يتقلبون من صفة قبيحة إلى اقبح منها، ويخادعون ويكذبون،وهم اهل مكر وخداع،وقد اجتمعت فيهم الصفات القبيحة كلها، فيتقلّبون من العمل القبيح إلى الأقبح.

وقد وصفهم الله تعالى بصفتين فراجع الكتاب الكريم وهم بالثانية اولى، وان ضرر هؤلاء على الدين، أضرّ من الكفار الجاحدين، وان الاصناف الثلاثة،من اهل الايمان والكفر والنفاق، في كل عصر وجيل، وليحذر المؤمن خطر المنافقين اكثر من الكافرين.

(آية ٢١ – و٢٢ – البقرة) وانهم يتقلّبون من سيئة إلى سيئة ومن مرض إلى مرض قلبي اشد منه، ثم ان الله تعالى ألفت نظر عباده، إلىان خلقتهم يراد بها التكامل، والوصول إلى ارقى المنازل، ولكن البشر بشهواتهم، وتقليداً لآبائهم عبدوا الاصنام وكم من فرق بين ارادة الله لعباده، من الترقّي إلى غاية اوج الكمال وبين ارادتهم في الانحطاط إلى عبادة الاصنام وغيرها من عبادة الشمس والقمر مما لا يحس ولا يدرك، وكيف يمثلون الله

بالاصنام،وكيف يخضعون لمن لا خضوع له.

وألطف بيان للآية الكريمة، ما قاله الامام السجاد عليه السلام: (جعل الأرض ملائمة لطباعكم. موافقة لاجسادكم،ولم يجعلها شديدة الحمى والحرارة فتحرقكم، ولا شديدة النتن فتغطيكم ولا شديدة اللين كالماء فتغرقكم، ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم وابنيتكم وقبور موتاكم، فلذلك جعل الأرض فراشاً)، هكذا افاد الامام عليه السلام فاعتبروا يا ذوي البصائر والالباب. ثم نبّه الله عباده، باستقرار الأرض وتربيتها للنفوس وانه الفراش المحكم بالهواء الكثير من جميع جوانبها، وجعل لون السماء الذي هو الهواء مناسباً للبصر وصير الحركات للنظام التام.

(آية – ٢٣ – ٢٤ – البقرة) ان الله سبحانه وتعالى وجه العباد باجمعهم إلى اطاعته، وان ما جرى على المنافق الكافر، كان على خلاف الطبيعة والفكر الصحيح وان تكامل العبد بتكامله بطاعة الله والقرب منه.

ثم افهمهم انه لو كان من غير الله، لتمكّنتم ان تأتوا بمثله، وقد بيّنّا في «المجلد الأوّل» ان القرآن الكريم، ليس معجزة تذهب بوقتها، كابراء الاكمه والابرص واحياء الميت، حيث انه تنتهي في زمانها، بخلاف القرآن، فانه معجزة العصور والاجيال وكانت معجزته عين تشريعه، فالنظام التشريعي في القرآن، عين اعجازه، وان معاجز الانبياء لم تكن بعين التشريع.

وانك إذا لاحظت من عارض القرآن، كالمقفع، وغيره وممن يعدّون انفسهم ممن يعارضون القرآن، او ممن تعتبر الناس فيهم المقاومة للقرآن، تجد ذلك بعين البصيرة قضايا تشبه الخرافية، ولسنا بحاجة إلى بطلان اقوالهم، فانها بأوّل نظرة يعرف الانسان سخافة ذلك.

(آية – ٢٥) «وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري»، تقدم بيان النعم على اتم الوجوه.

(آية – ٢٦ – ٢٨) تقدم بيانها.

(آية – ٢٩) إذا نظر الانسان بهذه الآية وما بعدها، عرف عظمة الله تعالى، في خلقة الانسان، في تكامله حتى بعد الموت، فان له نحواً من التكامل، إلى أن يأخذ باستقراره في الجنة، او في منتهى الانحطاط،حتى يصير مصيره إلى النار، ويشهد على تكامله من تسخير

السموات له، والشمس والقمر والرياح والمطر وما اودع الله في هذه الأرض من كنوز، كل ذلك لخلقة الانسان فسبحان من خلقه باحسن تقويم.

(آية - ٣٠ - ٣٣) «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة»، ان قصة آدم من عجائب التكوين، اذ خلقه الله مثالا لوجوده، وواسطة في تكوين انبيائه وسيد رسله محمد صلى الله عليه وآله الطاهرين عليهم السلام .

وان استقرار الملائكة لما وجدوه من الخلق، على وجه الأرض من الفساد العظيم، وان الانسان بطبيعته وشهواته يرتكب المعاصي والسيئآت، فافهمهم الله سبحانه وتعالى عما سألوه، ان آدم عليه السلام مثال الله في خلقه، وخليفته في هذا الكوكب والوجود المتكامل، وأولاده من الذين يطيعون الله بارادتهم وليسوا مجبورين على الطاعة، كما في الملائكة.

وكم فرق بين الارادتين، ارادة جبر وارادة اختيار، مع مقاومة الانسان لترك الشهوات، وأيّ فضيلة اثمن من هذا العمل، ثم اطلع الله ملائكته على اشياء غيبية، اخبرهم آدم بها، من معرفة حقائق الموجودات، وان الانسان يتكامل بالعلم والعمل عن اختياره وعمله.

(آية ٣٤ - ٣٦) «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر»، ان سجود الملائكة لآدم سجود احترام وتعظيم،لا سجود عبودية ورقية، فالسجود لله والتعظيم لآدم، ولما دخل آدم الجنة واكل هو وحواء من الشجرة التي منع منها لوسوسة ابليس وخداعه له اوجب عليه الخروج من الجنة.

والجنة التي دخلها آدم، هي من جنان الدنيا،كما صرح به الامام الصادق عليه السلام قال: جنة من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ماخرج منها ابداً، وان امتحان الله لآدم،هو تجربة له في عمله في الدنيا، ليسير من قوس النزول إلى قوس الصعود، وهو يعلم بذلك، الا انه ارتبك بالخروج بابتلاء ابليس له، وان العمل بعد التجربة، وفي كتاب عيون الاخبار، جاء حديث من الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام كان سجودهم لله تعالى عبودية،ولآدم عليه السلام اكراماً وطاعة لكوننا في صلبه.

(آية ٣٧ - ٣٩) «فتلّقى آدم من ربه كلمات»، وعند ذلك رجع آدم وتاب، والتوبة هي الرجوع من العبد إلى ربه وكل رجوع من العبد إلى ربه مسبوق وملحوق برجوعين من الله والتوبتين منه تعالى، وهو التواب الرحيم.

واما الكلمات التي تلقاها آدم، اما هي جعل الوسيلة محمداً صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام ، واما

لما ورد «انه قالا ربنا ظلمناانفسنا، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» (الاعراف آية ٢٣) او «اللهم لا إله الا انت سبحانك وبحمدك،ربي اني ظلمت نفسي فاغفر لي، انك خير الغافرين»، ونحوه، ولا مانعة جمع، بان يكون آدم عليه السلام قد توسّل بالرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وآله الكرام عليهم السلام، ودعى بادعية التوبة.

(آية ٤٠) «يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي» - ما أرقّ هذا البيان في بيان النعم المتكثرة، عقيب قصة آدم عليه السلام لتكون عبرة لبني اسرائيل وحفظا للنعم التي تكثرت على بني اسرائيل، وان لا يغفل عن شكره احد، وان النعم تقابل بالشكر والعبادة.

(آية ٤١ - ٤٣) «وآمنوا بما انزلت مصدقاً لما معكم».

إنّ الله حرّض اليهود عن المخالفة، لأنّهم امة لا يعرفون من الحياة، الا المادة ومنافعها، وقد بيّن الله تعالى، انكم لو كنتم على سلامة الطبع لكنتم اولى من مشركين العرب من الايمان بالرسول،لانكم تعرفون النبي صلى الله عليه وآله قبل بعثته وهجرته إلى المدينة وعندما وجدتموه لا ينقاد إلى منافعكم، حرفتم كلمات التوراة على ما تريدون، واشتريتم بها ثمناً قليلاً، وبعتم الاخرة بالدنيا ولم يحصل منكم الانقياد إلى طاعة الله وعباداته.

(آية - ٤٤) «اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب».

ان من عادة بني اسرائيل، ان يأمرون بالمعروف، ولا يعملون به، وينهون عن المنكر ويعملون به.

قال الصادق عليه السلام: كونوا دعاة الناس باعمالكم، ولا تكونوا دعاة بألسنتكم.

(آية ٤٧ - ٤٨) «يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين». ان الله نبّه بني اسرائيل على نعمه المتكثرة عليهم وأنّه فضلهم على اهل زمانهم لا مطلقا،وقد صرح القرآن الكريم،بان الامة الاسلامية، خير امة اخرجت للناس وان الله يرث الأرض للمستضعفين والمظلومين،وذلك لطيش اليهود وغرورهم وان اكثر الانبياء من امتهم.

وما علموا ان كثرة الانبياء،يدل على بعدهم عن الحق،وانحراف نفوسهم وان تكثر الانبياء لارجاعهم إلى الحق.

(آية ٤٩ - ٥٠) ثم تعرض الله سبحانه وتعالى، لذكر النعم التي انعمها عليهم في الآيات التي بعد هذه الآيات.

(آية ٥١ – ٥٩) وقد عدد الله نعمه عليهم، حتى اوصلهم إلى بيته المقدس وان يتنازلوا ويخضعوا إلى بيت الله المقدس، وانه يتوب عليهم.

(آية ٦٠ – ٦١) ان الله ذكر بني اسرائيل بنعمه، حتى من انفجار الحجر بالماء، على عدد قبائلهم، ومع ذلك كله قتلوا الانبياء بغير حق وتمردوا عن طاعة الله، ولم يصبروا على الشدائد عند التيه وطلبوا النعم، فانكر الله عليهم هذا الموقف وجازاهم بالذّل والهوان في الدنيا والعقوبة في الآخرة.

(آية ٦٢) «ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى»، ان الميزان ارتباط العبد بربّه، وامتثال اوامره، والانقياد له وطاعته من اوامر الانبياء، وامتثال الاوصياء من غير اختصاص لامة دون امة، ولو عمل اليهود برسالة موسى، والنصارى برسالة عيسى والصابئون الذين اتبعوا نوحاً ومن بعده دون من يعبد الكواكب منهم، لرجعوا إلى الرسول الاعظم ﷺ حيث ان الانبياء السابقين في رسالتهم، وكتبهم السماوية،يصرحون ببعثة النبي ﷺ والدعوة اليه.

(آية ٦٣) «واذ قال موسى لقومه، ان الله يامركم ان تذبحوا بقرة»، ان الله ابتلاهم بذبح بقرة عندما قتلوا نفساً، وهذا الابتلاء والاختبار برهان على احياء الموتى بعد الموت، وفراق الدنيا،وهو اكبر شاهد على المعاد، ليرجعوا عن غيّهم وتماديهم عن الجهل والطغيان.

(آية ٩١) ثم عقّب الله بالآيات الاتية خداعهم ومكرهم ونفاقهم وتحريفهم لكتاب التوراة، وزعموا، ان لله عهداً معهم ان يدخلهم الجنة، ولو كانوا كافرين فيتمّ عليهم نعمه ولو كانوا منافقين تلك امانية الجهل والعمى.

فان الانسان مسؤول بعمله وعقيدته، من غير فرق بين الشعوب والقبائل والاجيال ولو كنتم صادقين في توحيدكم واعمالكم، لرغبتم في الموت،وتمنّيتموه لأنّ الخوف من الموت، اما ان الموت اعدام للحياة،ولا حياة بعد الموت، واما للأعمال السيئة والأفعال القبيحة، وأنتم بزعمكم انكم ابناء الله واحبائه، والشعب المنتخب لله تعالى فكيف تخافون من الموت وتحرصون على الدنيا وايامها وملذاتها.

(آية ٩٧ – ٩٨) «قل من كان عدو لجبريل فانه نزله علىٰ قلبك»، ان اليهود يحتجون زوراً وبهتاناً،ان جبرئيل عليه السلام هو القوة الفعالة للغضب عليهم، والتألم منهم وهذاليس عقيدة لهم وانما هو فرار من دعوة النبي ﷺ ورسالته،وان كل ملك لا يعمل الا بأمر الله، ومن كان عدواً لرسله وملائكته، فهو عدو لله، وليس هذامنهم على وجه الحقيقة،وانما هو فرار

وتخلص،من دعوة النبي ﷺ ورسالته،فان الله عدو لمن كفر بملائكته ورسله، وان جبرائيل، وتلك القوة الالهية والروح الملكوتية، قد يطلق عليه روح القدس، وهو واسطة الفيض والوحي بين الله ورسله، وفي زعم اليهود، ان ميكائيل منبع الخير لهم، وهو كذب وافتراء.

(آية ١٠١) ان حديث سليمان بن داود عليه السلام بما تزعمه اليهود من انه الساحر والزعيم للسحرة،فهو كذب وافتراء،وانما هو نبي في زمن السحرة وقد نسب اليه اليهود خرافات اعرضنا عنها، لسخافتها.

وان القرآن اجل من ان يلوث بهذه الخرافات التي ذكروها وان الله سبحانه وتعالى دفع السحر ببعث هاروت وماروت، يعلّمون الناس الوقاية من السحر ومن الشعوذة والخيال. وما كان للسحر واقعية باسباب تكوينية،وكان هاروت وماروت،يفهمان الناس، انا جئنا لدفع الناس عن السحر، والوقاية،وقد نزّه الله نبيه سليمان بن داود عليه السلام وهاروت وماروت من الاكاذيب والخرافات.

وليس هاروت وماروت،اسمان فارسيان، بل اسماء لملكين، جاءا لنصرة سليمان وتوجيه الناس للحقائق، دون السحر والاكاذيب، وما طلب سليمان الملك للزعامة، وانما طلبه للهداية.

وقد بينا سابقاً، ان الانبياء لا يدعون بشيء، إلّا إذا توجّهت نفوسهم للإجابة وأنّما دعا سليمان من الله الملك للهداية والثواب العظيم، وإلّا فهو أجلّ من ان يطلب حطام الدنيا ورئاستها.

(آية ١١٥ - ١١٧) «ولله المشرق والمغرب»، ان الله تعالى له كل مشرق ومغرب في كل عالم، ومنه كل وجود، من عالم العقول والنفوس والمواد وغيرها، وكل وجود قائم بذاته، مفتقر اليه.

فالموجودات بأجمعها، هي القائمة بذاته، والمفتقرة إلى قدسه، وقد زعمت اليهود، ان عزير بن الله، وقد زعمت النصارى، ان المسيح ابن الله وما ذاك الا جهل وعناد لأنّه تعالى عيّن الوجود وكماله وغايته فكيف يكون من عالم المادة التي هي مورد التناسل والولادة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا،بل حتى عالم العقول والنفوس، لا يجري فيها التناسل والولادة.

(آية - ١٢٢ - ١٢٩) «وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمّهن قال اني جاعلك للناس

اماماً، أن الله قد ابتلى ابراهيم في مواضع عديدة، فخرج ابراهيم عليه السلام بقدسية نفسه ومكانته، من كل ما ابتلاه الله من كسر الاصنام، وقد خرج من بلاد الكفر، وهي بابل، وألقاه النمرود في النار، فجعلها الله له برداً وسلاماً.

ولما خرج ابراهيم عليه السلام من ذلك المحيط، وأشرقت نفسه باشراق الحق تعالى خصّه بالنبوة ثم بالرسالة، ثم جعله إماماً وقائداً للبشرية، وجعل بناية البيت العتيق على يده، وولده اسماعيل، ودعا الله، ان يخرج للمسلمين نبيا ورسولاً يتلوا عليهم آياته ويعلّمهم الكتاب والحكمة.

وقد ذكرنا، إنّ دعاء الانبياء، يكون عن الهام نفوسهم وتحقق الاستجابة من الله لهم لمكانتهم وشأنهم، وقد بنى البيت، بل وقيل انه اسس منى والمشعر.

وقد خصّ الله ابراهيم عليه السلام بمزايا لم تكن لكثير من الانبياء وكان الاسلام على طبق الحنيفية، وكثيراً من احكامه أقرّها الاسلام وان مقامه فوق مقام الانبياء والاوصياء ما عدا الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله والائمة الطاهرين عليهم السلام وجعل الله البيت مثوبة للقادمين ولمّا جعله الله قائداً واماماً، سئل عن ذريته، فاجابه الله تعالى، لن ينال عهدي الظالمين، والظلم عام، حتى ظلم الانسان لنفسه.

وقد افتخر اليهود برجوعهم إلى ابراهيم عليه السلام وانهم افضل ذريته، وان المشركين هم العرب من ولد اسماعيل، او ماعلموا بان ليس بين الله وخلقه رابطة الا العمل الصالح.

وقد ابتلى ابراهيم عليه السلام بكلمات عديدة، من مقاومة الاصنام والنمرود، والإلقاء في النّار، وبناء البيت العتيق، والدعاء ببعثة رسول يدعو الأمم إلى الحكمة والموعظة الحسنة وخصّه بولدين عظيمين اسماعيل واسحق، وكان دينه دين الحنفية البيضاء وخرج ابراهيم عليه السلام عن كل موارد الابتلاء الذي لم يبتلى بها نبي مثله.

وقد تبع الحنيفية البيضاء عبد المطلب واولاده وآباؤه وهم من الأمّة العربية فقد استجيبت دعواة ابراهيم عليه السلام كلها لقدسية نفسه وعظم شأنه.

(آية ١٣٥ - ١٣٧) ثم بيّن الله خطأ اليهود والنصارى، وان دين ابراهيم أقوم واقدم.

وكيف يخطر في عقول اليهود، أن لا نبي الا موسى عليه السلام وان ما تقدم من الانبياء ليسوا الا مؤهّلين لدعوة موسى عليه السلام مع ان شريعة ابراهيم عليه السلام اقدم واقوم للنفوس المستقيمة، وان لا رابطة بين الله وخلقه ولا صبغة للعبد الا ما جعله لله صبغة له، وهي التقوى وارتباط العبد

بربه لا بالقوميات والقبائل، ولا بالنعرات والجدل.

(آية ١٤٢ - ١٤٤) يعترض من لا خبرة له عن تغيير القبلة مما يراه النصارى من محل ولادة عيسى عليه السلام او ما يقوله اليهود من البيت المقدس وكيف يترك البيت الذي اسسه ابراهيم عليه السلام إلى محل لم يجعل قبلة، كالارض التي ولد فيها عيسى عليه السلام او بيتا مقدساً كما اختاره اليهود، مع انه لم يشرعه موسى للقبلة، ولعله قبلة لاعتبار كونه ارض مقدسة «واين ما تولوا فثم وجه الله».

ولو انصف الانسان، ونظر نظرة تأمل لما عدل عن البيت الحرام، لان تأسيس ابراهيم عليه السلام له قبل موسى وعيسى عليهما السلام مما يدل ان البيت الذي يكون قبلة للعالم، هو ما اسسه ابراهيم دون غيره، وكان ذلك امتحان للناس وقد ترقب ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله لعلمه بان البيت هو القبلة، وكان يترقب وقتا بعد وقت في التوجه إلى الكعبة.

واجمالا ان الاسلام هو الوسط، وخير الأمور اوسطها وهو في توحيده وتوجهاته الدينية، من التوجه إلى القبلة، والاعمال الصالحة، وما تمكن الناس ان يكونوا امة وسطاً الا عند نضوج البشر وتعقلاتها واستقامة عقلها والوصول إلى الغاية، ولقد جعل الله أئمة هذه الامة والصالحين من عباده شهداء على الامم، وجعل الرسول فوق الكل شهيداً.

(آية ١٤٥ - ١٥٢) «ولئن آتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض».

ان هذه الآيات، تتوجه إلى هدف، وهو ان الميزان في الخضوع والعبوديّة ليس هو التوجّه الظاهري، بل التوجّه الروحي والعقل إلى المبدء الا على، واما التوجّه الظاهري، فقد يختلف في القبلة، فعند قوم المشرق، وعند آخرين البيت المقدس.

ونلفت النظر هنا انما توجه اليه اليهود والنصارى قبلة تختلف بحسب الظروف والازمان، وانما يزعم به اليهود والنصارى من التوجّه إلى القبلة التي يعتبرونها، ليست مؤسسة من ذوي الشرائع العامة، كموسى وعيسى.

وان القبلة الحقيقية، هي ما أسّسها ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ودعا ابراهيم اليها، وألزم الله توجه النبي الاعظم صلى الله عليه وآله اليها، ليكون البشر والمسلمون صفاً واحداً في السفر والحضر.

وان القبلة التي أسّسها ابراهيم عليه السلام واكدها خاتم الرسل هي الكعبة، وأمّا بقيّة ما هو قبلة فليس الا التوجّه إلى شرف المكان وانما اسس داود وسليمان البيت المقدس لشرف

المحل. والعمدة ان الاتجاه الحقيقي، هو اتجاه العقل والروح إلى الله تعالى، وإلى القبلة اتجاها ظاهرياً، ليكون المسلمون على هدف واحد.

وقد اعقب الله هذه الآيات اذكروني اذكركم، وليس المراد بالذّكر هو الذّكر باللسان، بل تعلق الروح بذاته في مقام الطاعة والعبادة.

فالانسان، كما انه صرف الوجود الرابط لله تعالى ولا وجود استقلالي، ولا من الوجود الرابطي المنتسب إلى الواجب بل هو فيض الواجب، فنبّه الله عباده ان يكونوا في مقام العبادة والطاعة، عين الذكر المعنوي وعين التعلق الروحي دون الذكر اللفظي، وانه تعالى ذاكر لهم في مقام التكوين والتشريع، ومربّياً لهم في النشأتين الآخرة والاولى.

وقد ورد عن الرسول الاعظم ﷺ مخاطباً لامير المؤمنين عليه السلام ومضمون خطابه له ان ذكر سبحان الله والحمد لله ذكراً لفظياً، وان الذكر الحقيقي، هو التوجه في الافعال والاقوال والحالات والإرادة إلى الله تعالى.

(آية ١٥٣ - ١٥٤) ان الله تعالى الفت نظر عباده، ان استعينوا بالصبر والصلاة، قال امير المؤمنين عليه السلام الصبر في الايمان، كالرأس من الجسد، وكان ائمة الهدى عليهم السلام يحرضون الناس عند الاخطار والمخاوف ان استعينوا بالصلاة، فان العبد إذا جاء بالصلاة، توجه بروحيته وحقيقته إلى الخالق تعالى، ولا بد عند ذلك ان يقضي الله حوائجه،وان يدفع بلاءَه.

ثم نبّه القرآن الكريم، ان من قتل شهيداً ليس ميتا، بل انتقل من دار إلى اخرى، وخلع ثوبا ولبس الآخر[1].

وسيأتي منّا ان شاء الله تعالى، في الآيات المناسبة بيان الصبر، وجهته الاساسية والاخلاقية في الدين والخشوع في الصلاة.

(آية ١٧٨ - ١٧٩) «يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى».

ان الله قد جعل هذه الامة امة وسطا، وان الوسط هو الاعتدال من غير افراط ولا تفريط. وقد كتب الله على هذه الامة، احكام القصاص ورفع التعدي، فان القصاص يوجب الأمن ورفع الخطر من التعدي،وإذا سدّ باب القصاص كثر القتل واختلّ النظام، كما نشاهده

---

١. طبقا لقاعدة اللبس بعد اللبس لا اعدام وجود وخلق آخر اذ ما شأنه الوجود لا يقبل العدم نعم العدم يكون بلحاظ الحالة الجسمانية العنصريّة وما يسمىٰ بالعدمي وبلحاظ النسب والإضافات لا العدم المحض المقابل للوجود المحض (حفيده محمد طاهر).

اليوم في الشرق والغرب.

وليس كل احد إذا عامله الشخص بالعفو والاحسان تراجع، وتراجع المجتمع معه، فان ذلك قد يتأتّى من بعض النفوس لا من جميعها، والا فالكثير منها يتجرى إذا حصل له العفو، وقد يكون ذلك طريقاً إلى الجرأة على النفوس، ولذا جاء الخط الوسط بين شريعة عيسى عليه السلام التي فتحت العفو وقد يكون العفو سبباً لسفك الدماء وهتك الاعراض وان شريعة موسى عليه السلام مبتنية على القصاص.

فشرع الاسلام القصاص لحق المظلوم وعدم سراية الجناية منه ومن غيره والتجرّي في القتل، وفتح باب العفو ليخجل المتجرّي ويلبس ثوب الحياء ولكل قاتل حالات تستدعي اما القتل او العفو ولما سد باب القصاص كثر القتل في الممالك الغربية والشرقية.

وان اناساً لجهلهم وعدم معرفة عقولهم لاسرار التشريع اشكلوا على القصاص بانه اعدام لشخصيتين وانه يؤكد الحقد من الجانبين وقد قال الله تعالى ولكم في القصاص حياة، لان الشرّ لا يدفع إلاّ بالشر، وان النفوس في الغالب مبينة على الفتك والظلم فلا يمكن سدّ هذا الباب إلاّ بالقصاص، نعم لو تكامل البشر لكان العفو سائداً في البشرية.

ولكن هذا لا يتأتّى في جميع النفوس والاجيال، فانك إذا نظرت إلى الشرقي في هذه العصور، فضلا عما تقدم من العصور، رأيته مملوء بالتنازع والفتك.

فالقصاص في اول المراحل، سدّ باب القتال، وفي آخر المراحل العفو، إذاكانت النفوس متحلّية بالفضائل ومتخلّية عن الرذائل.

وقد يتردد من لا معرفة له باسرار الاسلام، انه كيف تؤخذ المرأة بالرجل، ولا يؤخذ الرجل بالمرأة، فان من راجع شريعة الاسلام، يجد انه يؤخذ بها، الا ان أولياءَها يؤدّون نصف الدية، لاجل حفظ نفوس ذرية القاتل، فالحكم في احدهما مطلق، وفي الآخر مشروط، والاسلام دين العدالة من غير فرق بين الرجل والمرأة.

(آية ١٨١ - ١٨٣) «كتب عليكم إذا حضر احدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتقين».

من الألطاف الاسلامية والشريعة المقدسة، ان الله فتح باب رجوع العبد إلى ربه في الحياة، وبعد الموت، فشرع له الوصاية.

وان من علامة المسلم، كما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله: «ان المرء لا ينام، الا ووصيته تحت

رأسه»، وشرع الاسلام الوصية محافظة على الانسان، من اخطار الآخرة، وجعل الوصاية في ثلثة في الواجبات البدنية،كالصلاة والصوم،وجعل الديون الشرعية وغيرها، تخرج من اصل المال رحمة بحال الميت، وجعل له الاختيار في منجزاته من الهدية والعطاء والوقف وافعال الخيرات، وان كان في مرض الموت.

وهذا لطف ما أوسعه وافضله، بان الانسان يتدارك نفسه للخروج من النّار إلى الجنّة بالوصية التي تؤديّ عنه واجباته فاذا اوصى كان له الثلث،وإذا أنجز صدقة او وقفاً او عطيّة فهو في مطلق ماله، وان الإنسان له التصرف في ماله إلى آخر نفس من حياته، ويتعيّن على الوصيّ، ان يقوم بالوصية، حسب ما أوصى به الميت فان صدر من الوصي مخالفة وجنفا بان تصرف فوق الثلث، أو أجرأه في غير محله تعين على الحاكم الشرعي والمؤمنين إرجاعه إلى العدل والاعتدال.

فالإسلام يحافظ على شخصية الانسان في الحياة وبعد الموت، وليست الآية منسوخة بآيات الميراث، كما توهمه بعضهم بل كل على مجراه.

(آية ١٨٣ - ١٨٥) كتب الله بقلمه الصيام على هذه الامة، على أكمل الوجوه فلن يلزمهم بصوم يومين متواليين، ولم يترك الصوم عنهم، فان في الصوم منافع بدنية ومعنوية، فان الصائم إذاترك المحرمات كان اقرب إلى الله من كل احد.

وأوضح القرآن الكريم في بيان احكام الصوم، «إنّ الله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»، كما قال رسول الله ﷺ: بل جئتكم بالشريعة السمحاء السهلاء ومن اراد بيان ذلك فليراجع كتب الفقه. وسيأتي منا بيان ذلك في بعض الموارد، كما فصلنا هذه البحوث في «انوار الوسائل».

(آية ١٨٦) «وإذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان».

قال الصادق عليه السلام: اياكم ان يسأل احدكم ربه شيئاً من حوائج الدنيا والاخرة حتى يبدء بالثناء على الله والمدح له والصلاة على النبي وآله، ثم الاعتراف بالذنب، ثم المسألة.

قال امير المؤمنين عليه السلام ما مضمونه ان قلوبكم فيها ثمان خصال، اولها انكم عرفتم الله فلم تودوا حقه كما اوجب عليكم فما اغنت عنكم معرفتكم شيئاً.

الثانية: انكم آمنتم برسوله ثم خالفتم سنته وآمنتم بشريعته فاين ثمرة ايمانكم.

الثالثة: انكم قرأتم كتابه المنزل عليكم فلم تعملوا به وقلتم سمعنا وأطعنا ثم خالفتم.

الرابعة: انكم قلتم تخافون من النار وانتم في كل وقت تقدمون اليها بمعاصيكم فأين خوفكم.

الخامسة: انكم قلتم ترغبون في الجنة،وانتم في كل وقت تفعلون مايباعدكم منها، فاين رغبتكم فيها.

السادسة: انكم اكلتم نعمة المولى فلم تشكروا عليها.

السابعة: ان الله امركم بعداوة الشيطان،وقال ان الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدوا، فما عاديتموه، ووالیتموه بلا مخالفة.

الثامنة: انكم جعلتم عيوب الناس نصب اعينكم وعيوبكم وراء ظهوركم تلومون من انتم احق باللوم منه، فاي دعاء، يستجاب لكم مع هذا، وقد سددتم ابوابه وطرقه، فاتقوا الله واصلحوا اعمالكم،واخلصوا سرائركم، وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فيستجيب لكم دعاءكم.

(آية ١٨٨) «ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام»، فسّرت الآية هنا بالرشوة، والرشوة حرام، وقد ورد انها كفر بالله، ويسقط حكم الحاكم بالرشوة، ويحرم عليه الحكم، ولا يكون المال حلالا، وان كان المفهوم عاماً، يشمل الرشوة والهدية.

(آية ١٨٩) «يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس»، ان الله جعل موازين الاعمال بالاهلّة، ومواقيت الطبيعة وحث على ان الأمور تؤتى من ابوابها ولا تأتوا البيوت والأمور من ظهورها فانه خلاف النهج الطبيعي فاتوها من طريقها.

(آية ١٩٠) «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم»، ان الآية الكريمة نزلت في قصة الحديبية واظهرت قوانين الاسلام في القتال ان لا يعتدوا على الناس وان يكون القتل ليس للرئاسة وطلب المال، ولا اخذ اراضي الناس، ولا اغصان اشجارها وثمارها، وانما القتل في الاسلام لاثبات كلمة التوحيد والرسالة والعدالة والاعتراف بيوم القيامة والمجازات عن الخير والشر.

وقد ورد عن امير المؤمنين عليه السلام في كلماته وخطبه ان لا يبتدىء بالقتل وان لا يجهز على جريح ولا يمنع الماء ولا تقتل النساء والاطفال.

هذا قانون الاسلام وعدالته وانا في الغالب لا نتعرض لبيان النزول فان الآية وان نزلت في قصة خاصة ولكن التشريع الاسلامي والناموس الإلهي لا يأتي على نحو القضايا

الشخصية بل يأتي على نحو القواعد الكلية لنظام حياة الانسان في الدنيا والآخرة وانا ايضاً لا نتعرض للقراءآت لان القراءة في القرآن لا تتوجه إلاّ على اتم القراءآت وأكملها وأبلغها معنى.

واما التراكيب العربيّة من الجمل وحالتها فهي تأتي في بيان الاعجاز فيما حررناه.

(آية ١٩١) «واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم»، ان الله تعالى بيّن موارد القتل لمن عبد الاصنام واخل بنظام حياة الاسلام واخرج من اخرجوهم من مكة من المسلمين، ثم بيّن ان من اقام الفتن واوجب اضطراباً ومقاومة للحرب فهو اشد ممن قتل النفوس لانه منبع الشرور والفساد على وجه هذا الكوكب والفتنة يراد بها تارة الحيل والمكر والاذية وتارة الاختبار والامتحان وثالثاً الوقوع في الشدة ويجمعها الوقوع في الشدائد من خير او شر.

(آية - ١٩٣) «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة».

بينّ القرآن الكريم ان الجهاد والقتل في الاسلام لإقامة التوحيد والعدل والرسّالة ومعرفة المعاد لا للرئاسة والنفوذ والغنائم.

وما قام الرسول الاعظم ﷺ بالجهاد الا في المدينة لكثرة انصاره، وكثيراً من حروبه كانت دفاعية لا مهاجمة.

(آية ١٩٤) «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص».

ان الاسلام يمنع القتال في الاشهر الحرم احتراماً لما حرمه الله تعالى فان تعدى المشركون في الاشهر الحرم وجبت مقاومتهم ودفع شرورهم حتى يرجع الحق إلى نصابه.

وقد فرض الاسلام مجازات الاعتداء بالمقاومة له وشرع العفو عن المسيء لكرامة المسلمين وشرفهم ولم يكن الاسلام كدين اليهودية من اعتدائهم من غير سبب ولا كالنصرانية التي بنى قانونها على الذل والهوان ونسبوه إلى عيسى عليه السلام من ضربك على خدك الايمن فاعرض له خدك الايسر فالاسلام دين العدالة في المجازات والعفو.

(آية ١٩٥) «وانفقوا في سبيل الله».

انّ الاسلام رجّح الانفاق في سبيل الله على وجه الاعتدال من غير اسراف وان لا يوجب البرّ هلكة النفس والاضرار بالعائلة والزم في بذل الحقوق لحفظ اموالهم كما قال عليه السلام: حصّنوا اموالكم بالزكاة، ولو دفع الناس الزكاة والخمس ورد المظالم ومجهول

المالك والكفارات والوصايا وبذل الاوقاف العامة في مواردها لحفظ الاجتماع كانت الأمّة أمّة وسطا ولم يكن الاسلام على منهج الشيوعية والرأسمالية.

(آية ١٩٦) «واتمو الحج والعمرة بيّناه في الاحكام المتقدمة» فراجع.

(آية ١٩٧) «الحج اشهر معلومات»، تقدم بيانه،إنّ الاسلام دين العلم والعمل في الدنيا والآخرة على وجه الاعتدال.

(آية ١٩٨) «ليس عليكم جناح»، تقدم بيانه.

(آية ١٩٩) «ثم افيضو من حيث افاض الناس»، تقدم بيانه.

(آية ٢٠٠) «فاذا قضيتم».

إنّ الآية اشارت إلى الصنفين في العالم صنف: يريد الدّنيا وليس له في الآخرة من نصيب وصنف: يريد الدنيا وسيلة للآخرة وكل من القسمين له اوج إلى السعادة على اختلاف مراتبهم وقسم إلى الانحطاط والهبوط على اختلاف مراتبهم ايضاً.

قال رسول الله ﷺ: من اوتي قلبا شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على امر دنياه واخراه فقد اوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقى عذاب النار.

(آية ٢٠٣) «واذكروا الله في ايام معدودات».

إنّ ايام التشريق الثلاثة قد اكد الله على عباده ان يقولوا بعد الصلاة أوّله ظهر يوم العيد وآخره صباح الثالث عشر الله اكبر لا اله الا الله والله اكبر ولله الحمد الله اكبر على ماهدانا الله اكبر على ما رزقنا من بهيمة الانعام.

(آية ٢٠٤ - ٢٠٦) «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ ﴿٢٠٦﴾».

تعرضت الآيات لحالة المنافقين باكثر مما تقدم ان المنافق الد الخصام ويفسد في الأرض ويوقع الفتن ليتولى الرئاسة والسيطرة ويعمل بما تقتضيه نفسه الخبيثة.

وهذه الآيات توجّهت إلى طلبه للرئاسة، وان طريقها إفساد الأعمال والفتن وان اعجبتك صورته وظواهره فاذا تولّى أحرق الحرث والنسل، وإذا جاءته الموعظة أخذته العزّة والتكبّر.

(آية ٢٠٧) «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد».

نزلت هذه الآية الكريمة في حق امام الموحدين امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وهذه الآية تقابل ما تقدم من آيات النفاق، فهي في مقام تمام الخبر والتكامل في شخصية هذا الرجل، كما ان الآيات السابقة، في منتهى النزول والانحطاط في النفس.

وقد الزم معاوية بن ابي سفيان، سمرة بن جندب، ان يرويها في حق عبد الرحمن ابن ملجم المرادي،ولكن لم يقبل ذلك المسلمون، وعرفوا انها من مفتعلات معاوية وسمرة بن جندب وكم لمعاوية من مفتعلات في حق امير المؤمنين عليه السلام .

ومن الغريب جدا كيف يرضى المسلمون من معاوية في حق علي بن ابي طالب عليه السلام هذه الاقاويل، وكان الذي ينبغي على المسلمين، ان ينكروا مثل هذه الاقاويل في كتبهم ومؤلفاتهم.

(آية ٢٠٨ - ٢٠٩) «يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان، فان زللتم من بعدما جاءتكم البينات، فاعلموا ان الله عزيز حكيم».

ان الله تعالى دعا المؤمنين إلى السّلم والطمأنينة إلى عموم الناس، وان السّلم مقارن للإسلام، ويحقق للبشرية الطمأنينة والاستقرار، حتى مع الكتابيين.

وإذا خرج الانسان عن نظام الشّرع الاسلامي فهو يدعوا إلى المادة والرئاسة والقوميات والنزعات والغرائز المسنونة على التشاجر والقتال وان خالفتم وتركتم الطريق المستقيم من بعد ما جاءتكم البينات الواضحات فان الله عزيز حكيم، عليم بافعال العباد.

(آية ٢١٠) «هل ينظرون الا ان يأتيهم الله»، راجع ما تقدم.

(آية ٢١١) «سل بني اسرائيل»، لا يختص تبديل النعمة بالكفر والعصيان ببني - اسرائيل فان كل من خرج عن دائرة الحق فقد بدّل نعمة الله كفراً، فالآية بعمومها شاملة لبني اسرائيل وغيرهم كما هو شأن القرآن الكريم في احكامه وتعاليمه.

(آية ٢١٢ تقدم بيانها).

«زين للذين كفروا»، من حيث شهواتهم ورغباتهم ولا يراد بالفاعل المجهول هو الله فانه اجل شأنا من الظلم للعباد وتزيين الشهوات.

(آية ٢١٣ - ٢١٨) تقدم بيانها.

(آية ٢١٩) «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما

اكبر من نفعهما».

إنّ الأمم من المشركين وغيرهم كانوا مولعين ومعتادين على شرب الخمر ولعب القمار ولما جاء الاسلام منع عنهما وسألوا رسول الله ﷺ عن حكمهما فجاءت الآية ان الخمر والميسر اثمهما اكثر من نفعهما لأنّ مادة الخمر وهي «الألكل» توجب النقص في الانسان وتوجب الخلل العقلي في الاولاد والذرية واذهاب المال من غير نفع وانحطاط النفس عن القيام بوظائف الاجتماع فان مادة «الألكل» في هذه العصور قد عرف الكثير من اهل هذا الجيل مضارها في العقل والنفس والاجتماع وفي نظام التكسب وضعف النفس عن القيام بوظائف النفس والاقتصاد.

وقد اصبحت قبائح الخمر في هذا العصر واضحة من كل الجهات وكذلك القمار والميسر فانهما موجبان للتباغض وفقدان الثروة من كثير من الناس وعدم العمل بالوظائف الانسانية كما هو معروف في هذا العصر ولعل كثيراً من مضار الخمر والقمار لم تعرف إلى الآن.

ولما سأل المسلمون عن الانفاق عندما حرضهم رسول الله ﷺ جاءت الآية: «قل العفو»، والمراد من العفو على ما هو الظاهر من معناه هنا الانفاق من زيادة المال او الانفاق على حد الوسط من غير اسراف.

(آية ٢٢٠ إلى ٢٢٣) تقدم بيانها فراجع وسيأتي ان شاء الله بيانا لها على ممر الآيات.

(آية ٢٢٤ - ٢٢٥) «ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم».

قال الصادق عليه السلام: لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين فانه سبحانه يقول: «لا تجعلوا الله عرضة لايمانكم»، ان تكامل النفس وبلوغها إلى اوج الكمال مما يستدعي ان يعرف عظمة الله وان لا يجعله محل قسم صادقا او كاذبا فضلا عما يتخذه بعض الناس من لهجة لسانه او وسيلة لاعماله وكل ذلك من انحطاط النفوس وعدم وصولها إلى اوج الكمال ليعرف الحق وما يقتضيه شأنه.

(آية ٢٢٦ - ٢٢٧) مرّ بيانها.

(آية ٢٢٨) إنّ الآيات كما تعرضت لوجهة الطلاق وعدم جواز الوطىء في الحيض إلى غير ذلك من الاحكام إلاّ انها تضمّنت احكاماً اجتماعياً ونظاماً اخلاقياً فوق ما يفهمه

الكثير من بيان الاحكام فقط.

فان من امعن النظر في هذه الآيات وما تقدمها من بيان الاحكام يعرف بلطف انها تهدف إلى ما وراء الحكم الشرعي، من حفظ نظام الاجتماع والاخلاق وتربية النفوس وترقّي النفس إلى مرحلة لا يخطر ببالها المعصية فضلا عن الاتيان بالمعاصي او تصوراتها، فان الوقوع في المعاصي او تصوراتها والميل اليها، كله من اكتناف الخبائث وسوء الضمير للنفس والا فلو تخلّت النفس عن القبائح المعنوية وتحلّت بالفضائل امتنعت المعاصي من النفوس الكاملة ولم تتنزّل النفس إلى خبائثها وسوء ضمائرها.

فالآيات الشريفة ترمي إلى الاحكام وإلى تربيت النفوس وإلى تخلّقها بالخلق الفاضل.

(آية ٢٢٩ - ٢٣٨) هذه الآيات قد تعرضت لاحكام الطلاق والرضاع وحقوق الزوجة وجواز الرجوع بعد الطلاق والاخذ بالمعروف من طرف الزوج والزوجة فهي وان جاءت لبيان الأحكام الا انها لوحت وتوجّهت إلى الوجهة الاخلاقية والنظام الاجتماعي في السلوك والطلاق والرجوع وبيان حالات الآباء مع الأبناء وبالعكس وحالة الازواج بوجه أعلى ونظام اكمل فقد تأتي الآية في دلالة المطابقة في الاحكام وتشريع الوظائف وتفيد باعتبار الدلالة الالتزامية مايفيده علم النفس والتربية والنظام الاجتماعي.

(آية ٢٤٦ إلى٢٥٣) «الم تر إلى الملاء من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله» .

إنّ الملاء وهم اشراف بني اسرائيل ووجوههم طلبوا من نبي ذلك الزمان الذي تقدم ذكره الجهاد، لان الجهاد اساس قوام الدين والهداية والسيطرة على المخالفين من الظالمين على الحق فحذّرهم ذلك النبي الكريم انكم اذ طلبتم الجهاد وخالفتم ستكون العقوبة والانتقام حالّة بكم من الله تعالى، فاظهروا استغراب ذلك وقالوا كيف لانرغب بالجهاد وقد فرّق بيننا وبين أولادنا وأوطاننا.

ولماكان من دأب بني اسرائيل عدم الاستقامة على الهدى فلم يعللوا الجهاد بما هو المظهر الاساسي للدين وارجاع الناس إلى الحق وعللوه بما يرجع إلى رغباتهم من المخالفين لهم بان اخرجوهم عن ديارهم واوطانهم وفرقوابينهم وبين اولادهم ولماتوجه ذلك النبي إلى الطلب من الله بالجهاد وان الله امر عليهم طالوت ملكاً ظهرت غرائزهم

الخبيثة وان نياتهم على الجهاد لم تكن على الاصول الشرعية من ظهور الحق على الباطل وعقيدة التوحيد والايمان برسالة السماء فاستكبروا على طالوت واوامر ذلك النبي وكان من ضمائرهم وغرائزهم ان لا تكون الرئاسة الا لبيت الرئاسة.

ان طالوت لم يكن من البيوت المعروفة لديهم التي تستحق الرئاسة بنظرهم فذكروا او لا انه ليس من بيوت الشرف والمكانة والرئاسة عندهم.

وثانيا: انه لم يكن ذا مال فألفت الله نظر عباده ان النسب لا يعظم شخصية الانسان، بل الشخصية والكمالات الروحية قائمة بالعلم والعمل الصالح والكمال الجسمي هو القدرة والقوة، وقد أعطى الله لطالوت الكمال الروحي والفضيلة النفسية والشجاعة في البدن فبسطهما له.

وليس المال إلاّ كمالا عرضياً فقد يأتي وقد يذهب فلا يوجب شخصية لأحد بل الشخصية تدور بكمال الروح والجسد وهي فضيلة العلم والعمل وان له بسطة في العلم والجسم وهذه لها الاثر في القيادة.

ولما علم الله منهم سوء النية ابتلاهم بالنهر فما امتنع منهم الا القليل وهم الصالحون من عباده وظهر على الكثير ما اضمروه من النفاق والرياء لحب الجهاد وعند ذلك قتل داود جالوت وبعث الله لهم التابوت وهو اما التابوت الذي وضع موسى او غيره من الانبياء آثار النّبوة والسكينة والواح التوراة وقد جعل الله الطمأنينة فيه او فيما يتظمّنه التّابوت من الألواح والسكينة ليخرج الله وسوسة بني اسرائيل وانحرافهم عن الحق ولا تعتدل الامة إذا كان شعارها النفاق والرياء وحبّ المادة والغلبة على البشر وقد تركنا التعرّض في هذا المجلد لماذكره بعض المفسرين كمحي الدين العربي وغيره من تأويل الآيات على طبق الفلسفة الاغريقية وسيأتي منا ان التأويل لا يكون إلّا على من أنزل عليه القرآن لا مطلق التأويلات وبيان الرّد على ما أوّلوه.

والحمد لله اولا وآخراً واسأله التوفيق

لما يحب ويرضى، انه ولي التوفيق

« الفهرس »

تقديم ٥

اعجاز القرآن ٧
اعجاز القرآن عين التشريع ٧
اعجاز القرآن لا يختص بالبلاغة والفصاحة ٨

التشريع والتكوين ٩
رسالة النبي الكريم ﷺ هى منتهى الرسالات ١٠
الاسلام لم يأتِ بثقل على عاتق البشريّة ١١
التشريع الاسلامي يدعو الى العدل والاحسان ١٢

اعجاز القرآن ١٦
العقل البشرى في تفسير القرآن ١٧
القرآن باللغة العربيّة ٢٠
لا تفسير للقرآن ٢١
حدوث القرآن وقدمه ٢٣
القرآن ومعاجز الانبياء ٢٥
لا اختلاف في القرآن ٢٧

الفلسفة القرآنية ٢٩

المفسرون والتفسير ٣٢
ظواهر الكتاب ٣٣
لا تحريف في القرآن ٣٥
دفع شبهة ٤١

البداء عند الامامية ٤٥
النسخ ٤٧
موقف القرآن من التوراة والانجيل ٤٩
القراآت في القرآن ٤٩
المواضيع الكلية الّتي تعرض لها القرآن على وجه الاجمال ٥٠

التوحيد ٥٥
بيان وتحقيق ٥٦
الدليل على التوحيد ٥٩
صفاته تعالى ٦١
صفات افعاله ٦٢
ألوهيته وعبادته ٦٣
اضواء وتوضيح ٦٣
حكمته وتدبيره ٦٥

الجبر والتفويض والامربين الامرين ٦٧
نظرة حول رأى الاشاعرة ٦٨
الجواب من الفلاسفة عن الجبر والتفويض ٧١

القضاء والقدر ٧٣
النبوة ورسالة السماء ٧٤
الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ٧٤

الامامة ٧٧
الامام وصفاته ٨٠
امامة على عليه السلام ٨٢
الآيات الدالة على افضلية الامام على عليه السلام وعصمته ٨٦
الآية الاولى: آية المباهلة ٨٦
نظرة اخرى حول الآية الكريمة ٩١
حديث القصة ٩٤
الآية الثانية: آية الولاية ٩٥
ولاية على عليه السلام بعد ولاية الرسول صلى الله عليه وآله ٩٧
حديث الآية ٩٨
الآية الثالثه ١٠١
الفات نظر ١٠٣
الآية الرابعة ١٠٤
الآية الخامسة ١٠٧
الآية السادسة ١٠٨
بيان ١١١
الآية السابعة ١١٣
حديث آية التبليغ ١١٥
الروايات الدالة على امامة علي عليه السلام وخلافته حديث الغدير ١١٨
الامامة والخلافة عند الامامية ١٢١
النصوص من طرق الشيعة ١٢٣
بيان ١٢٤
رواية المنزلة وغيرها ١٢٦

لمعاد ١٢٧
لاسلام و شؤونه ١٣٠
لامر بالمعروف والنهى عن المنكر ١٣٣

افعال المكلفين..... ١٣٥
العبادات ١٣٧
التجارة والمكاسب..... ١٣٩
الاقتصاد..... ١٤١
تقديم في الاقتصاد..... ١٤١
الاقتصاد الاسلامى ١٤٣
نظرة حول الاقتصاد الاسلامى..... ١٤٤
قواعد الاقتصاد في الاسلام ١٤٦
نظرة حول الفوارق بين الاقتصاد الاسلامى وغيره ١٤٨
اخطار تحف الاقتصاد الاسلامى..... ١٥٢
الملكية في الاسلام ١٥٣
الاسلام والماركسية..... ١٥٦
هدف الاسلام واهداف الدول..... ١٥٩

الاخلاق..... ١٦١
الايمان والكفر ١٦٥
البسملة والحمد..... ١٦٧
البسملة..... ١٦٧
الرحمن الرحيم..... ١٦٨
الاتجاه الفلسفي..... ١٦٨
تفسير القرآن بعضه لبعض ١٦٩
الاتجاه في التفسير من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه ١٧٠
الإعجاز: الحمد لله..... ١٧١
الاتجاه الفلسفي..... ١٧٢
تفسير القرآن بعضه لبعض ١٧٣
الاتجاه في التفسير من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه ١٧٤
الاعجاز: رب العالمين..... ١٧٤

الاتجاه الفلسفي ١٧٥
تفسير القرآن بعضه لبعض ١٧٥
الاتجاه في التفسير من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه ١٧٥
الاعجاز: الرحمن الرحيم ١٧٦
الاعجاز: مالك يوم الدين ١٧٦
الاتجاه الفلسفي ١٧٧
تفسير القرآن بعضه لبعض ١٧٧
الاتجاه في التفسير من ناحية النبي و آله عليهم السلام واصحابه ١٧٧
الاعجاز: اياك نعبد واياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم ١٧٨
الاعجاز: صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ١٨٠
الاتجاه الفلسفي: بيان موقف العبد من ربه ١٨١
الاتجاه في التفسير من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه ١٨٣
تفسير القرآن بعضه لبعض ١٨٣
فاتحة الكتاب ١٨٤
فضل السورة ١٨٤

سورة البقرة (الجزء الأوّل) ١٨٦
الاعجاز (الآية ١ - ٥) ١٨٦
الاتجاه الفلسفي ١٨٨
الاتجاه في التفسير من ناحية النبي و آله عليهم السلام و أصحابه ١٩٠
القرآن يفسر بعضه بعضاً ١٩٠
الاعجاز (الآية ٦ - ٢٠) ١٩١
الاتجاه الفلسفي ١٩٥
الاتجاه من ناحية النبي و آله عليهم السلام و أصحابه ١٩٧
القرآن يفسر بعضه بعضاً ١٩٨
الاعجاز (الآية ٢١ - ٢٥) ١٩٨
رأي الفلاسفة في الجنة والنار ٢٠٠

الاتجاه الفلسفي..... ٢٠٢
الاتجاه من ناحية النبي وأهل بيته وآله عليهم السلام وأصحابه..... ٢٠٤
القرآن يفسر بعضه بعضاً..... ٢٠٥
الاعجاز (آية ٢٦ – ٢٩)..... ٢٠٥
الاتجاه الفلسفي..... ٢٠٧
الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام واصحابه..... ٢٠٩
القرآن يفسر بعضه بعضاً..... ٢٠٩
الاعجاز (الآية ٣٠ – ٣٣)..... ٢١٠
الفات نظر الملائكة بما لا يخطر بعقولهم..... ٢١٥
الاتجاه الفلسفي..... ٢١٦
الاتجاه من ناحية النبي و آله عليهم السلام و أصحابه..... ٢١٨
القرآن يفسر بعضه بعضا..... ٢١٩
الاعجاز (الآية – ٣٤)..... ٢١٩
الاتجاه الفلسفي..... ٢٢٠
الاتجاه من النبي و اهل بيته و اصحابه..... ٢٢١
القرآن يفسر بعضه بعضاً..... ٢٢١
الاعجاز (الآية ٣٥ – ٣٦)..... ٢٢٢
الاتجاه الفلسفي..... ٢٢٣
الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام وأصحابه..... ٢٢٥
القرآن يفسر بعضه بعضا..... ٢٢٦
الاعجاز (الآية ٣٧ – ٣٩)..... ٢٢٦
الاتجاه الفلسفي..... ٢٢٩
الاتجاه من ناحية النبي وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه..... ٢٣٠
القرآن يفسر بعضه بعضاً..... ٢٣٠
الاعجاز (الآية ٤٠ – ٤٤)..... ٢٣١
تعظيم انبياء بني اسرائيل وتكريمهم في القرآن الكريم..... ٢٣١
الاتجاه الفلسفي..... ٢٣٢

الاتجاه من ناحية النبي وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه ٢٣٤
القرآن يفسر بعضه بعضا ٢٣٥
الاعجاز (الآية ٤٥ – ٤٧) ٢٣٦
الاتجاه الفلسفي ٢٣٧
الاتجاه من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه ٢٣٨
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٢٣٨
الاعجاز (الآية ٤٨) ٢٣٩
الاتجاه الفلسفي ٢٤١
الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام واصحابه ٢٤٢
القرآن يفسر بعضه بعضا ٢٤٣
الاعجاز (الآية ٤٩ – ٥٧) ٢٤٣
الاعجاز (الآية ٥٨ – ٦١) ٢٤٥
الاعجاز (آية ٦٢ – ٦٤) ٢٤٦
الاتجاه الفلسفي ٢٤٨
الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام وأصحابه ٢٤٩
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٢٤٩
الاعجاز (الآية ٦٥ – ٧٦) ٢٥٠
الاعجاز (الآية ٧٧ – ٨٣) ٢٥٣
الاعجاز (الآية ٨٤ – ٨٥) ٢٥٦
الاتجاه الفلسفي ٢٥٧
الاتجاه من ناحية النبي وآله عليهم السلام واصحابه ٢٥٩
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٢٦٠
الاعجاز (الآية ٨٦ – ٨٨) ٢٦٠
الاعجاز (آية ٨٩ – ٩٣) ٢٦٢
الاتجاه الفلسفي ٢٦٥
الاتجاه من النبي و اهل بيته و اصحابه ٢٦٧
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٢٧٠

الاعجاز (الآية ٩٣ - ١٠١) ٢٧١
الاتجاه الفلسفي ٢٧٤
الاتجاه من ناحية النبي و آله عليهم السلام و أصحابه ٢٧٦
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٢٧٦
الاعجاز (الآية ١٠٢ - ١٠٣) ٢٧٦
الاتجاه الفلسفي ٢٨٠
الاتجاه من ناحية النبي واهل بيته عليهم السلام واصحابه ٢٨٢
القرآن يفسر بعضه بعضا ٢٨٣
الاعجاز (آية ١٠٤ - ١٠٥) ٢٨٣
الاعجاز (الآية ١٠٦ - ١٠٧) ٢٨٥
الاتجاه الفلسفي ٢٨٦
الاتجاه من ناحية النبي وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه ٢٨٨
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٢٨٩
الاعجاز (الآية ١٠٨ - ١١٢) ٢٩٠
الاعجاز (الآية ١١٣ - ١١٦) ٢٩١
الاتجاه الفلسفي ٢٩٣
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله عليهم السلام وأصحابه ٢٩٤
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٢٩٦
الاعجاز (الآية ١١٧ - ١١٩) ٢٩٦
الاعجاز الآية ١٢٠ - ١٢٣ ..... ٢٩٨
الاتجاه الفلسفي ٢٩٩
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه ٣٠٠
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٣٠١
الاعجاز (الآية ١٢٤ - ١٢٦) ٣٠٢
مقامات ابراهيم عليه السلام ٣٠٣
الاعجاز (الآية ١٢٧ - ١٣٤) ٣٠٦
الاسلام له مراتب ٣٠٦

الاعجاز (الآية ١٣٥ – ١٤١) ٣٠٩
الاتجاه الفلسفي ٣١٢
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه ٣١٥
القرآن يفسر بعضه بعضا ٣١٧
سورة البقرة ـ الجزء الثاني ٣١٨
الاعجاز (الآية ١٤٢ – ١٤٥) ٣١٨
نظرة حول القبلة ٣٢٤
الاتجاه الفلسفي ٣٢٦
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام وأصحابه ٣٢٨
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٣٣٠
الاعجاز (الآية ١٢٦ – ١٥٣) ٣٣١
الاتجاه الفلسفي ٣٣٥
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام واصحابه ٣٣٨
الفات نظر ٣٤٠
القرآن يفسر وبعضه بعضا ٣٤٠
الاعجاز (الآية ١٥٤ – ١٦٣) ٣٤١
الاتجاه الفلسفي ٣٤٥
الاتجاه من النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام وأصحابه ٣٤٨
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٣٤٩
الاعجاز (آية ١٦٤ – ١٦٩) ٣٤٩
الاتجاه الفلسفي ٣٥٣
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام واصحابه ٣٥٦
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٣٥٧
الاعجاز (الآية ١٧٠ – ١٧٦) ٣٥٧
الاتجاه الفلسفي ٣٦٢
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام واصحابه ٣٦٥
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٣٦٦

الاعجاز (آية ١٧٧ – ١٨١) ٣٦٧
الاتجاه الفلسفي ٣٧٤
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه ٣٧٥
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٣٧٦
الاعجاز (آية ١٨٢ – ١٨٦) ٣٧٧
الاتجاه الفلسفي ٣٨٥
الإتجاه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم واهل بيته عليهم السلام واصحابه ٣٨٨
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٣٩٠
الاعجاز (الآية ١٨٧ – ١٩٠) ٣٩١
الاتجاه الفلسفي ٣٩٦
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه ٣٩٩
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٤٠٠
الاعجاز (الآية ١٩١ – ١٩٦) ٤٠١
الاتجاه الفلسفي ٤٠٥
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم واهل بيته عليهم السلام واصحابه ٤٠٧
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٤٠٩
الاعجاز (آية ١٩٧ – ٢٠٢) ٤١٠
الاعجاز (آية ٢٠٣ – ٢١٠) ٤١٦
بيان للآيات الكريمة على وجه الاجمال ٤١٩
الاتجاه الفلسفي ٤٢٠
الاتجاه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم واهل بيته عليهم السلام واصحابه ٤٢٣
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٤٢٥
الاعجاز (الآية ٢١١ – ٢١٥) ٤٢٧
الاعجاز (الآية ٢١٦ – ٢١٩) ٤٣١
الاتجاه الفلسفي ٤٤١
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه ٤٤٧
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٤٥٠

الاعجاز (آية ٢٢٠ – ٢٣٠) ٤٥١
الاتجاه الفلسفي ٤٦٦
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام واصحابه ٤٧٠
القرآن يفسر بعضه بعضا ٤٧٥
الاعجاز (الآية ٢٣١ – ٢٣٣) ٤٧٦
الاعجاز (آية ٢٣٤ – ٢٣٧) ٤٨١
الاتجاه الفلسفي ٤٨٤
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام واصحابه ٤٨٧
القرآن يفسر بعضه بعضا ٤٩٠
الاعجاز (آية ٢٣٨ – ٢٤٥) ٤٩١
الاعجاز (آية ٢٤٦ – ٢٤٨) ٤٩٦
الاتجاه الفلسفي ٥٠٠
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام واصحابه ٥٠٤
القرآن يفسر بعضه بعضا ٥٠٧
الاعجاز (الآية ٢٤٩ – ٢٥٢) ٥٠٨
الاتجاه الفلسفي ٥١٠
الاتجاه من ناحية النبي صلى الله عليه وآله واهل بيته عليهم السلام وأصحابه ٥١٢
القرآن يفسر بعضه بعضاً ٥١٢
ختام ٥١٤
ايجاز واعجاز لما تقدم وتفسير على وجه الاجمال ٥١٤